



مفاهيم إسلامية

مقالات وفتاوى

السيد يوسف الرجوي

عضو جماعة كبار العلماء

المجلد الثاني

من مطبوعات مطبع البحوث الإسلامية



مفاهيم إسلامية

مقالات وفتاوى

الشيخ يوسف القرضاوي

عضو جماعة كبار العلماء

المجلد الثاني

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

المسألة

التي تمّ العثور عليها في المطبوع

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الجزء الثالث

النفسية

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ
أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (١)

معنى الآية من يتق الله فيما يأتي ويذر يجعل له مخرجاً ، أى مخلصاً
من هموم الدنيا وغمومها وشدائد الآخرة وأهوالها (ويرزقه من حيث
لا يحتسب) أى من وجه لا يخطر بباله ولا يكون فى حسابه (ومن
يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيته فى جميع أموره (إن الله بالغ
أمره) ممضيه ومنفذه ، فلا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب (قد
جعل الله لكل شىء قدراً) أى تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً وهو بيان
لما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه فإن الإنسان إذا علم أن
كل شىء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لم يكن منه
إلا التسليم القدر ، والتوكل عليه عز وجل - هذا هو إجمال التفسير

ثم نقول بتوسع كل من يتق الله يكون بمنجاة من كل شر ،
فإن الله مع المتقين ، ومن كان الله معه فلا خوف عليه فى الدنيا ولا فى

(١) مجلة الأزهر - العدد العاشر - المجلد الأول - شوال ١٣٤٩

(٢) سورة الطلاق الآية ٢ - ٣

الآخرة ، فقد أصبح من الذين تولاهم الله تعالى بفضلله وهو يتولى الصالحين ، بل من أولياء الله الذين قال الله فيهم (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(١) ثم بينهم بقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٢)

ثم ذكر أنهم مكفولون بعنايته مشمولون برعايته في الدارين فقال (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٣) ثم أكد ذلك بقوله (لَا تَبَايِلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ حَوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٤)

وستقول الملائكة لأولئك المتقين (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)^(٥) (نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)^(٦)

ومن كان في ولاية الملائكة في الدنيا والآخرة كيف يلحقه شر أو يعتره كرب

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسير هذه الآية « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » أخرجهم أبو يعلى وأبو نعيم والديلمى ، وأخرجهم الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، والبيهقي عن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة يونس ، الآية ٦٢

(٢) سورة يونس ، الآية ٦٣

(٣) سورة يونس ، الآية ٦٤

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٠

(٥) سورة فصلت ، الآية ٣١

يتلو هذه الآية : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

فجعل يرددها حتى نعت ، ثم قال « يا أيها لَوْ أَنَّ النَّاسَ كَلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَّتْهُمْ »

والتقوى هي : الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وإذا تدبرت أحوال الناس وجدت كل شدة ومحنة وهم وغم ، إنما جاءهم من تخطى الحدود التي أمرهم الله ألا يتعدوها ، والانحراف عن صراط الله المستقيم الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً للهوى وانقيادا للشهوات ، وقد قال تعالى (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(١) وقال (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)^(٢)

وأمرنا أن نطلب منه في كل صلاة بل في كل ركعة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط من أنعم عليهم ، وعرفنا أن المنحرف عن ذلك الصراط معضوب عليه إن كان يعرفه ، وهو من الضالين إن كان لا يعرفه

وجدير بمن ينحرف عن الصراط المستقيم أن يلقى كل خيال ووبال في الدنيا والآخرة ، فليس هناك إلا سبيل الله وسبيل الشيطان (وَمَنْ يَتَّخِذِ

(١) سورة ص الآية ٢٦

(٢) سورة الانعام ، الآية ١٥٣

الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مَبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١)

وما أرسلت الأنبياء إلا لتخلصنا من حبائل الشيطان وشباك النفوس
الأمارة بالسوء لتي توقعنا في كل شر وتبعدنا عن كل خير

ولو بحثت عن مصائب العالم كلها لوجدتها مسببة عن تورط
الأفراد ، أو الجماعات فيما تصبو إليه النفوس من الشهوات ويزينه
الشيطان من الآفات ، وقد بين الله ذلك حيث يقول (وَمَا أَصَابَكُمْ
مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) (٢) ويقول : (أَوْلَمَّا
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ) (٣) . ويقول (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) (٤)

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لا ينزل بلاء إلا بنذبة ،
ولا يرتفع إلا بتدبيرة : وقال بعض السلف وأظنه سفيان الثوري انى
إذا عصيت الله وجدت أثر ذلك فى خلقى حمارى وزوجتى ولعل هذه
معاملة خاصة يؤدب الله بها بعض من يحبهم من عباده حتى لا يخافوا
غيره ولا يعولوا على شىء سواه

ثم نرجع إلى حديثنا فنقول لا عاصم من نزوات النفوس التي
لا تعرف الاعتدال ، وإنما تعرف الإفراط أو التفريط ، ولا حافظ من

(١) سورة النساء ، الآية ١١٩ - ١٢٠

(٢) سورة الثورى الآية ٣٠

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٥

نزغات الشيطان الذى يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير إلا تقوى الله فى السر والعلانية فإذا اتقيت الله تعالى حفظك من مسايرة الأهواء ومتابعة الشهوات .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « احفظ الله يحفظك » وإن نابتك نائبة ، وأملت بك ملمة - على ما هو سنة الله فى هذا العالم - جعل لك فرجاً ومخرجاً والأمر كله بيده ، ومتى تعرفت له فى الرخاء عرفك فى الشدة

وقد قال بعض العارفين إذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدره عندك ، فعلى قدره عندك يكون قدرك عنده ، وعلى قدر ذكرك له يكون ذكره لك (فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)^(١) وعلى قدر عنايتك بطاعته تكون عنايته برحمتك

هذا وما وعد الله به المتقين جزاءً على تقواهم أيضاً أنه يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، أى من حيث لا يدبرون ولا يعرفون ، وهو القادر الذى يصرف الأمور على ما يريد ، ويسخر الجن والإنس والملائكة فيما يشاء . فيكفرون أعواناً أو مسخرين فى خدمتك ، ولا بدع فى ذلك . فالأرض أرضه والسماء سماؤه والملك ملكه (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٢)

وقد قيل لبعض الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى إننا لا نراك تشتغل بشئ فممن أين ترزق ؟ أمن السماء يأتيك رزقك ؟ فقال إن

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢

(٢) سورة يس ، الآية ٨٢

كانت الأرض ليست له رزقني من السماء ، ومن ذلك ما يحكى أن رجلا من أهل هذا المنام كان منقطعاً لله في مسجد من المساجد ولا يعرف له سبب ظاهر ، فقال له إمام المسجد يوماً من أين تأكل ؟ فقال له إنتظر حتى أعيده ما صليت وراءك .

بيان أن الشريعة جاءت بتعاطي الأسباب الدنيوية

وليس معنى ذلك كله أننا لا نتعاطى الأسباب الدنيوية ، فإن ذلك يخالف القرآن نفسه في مثل قوله (فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)^(١) ، وقوله (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة وينافي ما كان عليه صلى الله عليه وسلم في سنته العملية ، وما ورد عنه من سنته القولية في مثل قوله صلى الله عليه وسلم ، (إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)

ومن رمى الشريعة بأنها شريعة التواكل والتكاسل فقد جنى على الشريعة جناية كبرى ، فإن دين الإسلام دين العمل لا دين الكسل ودين الرقي والتقدم في كل شأن من شؤون الحياتين الجسمية والروحية لا دين الجمود والتأخر ، ويكفيه أنه حرم على ذويه أن يكونوا عالة على غيرهم في أصغر الأشياء وأحقرها ، وأوجب عليهم أن يكونوا بالذروة العليا من العزة القعساء والاستقلال التام ، حتى يكونوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

(١) سورة الملك الآية ١٥

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

الْمُؤْمِنِينَ سَابِغًا (١) ، (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٢) (وَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (٣)

ولو كان الإسلام على ما ظنوا لما ارتقى أهله في الصدر الأول على جميع سكان المعمورة ، ولما وضع رجلاً بالهند ورجلاً عمرا كمش أو نقول بالأندلس ، وتغلغل في أحشاء أوربة حتى وصل إلى « بردوا » من أرض فرنسة في أقل من قرن مما عجب له العالم ودهش له التاريخ .

ونعلنا نفيض القول في ذلك بعد ولكن إذا سرت معي على الإنصاف ، وكانت وجهتك تحقيق الحق ، ولم تكن محبوساً في سجن العادات ، ولا مقيداً بقيود الظواهر ، وكنت ممن يعلم أن العلم لا آخر له ، وأن قوانين الله في هذا العالم ليست محصورة فيما تعقل ولا مقصورة على ما تتخيل إذا وافقتي على ذلك وغلب عليك الإيمان والإيقان ، أمكنتني أن أقول لك إن شؤون الله كبيرة وقوانينه كثيرة ، وعلمه لا يحيط به محيط ، وقدرته لا تصل إليها الأوهام ، سبحانه لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

فلتعلم أن لله قوانين جسمانية وقوانين روحانية ، وأن القوانين الجسمانية التي بنيت على الأسباب الظاهرة والمسببات المعتادة ، هي التي خوطب بها السواد الأعظم ؛ لأنه لا يكاد يعرف غيرها ولا يستطيع أن

(١) سورة النساء ، الآية ١٤١

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨

يقوم بشيء سواها لكونه يحتاج إلى استعداد خاص أو عمل شاق أو شرط مجهول

وعالمنا هذا هو عالم الأسباب والمسببات ، وهو مظهر الحكمة الإلهية والقدرة الربانية بعد ذلك شئون أخرى وتصرفات لا تحصرها تلك الحدود المعروفة ولا تحكّم عليها تلك النواميس المقررة أو نقول التي وصلنا إليها والشريعة جاءت بكلا الأمرين وأشارت إلى كل من القانونيين لجهاني والروحي فجاءت بالأسباب الظاهرة وحشت عليها بل أوجبتها في قانونها العام الذي لا يعلو على استعداد أكثر الناس ، وحظرت عليهم ترك تلك الأسباب لأنهم من أهلها ولا يصلحون إلا لها ولكن حاطتهم بما يدفع سمومها ويحفظ من الشرك فيها . فقالت لهم كونوا في الأسباب ولا تغفلوا عن مسببها واعلموا أن زمامها بيده فإن شاء أنجحها . وإن شاء لم ينجحها . وإن شاء أرشدك . وإن شاء أضلك ، وإن شاء سهل لك من الأسباب الخفية ما يقرب إليك الغاية وهياً لك من الوسائل التي لا تقدر عليها ما يحقق لك البغية فليكن شعارك الاستعانة بالله والالتجاء إلى الله وهجيراك في كل حال « لا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ »

عرفنا الدين ذلك كله كى نكون متوكلين في الأسباب فتكون قلوبنا معه لا مع الأسباب

وأما من ظن أن التوكل ينافي التسبب فقد غلط غلطاً كبيراً . فإن الله يقول (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)^(١) فجعل التوكل بعد العزم

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

ويقول عليه السلام « أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » فنحن مأثورون بالتوكل في كل أحوالنا وجميع أعمالنا

والتوكل عمل الباطن والتسبب عمل الظاهر ، ولا منافاة بين عمل الباطن وعمل الظاهر . والتوكل لازم من لوازم الإيمان . كما قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فكيف يفارقه في حال من الأحوال

ولنعد إلى صدر الموضوع فنقول

هذا الفريق جعله الدين في الأسباب الظاهرة ، وأمرد بها بعد أن أدخله في حصن التوحيد وسلحه بسلاح المعرفة

بيان ان الشريعة جاءت بالقوانين الروحية

ولكن من نظرقى الشريعة وجدناها لم تقتصر على ذلك بل جاءت بقانون آخر من قوانين الله تعالى ، وأشارت إلى ذويه فقالت : يقول الله تعالى في الحديث القدسي « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » ويقول تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ^(١)) . ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » ولاداعي للعدول عما يتبادر منه

ويلحق بهذا قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(٢) وقوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا

(١) سورة الفلق الآيات ٢ ٣

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٦

مَنْ فَوْقِهِمْ وَسَبَّحْتَ أَرْجُلِهِمْ» (١).

ومما يتحقق به أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ» ويمت إلى ذلك بشيء من المناسبة قوله تعالى في الحديث القدسي «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»

ومن كان الله سمعه وبصره لم يكن رجلاً عادياً ولا الأمور بالنسبة إليه على نحو ما يعرفه الناس ومن لهذا الوادى على قرب أو بعد قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَعَمْرُ» وقد ورد أبيض هذا اللفظ.

والخلاصة في هذا المقام أن هناك قوماً انقطعوا إلى الله تعالى بظواهرهم وباطنهم ، فلم يبق فيهم متسع لغيره ، فهؤلاء لهم من الله تعالى عناية خاصة ومعاملة لا يقاس عليها ، فأمرهم غير جار على تلك القوانين العامة ، بل لهم قانون يختص بهم ولا يتعداهم إلى من ليس في درجتهم من اليقين ولا منزلتهم من الثقة بالله

هؤلاء تنخرق لهم العادات فيأتيهم رزقهم عفواً من غير أن يشتغلوا بالأسباب المعروفة ، أو يكدحوا كدح العامة ، بل يتولى الله ذلك عنهم فيرزقهم من حيث لا يحتسبون .

وقد قلنا إن الأمور كلها بيد الله يصرفها كيف شاء ، والخلق كلهم عبيده يسخرهم فيما يشاء ، والسموات والأرض تحت حكمه يفعل فيهما ما يريد

ولله في خلقه قوانين لا يعرفها كثير من الناس ، فمن ظن أنه لا يرزق إلا بالأسباب كما هو حال العامة لم يرزق إلا بالأسباب ، وهؤلاء هم الذين أمروا بأن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من فضل الله ، وأن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه

ومن سقطت الأسباب من نظره وغلب عليه الركون إلى الله والثقة بالله ، كان من الفريق الثاني الذي يرزقه الله من حيث لا يحتسب لأنه بلغ من اليقين ما تنفع به الأشياء

ولنقل بتوسع - وما أجدر هذا المقام بالتوسع - إن لله قوانين كثيرة والناس يجهلونها تمام الجهل :

أما المسلمون فقد جهلوا اليومَ قوانينَ الله الدينية والدينية والروحانية والجنانية

وأما الأوروبيون فقد جهلوا قوانينه الروحية والدينية وان كانوا أعلم الخلق بقوانينه الدنيوية ، لأن القوانين الروحية لا تؤخذ إلا عن الأنبياء والمرسلين في مثل قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ^(١)) وقوله (أَدْعُونِي أَجْتَجِبْ لَكُمْ ^(٢))

ولعل قائلًا يقول : نرى كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم ، ونرى من المشاهدات أن الذي لا يأخذ في الأسباب

(١) سورة الطلاق الآية ٣

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٠

ولا يتعاطاها لا يصل إلى المسببات ، فهل فيما يقول النبي صلى الله عليه وسلم خلف؟ وهل فيم يقول الله تعالى ريب؟ ! كلا، أمر الله لا ينخرم ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم لا يتخلف ، ولكن هذه الأسباب الروحانية غير المعروفة مشروطة بشرط لم نحققها تمام التحقيق ولو حققناها شروطها لترتبت عليها غاياتها

ضعيف اليقين لا يمكن أن يرزق إلا بالأسباب ولا يصل إلى شئ إلا بوسائله المعروفة ، وربما عمل أسبابا كثيرة فشقتها الله له فضلت ولم تنجح ، فالأوربي مثلاً ومن على شاكلته إذا قال إن الذى لا يعمل كذا لا يحصل له كذا ، ويعد حديث التوكل والتقوى من الخرافات معذور فيما يقول لأن الأسباب الروحانية كما قررنا مشروطة بشروط وهم لا يعرفونها وزادهم رسوخاً فيما يعتقدون أنهم نظروا في أهل الأسباب فوجدوهم متفاوتين على حسب تفاوتهم في إتقانها والتفنى فيها ، فكل من كان أعظم إتقاناً للأسباب وأشد تعلقاً بها كان أقرب إلى تحصيل نتائجها وكل من كان أعظم تفريطاً في الأسباب كان بعيداً عن تحصيل الغايات منها « هو الإمداد على قدر الاستعداد » فأولئك هم أرباب الأسباب الحقيقية ولو تركوها ناتوا « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَ شَرٌّ »

ثم نظروا من جهة أخرى فوجدوا أهل البطالة من هذا الفريق الذى يجب عليه تعاطى الأسباب ولا يعيش له إلا بها . نظروا إليهم فوجدوهم من أسوأ الناس حالاً وأنكداهم عيشاً ، ولم يعلموا أن هناك

قوما آخرين ليسوا من هؤلاء ولكن لهم شرط صعب المركب ، وهو أنه لا بد أن يبلغوا من اليقين كما قلنا إلى درجة يسقط معها في نظرهم كل نبي إلا الله تعالى فهؤلاء ممتضى ذلك اليقين التام يجوز أن تنخرق لهم الأسباب فيسخر الله لهم الخلائق ويسهل لهم الأمور من حيث لا يحتمسون ولا يدبرون فإن الأسباب لاتحكم على الله تعالى ، بل هو الحاكم عليها وإما هي ناموس من نواميسه عز وجل ومظهر من مظاهر قدرته وإبداعه الحكيم وتصرفه الواسع . فإله تعالى يفعل في الأسباب والنتائج ما يشاء

فالمسألة بالنسبة للخاصة هي أنه يجوز أن يخرق لهم العادات وبالنسبة له تعالى هي أنه يفعل ما يشاء . وقد قيل لبعضهم إن بعض الأولياء مشى على الماء ، فقال لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء وسر هذا هي مسألة اليقين الصحيح وقوته وكان بعض الصالحين يقول كانت تختلف أحوالي فجئت مرة إلى الماء فحدثني نفسي أن أمير عليه فقلت في نفسي أيمكنني أن أمير على الماء أم لا ؟ فوضعت رجلي فكادت أغرق ، والسبب في ذلك واضح لأن الشك داخل نفسه ، ومتى داخله الشك زال اليقين

وأن القارئ الكريم ليعرف من معجزات الأنبياء ما هو أكثر من هذا وأعظم . وهذه القرائن لا يصدقها المادى ولا يقول بها . ويعجب كيف ينسب على هذه الاعتادات الغايات العجيبة ولا يمكن أن يفهمها ، لأنها كما قلنا لا تتلقى إلا عن الأنبياء ، وهؤلاء الخاصة أرباب هذا المقام لهم حكم خاص لا يخاطب به العامة لأنهم لا يعرفونه أو لا يقدرون عليه وإن كان ثابتاً في نفس الأمر تابعاً لناموس آخر مجهول لدى السواد الأعظم . ولا داعي لأن نتوسع أكثر من هذا

تكميل يقتضية المقام

ذكر كثير من المفسرين في سبب نزول الآية ، أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أسر أبى ، وشكاً إليه الفاقة ، فقال له : « اتَّقِ اللَّهَ ، وَاصْبِرْ ، وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » . فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن تستكثرى من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعلنا يقولان ذلك ، فبئس هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه سرح من الغنم غمّل عنه العدو فاستاقه ، فنزلت هذه الآية .

هذا ولهم عبارات فى تفسير التقوى ، فقال بعضهم هى ألا يراك حين نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، وقال آخر هى التبرى من الحول والقوة وقال غيره هى : التنزه عن كل ما يشغى السر عن الحق ، حتى قال قائلهم ولو خطرت لى فى سواك إرادته على خاطرى سهوا حكمت بردتى

وهذه المرتبة أ ما يقرب منها هى التى قال فيها القائل

خل الذنوب كبيرها وصغيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقد قال صلى الله عليه وسلم « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَاراً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » أخرجه الترمذى ، ولعل

هذه المرتبة هي التي تراد من الآية وإلا فالتقوى من الوقاية وهي مراتب باعتبار ما يتقى من المضار ، فهي متفاوتة تفاوت الأضرار التي تنتميها ، ولذلك تراهم في بعض المقامات يقسمونها إلى درجات ثلاث التوقى عن الشرك وهي لعامة المؤمنين ، والتوقى عن الكبائر « ومنها الإصرار على الصغائر » وهو لصلحاء المؤمنين ، والدرجة الثالثة وهي المرتبة العليا وهي ما سبق الكلام فيها ، وقد أشار إليها حديث الترمذى الذى ذكرناه ، ولعل هذه المرتبة هي التي ينبغى أن تفسر بها الآية الشريفة كما قلنا ، ولنقف هنا فقد طال بنا الكلام

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرِ فِي الدِّينِ ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَالْإِلْتِجَاءَ إِلَيْهِ مِنْهُ وَكَرَمَهُ

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^(١)

قال الله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

مقدمة

قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل ودلتنا أسرارُه التي أودعها في مخلوقاته على علمه الذي لا يتناهى وحكمته التي لا تحيط بها العقول ويمكنك أن تتعرف ذلك من نفسك عما أودع فيك من ريتين للتنفس وأسنان للطحن ومعدة للهضم وكبد لإفراز الصفراء وكليتين لإفراز البول ، ومسام جلدية لإفراز العرق ، ومنخ للإدراك ، وما نظمه فيك من شرايين وأوردة وعصب وعضل وعظم وكرات بيضاء وكرات حمراء ومن أعين تبصر بها وآذان تسمع بها إلى آخر الحواس الخمس . إلى غير ذلك مما لا ينأى عليه العد ولا يبي به البيان

وكل ذلك لغايات جليلة أدهشت العلماء وحيرت الباحثين ثم انظر بعد ذلك ما أودعه في العالم من نبات وحيوان وهواء وماء وأرض وسما ، وما في ذلك من أسرار باهرة وحكم عالية كل ذلك يدنا دلالة قطعية على أنه العليم الحكيم القادر العظيم فضلا عما يمليه علينا الإيمان بما جاءت به الرسل الإلهية

(١) مجلة الأزهر - الجزء السادس - المجلد الثاني - حمادى الآخرة ١٣٥٠

والآية من سورة الأنبياء ، ٢٣

والآتية السماوية من أسماؤه الحسنى وصفاته العلى فإذا رأيت مثلاً - عالماً مجروماً، وجاهلاً مرزوقاً أو فاجراً معافى يمرح كما يشاء وصالحاً قد أحاطت به أنواع البلاء إلى آخره ولم ينفذ نظرك المقصور على الظواهر إلى إدراك سر ذلك، ولم تعرف الحكمة فيه أوجب عليك الدليل القاطع أن تثبت المعجز عن معرفة الحكمة إلى نفسك لا أن تشك في حكمة الحكيم عز وجل

وإني ألفت نظرك إلى أن طلب لية الأفعال والبحث عن علتها موجب للشرك والكفر؛ لأن العقول البشرية قاصرة عن إدراك حكمة الله في مخلوقاته

[وما كفر المانوية والثانوية إلا بخوضهم في مثل ذلك] فلما حكموا عقولهم الضعيفة وآراءهم الفاسدة قالوا: إن للعالم إلهين: إلهاً للخير وإلهاً للشر؛ لأن إله الخير لا يكون مصدراً للشر، وإله الشر لا يكون محلاً للخير، وقد غفلوا عن أن الحكمة الالهية لا يحيط بها محيط وأن الشر قد يستتبع الخير، وقد يكون وجود الشر الجزئى واجباً في نظر الحكمة وأن المراعى في ذلك هو النظام العام لا خصوص الأشخاص وأعيان الجزئيات، ولم يفتنوا إلى كمنون الشر في الخير ولا إلى أن الشر قد يكون شراً في نظرم لا في الواقع (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١)

هذا واعلم أن، تفسير العلماء خصوصاً الأشاعرة في هذه الآية يرجع إلى أن المالك يتصرف في ملكه كيف يشاء ، ولا بد أن يدور بنفسك عندما تسمع ذلك-حديث طويل وإن كنت لا تجرؤ على إظهاره فتسكت أمامهم مقتنعاً بما حدثوك به فيما يظهر منك ، وأما باطنك فيكون فيه من المحاورات والمنازعات ما لا تطمئن معه نفسك ولا يسكن له جأشك ، وقد قال لي بعض العصريين: هذا يمكن أن يكون جواباً عن الملوك المستبدين وما يفعلونه مع رعاياهم ، فأرشدته إلى ما اقتنع به واستحسنه جداً ، وإنه لحسن فيما أراه والفضل لله

وإني أعم أنك تارة يشرق قلبك بما يفاض عليه من نور سماء روحك فتعجب به كل الإعجاب ، وتارة تنزل إلى أرض طبيعتك الكثيفة التي يمكن دوائرها أن تمسك تلك المعاني السيالة ولا يتأني أن تنتمش تلك العلوم اللطيفة في تلك الأرض الكثيفة ، ولا أن يزن ميزان أحجارها تلك الأسرار لمزيد رقتها ، وعند ذلك يلزمك أن لا نذهب إلى تلك الأرض إلا وببيدك معول البراهين الكثيفة حتى تستطيع أن تؤثر في أحجارها أيديك الله

ذكر احتمالات قريبة في الآية :

أقدم لك ههنا في بيان المراد من الآية ما يقرب تناوله ويطيب جناه ثم نتبعه بشرح ذلك السر الذي نوهنا عنه إن شاء الله .

يمكنك أن تقول إن المراد تقرير كونه تعالى حكماً بالغ الحكمة

فلا يسأل عما يفعل ، ثقة بحمته بحيث لا يصح أن يرتاب فيما يفعل ولا يتهم فيما يحكم ، فإن قولك لم فعلت يشعر بتهمة وريبة ، فيريد الحق تعالى أن يكون عبده ممتلىء القلب بالعلم بحكمته ، فائض النفس باعتقاد رحمته ، فيكون غارقاً في التسليم له والتفويض إليه ، فلا تتحرك نفسه مع تلك العقيدة بسؤال ولا يلم بها أدنى خيال

يا حاكمى وحكىمى
أفعالك الككل حكمة

وكان كثيراً ما يقول بعض العارفين (إذا كنت لا تعرف الحكمة فقلد من يعرف الحكمة)

وكم رمت أمراً خرت لى فى انصرافه فلازلت بى منى أبر وأرحما

أو تقول إن المراد تقرير العظمة ، وأن الآلهية بحيث يجب لنوعتها العليا أن لا يجروا على سؤالها أحد لا من حيث أنها تعمل عمل المستبدين من السفهاء وأرباب الأهواء ، بل من حيث إنه يجب لعظمتها التلاشى والاضمحلال والقيام بأجل آداب العبودية

أما تراك - أيدك الله - تستقبح من عبدك بل خادمك أن يسألك عن وجه ما فعلت وسر ما قضيت ، وتعتبر ذلك من سمات عدم الوثوق بك أو الجراءة عليك أو الريبة فيك أو عدم الحياء منك ، وأن واجب العبودية الانقياد والامتثال ، ثقة بحكمتك وبعد نظرك وقياماً بما يجب لعظمتك وسيادتك ، وأنه أقل من أن يفتش على ما تنويه أو يراقب ما تقضيه ، بل يجب عليه بعد هذا الامتثال الظاهرى أن

يكون خاضع القلب مطمئن النفس هادىء السر ، علماً بما لك من صفات الكمال التي لا يبلغ نظره مداها ويحسر بصره دون غايتها ؟

وقد قيل في (عيينة بن حصن الفزارى) إنه إذا فزع بسيفه فزع معه مائة ألف سيف لا يسألونه عما دعاه إلى ذلك . أفترى هذا إلا قياماً بواجب عظمته ، أو ثقة برأيه وبعد نظره ؟ ولا تزال العرب تمدح بمثل ذلك ، وقد قال الفرزدق في زين العابدين رضى الله عنه مادحاً له يغضى حياءً ويغضى من مهابتة فلا يكلم إلا حين يبتسم

وقال بعض المدنيين في مالك رضى الله عنه

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والحاضرون نواكس الأذقان إلى غير ذلك. فما بالك برب الأرباب ، ومالك الرقاب ، كيف يختلج في نفس عبده . يخاطر وقد علم أنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين

ورب العالمين يستحيل عليه العبث والخطأ ويتنزه عن كل نقص ويجب له كل كمال قال بعض الأجلة (كيف يستغرب ذلك وفي القوانين الحريسة أنه لا يباح للمأمور أن يتباطأ في امتثال الأمر ، وأنه لو قال له لم ؟ لكان جوابه إطلال دمه) وليس معنى ذلك أن القائد يفعل ما يشاء على ما يقتضيه العبث أو تشير به الأهواء بل لمعان أخرى ووجوه يجب أن تعتبر في الحكمة وواجبات المقام

ويممنا أن نقول بعبارة أخرى إن هذا يراد به تعليمنا حسن الأدب مع الله تعالى حتى نقلده في كل شئ ، فنطمئن في كل ما يأمر ونذعن لكل ما يريد فنعمل الأعمال كلها بالإذعان والاطمئنان ، وإذا تربت فينا تلك الملكة فسارعنا إلى الامتثال ولم نتباطأ فيها

يأمرنا به من الأعمال ، سعدنا سعادة كبرى وكنا كالأطفال الذين وثقوا بأبيهم الحكيم وعلّموا أنه لا يريد بهم إلا الخير ، وقد عمل هو على تمكين ذلك من نفوسهم فأصبحوا «لا يبحثون وراءه عن شيء» ، عالمين حسن نيته وبعد حكمته ومزيد رحمته فليس هناك شك يعوقهم عما يريد منهم ولا بحث يؤخرهم عن استفراغ همهم وأوقاتهم فيما ينويه من سعادتهم ولو أنه أرجعهم إلى البحث عن أسرار الأمور وخفايا المقاصد ودخائل الأشياء لكان قد أعدهم لقلق النفوس وحرَج الصدور والتباطؤ في بعض الأعمال تارة والامتناع عنها تارة أخرى فكان من مصلحتهم وموجبات سعادتهم أن يريهم على أن لا يراجعوه فيما يأمر ولا يسألوه عما يريد إلا إذا تبرع هو - ونه النظر الأعلى - ببيان الحامّة وإلا فهو أعلم منهم وأرحم بهم عالماً أن في هذا قضاء حقه وحقوقهم معا

وليس يغيب عنك سبب الخذلان الأبدي لإبليس وأنه ليس إلا ما كان من اتهامه لحكمة الحامّ وجراءته على ربه العظيم ورجوعه إلى استحسنانه لا إلى إيمانه وإيقانه وتحويله على قيامه الفاسد ونظره الكاسد.

ويمكنك أن تقول : إن المراد بالسؤال المنقّى سؤال التسلط والاستيلاء فلا يسألّه تعالى أحد بطريق الاستيلاء عليه بخلافهم فانهم يسألون عن كل ما يفعلون من قبله تعالى ، فانه الحاكم عليهم والمتصرف فيهم تصرف السيد في عبده والمالك في ملكه ، فكأنه يقول إن له العزة ، ولّم الذلة

فهذه احتمالات قريبة في الآيه يمكنك أن تكتفي بها وتطمئن إليها

ولا بأس أن نلتمت نظرك بعد ذلك إلى أمر بديع وهو أن من الحكمة أن تنظر في حال السائل الذى يطلب منك الجواب قبل أن تجيبه حتى إذا كان يناسبه الجواب ولا يعلو عن استعداده أقررتَه على السؤال وشفيت غلته بما يريد من الجواب ، وإذا كان لا يمكنه أن يفهمه كان من علوم طبقة أخرى غير طبقتَه كان ذكره عبثاً وربما كان ضرراً كبيراً عليه

وقد عرفنا صلى الله عليه وسلم أنه « مَا مِنْ رَجُلٍ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِغَيْرِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ عُمُومُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » وقد قال الإمام مالك رضى الله عنه فى حق من سأله عن قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) « أخرجوا عنى هذا المبتدع فإنه شيطان » .

ولو سألك ابنك الصغير عن مسألة عالية فى العلم تتعلق بفروع كثيرة ولو ذكرتها له أضر ذلك بعقله أو عقيدته وكان كالمرضى الذى يأكل الأطعمة الدسمة التى لا يستطيع هضمها ، فليس من الحكمة أن تذكر له جواب تلك المسألة ، بل من الحكمة أن لا تدعه يقرع باب السؤال فى مثل ما سأل فيه

ومن المعلوم أن فعل كل أحد يصدر منه على قدر علمه حتى أننا نستدل بإتقان الصنعة وحسن تنميقها على مزيد علم الصانع ؛ فإذا فعله تعالى على قدر علمه ، وعلمه على قدر ذاته ، وذاته ^{لل} تحييط بها العقول ، فكذلك علمه ، فكذلك فعله

فنحن فى حجاب عن الكل ، ونزيدك ههنا أن الوجود كله سلسلة واحدة تتجاذب أجزاءها وترتبط حكمها وأسرارها على وجه لا يحيط.

به إلا الله الذى لا تتناهى كمالاته ولا تنحصر معلوماته ولا تفهم أسرارهِ فى مخلوقاته ، لأنها مترابطة وغير متناهية ، فلم يمكن إدراكها على التحقيق إلا له تعالى ، والفعل الإلهى الذى أتقن بالعلم الإلهى كيف يمكن أن يصل إليه علم البشر القاصر الضعيف .

وإذا رأيت صنعة متقنة فلا يمكن أن تعرف كل ما فيها من الأسرار والدقائق حتى يصير علمك مثل علم صانعها ، وإلا فهناك ما لم تعلمه ، وعلمك إنما خلق على قدر أفعالك التى تراد منك لا على قدر أفعاله تعالى ، فإن ذلك يعلو عن استعدادك ولا يناسب درجة علمك ، ولكون أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض وهى غير متناهية كانت العلوم لا تنقف عند حد أصلاً ولا تزال تخرج من شئ ويزداد الأول بالثانى وضوحاً لما بينهما من المناسبة ، والثانى بالثالث انكشافاً ، وهكذا حتى يلوح للناظر فى بعض الأوقات ذلك السر البديع وهو أن الأشياء مدبرة معاً وأنها ترجع إلى قانون واحد سار فى كل المخلوقات

يلوح له ذلك البرق فيجده قد قذف به فى بحر لا ساحل له وعلوم لانهاية لها ، يشابك موجهها وتتوالى بروقها ثم تشرق عليه كواكبها فيعشى بصره وسط تلك الأضواء ويدعش لبه من مظاهر تلك الحضرة القعساء ، فبينما هو مبهور فى ذلك الملكوت إذ سمع صوتاً كأنه سلسلة على صفوان وإذا بمناد ينادى من وراء حجب الجيروت (قَدْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا^(١) فلما تجلت له تلك العظمة صارجيل عنله دكاً وخر كل شئ فيه صعقا، فإذا أفاق من غشيته وتنبه من دهشته (قَالَ مُبْحَانَكَ تُبِتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)) ثم أنشد

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم في دوران الفلك
فلا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

فعلم إذ ذاك أنه وصل إلى سدرة المنتهى وأنه او تقدم أتملة لغرق في بحار الاحوار واحترق بسبحات الواحد القهار فقال انفسه « ليس وراء عبادان قرية » فهنا ينتهي علم الملائمة المقربين وأرواح الصالحين من المؤمنين فرجع أدراجه يطوى السماء طايا ، وقد عزم أن يُنْتَبِذَ من أهل بيته مكاناً شرقيا ، وعلم أنهم إنما ينظرون إلى الحلقة الأخبيرة من سلسلة الوجود، وإن تخطوها فيلئ حد محدود، يقف بصرهم الكليل وعقلهم الضئيل فينقطعون أثناء الطريق لا محالة : « وَلَا يُنْبِتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »

ثم لا يزال ذلك الروحاني الكريم ينزل من ماء إلى سماء ويشاهد من عوالم الملك، والملكرت ما يعرف وما لا يعرف حتى اذا صار بين الروح والجسد يريد أن يقرع باب القواد من ذلك العالم إذ لاحت منه التفاتة وهو في ذلك المقام إلى ما بين سماء المعاني وأرض المحسوسات فوجد تلك لآية مكتوبة وسط الهواء بحروف من نور تمتد صاعدة

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٠٩ (٢) سورة الاعراف ، الآية ١٤٣

إِنِّي السَّمَاءُ وَنَازَةٌ إِلَى قَرَارِ الْمَاءِ (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوهُنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَّاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)^(١) فَأَدَهَشَهُ مَا رَأَاهُ وَعَرَفَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ

ثم وجد نفسه تشفق إلى عالم الكشافة عندما كاد يقضى عليها جمال عالم اللطافة غاشتد في قرع باب الفؤاد ودخل في سجن عالم الأجساد وقد اضمحل وثلاثي ثم رجع إلى حده من العلم ومركزه من التهم فوقف عند الظواهر وما تعداها ، بل اقتنع بما وصل إليه من رشاش ذلك البحر وقد نقش على صفحات قلبه ذلك الخطاب الإلهي (وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٢)

الخلاصة :

فالخلاصة ان الآية مسوقة لبيان عظمة الألوهية في سعة علمها وعدم تناهي أمرارها وأن ذلك يعنو عن حد الإدراك ويرتفع عن متناول الطاقة البشرية ، فإن للإلهية شأناً آخر لا تدركه العقول ولا تصل إليه الأفهم فإنها مقصورة على إدراك شؤون الحوادث التي تماثلها ولا تتعدانا إلى شؤون الربوبية ، فذلك يتوقف على تناسب في الصفات وتماثل في الحالات ، وإن نسبة علمك إلى علمه كنسبة قدرتك إلى قدرته ، ونسبة ذاتك إلى ذاته ، فله في كل شئ من باطن العلم سر ، والسر ما ليس لنبي مرسل ولا ملك مقرب مما يناسبه ويكون على قدره وهو الكبير المتعال

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢

فليس لك من العلم بالأشياء إلا درجة تناسبك، وتقف بك عند ظاهرها ، وفوق درجتك درجة من فوقك من الخواص ، إلى أن تصل إلى درجة في العلم مختصة به تعاكس تناسب الإلهية لا يشاركه فيها أحد (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ)^(١) وهو من لوازم الإلهية التي تجب لها الوجدانية في كل شيء .

ميساعن الخوض في سر القلب علماً منه صلى الله عليه وسلم بأن النفوس لا تقف عند الظاهر بالنسبة إليه ، ولا تزال تتطلع للوقوف على باطن الأمر فيه ، وهي لا تطيقه لأنه فوق رتبته ، فوقها عليه السلام عند حلها وحظر عليها أن تسير في تلك الغياهب ثلثا تفضل ضللاً مبيناً

وقد خلقت العقول على حد محدود كالحواس ، فكما لا يصح أن تجهد بصرك كي يرى الهواء الذي ياق ويلطف عن رؤية الأبصار كذلك لا يصح أن تطمع في أن تكنته اسرار الأفعال الإلهية كما هي لدى الحضرة العلية

فسره فما يقتضيه وحكمته فيما يفعله على الوجه التام مما يختص بالألوهية ، فلا بد أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك

من أنت يارسطو ومن	أفلاط. قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ	ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الضرا	ش رأى السراج وقد تـ قد
فأحرق نفسه	ولو اهتدى رشدا لأبعـ

وقد قيل لإيَّاس - وهو الذى تضرب بذكائه الأمثال « ما رأيك فى القدر » ؟ فقال « رأيى رأى ابنتى » وإنك لتلمس من كلمته هذه كلمة الرجل الساذج الذى لا يزيد علمه على علم ابنته برهاناً ساطعاً على ذكائه حيث لم يتعد طوره ، ورحم الله امرئاً عرف يقدره

هذا مع العلم بأنَّ الفعل فى حجاب عن العقول كالذات والصفة فكما لا تعرف كنه ذاته لا يمكن أن تعرف كنه صفاته ولا كنه أفعاله وهى لوازم مرتبة ، ومع العلم بأنَّ أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض على تدبير عجيب وأسلوب غريب وأنها لاتتناهى ، فإذا لا يمكنك أن تعرف ما هو الفعل ولا كيف يكون الفعل ؛ لأن ذلك من الخفاء فكان الصغيات ورتبة الذات على ما حققناه ، ولا أن تعرف سر الفعل على التحقيق ؛ لما عرفت من أن درجتك لاتسمح لك بذلك ، وأن اكتناه لأشياء ما لا غاية وراءه من خصائص الألوهية ، ولما علمت أيضاً من أن أسرار الوجود متجاذبة وغير متناهية ، ولا قدرة لك على ما لا يتناهى هذا ولك أن تجعل الآية واردة فى خصوص سر القضاء والقدر الذى سبق لك ذكره ، فهو لا يسأل عما يفعل لا لمزيد القهر والاستيلاء ولا لوجود العيب وعدم الحكمة « تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا » بل لرحمته بك كى تقف عند حدك حيث لم تكن مستعداً لفهم الجواب والوصول إلى ما تتوق إليه نفسك التى تريد أن تتجاوز درجتها وتتعدى غايتها

هل السموات هي الكواكب؟^(١)

س ورد إلى إدارة المجلة هذا السؤال من حضرة صاحب الإضاء
وعبارته بعد الدباجة وبعد فترجو نشر ما يأتي مع جواب فضيلتكم
عليه في مجلة الأزهر الغراء ليكون النفع عذما والفائدة شاملة يقول
بعض الناس إن السموات السبع هي الـ واكب السبعة السيارة
ونظن ذلك بعيداً لما يأتي

معلوم أن هذه الكواكب بينها فروج والقرآن الكريم يقول
(وما لها من فُرُوج)^(٢) والقرآن الكريم يقول : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)^(٣) أي بالكواكب، وما به الزينة غير ماله الزينة قطعاً ،
وإلا كانا شيئاً واحداً وقال تعالى (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
الشَّمْسُ سِرًا - نًا)^(٤) . ومن المعلوم أن المجمعول غير المجمعول فيه
نرجو من فضيلتكم تحقيق المقام بأوسع ما يمكن . والإجابة على
ما تقدم بما يعارض ذلك الرأي ، ونسأل فضيلتكم هل تعتقدون
ما يعتقده هؤلاء ؟

وما مقصودنا من ذلك كله إلا معرفة ما يجب أن ندين الله به . معرفة
تامة لا تشوبها شائبة ، وفقكم الله وحفظكم .

عبد السلام احمد

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - المجلد الثاني - رجب ١٣٥٠

(٢) سورة ق ، الآية ٦ (٣) سورة الملك ، الآية .

(٤) سورة نوح ، الآية ١٦

الجواب

مقدمة :

ينبغي أن يعلم قبل كل شيء أن هؤلاء الناس كثيراً ما يسارعون إلى الأحكام الجازمة من غير دليل ولا برهان ، ولهذا تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، حتى قال بعض علمائهم إن هذه العلوم التي نتبجح بها الآن قد يظهر بطلانها بعد مائة سنة ، فيرموننا بالخرف كما رمينا من قبلنا بالتحريف .

وقد صرح رئيس وزراء إنجلترا سابقاً المسيو بلفور حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بجامعة كامبريدج في أغسطس سنة ١٩٠٤ بما يفيد قصور علمهم وكثرة ما يرد عليه من الخطأ والاشتباه . فلا يحسن بالعاقل أن يغتر بكل ما يسمعه عنهم « وإن روجوا وهرجوا وقمعقعوا وجعجعوا » فإن غالب كلامهم خصوصاً في العلويات غير مبرهن ، وللظنون والتخيلات فيه مجال كبير ومنهم من يأتي على نظرياته بحجج على سبيل الجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان ومقدماته .

ومما يزيد الأمر خطورة ويملاً القلوب أسفاً أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا يقلدون الغربيين في كل ما ينقل عنهم من غير بحث ولا نظر ولا تحليل ولا تمحيص . ويكنيهم برهان على صحته أنهم قالوا ، مع أنه عند قائله ربما كان في محل الظن والتخمين : وربما كان فرضاً وجدوه أقرب من غيره من الفروض ، فقالوا به حتى يتبين لهم خلافه فيرجعون عنه .

ولكن المفتونين بهم عندنا جعلوهم في محل التقديس فلا يباحثون فيما جاء عنهم كائناً ما كان ، وليس هذا شأن المنطق ولا الفلسفة ولا الدين ، فهي على رأى بعض علمائنا كلمات قالها قائل فنقلها ناقلاً ، فقمبها قابل ، فاغتر بها جاهل لا قدرة له على النظر

وبعد ، فالمسموات جاءت بها الديانات كلها . وعندنا من الأدلة على وجودها ما لا يحصى فمن ذلك ما ذكره السائل ، ونزيد على ما ذكره قوه تعالى (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)^(١) فجعل الكواكب غير السماء ، ويقول : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)^(٢) ثم يقول بعد ذلك : (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)^(٣) إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة . ومن يقرأ مثل قوله تعالى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزِينَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)^(٤) وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)^(٥) وقوله سبحانه (إِذَا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)^(٦) وقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)^(٧) ليشك في أن السموات غير الشمس والقمر والكواكب .

(١) سورة الانفطار ، الآيات ١ ، ٢

(٢) سورة التكويد ، الآيات ٢٠ ، ٢١

(٣) سورة التكويد ، الآية ١١

(٤) سورة فصات الآية ١٢

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٣٢

(٦) سورة الصفات ، الآية ٦

(٧) سورة الأنبياء ، الآية ٣٣

وفي السنة من ذلك شيء كثير أيضاً لا داعي للإطالة به ، وليعلم قبل كل شيء أننا نشيت السماء كما أثبتها القرآن والتوراة والإنجيل والتزبور ، ولكن لا نتعرض لبيان جواهرها وتحليل عناصرها وشرح ما يكتبونها ، فإن النصوص عندنا لم تتعرض لذلك

وأما ما يذكره (بعض الإخباريين) من أن السماء الأولى من فضة والثانية من ذهب إلى آخره ، فهي أخبار إسرائيلية لا يعول عليها **وإسرائيلتفت إليها**

ولا غرو فالديانات لم تجيء لشرح الأكوان شرحاً طبيعياً ، ولم تتعرض لبيان ما فيها من الجواهر والأعراض والعناصر والظواهر ، وإنما تتعرض لها من حيث ما فيها من الدلائل على قدرة الله وعظمته ، وما تشتمل عليه من إتقان تدبيره وجميل صنعه وما ترشد إليه من آثار رحمته وعظيم نعمته ومزيد حكمته أما الأبحاث الطبيعية فقد تركتها للعقول ولم تمنع منها : بل ندبت إليها وحثت عليها

ثم لتعلم أن المقرر عندنا أنه إذا عارض العقل النقل ، أولنا النقل ، لأن الضمن في العقل طعن في النقل كما هو مبين في محله « والتأويل عندنا أوسع من السموات » فلننظر بعدها فيما عند هؤلاء المتفهبين الذين ينفون السموات نفياً باتاً تقديساً لشيء سمعوه عن أوروبا ولم يترشوا قليلاً تقديساً للقرآن والسنة ولو ثبت ذلك ببرهان صحيح لكننا أول المؤولين لما جاء في الشريعة من ذلك

ولغة العرب أوسع اللغات تصرفاً في باب المجاز والكناية وأكثرها ألفاظاً مشتركة . حتى أن اللفظ فيها قد يوضع لعشرات المعاني كما ذكره

في العين والخال ، واكننا لا نظرق باب التأويل أو نلجأ إلى القول بالمجاز أ. الكناية أو نبحت في معاجم اللغة عن وضع المشتركات إلا إذا اضطررنا لذلك .

وقد نظرنا فلم نجد عند القوم على نفي السموات دليلاً ولا شبه دليل ، فإنه ليس عندهم أكثر من أنهم لم يروها بأنظارهم ولا منظارهم أو بقية آلتهم ، وليس في ذلك متمسك لمن يعرف المنطق الصحيح فإننا لا نعرف العناصر التي خلقت منها السموات ، وما يذكر في ذلك فهو كذب. لا أصل له كما قلنا .

فيجوز أن تكون السموات شفافة ، بل هذا هو الذي يقرره الأقدمون فيقولون إننا نرى كواكب الفلك الثامن « وهو فلك الثوابت عندهم » فيصلنا ضوء تلك الكواكب لكون السموات شفافة فإذا أصبح أن نقول إنه يرى ما وراءها ولا ترى هي ، شأن كل شفاف مع غيره ، ويجوز أن تكون بعيدة عنا بعداً يمنع من رؤيتها. مع ملاحظنا أن السماء تطلق بإطلاقات كثيرة على معان عديدة فتطلق على الأقلاك ، وتطلق على السحاب ، كما قال تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)^(١) على رأى كثير من المتفسرين وتطلق على كل ما عاكك كما هو معروف .

وقد قول كثير من العلماء أن الكواكب ليست مغروزة في السماء ولا تماسية لها ، وإنما هي بين السماء والارض ، فتكون السماء من البعد

(١) سورة الزمر ، الآية ٢١

بمنزلة ما لا يروونه من النجوم ، وقد قال الإمام أبو بكر بن العربي
من أئمة المالكية إن السماء التي هي إحدى الأفلاك غير مرئية لنا
« وهي مشتركة كما قلنا » وهؤلاء النافون لا يستطيعون أن يقولوا
أنهم رأوا كل ما في العالم العلوى ، بل هم معترفون بالقصور عن ذلك
عام الاعتراف^(١)!

وقد بين عظمة العالم السماوى اللانهائى اللورد أفيرى الإنجليزى
أنهم البيان فى كتابه « محاسن الطبيعة » فانظره إن شئت ، ويجوز
أن يكون لديهم اشتباه كثير فى ذلك العالم الذى لا يعلمه إلا الله ،
وكم اختلطت عليهم الأمور والتبست لديهم الحقائق واشتبهت عليهم
الأحكام فى العالم الأرضى فضلا عن العالم السماوى ، وكم بين المتقدمين
والمتأخرين من علماء الهيئة من خلاف ، وكم للمفريقين من خبط
وخلط

وبعد هذا كله فمن يستطيع أن يقول إن عدم رؤية الأشياء دليل
على عدمها فى الواقع ؟ أما كانوا ينكرون المكروبات لعدم رؤيتهم إياها ،
فهل كان ذلك دليلا على عدمها فى نفس الأمر

والمؤمنون من الأمم كلها وأرباب الديانات جمعاء يشبتون العرش
ولم يروه استناداً لما جاءت به الأنبياء وقررت الشرائع التى تقول لنا
إنكم ماء أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وتقول (مَا أَشْهَلْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ)^(١) وتقول فى الإنسان (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(٢) وتنعى

(١) سورة أنكف ، الآية ٥١

(٢) سورة الأنزب ، الآية ٧٢

على قوم سوء حالهم فتقول (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا
يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) (١)

ونقول في حق المتظنين الذين يسارعون لتصديق ما يلقىه الخيال
وتمليه الأهواء والجهالات (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٢)

ومن العجيب أن هؤلاء ينفون السموات التي هي الأفلاك ،
والأعدمون من انفلاسة يشبتون الأفلاك ويقولون : إنها أمتن من كل شيء ،
حتى قالوا إنه يستحيل عليها الخرق والالتئام فانظر إلى تناق الرأيين
وتباعد ما بين المذهبين لتعلم أن طوائف البشر قد يصلون من الخبط
والخلط إلى حد أنهما يكونان على طرفي نقيض : وكل منهما يظن أنه
النيلسوف المحقق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
فرحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتبجح تبجح الجهال وأرباب الخيال .

ولو شئنا لدرنا أكثر من هذا ، ولعل فيه مقنعاً وكفاية : ولانزال
نكرر أنه لا مانع عندنا من التأويل واتباع الدليل ، ولكن القوم لم
تقيموا على ما يزعمون برهاناً ولا شبه برهان ، ولا يمكننا أن نعدل عن
تلك الظواهر لآل قول يقال أو مجرد وهم أو خيال .

(١) سورة

الآية ٣٩

(٢) سورة يونس

، وسورة الأنعام ، الآية ١١٦

شبهة: لحد^(١)

ورد إلى مجلة الأزهر هذا الخطاب

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر الغراء

أرجو تبليغ تلك الشبهة إلى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى

ونشر ذلك المقال بأول عدد يصدر من مجلتكم نظراً للأهمية

يا صاحب الفضيلة ! بينما أنا جالس في المسجد قرب صلاة العصر

أعظ الحاضرين وأذكّهم بالكثير من أحكام الدين حسب قوتي ،

إذ حضر رجل في أثناء ذلك وقال : أيها الشاب ! فسّر قول الله

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ »^(٢) فقلت له

يخرج الحي وهو الإنسان ، من الميت وهي النطفة ، فقال أربك

يكذب ؟ فقلت : حاش لله ، فقال وما تعمل إذا ظهر كذب تفسير

هذه الآية ؟ فقلت له أنا رأيت ذلك التفسير في كتاب الجلالين

وغيره من كتب التفسير ، فقال ليس هذا بكلام الله وإنما هو من

افتراء نبيكم محمد .

فاشعرت يا صاحب الفضيلة أجسامنا عند سماع تلك الكلمة وهذه

الاهانة لنبينا في أثناء وجودنا في بيت من بيوت ربنا ، وتصيب العرق من

(١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - المجلد الثالث - رجب ١٣٥١

(٢) سورة الروم ، الآية ١٩

وجوهنا عند سماع تلك الإهانة من رجل كنا نعتقده حسب ادعائه مسلماً .
وعمدنا إلى ضربه وأردنا إخراجه بالقوة من المسجد ، ولكن كان
معهُ رجل آخر قال لنا انتظروا فسيُفسر لكم أخى محمد تلك الآية
تفسيراً متقناً ، وقال له يا محمد قم وبين لهم هذه الآية فقال
إخواني ! من منكم يخدم الإنسانية ويتبرع بإحضار نطفته ويأخذ مبلغ
خمسین قرناً ، وأعطى ذلك المبلغ إلى رجل ، وقام الأخير وغاب مدة
وجيزة وحضر بالنطفة فوضعها محمد هذا في كأس نظيف غسلناه
بأيدينا وطهره بالكحول وأخرج من بين ملابسه منظراً معظماً ونظر
النطفة في الكأس ، ثم أخذنا المنظار ونظرنا فيه فوجدنا في الكأس
دوداً يسبح في النطفة . فدهشنا أي دهش عند سماعنا من هذا الملحد
عبارات التكذيب لقانوننا السماوي .

والحق أن الحظ ساعده لعدم وجود أمثالهم بالمسجد حتى يفسر
له الآية تفسيراً يلائم أفكاره ولم يعثر على مناقش أثناء ذلك إلا
من طالب في الابتدائي معهد طنطا : فتشكك الحاضرون في المسجد ،
وعهدوا إلى أن أبلغ هذا الحادث إلى أكبر عالم يجيد الإفتاء ، فوقع
اختيارنا على فضيلتكم نظراً لما عرفتم به من أصالة الرأي وحسن الدراية
وتقييم بالرجب نحو الإسلام ، فأرجو أن تتفضل بالرد في أول عدد
يصدر من (مجلة الأزهر) والإسلام يا صاحب الفضيلة يرجوكم
الرد حالاً

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

السيد محمد متولى حمادة
بمعهد طنطا

(الجواب)

يحزننا كثيرا انتشار أولئك الملحددين الذين تزيوا بزى الإسلام
وماهم منه في قليل ولا كثير ، وأكبر ظنى أن هذا الغمر الوقح من المبشرين
الذين افتنوا في وسائل التبشير ، وإن لم يكن منهم فهو صنيعتهم .
يحزننا أن يعيشوا في الأرض فسادا بلا زاجر من حياء ولا احترام
للأمة التي يعيشون بين أظهرها ، ولا خوف من الحكومة التي دينها
الإسلام

وإنى أعتب كل العتب على أولئك المسلمين الذين كانوا مجتمعين
عندما قال كلمته الشنعاء أمامهم ، محتقرا إياهم ، هازئا بدينهم
مكذبا لنبيهم ، ولو كان للدين في تلك النفوس الضعيفة الخوارة
ما للوطنية أو الحزبية ، لكان منهم ما يقمع أمثال أولئك المارقين
الذين أصبحوا يهاجمونهم في مساجدهم طمعا فيهم واستهانة بهم ، مع
أن القانون يحظر ذلك ويعاقب عليه لو أبلغوا ذلك لأولى الأمر ، ولكن
ما تفعل القوانين إذا فسدت النفوس ، وضعفت القلوب ،
وقصرت العقول ، وتفككت عرا الوحدة الإسلامية ! ولعمر الله لقد
ذهب أولئك الذين يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على
الكافرين ، وخلف من بعدهم خلف كغشاء السيل أعزة على المؤمنين
أذلة على الكافرين ! ولندع هذا كله آسفين باكين

وليل طال بالأنكاد حتى ظننت الليل ليس له نهار
لما لا ؟ والتقى حلت عراه وبان على بنيه الانكسار
لتبك معى على الدين البواكى فقد أضحت مواطنه قفار

ولنشر في الجواب مستعينين بالله فنقول إن هذا الملتحد من أجهل الجاهدين ، فإن الحي لا بد أن يخرج من الميت بالبرهان العقلي ؛ لأن أول حي قد خرج من الميت لا محالة ، وإلا لم يكن أول حي وقد فرضناه أول حي (هذا خلف) أو نقول لو كان كل حي خارجاً من حي للزم الدور أو التسلسل ، وهما محالان كما هو معروف

وقد كان ذلك العالم الطبيعي الذي يقول « إن الحياة فلتة من فلتات الطبيعة ، ولا بد أن يرد الحي الى أصله الميت » أعقل من هذا الأحمق ، فإنه لم يسهل عليه أن يقول بالتسلسل إلى غير النهاية ، بل جعل لها أولاً هو ذلك الأصل الميت ، فلم يقل بالتسلسل غير المعقول ، وإن كان ما قاله أيضاً فلتة من فلتات العلم

ثم نقول إن صح ما زعمه هذا الملتحد في الإنسان « مع أنه غير صحيح في الإنسان الأول كما عرفت ، ولا في الإنسان المتولد من من النطفة كما ستعرف » ، فماذا يصنع في حبة القمح أو نواة النخلة والنخل أقرب أنواع النبات إلى الحيوان ، بل كاد يصل الى أفقه فهل يقول إن فيها شيئاً حياً يرى بالميكروسكوب فيه خصائص الحياة ومميزاتها ؟ وإني أخشى أن يقول كما قال بعضهم إن الحبة أو النواة حية بالقوة ، فليعلم هو وأمثاله أن معنى الحياة بالقوة هو الاستعداد للحياة ، وأن الحي بالقوة ميت بالفعل كما قرره العلماء وأن الاستعداد للشيء والاعداد له ينتهيان بوجود ذلك الشيء فهذا طور وذاك طور آخر

ومن الذى تشببه عليه وسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة؟ فهذا ما يقرره العلم ويقتضيه العقل ، فلا بقاء للوسيلة مع الغاية ، ولا وجود للغاية مع الوسيلة ، فإن قال إن النواة مستعدة للحياة التى ستحلها وتخرج منها شجرة حية وثمره شهية ، كان ذلك صحيحا ، وليست تحل الحياة إلا فيما هو مهياً لها ومستعد لظهور آثارها ، وإن قال إن النواة حية أو فيها شئ حى بالفعل ، كان ذلك جهلا وكذبا .

ثم نقول بعد ذلك إن مازعمه من أن الإنسان هو من الحيوان المنوى الحى الذى يرى فى منى الرجل ، باطل من وجوه عديدة :

أولا - أن ذلك الحيوان الذى اغتر به لا بد أن يرجع إلى أصل ميت ، وإلا لزم الدور أو التسلسل كما قلنا

ثانيا - أن هذا الحيوان لا بد أن يموت قبل خلق الإنسان ، فالإنسان إذا ماخرج إلا من ميت ؛ وذلك أنهم صرحوا بأن التلقيح إنما يكون برأس الحيوان فقط ؛ وهو لا يبتى حياً عند انفصال رأسه ، فسنة حياة الحيوان جارية فيه ، فمتى انفصل رأسه مات ، وقد حصل المقصود من حياته وحركته وهو الوصول إلى البويضة التى يلقحها ذلك الرأس عند وصوله إليها .

ثالثا - أنه يمتزج بهذه البويضة امتزاجاً يجعلهما شيئاً واحداً ، فلا معنى لبقائه حياً تلك الحياة الحيوانية مع هذا الامتزاج والاتحاد .

رابعا - أن هذه البويضة قد يتولد منها جنينان أو أكثر ، والمرأة لا تفرز إلا بويضة واحدة فى كل شهر ، والمعروف أن التلقيح إنما يكون

بحيوان واحد ، وقد صرح بذلك بعض الاختصاصيين . فكيف يكون الحيوان حياً باقياً على حالته المرثية التي شبه بها الملحد على الناس ، ثم يتولد منه جنينان أو أكثر ، وكان ذلك الجاهل يظن أن هذا الحيوان المنوى قد كبى ونما حتى صار إنسانا ، وما أحهل من يظن ذلك وما أغباه !

خامسا - على أن الإنسان لم يخلق من هذا الحيوان فقط ، بل خلق من أشياء كثيرة ، وتغذى بأشياء كثيرة يعسر تبيينها على الحقيقة ، وقد قال بعضهم إن علم الأجنة لا يزال جنيناً حتى الآن ، ولا يزال سبب انقطاع لحيض زمن الحمل مجهولا ، وإن كانوا يتكلمون في غايته لافي سببه ، ولذلك ترى كثيراً منهم يعدون الثدييين من أعضاء التناسل ، ويقولون إذا قطع ثديا المرأة لم تلد ، ولا يستطيعون أن يعللوا ذلك تعليلاً شافياً ، إلى غير ذلك مما لا يمكننا شرحه ولا الإفاضة فيه ، فليرجع إلى الاختصاصيين المبرزين في هذا .

١ **فإن** اعتبر لاستعداد للحياة والتهيؤ لها حياة ، كان الخلاف بيننا وبينه لفظياً ، وكذلك النمو والانقسام ، فإننا لانعتبر الحياة إلا بالحس والحركة ، ولا فرق عندنا بين كلمة حي وكلمة حيوان ، والحيوان هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة ، فإن اعتبر الحياة أوسع من ذلك كان اصطلاحاً ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، فيكون الخلاف بيننا وبينه في العبارة لاغير

وإن شئت قلت إنها حياة تشبه حياة النبات ونحن نريد الحياة الحيوانية لا النباتية ، ولو أخرج الله من الشجرة إنسانا لقلنا

إنه أخرج الحي من الميت ، وليس يقلّ ما بين الإنسان والشجر من الفرق عما بين الشجر والحجر من الفرق ، وقد رأينا المعادن تتربى وتنمو في بطن الأرض ولها مدد مختلفة في ثموها وتربيتها فالملح والشب والكبريت لا تحتاج إلا لمدة سنة أو أقل ، والحديد والرصاص والفضة تحتاج إلى مدة طويلة . والعقيق والياقوت يحتاجان إلى مدة أطول من ذلك كله ، مع أنها لا تعتبر أحياءً بذلك النمو ، فإن قالوا إن هذه حياة ، كانت تسمية اصطلاحية ، وكلامنا معهم في معان لا في ألفاظ

وبعد فالأمر واضح لامرية فيه ، ولكنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، اللهم فانصر دينك ، وقوّ حزبك ، واكبت أعداءك الضالين المضلين ، فإنك على ذلك قدير ! اللهم إنا نعلم أن ذلك لا يضرّك شيئاً ، ولكن نسألك أن تخذلهم بقوتك القاهرة رحمة بنا يا أرحم الراحمين !

الخلاصة :

١ - والخلاصة أن لك أن تقول : إن المراد الحي الأول : والحي الأول خارج من الميت لا محاله ، ولا بد أن تنتهي الأحياء وإلا لزم الدور أو التسلسل

٢ - ولك أن تقول إذا شاهدنا الحيوان المنوى في المنى فإننا لم نشاهد شيئاً حياً في النواة مع خروج النخلة منها وهم يعترفون بعينها لا محالة : فقد خرج الحي من الميت لا محالة

٣ - ولك أن تقول إن المراد في الآية الإنسان المتولد من النطفة ، وما تخلّق الإنسان من ذلك الحيوان المنوى إلا بعد انفصال

رأسه واستزاجه بالبيضة ، فهو اذ ذاك ليس حيا ، فما خرج الإنسان
الا من نبيء ميت

٤ ولك أن تقول إن الإنسان قد تخلق من أشياء كثيرة من
الأب والام بل غالب تغذيته وتكونه من الأم بواسطة أشياء عديدة ،
ومنها دم الحيض ، وهذه الأشياء التي تكون منها ليست حيوانات
بالضرورة ، فإذاً يكون قد خرج الحي من الميت ، فإن هذه أشياء ميتة
لامحالة

٥ - لو تنزلنا غاية التنزل وقلنا : إنه خلق من ذلك الحيوان
وان الحيوان لم يميت وإنه ليس هناك أشياء ميتة أخرى يخلق منها
الإنسان ، لوئلنا ذلك كله وافترضنا صحته مع أنه غير صحيح
لكان ذلك الحيوان نفسه خارجاً من الميت لامحالة ، فإنه متخلق من
الأغذية الميتة لامحالة ، أو راجع إلى أصل ميت لامحالة

ولنقتصر على هذا ، وقد فرغنا من الإيمان بصدق الرسو وعصمت
التي قامت عليها الآيات البينات والبراهين الواضحات (وَقُلِ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)^(١)

وطالما سمنا أمثال هذه الترهات والتمويهات ، فلما عرضناها على
محك النظر لصحيح وجدناها كسراب بقيقة يحسبها الظمآن
حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً

وكثير من الناس عندنا لم يأخذوا من العلم إلا قشورده ، ولا من الأنبياء إلا ظواهرها ، بلا بحث ولا تمحيص ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويمسيرون وراء كل داع ، ولو دعا إلى خيال أو خيال ! ولسنا في اضطراب بعد ما سمعت ذلك كله إلى أن نقول ما يقول بعض المجددين إن المراد بالحى : العالم ، أو الميت : الجاهل ، إلى أمثال تلك التاويلات التى هى شعبة من شعب المادية

وبهذه المناسبة نقول لمن يريد من (مجلة الأزهر) أن تترك خطتها فتزول ما ورد فى الكتاب والسنة من النصوص الصريحة لأقل هيئة تسمعها من خرف فى الغرب أو الشرق لاسبيل إلى هذا والمجلة لا تنفك تصدع بالحق حتى يرجع الناس إلى دينهم الصحيح الذى بدله هؤلاء المتشدقون اتباعا لأهوائهم ، ومن اتبع هواه ضل عن سبيل الله وكل ميسر لما خلق له .

وما أنشئت المجلة إلا لمحاربة هؤلاء وأمثالهم ، فكيف توافق آراءهم أو تتابع أهواءهم ، وفى الحديث « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ الرَّؤُوبِيَّةُ »^(١) وقد وطننا أنفسنا على ذلك عالمين به من يوم إنشاء المجلة ، ومحال أن يجتمع الضدان ، أو يتفق التقيضان ، فليكتب الجاهل ماشاء ، أو فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ !

وأكبر ظنى أن هؤلاء لا يؤمنون بحياة الأنبياء ولا بما ورد فى عنان البرزخ وإلا لم يكونوا عصريين ولا مجددين ، فإن التجديد

(١) الروبيضة "رجل النافه الحقير يتكلم فى أمر العامة .

عندهم هو رد ماجاء في الشريعة إلى ماتعرفه العلوم الطبيعية ، ولكنهم يخافون من الإنكار الصحيح فيدورون هذا الدوران

وإني أستحلفهم بشرفهم الذي زعموه لأنفسهم ، وحریتهم التي يتبجحون بها أن يصارحونا القول فيما يعتقدون من حقائق ما ورد في عالم البرزخ وعالم الآخرة ، حتى نشهد لهم بالشجاعة والصراحة وإلا فلا يغشوا الناس ولا يلبسوا عليهم بهذه الشقايق الباطنة وذلك العلم المزيّف (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١)

حقائق وتعليقات^(١)

صاحب النار شيخ الجامدين بالبرهان ، وستوافقنى على ذلك

مقدمة :

صاحب النار لايسهل عليه أن يؤمن بغير مايقع عليه الحس ، وإن رأيت منه غير ذلك فهو مضطر إليه ، ومرغم عليه لأمر ما يعرفه عارفوه ، وربما قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وسر ذلك ، أنه يقدر كل مايسمع عن الأوربيين ، وليس عنده من الدين وثبات اليقين ولا من احترام الأئمة وإجماع المسلمين ، ولا من العقل الواسع ، والمنطق الصحيح والتحليل الفلسفى مايعرف به صحيح الآراء من فاسدها ولاغثها من سميتها ، وربما كانت عند الأوربيين أنفسهم فى محل الظن أو الفرض والتخمين ، فيؤول لها الآيات ، وصحيح الأحاديث لعظمتهم فى نفسه ، وهو أن أئمة المسلمين لديه

ومن العجيب أنه يطعن فى أحاديث الإمام البخارى إذا لم توافق هواه أو كان بينها وبين تلك النظريات التخمينية شبه تعارض بل رأيناه استدلل على أن الأرض تأكل أجساد الأنبياء؛ بأن الأتراك قد نبشوا قبور الأولياء والصالحين فلم يجدوا فيها شيئاً وهذا الدليل كما تراه بيئه وبين المدعى ، مثل ما بين السماء والأرض ثم هو يعتمد على ذلك من غير بحث فى ذلك السند التركى ، ولا تفتيش

عن صحة الخبر مع كونه يطعن في أسانيد البخارى لأقل شبهة تعرض لعقله ، لضعيف ، شأن المفتونين بالأوربيين ومن حذا حذوهم مع أن بقاء أجساد الأنبياء قد وردت فيها الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة ، ولأن الشيخ إمام في تأويلها وفي ردها (لأنها ليست عن الأوربيين)

فلنسق له هـ هنا ما ذكره المقطم في ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ تحت هذا

العنوان

اكتشاف جثث عربية من عهد الفتح الإسلامي

قال مكاتبنا الفلسطيني :

من أخبار السلطة في شرق الأردن أنه بينما كان بعض العمال يحفرون في خان مجاور لمسجد سيدنا جعفر الواقع في قرية المزار التابعة للكرك ، والتي جرت فيها معركة (مؤتة) ، بدت لهم نافذة تتصل بحجرة واسعة سقفها معقود بالحجر ، وفيها ما يقرب من مائة جثة والمظنون أن أصحابها من شهداء واقعة مؤتة المشهورة في الفتح الإسلامي وقد وجدت على رؤوس أصحاب الجثث عمائم ، وبعضهم في أكفان والبعض الآخر بملابسهم وفيهم جرحى لاتزال آثار الجروح في أجسادهم ، وقد أخف سمو الأمير عبد الله لشاهدة المكان المكتشف والجثث فإذا ثبت أنهم من شهداء مؤتة صدرت الأوامر بتشبيد ضريح فخم لهم ينقلون إليه بكل احترام

وهناك حادثة أخرى تشبه هذه ، ذكرتها الجرائد وذكرنا في الرد عليه في مجلة نور الإسلام الأزهر الصادرة في جمادى الآخرة من هذه السنة وقد حضر تلك الحادثة جمع كبير على رأسهم الملك فيصل

وعندنا بمصر حوادث كثيرة من هذا القبيل ، ذكرتها الجرائد في حينها ، ولكن الأنبياء والأولياء ليس لهم ميزة ما عند صاحب المنار ولهذا مقام آخر نذكره فيه .

وقد رأيت في مقالاتنا كيف قال إن الملائكة هي القوى الطبيعية واستبعد ما قاله المسلمون ، وأفام على بطلانه ذلك الدليل الفاسد ، من أنك لاتحدد أمكنتها ، ولاترسم مساكنها وإنك لاترى من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك وقد شنعنا عليه بأنّه لايلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم لأننا لا نرى الله عزوجل ونحن موقنون بوجوده أو نقول شيئاً آخر ربما كان أكثر موافقة لعقله إن المكروبات كانت غير مرئية ، حتى ظهر الميكروسكوب (المجهر المعظم) وكذلك غيرها ، فهل كانت غير موجودة في الواقع ؟ وقد سمينا هذا المنطق الذي انتحاه الشيخ في استدلاله ، منطق النعامة ، التي إذا رأّت ما يخيفها جعلت وجهها في الرمل ، اعتقاداً منها أنّ كل ما غاب عن البصر فقد غاب عن الوجود

ولا ينبغي أن نتشدد في مناقشة الشيخ ، بعد أن عرفنا أن منطقته الذي يسير عليه في استدلاله ، إنما هو منطق النعامة ، وكثير من الناس من لا يعرف إلا هذا المنطق

وإذا عرفت ذلك ، لم تستغرب ما نتلوه عليك اليوم ، من ترهات الشيخ وأضاليه ، التي نكل الحكم فيها إليك ، بعد تبين مواضعها من (المنار) مجلداً وصحيفةً وما لا ينبغي إغفاله في هذا المقام

أن صاحب المنار يقول في التنصل ، مما أخرجناه به ، إنه وإن ذكر الباطل في موضع ، فقد ذكر الحق في موضع آخر فعلى قارئ المنار (إذا بناء على هذا المبدأ) ألا يثق بشئ رآه فيه حتى يطالع الثلاثة والثلاثين مجلدا ، ثم ننصح له أن يفتش بعد ذلك كله عما يريد أن يأخذ من تلك المجلدات فإن الشيخ غير موثوق بنقله ولا بفهمه كما قلنا في مقالنا الأول والمتناقض لا يصح أن يعتمد عليه في شئ من الأشياء ، والكاذب لا تصدقه في كذبه ، ولا في صدقه .
وانتصرت في المقدمة على هذا ، ونذكر لك تلك المخازى فنقول

شئ من بلايا صاحب المنار ومخازيه

في المنار المجلد العشرين للملاحظات الآتية :

١ - ٧٩ و ٨٠ و ٨١ فيها تجهيل لمن يقولون في اللوح المحفوظ ، والقلم والكتابة والكاتبين ونحوها بما هو مقرر في كتب العقائد .

٢ - وفيها تأويل اللوح المحفوظ بلوح الوجود ، والواقع الذي لاحق لإلما وافق ، فليس مخلوقا مستقلا كما يقول علماء المسلمين

٣ - ٩٠ و ٩١ فيها أن كتابة الأعمال هي تأثير الأعمال في النفس أو حفظ صورها وآثارها في النفس وأن ذلك أمثل ما أولت به .
لكتابة الأعمال ، وهو خرق لإجماع المسلمين وكلام لا يعرفه إلا الباطنية . هو بعد ذلك إنكاراً للكاتبين على الرغم من صريح القرآن الشريف

٤ - ٢١٤ . فيها أن اسم الجن والشياطين - يطلت في لغة العرب على بعض الحشرات والحيوانات الضمارة أو القبيحة وعلى ما يؤثر

عن أهل الكتاب وغيرهم من الدالم الروحي الغيبي وقد ذكر بعض خصائصه ثم قال بعد ذلك ، والأكاذيب عن جميع الأمم في ذلك كثيرة والشبهات غير قليلة ولكن قل المصدقون بها في بلاد العلم والمدنية أن شكك القارئ فيما يعرفه من دين الإسلام عن الجن .

وانظر إلى أي حد بلغ افتتان الشيخ بالأوروبيين الذين يعبر عنهم أرباب العلم والمدنية أي وأما نحن فأرباب الجهل والبهيمية ومن ذا يبلغ الشيخ أن علمهم إنما يوثق به في الماديات والطبيعات ، لا فيما وراء الطبيعة ، فهم أجهل الناس به وأبعاهم منه وكل معلوماتهم إنما تدور على الحس والمشاهدة .

وقد قلنا في بعض ما كتبناه أن هذه مرتبة الحيوان الذي لا يصدق إلا ما شاهده بعينه ، ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه ، بخلاف الإنسان الذي متعه الله مواهب عقلية وخصائص روحانية يعرف بها عالم يصل إليه الحس ، ولا وقع عليه البصر

ولكن الشيخ يريد أن يكون مجددا عصريا فلما فاتته التجديد في الماديات كالأوروبيين شرع يجدد في الدين يرمي ذويه بالخرف على نحو ما فعل الأوروبيون مع الفلاسفة الأقدمين ، ولكن فاته أن الأوروبيين فعلوا ذلك في الحسيات ، التي قام عليها برهان الانتحان ودليل التجربة ، أما غير الحسيات من عوالم ما وراء الطبيعة فالأوروبيون فيه مخرفون جاهلون لاعلماء محققون

ثم نقول لصاحب المنار ألا تتقى الله في تلك الأمة المسكينه ، التي
كاد يقضى عليها تقليد الأوروبيين وتقليدسهم ، حتى اختل أمرهم ،
وضاع رشدهم ، أفتريد أن تزيدهم فناء في الأوروبيين كى يقلدوهم
في كل شيء ، حتى في أمور الدين ، ومسائل اليقين عند المسلمين

ولنتقل إلى خزنة أخرى فنقول

٥ - ٢٣٠ وبعدها فيها تكفير المتبركين بالآثار ، والمتوسلين
بالصالحين وأنهم مشركون إشراك قوم إبراهيم عليه السلام

٦ - ١٩١ فيها شك وتشكيك في نبوة آدم ، ورسالته عليه
السلام فتدبرفنا من ذلك أن إنكار أبي زيد لنبوة سيدنا آدم في
حادثته المشهورة كان مأخوذا من المنار ، فصدق حدسنا أن كل ما قاله
أبو زيد الذي كان يرد عليه الشيخ رشيد ، ويسميه ملحد دمنهور ،
كان مأخوذا من المنار ، وما هو إلا قليل من كثير وربما بينا ذلك بعد .
١٨٦ و ٢٦١ ٣٣١ فيها كلام في الشفاعة ، تلمح فيه
اعتقاده في أحاديث الشفاعة فكأنه يريد أن ينكرها ، أو يشكك فيها ،
فلا نطيل في ذلك الآن

وفي الجزء الثامن من المجلد الثاني والثلاثين يلاحظ الآتي

٨ - ٥٦٥ و ٥٦٧ فيها تشنيع وافتراء على معتقدي الولاية
والكرامة والوسية ، وأنهم عبدة القبور واتهام من لا يكفرهم من العلماء ،
بأنهم يغفرون الناس بعبادة القبور ثم نقول ، وأن إفساد هؤلاء

الخرافيين للبشر لأشد من إفساد المنكرين للآيات المكذابين بها ،
بناء على مزاعم باطلة يتهمهم بها

ونحو ذلك في صحيفة ٥٧٤ و٥٧٥ تحت عنوان (سبب عبادة
المسيح وبعض الصالحين) والشيخ لا يعرف معنى العبادة كأنه
يظن أنها التعظيم ، فهو يقول تعظيم غير الله عبادة ، وكل عبادة لغير الله
شرك ، مع أننا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، وليس هناك
تعظيم أبلغ من السجود ، ورأينا الملائكة سجدت لآدم

ولو كان لتعظيم شركا ، ما أمر الله به ، لأن الله لا يأمر بما هو
من جنس الشرك في شريعة من الشرائع ، على أن تعظيمنا إياهم إنما
هو لكونهم أصغياء الله المقربين ، فالتعظيم في الحقيقة ليس إلا لله
وقد قلنا في بعض ما كتبناه أن الخلف بيننا وبين الوهابية ، الذين
يدافع عنهم اشيخ رشيد ، إنما هو في كون الأرواح بعد الموت لها
شعور وإدراك ، وعمل ودعاء كالأحياء أم ليس لها ذلك فنحن
نقول بثبوت هذه الأشياء للكاملين غير المشغولين بأنفسهم ،
وهم يقولون إنهم ليسوا كذلك ، ولا فرق بينهم وبين الجادات
أو المدومات عديم ، وعلى كل حال فالخلف في ذلك لا يوجب كفراً
ولا فسقاً فيما معنى تكفير المسلمين بذلك واستباحة دمائهم من أجله ؟
ولسنا نحتم على الوهابيين أن يعتقدوا أن للأموات شعوراً وإدراكاً وأنه
يمكنهم الدعاء بالتوسل إلى الله كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث
لأعرض الأعمال (وَإِنْ وَجَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ اسْتَفْقَرْتُ لَكُمْ) لا نحتم
عليهم ذلك وإن نطقتم به الأحاديث الصحيحة بل المتواترة ،

وانعقد عليه إجماع الأمة قبل ظهور هذه الفرقة ولكن الذي نريد منهم أن يمتقدوا ما شاءوا أو يتركوا الناس يعتقدون ما شاءوا ، ولا يكفروهم ولا يستبيحون دماءهم لخيال فاسد ، لا يوجد إلا في رؤوسهم ، وشبهة فارغة لا تنقدح إلا في نفوسهم ، يرتكبون بها أكبر الجرائم ، وأعظم المآثم

وما نريد بذلك كله إلا حقن دماء المسلمين وعدم تفكيرهم بتلك الكلمات الفارغة

والخلاصة أنه لا بد أن يَـوَنَ هناك فصل آخر في العبادة ، لا تتحقق حقيقتها إلا به ، حتى تكون مختصة بالله ، ويكون فعلها لغيره شركا ولعل الشيخ يعقل هذا فهذا ما نريده من الوهابية وإن كان الشيخ لا يعرف محل النزاع ، ولا مشار الخلاف بيننا وبينهم ، والشيخ متى قال شيئا ، فمحال أن يرجع عنه ، ولو أقمت له ألف برهان ، ومن ذلك أننا خطأناه في التعبير بالقبوريين وقلنا له إن الجمع لا ينسب إليه ، وإنما ينسب إلى الواحد ، فقال إن القبوريين علم فقلنا له أنه ليس بعلم عند أحد ثم رائحة العلم

وقد قال ابن مالك :

والواحد أنكر ناسبا للجمع ما لم يشابه واحدا بالوضع

أي ما لم يتنابه الجمع المنسوب إليه كما هو واضح ، ولكن الشيخ يصر على خطئه ، ولا يرجع عنه ، وكأنه على سهج أولئك التكبريين الذين قال الله فيهم : (سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا (١)

ومن ذلك قوله في إبليس : إنه القوة الشريرة التي (تعيق)
الإنسان عن بلوغ درجات الكمال ، والواجب أن يقول (تعوق)
ومن ذلك تعرف أن للشيخ نحوًا خاصًا وصرفاً خاصًا كما أن
له منطقتا خاصًا ، أسميناه بمنطق النعامة ، أو المنطق القلموني ،
فلنسم هذا المنحو بالمنحو القلموني أيضًا

وليس على الله عستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولنقف هنا رحمة بالشيخ ، وإشفاقًا على القارئ ، فإلن اللقاه
قريبًا إن شاء الله .^(١) وتعرف أن الشيخ موافق للطائفة الأحمدية
القاديانية فيما تتلوه عليك بعد

بإتيح الدعاوى وصاحب النار عن نفسه

ليست العبرة بكثرة الهذيان إنما العبرة بقوة البرهان
هذى كثيرا فقلنا لا نرد على هاذا فأضحى يتنادى أنه بطل

بيننا ما صرح به صاحب (المنار) في تفسيره عند قوله : (وإذ
قُلْنَا الْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) (صحيفة ٢٦٧
وما بعدها إلى ٢٧٦) من أن الملائكة هي القوى الطبيعية ، وأن إبليس
هو القوة الشريرة المودعة في نفس الإنسان التي لا يمكن إخضاعها
ولانتدليلها وأن ما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه المسلمون
ملائكة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات أي فالأسماء
مختلفة والمسمى واحد

وقدمتنا بعين النصوص الدالة على ذلك من كلامه وعلقنا عليها وعجبنا
أجد العجب من إنكاره ذلك ورميه إيانا بالافتراء والبهتان بعد تلك
العبارات الصريحة التي أتطال فيها ثم حصنها من جميع نواحيها
بدفع الشبه عنها والرد على مخالفيها ، كما أنه جعل قصة آدم
وحواء قصة خيالية تمثيلية فليس هناك جنة دخلها آدم لأرضية ولا
مماوية ولا شجرة تسمى عنها ، إلى آخر ما سطره في صحيفة ٢٨١ وما
بعدها من الجزء الأول من تفسير المنار) مما لوجوزناه لارتفعت الثقة

بكل ما جاء في الدين أصولا وفروعا ، ولم يكن القرآن عربيا مبينا ، بل كان رموزا وألغازا ، أو على الأقل مجازات بلا قرينة

ومن العجيب وليس من صاحب المنار عجيب أنه يبقى النزول على حقيقته في حديث النزول والاستواء على حقيقته في آية الاستواء ولا يحمل ماجاء في الملائكة على حقيقته تقريبا للماديين واستعظاما لهم . وإذا لم يكن صاحب المنار سلفيا ماديا فمن ذا يكون؟ وإذا لم يكن يعرف حدود الإمكان وما ينتهي إليه الممكن وما يستحيل وما يجوز فمن ذا يعرف غيره؟ ولو جرينا على طريقته من جواز التأويل والتمثيل في معالمتنا ومخاطباتنا لفسد العالم كله وقد قلنا إن هذا هو ما أراده الباطنية قبل صاحب المنار، وما أشبه طريقته بطريقه فإذنه يذكر الحق بعبارة موهمة أو محتملة . ثم يكر عليها بتحبيد الرأي المادى وإيراد الشبه على غير الرأي المادى حتى يخيل للقارئ أن هذا هو لباب العلم الذى قلما يظفر به فى غير المنار

وفى طى هذا وصية له بالاحتفاظ به والحرص عليه ، وقد يذكر من كلمات الصوفية ما يجعل القارئ يظن أنه من أولياء الله المقربين أو ملائكته المطهرين على نحو ما يفعل صاحب كتاب إخوان الصفا

وهأذا أدرى لك بقية تشكيكه فى يعتقد المسلمون أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكيل فبعد ما أورد عليه الشبه التى سمعتها فى مقالنا السابق أراد أن يقتلع تلك العقيدة من نفوس حتى لا يبقى لها ظل ولا أثر فى القلوب . وقد رأى أن يؤثر على القارئ

بأسلوب شعري يحرك الخيال فقال وكأزه من علماء وحدة الوجود^(١)
« ولو علموا أن العالم بأسره فأن في نفسه وأن ليس في الكون باق
كان أوريكان إلا وجه الكريم وأما ما كشف من الكون وما لطف
وما ظهر منه وما بطن إنما هو فيض من جوده ونسبة إلى وجوده » إلى
كلام طويل استمده من كلام الصوفية ثم قال « لو عرفوا ذلك كله
لأطلقوا لأنفسهم أن تجول في تلك الشئون حتى تصل إلى مستقر
الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم ولا توجد
طائفا من الخوف »

ونقول إن نفوسنا قد وصلت إلى مستقر الطمأنينة وليس فيها
أدنى خوف ولا شك، بل نعجب كيف يحيى الخوف والشك والأمر
في غاية البضوح فإن إثبات الملائكة على ما يفهم المسلمون
ليس فيه إلا إثبات عالم آخر له أحكام أخرى وقد متعه الله
بمواهب وخصائص لا توجد في غيره ممن أين يحيى القلب ولماذا
تذهب الطمأنينة وتحل الحيرة محلها؟ ألم يخلق الله الهراء على
مانع من اللطافة؟ فما المانع أن يخلق الله خلقا أطف من الهواء ويمتعه
بقلرة وإرادة واختيار ويعطيه من التصرف ماشاء. ومن ذا الذي أحاط

(١) هذه عبارات التي علقتنا عليها في هذا المقال وماتبه هي من صحيفة ٢٧٠ - ٢٧٣ من الجزء الأول من تفسير المنار.

بجميع العوالم خبيرا وقد قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (١)
 (وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢) (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
 كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (٣)

إني اعجب جد العجب ممن يتوقف في ذلك ويجعل هذا محلا للمحيرة
 وعدم الطمأنينة ويظن أن الإيمان به متعسر أو متعذر ثم نقول
 للأستاذ أتجمع بين المتضادات فتتكلم في تقرير مذهب الماديين
 بلسان الصوفية يا أستاذ أعجمي وعربي؟ إن هذا اثني عجاب. ولكن
 هذه طرق معروفة لتلك الطوائف والغرض منها معروف لنا ولغيرنا.

ثم نقول بعد كل تنزل ما معنى هذا الاستدلال وأى ارتباط
 بينه وبين ما يدعيه؟ فهل كون العالم فانيا في نفسه وكونه فيضا
 من جوده تعالى ينتج ما يريده من أن الملائكة هي القوى الطبيعية
 وأى علاقة بين هذا وذاك

ثم يقول بعد ذلك لتجعله— إن كنت سليم القلب— من الروحانيين
 أو الملائكة المقربين (على رأى المسلمين) مانصه أليست هذه
 القوى أشعة من ضياء الحق أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه
 ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ،

(١) سورة المدثر ٣١

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٣) سورة يس ، الآية ٣٦

ألا يجوز أن يشمر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها
لا ندرك كنهه لاحتجابه عنا بما نتصور من حياتنا واختيارنا ،
ألا تراها توافي أسرارها من ينظر في آثارها ويوفيهما حق النظر في
نظامها يستكثر من الخير^١ مما يقف عليه من شئوها ومعرفة الطريق
إلى استدرار منافعها

وأقول لماذا كل هذا الأجل أن نجعلها هي الملائكة ولا نستبعد
أن يكون فيها حياة وشعور الخ ؟ أليس إثبات عالم آخر نسيمه
ملائكة أهون من ذلك كله ؟ ، أليس اتباع العقول والمنقول أولى من
نلك الخيالات النارعة التي تشبه خيالات المحمومين ، اللهم إن
هذا افتتان مما ظهر في عالم المسادة وما أحدثوه فيها من مدهشات
وعجائب ولكن الشؤون الآلهية فوق ذلك كله (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَانَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١) وقد أذكرني ذلك قولهم «كن يهوديا حقا
وإلا فلا تلعب بالثبارة» ونحن نقول له «كن مسلما حقا وإلا فلا
تلعب بالقرآن» أليس هذا الخيال أشبه بىء بخيال ذلك الملحد
الذى جعل الأثير إبتها وتخييل فيه سمعا وبصرا حيث يقول

فلعل الأثير خسر سميع ولعل الأثير خير بصير
ولعل الأثير خير إله ولعل الأثير خير نصير

ثم نقول بعد ذلك كله أى لاقه بين هذا الدليل وتلك الدعوى
على نحو ما وضحده فيما قبله

ثم أراد زيادة التشكيك فقال « أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك هل ترى أجسامهم النورانية تضيئ لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك مما كان يعرفه سلفك وبالعابرة تلمفتها عنهم كيلا يوحشك مما يدهشك وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها أفلا يكون ذلك أروح لنفسك وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟)

وأقول ما هكذا ينبغي أن يكون العلماء ولا أهل الدين يعبر بالزعم فيما جاء عن النبي متواتراً من أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء ، ثم يطعن في ذلك بأنك لا تعرف أين هي في الأرض وأنك لا تحدد أمكنتها ولا ترسم مساكنها ، وأنك لا تعرف من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك إلى آخر ما قال : وإني آسف أشد الأسف إذ يصدر ذلك ممن يزعم أنه أحد شيوخ المسلمين وهل عدم تحديد أمكنتها ومعرفة مساكنها يدل على عدم وجودها ؟ ومن الذي يستدل بعدم رؤية الشيء على عدم الشيء ؟ أفلا يجوز أن تكون من اللطافة بحيث تخفى عنك ، أو تكون أنت من قصور البصر بحيث لا تراها وهل ننكر الكرام الكاتبين وقد صرح القرآن بهم من أجل أننا لا نرى من نرى في يننا ومن على يسارنا اللهم إن هذا مخجل لأهل الدين بل لأهل المنطق وإن لم يكونوا من ذوى الدين

فإننا أو قطعنا النظر عما جاء في الدين من المتواترات لكان
الدليل الذى زعموه غير صحيح أمام العقل والمنطق ولكذك
عرفت أن للشيخ منطقا خاصا لا يعرفه غيره ومن العجيب أنه يرمينا
بعد ذلك بالجمود

فليت شعرى أينما الجامد؟! أنحن الذين عرفنا عظمة العلم وسعة
القدرة الإلهية أم هو الذى وقف عند الظواهر ولم يجاوز دائرة الحس؟
(رمتنى بدما وانسلت) - (هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ)^(١)

ومن أعجب العجب أنه يقول: إن هذا الإصلاح الذى قام به يتوقف
عليه حفظ الدين، وما أدرى أهذا يحفظ الدين أم يهدمه؟ وليت
شعرى، ماذا يصنعون فى الإيمان بالله تعالى؟ أيقولون فيه ما قالوه
فى الملائكة أم ماذا؟ فإن حقيقته تعالى أخفى من حقيقة الملائكة بلا
مراء فيمكنهم أن يقولوا فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(٢)
(فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)^(٣) إلى أمثالها من الآيات الخ، إنها القوى
المنبثة فى حورك وعن يمينك وعن شمالك وأن هذه القوى يتخيل
الإنسان فيها - شعورا وعقلا، إلى آخر ما قالوه فى الملائكة وبذلك
ينقطع عرق الخلاف بيننا وبين الماديين فى كل شيء حتى فى وجود
الله عز وجل. وإذن يكون الإصلاح أتم والوفى أعم فكل ما ذكره
فى الملائكة يمكنهم أن يذكروه فى تلك الآيات بسم معانيه، فإن كان عدم
رؤية الشيء دليلا على عدمه فى الواقع وعدم رسم مساكن الأشياء وتحديد

(٢) - سورة الحديد الآية رقم ٤

(١) سورة مائدة، الآية ٥٩

(٣) سورة بقره، الآية ١١٥

أمكننتها مقتضيا عدمها ودليلا على انتفائها . نقول لو تم هذا الأساس
لما قام هذا الدليل بعينه في حق الله عز وجل فإنك لا تراه ولا تحدد له
مكانا ولا ترسم له مسكنا الخ الخ فماذا نقول لهؤلاء ، وبماذا
تخاطبهم

وما أصيب شيء من الأشياء مثل ما أصيب به المنطق في هذا
العصر من أولئك الأغبياء ،^{٣٣} ولنصطلح على تسمية هذا المنطق
الفاسد بالمنطق القلموني ، أو منطق النعامة ، فقد ذكروا أن النعامة
إذا رأت الصياد جعلت وجهها في الحائط كي لا تراه ، وتظن لمزيد
غباوتها أنه إذا غاب عن نظرها فقد غاب عن الوجود وهذا مبنى
لدى النعامة على الأساس الذي بنى عليه الشيخ رشيد استدلالة
من أن عدم رؤية الشيء دليل على عدمه في الواقع ، فليكن موسوما
عندنا وعندكم بمنطق النعامة أو المنطق القلموني

ولا داعي لأن تعلق على قوله إن الله ذكرها لك بما كان يعرفه سلفك
وبالعبرة التي تلقفتها عنهم الخ^{٣٤} فإن الأمر فيها أظهر من الشمس
وأوضح من الحسن ، وهل هناك فرق بين هذا وبين ما قاله رؤساء
الإلحاد في أمثاله من أن القرآن يذكر الأساطير

وقد تعبت من التعليق فلنقتصر على هذا وفيه مقنع وكنائية ،
وأظنك بعد هذا في عجب شديد من صاحب المنار كيف يذكر ذلك
ويقول إننا افترينا عليه بعد ما قرره غاية التقرير وكرره غاية
التكرير ، فأينا المفتري؟! وأنى آخذ بيدك مرة أخرى فأضعها على
ما افتراه تلبيسا وتديسا على نحو ما يفعل المبشرون سواء بسواء ،
فإنه نسب ذلك إلى الرأى الفاسد إلى بعض المفسرين كما قلنا ولا

أكرر أفي أتحداه أن يبين لنا ذلك المفسر الذى ذكر تلك الخرافة .
وإلا فلست مفترياً كما يقول ، بل هو المفترى على الله بذكر ما لم
يرده فى كلامه وعلى الرسول فى مخالفة ما عرف من الدين بالضرورة
وعلى العلماء فى الافتراء عليهم ونسبة ما لم يقواوه إليهم غشاً وتدليساً
وبعد فيصعب علينا أن نقول أنه متخبط لا يدرى ما يقول ،
أو أنه غير نابت على عقيدة واحدة أو أنه يلبس على الناس بذكر
الحق والباطل شأن ذوى الأغراض السيئة ولكن نكّل الحكم إليك
بعد ما قصصناه عليك ويكفى هذا التعليق اليوم .

وأما ما سبه للشيخ الغزالي فسنبين خطأه فيه أو سوء قصده
بأوضح الأدلة إن قدر لنا أن نكتب فى الموضوع بعد ، ولتكن هذه
فرية ثالثة على الغزالي أيضا ولكن نبادر فنقول للقراء إنه يستحيل
أن يقول الشيخ الغزالي أن الملائكة هى القوى الطبيعية والشيخ
لأيضهم الأثماء بالعقل وإنما يفهمها بالهوى . ومن أضل ممن اتبع هواه
بغير هدى من الله

أسأل الله ن لا يجعلنا ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ولا ممن يدعون
إلى كتاب الله وليسوا منه فى شيء ، بمنه وكرمه
قد أضاء الصبح للناس طرا ليس بعد الحق إلا الضلال

حديث الغرائق^(١)

ورد من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد عبد الحميد

قاضي مديرية دارفور سؤال يتلخص فيما يأتي

إن مما ندين الله عليه تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به ، وأنه من عند الله : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)^(٢)

وقد جاء في بعض الكتب أن سبب نزول قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)^(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ في قراءة سورة النجم قوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)^(٤) ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى »

فكيف يتفق جريان مثل هذا على لسانه صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ومع اعتقادنا بالعصمة ، وأنه النبي المعصوم ، وهو المقتدى به في أقواله وأفعاله ؟

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - المجلد الرابع سنة ١٣٥٢

(٢) سورة النجم ، الآيات ٣ ، ٤

(٣) سورة الحج ، الآية ٥٢

(٤) سورة النجم ، الآيات ١٩ ، ٢٠

وقد بعثنا إلى فضيلته جواباً مفصلاً تلخيصه فيما يأتي

الجواب

الذي نعتقده ويجب أن يعتقدَه كل مسلم أن هذه القصة باطلة
بموضوعه فإن المسألة من أصول العقائد التي لا تكفي فيها أخبار
الأفراد ، بل هي من القطعيات لا من الظنيات ، وأن البرهان العقلي
قائم على كذبتها ولنسق لك شيئاً مما قاله أئمة النقل والعقل في
المسألة

قال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وقال القاضي
عياض في الشفاء يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرج أحد
من أهل الصحاح ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل

وفي « البحر لأبي حيان » أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن
ابن إسحاق جامع السيرة النبوية : فقال هذا من وضع الزنادقة ،
وصنف في ذلك كتاباً وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي الصواب
أن قوله « تلك الغرائيق العلى » من جملة إيهاء الشيطان إلى أوليائه
من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين الشبه ليرتابوا
في صحة الدين

أما الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية . ويلزم على هذه الرواية أمور
كثيرة كل منها باطل وغير معقول :

١- منها تسلط الشيطان عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله
عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان ، ولا سيما في مثل هذا من

أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد . وقد قال سبحانه وتعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)^(١) وقال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)^(٢) فإذا كان ذلك في عباد الله المخلصين ، فكيف به يد الخلق أجمعين ؟

٢- ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم في القرآن ما ليس منه ، وذلك مما يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم لمكان العصمة

٣- ومنها اعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه متناقضاً مع ما ذكر معه من الآيات غاية التناقض فإنه ذم الأصنام بما لا يزيد عليه في هذه السورة ، فقال (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)^(٣) وقال في حق عابديها (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي وَنَ الْحَقُّ شَيْئًا فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى)^(٤) إلى غير ذلك

فكيف يقال إنهم فرحوا بمدح أصنامهم وسجدوا معه في آخر السورة ؟ وكيف ينسب ذلك التناقض الشنيع والخطأ الفظيع له صلى الله عليه وسلم !

(١) سورة الحجر ٤٢ وسورة الإسراء ٦٥

(٢) سورة النحل الآية ٩٩

(٣) سورة النجم الآية ٢٣

(٤) سورة النجم الآيات ٢٨ ٢٩

٤- ومنها أنه إما أن يكون معتقداً ما فهموه من مدح آلهم ، وهو محال عليه صلى الله عليه وسلم ، أو غير معتقد فيكون مُقِرّاً لهم على الباطل ، بل على الكفر .

٥- ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك ، وهو يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم على غير بصيرة فيما يوحى إليه

٦- ومنها أن هذا يوجب جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبساً على النبي ، ولا يصح ذلك كما أوضحه القاضى عياض فى الشفاء وقال أبو بكر بن العربى تصور الشيطان فى صورة الملك ملبساً على النبي كتصوره فى صورة النبي ملبساً على الخلق ، وتسليط الله له على ذلك كتسليطه فى هذا ، فكيف يسوغ فى لب سليم استعجازه ذلك!

والحاصل أن حديث الغرائيق مخالف للقواطع ، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعى قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا)^(١) . إلخ لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة . وسنسمعك شيئاً فى ذلك . وكون الشيطان ألقى ذلك على لسان بعض الرواة أقرب فى العقل من كونه ألقاه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم

وبعد ذلك كله يلزم على ما ذكره أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول وكل نبي زيادة على تسليطه على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : (... مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي

أُمْنِيَّتِهِ^(١) فَإِنَّ الْآيَةَ تَقْتَضِي عَلَى تَفْسِيرِهِمْ أَنَّ هَذِهِ عَادَةُ الشَّيْطَانِ مَعَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَصَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ جَمِيعًا ، إِذِ الضَّمِيرُ فِي (تَمَنَّى) يَعُودُ إِلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الرَّسُولِ الْعَامِّ ، إِذْ هُوَ نَكْرَةٌ وَاقِعَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، وَقَدْ اقْتَرَنْتَ بِمَنْ الْاسْتِغْرَاقِيَّةُ ، وَهِيَ حَيْثُ تَكُونُ نَصًّا فِي الْعَمُومِ

وَلَا نَزَالَ تَكَرَّرَ أَنَّ « الْعَصْمَةَ » مِنَ الْعَقَائِدِ الَّتِي يَطْلُبُ فِيهَا الْيَقِينَ .
فَالْحَدِيثُ الَّذِي يَفِيدُ خَرْمَهَا وَنَقْضَهَا لَا يَقْبَلُ عَلَى أَى وَجْهٍ جَاءَ . وَقَدْ قَدَمْنَا لَكَ أَنَّ الْأَصُولِيِّينَ عَدُوا الْخَبِيرِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ مِنَ الْخَبِيرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَ بِكَذِبِهِ .

وَقَدْ عَلِمَ مَا لِلنَّاسِ فِي ابْنِ أَبِي صَالِحٍ كَاتِبِ اللَّيْثِ وَأَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى تَضْعِيفِهِ ، وَلَا نَطِيلَ فِي ذَلِكَ ، وَيَكْفِينَا قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ فَضْلًا عَنْ تِلْكَ الْحُجُجِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّهُ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ سَاهِيًّا أَوْ نَاعَسًا فَيُرَدُّ مَا قَرَّرُوهُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّمُ حَالَ عَدَمِ الشُّعُورِ إِلَّا مَا يَكُونُ مُسْتَقَرًّا فِي نَفْسِهِ ، مُنْتَقِشًا فِي قَلْبِهِ مُسْتَوَلِيًّا عَلَى لَبِّهِ ، فَيُظْهِرُ حَيْثُ تَشَدُّ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رُويَةٍ . وَهَلْ يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ إِنْ مَدَحَ الْأَصْنَامَ كَانَ فِي نَفْسِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَظْهِرَ عَلَى لِسَانِهِ سَاهِيًّا أَوْ نَاعَسًا ؟ اللَّهُمَّ إِنْ ذَلِكَ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَلَا مَقْبُولٍ !

تفسير الآية على سبيل الاجمال :

المراد من الآية على سبيل الاختصار أن الله تعالى ما أرسل رسولاً من الرسل ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول

يتمنى الإيمان لأمته^(١)، ويحبه لهم ويرغب فيه ، ويحرص عليه كل الحرص ، ويعالجهم عليه أشد المعالجة^(٢)، وفي جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم الذي قال له الرب سبحانه وتعالى (ذُفِّلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ^(٣)) أَعْلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا^(٤)) وقال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ لِحَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ^(٥)) وقال تعالى : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ -تَتَى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٦)) وقال (إِنَّمَا تَذَهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ^(٧)) إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى

ثم الأمة تختلف كما قال تعالى (وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهَا مَنَ إِعْمَانًا وَمِنْهُمْ مَنَ كَفَرَ^(٨)) فأما من كفر فقد ألقى الشيطان في نفسه الوسوس القاذحة في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضًا لا يخلو من وسوس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب ، وإن كانت تختلف في الناس بالشدة والضعف ، والقلة والكثرة ، فمعنى (تمنى) أنه يتمنى الإيمان لأمته ، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح . فهذه أمنية كل رسول ونبي ، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوسوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيهم الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتدوا به .

(١) سورة الزهف ، الآية ٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٣

(٣) سورة يونس ، الآية ٩٩

(٤) سورة فاطر ، الآية ٨

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٥٣

فتحصل من هذا أن الوسواس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً ،
غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين .

وصفوة القول أن التفسير الصحيح لهذه الآية هو الذي يجمع
بين أمور ثلاثة العموم الذي في أولها ، والتعليل الذي في آخرها
من قوله تعالى (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ)^(١) (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)^(٢) ، مع
كونه يعطى للرسالة حقها

وقد سمعت القول الفاصل في ذلك : وليس يخفى عليك ما سواه ،
لأن الله يتولى هدايتنا جميعاً بمنه وكرمه

(١) سورة الحج ، الآية ٥٣

(٢) سورة الحج ، الآية ٥٤

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي مِنَ الْحَقِّ^(١)

صاحب النار يخطيء في المعقول

ويدلس في المنقول واليك البرهان

أما خطؤه في المعقول فيكفي في إثباته ما ادعاه في تفسيره من أن الملائكة هي القرى الطبيعية كالحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية والجازبية « ولعلها من الملائكة المقربين » وقد نقل ذلك عن بعض المفسرين ، وإني أتحداه أن يذكر لنا ذلك المفسر ، ولو سلمنا صحة ذلك النقل « مع قطعنا بكذبه » لكان تسليمه إياه وعدم تعليقه عليه التزاماً لصحته . بل الأمر لم يقتصر على هذا فإنه حبه غاية التحبيذ ورد على مخالفيه القائلين إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكيل

لما واستدل على عدم وجود الملائكة بأنك لا تحدد أمكنتهم ولا تعرف مساكنهم ولا ترى من يكون منهم على الإيمانك ومن يكون منهم على شمالك وإنهم لا ينبرون لك في الظلام ، إلى آخر ما تهكم به على القائلين بأنهم أجسام نورانية ، وقد قلنا له إن عدم رؤية الشيء لا يدل على عدم وجوده ، ولو كان عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده ما كان هناك من يؤمن بالله عز وجل فإنه لم يره أحد .

وهناك فرق كبير بين عدم الدليل على الشئ والدليل على عدمه ،
مع أن قول المعصوم عندنا هو أكبر دليل ، وما معنى الإيمان بالغيب إذا
كنا لا نؤمن إلا بما رأينا

وما الفرق إذاً بيننا وبين الماديين ، وقد قلنا له إن هذا الاستدلال
مخجل لأهل المنطق ولو لم يكونوا أهل الدين ، وقد تخيل أن في هذه
القوى إدراكاً وشعوراً وإن لم يكن من جنس إدراكنا وشعورنا . ولكن
لايسهل عليه أن يقول مثل ذلك في سجود الشمس لله تعالى كما في
الحديث ، إلى كلام طويل عريض له مقال خاص إن شاء الله

أما ما يقوله الماديون ويلهج به الأوربيون فهو على العين والرأس
لا يقبل ردّاً ولا تأويلاً

بل يؤول له صريح القرآن ليقال إنه عصرى ومجدد .

ثم يزعم بعد ذلك أنه أراد بذلك هداية الماديين

وما أدري أهذا هداية للماديين أم ضلال للمسلمين وفتنة للجاهلين ؟
« فقد أراد أن يأخذهم فأخذوه وأن يهديهم فأضلوه » .

وقد قلنا له أى فرق بينك وقد تخيلت في هذه القوى الطبيعية
شعوراً وإدراكاً وبين ذلك الملحد الذى تخيل في الآثير مثل ما تخيلت
حيث يقول

فلعل الآثير خير سميع ولعل الآثير خير بصير
ولعل الآثير خير إله ولعل الآثير خير نصير

ومن العجيب أنه يرمى غيره بالجمود ولا أدرى من الجامد
أذلك انذى يقول إن العوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ
إِلَّا هُوَ) ^(١) وأن العلم لا غاية له (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢)،
«ولذلك أمرنا أن نؤمن بالغيب ولا نقتصر على الحس» أم ذلك الذى
لا يعرف إلا المحسوس ولا يمكنه أن يخرج من تلك الدائرة الضيقة
التي يشاركه فيها الحيوان الأعجم الذى لا يؤمن إلا بما وقع عليه بصره
وأدركه حسه

وقد دافع الشيخ رشيد عن نفسه بأنه وافق المسلمين فى أن الملائكة
عالم نورانى مستغل فى موضع آخر غير تفسير البقرة ، ولم يدر أن
هذا معناه أنه متخبط أو متلون

يوافق المسلمين فى موضع والماديين فى موضع آخر ، ولكن

إذا لم تكن ، لا الأستنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وقد طال لبنت القول فى هذا على غير قصد منا ، وعسى أن يتبين به

مقدار منطق الشيخ ونبوغه فى صناعة الاستدلال والبرهان

وأما تدليسه فى النقل وعدم تحريه فيه فقد قال فى (منار ذى الحجية
سنة ١٣٥٠ هـ) ن حديث توسل آدم عليه السلام بنبينا صلى الله عليه
وسلم قد ذكره القاضى عياض فى الباب الأول من الجزء الأول من الشفاء ،
فرجعنا إليه فلم نجد لذلك أثرا ولا خبرا وأمامك (المنار) المذكور
فارجع إليه ، ثم إلى كتاب الشفاء فى الباب المذكور

(١) سورة المدثر الآية ١٣

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وقال في الجزء الأول من المجلد الثاني والثلاثين من المنار أن ابن حزم توفي في القرن السادس، مع أنه توفي سنة ٤٥٦ هـ أى في منتصف الخامس تقريباً

وقال رداً على الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجمجموني، وعندما اعترض عليه في التشنيع على كعب الأحبار وقال له إن البخاري أو غيره يروون عنه . فكتب عبارته هذه في الجزء الأول من المجلد السادس أو العشرين بصحيفة (٧٣) ثم رد عليها وأراد أن يلبس على القراء بأن البخاري لم يرو عن كعب الأحبار فقال في صحيفة ٧٧ مانصه « وقد صرح الحافظ الذهبي في الطبقات ، بأنه ليس له شيء في صحيح البخاري وغيره » وأنت إذا راجعت « طبقات الحافظ للذهبي » وجدت ترجمة كعب الأحبار بالجزء الأول بصحيفة ٤٥ وفيها مانصه حرفياً: (واه - أى كعب الأحبار - شيء في صحيح البخاري وغيره) فما نظر كيف دس في كلام الذهبي كلمة (ليس) لتقلب الكلام من الإثبات إلى النفي فهل رأيت في أمانة النقل أعظم من هذه الأمانة التي تقلب الشيء إلى ضده؟

وقد كان يظن أن « طبقات الحافظ للذهبي » لا توجد عند كثير من الناس ، فلما عرف أن الأمر قد اتضح وأن تلبيسه هذا قد عرف وهدد بنشر ذلك في الجرائد خاف أن يفتضح أمره ويظهر سره ، فاعتذر باعتذارا غير مفهوم ولا معقول في قصة يطول شرحها ولعلنا نعود إليها .

وفي الجزء الثاني من المجلد ٣٣ استشهد على رأيه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعبارة المقرئى الذى أنكروا على الطيندى الذى كان محتسباً بمصر

وقد كان من الأمانة أن يبين أن هذا الإنكار من المقرئى كان سببه المنافسة التى كانت بينه وبين الطيندى فى وظيفة الحسبة إذا كان المقرئى يرى أن الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بدعة مذمومة فما به لم يأمر بإبطالها وقد كان بيده الأمر عندما عاد لوظيفته الحسبة مرارا لغاية سنة ٨١٠ ، ولو كان الأمر على غير هذا ولم يأمر بإبطالها عندهم كان محتسباً مع كونه يعتقد أنها منكر لكان ملوماً أكثر من الطيندى الذى أمر بها وهو يعتقد أنها غير منهى عنها ، وكان عليه أن يذكر مع ذلك أنه كان فى ذلك العصر من كبار العلماء من تعنو لهم الوجوه مثل البلقينى المتوفى ٨٠٥ وقد كان ممن بلغ درجة الاجتهاد على ما يقول السيوطى وغيره ومثل الحافظ العراقى وتلميذه الحافظ ابن حجر العسقلانى وغيرهم ، لم ينقل عنهم أنهم أنكروا ذلك ولو كان منكرا ما أقروه ولا سكتوا عليه خصوصاً البلقينى فإنه كان مسموع اللمة وكان يحضر مجلس تولية السلاطين كما فى « حسن المحاضرة ». فكان مقتضى الأمانة أن يذكر ذلك كله ولا يكتم من الحقيقة شيئاً

وبعد هذا كله فكتب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة بين أيدينا وأقوالهم معروفة فضلا عن الأدلة الواضحة التى ذكرنا كثيرا

منها في مجلة الأزهر ولو فرضنا أن هناك خلافاً لم يكن هناك وجه
للإنكار على فاعليها فإن المنكر لا ينكر على فاعله إلا إذا كان مجمعاً
على إنكاره ، ولكنهم بهت لا يطلبون الحق ولا يستطيعون الإنصاف
وسترى بعد هذا من أمانتهم وعقليتهم ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم.
وسنحاكمهم أمام العقل والنقل وإن كان القوم يخطئون في المعقول
ويدلسون في المنقول وسترى من ذلك شيئاً كثيراً إن شاء الله

تعليقات :

تعالوا نتحاكم الى العقل والمنطق

والدعوى إن لم تقيحوا عليها بينات أبناؤها أدعياء
إلى جميع المسلمين شرقاً وغرباً

نريد أن نبين جلية الحق للقراء فيما كان بيننا وبين الشيخ رشيد
بما لعلم عرفوا مداه ، أو سمعوا صداه (وابعلم الشيخ رشيد أننا في أول
المعركة) إن صاحب (المنار) قرر في تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ^(١)) من سورة البقرة صحيفة
٢٦٧ جزء أول من تفسير (المنار) أن (الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية)
وستسمع ذلك بغاية التفصيل ، فشنعنا عليه في (مجلة الأزهر) الصادرة
في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥١ بأن ذلك يخرق الإجماع ، ويصادم
الكتاب والسنة مع شنائع أخرى نأتى عليها بعد . فقامت قيامة الشيخ رشيد
وملا الدنيا صرخاً وعويلاً وكتب في ذلك كثيراً - وكثيراً جداً كما
يقربون - وقد شتم كثيراً واقذع كثيراً ولكن لا يهمننا ذلك . فكم شتمت
(الحمارة) الأسناذ الإمام الشيخ محمد عبده بل كم قالوا في رسول الله

(١) مجلة الإسلام - السنة الأولى - العدد ٥٠ - شوال - سنة ١٣٥١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

صلى الله عليه وسلم. (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَبْدِيلًا) (١) وما أحسن قول من قال

ما كل شيء له جواب جواب ما يكره السكوت

ونحن نلخص لك ما كتب تلخيصاً وجيزاً، ثم نرد عليه فنقول

يلمس القارىء من كتابات الشيخ المتضاربة التي يقول فيها بعضهم :
أنا لا أدرى أيريد الشيخ من كتاباته الطويلة التي توجب الدوار أن يثبت
أم يريد أن ينفي^٥، نقول يلمس القارىء من تلك الكتابات أنه في حيرة
شديدة وارتباك بالغ، ولا بد للمرتبك أن يتذبذب هنا وهناك . ولا يثبت
على حال واحد . (والمبطل لا بد أن يتناقض شاء أم أبى)

أما وحاصل تلك الكتابات على ما فيها من طول وفضول أجوبة ثلاثة ،
وأظن الشيخ لا يحسن بذلك أو لا يعرفه

(الجواب الأول)؛ يريد إثبات افتراءنا عليه وكذبنا فيما ردهناه به
من أنه ذكر ذلك في سورة البقرة فيجيب عنه بأنه ذكر في سورة النساء ،
أن الملائكة عالم غيبي مستقل . فهل يرى أحد شم رائحة العلم أن ذلك
يثبت افتراءنا عليه وأى علاقة بين هذا البرهان وتلك الدعوى؟ وسترى
من ذلك شيئاً كثيراً . وقد قلنا إن هذا أشبه شيء بمن ضبط متلبساً بجريمة
السرقه فأخذ يدافع عن نفسه بأنه تبرع بكذا وكذا لبعض الجمعيات
الخيرية . ومن الذى يبلغ الشيخ أن هذا فرار من الجواب لا تقرير له
أو نقول إن هذا مثبت للتهمة لا نافي لها .

لأنه فهو إلى الآن لم يجب عملاء آتهمناه به بحرف واحد وأين سورة
البقرة من سورة النساء؟ ولكن الشيخ يستدل بالجزئى على الكلى

أو بالشيء عن ما يباينه عكس ما يوجهه المنطق الصحيح . فهو يقول
سورة النساء ليس فيها إلا عقيدة المسلمين وإذن فكل سورة كذلك .
أفلا تعجب من هذا المنطق القلموني^(١)

(الجواب الثاني) إنه يتحكك بشيخنا وشيخه الشيخ محمد عبده
وكان يجب عليه أن يقيه بنفسه من ذلك الذي يقول فيه إنه كفر رميناه
به . ونقول له بعد ذلك (والله لا يستحي من الحق) (والتصريح لا بد
منه في هذا المقام مقام المحاكمة) إننا لا نصدق نقلك ولا نثق بفهمك
وقد أخبرني بعض كبار الشيوخ أنه كان يحرف في النقل ويخطيء
في الفهم وكان الأستاذ الإمام يتألم من ذلك كثيراً ولكن لأمر ما
كان يعطف عليه ثم نقول : إن المسألة من أصول الدين ولا ينبغي
أن يكون الحكم فيها لغير الدليل والبرهان ، والشيخ رشيد يتمدح دائماً
بالاستقلال ويكثر من ذكر الأحرار المستقلين في الفهم . فما باله لا يرى
لنفسه وجوداً الآن

بغياً وجبناً وإسرافاً وثرثرة لا يستوى الخصلتان الجبن والصلف
وقد قالوا قديماً « كن ممن يعرف الرجال بالحق ولا تكن ممن يعرف
الحق بالرجال » وبعد هذا كله فلماذا لم يعلق عليه إذا كان غير صحيح
في نظره ؟ بل أقره وحبذه أليس هذا غمنا للمسلمين أو سلوفا
لطريق المبشرين ؟ ولا بأس أن نقول لصاحب المنار (ولا أدري أي عرفه
أم لا) ما قاله علماء البحث والمناظرة أنه متى التزم صحة المنقول كان
قائلاً به ومتى كان قائلاً به كان محاسباً عليه فليختر ما شاء من

(١) القلمون من أعمال طرابلس انشام ، على ماني (الأعلام للأستاذ الزركني رحمه الله) .

جواب المنع وجواب التسليم ، ولعله يفهم هذا . وقد رجونا مرارا ورجونا القراء أن يرجوه معنا في ألا يتحركك بالأستاذ الإمام فإن ذلك لا ينفعه ولا يفيدته . ولا نعرف للأستاذ الإمام شيئاً صححت نسبته إليه في التفسير غير جزء (عم) أما ما عدا ذلك فهو بنقل الشيخ رشيد وهو غير مأمون عندنا لا في النقل ولا في الفهم

(الجواب الثالث) إنكاره ما نسيناه إليه وادعاؤه أننا افترينا عليه وهو موضوع اليوم وستعرف جليلة الحق فيما نتلوه عليك وأرجو ألا تسأم فقد جعلتك قاضياً فيجب أن تدرس القضية درساً يمكنك من الحكم الصحيح وإني أعجب له كيف ينكر ما يمكن القارئ أن يطلع عليه فيراه بعينه ويلمسه بيديه ؟ ولكن

إذا لم تكن إلا الأسنه مركبا فلا يسمع المضطر إلا ركوبها وإليك بيان ذلك . يقول الشيخ رشيد تمهيدا لما يريد في تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ^(١)) الخ : إن القصة التي وردت في هذه الآيات من باب المتشابهة فإما أن يلتزم التفويض كما هو مذهب السلف أو التأويل كما هو مذهب الخلف . ثم نقل عن بعض المفسرين (ولا ندري) من هو ولعله من الباطنية إن صح أن يكون له وجود) إن القصة من باب التمثيل . وأن المراد من الملائكة القوى الطبيعية وأطال في ذلك جداً (من صحيفة ٢٦٧ إلى ٢٧٥ من الجزء الأول من تفسير المنار) ثم حيد ذلك غاية التحديد ، وأورد شبهة كثيرة على اعتقاد أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل . وستسمع شيئاً من ذلك ، ثم قرب ما يقول بما استطاع من التقريب .

فمن ذلك تسميته تلك القوى الطبيعية أرواحاً وأن الإنسان قد يتخيل فيها حياة وشعوراً وإذاً كانت كذلك فلا مانع من تسميتها ملائكة . ويقول العاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات فما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه غيرهم ملائكة . وقد عبر القرآن عنها بالملائكة موافقة لما كانوا يسمعون من آباهم الأقدمين . ويقول إن المراد من سجود تلك الملائكة لآدم عليه السلام هو تسخيرها له وانقيادها لطاعته وأن إرَاد من إبليس هو تلك القوة الشريرة المودعة في نفوسنا التي لا يمكننا إخضاعها وتذليلها . إلى كلام طويل يجب أن يكون في رسالة خاصة مع بيان ما فيه

وله في قصة آدم وجنته ما يقرب من ذلك حيث يقول (في صحيفة ٢٨١ إلى آخر ٢٨٣ من الجزء المذكور) إنه يصح أن تكون قصة تمثيلية وأن المراد من آدم هو الفرع الإنساني كله وأن المراد من الجنة هو دور الطفولة ، آذى لا تعب فيه ولا نصب ولا هم ولا غم ؛ إلى آخر ما يجعله قصة خيالية ليس لأشخاصها وجود في الخارج على نحو ما فعل الباطنية والبابية في القرآن حتى مرقوا من الدين كله بتلك التأويلات الفاسدة التي لا يصح أن تكون كلامنا فضلا عن كلام الله تعالى ، أو نقول على نحو ما فعل أبو زيد الذي كان يرد عليه الشيخ رشيد وبسميه ملحد دمنهور ولو جوزنا هذا التأويلات في مخاطباتنا ومعاملتنا لفسد العالم كله

ولنناقش لك شيئاً من عباراته بنصها ثم نعلق عليها (مناقشة في

كلامه) ؛ يقول في الرد على المنكرين عليه إن الملائكة هي القوى

الطبيعية ما نصه (لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذى يتخيلونه من لفظ قوة) ثم قال: (أوليسست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له فإذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحاً فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئاً من اليقين) هذا كلامه. (وأقول أولاً: لا أدري كيف يذكر ذلك لبيان براءته مع أنها تثبت التهمة عليه غاية الإثبات ولعله أراد أن يكون مادياً صريحاً بالبرهان الذى يبرر ماديته: ثم نقول ليس الكلام فى تسميته تلك القوة روحاً للطافتها أو خفاء حقيقتها إلخ فإسماء لا حجر فيها ولا مشاحة فى أن يصطلح كل إنسان على ما شاء ولكن الكلام فى أن هذا المراد من الملائكة التى ذكرها القرآن: وقال إنها سجدت لآدم إلا إبليس وأنها حاورت ربه وأن هؤلاء الملائكة هم الذين قال لهم الله (إِنِّي أَعْلَمُ نَمَالًا تَعْلَمُونَ) (١) وأن آدم قال لهم (أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٢) إلخ. إلخ.

فالذى نعتقده أنها ذوات عاقلة يشاقى منها السجود والحوار والتعليم والتعلم إلى غير ذلك ونعتقد أنها ليست جزءاً من المادة الصماء البكماء العمياء ولا قوة منطبعة فيها ومن اعتقد ذلك لم يكن مؤمناً بالملائكة التى آمن بها المسلمون. ثم أراد أن يشكك الناس فيما يعتقدونه من أمر الملائكة فقال: ﴿لَوْ أَنَّ مَسْكِينًا مِنْ عِبَادَةِ الْأَلْفَاظِ مِنْ أَشْدِهِمْ ذَكَاءٌ وَأَذْرِبَهُمْ لَسَانًا أَخَذَ مَا يُقِيلُ لَهُ إِنْ الْمَلَائِكَةُ أَجْسَامٌ نُورَانِيَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّشْكَالِ ثُمَّ تَطَّلَعُ بِعَقْلِهِ إِلَى أَنَّ يَفْهَمُ مَعْنَى نُورَانِيَّةِ الْأَجْسَامِ وَهَلْ

(١) الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة، الآية ٣١

النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ، وما معنى قابلية التشكل ؟ وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسب ما يريد ؟ وكيف يكون ذلك ألا يقع في حيرة ولو سئل عما يعتقد من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله

وقال في ذيل الصحيفة في قولهم إنها أجسام نورانية هذا هو التعريف المنهور في كتب الكلام وغيرها وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم في اللغة ولأنه صار متأرفاً وإن لم يكن مفهوماً هـ

فانظر إن هذه الصرائح ثم إلى إنكاره لتعجب كثيراً ، ثم نقول إن القرآن نطق بأن الملائكة تتشكل كما قال العلماء قال عز وجل في قصة مريم (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)^(١) وجاءت له السنة الصحيحة ففي الحديث المتفق عليه في بيان صفة الوحي : أن الملك كان يتمثل له صلى الله عليه وسلم رجلاً فيكلمه فيعنى ما يقول وفيه أيضاً أنه كان يجيئه في صورة دحية الكلبي ، وقد جاءه في صورة أعرابي في حديث الإيمان والإسلام والإحسان وفي الصحيح أيضاً أنه رآه على كرسي بين السماء والأرض ، وفيه أنه رآه قد سد الأفق فكيف غاب ذلك كله وأضعافه وأضعافه عن محدثنا الكبير الشيخ رشيد ؟

(١) سورة مريم ، الآية ١٧

ومن العجيب قوله (وهل النور وحده له قوام يكون به ممتازاً . . إلخ)
فإننا لم نقل إنه نور كهذا النور الذي نشاهده وإنما قلنا إنه نوراني
وشتان ما بين العبارتين ومن الذي ينكر أن في الأجسام ما هو ظلماني
ونوراني ولطيف وكثيف . ومعتم ومشع . وهل يستطيع أحد أن يسوى
بين الراديوم والفسفور أو الأكسجين وبين غيرها فلو فرضنا أن الله
خلق من الراديوم أو الفسفور أو الكهربياء مخلوقاً كما خلق الجن من
النار ، أفلا يكون نورانياً ممتازاً عن غيره وقد كانوا يقولون إن العناصر
أربعة لكل منها أحكام خاصة تباين أحكام غيره ، وقد أصبحوا يقولون
إنها نحو الثمانين وبالضرورة لكل واحد منها ظواهر تباين ظواهر
الآخر وما يدرينا أنها عند الله ألوف مؤلفة ولكل واحد منها ظواهر
تخصه وهل هذا إلا حصر لمقدورات الله تعالى التي لا تتناهى فيما
عرفنا ، على أن ذلك غير صحيح بالنسبة إلى ما عرفنا أيضاً كما قلنا
هذا وقد قال كثير من العلماء إن الله يخلق الذوات من المعاني وهو
على كل شيء قدير

وقد خلق الأشياء من العدم وأخرج الضد من الضد مستندين في
ذلك إلى ما ورد من وزن الأعمال وذبح الموت بين الجنة والنار ومجىء
مودة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان تحاجان عن صاحبهما
ومن قيام الأمانة والرحم على جانبي الصراط يمنة ويسرة ، وكل ذلك
في الأحاديث الصحيحة وقد جاء في السنة من ذلك شيء كثير
(كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (١)

فما معنى تلك الطنطنة، وهاتيك الجعجعة؟ وأما قوله إن كون الملك جسماً غير مفهوم فهو غير مفهوم، فما المانع من أن الله يركبه من عناصر لطيفة نورانية كما قلنا أو يخلقه من عنصر واحد بسيط، وأي مانع في العنق يمنع من ذلك؟

ولا بأس أن ننعم هذا الموضوع بما ثقل عن علماء الأرواح مما يزيل استبعاد تشكّل الملك فقد سألوا الأرواح أو الجن التي يستحضرونها عن ملابسها وصورها التي تظهر بها من أين تأخذها فأجابت أنها تأخذها من الأثير الذي هو مألء الكون كله قبواسطه يمكنها أن تظهر به بل مظهر وتتشكّل بكل شكل ومن العار أن يعترف علماء الأسبرنزم (استحضار الأرواح) بذلك ويعرفوه ويؤمنوا به ونحن هنا نذكره وقد جاء في كتابنا وسنة نبينا بل لم يتم الوحي الذي هو أصل الدين كله إلا به، وأما ما يقرره الفلاسفة من أنها جواهر مجردة فلا يفهمه الشيخ — ولا بالتفهم «لانفيض فيه»

وبعد هذا فما لنا ولمعرفة كنه الأشياء وحقائقها؟ فليس النزاع في ذلك وإنما النزاع في وجود شيء خارج عن المادة وقواها يسمى ملائكة وفي أن الإيمان بكل ما في المادة من تخصصاتها وظواهرها لا يعد إيماناً بالملائكة التي أرادها الله. ولا ينبغي أن يروغ الشيخ عن محل النزاع إلى هنا وهناك فإن الأمر معروض على الخاصة لا على العامة. وهل الجهل بكنه الملائكة يدعو إلى ذلك كله؟

أم الحق أنها أهواء معها بترجمة في التلبيس ونبوغ في التباديل ومع هذا فالشيخ يدعي أنه سألني لا يرى غير مذهبه الهنئف الذين

يفوضون ولا يؤولون . ولكن الميطل لا بد أن يفتضح أمره ويظهر سره
مهما حاول كتمانهُ أو نثق بيانه

وليعلم بعد هذا أننا لم ندرِك كنه أنفسنا بل ولا كنه شيء من
الأشياء التي يقع عليها حسناً وإنما نعرف منها ظواهرها لا غير -
وأما حقيقتها وكنهها ولماذا كانت تلك الظواهر وكيف تكونت هذه
الأشياء وما أوائلها فلا سهيل إلى معرفته . وقد نقلنا ذلك عن أساطين
علم الطبيعة بأوروية في مقالاتنا التي رددنا بها على الطبيعيين في مجلة
الأزهر من سنتها الأولى ، خصوصاً العدد الثاني من تلك السنة ، فليس
الجهل بالكنه خاصاً بالملائكة؛ بل هو عام في كل شيء . وبعد هذا
فلو كان الإيمان متوقفاً على معرفة الكنه لم يكن أحد مؤمناً بالله عز وجل .

ثم قال مفرعاً على ما ذكره من تارك التشكيكات (فليرجع
هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف
لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة) ونقول له إنها علوم بلغت عندنا
أعلى مراتب اليقين والله الحمد وما ذكرته من الشبه هو أوهى من
بيت العنكبوت .

ثم نقول لك ولن هو على منذهبك ارجعوا إلى أنفسكم فإن الذي
وقر فيها هو مذهب الماديين لا مذهب المسلمين فإن الله لا يريد أن
نؤمن بتلك القوى التي نعرفها في المادة ولو كان الأمر على ما زعمتم
لكان الماديون أرسخ قدماً منا في الإيمان بالملائكة ، وليت شعري ما فائدة
ذلك العناء فإنى أراه عبثاً صرفاً لا ينفعنا ولا ينفع الماديين فإن ذلك
غير كاف في الإيمان بالملائكة .

والحقيقة أنكم وافتم الماديين ولم يوافقوكم وأردتم أن تأخذوهم
فأخذوكم

أسأل انه ألا يجعلنا من كذبوا عما لم يحيطوا بهامه ولما يأتهم
تأويله ولا ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعاً . ولا ممن يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه
وهو ألد الخصام . ومعدنا ببقية التعليقات المقال الآتى وسترى فيه
أعجب من هذا .

تفسير قوله تعالى :
إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
تبيان بعض آيات الله في مخلوقاته

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)^(٣)

اعلم أن الله أمرنا بالتفكير في مخلوقاته وما أودعه فيها من الأسرار الناطقة
بوحدايته، وعظيم قدرته وبديع حكمته ، وذكر لنا نماذج من تلك
الآيات في كتابه العزيز فقال : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)^(٣) وقال (وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)^(٤) وقال : (وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(٥) (وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِيَتَسَكَّنُوا إِلَيْهَا)^(٦)

وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : « يكفيني في الدلالة على الله
وإبطال قول الماديين وجود الأنثى بجانب الذكر ، فمن الذى أشعر
المادة الصماء العمياء أن بقاء نوع الإنسان يتوقف على وجود المرأة بجانب

(١) مجلة الازهر - الجزء الثاني - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣

(٢) سورة الباقية ، الآية ٣ ، ٤ (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(٥) سورة الروم ، الآية ٢٠ (٦) سورة الروم ، الآية ٢١

الرجل . فأوجدت له الأنثى ومتعتها بكل ما يوجب ميل النفس إليها ، وفرقت بينها وبينه في الخصائص والمميزات حتى في صوتها ؟ الخ . .

وقال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللِّسَانِ) (١) (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) (٢) (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْفَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (٣) (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) (٤) وقال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٥) وقال : (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّنْبِيلَ يَسْرَهُ) (٦) وقال عز من قائل : (أَلَمْ نَحْمُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) فجعله ناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) (٧) وقال : (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٨) وقال : (أَرَيْتُمْ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْفِى . ثُمَّ كَانَ عُلُقَةً فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) (٩) وقال : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) (١٠)

(١) سورة أروم ، الآية ٢٢ (٢) سورة الروم ، الآية ٢٣

(٣) سورة الروم الآية ٢٤

(٤) سورة الروم ، الآية ٢٥ (٥) سورة الذاريات الآية ٢١

(٦) سورة عبس ، الآية ١٧ ٢١ ١٩

(٧) سورة المسلات ، الآيات ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ (٨) سورة يس ، الآية ٧٧

(٩) سورة لقمان ، الآيات ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩ (١٠) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

وقال (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) وقال
(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(٢) .
وقال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ)^(٣) إلى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يكاد يحصى .
وقد روى « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » بل جاء في بعض
الروايات « خير من ستين سنة » وفي بعضها « خير من ثمانين سنة »
ولكنها قد تكلم فيها وهي صحيحة المعنى |

فرب فكرة توصلك من محض الإيمان وصريح الإيقان وتعرفك
من عظمة الله وجلاله مالا تنفع فيه عبادة السنين المتطولة ولا الجهود
الشاقة وأنى لعبادة الظواهر أن تصل من تطهير القلوب إلى ما تصل
إليه الفكرة في بديع صنع الله الذي يملأ قلبك هيبة وخشوعاً وسرك عظمة
وإجلالا

وعن عطاء بن أبي رباح قال « انطلقت أنا وعبيد بن عمير بن
قتادة الليثي قاضي أهل مكة إلى عائشة رضي الله عنها وبيننا وبينها
حجاب : فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم « زر غيباً تزدد حُباً » قال ابن عمير فاخبرينا

(١) سورة الرمز ، الآية ٩

(٢) سورة المجادلة ، الآية ١١

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٥

بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبكت وقالت : « كل أمره كان عجباً : أتاني في ليالي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : ذريني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القرية فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال وَيَحَاكَ يَا بِلَالُ مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّلِيلَةِ (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ^(١) ثم قال « وَيَلُ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » .

رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في التبفكر وابن عساكر ، كلهم عن عطاء .

وفي بعض الروايات « ثم قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة » ويعجبني كثيراً قول من قال :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكير
وإن ترد انهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠

إلى أن قال

شموس في البرية طالععات نجوم في الدياجي مشرقات

عيون من لجين شاخصات على قضيب الزبرجد شاهدات

بأن الله ليس له شريك

وكان سفنيان الثوري كثيراً ما ينشد

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وليست دلائل الوجدانية وآيات القدرة مختصة بشيء دون شيء ،

بل هي في الصغير كما هي في الكبير ، وفي الحيوان كما هي في الإنسان ،

وفي البر كما هي في البحر ، وفي الأرض كما هي في السماء ، والله در

أبي العتاهية حيث يقول

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ويقول أمية بن أبي الصلت

عاج لقلب من هواه أذكار وليال خلالهن هـار

وجبال شوامخ راسيات وعيون مياهن غزار

ونجوم تلوح في كل فج مشرقات وفي الدجى أقمار

إلى أن قال

والذي قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبار

وقبل الخوض في تفاصيل بعض الجزئيات نذكر كلمة وجيزة عن سعة الكون وعظمته فنقول

كنا نتمو، فيما روينا عن سلفنا الصالح أن الأرض بالنسبة إلى السماء الأولى كحلقة ملقاة في فلاة ، والسماء الأولى بالنسبة إلى الثانية كحلقة ملقاة في فلاة ، وهكذا إلى أن نقول إن السموات السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، وكذلك نسبة هذه العوالم كلها إلى العرش ..

ونقول عند الرفع من الركوع « ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض وملء بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » .

فاسمع الآن مايقوله أرباب العلوم الحديثة الذين لا يروون عن رسول ولا يقولون بالروايات والأخبار ، ولكن بالمشاهدات التي أوصلتهم إليها آلاتهم الحديثة مثل التلسكوب « المنظار المقرب » والشعاع الطيفي الذي جعل ما كان مغيباً خفياً مشاهداً محسوساً

وقد اصطاحنا في بيان المسافات البعيدة على ذلك المقياس الذي نعرفه في عبارتنا العصرية أعلى الكيلو متر ولكنهم رأوا أن ذلك المقياس ضئيل جداً لا يغنى فتياً في موضوع بيان سعة العوالم ريباناً أبعادها فماذا جعلوا من المقاييس ؟ جعلوا المقياس لذلك شيئاً يسمى برسكا ، وما البرسك ؟

هو مقدار سير النور مدة ثلاث سنوات وسدس ، وما مقدار

ما يسيره النور في سنة ؟ أو نقول : وما هي السنة النورية ؟

السنة النورية أمر يفوق الوصف ولا يكاد يصدقه العقل ، فإن النور يسير في الثانية ٣٠٠ ألف كيلومتر . وإياك أن تقول أن ذلك في الدقيقة وإنما هو في الثانية التي هي جزء من ستين جزءاً من الدقيقة فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس ، وهو ما جعلناه مقياساً فانظر الآن ما يكتبونه عن بعض السدم البعيدة عنا

يقولون إن سدِيم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك ، أي نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وإن السدم التي تمكن العلم من قياسها هي كما يأتي :

١ - ستة سدُم تبعد عنا ٦٥ برسكا ، أي نحو ٢٠٧ سنة إذا سرنا إليها بسرعة النور .

٢ - ثلاثة نجوم سدِيمية معروفة باسم (نوفا) تبعد عنا ١٧٥ برسكا ، أي نحو ٤٣٥ سنة نورية

٣ - خمسون سدِيماً مظلاماً ونيراً تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أي نحو ١٠١٤ سنة نورية

٤ - سبعون سدِيماً تبعد عنا ٩٠٠ برسكا وندع الحساب إليك فلا نطيل به

٥ - تسعة وستون سدِيماً تبعد عنا ٢٣ ألف برسك .

٦ - سدیمان حلزونیان علی بعد ٢٠٠ ألف برسك .

وهذا البيان مأخوذ من تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا
فى شهر مارس سنة ١٩٢٣

وقد قال بعضهم عندما أدهشته سعة العوالم إن هذه العوالم
لا نهاية لها . وقد وقفت آلتهم الحديثة على عظمتها وشدة التفنن فيها
أثناء تلك العوالم ولا يدرون ما وراء ما اكتشفوه . ألا يعرفنا ذلك صغرننا
وضآلة أمرنا ويفهمنا معنى قوله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (١) وقوله
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (٢) وَقَوْلُهُ (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٣)
وقوله صلى الله عليه وسلم « سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما
أثنيت على نفسك » .

ويعجبنى قول اللورد (أوفبرى) الإنجليزى فى كتابه (محاسن
الطبيعة) عندما ذكر شيئاً من سعة العوالم التى لا تكاد تنتهى
« فليكسر الحسّاب أرقامهم وليطووا أوراقهم ، فإن الأمر فوق العد
والحساب

وقد ذكروا أن أرضنا هذه أصغر من الشمس بألف وأربعمائة مرة .
وذكروا أن الشعرى أضواً من شمسنا هذه بنحو خمسين مرة ، وأن
بنات نعش أضواً منها بنحو ثلاثمائة مرة ، وأن السماكين أضواً منها
بنحو ستمائة مرة ، ولكن بعدها الشاسع جعلنا منها إلا الضوء الضئيل .

(١) سورة يس ، الآية ٣٦

(٢) سورة المدثر ، الآية ٣١

(٣) سورة النحل ، الآية ٨

أما شمسنا هذه فهي قريبة منا قريباً نسبياً ، فإن الضوء ياتينا منها في مدة ثمانى دقائق وثمانى عشرة ثانية .

وقد اقتضت حكمة الحكيم أن يجعل الأرض على هذا البعد لأنه لو جعلها بعيدة جداً لم ننتفع بحرارة الشمس ولا ضوءها هذا الانتفاع وإذاً لا يكون على الأرض نبات ولا حيوان ولو جعلها قريبة من الشمس جداً لكانت كمنار جهنم ، فلم يعيش عليها حيوان ولا إنسان فسيحان

الحكيم العليم

وإني أود أن تتخيل الأرض حينما كانت كتلة نارية كما هو باطنها لأن أو أشد ، وقد ذكروا أنه يصهر الصخور فقل لى يعيشك كيف صارت بعد ذلك محل العجائب والغرائب ؟ فقد جعلها الله مخزناً لكل ما نحتاج إليه من مساكن وملابس وغاز ووداء ، بل من رجال ونساء ، فإننا خلقنا منها (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(١)

فكم يكون دهشك إذا قارنت ذلك كله وأضعافه وأضعاف إلى حالتها الأولى عندما كانت كتلة نارية ، وهل يشتمل الشيء على ضده ؟ وهل يكمن فيه ما يباينه؟ وهل يكون من عناصره ما يتنافى هو وحقيقته ؟ وماذا عسى أن تكون تلك؟ النار التي اشتعلت على تلك؟ العجائب والأسرار حتى أصبحنا نطلب منها ما نأكل وما نشرب وما نلبس وما نسكن وما ننكح . إلخ ؟

فسبحان من لا يعرف قدره غيره ولا يبلغ الواصفون صفته
(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَانَّى
تُؤْفَكُونَ) (١)

ولا بأس أن نقول بعد هذا كلمة صغيرة عن السلسلة الحيوانية
التي تبتدىء بتلك المكروبات المتناهية في الصغر

فقد ذكروا أن آلاف الآلاف منها تعيش في نقطة ماء صغيرة وتنمو
هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر في القمفار . ويقولون : إن
هذه الحيوانات لا يساوى هيكل الواحد منها جزءا من ١٨٧ مليون جزء من
القممحة . ومع هذا الصغر المتناهى لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها
ما يهضم به طعامه وما تتم به حياته من الأعضاء الباطنة والظاهرة ،
فإذا تناهى لحيوان في الصغر فماذا عسى أن تكون تلك الأعضاء

وقد كما تمثل بالذرة لأصغر الأشياء ونؤمن تقليدا للقرآن بأن
هناك أشياء أصغر من الذرة حيث أشار إليه في بعض آياته ، ونقول
ليتنا نعرف ما هي تلك الأشياء التي تكون أصغر من الذرة فإن الله
يقول في بين سعة علمه المحيط بكل شيء (وما يَعْرُوبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (٢) حتى أبانت لنا الاكتشافات الحديثة أمر
المكروبات في صغرها ، وأسمعتنا غريب حديثها ، فقلنا عن عيان
ووجدان صدق الله العظيم حيث يقول (وما أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥

(٢) سورة يونس ، الآية ٦١

إِلَّا قَلِيلًا) ^(١) (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ^(٢)

ثم تترقى في سلسلة الحيوان من تلك الحيوانات الدنيا إلى أن تصل
إلى نوع الحيوانات العليا كالفيل بل ما هو أعظم من الفيل مثل الهیئة
التي تزيد على الفيل خمس مرات ثم من حيوانات البحر ما يكبر جدا
حتى يظن أنه جزيرة في البحر .

وفي البخارى أن المسلمين وقعت لهم سمكة « من البحر الأحمر »
أكلوا منها شهرا ، وكان أطول رجل فيهم يركب على جمل ويمر من
تحت أنحناء ضلع من أضلاعها . أو كما ورد .

فانظر رعاك الله إلى هذه السلسلة العجيبة التي لا تتقيد بقيد
ولا تنضبط بحال فإن قلنا لا بد لها من فقار كالبقرة والطيور
والضفادع والسمك ، ينتقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو
أسفل منها كالعنكبوت والحشرات الدنيا وإن قلنا إن الحياة لا بد
فيها من قشور في ظاهر الحيوان ، رأينا الحيوانات الهلامية لا قشور
فيها . وإن قلنا إنه لا بد من رؤوس ، كذبتنا الحيوانات التي ليس لها
رؤوس . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلب الجسم . ورد علينا
النقاعيات والاسفنجيات ، إلى آخر ما لا يمكننا شرحه

(١) سورة الإمراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة فصات الآيات ٤١ ، ٤٢

فيها أنت ذا ترى الحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال
فلا يصد عنها بر ولا بحر ولا هواء ولا رخاوة في الجسم ولا عدم
الرأس ولا فقد الفقرات ، ولا قلة الحواس

ثم انظر بعد هذا تجد حيوانات يقتلها الأكسوجين وتعيش
تحت التراب ، أو نقول لا يمكنها أن تعيش في الهواء الكالص ،
وحيوانات لا تعيش إلا في الهواء كالطيور ، وحيوانات لا تعيش إلا
في البر كالإنسان ، وأخرى لا تعيش إلا في الماء كالأسماك

فسبحان القادر على كل شيء (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)^(١)
(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)^(٢) (مَا تَرَى فِي
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ
الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^(٣) (وَمَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)^(٤) «سُبْحَانَكَ لَأَنْحَصِي نِنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ
نَفْسِكَ» .

وان شئت أقرب من ذلك كله فانظر إلى نفسك وما فيها من
عجائب الصنع وبدائع الخلقه ، وما اشتملت عليه من الأسرار الظاهرة
والباطنة وقد قالوا قديماً « نظرك فيك يكفيك »

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢

(٢) سورة السجدة ، الآية ٧

(٣) سورة الملك ، الآية ٣

(٤) سورة الأنداء ، الآية ٩١

ولنقل كلمة إجمالية جدا عن بعض ما في الانسان

إن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي عظم واكل منها شكل
مخصوص يناسب ما نيط به وما خلق لاجله واولا ذلك اتعطلت
حركاتنا التي نأتيها كل وقت وساعة ثم انظر كيف خلق لك
الكبد والمعدة والرئتين والكليتين الخ الخ ، وكيف ناط كل واحد
سها يعمل مخصوص ، ثم أوجد لك النسم وأنبت فيه الأسنان
المختلفة ليضع بها الهضم الأول ، ثم جعل لك غطاء يغطي مجرى
الدم عند البلع ، وجعل لك مجرى مخصوصاً للطعام والشراب
وآخر للنفس وجعل للمعدة بابين للدخول والخروج ، وأمعاء دقيقة
وأمعاء عليظة ثم جعل سبيلين بعد ذلك للإخراج الفضلات التي
لو بقيت في الإنسان لأهلكته

ثم انظر بعد ذلك إلى ما فيك من المفاصل وتركيبها العجيب ،
ولولا ذلك لاختلفت أحوالك ووقفت أعمالك ، وكنت إذا أردت
أن تنام وقعت على الأرض دفعة واحدة كالشجرة حين تقع ، أو
الحائط عندما تسقط

ثم انظر إلى العين وتركيبها الذي يدهش الأنظار ويه
الأفكار .

فانظر إلى ما اختير لها من وضعها في الحجاج ، وجعلها أمام الهدن
لتكون حارسه للأعضاء الشريفة التي غطاها. ضعيف كالبطن والوجه
إلى أسرار أخرى

وأيضاً الأعضاء الخارجية كاليدين والرجلين من الأمام ، فتكون العين مشاهدة لأعماله وماذا يكون الحال لو وضعها في رأسك أو في رجليك

ثم انظر كيف كان الجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإنفعال ، والأهداب تمنع الغبار ، وتدخل الضوء عند الحاجة إليه كما في أوقات هبوب الرياح . وقد قال بعض الفلاسفة : «يكفيني هدب العين في دلالة على الله »

ثم انظر كيف ركبت العين من ست طبقات بديعة الصنع غريبة الترتيب وهي القرنية والعنابية والعنكبوتية والشبكية والمشيمية والصلبة وهذا شرح طويل لا يسعه هذا المقال ثم انظر كيف جعل داخل الأذن مصفاة تقيك ما عسى أن يكون من غبار يعكر عليك صفوك وكدر منك أنفاسك

ولما كنا أن نسير بك في بحر تلك العجائب التي لا يدري الناظر فيها أيها أعجب

ولو شرحت لك عجائب الأذن لكان عجبك أكثر ودهشك أشد . ولو ذكرنا لك ما للكرات البيضاء والحمراء من الوظائف وما يذكرونه الآن عن الغدد التي اكتشفوها حديثاً وما لها من الوظائف التي هي أعجب من كل عجيب ، لطال القول واتسع المجال

ولو ذكرنا ما وراء ذلك من أسرار الباطنة كاشعور والإدراك والتذكر والتخيل ، إلى غير ذلك ، لوقعنا من الروحانيات في بحر

لَا يَعْرِفُ لَهُ سَاحِلٌ وَلَا يَدْرِكُ لَهُ قَرَارٌ (وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ
أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)^(١)

وإجمال القول أننا غارقون في الآيات ، ولكننا لانلتفت إليها
لكثرتها وتكررها ، حتى أصبحت مألوفة معتادة وكل ما تكررت
مشاهدته سقط وقعه . وها هي ذى النجوم تطلع كل ليلة : والشمس
تشرق كل نهار ولا نكاد نلتفت إليها أو نفكر فيها اكوننا
نراها كل يوم وكل ليلة

وقد كنا ننظر إلى الطيارات أول ما ظهرت ، فلما تكررت رؤيتها
سقط وقعها فلم تزعج النفس بها فلا نكاد نلتفت إليها الآن .

قال لك قائل أنه رأى نقطة ماء قدرة لا يعبأ بها . ثم رأى
رجلاً سميعاً بصير مناظلاً مجادلاً فياسه وفاقاً قد خرج من تلك النقطة
الحقيرة لعُدته مصابياً في عقله أو هازئاً بك غير محترم لعقلك
ولكنك تشاهد ذلك الذى عدته خرافة أو جنوناً كل يوم ، فما
ذلك الشجاع الباسل ، ولا ذلك العالم المتفنن ، ولا تلك الغواني
القاتنات إلا من نقطة ماء قدرة تعافها النفس وينفر منها الطبع
نقلتها القدرة الالهية في تلك الأطوار العجيبة حتى جمعتها من نوع
البشر ذى السمع والبصر ، فسبحان القادر الذى لا تحد قدرته ولا
تناهى عظمته (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)^(٢)

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٨

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

وقبل اللقاء لقمه نتحتمك نما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : روى أن واحد قال له إني أتعجب من أمر الشطرنج ، فإن رقعته ذراع فى ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد فقال عمر رضى الله عنه : هنا ما هو أعجب من ذلك وهو أن مقدار اوجه شبر^(١) فى شبر^(٢) ، ثم إن مواضع الأعضاء التى أفيه كالحاجبين والعينين والأنف والشم لا تتغير البتة . ثم إنك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة اشتباهاً يوجب أن لا يتميذا ، بل سمعت من بعض المبرزين فى الطب أنهما لو قارنا بين أنفئز فضلاً عن الوجهين لم نجدهما يتماثلان من كل وجه فسبحان المطيف الخبير

وقد قالوا لن يبدل كل إنسان هيئة خاصة لاتماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه . ولهد تراهم يلزمون الأئى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يوقع ببهمه فى الامور رسمية علماء منهم أن إهامه لا يماثله إهام شخص آخر ولا يمكنه فيه ادعاء التزوير

ولعل القرآن خص البنان بالذكر فى قوله تعالى : (بلى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوَّى بَنَانَهُ)^(١) لهذه الحكمة ، ولعل فيه حكماً أخرى ، ولقد تعرض المفسرون لشيء منها

ولا بأس أن نذكر لك هنا ما يروى عن أبى حنيفة مما يناسب هذا المقام : يقال إنه جاء جماعة من الدهرية لأبى حنيفة رضى الله عنه أ

(١) سورة القیامة ، الآفة ٤

وطلبوا منه . ليلاً على وجود الله عز وجل ، فقال : ما تقولون في خشب قطع من الأنجار بلا نجار ، واجتمع من تلقاء نفسه ثم كون سفينة تجرى في البحر ، وهي مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، فقد احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهي مع ذلك كله تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يرعاها؟! فهل يهتز ذلك في العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل .

فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متعهد يرعاها ولا ربان يدبر أمرها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وشدة أعمالها وصعده أطرافها وتباين أركانها من غير صانع يكلؤه وحكيم يدبرها؟! فاعرفوا جميعاً وقالوا : صدقت

وقد أذير إلى هذا الدليل الذي يذكره عن أبي حنيفة في القرآن الشريف حيث يقول (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)^(١)

ولنختم مقالنا هذا بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهَ لَقَوْا عَزِيزٌ)^(٢) و

ولنقف اليوم عند هذا الحد ، ولعلنا نعود إليه في رصة أخرى .

إن شاء الله .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٣

(١) سورة الروم ، الآية ٢٥

(١) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٢)

رأينا أن نفسر لك الآية الكريمة تفسيراً يوضح معناها ويبين مغزاها وإن كان موجزا ، ثم نذكر لك بعد ذلك متممات فيها فوائد بديعة وأنظار رفيعة ، فنقول

(إن في خلق السموات والأرض) وما فيهما من الآيات البينات ، والبدائع المدهشات التي ستسمع بعضها ، وتخصيصها بخصائصها التي كان يجوز عليها ألا تكون بها ، وأن تتصف بأضدادها

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي تعاقبهما وكون كل منهما خلفا للآخر ، أو اختلاف كل منهما في نفسه ازدياداً وانتقاصاً أو ظلمة ونوراً .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد الثامن - المحرم سنة ١٣٥٦

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

(وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) من التجارات المختلفة وتبادل المنافع بين الأمم ، فيأخذ الشرق ما نبت في المغرب ، ويأخذ الغربي ما نبت في الشرق .

الفلوك يستعمل مفرداً كقوله تعالى (فِي الْفُلُوكِ الْمَشْحُونِ)^(١) وجمعاً كما في قوله (فِي الْفُلُوكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ)^(٢) أما الاستدلال به فمن حيث أن إلهام صنعته من الله تعالى ، وكذا العلم بكيفية إجرائه وتسخير الريح والبحر لذلك ، أو أنه سبب الاطلاع على البحر وعجائبه وعلى كل حال فمادة الفلك والبحر والريح وفعل الإنسان وإصلاح أمره كله من خلق الله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)^(٣) (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ)^(٤)

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) بتهييج قواها النامية ، وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والأزهار والأشجار (بَعْدَ مَوْتِهَا) باستيلاء اليبس عليها حسبما تقتضيه طبيعتها .

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) : معنى بث الدواب تكثيرها بالتوالد والتولد .

(وَتَضْرِيْفِ الرِّيَّاحِ) أى تقليب الله تعالى لها جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبوراً حارةً وباردة ، وعاصفةً ولينة ، وعقياً وملقحة ،

(١) سورة الشعراء ، الآية ، ١١٩ وسورة يس ، الآية ٤١

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢

(٣) سورة الصافات ، الآية ٩٦

(٤) سورة هود ، الآية ١٢٣

مرة بالرحمة ومرة بالعذاب! وليس يخفى ما في تصريف الرياح من تربية
النبات وبقاء حياة الحيوانات التي تدب على وجه الأرض .

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : معنى تسخير السحاب :
أن الله يمسكه بين السماء والأرض ، مع أن الطبع يقتضى صعوده
إن كان لطيفاً وهبوطه إن كان كثيفاً ، ثم يسوقه إلى ما شاء من بلد
ميت فيحيي به الأرض بعد موتها .

(لآيَاتٍ) أى : آيات عظيمة كثيرة دلالة على القدرة القاهرة
والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : فيه تعريض بأن من لم يتفكر فى آيات الله
فهو معزل عن العقل .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ
مَثْوًى لَّهُمْ)^(١) (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)^(٢) إلخ .

هذا وقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضى الله
عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « وَيُنَالُ لِعَنُ
قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » .

وإنما قيل آيات بصيغة الجمع نظراً إلى المذكورات كلها ، ويصح
أن يراد كل واحد منها على حدته ، فإن من تأمل آتى هذه الآيات وجد
كل واحدة منها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى

(١) سورة محمد ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

ووحدايته وسائر صفاته الكمالية ، إذ كل منها قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده ، فضلا عن وجوده على الوجه الخاص المستتبع لتلك الآثار العجيبة وهاتيك المنافع الجميلة

وبعد : ففي الآيه إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبية على شرف علم الكلام وفضل أهله وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة

متممات :

١ - إذا نظرت إلى النهار والليل في السنة كلها وجدتهما يتساويان أى أن ساعات أحدهما في السنة تساوى ساعات الآخر

٢ - اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فتسرى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين للدوران الأفلاك وسير الشمس في البروج وبذلك الترتيب البديع تنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان أما الرياح فتهب فتسير السفن كما تسير السحب ، فلا يتحرك السحاب إلا بالرياح ، وهي المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية .

ولا شك أن هذا العالم على هذا لنسق يحتاج أدناه إلى أعلاه ، والأعلى مفيد للأسفل ، والأسفل مستمد من الأعلى ومستفيد منه ، وعليه أصبح هذا العالم كجسم واحد!

ومادورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشمس أو الأقمار
إلا كدورة ادم في أجسامنا ولاجرم أن الجسم الواحد مديره واحد
فارتباط الجـوالم واستمدادها يدل دلالة واضحة على أن مديرها واحد
لاشريك له وقد جعل الحكماء من أدلة التوحيد وحدة النظم
(لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا^(١)). (إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(٢)

فهذه الآلة دليل على ما نطقته به الآية السابقة في قوله تعالى
(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)^(٣) فارتباطها مما قبلها كارتباط الدليل
بالدعوى وإذا نظرت إلى ما فيها من النعم الكبرى والرحمة
العظمى وجدته مثيرة لمحبة الله عز وجل من أعماق القلوب: « أَحِبُّوا اللَّهَ
مَا يَغْذُو كَرَمِهِ مِنْ نِعْمِهِ » ولذلك عقبها بقوله تعالى: « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ
مِن دُونِ اللَّهِ آتِنَا أَدَا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ »^(٤)
فما أعظم هذا لتناسق ، وما أبدع هذا الارتباط . وبهذا تعلم أن ارتباطها
بما بعدها كارتباط السبب بالمسبب والمتدمات بالنتيجة التي هي
غاية الغايات ومهابة النهايات وهي محبة الله تعالى التي هي حياة
القلوب وألذ من كل مطلوب وربما أطلنا الحديث معك فيها بعد إن
شاء الله .

وحدثني ياسعد عنهم فزدني شجوناً فزدني من حديثك ياسعد
هواهم هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٩١

(٣) سورة النحل ، الآية ٢٢

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

٣- لو جعل الله الأرض على غاية القرب من الشمس لم يعيش عليها نبات ولا حيوان ، فإنها على ذلك الفرض تكون قطعة من نجهنم ولو جعلها على غاية البعد لم يعيش عليها نبات ولا حيوان : لأن الشمس ضرورة للحيوان والنبات

فانظر إلى تلك الحكمة الباهرة والنعمة الظاهرة.

وإذا نظرت إلى أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها على ما يقررونه الآن أخذ منك العجب كل مأخذ من تلك الأرض التي أودع الله فيها بذور الحياة لكل نبات وحيوان وإنسان مع كونها قطعة من الشمس التي هي نار ملتهبة وليت شعري ما للنار وبذور الحياة- ثم جعلها مخزناً لكل ما نريد

فسبحان من جعلها كنزاً ثميناً نستخرج منه كل ما نحتاج إليه من الدواء والغذاء والفواكه الشهية والرياض البهية وكل ما نشاء (حتى الرجال والنساء) لأن النطفة من الغذاء والغذاء من النبات والنبات من الأرض (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(١) أليس من العجب العاجب أن تكون في الأرض هذه العجائب كلها التي لا يعرف لها أول ولا آخر أما جنس الحيوان والنبات ففيهما من العجائب ما لا يدركه سائر الناس بهما عاشوا دهوراً وأجيالاً وانظر إلى ما قالوه إن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش في نقطة (ماء) صغيرة وتنمو هناك وتتكاثر كما تعيش حيوانات البر في القفار

فانظر رعاك الله إلى مسألة الحياة : تجد أمراً مدهشاً ، ونبأً محيراً
متجدد أنها لا تتوقف على حال من الأحوال فإن قلنا لا بد لها من فقار
كالبقرة والطير والضفادع والسماك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار
فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبث وأمثالها وإن قلنا
إن الحياة لا بد فيها من قشور في ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية
لا قشر لها . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلباً وجدنا النقايات
والإسفنجيات ليست كذلك .

ثم انظر نظرة بسيطة في جسم الإنسان تجد فيه العجائب الناطقة
يحكمة مبدعة وفدرة خالقه فإن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي
عضلة ، ولكل منها شكل مخصوص ، ولولا ما فيها من الإتقان والحكمة
لعاقت حركاتنا التي نأتيها كل وقت كما نشاء .

ثم انظر إلى ما هو أدق من هذا تجد الخالق الحكيم قد جعل لأجل
وصول الأصوات إليك عجائب وغرائب من صيوان وصماخ وطبلة
وثلاث أعظيات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية ، وسائل ورمالات
خافطات للصوت ، وعصى وشعرات في القوقعة ، وأعصاب سمعية ،
إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله . والعين في تركيبها وطبقاتها وفائدة كل
طبقة منها أعجب وأغرب . فسبحان الحكيم العليم القادر العظيم .

وهي أمور لا يسعنا إلا الإلماع إليها والدلالة عليها ، أما تفصيلها
فلا تنفي به المجلدات . وهل العلوم على كثرتها والكتب على تنوع ما فيها
من يوم خلق الله العالم إلى أن تقرم الساعة ، والمكتشفات التي برز فيها
البرزوخ وسيرور منها أكثر مما يتخيلون ، هل كل ذلك إلا شرح لتلك
العوالم التي أشارت إليها الآية الكريمة ؟

وحاصل القول : إننا غارقون في الآيات البيّنات ، والنعم الفائضات من مبدع الأرض والسموات ولكن لاعتيادها وعدم انقطاعها لا نلتفت إليها ، لأن كل مبدول لا تأبه له النفس ولا ينفعل به القلب

وقد رأينا أن نختم هذا المقال بشيء عن اللورد أفبرى الإنكليزي الفيلسوف الشهير فنقول

كلام اللورد أفبرى :

« تتالت العصور ، وتوالت الدهور ، والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتناولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزولونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ويخبروا ؛ من خبرها إلا بما هو مشوب بالأوهام وشبيه بالأحلام . »

إلى أن قال في الكلام على الشمس :

« إنها محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التي تبخر مياه البحر وترفعها غيوما في الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى غرسنا ، وتثير الرياح وتهبج الأنواء فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب في عباب المحيط » إلى أن قال

« أما عدد النجوم فمضرب المثل لما لا يحصى ولا يحصر ، وقولنا :
كنجوم السماء ورمال البحر عدا ، مالوف متداول . والحقيقة أن النجوم التي ترمى بالعين المجردة معدودة محصورة ، وهي نحو ٣٠٠٠ فقط ،

ولكن المنظار المقرب يرينا نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ والمنظر الطينق أظهر
ملايين الملايين » . إلى أن قال

« أما أبعاد النجوم وأحجامها فتقضى بالعجب العجاب ككثرتها
الفائقة الحصر فالشمري اليونانية نجمة أثقل من الشمس جرما بعشرين
مرة ونورها خمسون ضعف نور الشمس ، وهي أبعد منها مليون ضعف
بعدها عنا » إلى أن قال

« وثلاث من بنات نعش مايا، وألكترا، وألسيون ، يفضحن
الشمس وَيَقْضُنَّهَا نورا ونارا : الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية
بأربعمائة وثمانين والثالثة بالف ضعف أما سهيل فهو أسى من
الشمس بألفين وخمسمائة مرة . والسماك الرامح « المرزم » أسطع منها
(ثمانية آلاف مرة) إلى أن قال

« أما سماك الرامح فهو على حد علمنا أسرع النجوم سيرا وأشدّها
تألقا وكبرها حجما . تقدر سرعته بثلاثمائة ميل في الثانية الواحدة
ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعف حجمها
وأما بعده عنا فتخذه لتعلمك عندما تعلم أن نوره لا يصلنا في بضع دقائق
كنور الشمس وهى على « ٩٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل منا » بل فى ثنتين « وفى لا أقل
من مائتين من الثنين » . ويزعم الفلكيون أن بُعد الثريا نحو ألف
 وخمسمائة بليون من الأميال » إلى أن قال

« إن السماك الرامح يسير ٢٢,٠٠٠ ميل فى الدقيقة ، أو ٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠
مىل فى اليوم » إلى أن قال

« ولنعلم أيضاً أن في السماء غير العوالم التي تبدو للعيان ما لا يعد ولا يحصر من الأجرام الخفية ، إما لفرط بعدها أو صغر حجمها أو ضعف نورها . إلى أن قال

« وقد اتخذ الفلكيون سرعة النور مقياساً عليه وأساساً لتقدير تلك تلك المسافات العظيمة فقالوا مثلاً إن سرعة النور ١٨٠٠٠٠٠ ميل في الثانية ، ومئات من السنين تمضي وتمر قبلما ينتهي إلينا نور نرى به مصدره السديمي . إلى أن قال :

« ولئن أخذتنا الحيرة واستولى علينا الدهول لدى تأمل أبعاد الأجرام السماوية وضخامة أحجامها وعظمة تلك العوالم التي لا تعرف لها نهاية . فكم عسى أن نحير أذهاننا ونذهل عقولاً إذا بحثنا في الوقت الذي انطوى بدون وجودها والزمان الذي مضى عليه . إلى أن قال

« هنا ليكسر الحساب قلمه ، وليضرب التاريخ ببراءة عرض الحائط ، وليقف الذهن كليلاً والعقل مخبولاً ، وليطلق الخيال في هذا المجال ولا أخاله إلا رائداً مردوداً يؤثر الاحتباس تحت القبة الزرقاء المشهودة يخبط خبط عشواء في ظلمات الأزل الشديدة » اهـ .
ولنقهر العلم على ترك الجولان في هذا الميدان فهو بحر لا ساحل له ،
وسنعود إليه إن شاء الله .

ولنتل هنا قوله تعالى : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^(١)

في ترجمة معاني القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

كثير الأخذ والرد هذه الأيام في مسألة (ترجمة القرآن) . وقد تجاوز كثير من الكتاب حدود الأدب في الانتصار لرأيه (على أنني أعتقد حسن النية من الفريقين) ولكن آفتنا فيما نرتبه الإفراط أو التفريط ، وعيبنا هو الاندفاع بالعاطفة بلا تدقيق ولا تمحيص وأكثر ما يقع بين الناس من الخلاف لو استعمل فيه المنطق الصحيح أو روعي جانب الإنصاف ولم يتمسك كل فريق بظواهر الألفاظ التي قد تبلى من مخالفة في الرأي ولم تغلب فيه الحدة على الرفق والأناة . لكان تدارك ذلك الخلاف هينا ولأمكن الاتفاق فيه على نقطة الوسط التي شط عنها الفريقان بحمية الدفاع عن النفس والأنفة من الانهزام (وقل أن ينجو من حكم العاطفة أو سلطان الأنانية ومجبة التغلب والظهور)

ويعجبني قول بعضهم (أقبح الكلام إكثار تنبسط حواشيه وتنبض معانيه فلا يرى له أمد ولا ينتفع به أحد) وأقرب ما نستشهد به على هذا مسألة اليوم التي تبارت فيها الأقلام ، واشتد فيها الخصام مع كونها من أوضح الواضحات وأول الجليات . فإن (ترجمة القرآن) بالمعنى المعروف في التراجم بحيث تقوم الترجمة مقام الأصل من كل

وجه ، وتعطى أحكامه بكل اعتبار غير جائزة ، بل غير ممكنة باتفاق الفريقين . وتفسير القرآن بأى لغة من اللغات جائز باتفاق الفريقين ولا يستطيع أحد أن يمنعه . وقد وقع بالفعل من علمائنا منذ زمان بعيد فإنه كلام بشرى يجوز ترجمته لكل لغة .

ولا فرق بين أمور الدين والدنيا في هذا ، فإن كل إنسان حر في اختيار اللسان الذى يريد أن يعبر به عما في ضميره سواء كان كلامه بأمم ككلام غيره وتبعة ذلك عليه ، وخطوئه أو صوابه ليس راجعاً إلا إليه وقد اجتمعت جماعة كبار العلماء ومحضت الموضوع وقبلته بعد تلك التحفظات التى تجعله تفسيراً لا مرأى فيه ، وقد جاء فى ملخص تلك التحفظات فى أهرام الأربعاء ٨ أبريل ما يفيد ذلك صريحاً «وما فى القرار أوسع مما فى الأهرام» .

غير أن لنا كلمة يجب أن نسجلها لنخلص بها أمام الله والناس لما عسى أن يكون عمداً أو خطأً

ذلك إننا نرى طرح كلمة (ترجمة) بالكلية ، فإنها تشير الشكوك والأوهام من القارئ والسامعين ، كما أنها بعد تمام المشروع قد توقع فى روع كثير من جهلة المسلمين والأوربيين إن هذه الترجمة التى أشرفت عليها أكبر هيئة علمية هى القرآن بعينه وأن لها جميع أحكامه . حتى إذا وجد فيها خطأً من اللجنة الأولى التى فسرت القرآن أو فيما يترجم عنها لبعض اللغات الأخرى كان منسوباً للقرآن ، وربما تعددت التراجم فكانت الأخطاء فى النهاية كثيرة خطيرة ، أما المقدمة التى ينصها للترجمة فلا نأمن بها من ذلك الخطر .

فإن ذوى الأغراض الذين يكيدون للإسلام يمكنهم أن يحذفوها عندما يطبعون تلك الترجمة توصلًا بذلك إلى ما يريدون ومن الجائز القريب كما قلنا أن يقع الخطأ منا معشر المسلمين (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)^(١) فضلًا عما يكون من الأخطاء الأخرى المقصودة أو غير المقصودة

وعلى كل حال فما في القرآن من أسرار ومقاصد لا يمكن أن يأتي عليه البشر ، كيف وللقرآن ظهر وبطن وحد ومطلع ، وفيه كليات يدخل تحتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ومتشابهات لا يصل إلى كنهها غيره عز وجل مما وقف أمامه العلماء مفوضين أو مؤولين ، وفيه من التعبير عن لحقائق ما تقضى منه العجب حيث يعبر بالعبارات التي تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ في تفسيرها عنقضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها ووجدت هي أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم المحض والاكتشاف الجديد مما يدهش اللب وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

17

وقد عد السيوطى مما يحتاج إليه المفسر (علم الموهبة) قال وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم .

وإليه الإشارة بالحديث (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) إلى آخر ما قال . ويقول الأوسى بعد ذلك : أما من صرف عمره

بوساوس أرسططاليس واختار شك القنافذ على ريش الطواويس فهو
معزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب .

وقال ابن عباس (القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطن
لا تنقضى عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن
أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحرام وحلال وناسخ ومنسوخ
ومحكم ومتشابه وظهر وبطن ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به
السفهاء) فكيف تأتي عليه التراجم وهو خارج عن طوق البشر في
نظمه وأسلوبه ومعانيه ، وأسارره وإشاراته ، وقد قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا
فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)^(١) فهو الذى لا تخلق جدته على كثرة البرد
ولا تنقضى عجائبه كما ، في الحديث المرفوع والموقوف

وخلاصة القول إننا نلج كل الإلحاح في أن لا يسمى ذلك البيان
ترجمة وإنما يسمى (تفسير القرآن بلغة كذا) وإذا لا نجد معارضا
ولا مرتابا

فإن أحدا لا يستصيح أن يمنع ترجمة كلام الرازى أو الزمخشري
أو ابن جرير إلخ إلخ . وقد قال صلى الله عليه وسلم (دع ما يريبك
إلى ما لا يريبك) وإذا ينطق هذا العنوان نفسه بأنه شيء آخر غير
القرآن ولا مماثلة بأى وجه من الوجوه فلا يغتر بتلك التسمية أحد
ولا يجد مبشر يكيده للإسلام منفذا ينفذ منه لما عسى أن يكون من
مقاصده الخبيثة وشباكه التى يتفنن فيها ولا يألوا جهدا في نسجها

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٨

من خيوط العنكبوت كما هو معروف ، وقد عرض هذا الاقتراح على فضيلة الشيخ المراغى فى جلسة كبار العلماء . فقال إذا اتفقنا على المعنى بعد تمحيص الموضوع فلا تم الأفاظ وقد اتفقنا على المعنى والله الحمد ، فنطالب فصيائه وجميع القائمين بالأمر أن يدعو كلمة (الترجمة) ويطرحوها ظهرياً ولا يعبروا إلا بكلمة (التفسير) .

وأرى من الواجب التشدد فى ذلك وعدم اتساهل فيه فيجب أن نحتاط ذلك الاحتياط ، وأن ننتقى لوضع التفسير الذى يراد ترجمته علماء موثوقاً بدينهم وعلمهم وورعهم وتحريمهم ، ونعدل عن أولئك للمجددين المتشدين الذين أولعوا بكل جديد من الآراء من غير بحث ولا تمحيص (مع أن ذلك الرأى عند ذويه قد يكون فى محل الظن أو التخمين على نحو ما يفترضون من الفروض العلمية التى قد توصلهم بعد إلى حقائق يقينية فىكون عندنا محل الجزم وهو عندهم لم يجاوز حدود الفروض

إذا نحن عدلنا عن هؤلاء واحتطنا فى انتقاء من يضع ذلك التفسير من العلماء الذين يعرفون قدر العلم ولا يحترمون إلا البرهان حياً وجدود (يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) لا فرق عندهم بين قديم وحديث فهم أصلب عوداً من أن يتأثروا بكل ما سمعوه وأكبر عقلاً من أن يخدعوا بزخارف الأقوال أو ينقادوا لكل ذى رأى مهما كان من عظماء الرجال - نكون قد أدينا الواجب وخرجنا من العهدة إن شاء الله .

ومن الغريب أن عندنا من يتبجح على أئمة المسلمين وسادات المتقدمين وينقادوا انقياد الأطفال لما ينقل عن الأوربيين ، وهذا

شر ما ابتلينا به في ديننا ودنيانا فصرنا ننفر من القديم ونرحب بالجديد
ونحتقر الحكماء من أسلافنا ونقلد السفهاء من الأوربيين وأذبال
الأوربيين

وبعد ذلك كله أرى أن الأفضل في الدعاية إلى الإسلام والأجدى
عليه إنما هو عمل رسائل تبين فيها محاسن الإسلام وأحكامه ومزاياه
التي انفرد بها ورسائل يرد فيها على الطاعنين ويبين بها خطأ المترجمين
وتعصب المتعصبين ونحو ذلك .

وإذا اقتضى الحال تفسير آية من الآيات أو حديث من الأحاديث
إفلا بأس أن نفعل على نحو ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في
كتابه إلى هرقل ثم نقتصر على هذا . مع ملاحظة أن الأحكام التكليفية
مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج مجملة في القرآن غاية الإجمال

ولا حاجة بنا في الدعاية إلى الإسلام إلى تفسير القرآن كله . وهذه
الرسائل أخف على المؤلفين والمترجمين والقارئ والسماعين وأبعد من
إثارة الشكوك والأوهام والشبه التي قد يؤدي إليها القصور في فهم
بعض آيات القرآن .

هذا - ما نراه خيراً للإسلام وأكفل للغاية المطلوبة من الدعاية إليه
واندفاع الناس بعملنا الجديد .

أسأل الله أن يقبضنا شر الفتنة : وأن يرشدنا إلى ما فيه سعادة الدنيا
والآخرة منه وكرمه

سورة الأعلى^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رأينا وقد أسند إلينا تحرير فصل التفسير لهذه المجلة أن نبدأ بتفسير (سورة الأعلى) لما فيها من الأسرار التي تأخذ بمجامع القلوب فإن فيها أموراً أربعة هي مجامع السعادات كلها

(أولها) : الإلهيات وقد أُشير إلى ذلك بقوله تعالى : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ نُجَاءً أَحْوَى «

(ثانيها) : ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وقد أُشير إلى ذلك بقوله (سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) وفي ذلك من التوحيد ورجع الأمر كله إليه تعالى ما لا يخفى

(ثالثها) انقسام المستمعين إلى من ينتفع بإرشاد الأنبياء وإلى من لا ينتفع به ، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين وقد أُشير إلى ذلك بقوله (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى . سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَتَمَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْيَى)

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد التاسع - المحرم سنة ١٣٥٧

(رابعها) : التنبيه على أن خيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الدنيا ، والأفضل الأبقى أولى بالتحصيل له والحرص عليه ، مع بيان ما يوصل إلى ذلك من تزكية النفوس وعبادة القديس عز وجل بقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

وبذلك يتم لكل ما يحتاج الإنسان إليه من معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أحوال الناس واختلافهم في الاستعدادات ، ومعرفة الآخرة وما فيها من نعم جسيمة ونار أليمة

ثم ختم السورة بقوله (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) تنبيها على أن كل ما جاء من الأنبياء ممن أنزل الله عليه كتاباً أو صحيفة ليس المقصود منه إلا هذه الأشياء الأربعة ، فإنها لم تدع شيئاً من مسائل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة إلا بينته

ومن وقف على أسرار هذه السورة الشريفة امتلاً إيماناً وإيقاناً بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » (١) ، وعلم حقاً أنه لا هداية إلا باتباع نهجه القويم وصراطه المستقيم فسيبhan من خلق الخلق وعلم استعدادهم ومراتبهم ، وما جبلوا عليه من الأحوال المتباينة والنزعات المتضادة « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (٢)

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦

(٢) سورة الملك ، الآية ١٤

البيان التفصيلي معنى السورة الشريفة :

« سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » التسيب : التنزيه وتنزيه الاسم الكريم هو الأوتبقيه على ظاهره إذا كان ما وضع له فيما تعرف بين الناس مما لا يليق به تعالى ، وألا تطلقه على غيره إذا كان مختصاً به تعالى كالاسم الطليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى هو وغيره فيه سواء إن لم يكن مختصاً . ومن تنزيه الاسم أن تصونه عن الابتذال ، فلا تتلفظ به في محل لا يليق به كببيت الخلاء ، ولا تذكره إلا مع الخشوع والتعظيم .

ومن تعظيمه ما حكى عن إمامنا مالك رضى الله عنه أنه كان إذا هم بجند ما يعطى السائل يقول : ما عندى ما أعطيك أو اتنى في وقت آخر ، ونحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول الناس : يرزقك الله أو يعطيك الله فستل من ذلك فقال إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسئول له ما يفيد رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه أن أذكره ان يكره سماعه ولو في ضمن جملة ! وهذا منه - رضى الله عنه - غاية في الورع والدقة

وذلك أن تعبراً لفظ الاسم مقحماً ، فكأنه قال سبح ربك والإقحام في لغة العرب قد يكون لضرب من التعظيم فإن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ويمجد ذكره كما يقال سلام على المجلس العالى والأعتاب السنية ، ونحو ذلك فالعنى : نزه ربك سما لا يليق به من الأوصاف

واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال لما نزلت « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »^(١) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها فى سجودكم ومن المعلوم أن المَجْعول فىهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى .

وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : سبحان ربى الأعلى . وهو استدلال قوى من السنة

وفى الكشف أن المراد بتسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هى إلحاد فى أسمائه سبحانه كالتشبيه مثلا ، وأن يصاب عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم .

الخلاصة :

أنه يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص ، ويجب تنزيه الألفاظ الموضوعه لذلك عن سوء الأدب والذهاب بها مذهب المجسمة والمشبهة .

وإجمال القول أنه إن كان « سبح » بمعنى نزهه ، فكلا الأمرين من كون « اسم » مقحما وكونه غير مقحّم ، وتعلق التسبيح به على الوجه الذى سمعت - محتمل غير بعيد . وإذا كان معناه قل « سبحان » فكونه مقحما متعين . وقد علمت ما يدل له .

و «الأعلى» صفة الرب والمراد بالعلو العلو بالقهر والافتقار،
لا بالمكان والجهة، لتنزهه عن ذلك وهذا العلو واجب لله في ذاته
وصفاته وأفعاله فأما في ذاته فبأن تعتقد أنها ليست من الجواهر
والإغراض، وأما في صفاته فبأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية،
وأما في أفعاله فإن تعتقد أنه مالك مطلق عليم حكيم، فلا اعتراض
لأحد عليه. في مر من الأمور، سواء علمت بالحكمة أو جهلتها
ولا معنى لذلك بعد إيمانك بأنه حكيم عليم

دع الاعتراض فما الأمرك ولا الحكم في دوران المملك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

وقد كتبنا توسع في هذا الموضوع برسالتنا تفسير قوله تعالى
«لَا يُسْأَلُ عَمَّا فَعَلَ»^(١)

وبالجملة فهو أعلى من كل ما يصفه به الواصفون ومن كل
ذكر يذكره به لذاكرون. فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا،
وأنواع، حقوقه على من طاعنا وأعمالنا

هـ] ويحسن بنا أن نلفت نظرك إلى أن السياق يدل دلالة واضحة على
أن المراد بالعلو علو الافتقار والعظمة والملك، لا علو المكان والجهة،
لأن العلو المحسوس عبارة عن كونه تعالى في غاية البعد عنا. وهذا لا يناسب
المستحقاق التسييح والثناء والتعظيم أبا العلو بمعنى كمال القدرة
والنفرد^٢ بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك والسورة هنا مذكورة
ليبين وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم

ثم تراه بعد ذلك أردف قوله « سبح اسم ربك الأعلى » بقوله « الذى خلق فسوى ». والخالقية والتسوية المبنية على الحكمة تناسبان العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة

واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكافى عليه تعالى ، خلافا لبعض الجهلة الذين يخبطون خبط عشواء فى هذا المقام ، فإن السلف بالخلف متفقان على التنزيه

والفرق بين مذهبيهما أن الخلف يعينون المعنى التنزيهى المراد والسلف ينزهون ولا يعينون فيقتصرون على صرف اللفظ عن ظاهره ويكفلون المعنى المراد لله تعالى

وكل ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات من التشابهات فهو مصروف عن ظاهره عند السلف والخلف (فإياك والغلط) فإن الله تعالى لم يشارك الخلق فى شىء من الأشياء وإن وقعت المشاركة فى الأسماء فانظر إلى العلم مثلا ، وهو مما وصف به الخالق والمخلوق ، تجده فى التقديم مباينا له فى الحادث كل المباينة فإن علمنا مستفاد من الحواس أو من التفكير والنظر ، وهو انتقاش وانفعال وعلم الله تعالى منزوع عن ذلك كله

وقال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فإذا كان هذا التباين واقعا بين الحوادث فما بالك به بين الخالق والمخلوق ؟

وقد نص المحققون على أن كل عالم من العوالم له أحكام تخصه ومن الغلط البين قياس عالم على عالم آخر فى أحكامه وما ينسب إليه

وأين عالم الأجسام من عالم النفوس ، وعالم النفوس من عالم العقول على ما بينته الفلسفة وأطال فيه القدماء؟ ولكن الشارع قد يتنزل في التعبير إلى مستوى العقول المحجوبة بالحس رحمة بالجمهور ثم لا يدع ذلك حتى يزيل ما عسى أن يعلق بالأوهام من ظاهره ، فيقول (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ^(١)

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) ^(٢) (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ^(٣) إلى غير ذلك من التنزيه ، فيشعر قلوبنا أن المقصود مما جاء في آيات الصفات وأحاديث الصفات مما يوهم التشبيه أو نسبة الحوادث إليه تعالى بمقتضى تلك التعبيرات التنزلية إنما هو أرواحها لا ظواهرها ، بشهادة النصيب الأخرى الدالة على التنزيه الذي قامت عليه البراهين العقلية وهذا إجماع من السلف والخلف كما عرفت ولكن كثير الجاهلون وتفسيق الثرثارون ^(٤)

وقد نرى من المفيد للجمهور أن نطيل في هذه المقامات ، ونكرر تلك البيانات فهذا هو مقتضى الحال الذي عرفناه من الاستفتاءات الكثيرة وبلغناه عن دروس بعض الحمقى الذين قرئوا في الكتب ما لا يستطيعون هضمه ولا يعرفون مغزاه

(١) سورة شورى ، الآية ١١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩١

(٣) سورة الإخلاص ، الآية ٤

(٤) الذين يزعمون أنهم أهل سنة وحديث

ولا بأس ، والمقام مقام إطناب ، وتصحيح العقيدة بتخليصها من شوائب الأوهام يحتاج إلى كثرة تذكير ومزيد تكرير - أن تلقفت نظرك إلى ما جرى بيننا وبين بعض المتعلمين العصريين ، فما أجدره بالذكر في هذا المقام لكثرة فوائده ومزيد عوائده ، قال حضرته

ما تقول في مشكلة التوحيد ؟ فقلت له وما مشكلة التوحيد ؟ فقال : قول العلماء إن الله ليس فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات ، مع أن الذي لا يكون فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات يكون معدوما فقلت له : ما أهونها مشكلة ! فقال مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات وقد رأيتها في كتاب لبعض العلماء ولم يجب عنها وسماها مشكلة التوحيد !

فقلت له : إني أجب عنها وأنا نائم ، فإن ما ذكرتموه إنما هو أحكام الماديات والله منزه عن المادة وعلائقها ، ولو كان ماديا ما صح أن يكون إلها . وما تخيلتموه من أنه لا بد من أحد المتقابلين ولا يصح أن يرتفعا معا جميعا فهو مشروط بالقابلية ، وإلا ارتفع المتقابلان معا بل يكونان محالين عند عدم القابلية ألا ترى أن الإنسان لا بد له من أن يكون عالما أو جاهلا ولا يصح ارتفاعهما عنه ، ولكن الحجر لا يقال له عالم أو جاهل لعدم القابلية ؟ فكذلك الحق عز وجل لكونه غير مادي لا يجوز أن يتصف بشيء من هذه المتقابلات ، فإن القابل

إنما هو المادة بل الفلاسفة يحيلون تلك المتقابلات على جميع المجردات كالأرواح والملائكة وهذا يرتفع الإشكال الذي تصور أولئك الحمقى أنه لا يرتفع وسموه مشكلة التوحيد

فعندما وصلنا إلى ذلك الحد قال ذلك السائل فكيف هو ذلك الإله وكيف تصل العقول إليه ؟

فقلت له : إن هنا مقامين : مقام الاستدلال على وجود الله تعالى ، ومقام معرفته بالكنه والحقيقة

أما وجوده والاستدلال عليه فأظهر من الشمس وأوضح من الحسن فإن كل شيء من الأشياء وكل ذرة في الأرض والسماء تدل عليه وتشير إليه (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)^(١) . فوجودها ناطق بوجوده ، وإمكانها ناطق بوجوده ، وما فيها من سر عجيب وترتيب غريب ناطق بعظيم قدرته وبديع حكمته وسعة علمه وإتقان تدبيره وعدم نهاية كمالاته وعلو أسمائه وصفاته (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ نَّاءٍ ذَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)^(٢) (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)^(٣) (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)^(٤) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة الطارق ، الآية ٥ - ٧

(٣) سورة مريم ، الآية ٦٧

(٤) سورة القيامة ، الآية ٣٧ - ٣٩

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ^(١)) إِنْخِ إِنْخِ
وقد قالوا قديما (نظرك فيك يكفيك) .

ولعمري لقد أودع في الإنسان من الأسرار والعجائب ما يدهش
الناظر ويبهر المفكر وقد دهش الناظرون في الإنسان من علماء
الفيزيولوجيا هل كل علم من العلوم إذا تعمق فيه صاحبه رأى
من الآيات البينات والدلائل الواضحات والبراهين القاهرات ما يجعله
يقول بلسان حاله أو مقاله سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما
أثنيت على نفسك فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . وقد قيل
قديما

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ^(٢)

أما المقام الثاني وهو الوصول إلى كنهه تعالى فأمره أيضا في غاية
الجلال والوضوح فإن إله العالمين الذي ليس كمثلته شيء يجب
أن يكون متعالياً عن العقول ، ويستحيل أن يخضع لمحدثات الأفكار
ومبتدعات الأنظار ، بماله من قواهر الأنوار ومدهشات الأسرار ، ولو لم
يكن كذلك ما صح أن يكون رب العالمين

ومن أين لذي الألوات البشرية والأدناس الطبيعية أن يدرك القدوس
الأعلى الذي تقدمت ذاته عن أن تراها العيون أو تدنو منها المظنون ؟ !

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ ؛

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٧

وقد قلنا في بعض ما كتبته أنا لا أومن بآله محدد يصل إليه عقلي ، أو يمكنني أن ألمسه بيدي ، أو أصل إليه برجلي ، فإنه إذاً يكون مادياً تسرى عليه نواميس المادة لا محالة أما آلهي الذي أومن به فهو فوق الحدود والقيود ، ليس كمثل شيء وهو السميع الصير فكيف تطبق عليه النواميس وهو قاهرها ؟ أم كيف يقاس بالماديات وهو مصورها ؟ !

وقد شظ بنا القلم ، ولكن إلى ما دعت إليه الحاجة وأوجبه الضرورة واقتضاه جهل كثير من الناس في هذا العهد الذي تراكمت ظلماته وتعاضمت آفاته ، وتكاثر مدعوه وقل منصفوه . فيألي الله المشتكى وبه لمستعان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) :

عرفت مما كتبناه قبلاً أن المراد من تسبيح الاسم تنزيهه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة ، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه ، وعن ذكره لأعلى وجه الإعظام والإجلال أو أن المراد سبح ربك الأعلى وكلمة الاسم مقحمة كما يدل عليه ماورد من قوله صلى الله عليه وسلم لما « اجعلوها في سجودكم » ، نزلت والذي يقال في السجود هو « سبحان ربى الأعلى » إلى آخر ما ذكرناه

أما قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى) فهو صفة أخرى للرب ، أو خبر لمبتدأ محذوف أو منصوب على التعظيم وقد قصد بذلك الثناء على الله وبيان صفاته الجليلة وآياته البديعة التي هي برهان على أنه الرب الأعلى ، الذى تجلت قدرته فى مخلوقاته ، وبهرت حكمته فى بديع مصنوعاته . والمراد : أنه سبحانه وتعالى خلق كل شىء فسوى خلقه ، بإعطائه ما به يكون كماله ويتيسر معاشه ويتم بقاؤه

أما قوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالمراد به : أنه تعالى قدر أجناس الأَشْيَاءِ وَأَنْوَاعِهَا وَأَفْرَادَهَا وَمَقَادِيرَهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالَهَا وَآجَالَهَا : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)^(١) ثم وجه سبحانه وتعالى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعاً أو اختياراً ، ويسره لما خلقه به بخلق الميول والإلهامات ، وإيداعه من القوى ما يعينه على ما أريد منه .

ولو تشبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ماتحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول

ومن التسوية أن جعل قامة الإنسان مستوية معتدلة ، وخلقته حسنة ، على ما قال (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)^(٢) وقد أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، على حسب معيشته وحياته التي قدرت له ، وانظر إلى حال الحيرانات الدنيا والعليا والبرية والبحرية والهوائية والبحرية وما بينها من الاختلاف ، حتى أن بعضها يعيش في التراب ويقتله الأكسوجين ، وبعضها بالعكس من ذلك ولكل طريق مرسوم وخطة ينتهجها يكون بها صلاحه وبقاؤه (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)^(٣) إلى آخر ما دهش له علماء الحيوان

ولانزال الاكتشافات تظهر من أسرار الله ماتحار فيه الأفكار ولا تحيط بدقائقه ساميات الأنظار ولعلك سمعت ما اكتشفوه الآن من الغدد وما نيط بها من الغايات وبديع الآيات

(١) سورة القمر ، الآية ٤٩

(٢) سور التين ، الآية ٤

(٣) سورة طه ، الآية ٥٠

وبالجملة فقد جعل الله تعالى جميع الأشياء مستوية في الأحكام والائتقان « لا أنه سبحانه أتقن بعضها دون بعض » وفي ذلك من الاستدلال على وجوده تعالى وحكمته ما لا يخفى فإن الإنسان إذا نظر إلى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، وكان موافقا في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة - علم على القطع أن لذلك الشيء صناعا صنعه ، ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة

قال ابن رشد لاشيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصنعة في الإحكام

وقد تبين من هذا أن من أجل الطرق التي نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه على اختلاف ألوانها وأشكالها ،

وبخاصة الإنسان ، وهي طريقة نسبتها في الظهور إلى العقل نسبة الشمس في الظهور إلى الحس

وحيث انجز بنا القول إلى هذا فلنذكر لك شيئا مما في خلقة الإنسان الذي أودعه الله من الخصائص والأسرار في صورته ومعناه ما يعجز عنه لسان البيان وطالما كان يدور بنفسه أن أعمل رسالة في تفسير قوله تعالى : ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ وقوله (لقد خلقنا

﴿الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ على نحو رسالتنا في تفسير قوله تعالى :
(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)

وقد قالوا قديما نظرك فيك يكفيك . وقال تعالى (وَفِي
الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(١)

فلننتهز هذه الفرصة ونذكر شيئا قليلا من بدائع خلقة الإنسان ،
فنقول : انظر كيف دور سبحانه الرأس ، وشق فيه السمع والبصر ،
والأنف والفم ، وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر .

قال الغزالي : ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز
عن شرح سره أعلم العلماء وأكبر الأطباء . وانظر كيف ركب هذه العين
من سبع طبقات : القرنية ، العنابية ، العنكبوتية ، الشبكية ، المشيمية ،
الصلبة ، الملتحمة . ولكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة ، ولو فقدت
طبقة منها لتبطلت عن الإبصار وانظر إلى هيئة الأشفاة التي تحيط
بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤذيها
من غبار وغير ، . فكانت الأشفاة بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق
في غير وقتها

وقد أذكرني ذلك قول بعض الفلاسفة من الأوربيين يكفيني
هدب العين في الدلالة على الله .

ولابأس أن نذكر لك قول الآخر : يكفيني في الدلالة على الله خلق الأنتى بجانب الذكر ، فمن أعلم الطبيعة العمياء الصماء أن بقاء النوع لا يكون إلا بخلق الذكر والأنتى

ولاغرو : فهي آية تسترعى الأنظار ، وتستهوى العقول والأفكار ، حيث خلق لك نثى من نوعك تماثلك صورة وشكلا ، وتخالفك ترتيبا ومعنى ، وهياً تلاً منكما لما يراد منه وإن خلقتما جميعا من ماء مهين ولا فرق بينكما في عناصر التكوين ، ولكن يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم

وقد امتن علينا سبحانه وتعالى بذلك مبينا أنها من الآيات البينات والدلائل الواضحات فقال عز من قائل : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(١)

ومما يحسن ذكره ها هنا قول فكتور هوجو : « إن القول بأن العين لم تخلق للإبصار وإنما وجدت هكذا فكان بها الإبصار ، لمن أقطع أنواع الجنون لتي تلم بالعقل الإنساني » ثم قال الغزالي ولما كان المقصود من الأنفجار جمال العين والوجه ، جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصا يضر بها

وأستلصقت نظرك بعد هذا كيف خلق في مائها ملوحة لتقطع مايقع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف مايقع في العين لاحد الجانبين

ثم انظر إلى الفم واللسان وما في ذلك من الحكم : وكيف جعل الشفتين سترا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلقة ، ومع ذلك هم معينان على الكلام ، وبعض الحروف يتوقف عليهما ولايكون إلا بهما وكيف جعل اللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان ، فضلا عن تقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا . فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي وقد جمع فيها بين النفع والجمال . وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لمزيد الحاجة إليها واقتضت الحكمة أن جعل الثنايا والأنياب لتقطع الطعام مع كونها جمالا للفم فأحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيض لونها مع حمرة ماحولها وجعلها متساوية الرأس ، متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة لاتظهر إلا في وقت الحاجة إليها وهي « الريق » ولو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للإنسان وحكمتها أن يبيل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنق ولا ألم

فإذا فقد الأكل عدمت تلك الندوة الزائدة التي خلقت للترطيب
وبقي منها ما يبس اللهوات والحلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا يجف ،
فإن جنافه يجلب للإنسان أعظم الضرر

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل فجعل
الذوق في اللسان وجميع أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه
من الملوذ . فوجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى
تناوله ، وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه ، ويعرف بذلك حد ما تصل
الأشياء إليه في الحرارة والبرودة

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر
لا يعلم حقيقتنا إلا الباري سبحانه وقد جعل في الأنف حاسة الشم
ليستدل باستشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ليتنعم باروائح
العطرة ويجتنب الخبائث وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه
وترويحاً لحرارة باطنه

ثم انظر إلى الأذن كيف جعل فيها انحرافات واعوجاجات لتطول
المسافة قليلاً فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة
واحدة فيؤذي . ولكي يعرف سير ماعسى أن يدخل إليها من الدبيب
والحشرات فإذا دخل إلى المروج من تلك الانعطافات وقف هناك
فسهل إخراجه

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه : لأن العين محل
الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذي يمشی بين يدي الإنسان .

وأيضا كان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن يساره سواء ، فتأتى السموعات إليهما على نسبة واحدة وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء ، وهذا في غاية الحكمة إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء والصوت عرض لإثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ما تراه العين فإنه أجسام وأعراض لا تزول أثناء كشف الغطاء

ثم انظر إلى بقية الاعضاء الظاهرة كاليدنين والرجلين ، ثم الباطنة كالعدة والقلب والكبد والرئتين والأمعاء والكليتين (ولاتنس السبيلين) وما فيك من اقوى المختلفة من الغذائية والنامية والجاذبة والدافعة والمصورة وما تربط بكل من الوظائف والأعمال حتى أنك تجد في الحلق منفذين منفذاً للنفس ، ومجرى آخر بجانبه للطعام والشراب . وقد اقتضت الحكمة أن تجعل هناك غطاءً يغطي مجرى النفس عند بلع الطعام وهو المسمى بلسان المزمار ، لئلا تدخل فيه اللقمة التي قد تسبب الموت ، وما أسرع ما ينفتح ويعود حال الأكل إلى آخر ما لا يمكن تفصيله في عجالته كهذه

فلنقل كما قال على رضى الله عنه : سبحان من بصر بشحم وأنزاق بلحم ، وأسمع بمعظم . (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) (١) . (أَلَمْ يَكُ طَفَّةً مِّن مَّيِّمٍ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عِلاَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى) (١). (خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (٢) (أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ) (٣)

وبعد هذا كله إذا نظرت إلى الإنسان من حيث روحه وتفكره وإدراكه وتحيله وما أعطى من القدرة على التفنن فيما يريد ، والوصول إلى أسرار الملك والملكوت ، وجدت باطنه أعجب من ظاهره ، وروحه أسمى من جسمه

وبالجملة فالإنسان إذا تفكر في نفسه استنارت عنده آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه ناطقات . شهادة لمديرة ، دالة عليه ، مرشدة إليه

ولنقف هنا اليوم إشفاقاً على القارئ أن يمل ولنُدع مجالاً للحضرات الكتاب الفضلاء سائلين الله أن ينور بصائرنا ، ويصلح صرائرنا ، ويعرفنا نفوسنا ، فإن من عرف نفسه عرف ربه

(١) سورة النجم ، الآية ٣٧ - ٣٩

(٢) سورة الانفطار ، الآية ٧ ، ٨

(٣) سورة الطور ، الآية ٣٥

سورة الأعلى (١)

قال الله تعالى (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ سَنُقَرِّطُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْغُحَّوْرَ وَمَا يَخْفَىٰ وَنُيْسِرُّكَ لِّلْيُسْرَىٰ)

ذكرنا لك طرفا من تقدير الله تعالى المبني على العلم والحكمة في
خَلْق الإنسان ، ونذكر لك اليوم نماذج صغيرة في خلق بعض العوالم
فنقول

من تقديره تعالى المنظوي على الأسرار العجيبة والحكم الغريبة
التي لا يحيط بها إلا رب العالمين ، أن فوات بين أشكال الكواكب
ومقاديرها ، ولوانها وحركاتها وأماكنها ومداراتها ، فجعل منها
الكبير ، والصغير ، والمتوسط ، والأبيض والأحمر ، إلى غير ذلك

ثم جعلها مخلقة المنازل: فمنها ما يتوسط قبة الفلك ومنها ما يكون
في جوانبها تم خالف بينها في الحركة التي تقطع بها البروج :
فمنها ما يقطع الفلك في شهر ، ومنها ما يقطعه في عام ، ومنها
ما يقطعه في ثلاثين عاما ، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك .

ثم أنها دائبة الحركة لا تفتقر ولا تنى على مر الدهور وكر
العصور

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى ما لست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك

فسبحان من قدرها أحكم تقدير ، ودبرها أحسن تدبير

ثم انظر بعد ذلك إلى كثرتها التي تفوق الحصر ، وإلى اختلاف
ظاوعها وغروبها ، فبينما تری كوكبا يأخذ في الغروب إذ كوكب
آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في
الربع الشرقي ، وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد
مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب وكأنه رقيبته ينتظر
بطلوعه غيبته ، إلى آخر ما لا يأتي عليه البيان وقد ذكرنا منه جملة
في بعض ما كتبناه عن اللورد أوفبري وغيره

ويحسن بنا هنا أن ننشد قول القائل

عجباً للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا
ويرينا علم النجوم الذي يو جب للدين أن يكون صريحا

ثم لننتقل إلى ما في الأرض من التقدير البديع ، فترى الحق
سبحانه وتعالى جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومسكن الإنسان
وجعلها ذلولاً تطؤها الأقدام ، وتنبت فيها الزروع ويعمل منها اللبن
وتبنى فيها الأبنية ، ولو جعلها من حجر أو حديد لم تمكن

المعيشة عليها للإنسان ولا حيوان ، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وهى له كفات ، فى حياته ومماته

و بالجملة فقد هيأها لكل ما يراد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وجعل فيها كل ما يحتاج إليه من على ظهرها من النباتات والأقوات والفواكه والثمار ، والورود والأزهار ، فلك فيها كل ما تميل إليه نفسك ويصبو إليه حسك ، من منظور ومسموع ، ومشموم وملموس ، وما تحتاج إليه من الغذاء والدواء بل أوجد منها الرجال والنساء

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (١)

قليت شعرى ما هذه الأرض التى أخرجت لنا جميع الأشياء حتى الرجال والنساء ، وماذا أودع فيها حتى آتتنا كل ما نحتاج إليه مما يكون وجودنا متوقفا عليه

ومن آيات الأرض التى اقتضتها عناية الحكيم تعالى أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وهذه حزنة وهذه تنيب وتلاصقها أرض لا تنيب وهذه خصبة وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ويلبها رخوة ، وهذه سوداء ويلبها أرض بيضاء وهذه تصلح لنبات كذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره « ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وليكون ذلك سببا فى التآلف والتعارف » إلى غير ذلك من الأسرار ويكفيك فى هذا قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجُدَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى

يَمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١)

فاشكر الهيك الذى نوعها هذا التنوع ، وفرق أجزاءها هذا التفريق
وخص كل قطعة منها بما خصها به ، وألقى عليها رواسيها وفتح
فيها السبل ، وأخرج الماء والمرعى ، وأمسكها عن الزوال وبارك
فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ووضع فيها
معادنها وجواهرها ومنافعها

وهيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، وجعلها ذالولا غير مستصعبة
ولا ممتنعة ووطأ منها كيبها وذلل مسالكها ووسع مخارجها
وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ، وصدعها عن النبات
وأودع فيها جميع الأقوات ، وبسطها وفرشها ومهدا وطحاها ودحاها
وجعل ما عليها زينة لها

وهو الذى يمسكها أن تتحرك الحركات المهلكة فيسقط ما عليها
من بناء ، ويموت ما عليها من حيوان وإنسان وهو الذى أنشأ
منها النوع الإنسانى الذى هو أبداع المخلوقات وأحسن المصنوعات
وجعلها حافظة لما استودع فيها من المياء والمعادن والأرزاق والحيوان
والذى جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو
زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر . فتعطلت
المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ولو زادت فى

(١) سورة الرعد ، الآية ٤

القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات

وهو الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ، وجعل باطنها بيوتاً للآموات وظاهرها بيوتاً للأحياء . وهو الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الما من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الحمل بما يتخلق في بطنها ، فإذا كان وقت الولادة وجاءها المخاض اهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج فحرارة الربيع للإخراج ، وحرارة الصيف للإنضاج ، وبالجملة لو لم يكن هذا التدبير العجيب لاختلت مصالح العالم وفسد نظام الكون

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه ولعلك حريص عليه ، أن الأرض فيما اثبتته الاكتشافات الجديدة ، وهو مذهب قديم أيضاً كما في كتب الفلسفة القديمة ، إن لها حركتين : حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، وأنها تسير بغاية السرعة ونحن عليها لا نحس بشيء من ذلك فأى تدبير أحكم هذا الصنع ، وأى علم أتقن هذا الإبداع ، وأى قدرة نفذته وأحكمت تلك العلاقات التى بين الأرض والشمس ، بل بين عالم الأرض وعالم السماء ؟ وأمر الشمس في جريانها وتدبيرها مع تو بعها من السيارات أعجب من ذلك كله

ولنتل هنا قوله تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

أَلْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ^(١)

فيا لك من آيات حق لو اهتدي بهن مرید الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة فليست وإن أصغت تجيب المناديا

والخلاصة الوجيزة أن المراد بالتقدير والتسوية أنه تعالى خلق
ما أراد على وفق ما أراد ، موصوفاً بوصف الإحكام والإتقان ، مبرأ
عن الاضطراب والتشويش

والهداية قد تكون هداية فكر وتعقل كما في هداية الإنسان إلى
كثير من مصالحه وقد تكون هداية جبليية بالإلهام كما في الحيوان .
« وإيداع تلك القوى الطبيعية في الأشياء هو نوع من الهداية والتسخير »
وقولهم إن كذا طبيعي معناه أنه الهى لا تعمل فيه وكل ما كان جبلياً
لا دخل لصاحبه فيه قيل له طبيعي ، إشارة إلى أنه على غاية ما يكون
من الإتقان ، لأنه الهى محض لا دخل لعمل الفكر فيه فإذا قولنا
طبيعى ، مرادف لقولنا : إلهى

أما قوله تعالى (والذى أخرج المرعى) فاعلم أنه سبحانه
لما بين ما يختص به الناس أو هو ظاهر فيهم ، أتبعه بذكر ما يختص
به غير الناس من النعم ، فقال (والذى أخرج المرعى) أى هو
الذى أنبت العشب ، فلا ينبغى أن يعبد غيره من الأصنام التى يعبدها
المشركون والمرعى : ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزرع
والحشيش . وروى عن ابن عباس أنه الكلاء الأخضر

أما الغشاء : فهو ما يبس من النبات فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح .

وأما الأحوى فهو الأسود وقال بعضهم الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد وقال الفراء وأبو عبيدة الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل مدهامتان ، أى سوداوان لشدة خضرتهما

وهذه الأوصاف يتضمن كل منها التدرّج ، ففى الوصف بها تحقيق لمعنى التربية ، وهى تبليغ الشيء كما له شيئاً فشيئاً ، وفى نقل الأشياء من طور إلى طور . ومن حال إلى حال دليل على تصرف القادر العظيم والإله الحكيم ، كما قال بعد أن بين أطوار الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة ثم نفخ الروح فيه (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)^(١) وكما قال (مَا لَكُمْ لَا رَجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)^(٢) وقد أفاض علماء التوحيد فى تغيير العالم ودلالته على الحدوث ، والبرهنة بذلك على وجوده تعالى وقدرته ومشيبته وحكمته

أما قوله : (سنقرئك فلا تنسى) فهو بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحي وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين ويستبين منه التسبيح الذى ينزه به ربه المأمور به فى أول السورة . فإن تنزيهه تعالى وما يليق به من جلاله وكماله يجب أن يؤخذ من الوحي الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤

(٢) سورة نوح ، الآيات ١٣ ، ١٤

ولا من خلفه ، لا من كلام أرباب العقول الذين يصيبون ويخطئون
والسمين للتنفيس أو التأكيد

أما قوله (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) ففيه احتمالان : أحدهما أن يقال
هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم ينس بعد
ذلك شيئاً قال الكلبي أنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه
الآية شيئاً وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله (إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ) أحد أمور

١- التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(١) وكأنه تعالى يقول أنا
مع أي عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لا أخبر
عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، تبيننا لكون الأتشاء
كلها مرتبطة بمشيئتنا ، وتعلينا لكم أن ترجعوا كل شيء إلينا ، فعليكم
أن تقولوها في كل شيء ، وأن تلاحظوها عند كل عمل .

٢- قال الفراء أنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً عليه السلام
شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد
أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)^(٢) ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك
وقال لمحمد عليه السلام (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)^(٣) مع
أنه عليه السلام ما أشرك البتة ، فهي من هذا القبيل

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٦

(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٥

٦ وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته . فكأن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاؤه عليه السلام على التيقظ في جميع الأحوال

٣- يصح أن يكون الغرض من قوله (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء

٤- قال مقاتل إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء هاهنا نسخه كما قال (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِنْهَا)^(١) فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها فبأمرك ألا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سبباً لنسيانه وزواله عن الصدور

أما قوله تعان (إنه يعلم العجر وما يخفى) ففيه وجهان أحدهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عند الوحي مخافة النسيان ، فقبل له إن الله عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه . ويكون مثل قوله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)^(٢)

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٦

(٢) سورة القمّة ، الآيات من ١٦ - ١٨

والثاني أن يكون المعنى فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ فإنه أعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في التسخين
أما قوله تعالى (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) فاليسرى هي أعمال الخير
التي تؤدى إلى اليسر

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه
أحدها أن المعنى سنقرئك فلا تنسى ونوفقك للطريقة التي هي
أسهل وأيسر يعنى في حفظ القرآن .

وثانيها : قال ابن مسعود اليسرى الجنة . والمعنى نيسرك للعمل
المؤدى إليها .

وثالثها : نهون عليك الوجود حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به

ورابعها : نوفقك للشريعة وهي الحنيفية السمحة السهلة
واللفظ محتمل لذلك كله ، فالأولى أن يراد ذلك كله ، فهو تعالى
ييسره لكل ما هو خير وسعادة .

وقد قال (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ^(١)) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى
إدالة على عظمة العطاء وقد دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه
من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره وكيف
لولا وقد كان صعبا لا أب له ولا أم ، نشأ في قوم جهال ، ثم إنه تعالى
جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق أجمعين ، حتى استحق
أن يقال له (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) ^(٢) بل أن يقسم الحق بحياته
حيث يقول (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) ^(٣)

(١) الأعلى آية ٨

(٢) سورة الحجر ، الآية ٧٢

(٣) سورة القلم ، الآية ٤

ثم يقول له

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)^(١) . فسبحان من حياه وأعطاء ،
وجعله أشرف خلق الله . نسأل الله أن يجعلنا من محبيه ومحبيه ممنه
وكرمه

وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام ، مع أن الشائع تعليقه
بالأمور المسخرة الفاعل كما في قوله تعالى (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)^(٢) ،
للإيدان بقوة تمكنه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها ،
بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عايتها .
وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم « اعدوا فكل ميسر لما خلق له » .
وبالجملة فالعنى : نوفرقت توفيقاً مطرداً لاصعوبة فيه ، ولا مشقة .
تعتبره ، في كل باب من أبواب الدين ، علماً وتعلماً ، واهتداءً وهداية .
فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة
السمحة والنواميس الإلهية ، مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة
والسلام وتكميل سيره ، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى (فَذَكِّرْ
إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) .

هذا واعلم أن عادة القرآن أن يرجع الأمور كلها إلى الله تعالى
مبيناً أنه لا شيء يخرج عن مشيئته وإحاطته ، فيقول (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ
إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)^(٣) ويقول (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)^(٤)

(١) سورة الضحى ، الآية ٥

(٢) سورة طه ، الآية ٢٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية

(٤) سورة الكهف ، الآية ١٧

ويقول (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(١) . ويقول (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)^(٢) ويقول (وَتُقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ)^(٣) . ويقول (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٤) ويقول (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٥) . ويقول (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(٦)

ويقول صلى الله عليه وسلم (كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ) ويقول في تفسير الإيمان (وَأَنْ تُوْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرٌ وَشَرُّهُ) .

إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة مما يثبت إحاطة الربوبية ، وببين أن الله هو مسبب الأسباب وفاتح كل باب

وهكذا يجب أن يكون رب العالمين ، أو أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، ولكن ينبغي أن تعلم أنك من الأسباب أيضا ، وقد خاقت خلقه عجيبة ، فجعل فيك من العلم والاختيار والاستعداد لقبول ما جاءت به الرسل ، ومن العقل والفكر ما يعرفك النجدين ، ويهديك إلى سعادة الدارين ، ما لم يجعله لغيرك ، وإن كان ذلك كله على حد محدود وقدر مألوم لا يخرجك عن إحاطته أو يجعلك مستطعا لمخالفة مشيئته

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٩

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٠

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢

(٥) سورة يس ، الآية ٨٣

(٦) سورة هود ، الآية ١٢٣

أر منازعة ربوبيته ، مع ملاحظة أن النظام العام للعالم قد يقضى بوجود الشر القليل لما يترتب عليه من الخير الكثير . وقد قالت الفلاسفة أن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير .

ولتلاحظ مع هذا أن للإمكان حدوداً ، وللممكن امتداداً خاصاً يقتضى أحكاماً خاصة . والإمداد إنما يكون على قدر الامتداد ، وما وراءه لا يكون وبعد ذلك كله سر القدر والحكمة التي اختصها تعالى ، والعلم الذي كان به نظام المكونات وتدبير المخلوقات ، ذلك النظام الذي روعى فيه حال الممكنات كلها لا شخصك الضئيل وقد قال تعالى (وَمَا أَتَيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ)^(٢)

فاعرف قدرك ، وقف عندما جاء به الشرع ، وإياك أن تزعداء ، واتهم عقلك وقلوب رسواك ، واعرف سعة العلم وعظمة الربوبية .

وقد دلتك على ما يسعدك في الدنيا والآخرة ، وما يجب لضعيف مثلك مع من لا يعلم عظمته إلا هو والله يتولى هداك .

قال تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ نَفْعَتِ الذُّكْرِى)^(٣)

اعلم أن كمال حال الإنسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه وقد ورد « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ »

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

(٣) سورة الأعلى ، آية ٩

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملاً في نفسه بمقتضى قوله تعالى
(وَتُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) أمر بأن يكمل غيره ليكون تاماً وفوق التمام فقيل
له (فذكر) لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين.
ومن كان كذلك كان فياضاً للكمال ، فكان تاماً وفوق التمام

والمراد بتعليق الأمر بالتذكير على الانتفاع به ، العحث على التأمل
والنظر حتى ينتفعوا بالتذكر ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له
الحق « قد أوضحت لك السبيل إن كنت تعقل » فيكون مراده
العحث على القبول والانتفاع به أو نقول إن هذا التعليق يجرى
مجرى تنبيه الرسول أنه لاتنفعهم الذكرى ، كما يقال للرجل « ادع
فلانا إن أجابك » وكأنك قلت « ما أراه يجيبك » . ولك أن تقول
ان التذكير واجب في أول الأمر ، فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء
حصول المقصود

على أن المالكية صرحوا بأنه لا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر إلا إذا ظنت الإفادة وقد أنكر عليهم بعض الشافعية ، ولكن
هذا هو المعقول ، فإن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها ولو على
سبيل الظن لم تشرع ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث

وللمالكية أن يتمسكوا بظاهر هذه الآية ، وبمثل قوله تعالى في
الآية الأخرى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)^(١) . وعلى كل حال
فعلى المؤمن أن يكون حكماً في كل ما يأتي ويذر . والشريعة لاتعرف إلا
الحكمة ولكل: لا بد أن ننبه مع هذا على أن الناس الآن قد تهاونوا في

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى وصلنا إلى مانحن فيه من شيوع المنكرات واقتداف جميع المحظورات . وفي رأبي أن العلماء لو تضافروا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعرفوا الناس أن ذلك واجب عليهم لافرق بين صغير وكبير ، لخف الأمر ودب الحياء في النفوس من الناس إن لم يكن من الله . لكننا على ما قال الأولون « افتضحنا فاصطلحنا »

ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى فقال (سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى) والخشية إما حاصلة بالفعل ، وإما حاصلة بالقوة محتاجة لمن يثيرها من القلوب ، وإنا غير حاصلة بالفعل ولا بالقوة فلا مطمع فيها فالأول حال الخاصة ، كما يشير إليه قوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(١) . والثاني حال العامة والثالث حال المتكبرين والمعاندين ، فإنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)^(٢)

وقد سمي الله ذلك تذكيرا لقوة الدلائل وظهورها ، فكان العلم بالحق حاصلًا ثم زال أو نقول : إن كل مولود يولد على الفطرة ، ففيه أصول الخير والإحساس بالحق والدين ، ولكن تفسد فطرته ، باتباع الشهوات واقتداف المنكرات ، وصحبة الفاسقين والجاهلين والمعاندين ، كما تفسد العين الصحيحة لعدم حفظها من الآفات وقلة تعهدتها مما ينفع النظر ويجلو البصر

(١) سورة فاطر ، الآية ٢١

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

والأرواح محتاجة إلى الرياضة بعلوم الدين ، ومذاكرة الكتاب والسنة ، وكتب المواظ كإحياء علوم الدين وغيره كما أن الأجسام محتاجة للرياضة البدنية

أما قوله (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى)^(١)

فنجيئك فيه على ما بيّناه قبلاً من أن أصناف الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون ، والمعاندون فالقسمان الأولان لا بد أن يكون لهما خوف وخشية بالفعل أو القوة وصاحب تلك الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها فيكون الأشقى هو المعاند الذي لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها فلهذا قال تعالى (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى)

وقد تفسد نفس الإنسان بالكبر والعناد حتى لا ينفع عنده برهان ولا يوثر فيه بيان وقد قال الله تعالى في حق قوم هذا شأنهم (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)^(٢)

فانظر إلى أى حد وصلوا من التصلب في العناد ومجاورة الحق حتى أنكروا المحسوس ونظير ذلك قوله تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)^(٣) ويقول في الآية الأخرى (وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا

(١) سورة الأعلى ، الآيات ١١ ، ١٢

(٢) سورة الحجر الآيات ١٤ ، ١٥

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٧

لِيُؤْمِنُوا^(١). ويقول (وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ^(٢)) إلى غير ذلك مما بيّن لنا أن الفطرة قد تصل إلى حد من الفساد لا مطمع فيه

وعلى كل حال فالإنسان مجمع العجائب والغرائب ، فقد يلطف حتى يكون أطف من الهواء وأسلس من الماء ، وقد يكثف حتى يكون كالحجارة أو أشد قسوة

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام أن هذه الخصال المقتوتة من الكبر والحرص والحسد ونحوها إنما خلقت في الإنسان لحكم بليغة ، وقد جعل لها الحق سبحانه وتعالى مصارف لو صرفت فيها لكانت فضائل لا رذائل ، وكان هذا موضع الابتلاء والامتحان ولنقص عليك شيئاً من ذلك فنقرّل مثلاً خلق فيك الحسد لتصرفه في المناسبة في فعل الخير والغيطة عليه والمسابقة إليه وخلق فيك غيظة الكبر لتستعملها في التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفيين في الحرب « هَذِهِ مَشِيَّةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ » وقال فيمن فرط في بعض آداب الصلاة حرصاً عليها « زادك الله حرصاً ولا تعد ، وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه فقال يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ^(٣) » وقال (وليجدوا فيكم غِلْظَةً^(٤))

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١١

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٥

(٣) سورة التوبة ٧٣ والتحريم ٩

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٣

وخلق فيك غريزة الحرص لتصرفها فيما ينفع ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « احرص على ما ينفعك ولا تعجز » وخلق فيك الشهوة القوية لتقوم بما جعله لك من التزوج بأربعة والتسرى بما شئت ليحفظ بذلك بقاء النوع ويكثر من أفراده ، وهو أحب مخلوقاته إليه « ولذلك علمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته ».

وجعلك فيك غريزة حب المال لتنفقه في مرضاته ، وتتزود منه لمعادك . وجعل فيك غريزة حب الجاه لتصرفه في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . وهكذا جميع القوى التي ركبك فيك جعل لها مصرفا ، وقد أودعها الله فيك لمصالح اقتضتها حكمته فليس المطلوب تعطيلها ، وإنما المطلوب صرفها في مجاريها ، واستعمالها في موضع دون موضع ومحل دون محل على حسب ما يقضيه الشرع والعقل والحكمة ، وهو موضع الابتلاء وسلم الارتقاء ، وميدان العقل والذكاء ، إلى آخر ما يرشدك إليه قلبك الطاهر ونفسك الزكية

واعلم أن الكبير من أعظم الآفات بل هو أسوأ وجماعها وهو الداء العضال الذي لا تنفع معه موعظة ولا يفيد فيه دواء . وإذا عجز الرسل وهم أعظم أطباء النفوس عن هداية المتكبرين ، ففيرهم بالأولى وقد قال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)^(١)

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

وماذا رجو ممن انتحل لنفسه خاصة الآلهية والآلهية تباي المشاركة فكيف تسبح نفسه الجاهلة المتألهة أن تكون سامعة لغيرها أو تابعة لمن سواها؟ فإذا ترسخ ذلك الخاق الذميمة في النفس اعتقد صاحبه أنه أسمى من غيره ، وأن كل من عداه دونه

وقد قال الإمام الغزالي: إن في النفس غريزة الترفع على الغير ، وهي تريد أن تقول: «أنا ربكم الأعلى» كما قال فرعون ، إلا أن فرعون ، وجد من يقبل منه ذلك ولا يعارضه ، فكيف مع هذا يقبل المتكبر النصح من غيره ، أو يصغى للحق من نبي أو رسول؟ وكيف لا يحق. على غيره إذا رأى فيه فضيلة ترفعه عليه وهو لا يرى إنسانا أحق بالتبجيل والتعظيم منه؟

فلا غرو إذا أن يدفعه كبره إلى كل رذيلة ، ويحول بينه وبين كل فضيلة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» ، لأن الكبر كما عرفت، يورط صاحبه في الأخلاق التي تورثه المقت في الدنيا والآخرة

وبالجملة فالتكبر لا يرجى له فلاح ولا ينتظر منه صلاح
(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا)^(١)

وانظر إن شئت إلى ما حكاه الله عن أولئك المتكبرين في قوله (أَنْزُومُنُ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ (١) (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) (٢) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ
بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ) (٣)

فانظر إلى ذلك المنطق الغريب ، بل الضلال البعيد الذى خيل
لهم أن مَنْ كان مثلهم فى البشرية يجب أن يكون مثلهم فى كل شىء
« وهكذا تكون فلسفة المتكبرين وعلوم الجاهلين »

والخلاصة أن هؤلاء ما منعهم عن اتباع الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، إلا جهلهم وتكبرهم وأنفتهم من أن يكونوا تابعين لغيرهم ،
وإلا فبإراهمين صدقه ، صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس وأجلى من
الحسن ومن نظر فى هذا القرآن وما فيه من العلوم والمعارف وأصول
السعادات ومجامع الخيرات ولم يشك فى أنه تنزيل من حكيم
حميد

فإن: كان النلاسفة الأولين والمحدثين لم يصلوا من الاصلاح العلمى
والعملى ، ولا من الآثار التى ظهرت فى الوجود وبقيت على ممر العصور ، إلى
إلى عشر معشار ما جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من الإصلاح
الروحى والجسمى والاجتماعى والفردى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٤) . وقال برناردشو المعاصر لنا

« إن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه
اليوم ، تم النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشاكله بوجه
يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة »

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٤٧ (٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٣٤ (٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

ولو نظرت في حال الأمة العربية في همجيتها أيام الجاهلية ، ثم نظرت في -نالتها بعد الإسلام مادياً وأدبياً ، لعرفت تلك المعجزة الكبرى التي أتى بها ذلك الرسول الأُمى الذى ما قرأ كتاباً ولا خطه بيمينه

ولعمري إنها لأكبر الآيات وأبهر المعجزات وهذه المعجزات المعونة في زلزال المتبصرين أكبر من المعجزات الحسية التي أفاضت فيها كتب السير وامتلات بها أسفار المؤرخين كفاك بالعم في الأُمى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

فإذا نظرت مع هذا إلى أن ما جاء به ، صلى الله عليه وسلم ، من التوحيد وأصول الدين قد شهدت به العقول السليمة والفطر الطاهرة . ووافقه عليه أربعة وعشرون ألفاً ومائة ألف نبي كلهم جاءوا بالتوحيد وإثبات الصانع عز وجل ، وادعوا الوحي وأقاموا على ذلك البراهين ، وهو عدد يحين العقل تواطوهم على الكذب ، ثم نظرت في حالهم فوجدتهم على خلاف أهل الدنيا فلا يتنافسون ولا يتحاسدون ولا يتكاذبون ، ولو كانوا في عصر واحد وصقع واحد كإبراهيم ولوط مثلا ثم انظر إلى من تعرف من المتزاحمين على الدنيا في الصغير والكبير حتى العلماء

ثم ألقت نظرك بعد ذلك كله إلى زهده صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا ونعيمها ، وعدم طلبه أجراً على أعماله الشاقة ، وما كان عليه من الشرائع الشريفة والأخلاق الكريمة ، واستواء الشريف والرضيع

عنده في الحق ، واعتراف السحرة والكهان فيما مضى ، والفلاسفة اليوم بقصور ما عندهم عما عنده ، فضلا عن كونه كان مجاب الدعوة وكان يخبر بالمغيبات الكثيرة فتقع كما أخبر

وفي القرآن من ذلك شيء كثير وكذلك فيه تنويه ببعض معجزاته الحسية خلافا لمن جهل ذلك ؛ وذلك مثل قوله « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ »^(١) وقوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقُّ الْقَمَرُ »^(٢) إلى غير ذلك ، ثم بقاء دينه وقرآنه وآثاره وأنصاره حتى اليوم . ونحن نعلم ذلك كله إما بالمشاهدة وإما بالتواتر ، وهما يوجبان العلم الضروري ، كما بين في محله

أقول : من نظر في ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه كان صدق الرسول عنده من أوضح الواضحات وأول الضروريات بشهادة العقل والنقل والوجدان والبرهان والحدس والحس ، إلا عند من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة

ونقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان الفسيخ ، ولندع تفصيله إلى لسان حاله الفصيح ولنرجع إلى التفسير فنقول

أما النار الكبرى فلإما أن يراد بها نار جهنم فتكون الصغرى نار الدنيا وإما أن تكون الصغرى والكبرى في الآخرة فإن فيها نيرانا مختلفة ودركات متفاوتة ، كما أن في الدنيا ذنوبا ومعاصي متفاوتة ، فكما أن الكافر الذي كذب بالحق وتولى عن قبوله هو أعظم المجرمين كذلك هو أعظم المعذبين في الآخرة ويصلى أعظم النيران

(١) سورة الأنفال ، الآية ١٧

(٢) سورة القمر ، الآية ١

هذا والآية نزلت على ما قيل في الوليد المخزومي وعتبة بن ربيعة وأبي بن خلف ، وهى منطبقة على كل مَنْ شاكلهم في كِبَرِهِ وتَعَنَّتْهُ في كَفَرِهِ . وقد أفادت الآية أن هناك من يصلى أقل من النار الكبرى فانها بينت أن الذى يصلها هو الأشقى ، فيكون للشقى ناراً أخف منها فتكون الاقسام ثلاثة

المتقى الذى يخشى ربه ، والأشقى الذى كذب وتولى ، وبينهما أرباب المعاصى والذنوب التى لم تصل إلى ذلك الحد

أما قوله (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ^(١)) فالمراد أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه كما قال (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) ^(٢) . وهذا على مذهب العرب : تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حى ولا هو ميت

وقد قالت سليمة زوجة صخر أخى الخنساء لن سألها عنه :

لا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيبكى فسمعها صخر فانشأ قصيدته المشهورة التى أولها

أرى أم صخر لا تمل عيادنى وملت سلمي مضجعى ومكاني
لعمرى لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان
فأى أمرئ ساوى بأم جليلة فلا عاش إلا فى شقى وهوان
وإنما قيل (ثم) للإشارة إلى أن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة . وفيه إشارة إلى أن العذاب

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٣

(٢) سورة فاطر الآية ٣٦

الروحاني أشد من العذاب الجسماني وقد يصل إلى حالة يهون عندها
كُلُّ شَيْءٍ . وليس أوضح في بيان هذا من قوله تعالى في حق الكافر :
(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (١) .

وكذلك النعيم الروحاني أعظم وألذ من النعيم الجسماني ، بل هو النعيم
[على الحقيقة (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (٢)]

أسأل الله أن يديم علينا نعمة الإيمان ، وأن يميّتنا على الإيقان
والإحسان بمنه وكرمه

قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) أى فاز من كان عمله
زاكياً ، وذلك إنما يكون إذا تطهر من الشرك والمعاصي . ومن اقتصر من
المفسرين على التطهر من الشرك فلكون ذلك هو الأهم ، ولكونه أنسب
[إنما تقدم في الآيات قبلاً

وعلى كل حال فالتزكية على درجات متفاوتة جدا فهي مقولة
[بالتشكيك المختلف المراتب البعيدة]

وقيل (تزكى) : أى استكثر من التقوى ، مأخوذ من الزكاء وهو
النماء ومعلوم أن التقوى درجات متفاوتة ، وكلها زكاء ونماء لدى
النظر الصحيح .

هذا ويمكنك أن تأخذ تفصيل التزكى الذى نيط به الفلاح من
بيان القرآن نفسه ، حيث يقول : [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٧

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٧

فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (١) إِلَى آخِرِهِ
وَمِنْ ذَلِكَ الْبَيَانِ قَوْلُهُ (بِفِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (٢) ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ
(أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٣)

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) (٤) : أَي تَذَكَرَ مَا لَرَبِّهِ مِنَ الْعِظْمَةِ وَالْجَلَالِ ،
وَأَنَّهُ سَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَيَجْزِيهِ بِكُلِّ مَا عَمِلَ (فَصَلَّى) أَي صَلَّى
الْمُصَلِّاتِ الْخَمْسِ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ وَقِيَامًا بِوَأَجِبَ رَبُّوبِيَّتِهِ

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ (تَزَكَّى) إِشَارَةً إِلَى التَّصَدِيقِ بِالْجَنَانِ ،
(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) إِلَى النُّطْقِ بِاللِّسَانِ ، وَ (صَلَّى) إِلَى الْعَمَلِ بِالْأَرْكَانِ
لِمَا أَنَّ الصَّلَاةَ عَمَاءُ الدِّينِ ، وَأَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِیَّةِ ، وَنَاهِيَةٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ ، فَلَا بَدَعَ أَنْ تَذَكَرَ وَيُرَادُ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِیَّةِ . وَيَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ قَدْ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الْفَرَائِضَ وَالْوَأَجِبَاتِ الْبَدَنِیَّةِ
لَمْ تَكُنْ تَامَةً يَوْمَ نَزُولِ السُّورَةِ .

وَمِنَ الْبَعِيدِ غَيْرِ الظَّاهِرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ إِنْ الْمُرَادُ مِنْ (تَزَكَّى)
أَخْرَجَ الزَّكَاةَ مَعْلَقًا ، أَوْ زَكَاةَ الْعِيدِ ، لِأَنَّ الْمَعْتَادَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ إِخْرَاجِ
الْمَالِ أَنْ يُقَالَ : زَكَّى ، وَلَا يُقَالَ تَزَكَّى ، وَإِنْ كَانَتْ تَزَكِيَةُ النَّفْسِ
إِنَّمَا تَكُونُ بِفِعْلِ كُلِّ مُحْمَرِدٍ وَتَرْكِ كُلِّ مَذْمُومٍ فَيَدْخُلُ فِيهَا إِخْرَاجُ
الزَّكَاةِ ، بَلْ عَمَّ التَّفْرِيطُ فِي وَاجِبٍ مِنَ الْوَأَجِبَاتِ وَبِالْجُمْلَةِ
الْمُتَزَكَّى يَتَحَلَّى بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ، وَيَبْتَعِدُ عَنِ كُلِّ رَذِيلَةٍ .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ، ١ - ٣ (٢) سورة البقرة ، الآية ٢ - ٣

(٣) سورة البقرة ، الآية ٥ (٤) سورة الأعراف ، الآية ١٥

ولا يسهل علينا أن نترك هذا المقام من غير أن نقول كلمة في التربية وما فيها من نقص عندنا

معلوم أن النزكى الذى حث عليه القرآن وناط به الفلاح فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ^(١) إلى غير ذلك إنما هو نتيجة حسن التربية والتعليم ، وليس أجدى على الإنسانية ولا أضمن لسعادتها من تعاليم الدين ، وغرس مراقبة الله تعالى فى النفوس ، مع بيان محاسن الأخلاق التى يجب التحلى بها ، وبيان مساوئها التى يجب البعد عنها ، إلى آخر ما جاء فى الشريعة المطهرة ولا تكون النزكية الصحيحة إلا بهذا .

وعلى المرئى أن يعرف التلاميذ أنه لا بد فى نيل السعادة من الضغط على النفوس وكبح جماحها ، وقمع هواها ، وعدم الاسترسال مع شهواتها ، وبيان أن لها أخلاقاً غريزية يجب مراقبتها والاحتراس منها ، فإنها مجبولة عليها ، فلا بد من محاربتها بسلطان العقل وسلاح الدين والعلم ، وذلك مثل الكبر ، وسوء الظن ، والترفع على الخلق ، ومثل الحسد وحب الاستئثار ، والتفرد بكل نعمة ، والعلو على كل أحد حتى قال الغزالى « إن فى كل نفس ربوبية كامنة ، فهى تشتهى أن تقول أنار بكم الأعلى ، كما قال فرعون » ولكن ظروفها لا تسمح لها بذلك . ومثل محبة المال غير المعتدلة التى أتعبت الناس وكانت أس البلاء

ومنبع الشقاء ، وإن حب الدنيا رأس كل خطيئة ومثل محبة النساء ، تلك المحبة التي زادت تطغى على كل شيء ، والتي فعلت الأفاعيل بالبذات والبنين ، خصوصاً في هذا العصر الخليع ومثل محبة الجاه المفرطة ، مع بيان جهل النفوس الغريزية في الإنسان ، كما قال تعالى في حقه ،
(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(١)

ولا تنس قولاً ، الله تعالى (وَلَا تَتَّبِعِ الْآيْرَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢) (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٣) (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ)^(٤) .
إلى آخر ماجاء في الكتاب والسنة وهو كثير .

ثم العناية بغرس مكارم الأخلاق في النفوس مثل الشجاعة ، والحلم ، والكرم ، والرحمة بالضعيف ، ومواساة المحتاج والشفقة على كل ذى روح ، والمحبة لعموم المسلمين ، وبيان أن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُوْمِنُوا ، وَلَا تُوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » ، وكما قال « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

ولعمر الله لو تمت المحبة بين الناس لكانوا في أبهج عيش لا يماثلها إلا عيش أهل الجنة في الجنة إلى آخر ما لا تسعه هذه العجالة . ولعلنا نعرض له في فرصة أخرى .

(٢) سورة ص ، الآية ٢٦

(١) سور الأحزاب ، الآية ٧٢

(٤) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٣) سورة النازعات ، الآية ٤٠ - ٤١

أما التربية عندنا فهي عبارة عن تلقين بعض نظريات ناقصة ،
ولا فائدة لنظريات في تربية الملكات وتكوين الأخلاق ، بل لا بد من
العمل وتكرار العمل ، والمراقبة التامة للعاملين ، والقذوة الحسنة في
المعلمين .

وبكل أسف نقول : إن غالب الأساتذة عندنا إنما يقومون بما يفرضه
إِ عليهم البرنمج الذي يسألون عنه «والذي يجب تعديله وإطالة النظر فيه»
بل الأمر عندنا أشد وأنكى من ذلك كله ، خصوصاً في تربية البنات
واختلاطهن بالبنين ، وغرامهن بروايات الغرام ، مما جعل التعليم الذي
يقصد به تزكية النفوس وسيلة من أكبر وسائل الفساد (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ)

ومسألة التربية من أول ما يجب على الحكومة إصلاحه والتفكير
فيه ، فإن سعادة الأمة مرتبطة بتربيتها وتهذيبها ، وعلى قدر ما يكون
لها من صلاح التربية وفسادها يكون حظها من السعادة أو الشقاوة

وقد يقول قائل إن كثيراً من الأوربيين على حظ كبير من
الأخلاق فنقول له : إن الأوربيين درسوا علم النفس دراسة صحيحة ،
وعرفوا منابع الأخلاق وغرائز النفوس ، فاهتدوا إلى مصلح دنياهم
علماء وعملاً ، أما نحن فقد درسنا ذلك العلم دراسة نظرية لا عملية ،
مع أن الإسلام لا يقيم وزناً لغير العمليات . وكم تطالعنا الجرائد كل يوم
عما يندى له جبين الحياء وتبكي له عين الدين ، مما لا يمكننا أن نذكر
شيئاً منه هنا

ولندع هذا الموضوع ، ولنعد إلى التفسير فنقول

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ،

كأنه قيل ولكن أنتم لاتزكون أنفسكم بل تؤثرون وأما قوله
(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَبَقَى) فهي جملة في محل النصب على الحال من فاعل
تؤثرون ، مؤكدة للتوبيخ والعتاب ، أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن
الآخرة خير في نفسها ، كما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من
اللذة والبهجة خالص من جميع الشوائب والمنغصات ، مع كونه أبدياً
لا انصرام له . والله در القائل

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

قال ابن مسمود لأصحابه يوماً أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا
على الآخرة ؟ فقالوا لا ، قال « لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا
طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة زويت عنا ،
فأحببنا العاجل ونركنا الآجل » وذلك مصداق قوله تعالى (كَلَّا
بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَ . وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ)^(١) وأى قدر للدنيا التى يزيد
منكرها على معروفها ، ولا ينى مرجوها بمخوفها ، إن أحسنت مرة
أساءت مراراً ، سلامتها مقدمة السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ،
ونعيمها الزائل لا يثمر إلا الحسرة والندم ، إن أعطت واحداً من
بنيها جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس
تمنى أصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً ، حتى يأملون كثيراً ، ويبنون

(١) سورة القيامة الآية ٢٠ - ٢١

قصوراً ، فتصبح دورهم بعد القصور قبوراً ، وجمعهم بورا ، وسعيهم
هباءً منشوراً

أفان بباق تشتريه سفاهة وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فيا عاملاً للنار جسمك لين فجر به مرّات بحر الظهيرة

وأبلغ من ذلك كله قول الله تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ
حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِبِ بِالْأَمْسِ .
كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) . وألفت نظرك إلى التعبير بدار
السلام وما فيه من التعريض بدار الآفات

ويقول صلى الله عليه وسلم نصيحة لنا وخوفا علينا « وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ
أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بَسَطَتْ
عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ »
وكقوله صلى الله عليه وسلم « مَا رَفَعَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا
إِلَّا وَضَعَهُ » .

وأبلغ وصف لها ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى (اعلموا
 أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
 يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ
 وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْغُرُورِ)^(١)

وكيف يؤثر العاقل الدنيا على الآخرة مع كون الآخرة شتملة
 على السعادة لجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، والدنيا
 بعد ذلك ممتزج خيرها بشرها ونعيمها بألمها ، ومع تلك العيوب كلها
 فالدنيا فانية الآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني بالضرورة

ثم قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى) يعني أن فلاح من تزكى . . إلخ منصوص عليه في
 صحف إبراهيم وموسى . وقيل : إن الإشارة راجعة لكل ما في السورة .
 والظاهر أنها راجعة لقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) . . . إلخ وبديل له
 بعض ما ورد في كتب السنة

هذا وقد روى عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله : ما كانت صحف
 إبراهيم وموسى ؟ قال « كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت
 كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى
 الدنيا وتلقبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر
 ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل » أخرجه ابن الأثير
 في جامعه

وكانت صحف إبراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى عليه السلام ، والمراد بها ما عدا التوراة وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن عساكر وغيره أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل على شِيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقد ذكروا أن مما في صحف إبراهيم « على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً لسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث » لقمة لمعاشه ، أو تزود لمعاده ، أو تلذذ في غير محرم » وما أحسن قول من قال

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قال الفضيل لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والاخرة من خزف
يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد
اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى . فأصبحنا على ما قال القائل

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعيد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وبعد : فما في هذه الآيات كاف في نيل كل سعادة ، والبعد عن
كل شقاء ، لأن قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) إشارة إلى تطهير
النفس عن كل ما لا ينبغي ، أما في الأمور النظرية فعن جميع العقائد

انفاسدة ، وأم في القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذميمة . وقوله
(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى .
وأما قوله (فَصَلَّى) فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة
الله تعالى .

وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع ولهذا قال
(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى) .

وقد روى عن أبي ذر أنه قال هل أنزل عليك يا رسول الله شيء
مما في صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم اقرأ يا أبا ذر :
(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) ولعل هذا هو السر فيما روى عن ابن عباس
من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك
الأعلى كما أخرجه الترمذى وغيره وقد سئلت عائشة بأى شيء
كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت « كان يقرأ في الأولى
بسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الثانية بقل يا أيها الكافرون ، وفي الثالثة
بقل هو الله أحد والمعوذتين » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى

فكان صلى الله عليه وسلم يختم عمله بالوتر المشتمل على هذه السورة
التي تحث على تسميح الله وتنزيهه ، وتذكير من يخشى ، وبيان أن
طريق الفلاح إما هو تزكية النفوس بامتثال أوامر الله تعالى ، والحث
على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة التي هي خير وأبقى
وأن ذلك مندوب إليه محثوث عليه في صحف إبراهيم وموسى

ولا بد أن ننبه هنا على أن الدين لا يريد من الناس أن يتركوا

الدنيا ولا يدعوها تستقر في أيديهم ، أو لا يطلبوا أن يكونوا أرفع أممها وأعز بنيتها ، كيف وهو يقول : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ^(١) ويقول (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ) ^(٢) ٤ إلى غير ذلك فما أراد من المؤمنين إلا أن يصيروا أحراراً فيها غير مستعبدين لها فما أحب لهم إلا أن يكونوا أعزاء لا أذلاء ، ملوكاً لا عبيداً ، فهو يريد منهم أن يجعلوها وسيلة لا مقصداً ، عالماً أنهم إذا قاموا بتعاليم دينهم جاءتهم الدنيا وهي راغمة ، فكانت في أيديهم لا في قلوبهم ، وكانوا ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء ، يضعون كل شئ في موضعه ، شأن الحكيم الذي عمل بتعاليم سيده ، فأخذ منها ولم تأخذ منه ، وبعد عنها ولم تبعده عنه

وقد عجلنا بذكر هذه الكلمة خوفاً من ذوى الجهالات وأرباب الغايات ، ممن لا يهضمون الحقائق ولا يعرفون غير الأهواء .

ولنختم هذا المقال بقول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ^(٣) ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُوَفُّونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ

(١) سورة المائدة ، الآية ٨

(٢) سورة محمد ، الآية ٣٥

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) ، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (٢)

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ تَزَكِي وَذِكْرِ اسْمِ رَبِّهِ فَصَلَّى ، وَأَنْ يَعْرِفَنَا قَدْرَ الدُّنْيَا الَّتِي حَقَرَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَايَةَ التَّحْقِيرِ حَتَّى جَعَلَهَا لَا تَسْمَاوِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، كَيْ لَا نَغْتَرَّ بِهَا وَلَا نَطْمِئِنَّ إِلَيْهَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

(٢) سورة القصص الآية ٨٣

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ - ١١

سورة العنصر^(١)

رأينا أن نفسر هذه السورة الكريمة لما فيها من عظيم الفوائد وجليل العوائد على إيجازها واختصارها ، حتى قال الشافعي رضي الله عنه لو تدبر الناس هذه السورة لكففتهم كيف لا وقد أرشدتهم إلى أن سبيل السعادة إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذي يعود عليك وعلى بنى نوعك وليس يكفيك أن تعمل ذلك في خاصة نفسك ، بل عليك أن توصى أخاك بانتهاج الحق والتزام الصبر على ما عسى أن يتلقاه في هذه السبيل ، مع بيان أنك إذا لم تفعل ذلك أحاط بك الخسر من كل جانب ، كما تدل عليه كلمة (في) المفيدة للظرفية المحيطة ، مع الإقسام على ذلك ، إلى آخر ما سيتضح له في تفسير السورة .

ولهذا كله روى الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب أن الرجلين من أصحاب رسول الله كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر إلى آخرها ، ثم يتفارقان وكانهما يقصدان بذلك القيام بالتواصي بالحق والصبر عند الفراق وكأنها وضعت بجانب سورة التكاثر للإشارة إلى أن من ألهاهم التكاثر في خسر ، وأن من لم يلههم التكاثر هم الرابحون الفائزون ، وليسوا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

وبالجملة ففي السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن
المسكر ، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، مالا يخفى

البيان التفصيلي :

المراد بالعصر الدهر ، وقد قرأ على فيما يروى عنه والعصر
ونائب الدهر وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنا ، فهو نظير
(حَافِظُوا عَلَيَّ الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى)^(١) وهي صلاة العصر .

وقد أقسم به تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة
الله تعالى وسعة نصره ، وعظيم سلطانه ، الذي يصرفك كما يشاء ،
فينقلك من صحة لمرض ، ومن فقر لغنى ، ومن ذل لعز ومن حياة
لموت . إلى آخره .

ومن لطيف ما قيل إن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت
مائة سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر ، بقيت في الجنة أبد
الآباد فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة التي
تبت فيها ، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك

فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يحب
أن لا تضيعها أو تفرط في شيء منها (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)^(٢) . فيا خسارة من ضيع

(١) سورة البقر ، الآية ٢٣٨

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٢

عمره الذى يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم
الذى لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان
يصيح ويقول ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن ، ارحموا
من يذوب رأس ماله بمرور الزمن فقلت هذا معنى (إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَفِي خُسْرٍ) يمر به الزمن فيمضى عمره ولا يكتسب فيه شيئاً

ويصح أن يراد بالعصر أحد طرفى النهار ، وهو الوقت المعروف ،
فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى والفجر ، إلى آخره ،
لما فى ذلك من دلائل القدرة ، وكأنه إشارة إلى أنه ينبغي لك أن تتذكر
مضى النهار ومجىء العصر خراب الدنيا ومضى الأجل ، وأن الإنسان
الذى يغفل عن ذلك فى خسر .

ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه ، لأن الصلاة
فيه هى الصلاة الوسطى على ما هو المشهور ، وقد ورد تعظيمه فى السنة
من وجوه كثيرة ، والقرآن يقول : (وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١)
وفى الحديث « مَنْ فَاتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ »
وإن شئت فاقتصر على أن المراد الدهر ، فهو أقرب وأظهر

أما قوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)^(٢) فال فيه للاستغراق بدليل
الاستثناء والمراد بالخسر النقصان وإن شئت قلت الهلاك

(١) سورة الإنسان ، الآية ٢٥

(٢) سورة العصر ، الآية ٢

وذهب العمر في غير فائدة . وإن شئت قلت : إنه في ضلال مبين
 وجهالة عمياء . وأى خسر أعظم من ضياع السعادة الأبدية بتحقيق لا يبد
 في يدك منه شيء البتة (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ
 مَا كَانُوا يُوَدُّونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ)^(١) خسر يجعل
 الكافر يقول (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)^(٢) وليته مع ذلك يبلغ
 في حياته الدنيا ما يؤمل ، أو يصل إلى ما يقصد ، هيهات هيهات !
 وإنما هي أوانم خادعة وأمانى باطلة ، كسراب ببيعة يحسبه الظمآن
 ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً

ألم تر أن المرء طول حياته يحاول أمراً لا يزال يعالجه
 يدور كدود القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

الخلاصة

أن الناس - إلا من استثنى الله - في خسران : في متاجرهم ومساعيهم ،
 وصرف أعمارهم في مباحيهم الدنيوية ، وشهواتهم البشرية . ولك أن
 تقر خسر الإنسان بأن روحه علوية ربانية هبطت إليك كما قال
 ابن سينا

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

إلى أن قال في بيان قصر هذه الحياة وسرعة انقضائها

فكأنه برق تالَّق بالحمى ثم انطفأ فكأنه لم يلمع

وقد كنت واصلاً من الشرف والرفعة إلى أن الله جعلك خليفة في

الأرض ، وأسجد لك ملائكته . وقد كان يمكنك بهذا الاستعداد الذي

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٠٥ - ٢٠٧

(٢) سورة النبا ، الآية ٤٠

أودعه الله فيك . وذلك السر الذى أشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم
 « إن الله خلق آدم على صورته » أن جعله قادراً مريداً ، عالماً سديعاً
 بصيراً ، إلى غير ذلك من النعوت الجليلة والصفات الجميلة

ويقول الله لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (١)
 فانظر إلى ذلك الشريف الذى يسير إلى غاية العناية بالإنسان ، حيث
 خلق باليدين جديعاً ، بخلاف غيره من المخلوقات ثم انظر كيف
 نزل من أوج ذلك العز الشامخ الذى كان به فى أعلى عليين مع الأنبياء
 والمرسلين ، إلى حضيض الحيوانات ، يرتع فى الظلمات ، ويتقلب
 فى صنوف الآفات ، لمقتضى شهواته البهيمية ، وانهاكته فى مطايله
 البدنية . والله در . حد أئمة الشافعية حيث يقول :

إلى كم تمادى فى غرور وغفلة [] وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
 أترضى من العيش اللذيذ تعيشه مع الملاء الأعلى بعيش البهيمة
 لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري بملء السما والأرض أية ضيعة
 نيادرة بين الزايل [] أرمت وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
 أفان بباق تشتريه [] لسفاهة وسخطاً برضوان وناراً بجنة
 أأنت عدو أم صديق لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة
 ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
 فيا عاملاً للنار جسمك لين [] فجر به مرات [] بحر الظهيرة
 رجر به فى لسع لزنابير تجتري على لسع حيات هناك عظيمة []

إلى آخر ما قال .

وبالعجامة فما أشد خسر الإنسان ، وما أعظم الفرق بين حاله إذا نظر إلى حياته العنصرية وطاعته لسلطان الهوى والشهوة ، وانقياده لنفسه الأمارة بالسوء ، وإلى ما كان عليه حال حياته الروحية قبل تعلق الروح بالبدن عندما كانت تسرح بين أفراد الملاة الأعلى ، وتسبح في ذلك العالم الذى يبعد كل البعد عن ملابسة الأدناس والألوات

وعلى كل حال فليس الشأن أن تكون إنساناً حيوانياً ، بل الشأن أن تكون إنساناً روحانياً ولا تكون كذلك إلا إذا سافرت من ظاهره إلى باطنك ، وهناك تعرف ما حجب عنك من شرفك وعلو قدرك الذى جعل الملائكة تسجد لك قبل أن تنزل إلى حضيض حيوانيتك كما قلنا ، فكن ممن عرف نفسه فعرف ربه ، ولا تكن ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ومن الغريب أن الإنسان هو الحيوان الناطق ، وأن روح الإنسانية هو ذلك النطق المراد به الإدراك والتفكير ، فإنه المعنى الخاص بالإنسان ، وأما الحيوانية فأمر مشترك بينه وبين الحشرات وجميع الحيوانات ، ومع ذلك لا نجد من أكثر أفراد هذا النوع إلا الحيوانية المشتركة ، لا النطق والتفكير الذى هو ميزتك وروح إنسانيتك .

واختصار الموضوع أن خسر الإنسان إنما نشأ من ظنه أنه إنسان بجسمه ، غافلاً عما أودع فيه من الأسرار التى تجعله (فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)^(١)

ولتعلم أن رأس مال العبد قلبه ، وبضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسًا بالله فهو مغبون ، فاجتهد فيما ينفعك قدر الاستطاعة ، واستغفر من ذنبك وتقصيرك .

وأيقن أن كل لحظة يحضر فيها قلبك أو يذكر فيها لسانك أو يعتظه فيها عقلك ، فهي كنز ثمين ، فاستكثر من الخيرات بقدر ما يمكنك وتباعد عن الغفلات بقدر ما تستطيع ، وسل الله التأييد والتسديد ، ولا تكن ممن قيده عالم الشهادة عن عالم الغيب . وأعلم أن من غفل عن الله ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يَعْمُرْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)^(١)

ولا يفوتك أن سلاح الشيطان إنما هو الشهوات ، فإذا أغلقت بابها لم يجد الشيطان مدخلا إلى قلبك ، وإذا تأملت علمت . فإذا أعدى عدوك نفسك التي هي مركز شهواتك التي يوقد الشيطان بها ناره في قلبك ، وقد قالوا : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره فإن كنت تحبها فأحسن إليها بمخالفتها وسياستها ، واشغلها بمراضى الله ، فإنك إن لم تشغلها شغلتك : (وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(٢)

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه أنه أتى سبحانه وتعالى بمؤكدات كثيرة : فأقسم بالعصر ، وأتى بإن واللام ، وإسمية الجملة ، ثم ذكر (في) التي للظرفية ، التي تنمى أن العسر محيط بالإنسان من كل

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٣

جهاته . وسر الإتيان بتلك المؤكدات أَنَّ الإنسان يجهل خسرانه وينكره ولا يكاد يدركه ما دام لا يشعر بحقيقته العلوية وروحه السماوية . ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبل بشهواته ، مسجون في سجن طبيعته ؟

واجمال القول : أَنَّ الآية تشير إلى أَنَّ الإنسان في غاية الخسران ، كما يرشد إليه تنوين التعظيم ، مع أنه لا يشعر بشيء من ذلك الخسران ، بما زين له من سوء عمله وتحكم شهواته (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(١) ويقول تعالى في الآية الأخرى ﴿ كَذَلِكَ أَزِينَّا لِلْكَافِرِ أُمَّةَ عَمَلِهِمْ ﴾^(٢) (وَإِنْ تَطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٣)

ولنختم لملتنا اليوم بما ينسب للإمام علي كرم الله وجهه ، قال
دواؤك فيك وما تشعر ودأؤك منك وما تبصر
وتزعم نك فجرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أسأل الله أن يعرفنا أسرار إنسانيتنا ، ولا يحرمنا من أنوار روحانيتنا وأن يخلصنا من نفوسنا الأمارة ، حتى نلقاه آمنين مطمئنين ، راضين مرضيين ، بحبه وكرمه .

(١) سورة فاطر ، الآية ٨

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

تفسير سورة العَصْرِ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) : ١ : ٤

ذكرنا أن لقرآن يدل على أن الإنسان محيط به الخسر من كل جوانبه ، كما تشير إليه كلمة (في) ، فكأن الخسر ظرف له يتقلب فيه ولا يخرج عن محيطه (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ !) الخ

وقد قال بعض الحكماء : إذا فسد الإنسان فلا تسئل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان أو فساد أو عناد ، فإنه مستعد للشر لانهائية له كما أنه مستعد للخير لانهائية له ، فإن سار في طريق الشر أفيض عليه من وسائله والترقي فيه ما لا يعلمه إلا الله ، وإن سار في طريق الخير أفيض عليه من وسائله والترقي فيه ما تغيظه عليه الملائكة .

وبالجملة فلإنسان محل الابتلاء والاختيار بين تيارات متعاكسة وعواطف متخالفة ، وأهواء متضادة ، ولا نجاة له من ذلك إلا بالالتجاء إلى الله ، والتزام مارسه له من خطط ومناهج : بامتنال أو امره واجتناب نواهيه .

وقد قال على كرم الله وجهه مبيناً لضعف الإنسان وخلقته العجيبة :
« أعجب ماك الإنسان قلبه له مواد من الحكمة وأضداد من الطيش
والسفه ، إن سنج له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الغضب اشتد
به الغيظ ، وإن أسعف ما يهوى نسي التحفظ وإن ناله الخوف فضحه
الجزع ، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله الفقر
وإن جهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط في الشبع أضرت البطنة
وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد وهو لا يكاد يخلو من
إفراط أو تفريط .

وكل هذا ما يشرح لنا قوله تعالى (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)^(١)
وقوله عز وجل (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)^(٢)

وقد جاءت الشرائع لترشده إلى طريق الخير والصلاح
وتهديه الصراط المستقيم الذي يوصله إلى الفوز الدائم والسعادة الأبدية
وما حقرت في نظره الدنيا وقالت له إن الآخرة هي دار القرار
إلا لتريحه من همومها وغمومها ، فإنها منبع البلاء وأس الشقاء
ولا ينجو من شباكها وارتباكها (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

يريد الله بهذا الاستثناء وهذه الأوصاف أنهم آمنوا بقلوبهم
وعملوا الصالحات بجوارحهم (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) وهو أداء الطاعات
وترك المحرمات (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) على المصائب والأفدات ،

(١) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٢) سورة البلد ، الآية ٤

وما عسى أن يكون من أذى من يؤذيهم عندما يأمرونه بالمعروف وينهونه
عن المنكر

فإنهم لشدة محبتهم للصالحات وقوة حذبهم على أبناء جنسهم
ومزيد رحمتهم بإخوانهم لا يقتصر على ما يخصهم ، بل يوصون غيرهم
بمثل طريقتهم ، ليكملوا في أنفسهم ، وليكونوا بعد ذلك سببا لكمال
غيرهم ، فإن ذلك شأن أهل الدين وورثة المرسلين وقد قال الله
تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ)^(١) وقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا^(٢)
وقال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « لَا يُؤْمِنُ
أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

ويكفيينا في هذا الموضوع أن القرآن يخبرنا عن سبب لعن الذين
أنكفروا من بى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم أنهم (كَانُوا
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَعَلُوهُ)^(٤)

والتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصى
بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما هو
مطلوب واجتناب ما هو منهى عنه ، إذ الإقدام على ما تكرهه النفس
والإحجام عما تحبه صعب شديد ، ولا سبيل إلى ذلك كله إلا ، بالصبر

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٢) سورة التحريم ، الآية ٦

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٤) سورة المائدة ، الآية ٧٩

ولا بد أن يكون لاح لك مما قدمناه أن في هذه السورة الجليلة وعيداً شديداً يجب الانتباه له والالتفات إليه ، فإنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان متصفاً بهذه الأشياء الأربعة الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر

فكما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه دعاء غيره إلى الدين ، والعمل الصالح والأمر ، المعروف والنهي عن المنكر ، وبذل النصيحة بقدر المستطاع وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم ، فإن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه

وقد كرر تعالى التواصي للحض على الدعاء إلى الله ، ثم الثبات عليه بحيث لا يضجر ولا يمل ، وعلى المؤمن أن يقبل الموعدة الحسنة ولا ينفر منها ، فإن ذلك ملاك سعادته . وقد قال عمر بن الخطاب « رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى »

وبالجملة فهذه السورة تنبئنا أن الناس كلهم في غفلة عما يراد بهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم في تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيس ، وقدموا الباقيات الصالحات على الغاديات الرائحات ، فيألها من صفقة ما أربحها ، وبغية ما أنجحها

هذا ويدخ في عموم الصبر : الصبر عن المعاصى التي تشتاق إليها النفس بحكم الجيلة البشرية ، والصبر على الطاعات التي يشق على

الذفس أداؤها ، والصبر على ما يبتلى الله عز وجل به عباد من البلاء
والمصائب

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، الصبر على ثلاثة أوجه صبر
على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة ، وصبر على البعد عن
محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة
الأولى فله تسعمائة درجة

وقد قالوا إن الصبر على البلاء بضاعة الصديقين : ويروى عن
داود عليه السلام أنه قال : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن
التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما
قد فات

ويقول بعض العارفين إن أجر الصابرين فيما فاتهم مما كانوا
يريدون أعظم من النعمة عليهم فيما يعطونه من محبوباتهم فعلى
الإنسان أن يدفع الجزع عن نفسه بالتفكير فيما سيناله من الثواب
الباقى والنعيم الدائم

وتأمل كثيرا فى قوله تعالى (إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ)^(١) فقد جعل الله تعالى كل شىء بحساب إلا أجر الصابرين فإنه
بغير حساب) والله در من قال

عطيته إذا أعطى سرور وإن أخذ الذى أعطى أثابا

فَأَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَحَقُّ شُكْرًا وَأَحْمَدُ عِنْدَ مَنْقَلَبِ إِيَابَا
أَنْعَمْتَهُ الَّتِي أَهْدَتْ سُرُورًا أُمُّ الْإِخْرِيِّ الَّتِي أَهْدَتْ ثَوَابَا

الخلاصة :

أَنَّ النَّاجِينَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الْإِنْسَانِي هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشَرَفِ الْفَضِيلَةِ
وَخَسَةِ الرَّذِيلَةِ ، كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)^(١)
وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْجَزَاءِ وَجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُلُ ثُمَّ عَمَلُوا الصَّالِحَاتِ
بِأَنَّ يَكُونَ كَلِّ إِنْسَانٍ نَافِعًا لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَلِقَوْمِهِ وَلِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ،
بَعِيدًا مِنْ أَنْ يَضُرَّ أَحَدًا « إِلَّا لِكُفِّ ضَرَرٍ أَكْثَمَ مِنْهُ » ، ثُمَّ يَدَّأَبُ
عَلَى التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، فَإِنَّ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ -حِفَاطِ
كُلِّ خَيْرٍ ، وَرَأْسُ كُلِّ أَمْرٍ

فَشَرَطَ النِّجَاةَ مِنَ الْخُسْرَانِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسَ الْحَقَّ وَيَلْزَمُوهُ
أَنْفُسَهُمْ ، وَيَكْتُوذُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ثُمَّ يَحْمِلُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ
بِأَنَّ يَدْعُو كُلَّ صَاحِبِهِ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِالْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا يَنْزَاعُ فِيهَا
الْعَقْلُ وَلَا يَخْتَلَفُ فِيهَا النُّقْلُ ، وَأَنْ يَبْعُدُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْأَوْهَامِ
وَالْخَيَالَاتِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا وَلَا فِطْرَةَ تَهْدِي إِلَيْهَا

وَمَعْلُومٌ أَنَّ رَأْسَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ
الْمُنْكَرِ

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْتَنْظِنَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ »

(١) سورة المیل ، الآیة ٦

ويقول الله تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) ^(١)
(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعِقَابٍ يُفْسِدُونَ) ^(٢) ومن الذين ظلموا ،
الذين لا ينهون عن السوء كما هو واضح من الآية ، فإنه مانعنا إلا الذين
ينهون عن السوء.

هذا وأغشك في غنى عن أن أقول لك إن ذكر الصبر بعد الحق
مع دخوله فيه لكمال الاعتناء به ، أو نقول أن الأول عبارة عن رتبة
العبادة التي هي فعل ما يرضى الله تعالى والثاني رتبة العبودية التي
هي الرضا بما فعل الله تعالى .

ولنقف هنا اليوم ، ونرجو أن يكون لنا جولة نتم بها هذا المقام
إن شاء الله .

ذكر الله تعالى التواصي بالصبر بعد التواصي بالحق مع كونه
داخلا فيه ، تنويها بشأنه ، وتنبيها على رفعة قدره أو تقول لما
كانت هذه الخصال أعنى قول الحق وملازمة الحق والتواصي بالحق
في الغالب تجلب لصاحبها من الأذى ما قد تكرهه نفسه ، ذكر تعالى
التواصي بالصبر وإن كان ذلك من الحق ، اعتناء به ورسوله عليه ،
فإن من لم يتذرع بالصبر قل أن يثبت في مقام الدعوة إلى الله عز وجل .
وقد قال لقمان لابنه في وصيته (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١) يعنى أَنَّ ذَٰلِكَ
من خصال دوى العزم وقال تعالى حكاية عن الرسول ﷺ: ﴿وَلَتَنْصَبِرْنَ
عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢)

وقال تعالى (وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْهُمْ هَجْرًا جَرِيمًا) (٣)

وقال تعالى (وَدَخَّ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (٤) وكان بعض

السلف يقول ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى

وبالجملة: فالدين الإسلامى لا يرضى من بنيه إلا أن يكونوا من
الشجاعة فى الذروة العليا ، ومن الثبات بالمحل الأقصى وانظر إلى
تشجيع المسلمين بمدح الخيل الى تعدو ضبجها ، فتورى قدحا ، فتغير
صبجاً ، إلى تحره . وليس أحض على الشجاعة من هذا فليت شعرى
ماذا أصاب لمسلمين حتى أصبحوا أجبن الجبناء ، وأذل الأذلاء
يداهنون فى عين الله ، ولا يبالون امتثال أوامر الله ، « ينفرون من
الذل ويمدون أيديهم إلى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون
على أبوابه »

ولا غرو لمن فرط فى تعاليم ربه ، وجهل سنته فى خلقه ، فلا بد
أن يكون ذليلاً عليلاً ، وكيف لا يذلون وقد أمرهم الله أن يكونوا
كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى

(١) سورة لقان ، الآية ١٧

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٢

(٣) سورة المنزل ، الآية ١٠

(٤) سورة الحزاب ، الآية ٤٨

له سائره ، فأصبحوا متفرقين لايلوى بعضهم على بعض ، بل منقسمين
متنازعين ، فما أجدرهم بالذل والمهانة
وإذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان ،
وما يحيط به من بلاء وشقاء .

وإن شئت فانظر إلى الأمة الإسلامية حينما كانت متمسكة بدينها
عاملة بتعاليم نبيها لم تتفرق بها السبل ، ولا زاغت بها الأهواء ،
كيف امتد ملكها في كل ناحية من نواحي المعمورة ، وكيف عمروا
البلاد وأصلحو العباد ، وكيف أخرجوهم من الظلمات إلى النور
باعتراف أساتذة أوربا المبرزون ، مثل جوستاف لويون الفرنسي الذي
يقول « ما رأى التاريخ فاتحاً أعدل ولا أعظم من العرب » ومثل
توماس كرايل الانكليزي في كتاب الأبطال ، ومثل دراير الأمريكي
وغيرهم

وبالجملة فقد كان المسلمون إذ ذاك أعز الأمم على الإطلاق ،
وأرفعها على الإطلاق ، فكانوا ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء ،
ثم انظر إلى حالهم اليوم وقد أصبحوا بحيث يطمع فيهم كل طامع ،
ويهزأ بهم كل قوى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف
ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم
فلا يستجاب لهم » . ويقول عليه السلام « توشك الأمم أن تتداعى
لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال كما
تتداعى الآكلة إلى قصعتها ، فقال قائل أمين قلة نحن يومئذ ؟
قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السميل » « أى لقلة

شعباعتكم دنائة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم » ثم قال
في آخر الحديث ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،
وليقدفن في قلوبكم الوهن « رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة

وذلك من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى :
(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (١) وأى ظلم أكبر
من ترك التعاون بين أفراد المؤمنين ، وقد قال الله فيهم (إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (٢) أى ظلم أكبر من ترك الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر حتى من العلماء والوراء والأمراء .

وقد روى الترمذي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم أنه لما
وقعت بنو سرائيل في المعاصي نواهم علماءهم فلم ينتهوا فذبح السوهم
في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ،
واعينهم على سنان داود وعيسى بن مريم . ذلك مما عصوا وكانوا يعتدون .
ويقول صلى الله عليه وسلم « إذا هابت أمي أن تقول للظالم إنك
ظالم فمقد سودع منهم »

وقال - بئني هو وأمي - « لا تقدر أمة لا تقول للظالم إنك
ظالم » أو كما ورد

لقد أصبحنا والله في خسر عظيم ، وشار جسم ، وورنا أعظم تفسير

لقوله

(إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ)

(١) سورة أنفال ، الآية ٢٥

(٢) سورة الحجرات ، الآية

وليس يخفى على القارىء الكريم ما وصلنا إليه من اختلال الأحوال
وضياع الأموال وانتهاك الحرمات واقتراف المنكرات وإصلاح
الظواهر وفساد البواطن وفقد الإخلاص ، وذيوع الأغراض
واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح وعدم إنفعال النفوس
بارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العقول حتى
أصبحت تنكر اليمينيات ولا تعترف بالبهديات وكأنما انقلبت الرءوس
وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر وفسدت القطر ، وعميت
القلوب ، وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ولم
تتسع له أودية التحذير ، فبنا في عصر أولئك الذين تمجيبك أجسامهم
وإن يقولوا تسمع لقرانهم . من ذوى الألسنة الثرثرة والقلوب الخوارة ،
والشهورات القاهرة والنفوس الفاجرة والأفكار الخيالية والنزغات
الشیطانية ، وما أجدرهم بما قلناه منذ زمان بعيد ^(١)

كل شيء يخاف منه الآنا قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلاء نمقوه كى يخدع الإنسانا
وأمر شكليّة ونبيوغ فى رياء يا هول ما قد دهانا
من درى الناس شك فى كل شيء قد بدا دنوبهم كائنًا ما كانا

وليس يخفى عليك أن حوادث القتل والمسرقات ، وإحراق الزروع
الآن فى بلادنا المصرية ، وصلت إلى حد أنها ترتكب جهاراً مهراً

(١) هذا يؤيد أن بعض الشعر الموجود فى هذه المقالات هو من نظم الشيخ يوسف
الدجوى رضى الله عنه .

وإن شئت فانظر إلى الخمر التي فعلت الأفاعيل بالناس ، وليت شعري لماذا لا تمنعها الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداءً بأمريكا المسيحية عندما نعتها لانتشار أضرارها وكثرة مفاستها ! ؟
أفلا تمنعوها أيها الكبراء والوزراء والنواب ولو محافظة على دستوركم الإسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ، أم أنتم من الذين يتقاولون ما لا يفعلون ، ويكتفون بالأسماء دون الحقائق ، فإن لم يكن لديكم وازع من دين فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أبناء أمتكم والخوف عليهم من ضياع مصالح الدنيا فضلاً عن الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث ، وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السنور والفجور ، تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الإنسان واستعداده الغريب .

ومن المخزيات المبكيات أننا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندى له جبين احياء ، ولا نفكر فى شيء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نصغى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا نلتفت لما توجبها الآداب العامة « ولا على سبيل النفاق » :

ولا بأس أن نقول لك إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانوناً طبيعياً يتبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانوناً أدبياً يمليه عليك ضميرك وتؤنبك عليه نفسك ، وقانوناً شرعياً يكمل به الإرشاد وتمم به السعادة ، وهو القانون الذى بعث الله به الأنبياء .

إنا وبكل أسف نقول إننا خالفنا القوانين الثلاثة فلم نصنع لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذى يقول إن اختلاط البنين والبنات وحرية الحركات فى الروحات والغدوات لا تجلب أفضع الولايات وأكبر المحظورات ؟ وهل ذلك التعليم السطحي القليل الضئيل المتئى المعوج فى البنات والبنين يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعي الذى هو أعلق شىء بالنفوس ، وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطانا على الطباع البشرية كما يشهد به العقل والحس والشرع والفلسفة ؟ وما كنا نظن أن أحداً يجادل فى الحسيات أو ينزع فيما يرى من المشهدات ، ولكن الإنسان هو الإنسان .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة أن يفكروا فى تلك المسائل التى ستهوى بالأمة إلى مكان سحيق فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ويحقق مصلحتها ، ويمنع عنها تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة ، وما معنى الحكومة والزعامة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وأظن أن من الواجب القانونى ألا نسترسل فى هذا الموضوع أكثر من هذا . فلنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة فى الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم ، فلنقف عند هذا الحد .

وبعد - فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التى هى تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين الوضعية التي تبيح الزنى رسمياً وتحمي فاعليه
وفاعلاته وإبيت شعري لماذا لا يمنعونه رسمياً ولو اقتداءً بالزنجير
بل تلك القوانين التي تبيح الكفر العلني وتحمي معتنقيه محافظة على
تلك الحرية التي تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندي إلا كمثل
من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حرته ، فهل تراك
أحسنت إليه ؟ تلك القوانين التي تجعل دروس الدين في المدارس
أمراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا ستوط ، فأول ما تغرس في نفوس
النشء هذا العمل أن الدين في محل الإهمال ولا ينبغي أن يعتنى به
أو يلتفت إليه ، وهي طريقة عملية في التربية تترك في نفوس المتعلمين
أسوأ فكرة عن الدين وأهون عقيدة فيه

وها هي ذى أمامنا حوادث فلسطين التي تدمي العيون وتذيب
القلوب ، وكان يجب أن يصرخ لها المسلمون في كل بقاع الأرض ،
وإكسهم متفرقون متخاذلون « وهو ما أسقطهم في نظر الأجانب »
فصاروا لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة حتى أن الإنكليز غيروا ما بنو
المعروف من سياستهم استهانة بالمسلمين واحتقاراً لهم ، فقد كان
المعروف من سياستهم أنهم يحترمون شعور المسلمين ويأبون أن يثيروا
الاحتقاد والضغائن ، أو يهيجوا الكامن في النفوس ، محافظة على ما بدعهم
وبين الأمم الإسلامية من العلاقات والروابط

ونكنهم في حوادث فلسطين غيروا خطتهم وخالفوا سياستهم
كأن المسلمين لا وجود لهم ، وإلا فكيف يرتكبون ذلك الظلم الصارخ
الذي لا مبرر له بين سمع المسلمين وبصرهم من أجل اليهود الذين هم

أذل أمة في الوجود ، ولماذا لا ينتصرون لهم أمام إيطاليا وألمانيا ؟ ولكن ضعف المسلمين وعدم اتحادهم هو الذى أدى إلى ذلك كله .

ووالله إن لم يتحدوا فسيرون أضعاف ذلك وقد أهاب بهم جماعة كبار العلماء فى جلستهم التى انعقدت فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٨ ونصحوا لهم جميعاً بأبلغ النصيحة ، فعسى أن يثوبوا لرشدهم ، ويعملوا على نصره إخراجهم التى هى واجبة عليهم بمقتضى الدين والسياسة والإنسانية

كلمة ختامية للزعماء :

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الإسلامية أن تحيى رابطة الأخوة التى جعلها الله بين المؤمنين ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضاً ، أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، كما علمهم نبيهم

فوالله لو اتحدوا تمام الاتحاد لحسبت لهم أوربا ألف حساب ، ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلاً عن القوة المعنوية وكان يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع ، وإعداد أنواع القوى كلها ، وجمع الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله ، وفيهم ممالك مستقلة فكانوا يستطيعون العمل سراً وجهرًا ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططاً حكيمة ، ويسنون قوانين معروفة ، إلى آخر ما لا نرى الإفاضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم

غيروا الوجهة ، لم يقولوا مثلا نحن مصريون قبل كل شيء « وكان
الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شيء » ولو اتحدت
آسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة في الوجود

أسأل الله أن يصلح شؤوننا كلها وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة
عين بمنه وكرمه

سورة الإخلاص

وأينما أن نتحفظ القراءة بتفسير سورة (قل هو الله أحد) لما ورد
أنها تحلل ثلث القرآن على ما تستمع إن شاء الله

وأيبدأ بما قيل في أسمائها الدالة على مزيد شرفها فتقول

هذه السورة تسمى سورة الإخلاص ، وسميت بها لما فيها من التوحيد
ولذا سميت أيضاً بالأساس ، فإن التوحيد أصل لسائر أمور الدين
وروى الزمخشري عن أنس مرفوعاً أن هذه السورة أُنسبت عليها
السموات السبع والأرضون السبع والصحيح أن ذلك غير مرفوع
والمراد أنه ما خلقت السموات والأرضون إلا لتكون دلائل على توحيد
الله تعالى ومعرفة صفاته التي تضمنتها هذه السورة . ولك أن تقول
إن مصحح إيجادهما ، أي بعد إمكانهما الذاتي ، ما أشارت إليه السورة
من وحدته عز وجل ، واستحالة أن يكون له سبحانه شريك ، إذ لولا
ذلك لم يمكن وجودهما لإمكان التانع ، كما هو معروف في علم التوحيد ،
وكما يشير إليه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)^(٢)

وتسمى أيضاً سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة النجاة ،
وسورة المعرفة ، لأن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة ما فيها . وفي بعض

(١) مجلة الأزهر - المجلد التاسع - الصفحة ٦٢٢ سنة ١٣٥٧

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢

الاثار أن رجلاً صلى فقرأ (قل هو الله أحد) فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن هذا عبد عرف ربه»

وسورة التسمية لورودها جواباً لمن قال انسب لنا ربك عن

ماستمعه

وسورة الصمد ، وسورة المعوذة ، لما أخرج الترمذى والبخارى وابن مردويه بسند صحيح عن عبد الله بن أنيس قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يدي على صدرى ثم قال قل فلم أدر ما أقول ، ثم قال (قل هو الله أحد) فقلت حتى فرغت منها ، ثم قال (قل أعوذُ بِرَبِّ الْمَلَكِطِ بِرَبِّ شَمْرٍ مَا خَلَقَ) فقلت حتى فرغت منها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هكذا فتعوذ ، وماتعوذ المتعوزون بمثلهن»

وتسمى أيضاً سورة البرائة ، قيل لما روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يقرؤها يقال «أما هذا فقد برئ من الشرك وقد روى الترمذى عن أنس من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه قرأاً (قل هو الله أحد) مائة مرة كتب الله تعالى له براءة من النار وسورة الإيمان ، لأنه لا يتم بدون ما تضمنته من التوحيد

إلى آخر ما ذكره المفسرون ، وهى جديرة بذلك كله كما لا يخفى ولا يهنا تصحيح كل ما قيل من حيث الرواية ، فإن هذه الأسماء التى ذكروها مأخوذة مما تضمنته هذه السورة من أسمائه العليا وأوصافه السنية ، فكلها حق بشهادة معناها وفصيح مبناها

وهي مكية ، وقيل مدنية ، وقيل تكرر نزولها جوابا للمشركين
عكة وللإهود بالمدينة . وهذا تعرف ما في قول بعضهم أنها مكية باتفاق .
وآياتها خمس في المصحف المكي والشامي ، أربع في غيرهما ، بجعل (لَمْ
يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) آية واحدة ، وهو المشهور بين القراء

وقد قرن بين هذه السورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) في صلوات كثيرة
لأنهما مقشمتان : رأى مبرثتان من الشرك .

أما الصلوات التي يقرأ فيها هاتان السورتان ، فمثل ركعتي الفجر
عند غالب العلماء ، وركعتي الطواف وسنة المغرب . وزاد بعضهم وصحیح
المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة

هذا وقد جاء فيها أخبار كثيرة تدل على مزيد فضلها ، منها ما تقدم
أنفأ . وقد روى عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله إني أحب هذه
السورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قال إن حبك إياها أدخلك الجنة وقد
أخرج ذلك الإمام أحمد في المسند عن أبي النضر عن مبارك بن
فضالة عن أنس . وذكر البخاري أن حبها يوجب دخول الجنة : تعليقا .

وروى مالك عن عبد الله بن عبد الرحمن قال سمعت أبا هريرة
يقول أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ (قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت ، قلت وما
الوجبت ؟ قال : الجنة . وأخرجه الترمذي والنسائي وقال حديث صحيح .
وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي عن بريدة أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت

الله لا آله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفراً
أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده لقد سأل
الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »
قالوا إن هذا أصح حديث ورد في اسم الله الأعظم

وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا در برجل
قضى صلاته وهو يتشهد ويقول إني أسألك يا الله الواحد الأحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفراً أحد أن تغفر لي ذنوبي
أنك أنت الغفور الرحيم . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم قد غفر له ،
قد غفر له ، قد غفر له ثلاث مرات

وأخرج البخاري ومالك وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد أن رجلاً
سمع رجلاً يقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يرددّها ، فلما أصبح جاء إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقبلها أي
يعدها قليلاً نظراً لقلة ألفاظها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
«والذي نفسي بيده أنها تعدل ثلث القرآن»

وأخرج حمد والنسائي في اليوم والليلة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن
وبالجملة فقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن في عدة أخبار مرفوعة
وموقوفة واحتلف في المراد بذلك ، ففيل المراد أنها باعتبار معناها
ثلث من القرآن المجزأ إلى ثلاثة أجزاء . وقد اختلفوا في بيان ذلك
ففيل أن القرآن يشتمل على قصص وعقائد ، وهي كلها مما يتعلق
بالعقائد ، فكانت ثلثاً بذلك الاعتبار

وقال الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» ما حصله أنها عدل
ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التي هي أهمها القرآن ، وهي علم
المبدأ ، وعلم المعاد ، وعلم ما بينهما وقال بعضهم المطالب التي في
القرآن معظمها الأصول الثلاثة التي بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان
وهي معرفة الله تعالى ، والاعتراف بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم
واعتقاد القيام بين يديه وهذه السورة تنفيذ الأصل الأول ، فهي
ثلثه من هذا الوجه

وفي الكشاف أنها تعدل القرآن كله وهذا إن صح يقال فيه
أنها عدل القرآن باعتبار أن المقصود هو التوحيد وما عداه ذرائع له
ووسائل إليه وفرع عنه . وقيل المراد تعدل الثلث من حيث الثواب
لظواهر الأحاديث

وضعف ذلك بعضهم قائلا لا يجوز أن يكون المعنى فله أجر
ثلث القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فله بكل
حرف عشر حسنات » فيكون ثواب قراءة القرآن بتمامه أضعافا مضاعفة
بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة

وقد أجاب الدواني عن ذلك بأن للقارئ ثوابين تفصيليا بحسب
قراءة الحروف ، وإجماليا بسبب ختمه القرآن ، فثواب (قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ) يعدل ثلث ثواب الختم الإجمالي لا غيره . ونظير ذلك ما إذا
عين الإنسان أحدا يبني له دارا وله في كل يوم أربعة دنانير ، وعين
له إذا أتمه جائزة أخرى غير أجرته اليومية .

وفى شرح البخارى للكرمانى مانصه «فإن قلت المشقة فى قراءة الثلث منها فى قراءتها فكيف يكون حكمة حكمها قلت : يكون ثواب قراءة الثلث بعشر ، وثواب قراءتها بقدر ثواب مرة منها . لأن التشبيه فى الأصل دون الزوائد »

ولك أن تقول لا مانع من أن يخص الله عز وجل بعض العبادات التى ليس فيها كثير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها أضعاف مضاعفة ، وهو سبحانه الذى لا حجر عليه ولا يتناهى جوده وكرمه وسعة تصرفه ، فلا يبعد أن يتفضل جل وعلا على قارئ القرآن بكل حرفٍ عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافاً مضاعفة جداً لقارئ الإخلاص بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة ، ونفوض حكمة التخصيص إلى علمه سبحانه وكذا يقال فى أمثال ذلك .

وهذا مراد من جعل ذلك من التشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وليس هذا بأبعد من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة المتحددة الماهية بأن للعبادة فيه ولو قليلة من الثواب ما يزيد أضعافاً مضاعفة على ثواب العبادة فى مجاوره مثلاً ولو كثيرة ، بل قد خص سبحانه بعض الأزمنة والأمكنة بوجوب العبادة فيه ، وبعضها بحرمتها فيه ، وإله سبحانه فى كل ذلك من الحكم ما هو به أعلم .

وقد روى فى فضلها أحاديث ضعيفة وموضوعة والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفى فى فضلها ، بل قيل لذلك أنها أفضل سورة فى القرآن ومنهم من استدل عليه بما روى الدارمى فى مسنده عن

المغيرة عن صفوان الكلاعي قال أن قال رجل يا رسول الله أي سور القرآن أعظم ؟ قال : (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**) (وفي المسند من طريق معاذ بن رفاعة وأسيد بن عبد الرحمن عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزيور والقرآن العظيم ؟ قلت بلى قال **فَأَقْرَأْنِي (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)** ثم قال يا عقبه لاتنساها من ولاتنساها من ليلت ليلة حتى نقرأهن

وهذا وأمثاله يدل على أنها أفضل سور القرآن مطلقاً ، بل على أنها من الأفضل

وقال ابن الحصاد : العجب من ينكر الاختلاف في الفضل مع كثرة النصوص الواردة فيه

واختلف القائلون بالترتيب ، فقال بعضهم الفضل راجع إلى عظم الثواب ومضاعفة الأجر بحسب انفعال النفس وخشيتها ، وتدبرها وقال بعضهم وهو وجيه أن الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته عز وجل بمعنى أنها أسنى وأجل قدراً مما لاتشتمل على ذلك

وقيل إن معنى الأفضلية أن القارئ يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عبادة ، كماية الكرسي والإخلاص والمعوذتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحترار مما يخشى ، بما فيها من الاعتصام بالله تعالى مع ما فيها من العبادة لله تعالى ،

فإن فيها ذكره عزوجل باسمائه الحسنی وصفاته العلیا ، فيذكرها القارئ على سبيل الاعتقاد بجمها وسكون النفس إلى فضل ذلك الذكر وبركته ، وأما آيات الأحكام فلا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم وإنما يقع بها علم

وبالجملة هذا فضيل بأحد هذه الاعتبارات لاينافي كون الكل كلام الله عز وجل ، و نه متحد النسبة سبحانه كما لا يخفى
ولنقف هنا اليوم :
« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » :

إنما قال « قل » اعتناء بالأمر واهتماما به ، وإشارة إلى أن كل من ابتلى بالمبطلين فعليه ألا يخاف في الله لومة لائم ، مع لفت النظر إلى أن هذا من عذد الله لامن عند الرسول ولك أن تقول أتى بها تذكيرا برسالته ، وإعلانا بأنه مأمور بالتبليغ من عند الله تعالى وعلى كل حال فهو من جملة منازل به جبريل عليه السلام ، وكل منازل به فهو قرآن ، والقرآن مأمور بتبليغه كما نزل

(ص)
ثم أتى بضمير الشأن للتنبية من أول الأمر على فخامة القصة ، كقولك هو الأير قد ركب كأنه قيل الشأن هذا ، وهو الله واحد لا ثاني له مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لا يفهم منه إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده فضل تمكن

ولك أن تتمول إن هذا الضمير يؤتى به ، وإن لم يسبق له مرجع للإيدان بأن ذلك الشأن له من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وعليه يعود كل ضمير ويجوز أن يكون هو ضمير المسئول عنه والمطلوب صفته ونسبته ، وهو إله محمد صلى الله عليه وسلم الذي سأله عنه ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، والمبخارى في تاريخه والترمذى ، والبغوى في معجمه وابن عاصم في السنة ، والحاكم وصححه ، عن أبي بن كعب : إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وضح رجوع الضمير إلى ذلك المسئول عنه للعلم به من السؤال. والضمير على هذا الوجه مبتدأ أو الامم الجليل خبره ^(الله) وأحد خبر بعد خبر وأجاز الزمخشري أن يكون بدلا من الإسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هو أحد. وأجاز أبو البقاء أن يكون الإسم الأعظم بدلا من « هو » و« أحد » خبره

هذا ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، و« أحد » همزته مبدلة من الواو ، وقد قالوا أن أحدا إذا استعمل وصفا لم يكن إلا لله تعالى والمراد أنه تعالى منزه الذات عن جميع أنحاء التركيب والتعدد خارجاً وذهناً ، وعن كل ما يستلزم الجسمية ولوازمها ، أو يقتضى المشاركة فيما اختص به تعالى كوجوب الوجود والقدرة الذاتية التي لا نهاية لها ، والحكمة التامة التي تجب للألوهية . فسبحانك لا نحصى ثناء عليك ولو اجتهدنا : أنت كما أثنيت على نفسك .

هذا وقد ذكرنا فروقا بين أحد وواحد ، فقالوا: إن همزة أحد الذي لا يستعمل إلا بعد النفي كما في قوله صلى الله عليه وسلم « أحلت با لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » أصلية ، لأنه ليس معى واحد ، فإذا قلت إذا قلت معنى واحد ، صح أن تقول بل اثنان ، بخلاف ما إذا قلت معنى اثنان أحد ، فإنه للنفي العام .

وفرقوا بينهما أيضاً بأن أحداً لا يبينى عليه العدد ، فلا يقال أحد وإثنان كما يقال احد وإثنان ، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ، بل هو مخصص به تعالى كما علمت .

والدليل على سبحانه وتعالى واحداً من جهة العقل : أن الواحد إما أن يكون في خلق العالم وتدبيره أولاً ، فان كان كافياً كان الآخر ضائعاً ، محتاج إليه ، وان لم يكن كافياً فهو ناقص والناقص لا يكون إلهاً ، بل أن ما وراء الواحد ليس عدد فيه أولى من عدد ، فيكون ذلك ترجيحاً بلا مرجح

وذلك أن تقول إن أحدهما إذا فعل شيئاً فقد سد باب الفع على الآخر فلا تكن نفوذ قدرته فيه ، والإله لا يمكن أن يمنع نفوذ قدرته غيره ، ولا يمكن إلهاً إلى آخر ما فرره علماء الكلام في علم التوحيد

ويحسب في هذا المقام أن نجيب داعي الروح فنذكر لك هنا ما يشير به جنتك لله وتعلقك به ومعرفتك لعظمته ، فإن هذا هو السعادة الابدية التي يرى بها الإنسان مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ، فنقول ، ونرجو أن تكون من الذين رق ذوقهم
ولطف وجدانهم

إذا كنت تحب أحداً لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء
الأمم ، فاحب الله تعالى الذي أتمن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها
من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوروبا إشراق شعاع من نور شمسه ،
حتى قال سبنسر الإنجليزي ما ترجمته « ليس الغرض من علم الطبيعة
معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان
على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك
الحدود التي ينتهي إليها علم الطبيعة » .

ويكفيك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدعشة التي تكفل
بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفزيولوجيا .
فطأطؤا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعيشو الخفاش أمام الشموس
وإن كنت تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره
من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين وقيوم
السموات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من
أمره بين الكاف راثنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول كن فيكون .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه في باب
الفضل والمكارم فأحب منبع النعم ، ومعدن الكرم وأين كل
ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ؟

وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت
أنه المفيض لكل نعمة في الوجود ، وأنه رب الكرم والوجود : (مَا يَفْتَحِ

اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١)

ولعمر الإصاف إن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام وتخرس فيه الألسن ، فإن تطبيق شرح نعمة واحدة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهراء أتى يتوقف عليها وجود كل حي ، إلى آخرها يتفرع منها ويتشعب عنه

وان شئت، فانظر إلى نعمة الضيياء أو الماء وما أودعه في الأشياء من انكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ^(٢)
(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) ^(٣)

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من في الوجود تلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود: الفيلسوف لينه الفزيولوجي الفرنسي الذي كان يدعو وجلائه فيجيبه ويناجيه شعوره فلا يتغافل عنه ، قال « ان الله الأزلى الكبير العالم بكل شئ قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا ، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات نشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمائها وتناسقها ينبىء بوسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجدها يقرر بجلائته وعظيمته

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

(١) سورة فطر ، الآية ٢

(٣) سورة اراهيم ، الآية ٣٤

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول

إذا كنت تحب نفسك وكما لها فأحب من أوجدها في أحسن تشويم
وشق سمعها وبصرها ، وأسبغ عليها نعمة ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر
كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات
ما تتنوع به لذتك وتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه
وقد غمرتك نعمائه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ،
ولطف هواؤه وأنعمتلك بدائع أكوانه من رياض غناء ، وصحار
فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير
بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب من شمس وأقمار ، وأطياف
وأزهار ، وليل ونهار

أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل
الناظقات والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوي الذي لم تشغله
المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه حيث
يقول

سار وليال خلالهن نهار	هاج للقلب من هواه ادك
وعيون مياهن غـزار	وجبال شوامخ راسيات
مشرقات في كل يوم تدار	ونجوم تلوح في جنح ليل
في نهار وفي الدجى أقمار	وشمس مضيئة للبرايسا
وبروق وراءها أمطار	ورياح تهب من كل فج
جل ربا وجلت الآثار	إن شأن الإله شأن كبير
الله نفوساً لها هدى واعتبار	والذي قد ذكرت دل على

أو تقول كما قال ذلك القائل

يقولون أين الله أين عجائبه
 يشكُّون والإيمان ملء قلوبهم
 فأى امرئ في الجو يرسل طرفه
 وليس يقول: الله في عرش مجده
 وأى امرئ ما سبح الله مرة
 عجائب ربى في الأنام كثيرة
 وإذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
 ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
 إذا ما بدت أقماره وكواكبه
 وهذى حواشيه وهذى مواكبه
 إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
 ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو يقول. عندما يرى الأشجار تنهدى في حلال الأوراق والأزهار
 معجباً برويتها متعجباً من قدرة خالقها

يا صاحبي تعجباً للملابس قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء والحياء خلق كل كريم أن تتمتع
 بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإسماء وما أوجد لك من
 بديع الأشياء وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول
 عز وجل: (أَسْبِغْ عَلَيْكُمْ زِينَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) ^(١) ثم لا تنزدي شكره
 ولا تعرف قدره ؟

إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من أفرط لطفك ربى كيف ينسাকা
 فإن كان لا يؤثر في نفسك فائض أنعامه ومزيد إحسانه ولا
 ما هو عليه من قدرة يتخير فيها الناظرون وعظمة لا يصفها

الواصفون ، وعلم لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء
وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ^{ما} ولا هو متصف به عز وجل من
نعوت الجلال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا
سلطان الحسن الذي تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل
جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فإنما هو ظل من ظلال
ذلك الجمال المطلق بجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس
يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى
مرآة من مراياه إلا بعض مزياه ، وأنى يسمع المحدود من لا يقبأ
التحديد ، وكيف لا يضيّق المقيد عن لا يدخل في سجن التقييد ؟

١ إن قلت هذا فإن الحد يحصره أو قلت ذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندي جاء الظرف يطلبه والظرف حق ولكن ليس يحويه
ما أنظر أريت وجودا لست أدريه إلا الذى أنا معى من معانيه

فطوبى لمن شم عرف شذاه ، أو شام برق سنانه ، وهنيئا لمن
شرب قليلا من مدامه ولو مزجا أو نظر إليه ولو شرزاً ، فإذا لم يدر
ما هو نائق إليه ومتلهف عليه قال

شئ به فتن الورى وهو الذى يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى
الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى إصلاح لا يتناهى ، وجمال
لا يتناهى وكمال لا يتناهى ، وائس ذلك إلا الله

فارجع إلى سلامة فطرتك ، وخذق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك
الجمال الإلهى الذى تجلى على صمحات الموجودات ، واقرأ بين

سطور تلك المبدعات ثم انظر رعاك الله إلى أي حد انتهيت ، ولا
أظنك إلا كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الإحساس بالجمال
إلا وقد وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحمن عندما تحسر
بجمال لا يتناهى ، وغرقت في بحر من الجلال لا يحلم ولا يأتى
عليه التعبير عند ذلك ينطق لسان حاك منشدا

عجبت لعاقل في الناس أضحى يرى ههنا الجمال ولا يهيم
فاستجل هذا الجمال رعاك الله في كل شئ تراه من العلويات والسفليات
ان شئت في ذلك أو شئت في ملك أو شئت في مدر أو شئت في حجر
لأفالك ، ينطق أن الله آخالقه وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهي أظهر ما علمت ، وأبهر ما رأيت وأجمل
ما وقع عابه البصر ، وأبهى ما وصل إليه النظر ، إلا أثر من آثاره
ونور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة
والجلال؟ فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نتف أمامها
مبهوتين وجمالا يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكفيه وتمتلىء
به النفس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين
بلسان الناكرين تبارك الله أحسن الخالقين!، وحقه وما أكبر
حقه لو تفرغت من الشواغل التي أخذتك ولم تدع منك شيئا
لعشقت لذقت فنطقت فقلت

تراه، غاب عنى كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج

وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا أهدي إلى صحير~~ة~~ أطيب الأرج
عظم الله والبرهان وامتلاً الوجدان ، ووصل الأمر إلى حد العيان ،
وليس بعد العيان بيان ! ، ولكن قويت الأنوار فغشيت الأبصار ،
وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن
عظم نفسه ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخذ
إلى الأرض من الغافلين الجامدين
خليلي قد طال المقام على القذا وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
يمر زماني بالأماني وينقضسى على غير ما أبغى ربيع وشوال
فاطلب رعاك الله مرافقةً سكان الملكوت وعشاق الجبروت ،
فإن كنت تحب أحدا لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب ،
فأعجب الملا الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم
تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١)
وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا
الصفاء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق من جميع التقييدات ، والاطلاع
على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك
نسيت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني
الذي لا بد له من الفناء فأنسيت بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ولذلك وصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمات أفضل
غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التي هي إنسان على الحيوانة يقول
(أَوْ مِنْ كَذَّابٍ مِينًا فَأَخْبَيْنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُجُومًا يَمْشِي بِهَا النَّاسُ
كَمَنْ مِثْلَهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَفَّارٍ مِنْهَا)^(١)

وقد اسئلت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم
البهجة والبهاء وصرت تعرفه ولا تعرفه ، وليست المراد من هذه الجسمانية إلا
لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما الذكاء وغذائها الاصل
الأمرار والآنوار ، ولما طاب بها العهد ونهى في سجن الظلمات ومحل
الآفات نسبت ما هي مستعدة له وسخلوة لأجله ، وهو في الحقيقة
نسيان لنفسه نَسُوا اللَّهَ فَنَسَّاهُمْ أَنْسَاهُمْ^(٢) فكان حين عهد
بالصفاء ولا علاقة بعالم الجبال

كأن لم يكن بيز الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر تمكة سامر
أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ويخلصها من أمراضها
التي أضعفت منها تلك الحامية العليا التي هي مناط لذتها الكبرى ،
وشرفها الأعلى ، وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء
الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بحسه وكرمه . إنه على ما يشاء
قدير وبالاجابة جنير

أما قوله تعالى (اللَّهُ الصَّمَدُ) فهو مبتدأ وخبر وقيل الصمد
نعت والخبر ما بعده وليس بشيء والصمد في تفسيره عبارات

(٢) سورة الحشر ، الآية ١٩

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٢

كثيرة قال ابن الأنباري لاختلاف بين أهل اللغة أنه السيد
الذي ليس فوقه أحد وهو من يصمد إليه الناس في حوائجهم
وأموورهم وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ويقصده
كل شيء ، وأنشد

نقد بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وكذلك قول الآخر ؛

علوته بحسام قلت له خذها خزيت فأنت السيد الصمد

وهوتهم من ذلك القائل

ويقول ابن عباس إنه السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف

الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته والحكيم

الذي كمل في حكمته وعن أبي هريرة أنه المستغنى عن كل أحد ،

المحتاج إليه كل أحد وعن ابن جبير هو الكامل في صفاته

وأفعاله وعن الربيع هو الذي لا تعتريه الآفات وعن مقاتل

ابن حيان هو الذي لا عيب فيه وعن قتادة هو الباقي بعد خلقه

ونحوه قول معمر هو الدائم وقال مرز الهمداني : هو الذي لا يبلى

ولا يفنى وعنه أيضاً هو الذي يحكم ما يريد رينفعل ما يشاء

لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وعن الحسن البصري ومجاهد

وغيرهما أنه الذي لا جوف وعن ابن مسعود الصمد

الذي ليس له أحشاء وهو رواية عن ابن عباس

وليس يخفى عليك أن أكثر هذه التفاسير منظور فيها لما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بالصمد ، وإلا فهو في لغة العرب لا يفسر بهذه الأوصاف التي لا تنطبق إلا على الله عز وجل كما عرفته من الشعر السابق

الخلاصة :

أن المختار من تلك الأقوال التي ذكرناها والتي لم نذكرها أنه السيد الذي يعبد إليه الخلق، وهو بمعنى المفعول أى المصمود إليه ، يقال : صمده وصمده إليه : أى قصده والتجأ إليه . وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لاخلاف فيه ، وإن كان في السيد نفسه خلاف الصحيح إطلانه عليه عز وجل .

هذا وقصد المخلوقات إياه تعالى بالحوائح أعم من القصد الإرادى والقصد الطبيعى ، وهو القصد بحسب الاستعداد الأصلى الثابت لجميع الماهيات ، إذ هي كلها متوجهة إليه تعالى في طلب كمالاتها منه عز وجل . وتعريف « الصَّمَدُ » - دون « أَحَدٌ » في الجملة السابقة ، قيل لعلمهم بصمديته تعالى دون أحديته والأولى أن يقال أن التعريف لإفادة الحصر ، كقولك : زيد الرجل . ولا حاجة إليه في الجملة السابقة ، فإن مفهوم أحد يقتضى التنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقاً ، إلى آخر ما بيناه سابقاً ، مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولا يعترفون بها ، فلا محل لتعريف .

ولك أن تقول : إن أحداً في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتج إلى تعريفه ، بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل ، أى كما في البيتين السابقين .

وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير ، قيل للإشعار بأن من لم يتصف بالصِّمْدِيَّةِ لَمْ يَسْتَحِقَّ الأُلُوْهِيَّةِ ، وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين المحصر ، فإذا قلت : السلطان العادل أشعربان من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة . وإذا كانت الصمديَّة لازمة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها . ولم يكتف بمسند واحد بأن يقال الله الأحد الصمد ، للتنبيه على أن كلاً من الوصفين مستقل في تعيين الذات والاختصاص بها .

وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل على ما قبلها ، فإن من كان غنياً لذاته محتاجاً إليه جميع ما سواه ، لا يكون إلا واحداً وما سواه لا يكون إلا ممكناً محتاجاً إليه

والقرآن له عناية بالغة بذكر الأدلة في باب التوحيد تلويحاً وتصريحاً كما لا يخفى على المتأمل البصير

وهذه المناسبة نقول إن قول ذلك الفيلسوف الذي نقلته مجلة الأزهر في عددها الثامن من السنة الماضية « إن أدلة القرآن على توحيد الله تعالى إجمالية » غير صحيح وكأنه اغتر بما يراه في كتب المتكلمين من العبارات الطويلة والأسئلة والأجوبة ، إلى آخر ما تعرفه من كلامهم ولو تبصر قليلاً لعرف أن طريقة القرآن أصح وأوضح وأقرب من تلك الطرق كلها ، وهي نافعة للخاصة والعامة ، بخلاف طريقة المتكلمين والمتفلسفين

والقرآن يبين في وضوح أن كل شيء آية من آياته ، ودليل على وجوده وعظيم صفاته وكان بودى أن أبسط الكلام على ما في

القرآن من البراهين والايات التي لم يصل إليها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون ، ويعلم الله أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع :

وإن شئت فانظر إلى الاستدلال البديع الذي في هاية الإيجار والإعجاز في قوله تعالى « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْمُخْلِقُونَ »^(١) وقوله « أَفَبَى اللَّهِ شَمَكٌ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٢)

وقد أذكر هنا ما قاله بعض فلاسفة المتكلمين ، وأظنه ابن سينا « كنت أشتهي أن يرى أرسطو ذلك الدليل البديع على البعث في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »^(٣)

أما الاستدلال على قدرته وحكمته في القرآن الشريف فأكثر من أن يحصى ، أكثر من أن يستقصى في مثل قوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »^(٤) ويقول « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »^(٥) « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ »^(٦) « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

(١) سورة طور ، الآية ٣٥

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٠

(٣) سورة س ، الآية ٧٨ ، ٧٩

(٤) سورة طارق ، الآية ٥ - ٧ .

(٥) سورة لانفطار ، الآية ٨

(٦) سورة ليل ، الآية ٨ - ٩

سُطِحَتْ»^(١) ويقول « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ إِذَا حَمَلْنَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ »^(٢) إلى آخر تلك الآيات التي أختتمها بقوله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »^(٣)

وقد قال بعض الفلاسفة « يكفيني في الاستدلال على الله وجود الأنثى بجانب الذكر ». ويقول تعالى: « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَمَرَوْهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »^(٤). ويقول تعالى « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ يُغْشِيكُمْ بِهِ فَكُلٌّ فِيهِ فُجْرَةٌ وَأَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »^(٥)

(١) سورة العنكبوت ، الآيات : ١٧ - ٢٠

(٢) سورة الروم ، الآيات ٢٠ - ٢٢

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٥

(٤) سورة النازعات ، الآيات : ٢٧ - ٣٣

(٥) سورة القصص ، الآيات : ٧١ - ٧٢

ويقول تعالى مخبراً عن الإنسان مستلفتاً نظره إلى تلك الآيات
البيّنات « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ .
فَجَعَلَ مِنْهُ الْوَجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » (١) . ويقول « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَاهٍ وَجَبَّحْنَا بِهَا
لَكُمْ أَنْ تُسْبِغُوا شُجْرَهَا أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ بِأَنَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُّونَ » (٢) إلى آخر
الآيات التي جاءت في تلك السورة

ومن عجيب تصرف القرآن في الاستدلال على الله ما يسلكه في
كثير من السور من تلك الطريقة البديعة فيقسم بأشياء تستلفت
الأنظار ، ونمتهوى الأفكار ، لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو
شاهد ، فيقول تعالى « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ . الْجَوَارِ الْكُنُفِ وَاللَّيْلِ
إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » (٣) . ويقول « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا
وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » (٤) ويقول
« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ
عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَلِيلٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » (٥)

ولعله لا يغيب عنك ما ذكره في الاستدلال على البعث وهو
استدلال على وجوده تعالى وقدرته ورحمته « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ

(١) سورة تقيامة ، الآية ٣٧ - ٣٩

(٢) سورة النمل الآية ٦٠

(٣) سورة نكوير ، الآية ١٥

(٤) سورة شمس ، الآية ١ - ٧

(٥) سورة أعراف ، الآية ١٨٥

فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ، ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنكُمْ مَّن يَمُوتُ ، وَمِنكُمْ مَّن يُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ فَاهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا . وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ^(١) . وَيَقُولُ « فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ^(٢) ويقول تعالى « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ^(٣)

ولتعلم أن من عادة القرآن التنفن في ذكر الآيات ، علماً منه بما

جبلت عليه النفوس من الجهل والغلظة كما قال في حق الإنسان « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » ^(٤) ، ويقول « قَتِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ! كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غَلْبًا وَقَاكِبَةً وَأَبَّاءَ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ » ^(٥) ويقول « فَالِقُ

(١) سورة الحج ، الآية ٥ - ٧

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ - ٢١

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٥) سورة عبس ، الآية ١٧ - ٣٢

الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ
 اللَّهُ فَاَنَّى تُزْفِكُونَ . فَذَلِكِ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ
 لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
 وَهُوَ الَّذِي نَشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ
 كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن
 طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ ، انذَرُوا إِلَى نَعْمِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ « (١) إلى آخر ما جاء في القرآن الشريف من ذلك وهو
 كثير « لَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَاَنَّى
 تُضْرَفُونَ » (٢)

وما أجدنا أن يقول كل منا كما علمنا رسول الله صلى الله عليه
 وسلم « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري ، وجلاء
 حزني ، وذهاب همي وغمي » !

فقل لي بأبيك أين هذا من تلك العبارات المظلمات التي تراها
 مختلطة بتلك الشبهات وهاتيك التشكيكات من التهافت وتهافت
 التهافت مما بشير الأوهام ويفسد الأحلام ؟ ! « قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِحَفِيفٍ » (٣)

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥ - ٩٩

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤

سورة الاخلاص (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ،

سبق لك في تفسير الصمد آراء كثيرة ، ومنها أنه هو الذى لا جوف له ، ومنها أنه الذى لا يخرج منه شيء ، ومنها أنه الذى لم يلد ولم يولد ، فعلى هذا يكون قوله « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » لازماً لكونه صمداً ، أو تفسيراً له

|| | وعلى كل حال فمعلوم أن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يتدخى التركيب المناق للصمدية والأحدية الحقيقية ، على ما سبق بيانه ، لأن الولد من جنس أبيه ، والأحد لا يجانسه أحد .

أما نفي المولودية عنه تعالى فواضح جداً ، لاقتضاها أنه مادي منفصل عن غيره ، ولا شك أن هذا يقتضى التركيب^٣ ، والتجزى ، وسبق العدم ، والمجانسة المستحيلة على واجب الوجود .

|| | وقد تم نفي الولادة على نفي المولودية ، لأن فريقاً كبيراً من البشر

توهموا أن له وادًا وكأنه سبحانه يريد أن يسوى بينهما فيقول
إن نفي الوالدية ونفي المولودية متساويان لدى العقل الصحيح ، واستحالتهما
عليه أظهر من الشمس وأوضح من الحسن .

ولا يمكننا أن نعقل ما يقوله المسيحيون في هذا المقام من أن هناك
ثلاثة هي «الأب» ، والإبن ، وروح القدس» ، وهي جواهر ثلاثة يستقل
كل واحد منها عن أخويه ، ومع ذلك فهي إله واحد ، كما يقول
قائلهم في المسيح عليه السلام

فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة هي واحد لم تقسم

ولا ندرى كيف تكون الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثًا ! وإن قلنا تبعًا
لما تفيد به بعض عباراتهم إن الإبن وروح القدس صفتان للأب ودما
عبارة عن العلم والحياة ، عجزنا عن فهم كون الصفة إلهًا ، ولم يمكننا
أن نفهم الاستقلال الذي يزعمونه .

ومع هذا وأضعافه وأضعافه يقولون كل ذلك مما يجب
الإيمان به ولو كان فوق طور العقل وليت شعري كيف يؤمن الإنسان
بما يعتقد استحالته ، والديانات يصح أن تجيء عما لا يفهم العقل
كأنه وحقيقتة أو يجهل تفصيله ، ولكنها لا تجيء عما تحيله العقول
وتعتقد عدم إمكانه ! « فإن كنت ترى فيها شيئًا من المحارات ،
فلمست ترى فيها شيئًا من المحالات »

وليس الأمر عندهم قاصرًا على هذا ، فكم لهم من أشياء غير معقولة
ولا مقبولة ، مثل قولهم : ﴿ إِنَّ الْمَسِيحَ أَطْعَمَ يَوْمًا الْحَوَارِيِّينَ خَبزًا ﴾

وستأهم خمرًا ثم قال لهم أَكَلْتُمْ لَحْمِي وَشَرِبْتُمْ دَمِي فَاتَّحَدَثُمْ مَعِي
وَأَنَا مُتَّحِدٌ مَعَ الْآبِ » وإلى الآن يعمل القسيس مثل هذا العمل ويسميه
« العشاء الرباني ! ». والقوم يعتقدون أنه دم المسيح ولحمه

وإن شئت فانظر إلى رنات أخرى لا تقل غرابة عما سمعت ، وذلك
مثل قولهم « إن الله غضب على آدم وذريته من أجل ثمرة أخذها
من الشجرة أشد الغضب ، وأنه يلحق بهم كل هوان وعذاب في الآخرة
من أجل تلك الثمرة التي تناولها من الشجرة ثم سعى إليه أو إلى
ابنه الساعون من اليهود بالتمتل - وهي جريمة فوق الأكل من الشجرة
مليون مرة - غفر لهم ما تقدم من ذنبهم ورضى عنهم »

وليت شعري كيف ذهب عند القتل ما يجب للإله من القوة
القاهرة والجبروت والبطش الشديد ؟ ! هذا لعمري من منطق المجانين
الذين لا يمتهمون ما يقولون !

ومما يذكر في هذا المقام أن بعض المسلمين قال لبعض القسوس
إن بعض الناس أخبرني أن رئيس الملائكة قد مات ، فقال له القسيس :
إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف
وأنت تتول الآن في وعظك إن الإله قد مات على خشبة الصليب ،
فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ، فبهت القسيس ولم يحجر جواباً

ولا نزال نقول إذا كان الإله يقتل عن خشبة الصليب فلن
تكون الثرة والجبروت ؟ ومن هو ذلك القاهر فوق عباده الذي بيده
أرواح اليهود وغير اليهود ، ومن يحيي ويميت ومن يجيب المضطر

إذا دعاه ، ومن ينشئ السحاب الثقال ، وتندك من هيبتة الجبال
كما اندك جبل موسى عند تجليه تعالى له كما في التوراة التي بين
أيديهم ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

ولله در القائل

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى الله والدأ نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان ما يقولون حقاً	فسلّوهم فأين كان أبوه
فإذا كان راضياً بأذاهم	فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساطعاً غير راض	فاعبـدوهم لأنهم غلبوه

ثم نقول : إذا حلت ذات الإله في المسيح أفلا تكون معها الصفات ؟
وهل يمكن أن تفارق الصفات الذات الموصوفة بها ؟ وإذا فما معنى :
لأن أقنوم العلم ، وأقنوم الحياة ؟ وما معنى جعلهما مستقلين ؟ وليت شعري
لماذا خصوا : العلم بالحياة ؟ أليست الصفات كلها يجب أن تكون مع
الموصوفها ، أم الملازم له المنتقل إلى المسيح إنما هو العلم والحياة فقط ،
وأما بقية الصفات فلم تنتقل إليه ؟ ولا أدري كيف بقيت بعد انتقال
الذات والعلم والحياة ؟ وهل قامت بنفسها فتكون صفات بلا موصوف ،
أو قامت بذات أخرى غير الذات المقدسة ؟ وما أدري كيف تسبيغ
عقولهم إن الصفة تقوم بنفسها كالجواهر مع فرضها صفة ؟ (هذا
خلف) فالصفة صفة والجوهر جوهر لدى كل إنسان عنده مستكة
من العقل .

ولعمر العقل والرشد أننا لو لم نبصرهم بأعيننا ونسمعهم بآذاننا

لم نصدق أن من العقلاء من يعتقد تلك العقيدة التي يردها الأطفال ولايساعدها إلا الخيال أو الخبال ولو تجرد المبشرون من التعصب وتبرؤا من التقليد الذي صار حجابا على عقولهم ، لخرجوا غاية الخجل من معتقدهم الذي لا يكاد يتصور ، فضلا عن أن يصدق به أو يقام عليه البرهان وكثيرا ما رده أطفال المسلمين في مدارسهم عندما رأوه يناقض الفطرة وينافي الضرورة

وقد أخبرني بعض أصحابي أن بنته كانت ببعض المدارس الأمريكية فقيل لها : إن الإله يسوع المسيح قد أخذه اليهود وصلبوه وألبسوه تاجاً من الشوك وصاروا يبصقون في وجهه ، إلى آخره فقالت عندما سمعت ذلك على البديهة : إن إلهنا يميت الناس ، وإلهكم تقتله اليهود ويبصقون في وجهه . والله در البوصيري حيث يقول في لاميته

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعتم أن الإله بحاجة	يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقبلا
ويمسه الأثم الذي لم يستطع	صرفاً له عنه ولا تحويلا
ياليت شعري حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد ، بنفسه	وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قول منزه لإلهه	سبحان قاتل نفسه فأقولا
أوجل من جعل اليهود بزعمكم	شوك القتاد للرأسه إكليلا

ومضى لحبل صليبه مستملما الموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصرارى فى السبخ وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر وأضلهم رأوا القبيح جميلا
ولو شئنا لأصلنا ، فليعلم المبشرون ذلك ، وليكفوا عن إرسال
الرسائل إلينا وإذا نظرت فيها لم تجد إلا السفاهة والجهالة وكنا
نود أن ينصفوا من أنفسهم ، وينظروا بعقولهم إلى ما يقولون ولا يغشوا
الناس بتلك الترمعات وهاتيك الخرافات

وعار والله على أبناء القرن العشرين الذين يزعمون حرية التفكير
أن يعتنقوا ديننا ، وضعه رهبان الكنائس ، كى يستعبدوا به البشر ،
ويدلوا به النفوس لسطانهم الذى امتد إلى الجنة والنار ، حتى صاروا
يبيعونها لمن شاءوا بما شاءوا (ولا غرو فبيدهم غفران الذنوب وزمام
القلوب) (اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ
ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . سُبْحَانَهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ) (١)

ولايأس أن نذكر هنا ماجاء فى بعض المجلات ، وهذه عبارة
المجلة « قبل الحرب ، الكبرى كان موسولوى يعد كتابا عن « جون هوس »
المفكر البوهيمى المعروف الذى أحرقه رجال الكنيسة عقابا له على
ما أذاع من آراء اعتبرت إذ ذاك إلحاداً وخروجاً على الدين ، فقال فى

مقدمته « وإني لأرجو وأنا أتقدم بهذا الكتاب إلى جمهور القارئين أن أثير في نفوسهم كل عواطف الكراهية والاحتقار للاستبداد .^(١) والمستبدين »

ويقول اللورد هدى « عجباً للأوربيين يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والملابس والمساكن ولا يبحثون عن أحسن الأديان وكم للإسلام من شهادات عالية من كبار فلاسفة أوروبا وأمريكا .

ونلفت نظر إخواننا المسيحيين إلى ما كتبه «جوستاف لوبون الفرنسي ودراير الأمريكي وتوماس كرليل الإنكليزي وغيرهم . وفي اعتقادي أنهم لو قرأوا ذلك بإمعان أو قارنوا بين الإسلام والنصرانية يتبصر وإنصافاً للاعتنقوا الإسلام فرحين مستبشرين ، ولأصبح الدين كله لله ، ولأمسى الناس عبيد الله لا عبيد المسيح ولا خلفائه الكاذبين من الأحيار والرهبان .

ونقول هذا نصيحة لإخواننا في الإنسانية ، وإخلاصاً لهم وحباً لسعادتهم في الدنيا والاخرة وليعلموا أنهم مسئولون ومحاسبون وإن العالم لم يخلق سدى ولم يترك هملاً (أفحسببتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون)^(٢) (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)^(٣) (قل يأهل الكتاب

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٧

(٢) سورة الكهف ، الآية ١١٠

تَعَالَىٰ إِلَىٰ كَلِمَةٍ مَّوَدِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرِيْنَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ ، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا وَأَنْ
يَرْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ ، - نَبِيٌّ نَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَوْلَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ

وصلنا بك أيها القارئ الكريم من سورة الإخلاص إلى قوله
(وَكَمْ يَكُنْ لَهُ سَفُوحًا أَحَدٌ) ونقول اليوم في الكلام على هذه الآية [
الشريفة

إنه تعالى لما بيّن أنه المصمود إليه في قضاء الحوائج ، ونفى الوسائط
من البين بقوله (لَمْ يَلِدْ وَكَمْ يُؤَلَدُ) على ما بيناه ، ختم السورة بآية
ليس هناك شيء من الموجودات مساوٍ له في شيء من صفات الجلال
والعظمة

وبيان ذلك : أن وجوده تعالى من مقتضيات حقيقته ، فإنه واجب [
لذاته لا بشيء خارج عنه ، لأن حقيقته غير قابلة للعدم ، وأما صفاته [
فلا مناسبة بينها وبين صفات المخلوقين ولا اشتراك بينهما إلا في الأسماء

وانظر إلى علمه مثلا تجده لا يتصور فيه مساواة أصلا ، لأنه ليس [
بضروري ولا استدالي [، فليس مستفادا من الحسن ولا من الرؤية [

بترتيب المقدمات والنظر في شرائط الإنتاج ولا من مخبر أو معلم ويستحيل عليه أن يكون في معرض الغلط أو الزوال ، إلى آخر ما يرشدك إليه العتمل السليم والفهم المستقيم ، بخلاف علوم المحدثات فإنها ليست كذلك في كل ذلك وهو بعد ذلك لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وأما القدرة التي أبدعت السماوات والأرضين فأمرها أوضح من الشمس وأجلى من الحس وكذا بقية صفاته جل وعز من الرحمة والوجود والعدل والفضل والإحسان والحكمة التي اتقن بها جميع العوالم العلوية والسفلية ، وقد بهرت الناظرين فيها والمتبعين لخوافيها (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^(١) إلى آخر صفاته التي لا تحد ولا يأتى عليها العد ، فسبحان من لا تنتاهى كمالاته العليا وأسماؤه الحسنى

هذا وأما تقديم الخبر وما يتعلق به من الجار والمجرور ، فلكون هذا الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الله فتقديم ما يفيد ذلك المقصود المسوق له الكلام أولى

والكفاء : المثل والنظير . قال عطاء في تفسير الآية لم يكن له مثل ولا عدل . وقال مجاهد : لم يكن له صاحبة . وكأنه تعالى يقول لم يكن أحد كفوًا له فيصاهره ردا على من حكى الله عنهم أنهم قالوا ولد الله وأن الملائكة بنات الله ، وأن المسيح ابن الله . فكأنها دليل لقوله

(١) سورة الملك ، الآيتان ٣ ، ٤

(لَمْ يَلِدْ) ولكننا لا نخصصها بهذا وإن كان ما قاله مجاهد داخلاً في ذلك دخولا أولاً

الخلاصة

أن هذه السورة الشريفة يستفاد منها تلك المطالب العالية المبينة لكمال الله وعظمة شأنه بقوله (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يدل على أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله (اللهُ الصَّمَدُ) يدل على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه في جميع الحوائج إلا إذا كان محسناً غاية الإحسان جواداً لا أحد له جوده .
وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَكَمْ يُؤَلَّدُ) يدل على أنه الغنى على الإطلاق وأنه منزه عن التنيرات ، ويلزم ذلك أنه لا يبخل بشيء أصلاً ولا يمكن أن يكون جوده لأجل جر نفع ، أو دفع ضرر ، بل بمحض الإحسان وإلا لم يكن الغنى المعلق

وقوله . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات ، وما يستحيل في حقه من المشاركات .

وإجمال القول أنه نفي عن ذاته أنواع الكثرة بقوله (أَحَدٌ) ونفي النقص والبخل والعجز بلفظ (الصَّمَدُ) ونفي العلية والمعلومية بقوله : (لَمْ يَلِدْ وَكَمْ يُؤَلَّدُ) ونفي الأضداد والأنداد بقوله (وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

ثم نقول بعد ذلك إنها أبطلت مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، كما أبطلت مذهب الصابئين في الأفلاك والكواكب التي يعبدونها ويعتقدون أنها المؤثرة في هذا العالم .

وليس يخفى عليك أن كونه صمدا يبطل مذهب من أثبت أخالفاً سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان مصموداً إليه في جميع الحاجات على ما تقدم في تفسير الصمد .

وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يبطل مذهب بعض اليهود في عزيز ، والنصارى في المسيح والمشركين في أن الملائكة بنات الله

وقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) يبطل مذهب الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى . فسبحان من أودع في كلامه ما يدهش الأنظار ويملأ الأفكار من عظمة الواحد القهار .

واعلم أن للقرآن عناية كبرى ببيان عظمة الله وتوحيده وإن كان معنياً بالترغيب والترهيب وغيرهما من المقامات التي أفاض فيها القرآن إلا أنه يمزج ذلك كله ببيان العظمة والجلال ، وكأن ذلك هو العنصر السارى في كل شيء ، والأساس الذي يبني عليه كل شيء ، فإن من امتلأ قلبه بعظمة الله لم يفرط في شيء من أوامر الله

ولتعلم أن القرآن يرى أن كل شيء آية يجب التفكير فيها ، وحقاً هي آية ، فإن كل شيء يوصل إلى الله تعالى « ومن البدهى أن كل صنعة تدل على صانعها وما هو عليه من علم وحكمة أ

ولا شك أن كل ما في الوجود أثر من آثاره ، وفائض من أشعة أنواره ، فالو-جود كله مرآة يتجلى فيها جمال مبدعه الذى يبهر العقول ويملأ النفوس

فإن شئت فاقرأ فى كتاب الكائنات التى خلقها الله بديع صفاته وعظيم آياته فليست تخلو صحيفة من صحائفه ولا ذرة من ذراته إلا وفيها آية من آياته ، ودليل ساطع على وحدانية ذاته ورق الغصون لدى الرياض صحائف مشحونة بأدلة التوحيد بل كل شئ فى الوجود فيه تلك الأدلة على مبدعه الحكيم وصانعه القديم

ومن عجب أمر القرآن فوق ذلك ، أنه كثيراً ما ينبه على أمور مستقبلية تحقق وقوعها بعد ، مثل قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(١) وقد خلق ما نشاهده من المخترعات التى هى آيات بينات على ما أودعه رب الأرض والسموات من الأسرار فى جميع الكائنات

ولندكر لك بعض تلك الإشارات التى بينتها العلوم الحديثة والاكتشافات الجديدة فكانت آية من آيات القرآن ، ومعجزة لسيد ولد عدان ، فمنها ما اكتشفوه من أن فى كل نبات ذكر أو أنثى فلنحمله عليه قوله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)^(٢) ولنجعل فى تفسيره ، ومن ذلك ما اكتشفوه من أن الرياح تلتقح لأشجار فلنجعل فى تفسير قوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ)^(٣)

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٩

(١) سورة نحل ، الآية ٨

(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٢

ومن ذلك ما ذكرناه في كتابنا « رسائل السلام » من أن المفسرين ذكروا في قوله (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)^(١) ما ينبو عنه الذوق السليم والفهم المستقيم من أن المراد بالفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام ، وأن المراد بذريتهم آباؤهم الذين كانوا في السفينة ، وأن المراد بمثله في قوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) هو الإبل ، وقلنا أنه سبحانه وتعالى أشار بتلك الآيات وما يماثلها إلى ما سيوجد من تلك المحدثات والمخترعات ، نبيه سبحانه وتعالى إلى أنه سيخلق في المستقبل ما لم يخطر لنا على بال ، علما منه تعالى بما سيوجد من بواخر تمخر عباءة الماء ، ومناطيد تخترق الهواء وتذهب سابحة في جو السماء ، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى تلك البواخر بأشكالها الأنيقة كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخارى حين قام يضحك من النوم فقيل له ما يضحكك يا رسول الله ؟

فقال ما معناه (عرضت على طائفة من أمتي يركبون ثبج البحر على الأسرة كأنهم ملوك)

ولماذا لا نفهم من قوله (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ) ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) أن ذلك المثل إنما هو تلك المناطيد التي تسيح في الهواء كما يسيح الفلك المشحون في المثل ويكون الضمير في قوله (لَهُمْ) عائداً على الذرية باقية على معناها الظاهر

(١) سورة يس الآية ٤١

منها ، غير معول بها إلى ما يذكره المفسرون من تلك التأويلات البعيدة .

أوليس هذا أولى من جعل مثل الفلك المشحون هو تلك الإبل التي من عادة القرآن أن يعبر عنها بلفظها ؟ وسيأتي التنبيه عليها في السورة نفسها في قوله (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)^(١)

أليس شبهه ركب الهواء بمراكب الماء طيراناً في ذلك الغاز السهل ، وجولاناً في ذلك السيل النهل أتم من شبه الإبل بالسفن ، مع أنه لا داعي إلى العدول عن ذكرها بأسمائها ، ولا لصرف الذرية عن معناها الظاهر منها ، ويكون ذلك آية من آيات القرآن المستقبلية ؟ اللهم أن ذلك سديد وليس ببعيد .

وعندي أن العقل يوجب أن يكون في القرآن متشابهات تحت طي أستاره رموز وكنوز ، ولا تزال يتجلى منها الشيء بعد الشيء على ممر الأعصار بكر الليل والنهار ، ولا يتم اتضاحها إلا بالدخول في عالم الآخرة وشاهدة ما سيكون فيه

ولا يسهل علينا أن نلقى القلم قبل أن نلقت نظر القارئ إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى كثير مما سيحدث بعده ، وهي من معجزاته الباقية التي تتجدد شيئاً فشيئاً إلى يوم القيامة

(١) سورة يس ، آية ٧٢

وقد جاء عنه في هذا الباب شيء كثير أفرد به العلماء بالتأليف : ومن ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أن الساعة لا تقوم حتى يكلم الرجل ^{صوته} سوطه ولماذا لا نطبق هذا على المذياع (الراديو) الذى أصبح يكلم الناس في كل مكان حتى في السيارات والطرق ؟

ولنتف هنا اليوم منتظرين الفرص التى تمكننا من اقتحام تلك الموضوعات التى تبين عظمة القرآن وفضل سيد الأكوان ، صلى الله عليه وسلم .

* * *

رأينا بعد تفسير هذه السورة الشريفة بما يسره الله تعالى أن نجيب داعى المقام وننتهز هذه الفرصة فنذكر للقارئ الكريم بعض ما جاء عن فلاسفة أوروبا مما يناسب ما نحن فيه علما بأن كثيراً من أبناء هذا العصر يتأثرون بذلك فضل تأثر وعلى كل حال فقد قالوا قديماً

« والفضل ما شهدت به الأعداء »

ذكرنا لك في بعض ما كتبناه أن العقيدة بالله فطرية ضرورية لا يلهيك عنها إلا الغفلات الترابية ، أو الجهل الذى يفوق جهل الحيوان ، فإن الحمار مثلاً إذا ضرب التفت ليعرف الضارب ، لأنه لا يتصور أن هناك ضرباً بلا ضارب أو أثراً بلا مؤثر فمن رأى هذا الوجود وما اشتمل عليه من حكم وأسرار وآيات تدهش الأنظار

وتحير الأفكار ، ثم لم ينتقل منها إلى الإحساس بعظمة الواحد التهار المتكبر الجبار هز أجهل من ذلك العمار ببل أخط رتبة من الأ عيار التي تسبح خالق الليل والنهار (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)^(١) فسبحانه من إله عظيم ، ورب حكيم

وبالجملة فمن يتأمل في هذا العالم وما هو عليه من الرضخ المنظم والترتيب المحكم الذي وضعه البارئ الحكيم لكيفية التوالد وتكاثر الأجناس مع تباينها ، وتشابه أفراد الأنواع مع مزيد كثرتها وتضامن جميع المخلوقات علويها وسفليها وصغيرها وكبيرها مع ما فيها من الحكم المدهشات ، وترتيب أنواع الكائنات ، وارتباط العمال بالمعولات ، وضرورة خدمة بعضها لبعض وما أودع فيها من القوى المختلفة والأسباب المتباينة ، وما تشاهده كل وقت من إخراج الحي من الميت والميت من الحي

من نظر في ذلك كله علم أن جميع الكائنات معجزات إلهية تفوق المدارك البشرية وتنطق بعظمة الله الذي ليس كمثل شئ وهو السميع البصير (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِزَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْتَبًا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ وَهْرِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَضْرِيغِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٢) (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(١)
 (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
 وَالتَّرَائِبِ) ^(٢) (وفى الأرض آياتٌ للمؤمنينَ وَفَى أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا
 تُبْصِرُونَ) ^(٣) وَكَأَيِّنُّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
 عَنْهَا مُعْرِضُونَ) ^(٤)

إلى آخر ما جاء في القرآن وقام عليه البرهان ولندع ذلك فهو
 معلوم للقارئ أو لجميع المؤمنين

ولنتل عليك من كلام الفلاسفة الأوربيين في تعظيم الله وبيان
 كبريائه فنقول

قال الفيلسوف باسكال : « إذا أردنا أن نقرب لك أمر الخالق
 عز وجل فمتصور كرة لا نهاية لها مركزها في كل مكان ومحيطها ليس
 له مكان » وهنا يحسن أن نقرأ قوله تعالى (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَفِي الْأَرْضِ) ^(٥) . (فَإَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) ^(٦) . (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا
 كُنْتُمْ) ^(٧) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
 سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) ^(٨)

(١) سورة الفاشية ، الآيات من ١٧ - ٢٠

(٢) سورة الطارق ، الآيات من ٥ - ٧

(٣) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٣

(٦) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٧) سورة الحديد ، الآية ٤

(٨) سورة المجادلة ، الآية ٧

وقال النيلسوف اليونانى ابيكتيت : (العقيدة بالله باستحضار عظمته يجب أن تكون مستمرة كاستمرار التنفس)

وقال شوتانريان « لم يتجرأ على نكران الله غير الإنسان »
وقال ش . جوتيه : « الله هو الكائن الذى لا يدرك ولا يوصف ومع هذا فهو ضرورى » ويقول « إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكتشفه لنا عقولنا » .

وقال لامارتين « أن ضميراً خالياً من الله كالمحكمة الخالية من القاضى »

أقول وأقر المحاكم الآن خالية من ذلك القاضى . وقد أذكرنى هذا قول اقمائل

عندى ضمير لست أرضى بيعه بجميع ما فى الأرض من أموال
وهنا ضمائر لو أردت شراءها لأخذت أغلاها بربيع ريال
وقال بيلوتان : « الله هو الحياة العامة فهى الأصل والمرجع لكل حياة »

وبعد فيحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة من القدماء والمحدثين على وجود الخالق عز وجل فنقول

قال المسيو بوسيتيت فى كتابه المسمى « التذكرة » فى تاريخ البرهان على وجود الخالق « اعتقاد الأفراد والنوع الانسانى بأسره فى الخالق اعتقاد اضطرارى قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ومهما صعد الإنسان بذكرته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن

يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق تلك العقيدة التي نشأت صامته وصار لها أكبر الآثار في حياته فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، ففي الحالة الأولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل تكافئ على الحسنة والسيئة سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المستقبلية « وقد قرأنا بحثا كتبه الفيلسوف الكبير «مومنيه» يثبت به وجود الخالق قال إن افترضنا بطريقة تعلق عن متناول العقل أن الكون خلق بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل ، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما في الشكل الظاهري ومباينا له في التركيب الداخلى وهو المرأة ، لأجل عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيهما]» ثم قال « أليس يدل على هذا وحده على أن في الوجود خالقا مريدا مختارا أبداع الكائنات ونوع بينها وعرز في كل نوع غرائز وتمعن مواهب يقوم بها أمره ويرتقى عليها نوعه ؟

أقول أشار القرآن إلى ذلك مما يعلو تلك البراهين المنطقية والأساليب الجدلية ، فذكر ذلك البرهان في قالب يستهوى المدارك والأرواح معا ، فهو أملك للوجدان من كل برهان ، وبين أنها آية تسترعى الأنظار وتستهوى العقول والأفكار ، فقال (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (١) ولاتنس أن للقرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى مايفوق كل دليل ، وله في

ذلك سبيل دو أوضح من كل سبيل ، مثل قوله تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)^(١) وكفوله : (أَلَيْسَ لِلَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٢) إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك .

وقد قلنا : إن القرآن ينطوى على شيء كثير مما يعمل في النفوس أكثر مما تعمل البراهين المنطقية والمحاولات الجدلية .

ويحسن بنا وقد تصدينا لنقل عن الفلاسفة أن نذكر لك هنا المحادثة التي حدث بها سقراط أرسطوديم بخصوص الألوهية ، وذلك أنه علم أن رستوديم هذا ينكر الألوهية إنكارا باتا وقد غلا في ذلك ، فقال له

قال لي يا أرسطوديم : «أيوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم وجمال صنائعهم» ؟

أرسطوديم نعم

سقراط أخبرني عن أسماءهم

أرسطوديم أعجب في الشعر الروائي « بهومير » وفي صناعة التماثيل ببوليكتيت وفي التصوير بزوكسيس

سقراط أين الصناعات في نظرك أولى بالإعجاب الذي يصور صوراً بلا عقل ولا حراك أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

(١) سورة: الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة: ابراهيم ، الآية ١٠

أرسطوديم وحق «جوبيتير» يريد الزهرة - أن أولاهما بالإعجاب
هو الذى يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياء إذا لم
تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق .

سقراط ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج الاتفاق
أو من نتائج الإدراك التى غايتها ظاهرة ، أم التى
منافعها مشكوك فيها ؟

أرسطوديم من العدل أن أقول إن الكائنات ذات النفع هى أولى
بأن تنسب إلى عمل الإدراك

سقراط ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم مألدهم من
الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر
والآذان للسمع ؟ وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم
تكن لنا أنوف ، وهل كنا نشعر بمرارة المر ، وحلاوة الحلو
إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى
من دلائل التبصر والحيطة أن تكون الأعين لرقبتها
وسهولة تأثيرها قد تمتعت بالأجنان التى تقفل وتفتح
بالإرادة وتنسدل على العينين وقت النعاس وقد حليت
أطرافها بأشبه شئٍ بالغبال من الرمش ليحميها شر
الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقطاً
العرق إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع
الأصوات بدون أن تمتلىء قط . - إلى أن قال : كل هذه

الأعمال تدل على تبصر واحتياط إلى أى شىء تعزوها
للاتفاق أم للإدراك ؟

أرستوديم

لا وحق «جوبتير» يريد الزهرة - هذه الأعمال إذا
نظر إليها الإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب
الكائنات الحية

سقراط

وماذا تقول فى الميل المودع فى النفوس للتناسل ، وفى
الحنان المخلوق فى قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات
أكبادهن ، وفى الخوف الموجود فى تلك الكائنات من
العطب ؟

أرستوديم

لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر
خلق الحيوان على ما تقتضيه الحكمة

سقراط

أتعقل أنك قد تحليت بعقل وإدراك وأنت كما تعلم
لاتقارن بشىء من الوجود وأن هذه المخلوقات كلها
المتمتعة بإدراك مثلك لاتحتاج لعقل يرتب علاقاتها
ويقيم أمرها على قاعدة النظام ؟

أرستوديم

أنا أنكر ذلك وحق «جوبتير» فإني لا أرى ذلك الصانع
كما أرى الصانع من الناس

سقراط

إنك لاترى كذلك روحك التى تتسلط على أعضائك
فهل تستطيع أن تقول إن جميع أفعالك صادرة بلا عقل
ولا إدراك ولكن بالاتفاق ؟

كانت نتيجة هذه المجادلة اعتراف أرستوديم بوجود الصانع

ذكرنا لك كلام سقراط مع ارستوديم في البرهنة على وجوده تعالى ، واليوم نذكر لك شيئاً من براهين غيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين لما في ذلك من الفوائد لأولئك الذين قلدوا سفهاء أوربا بلا عقل ولا روية ، فنقول

قال أفلاطون « من البدهى أن كل حادث له سبب أحدثه لولاه لبقى في العدم ولم يخرج إلى الوجود ، ولا يعقل حدوث شيء بلا سبب (لأنه لا يعقل إيجاد نفسه)

ومن العلوم بالضرورة أن العالم حادث ، لأنك تشاهد وجود الأشياء بعد عدمها ، ولأنك تعلم أن هذا العالم ممكن وكل ممكن يجوز عليه الوجود والعدم ، فلا يتأتى إلا بمرجح يرجح وجوده على عدمه ، وهذا بدهى في الممكن ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان واجبا والواجب لا يسبقه عدم ، ولا يجوز أن يطرأ عليه عدم ، فإذا يجب أن تكون هذه الموجودات البديعة لها سبب هو أكمل الأسباب كلها »

براهين أرسطو : واضع المنطق ويلقب بالمعلم الأول :

قال « إنا وجدنا المتحركات تتحرك ، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا يجوز أن يذهب إلى غير النهاية لامتناع التسلسل ، فلا بد أن يستند إلى محرك غير متحرك ، ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ، فإنه لو كان كذلك لاحتاج إلى شيء يخرج من القوة إلى الفعل ، فالفعل إذا سبق على ما بالقوة وكل جائز وجوده في طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والجواز فيحتاج إلى واجب^ب به^ب يجب^ب حتى يظهر إلى الوجود ، فكل متحرك

يحتاج إلى محرك لا محالة لأن جوائز الوجود ليس له في نفسه إلا الإمكان والقابلية »

وقال في إثبات الوجدانية : « محرك العالم واحد لأن العالم واحد ولو كان اثنين لاحتاج إلى واحد على واحد بالتماثل بالتماثل فيشملها جنسا وينفصل أحدهما عن الآخر نوعا فتتركب ذاته من جنس وفصل ، فتسبق أجزاء المركب على المركب سبقا بالذات فلا يكون وجبا بذاته »

ثم قال : « إن واجب الوجود لا يتغير ، لأن انتقاله عن حالته يكون إلى أشرف لا إلى الخير ، لأن كل رتبة هي دون رتبته وكل شيء يناله هو دون نفسه الكاملة »

ولنقتصر من براهين الفلاسفة الأقدمين على هذا

ولنذكر لك من براهين فلاسفة أوروبا المحدثين ما تيسر ، لما في ذلك من الفائدة التي تعود على كثير من القراء إن شاء الله ، فنقول

قال الفيلسوف الشهير الصيت «ديكارت» الفرنسي

«إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجود وجود ذات كاملة ، وأراني مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي «الله» .

ثم قال (وهو وجه آخر من وجوه الاستدلال) : « إني لم أخلق ذاتي بنفسي ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها إذًا أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة

جميع صفات الكمال ، وإلا اضطرت أن أطبق عليها التعليل الذى
الذى طبقته على نفسى »

ثم قال « إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق في
الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتين
فائتين إذا فالله موجود »

ولا بأس أن نقول لك إن ديكارت كان ممعنا في الشك في كل
شيء ، وما كان يريد بذلك الشك إلا التوصل للحقيقة ناصعة خالصة
من كل تقليد ، فهو أشبه شيء بالرأى الذى يذكر عندنا في كتب
الكلام من أن أول واجب هو الشك فاعرف ذلك ، وإياك وتقليد
بعض الجاهلين الملحدين

ومما يناسب موضوعنا الذى نحن فيه قوله : « إن في هذه الشكوك
كلها شيئا لا يتناوله الشك أبدا وهو « أنا » وقد كنت مقتنعا
بأنى لست بموجود ولكنى في الواقع كنت موجودا ، إذا استطعت
أن أعتقد أو على الأقل أن أتفكر في شيء ، فإذا أنا موجود
ولا يوجد شيء يمكنه أن يقنعنى بأنى لست بموجود مادمت أتفكر ،
فقولى : « أنا موجود إذا » ، هو حقيقة ثابتة لا شك فيها ، كلما قلتها
أو تصورتها في ذهنى

هنا تمكن « ديكارت » ، أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج
بعقيدة صريحة واضحة لا تقبل الجدل ، وهى أنه موجود ، ومنها
تمكن من اكتشاف حقيقة أخرى جلية القدر وهى أنه يتوجد ذات
متصفة بجميع صفات الكمال

قال « إذ هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتي ، وقد ولدت حاملا أمانتها في دنيا ضميري لأنه كيف يعقل أن أدرك أنني شاك وأنا راغب ؟ أي أنه ينقصني شيء ، ولم أكن بالغاً نهاية الكمال إذا لم يكن مغرورا في ديبعتي إدراك وجود ذات أكمل من ذاتي »

ثم قال إن لفظة (الله) إن لفظت بها فإنما أعنى بها هيولى لا نهاية له ، أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شيء وقادرة على كل شيء ، وإني وأنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة ما ، وهذه معارف جمّة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأنني لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتي وحدها ، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن لله وجودا مستقلا ، وأن شعوري بوجود هيولى غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله من ذاتي أنا ذلك الكائن المتناهي بل غرست في ذاتي تلك العقيدة من قبل هيولى غير متناهية في الحقيقة »

براهين فنيلون :

وهو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال « لست موجودا من ذاتي ، وكل شيء من هذه العوالم كذلك ، لأنه يجب للموجود من ذاته أن يكون أليا ثابتا فإنه يكون حاصلًا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتادا لشيء من الخارج عنه ، فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحد به ولا أن يكمله ، لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحد مع الموجود بذاته الذي لا يقبل التغير ، فإن الفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له ، إذا فلا يمكنهم أن يؤلفا مجموعا حقيقيا ، إذًا فالموجود بذاته

لا يمكن أن يزداد شيء على حقيقته ، ولا على رحمته ولا على كماله فهو في ذاته كل ما يمكن أن يكون ، ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه فالوجود على هذه الصفة هو أرق درجات الوجود» .

برهان بوسويت :

هو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال « ليس علينا إلا أن ننظر إلى أنفسنا لتتحقق أننا صادرون من أصل رفيع ، نرى أنفسنا أهلاً لأن نفهم الأشياء وندرك الموجودات ، وأننا قد نجهل بعضها فنشك فيها ، أو نرى الأحوط ألا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها إلى حقيقة ما ، وما ذلك إلا لأننا نعتقد أن بنفوسنا نقصاً يمنعها الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وإذا كان في الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل وهو مع ذلك موجود ، فمن باب أولى يكون موجوداً فيه عقل كامل ليس عقلنا منه إلا قطرة من بحر أو شعاعاً من شمس ، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وإدراك ، ويكون الوجود العظيم كله خالياً منهما ، إذ يقال أنه إذا كان الوجود كله مكوناً من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك فمن أين نشأ للإنسان هذا العقل والإدراك ؟ (وفاقداً الشيء لا يعطيه كما هو معلوم) إذ فلا بد أن يكون في الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له »

برهان ليبنتز :

وهو من أشهر فلاسفة الألمان

قال في بعض كتبه « الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ،

لأن كل ما هو محدود ومنتاه ككل شيء تقع عليه أنظاراً وتتأثر له

مشاعرنا ، هو من الممكنات أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد ، وقد لا يوجد ، وليس فى أحدها شىء يوجب له الوجود بذاته والزمان والمكان بالمادة المتحدة فيما بينها أن تستطيع أن تقبل حركات وصوراً من نوع آخر غير النوع الحالى ، إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة يجب البحث عنها فى الهيولى التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية

يجب أن تكون هذه العلة عاقلة لأن الكون الموجود لما كان يمكننا أى قد يكون ولا يكون ، ومن الإمكان حدوث ديناوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود ومحيطه بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة ، ويكون تحديده تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعمل إرادة واختيار ، ولا شىء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التى لهذه العلة الحكيمة ، يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وتامة كماً مطلقاً من حيث القدرة والحكمة . ولما كان الوجود كله مرتبطاً بعضه ببعض ومرغاً فى قالب واحد ، فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها »

هذا بعض ما قاله أولئك الفلاسفة . وما أجدرنا فى هذا القام

أن نقول

جلالك يا قدوس ليس له حد كذلك صفات القدس ليس لها حد
تعاليت عن وصف الخليقة كلها ومن وصف عليك الطهارة والمجد

إ: قضاؤك محتوم وامرك نافذ وماشئت من شئ فليس له رد
لك المثل الأعلى وكل معبد كغناه اعتزازا أن يقال هو العبد
لؤنكتف اليوم بهذا المقدار مخافة السامة وقد نقلنا من تلك
الشهادات للدين الإسلامي شيئا كثيرا في كتابنا (الجواب المنيّف)
علما بأن الإلحاد قد طم سبله ، وعم ويله ، وظن أربابه أنهم وصلوا
من العلم إلى ما لم يصل الأولون (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ)^(١) وقد بين الله حقيقتهم ومبلغهم من الإنسانية
فقال وهو أصدق القائلين (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ
وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ،
وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ)^(٢) (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَّا يُبْصِرُونَ)^(٣)

غير أن هنا كلاما مهما لكاتبة أمريكية عن الإسلام يحسن
أن نذكره لحضرات القراء في هذه الفرصة : نشرت مجلة بوستن التي تصدر
بأمريكا مقالا طويلا لكاتبة أمريكية بعنوان (لا دين أعلى من الحق)
استهلتها بوصف جامع وثناء عاطر على النبي صلى الله عليه وسلم ، وما
أحدثته رسالته في العالم ، وما كان لبعثته من أثر في أخلاق الأمم
وتطور العقائد من الحضيض إلى الأوج ، إلى غير ذلك من الإصلاح

(١) سورة المجادلة الآية ١٨

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(٣) سورة الأعراف ١٩٨

الاجتماعى الذى لاحد له ، ثم أهابت بالناس جميعا ألا يغفلوا عن تعاليمه ، وأن يوجهوا كل همتهم إليها ، ففيها الخير العميم ، وفيها المنافع الكثيرة فمن قولها فى هذا المقال « إن مقاييس الإصلاحات الإنسانية هو الخير الذى يمكن أن يصل إلى نوع الإنسان عن طريق ذلك الإصلاح ؛ وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم قاموس محيط لأرقى مزايا الإصلاحات وأعماها نفعاً للبشرية

فمن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم أن كل عمل طيب صدقة وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة ، وتوجيه النصيحة إليه بمثابة هدية غالية ، وهداية الحائر إلى الطريق يعد إحسانا ، ورفع الحجر والشوك ونحوهما من الطريق كفى لا يتعثر فيهما السارى فى الظلام صدقة وبر عظيم . « أطعموا الجائعين واسقوا العطاش وعودوا المرضى ، وحرروا الأسارى ، وأعتقوا العبيد وساعدوا كل إنسان » هذه من أقوال محمد ونصيحته وكذلك قوله أسعدوا القلب الحزين وأنقذوا المكروبين وخلصوا الغريم من عبء الدين الثقيل لأن من أخرج المكروب من ضيقه يفرج الله عنه فى يوم القيامة الذى يحقق الله فيه العدل ، وينجز وعده بالجزاء

وفى ذلك اليوم تمر على الإنسان ذكريات دنياه ليقدّم عنها الحساب فيبشرى للذين يعاونون إخوانهم فى أوقات ضيقهم ، ويرفعونهم من كبواتهم ، أوائلك يساعدهم الله يوم النزع الأكبر

تلك وصايا محمد وعظاته البالغة التى تدفعنا لنحمل نور الفرح إلى القلوب التى تراكمت عليها ظلمات الهموم ونور الهداية إلى النفوس التى أغرقتها ظلمات المعاصى

إن محمداً يبين لنا أن أحب مخلوق إلى الله هو الذي يصدر منه الخير لمخلوقاته ، لأن جميع الناس سواء عند الله ، أفضلهم من سما بالفضل فيهم : وتعاليم محمد لا تعتبر الإنسان كاملاً عند الله محض ألفاظه وكلماته فالكمال في الإسلام قائم على الصدق الذي يبدو في ثلاثة مظاهر من الحياة الإنسانية الصدق في القول والظاهرة في النية وظهور الإيمان في الحياة العملية

« قل الصدق إذا نطقت ، أدُّ الشهادة على وجهها ولو على نفسك ، أنجز إذا وعدت »

أد الأمانة من ائتمنك ولا تخن من خانك^١ خالف نفسك في هواها إذا مالت إلى شيء يغضب الله لا تحمل في قلبك غلاً ولا حقدًا لأحد ، واغسل يديك من أدران الأذى والاعتداء

وهذا الدين يحرم على أهله أن يفتش المسلم عيوب غيره أو ينقل بين الأصدقاء حديثاً يفرق بينهم ، أو أن يتتبع المرء عورات أخيه ويخفي محاسنه ومزاياه

وهناك حقيقة عظيمة يكاد الإسلام يمتاز بها : وهي أن الإنسان ينبغي أن يعيش من كسب يده من التجارة ، أو من الصناعة وغيرهما ، وأن الله جلت قدرته يبارك للمجتهدين في أرزاقهم ، ويعطيهم ثواب العباد ، ويمنحهم أجر الذين جاهدوا في نصرة الدين

نصح محمد لرجل سائل أن يجمع الحطب من الجبال وانغابات
ويبيعها لكي لا يقع تحت ذل المنة عليه من الناس

وينصح محمد بأسمى فضائل الأخلاق ، ويدعو إلى أن تصل
من قطعك ، وتحسن إلى من أساء إليك ، وأن لا تتكلم إلا بخير ،
وإذا سكت فليكن صمتك تفكيراً في الله ومصنوعاته

أما تعليم العلم وتعلمه فإن العلم مدين كثيرًا للمحمد الذي يعلم
أتباعه أن ساعة من الليل في مذاكرة العلوم أفضل من قضاء الليل
كله في العبادة ويعتبر الإسلام أن من اجتهد في العلم وأصاب
الصواب كان له أجران عند الله أجر نجاحه ، وأجر اجتهاده
وأن من أخطأ فله أجر اجتهاده . لا فأي تشجيع على التعليم أسمى
من هذا ؟

إن محمداً يعتبر اقتناء العلوم جهادا ، والتكلم بها ذكرا ، والبحث
عنها قنوتا وتعليمها تصدقا وإحسانا ، لأن العلم هو المنقذ من
الحيرة ، والبور الكاشف للظلمة وهو صلة الأرض بالسماء
وطريق الإنسان إلى الله . العلم هو صديقنا في صحراء الحياة المجردة
وأنيسنا في وحشتها ، ومساعدنا عند فقد الأصدقاء ، ومرشدنا إلى
السعادة ، ودو الذي ينقذنا من البؤس ويكسبنا زينة مع الفقر
سلاحنا ضد أعدائنا ولطالما رفع العلم الخاملين وسأ بهم إلى معاشره
الملوك

تلك هي أقوال الإسلام وتعاليم محمد نقلنا خلاصة منها في هذه
الأقوال الموجزة المجمل غاية الإجمال

ولقد نشر أصحاب محمد لواء العلم في كل مكان ، ويظن بعض من يجهل الحق أو يتجاهله أن الإسلام كان دين غزو وفتح . هو قول بلغ أقصى غايات البعد عن الحق المبين

«حقا إن المسلمين فتحوا ممالك وشادوا امبراطوريات ولكنهم لم يحملوا سيوفا فقط بل حملوا عدلا ، ونشروا علما وفناً تعجلى في عبقرية المجتهدين الذين نشطوا بين القرن الثامن والرابع عشر نشاطاً لم يعرف التاريخ مثله شيدوا مدارس وجامعات في مصر وبغداد وقرطبة في غرب أسبانيا وما ازدهرت الحضارة في الدنيا كما ازدهرت في ظل أتباع محمد»

« إن المسيحيين في أوروبا لا ينكرون ما اقتبسوه من الأندلس من العلوم والفنون التي كانت حياتهم بعيدة كل البعد عنها فتعلموا الفلك والرياضيات من المسلمين الذين كانوا يترجمون ثم يحققون فتبدو شخصيتهم العلمية والفنية وعليها من الإسلام طابع واضح يشهد بالفضل لتربية محمد صلى الله عليه وسلم التي أثرت في الدنيا كلها »

هذه أقوال سيدة موصفة تحب الحق وتجهز به وإنا نتمنى أن يرشد الله أبنائنا المتعلمين أن يبحثوا عن الحقيقة التي جهلواها حتى يعرفوا أسرار دينهم التي غفلوا عنها ، حتى يعود إليهم مجدهم الذي كانوا فيه عندما كانوا مسلمين حقاً

أسأل الله أن يعرفنا مزايا الإسلام وعظمة نبي الإسلام منه وكرمه

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ
كُفُوًا أَحَدٌ)

رأينا أن نوفي هذه الفرصة الثمينة حقها فنكثر من البراهين
الدالة عليه تعالى بقدر ما نستطيع علماً بأن العقائد قد عتبرتها
الشكوك والنسوس قد لعبت بها الأوهام

وقد أكثرنا بنوح خاص من أقوال فلاسفة أوروبا ، لما في ذلك
من التأثير البالغ في نفوس شبائنا الذين أصبحوا يتهمون أئمة
المسلمين ويقدمون أساتذة الأوربيين ، والله في خلقه شئين

ومما نقصده أيضاً من نقل تلك الآراء والأفكار أن نعرف القاريه
أن الطرق الموصلة إلى الله تعالى لا تنحصر وقد قالوا قديماً إن الله
طرائق بعدد أنفاس الخلائق وقد وصل الأمر من الوضوح عند بعض
أرباب الوجدان من المسلمين أن سمع قائلاً يقول إن الفخر الرازي
أقام على وجود الله ألف دليل ، فقال « ومتى غاب حتى يستدل
عليه » ؟

ولننق لك بعض تلك البراهين ، ولعلها أليق ببعض الاستعدادات
فنقول

قال « نيون الإنجليزي » وهو أكبر علماء الفلك في عصره
ومكتشف قانون الجاذبية العامة وقد سأله الناس من كل مكان أن
يأتيهم بدليل على وجود الخالق يكون في درجة المحسوسات ، فأجابهم
قائلاً: « لا تشكوا في الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة
وحدها هي القائدة للوجود والمنظمة له ، لأن ضرورة عمياء متجانسة

في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أولى له حكمة تامة وإرادة نافذة

أقول : أكثر « نيوتن » من كلمة الضرورة ، لأن الملحد ينذكرنا كثيرا كلما أخرجوا وإني ولا أخفى عليك وقد حاولت كثيرا أن أفهم ذلك فلم أستطع وليت شعري ما هي الضرورة التي توجد وتخلق ، وترتب وتضع الأشياء في مواضعها ؟ وما حقيقتها وما صفاتها التي أتت بهذا الإبداع المدهش ؟ وإذا كانت الضرورة تفعل ذلك كله ، فما بالناس في هذا الضيق وهذه المصائب فهل اعتراضها الوهن أم أدركتها ؟ ثم تبين لي أن للأوهام والخيالات مدركات لا يتأتى للعقول أن تدركها لأنها لا تدرك إلا بواسطة وهم فاسد أو خيال كاسد ، ولذلك يقول (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) ^(١) والأنعام لها قوة الوهم لا قوة التفكير

ولنرجع إلى كلام نيوتن قال بعد ما سبق « من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها . »

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩)

ثم قال « ون الجلى الواضح أنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة على مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها المختلفة بالنسبة للشمس ، ولما ركز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجزاء السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها ، وبين جربتيير « المشتري » والأرض ، وقور السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الالاتلافات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجود وجود « سبب » لا أعمى إلا حادث بالاتفاق « كما يزعم المحدثون الجاهلون » على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة

ثم قال « ليس هذا كل ما فى المسألة ، فإن الله ضرورى لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يكون من مجرد قوة الجاذبة أو لتحديد وجهة هذه الدورات كما يرى ذلك فى الشمس وتوابعها ، بينما ذوات الأذئاب تدور فى كل وجهة على السواء

ثم قال « وغير هذا انظر تكون الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكوالكب وتوابعها كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له ».

أليس هذا موافقاً لما نقوله من أن معلومات الله لا تنتاهى وكمالاته لا تنتاهى .

ثم قال « انظر كيف كونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاءها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه والأذن بدون إلمام بقانون الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات » .

إلى أن قال « وهذه الكائنات كلها في قيامها على إبداع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حتى حكيم ، يرى حقيقة كل شيء ويدركه أكمل إدراك ؟ » .

قد أطلنا في هذا البرهان ، ولعل في ذلك التطويل فائدة لكثيراً من القراء .

وقد كان عمدة « نيوتن » في استدلاله ببيان الأشياء التي لا يمكن تعليلها بغير فعل القادر الحكيم .

وأقول إن نظر علمائنا في هذا الموضوع أبعد غوراً من غيرهم ، فإنهم إذا ظفروا بعلل الأشياء وأسبابها جعلوا ذلك من براهين حكمة الحكيم ودلائل وجوده ، فإن هذه العلة ليس لها وجود من نفسها ، لأن دلائل الإمكان فيها واضحة ، وكل ما ليس بواجب الوجود فلا بد له من واجب الوجود

ثم نقول ما الذى متعها بتلك الخصائص التى جعلتها عللاً وأسباباً ؟ فقد كان يجوز أن تكون بصفات أخرى وقوى أخرى ، فإنها قابلة لذلك كله بمقتضى إمكانها وبغيرها الذى نشاهده ، فكان وجودها بعد عدم وتمتعها بتلك القوى المخصوصة من أكبر الأدلة وأعظم البراهين وليت شعرى لماذا عدد الله العناصر المختلفة حتى جعلها تزيد على السبعين أو الثمانين ، ثم جعل لكل منها خصائص لا توجد في غيره ، بل قد تكون متضاده ، كالأكسوجين ، والأزت ، والكربون .

فمن ذا أوجها كلها ومتعها بهذه الخصائص حتى تتعاون على هذا النظام البديع ؟ وليت شعرى ما الذى أوقفها عند هذا الحد فلم تنقص عنه ولم تزد عليه ، غير مشيئة الله الذى علم كل شئ ودرّب كل شئ فسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى

والحق أقول إنى لم أر في هذا الوجود على سعة أكنافه وتباعد أطرافه وكثرة تسوعاته وتشعب مبدعته ، أجن من أولئك الملاحدين (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنَمَا) (١) (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (٢) ويكفي ما قال الله فيهم (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) (٣)

ولا يصح أن يذكروا في عداد العلماء ، فإن الله يقول (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (٤) فكل من لم يشهد بذلك فليس من أولى العلم

وقد قال « سبنسر » وهو من أكابر علماء الإنجليز : ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التي عرفها أبناء المدارس ، وإنما الغرض من علم الطبيعة أن نقف على ذلك الجسر الذي ننظر منه إلى ما وراء الطبيعة

وقال « باكون » وهو من أشهر مشاهير علماء الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة بأطراف الشفاه كان ملحدًا ومن شربه عبًا أوصله إلى الخالق »

براهين كلارك : وهو من أشهر فلاسفة الإنجليز :

قال « لا بد لنا من فرض أن شيئًا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن ، وهذا الفرض حقيقة لا شك فيها لأن كل موجود من

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٤

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٤

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨

هذه الممكنات يجب أن يكون هناك سبب أوجده أى أصل قام عليه وجوده ، وهذه الأشياء إما موجودة بذاتها فهى إذن قديمة أزلية ، وهو ما لا سبيل إليه ما نرى فيها من دلائل التغير والحدوث الدالة على أنه ليس لها شئ واجب لذاتها ، وإما أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها فيكون هو القديم الأزلى .

ثم قال كلارك ما ملخصه

« لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادى مستقلاً بنفسه ولا أبدياً إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته ، ولكن مما لا شك فيه أن الوجود المنظور ليس هو واجب الوجود ، لأنه سواء أتماًلت فى شكله الظاهرى مع قابلية أجزائه لحركاتها المختلفة ، أم اعتبرت مادته التى هو مكون منها بدون التفات إلى شكلها الذى هى ظاهرة به الآن ، فلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار ، فمجموعها فى جملة واحدة من أجزائها فى موضعه وحركته ومادته وشكله

وبالجملة كل ما فيه متعلق بغيره غير مستقل وغير معقول أن يكون موجوداً بذاته وإنى أصرح بأن الوجود لأجل أن يكون صالحاً يجب أن تكون أجزاؤه على الترتيب الذى هو عليه اليوم

ومما أعده هذيانا القول بأن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية

وهى الضرورة التى يستند عليها الملاحدون ويدافعون عنها . وقد سبق

لك أن ذلك لا معنى له إلا فى رؤوس المجانين

براهين لوك ، وهو من كبار فلاسفة الانجليز :

قال « إنا نعلم ببدهة العقل أن العدم لا ينتج مطلقاً كائناً

حقيقياً . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلى وبأسلوب رياضى أنه لا بد من

أن يكون قد وجد شيء في الوجود من الأزل ، لأن كل ما له بداية يجب أن يكون ناتجاً من شيء تقدمه

ومما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . إذن فالينبوع الأزلي الذي تستمد منه جميع الكائنات يجب أن يكون موأصل جميع قواها ووجوده . فهو إذن قادر على كل شيء ، وغير ذلك فإن الإنسان يرى في نفسه قوة على العلم ، فيجب أن يكون الأصل الأزلي الذي نتج منه الإنسان عالماً لأنه لا يعقل أن ذلك الأصل يكون مجرداً عن العلم وتنتج منه كائنات عاقلة ومما يناقض البداهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها بعقل لم يكن لها من قبل ، فيجب بالبداهة أن أيكون أصل الكون عاقلاً - بل لا حد لعقله وهو الله تعالى

ولذنه ف دننا اليوم ، واننشد قول أمية بن الصلت ، ذلك البدوى الذى لم تشذله المدنية وزخرهها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديثه به حيث يقول

أنا هاج للقلب من هواه إدكار	وليال خلالهن هـار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم تنوح فى جناح ليل	مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا	فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل رباً وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله	نفوساً لها هدى واعتبار

ذكرنا لـ ، شيئاً من كلام الفلاسفة الأقدمين والمحدثين في الاستدلال على وجود الله تعالى ، وقد رأينا أن نضرب معهم ، بسهم في ذلك الموضوع الرفيع بأسلوب بديع ، وقد وجدت من نفسى سائقاً قوياً لأعمال التريجة في ذلك واستخدام القلم فيما هنا لك ، علماً بأن ذلك مطالب الأرواح وهو المقصد الأسمى من بعثة الرسل عليهم السلام وأى سورة أحق بهذا من سورة لإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بنص الحديث الشريف . ولو كتبنا أسفاراً في بيان صمديته تعالى أو أحديته عز وجل لم نبلغ إلا أقل القليل من دلائل قدرته وآيات عظمته (سبحانه) لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك)

وبالجملة فقد جاءني هذا الإلهام القوي والذي لا يمكنني أن أخالف سلطانه ، أو أوسع بيانه ، وهو فيما أعتقد أجل ما ينفع القراء ويبتهج به أهل الذكاء ، فأقول متوخياً طريقة القرآن من وضوح البيان واستشارة الوجدان ، وبالله التوفيق

١ إن نسبة الإلحاد إلى علم الطبيعة افتراءً على علم الطبيعة ، فإنه لا علاقة له بأوائل الأشياء ولا أواخرها ، وليس في قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا إلى أين تذهب ، ولا ذلك من أبحاثه وأنه لينطق بعجزه عما وراء الطبيعة ، ولكنه يقدر بهاسراره البديعة ذلك الفاعل المستتر بكنهه الظاهر بآثاره ، الذي دق عن رؤية الأبصار وجل عن أن يقع تحت الحس ، ولكنه معروف للعقول مرئى للبصائر فهو كالروح وجودها بدهى في الفطر ولكنها مجهولة عند إرادة التكليف والتمجيد لأنها تعلقو عن ذلك بمقتضى طبيعتها بعد النورانية عن الظلمانيات ، فتتكراه عوالمك السفلية الكثيفة التي لاتعرف غير المحدود..

٢- ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعته علمه وباهر ألوهيته ما أودعه في الأنبياء من الحكم التي اقتضت أن يوجد لك كبداً تفرز الصفراء ، وغدداً تفرز الريق ، ومجرى للطعام ، ومجرى للنفس ، ومصفاة في الانف للهواء ، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الإحكام في الأذنين والبطين والشرايين والأوردة . وانظر كيف جعل لك منفذاً للفضلات وبجانب قناة البول أخرى للمنى بعد عمل حوض للبول يجتمع فيه وكليتين نفرزانه من الدم ، ثم جعل لك أنثى ، وهياً لها ما يراد منها فخلق فيها رحماً وثدياً . إلخ

وانظر إلى حكمة الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان في الفم ، إلى غير ذلك مما يبهرك إن كنت ذا وجدان صحيح

٣- من المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه ، فكيف تعطينا المادة الجاهلة الميتة الحياة والعلم والإدراك ؟ وهل لتلك العناصر المادية كالكبريت والفسفور والأكسوجين والأدروجين^(١) والذهب والزرنيق إلى غير ذلك من عناصر المادة خير من ذلك أو أثارة من حياة أو علم أو إدراك وهل إذا اجتمعت الجمادات كونت حياة وإذا انضمت الجهالات كونت علماً عالياً وإدراكاً شامياً هل كان يمكن للمادة الجاهلة التي تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وأمعاناً ورثتين وكليتين ، وأن تخلق في المعدة ما تحتاج إليه من العصارة المعدنية وبجانبها العصارة البنكرياسية

ثم تخلق جهاز التناسل وتعلم أن ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقاً
 آخر من جنس الخاق الأزل وتخلق فيه جهازاً للتناسل يخالف الجهاز
 الأول ليكون الأول فاعلا والثاني قابلاً . ثم تخلق فيه محلاً للجنين وتدبر
 له كيفية غذائه مادام في الرحم وتخرج له ثدياً يغذيه بعد خروجه
 وتهيئ له لبناً يجري فيه يناسب حاله وضعفه في طفولته ويجعل الرجل
 مجرداً عن ذلك وقد أتى على كل منهما الشهوة الشديدة إلى الآخر
 لينساقا إلى ما خلقا له وليحفظ النوع من الفناء والذور

بل نقول دل علمت المادة الصماء العمياء أن الكلبة ستلد أجراً
 كثيرة . فجعلت لها أئداء كثيرة وحلمات عديدة رحمة بأولادها التي
 ستكون بعد ، بدل علمت أن العقاب ستهذي باللحم فكونت في البيضة
 التي يتخلق منها منائر يقطع بها اللحم كما علمت . أن بعض الطيور تأكل
 النبات وأن بعضها يحتاج إلى حويصلة فلم تكون ذلك في بيضتها ؟

٤- إن أعمال الله تعالى لا تنتهى ولا تدخل تحت حصر مما ينبيء
 عن الاختيار والإرادة فإن الأعمال الطبيعية يجب أن تكون متشابهة بل
 متحدة فإن لطبيعة لا تعمل إلا عملاً واحداً ووجود الأعمال المنوعة
 من خصائص الاختيار والإرادة وليس الاختلاف الذى نشاهده ولا يدخل
 تحت حصر قصراً على الأنواع المتباينة بل أفراد النوع الواحد لاتكاد
 تدخل تحت الحصر مبينة وإختلافاً (يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ
 لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) وإن شئت فانظر إلى الأشجار المتجاورة

التي تضرب عروقها في بقعة واحدة وفروعها في هواء واحد ، بل انظر إلى أوراق الشجرة الواحدة تمجدها لا توافق ورقة منها ورقة أخرى ، فإن حاولت أن ترجع ذلك إلى أسباب ومقتضيات فقل لي من الذي نوع تلك الأسباب، وخالف بين تلك المقتضيات الخ .

٥- وإن شئت فانظر إلى تعاضد العوالم وخدمة بعضها بعضاً وتوجيهها كلها لغاية واحدة مما لا يتصور مثله للمادة العاجزة التي ليس لها خبر عما يجاورها فضلاً عن البعيد عنها فانظر إلى خدمة العالم العلوي للعالم السفلي .

٦- وإلى وضع الأرض وغيرها من العوالم العلوية على الأبعاد المناسبة حتى ينتفع بعضها ببعض ، وحتى لا تختل حركة الجاذبية العامة ، ولو جعلت الأرض قريبة من الشمس جداً لاحترق كل ما عليها بحرارة الشمس ، ولو جعلها بعيدة عنها جداً لم يعيش عليها نبات ولا حيوان فسبحان العليم الحكيم .

ومن المدهش كون أوضاعها على نسبة تحفظ بها قوانين الجاذبية في الجميع بالنسبة لما على يمين الكوكب وما على شماله وما فوقه وما تحته ، إلى آخر ما يحير الحاسبين ويدهش الناظرين

٧- وإن شئت فانظر إلى الأرواح والجن وأفعالها التي خرقت كل نواهي المادة وتلك الخوارق يعرفها المسلمون في أوليائهم بالكرامات وأنبيائهم بالمعجزات ، وقد اعترف بها الآن فلاسفة الأوربيين وأساتذتهم بواسطة استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي الذي أتى بما لا يمكن تعليقه بالعلل المادية كما هو معروف ، إلى آخر ما لا يتسع له هذا المقام

٨- وإني لأعجب كيف تنسب هذه القدرة الباهرة التي أوجدت هذا الملك العظيم الذي لا يحيط به محيط في اتساعه وكثرة أنواعه من هواء وماء وأرض وسماء ونجوم وأقمار ، ورياض وأزهار وجبال وبحار إلخ

عجبت كيف تسبخ العمول ذلك أم كيف تسبخ أن تنسب إلى المادة الجاهلية تلك العلاقات المنظمة التي بين الأشياء والترتيب الغريب المسيطر عليها والحكم السامية المودعة فيها التي اقتضت أن يكون (الأزوت) في الهواء على نسبة ٩٩ في المائة (والأكسوجين) في الهواء على نسبة ٢١ في المائة ، حتى يتأتى أن يتنفسه الإنسان والحيوان وتصلح به الأشياء

تلك الحكم التي أوجدت فيك المخ والمخيخ والرئتين وصورت لك فكين وأوجدت بينهما لساناً وعلى طرفيهما أسناناً ولم تكلف بذلك حتى أوجدت لك غدداً في ذلك المحل تفرز الريق إلى آخر ما لا يسعنا إلا أن نلمع إليه لا أن نأتى عليه

٩- عجبت كيف لا يدهشه هذا الإبداع وكثرة الأنواع بل اختلاف الصور وأشكال في النوع الواحد

وانظر إلى ذرة المكروب من نوع الحيوان إلى أن تصل إلى ما طوله عشرات الأمتار كما في حيوانات البحر ، وإلى ماله حويصلة ومعدة ومعدتان وثلاثة . وإني آكلة النبات وآكلة اللحوم وإلى ماله عيون تزيد على عشرات المئات : إلى آخر ما بينه علماء الحيوان

ثم انظر إلى النباتات كيف تزيد أنواعه على مائتي ألف نوع إلخ إلخ
ثم انظر إلى سعة العوالم الملوية وانتظامها وسرعة حركاتها وما قرره
فيها المكتشفون .

فيا ليت شعري ما الذي عرف هذه الاختلافات وتلك التنوعات
وهذه النظمات وهذا الإبداع وذلك الاختراع

١٠- أم كيف أوجدته المادة التي لا تستطيع أن توجد بنفسها
وألفت نظرك إلى هذا الغذاء الذي نأكله كل يوم ولاندرى بشهادة
علماء الطبيعة أنفسهم كيف يكون العين والمخ والمخيخ إلى آخر
أجزاء البدن ، أم كيف يكون العلف والتبن عينا في رأس الحصان ودماً
في جسده وإحماً في عظمه وربما سمعت شهادة فلاسفة أوروبا في ذلك
فايت شعري أي قدرة عملت هذه ، وأي علم نظمه وأي سر أودع فيه
وأي كيفية تم بها

١١- فإن كان لا يدهشك أصل وجود الأشياء من العدم فليدهشك
ما فيها من الأسرار وتنوعاتها وكيفية تأثيرها التي لا نعلمها ولا نحس
منها إلا بقدرة تعلقو عن العقول. ولست أدري أي سر أودع في بزررة
التوت حتى أوجدت لك الشجرة الضخمة ونوعت أوراقها وثمارها دون
شجرة القبول الذي هو أكبر من بزررة التوت بأضعاف كثيرة ، وأي
سر أودع في المعدة حتى صيرت تلك الأشياء الجامدة الغليظة الميتة
دماً حياً يجري في مجاريه المختلفة إلى القلب ثم يرجع إلى أطراف البدن
ست عشرة مرة في الدقيقة .

ولئن عرفنا تركيب الأشياء فلا ندرى كيف تألفت ولا كيف
أثرت ولا كيف تظهر عنها نتائجها . أفلا تدهشك تلك الأسرار

فتستدل بها على قادر عظيم لا ندرى ما هي الأسرار التي أودعها ونوعها ولا نعلم كيف يعمل . فكما تنزه في ذاته أن تدركه العقول كذلك تنزه في فعله عن أن نعلم كيف يكون ، فهل أودعت الأشياء هذه الأسرار في أنفسها ، وكيف ذلك ! ؟ وهل نوعتها إلى تلك الأنواع التي لا يحيط بها محيط وباينت بينها وخصصت كلاً بكل . إلخ إلخ ؟ وليت شعري كيف ذلك وهي الصماء البكماء بل الجماد الميت

١٢ - بل نقول كيف نعقل وجود المادة ، هل ترى - أيديك الله - أنها وجدت من غير شيء وأودعت تلك الأسرار المتنوعة التي تخرج عن نطاق العدم؛ بل التي لانهاية لها من غير شيء اللهم إن ذلك كله باطل بالبداعة ولا يتجرعه ولا يكاد يسديغه إلا مجنون فسد عقلاه أو بطلت إنسانيته وضاعت فطرته التي فطر الله الناس عليها أن نقول إن ذلك كله قد وجد بأصله وأسارده وحكمه ونظامه بالصدفة كما يقول أولئك المجانين

وأنت لا تجبز إذا رأيت قصراً مشيداً مشتملاً على ترتيب عجيب ونظام غريب كل شيء فيه لغرض من الأغراض وسر من الأسرار أن يكون قد وجد بالصدفة بل لا تجبز أن يوجد أقل شيء بالصدفة بل نرجع بك إلى أصل وجود الأشياء من العدم فإن كنت تجبز الصدفة في ذلك كله ويهضم ذلك عقلك فقد سقطت مكالمتك

وبعد فتباً لمن عمى عن رؤية شمسهِ تعالى المشرقة على جميع الموجودات وbacher آياته التي ملأت الأرضين والسموات ثم ينسب ذلك لعلم الطبيعة زوراً وهتافاً

وقد قال « باكون » وهو من أساطين علم الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة
رشفاً بأطراف الشغاه أَلحد ومن شربه عبأً أو صلّه إلى الخالق .

وقال الفيلسوف الكبير « سبنسر الإنجليزى » : ليس الغرض من
علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ؛ بل الغرض
أن يوقفنا على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة ، وما أجدنا
فى هذا المقام أن ننشر قول القائل

يامن تفلسف كى يؤيد كفره مع أنه لم يدركنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صنفقة جاهل تحخذ العلوم ذريعة لجحوده

أو نقول ما قال غيره

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئاً يسدعى أكثر منه
ولنتقف هنا اليوم

* * *

أسمعناك من دلائل الإلهية وآيات الربوبية ما ينشرح به الصدر ،
ويتضح به الأمر ، على نهج ما تفنن فيه كبار الفلاسفة قديماً وحديثاً
سالكين فى ذلك طريقة القرآن من الوضوح والبيان ، وسنسمعك اليوم
ما يزيد به إيمانك ، ويتم به إيقانك ، إن شاء الله

ولا غرو فهو أجل المطالب وأعظم الرغائب ، فأقول وبالله التوفيق :
إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئاً أو نظر إلى شىء أحس بوجود
الله عز وجل ، وكان شيئاً يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهده

روحه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس فاعله الذى أثر فيه ، ومبدعه الذى تجلى بين خوافيه ، لأن الروح الإنسانية لا تعقل أثراً بلا مؤثر ، ولا نظاماً بلا منظم ولا حكمة بلا حكيم ، ولا سرّاً بلا عليم ، بل وجود الله عز وجل عند الإنسان الذى لم تفسد إنسانيته من أول ما غرس فيه ، فهو أوضح بدهياته ، وأول أولياته ، متى أحس بروحه أحس به ، لأنه لا يعقل وجوده بنفسه ، فهو مقترون بوجوده ، والإحساس به ملازم للإحساس بنفسه ، ولا يمكن أن ينطفىء ذلك منه وإن كان ينفل عنه « وَلَكِنَّ مَاءً تَهُمُّونَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »^(١) . « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِلَا يُوقِنُونَ »^(٢) « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ »^(٣)

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس ، أقرب إليها من الإحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبي بالأجنبي ، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه ، ومع وجودها وجوده ، وفي أعماقها فيضه وجوده ، وفي أحداقها النظر إليه ، ومركز في طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا »^(٤) . « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ »^(٥) . وسر ذلك أن طبيعتها معجونة

(١) سورة لقمان : آية ٢٥

(٢) سورة الطور : آية ٣٥ ، ٣٦

(٣) سورة آل عمران : آية ١٩٠

(٤) سورة يونس : آية ١٢

(٥) سورة الإسراء : آية ٦٧

بمعرفة واللجأ إليه ، والإحساس به مفاض عليها من نوره بحيث يجعلها تذهل عن نفسها ولا تذهل عنه ، فحياتها في الحقيقة بأنسه ، وفرحها ليس إلا بنور قدسه ، فلا يمكن أن يفارقها إحساسه ، أو يزاوئها بإنسانه ، ولكن الناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فبقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعدهم منه ، فسبحان من يحول بين المرء وقلبه ، ويضع الحجاب بينه وبين ربه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد غاية الأمر أن الأوهام البشرية والخيالات الجسمانية التي لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تتصور غير المكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوفاتها ، وهي لا تعرف إلا ما كان محددًا مقيدًا ، وهو يعلو عن التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تكيفه وهو لا يتكيف ، وأن تقيده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لا يتناهى ، فنخر منها وبعد عنها ، فلم تقع عليه ولم تصل إليه ، ونادى منادى العزة : إنك أيتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ لبناه ، أو معرفة مداه ، فليس فيك صلاحية لذلك ، ولا خلقت قابلةً للمألوفات ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما أن العين لا تدرك الهواء وهي واقفة مع رقبتها على ما حد لها من درجتها ، كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ، ولا يعلو إلى أفق الروحانيات ، أو محال عليه ، لأن يعرف رب الأرض والسماوات ، الذي جل عن الكيفيات في علاه عن القياس وتنزه عن إدراك الحواس

ولكن فيها أيها الإنسان عالماً يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ؛
فيمكنه أن يستلمع شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك
القهار ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بجمال تلك
الإشراقات

وأما أنت أيتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد
وليس لك . هذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ، فقلدى الروح فيما
توحيه إليك وتلقيه عليك ، فهي التي تعرف وتعرف وتسجد
وتقترب ، فليعرف كل عالم من عوالم قدره ولا يتجاوز طوره ؛ فإن
طلبت أن تعرف عوالم السفلية فقد طلبت أن تحدده ، والمحدد
لا يكون إلهاً للأشياء ، بل يكون له ما لها ، وعليه ما عليها ، وما هي
إلا نزعة عباد الأصنام وإسراء الأوهام

ولعمري لو رجعت إلى نفسك ، ولم تتقيد بمألوفات حسك
لوجدتها أول البديهيات ، وأوضح الواضحات لا تحس بوجودك
إلا أحسست بوجوده ، غير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه
بالتكليف وإله يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلهاً كما قلنا ،
بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهي التي أمدتك بكل شيء ، وأفاضت
عليك كل شيء ، ولست شيئاً إلا بها بل ما أنت إلا هي ، ومع ذلك
لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخروجها عن عالم التقييد
والتكليف (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١)

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

فما بالك تطمع في إدراك اللطيف القدوس الذى فوق كل شىء
وما يماثله شىء ؟ جل أن تشببه الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس
رب الملائكة والروح » ، بل أنزل بك إلى ما هو أقرب من هذا ، فانه
لا يمكنك أن تعرف عالم الجن فإنك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك
من الماديات التى بين يديك وتحت أمرك وتصرفك ما لم تصل إليه
ولم تعرف كنهه مثل الكهرباء والسر المودع فى المغناطيس إلى غير
ذلك من أسرار الطبيعة التى أودعها الله فى المادة ولم يعرفوا إلا ظواهرها ،
لا حقائقها ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هى المادة وما حقيقتها ، إلى
آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التى خروا لها ساجدين ، وظلوا
أمامها مبهورين ، مع كونها من العالم الكثيف لا من العالم اللطيف ومن
الماديات لا من الروحانيات ، فما أجدرنى أن أنشد قول الغزالي

قل لمن يفهم عسى ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه قصرت والله أعناق الفحول

هذا وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ،
ومن ذاق نور الوجود الحق بوجدانه وأدرك الأمر من أصله فهو غنى
عن البيان ، ومن وصل إلى حد العيان فلا حاجة به إلى البرهان

وعلى كل حال فنطاق التعبير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع
إلى نفسك تجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس وإذا
عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شىء بعد ذلك أكثر من ذلك
الوجدان ولا معنى لأن تطلب شيئاً تجده فى نفسك وتحس به فى أعماق
قلبك ، ومن كان فى أصل الشجرة فلا معنى لأن يستدل بأوراقها

عليها ، بل يعرف أوراقها وعضونها وثمارها وخواصها التي هي ظلها ومستمدة منها ، ولا قوام لها إلا بها ، مما يشاهده عياناً ووجداناً من أصل تلك الشجرة التي يحس بها مغروسة في نفسه وبين أعماق قلبه ، وإذا كان الشيء أقرب الأشياء إليك وأخذت تبحث عنه من بعيد كان ذلك سبباً في عدم وصولك إليه لا في عشورك عليه

ولا بأس أن نذكرك بما قلناه في بعض ما كتبناه إن الحمار إذا ضربه ضارب ، التفت لينظر الضارب لأنه لا يجوز أن يوجد ضارب بلا ضارب فمن أنكرو وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر قدرته وبدائع حكمته ، فهو أجهل من الحمار ، الذي لا ينكر المؤثر مع وجود الآثار .

وقد قال لي يوماً بعض أذبيال الماديين ماذا تردون على الطبيعيين الذين لا يقولون بشيء وراء المادة ؟ فقلت له إن الرجل العاى المسلم يمكنه أن يفهم أساطين الماديين فضلاً عن العلماء والفلاسفة من الموحدين فإن ما يشاهده ذلك العاى من حوادث الجن التي يعرفها حق المعرفة ، وقد شاهدها مراراً تخرق كل نواميس المادة التي يقدها الماديون ولا يثبتون شيئاً وراءها

وقد جاء في أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه العبارة « ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض « الفوسفوريك » والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذي هو في تركيب المخ . فرد عليها العلامة الشهير « كاميل فلامريون » قائلاً من أخبركم بذلك

يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلمكم يعلمونكم هذه الهديات مع أن الأمر بخلاف ذلك ، لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباءً منثوراً على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم أم من سخافة ادعاءاتهم ؟ « إن نيوتن كان يقول « يظهر لى » وديكرت كان يقول : إني استنزل حلمكم في هذه الفروض ولكن هؤلاء يقولون نحن نثبت ، نحن ننكر ، هذا موجود ، هذا غير موجود ، العلم قد حكم ، العلم قد أقر ، العلم أدحض ، مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى . إالى أن يقال : إنكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم أيها السادة لقد حق له أن يضحك استهزاءً من غروركم ، إلى آخر ما قال

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله عز وجل (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(٢) فانظر لنفسك وأشفق عليها ، فإن الأمر والله جليل (إِنْ أَحْسَبْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٣)

ولنقل من كل قلوبنا : اللهم يا من ليس في السماء من قطرات ، ولا في الأرض من حبات ، ولا في هبوب الريح من ولجات ،

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة ق ، الآية ١٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٧

ولا في قلوب الخلق من خطرات ، ولا في أعضائهم من حركات ،
ولا في أعينهم من لحظات ، إلا وهي لك شاهدات ، وعليك دلالات ،
وبربوبيتك معترفات ، وفي قدرتك متحيرات فأسألك يا الله بالقدرة
التي تحير بها من في الأرض والسموات ، أن تملأ قلوبنا يقينا ، وأن
ترزقنا حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنا إلى حبك وأن لا تكلنا
إلى أنفسنا ظرفة عين ممنك وكرمك .

* * *

رأينا مماسبة نشاط المبشرين في هذه الأيام ببلادنا المصرية
أن نناقشهم مناقشة منطقية في معتقداتهم أولا ، ثم ندخل معهم فيما
شأنوا من الابحاث بعد ذلك ، ولم نر أنسب لذلك من تفسير سورة
الإخلاص إذ هي سورة التوحيد التي ترد عليهم رداً صريحاً يؤيده
العقل والمنطق ، مبينة أنه تعالى (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ) أما المسيحيون فيقولون إن ابن الله نزل جنينا إلى بطن
امرأة آدمية ، وجرت عليه الأحداث البشرية والكوارث الدنيوية
ثم صلب أخيراً

ولندع محاورتهم اليوم في هذا وهو من البدهاة بمكان ، ولكن
نرد عليهم مما جاء في الإنجيل نفسه من النصوص الصريحة التي تنطق
بإنسانية المسيح ، حتى يعلموا أنهم خالفوا المعقول والمنقول

فنقول وبالله التوفيق قد أوجبتم الأبوة الإلهية للمسيح لكونه
لا أب له من البشر ، فلم لم توجبوها لآدم مع أنه ليس له أب ولا أم

كما يصرح به التوراة والإنجيل ؟ أليس من الواضح عند ذوى العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابناً لله تعالى لزم بالأولى ألا يكون عيسى ابناً لله تعالى لعدم الأب فقط ؟ أليس هذا مصادمة للقياس الأولوى عند كل عاقل ؟

ولندع هذا الآن ولنقل ألم يبلغكم - وهو في إنجيل لوقا - أنه قال « إنه لم يُقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف يقبلونى » ؟ فصرح بأنه من الأنبياء عليهم السلام . وفي إنجيل متى : أن رجلاً أقبل على المسيح وقال له أيها المعلم الصالح أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال المسيح « لم قلت لى صالحا ؟ إنما الصالح هو الله وحده » . وإذا كان لم يرض أن يلقب صالحا فهل يسوغ المنطق أنه يرضى أن يلقب إلهاً مع تصريحه بأنه غيره ؟

وفى الإنجيل أيضاً أن اليهود لما أرادت القبض عليه رفع بصره إلى السماء وقال « قد دنا الوقت يا إلهى فشرفتى إليك واجعل لى مسيلاً » وفى إنجيل لوقا : أنه حينما أحيا الميت بمدينة « ثائم » عندما رحم أمه أشدّة حزنها عليه فقالوا أن هذا لنبي عظيم وهو تصرّح بنبوته لا يقبل الجدل وفى إنجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئاً لكننى أحكم بما أسمع لأنى لست أنفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى » .

فهل ترى أصرح من ذلك فى الاعتراف بأنه عبد محبوب قد بعث من قبل سيده ؟ وفى إنجيل يوحنا أنه أعلن صوته فى الهيكل وقال

لليهود « إننى هم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونهُ
وأنا أعلم أنى مند وقد بعثنى »^٤.

فها هو ذا يد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود ، وقال إنه
لم يأت من نفسه ولكن الله بعثه ، فما زاد فى دعواه شيئاً على ما ادعاه
غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وفى إنجيل يوحنا : أنه قال لليهود

« إن كنتم بى إبراهيم فاقفوا أثره ولا تريدوا قتلى ، وما قلت لكم
إلا الحق الذى سمعته من الله » :

قالوا لدينا أولاد زنا إنما نحن أبناء الله ، فقال « نو كنتم
بناء الله لحفظتمونى لأنى رسول منه خرجت مقبلاً ولم أقبل من ذاتى
ولكن هو بعثنى لكنكم لانقبليون وصيقتى وتعجزون عن سماع كلامى إنما
أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته »

وفى إنجيل يوحنا « أنه كان يمشى فى ديوان سليمان فأحاطت به
اليهود وقالوا له إلى متى تخفى أمرك ؟ إن كنت المسيح الذى ننتظره
فأعلمنا بذلك » :

ولم يقولوا إن كنت الله لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك
إلا باختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه هو انسان نبى وليس بإله
كما تزعمون^٥

وفى انجيل يوحنا أن اليهود قالوا لكبير من أحبارهم
(نقودمشى) : « اكشف الكتاب تر أنه لايجىء من الجليل نبى » فما قالت

اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبي فقط ولو علمت منه ادعائه الألوهية لشنعوا عليه وهاجوا عليه العامة تقبيحا له وتحريرا على قتله

وفي إنجيل يوحنا: الإصحاح ٨ العدد ٤٠ « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله » فاعترف بأنه إنسان يسمع من الله ولم يقل أنه هو الله ورسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح الثاني العدد ٥ « لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح »

وفي انجيل يوحنا أيضا « لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني »

وفي انجيل متى « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم وقال إيلي إيلي لم شبقتنى » أي إلهي إلهي لما تركتني « وفي صحيفة ٥٠ أيضا « صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح »

وفي انجيل لوقا مانصه « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا آبتاه في يدك أستودع روحي » وكثير من هذا في الأناجيل يطول ذكره ولو تتبعنا كل ماجاء في ذلك لطال المقال واتسع المجال

ولست تشك في أن هذه النصوص تنفي ألوهية المسيح رأسا وتفتلح جذور تلك العقيدة اقتلاعا ، فإنه لا ريب أنك إن سمحت نفسك بالانقياد إلى الحق وخلعت لباس الهوى أيها المسيحي المنصف ، علمت أن ذلك من أول البدهيات وأوضح الواضحات

ويمكننا بعد هذا أن نناقشكم معشر النصارى في عقيدة الصلب أيضا مستنديين إلى النقل من كتبكم ، محتكمين إلى مايقضى به الدليل الواضح المنطق الصحيح فنقول

جاء في انجيل لوقا « أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا ، فبينما هو يصلى إذ تغير منظره عما كان عليه ، وابدضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا موسى بن عمران وإلياذ قد ظهرا له وجاءت سحابة فاظلتهم ، فوقع النوم على الذين معه » : فأي مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع في اليوم الذى طلبته فيه ليهود ، ولكن اختلفتم في نقلها كما اختلفتم في نقل غيرها ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلا واضحا على الرفع إلى السماء وعدم الصلب ، وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات

وثانيها ما في انجيل متى « أن المصلوب قد استسقى فأعطوه خلا مزوجا بمر فذاقه ولم يشربه ، فنادى إلهي إلهي لم خذلتنى » ؟ مع أن الأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوما وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ : إن لى طعاما لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وأربعين ليلة ، لا يظهر الحاجة للماء بسبب عطش يوم واحد :

وقد جاء في التوراة أن الله خلق جميع مالمالحية في عصا موسى عبه السلام ، وذلك اعظم من القاء شبه انسان على انسان آخر

وانى أعجب لمن يصدق أن الله قلب العصا حية تسعى ، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، إلى غير ذلك من خوارق العادات التي كانت للأنبياء ، كما في التوراة والإنجيل كقلب الماء خمرا مثلا ، كيف لا يصدق أن الله ألتى شبه عيسى على غيره بعد أن رفعه إلى السماء ؟ ولاشك أن الالتباس الذي وقع لليهود عند أخذه حتى دلهم عليه أحد تلاميذه وقال لهم : الرجل الذي أقبله فامسكوه ، وقال له رئيس الكهنة أستحلنك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ؟ لاشك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك الشهرة العظيمة نحو ثلاثين سنة في المحاورات العظيمة والمجادلات العنيفة كلها تدل على وقوع الشبه قطعا ، خصوصا أن في الإنجيل أنه أخذ في حندس من الليل مظلم من بستان ، فشوهت صورته وغيرت محاسنه بالضرب والسحب وأنواع النكال

ومثل هذه الحالة توجب الالتباس قطعا ، فمن أين لكم أو لليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى عليه السلام ؟ والحق الذي لامرية فيه هو أن الأمر على ما قال الله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليهم ، وكان الله عزيزا حكيما)^(١) . وفي الإنجيل أيضا أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود في صلبه فخرج اليهم عليه السلام وقال لهم من تريدون ؟ قالوا : يسوع ، وقد خفي شخصه عنهم ، ففعل ذلك مرتين ، إلى آخر ما لانطيل به

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٧

سُورَةُ الشَّمْسِ ﴿١﴾

رأينا بعد تفسير سورة الإخلاص أن نشرع في تفسير (والشمس وضحاها) تكون هذه الآيات الكونية التي ذكرت فيها كالدليل لما ذكر في سورة الإخلاص من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أئماً ، مع بيان ما اشتملت عليه من الفوائد الجليلة ، من طلب تزكية النفوس ، والتحذير من سلوك طريق المكذابين لرسولهم « كشمود » إلى آخر ما سنقف عليه إن شاء الله تعالى

ولنقدم قبل ذلك مقدمة ينتفع بها القارئ ويخضع لها السامع فنقول : ادلم أن القرآن هو البحر المحيط الذي يتشعب منه علوم الأولين والآخرين إلا أن سر القرآن الأصفى ومقصده الأسمى ، هو دعوة العباد إلى اجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى ، وما بينهما وما تحت الثرى.

وإذا نظرت بنور البصيرة التي لم تتراكم عليها الظلمات ولا أفسدتها الآفات ، لم تر في الوجود غير الله وأفعاله ، التي تقرأ فيها حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، ورحمة ليس لها غاية ، وأسراً ليس لها هاية

وقد أكثر القرآن من لفت نظرك إلى تلك الآيات التي امتلأت بها الأرضون ولسموات ، وقد تفنن فيها القرآن تفنناً يستولى على

العقول ويأخذ بمجامع القلوب ، فتارة يأمرك بالنظر فيها على سبيل الإجمال فيقول : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ^(١) ، ويقول (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَضْرِيحِ الرِّيَّاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ^(٢) وليس يخفى عليك أن الآية الكريمة تشير إلى أن من لم يثفكر في ذلك فليس من قوم يعقلون

وتارة يلفت الأنظار بالثناء على المتفكرين فيها ، فيجعلهم من أولى الألباب الذين أثمر لهم ذلك التفكير ذكر الله في جميع أحوالهم ، فيقول (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٣)

وتارة يلفت الأنظار إليها بالإقسام بها فيقول (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا...) إلى آخره

وتارة يبين بها ماله تعالى من عظمة ورحمة وكرم وعناية بخلقه ، وفي الوقت نفسه هي دلائل واضحات وآيات بينات تقسمر القلوب على الالتجاء إليه ، والتوكل عليه ، والغرق في توحيده وتمجيده

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠، ١٩١

ولا بأس أن نتلو عليك بعض ما جاء في ذلك حتى تعرف الفرق بين تلك الأدلة المظلمة التي تعرفها في كتب الفلاسفة والمتكلمين من المتقدمين ولتأخرين ، حتى تقول بلسان حالك ومقالك هذا كتاب لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد فانظر إن شئت إلى مثل قوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)^(١) وقوله (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)^(٢) وقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)^(٣)

واعلم أ، القرآن من عاداته زيادة التقرير والتكرير علماً بما عليه الإنسا، من الجهل العميق والحجاب الغليظ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٤) فتراه يكرر ما تقدم بأسلوب آخر مع زيادة بيان وتوسع في البرهان فيقول (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالذَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَانَّى تُوفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦

(٣) سورة لأنعام ، الآية ١

(٤) سورة الملك ، الآية ١٤

يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ . فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا . وَوِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ . وَالزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ : إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١) إِلَى أَنْ قَالَ (ذَلِكَُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (١٢)

ثم يقول في السورة نفسها (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُودَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُودَاتٍ) (١٣) إلخ . ويقول : (إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (١٤) ويقول (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ) (١٥) . . . إلخ . ويقول (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) (١٦) إِلَى أَنْ قَالَ (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (١٧) . ويقول (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ . وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

(١) سورة الأنعام ، الآيات من ٩٥ إلى ٩٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٤١

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٦) سورة يونس ، الآية ٥

(٧) سورة يونس ، الآية ٦

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ . وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ
فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (١)

ولما كانت هذه الدلائل واضحات يتعجب معها من كفر الكافرين
وجحود الجاحدين ، أزال ذلك ببيان سره الراجع إلى تقديره الذي
لا يغالب فقال (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ) (٢)

ولنرجع إلى ذكر آيات التوحيد ودلائله فنقول (اللَّهُ الَّذِي
رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ
النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٣) (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) (٤) (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ
لِوَاقِحٍ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَقَيْنَاكُمْ وَاَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) (٥)
ويقول (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَالْأَنْعَامَ

(١) سورة يونس ، الآيات: ٣١ ، ٣٢

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٣

(٣) سورة الرعد ، الآيات: ٢ ، ٣

(٤) سورة الحجر ، الآية ١٩

(٥) سورة الحجر ، الآية ٢٢

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^(١) إِلَى أَنْ قَالَ
(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٢)

إِلَى أَنْ قَالَ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ
شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)^(٣) ويقول (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً . نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا
لِّلشَّارِبِينَ)^(٤) . ويقول (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوِنَا آيَةَ
اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السَّنِينَ وَالْحِسَابَ)^(٥) (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)^(٦) إِلَى أَنْ قَالَ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا . وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُّوا وَارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ)^(٧) . ويقول : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)^(٨)

(١) سورة النحل ، الآيتان ٥٤ ، ٥٥

(٢) سورة النحل ، الآيات من ١٠ إلى ١٣

(٣) سورة النحل ، الآية ٦٦

(٤) سورة الاسراء ، الآية ١٢

(٥) سورة طه ، الآيتان ٤٩ ، ٥٠

(٦) سورة طه ، الآيتان ٥٣ ، ٥٤

(٧) سورة الحج ، الآية ٦٣

ويقول (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَزَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً . فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِطَافًا . فَكَسَوْنَا الْعِطَافَ لَحْمًا . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)^(١) . ويقول (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)^(٢) . ويقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)^(٣)

إلى أن قال (وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)^(٤) ويقول : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)^(٥) . ويقول (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)^(٦) (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)^(٧) . (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ

(١) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ - ١٤

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥٣

(٣) سورة فاطر الآية ٢٧

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢٨

(٥) سوريس ، الآيات من ٧١ - ٧٣

(٦) سورة الزمر ، الآية ٦

(٧) سورة الشورى ، الآية ٢٨

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ^(١). (وَأَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
 وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)^(٢). (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ
 وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(٣). (وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا
 فَكَيْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ
 آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ)^(٤) ويقول (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)^(٥). (أَلَمْ تَرَوْا
 كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ
 الشَّمْسَ سِرَاجًا)^(٦). (أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ
 نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ
 الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)^(٧)

وقد ذكر في سورة الروم عدة آيات واضحة فقال (يُخْرِجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا)^(٨) ثم قال : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
 أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِيكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ

(١) سورة الجاثية ، الآية ٤٣ ،

(٢) سورة ق ، الآية ٦

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة الرحمن ، الآية ١٠ - ١٣

(٥) سورة المؤمنون الآية ٧٨

(٦) سورة نوح ، الآية ١٥ ، ١٦

(٧) سورة القيامة ، الآية ٣٦ - ٣٩

(٨) سورة الروم ، الآية ١٩ - ٢١

مِنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ^(١). (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)^(٢). (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)^(٣)
(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ)^(٤) الخ الخ

ولنقتصر عن هذا وهو قليل من كثير وقد قال بعض فلاسفة
أوروبا يكفيني من آيات الله أنه خلق الأنثى بجانب الذكر ،
ومتعها بخصائص ليست فيه لينم ما أراد منها (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥) فقارن
بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان

عظم والله البرهان ، وامتلأ الوجدان ووصل إلى حد العيان ،
وليس بعد العيان بيان

وقد رأينا أد من المناسب جداً لهذا المقام أن نذكر لك شيئاً
مما قاله المتخصصين عن سعة العالم لتعرف بذلك شيئاً من عظمة الله تعالى
وتقول ما قاله صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لانحصى ثناءً عليك
أنت كما أثنيت على نفسك »

ولنسمعك بعض ما قال أساطين علم الطبيعة بأوروبا في ذلك الموضوع

(١) سورة الروم ، الآية ٢٢، ٢٣

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٤

(٣) سورة الروم الآية ٢٥

(٤) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٦

حتى تعرف أن الملحدين ببلادنا كذبوا على علم الطبيعة الذى لم يأخذوا منه إلا قشوراً ، فتشددوا بها وكانوا قوماً بورا .

ولنبداً بقول باكون « من أخذ علم الطبيعة رشفاً بالشفاه كان ملحداً ، ومن شربه عباً أوصله إلى الخالق »

وقول سينسر « ليس الغرض من علم الطبيعة أن نعرف تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ، بل الغرض الأسمى أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة »

ولقد صدق ، فالأرض مملوءة بالآيات ، فانظر ترى الأرض يابسة فما أسرع أن تكسى جلايبب سندسية ، وتفرش أنماطا ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون وتعطيكم مابه تتداوون ، ثم هى مهاد لكم عليها تنامون ، وجمال لكم فى رياضها تتنزهون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء به تستشفون ، وجعل السماء قبة صافية ذات جلايبب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان والهواء بينهما يحمل الأضواء ييزجى السحاب ، (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)^(١) (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٢)

ولعمر الحق أن هذا النظام البديع ليدل على قدرة باهرة أوجدته ، وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية

أما سعة العوالم فنقرها إليك ببيان سير النور وما يقطعه من المسافات بالنسبة إلى الكواكب المختلفة ، فنقول إن النور يسير فى الثانية

(١) سورة النور ، الآية ٤٣

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢

الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، فاضربه في الدقيقة ثم في الساعة ثم في السنة إلى آخر ما تستمع ، فهذا النور الذي عرفت سيره السريع يصل إلينا من الشمس في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهاراً لم يتمكن من وصوله إليها في أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة ، فماذا تقول إن قلنا لك أن الشعري العبور لا يصل ضوءها إلينا إلا في ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر لا يصل ضوءه إلينا إلا في ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع في ٣٠ سنة ، والعيوق في ٣٢ سنة ، والسماك الرامح في ٥٠ سنة ، إلى أن يصل خمسمائة سنة وألف سنة ، وأكثر من ذلك على ما بينه

ولذلك يذهب بعضهم إلى أن العوالم لانهاية لها ، وإن كان علماءنا لا يقولون بذلك بناءً على أدلتهم العقلية التي تراها في كتب التوحيد الفلسفية

ومجموع الذي علمه نوع الإنسان إلى الآن ٢٢٤ مليوناً من النجوم على ما يقولون

ولتعلم أن من النجوم ما هو أنموذجاً من شمسنا بكثير حتى قالوا إن الشعري تفوقها بخمسين مرة ، وبنات نعش تفوقها بنحو ثلاثمائة مرة ، والسماكين يوقانها بنحو ستمائة مرة ، وإنما يظهر نور هذه النجوم لنا ضعيفاً لشدة بعدها عنا وقد عرفت ما يقطعه النور في الثانية الواحدة فماذا عسى أن يكون ما يقطعه النور بسيره السريع في تلك المدد المتطاولة التي يحتاج إليها في وصوله إلينا ؟

فسبحان الكبير المتعال الذي تقصر العقول عن درك كماله ، وتخضع السموات ومن فيهن لعظمة جلاله

ذكرنا لك أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق
علوية وسفلية ، وأنه يتمنن في ذلك تفنناً عجبياً ، فتارة يقول : (إِنَّ فِي
اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ) (١) ، وتارة يقول (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (٢) ، وتارة يقول (أَفَلَا يَنْظُرُونَ
إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتُمْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (٣)

وتارة يقسم بتلك المعجائب التي غفل الناس عن النظر فيها والتأمل
في خوافيها ، فهم يمرّون عليها وهم معرضون كما في الآية الكريمة
ولو تأمل الإنسان في ذلك قليلاً لامتلاً قلبه إيماناً ونفسه إيقاناً ،
ولوجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعيماً روحانيا لا يقاربه
نعيم ولكن الناس محبوسون في سجن الماديات هائمون في أودية
الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون (وَإِنْ تُطِيعْ
أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٤)

وقد رأيت كلاماً ممتعاً في هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين
ظفروا وفكروا ، نسوقه إليك لنعرف الفرق بينهم وبيننا معشر
المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن في الأرض آيات للموقنين ، ويصل

(١) سورة يونس ، الآية ٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٤

(٣) سورة الناشية ، الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك
أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التي
هي كالحجرة أو أشد قسوة ، فنقول

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطباً لذلك الإنسان
الغافل عن عجائب الكون « إنك أيها الإنسان لذهال عن جمال القبة
الزرقاء ، فلم تراقب شفقاً ، ولا ساهرت بدرًا ولا ساررت نجومًا ،
هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل
اتفق لك أن جعلت فاشتبهت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله
وآلائه عما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلال ومرعى ؟
ألا فاحمد ربك الذي برأك من لا شيء ، وأتى بك من العدم وأخرجك
من الظلمة إلى النور .

ويقول غيره « ما الأرض إلا جنة أنزلت فيها آيات الجمال ،
ومجرد وجودنا عليها بينة البيئات ألا يذكرك ذلك قوله تعالى
(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (١) ،
وقوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسَيِّمُونَ . بَنَيْتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الشَّمْرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٢)

فأين ذلك الإنسان الرقيق الوجدان الذي يهيج حبه لله ، النظر
في آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠

(٢) سورة النحل ، الآية ١٠

ويهيح لواعجه والنظر في آيات الله يوصل إلى معرفة عظمة الله ،
ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور وأن ذلك
ليسبغ علينا من آلاء الأفكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلي ،
ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها وشتان
ما بين لذة جسمانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتحييه ، والبدر يطلع
ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ، يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم
له ثغورها ، وتحدثه حديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له
أغصانها ، وترقص له أفنانها ، وتسرد على سمعها أنسابها وفصائلها
وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا عرف أطوارهم
وأخلاقهم ، فهي تمضي وتحفظ لها في نفسه تذكارات جميلة حتى تعود
إليه في أدوارها وأوانها العام التالي إلى أن يقول

« ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ،
حوادث نادرة الطروء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تظفر
الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذين بمساء الشفق
إذ تتوارى خلف البحار وحفا أن تلك الأشعة الذهبية التي تنبثق من
جبين الأفق صباحاً ومساءً ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثرورة
طائلة تسمو على ثروة الذهب الأبريز

هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا في أحشاء الأرض على
أوفر ما يكون من السعة والبجوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون
أرضاً مترامية الأطراف ، وخضماً متسع النطاق ، وفضاءً لا نهاية له ،
وغيوماً مثلبدة ، وسحاباً مطراً ، ورياحاً عاصفة ، وبروقاً وامضة ،

ورعوداً قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة إلى مليكة النهار فيأخذهم
سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ،
فصاعدة في قبة الفضاء ، فمائلة إلى أفق الغروب ، إذ يعجبون
لها مصباحاً واحداً ينبير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجون الظلام
وتتراخي عليهم ستائره وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل
ما سيكون وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد
الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنقلة في أبراجها
جادة في سيرها حسباً تشاء نظاماتها ونواميسها التي رتبها حكمة
الحكيم العليم

لامرأة أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون
وطيذا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدي ذلك الإله
الغني الأسرار ، العظيم الاقتدار ، الذي كان قد أتاهم نبؤه من قبل

وإذا أطلنا هذه النظرة إلى الإنسان والطبيعة وما يكون فيهما من
العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والأوراق والأزهار
والأثمار والبزور خبزا ولبناً وعسلاً « إلى آخر ما قال أولئك
الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت
عظمة ذلك التسم على ما يشير إليه قوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ
النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)^(١)

ويحسن بعد هذه المقدمة التي هي لب المقصود ، أن نشرح في التفسير ، فنقول

الواو في قوله (وَالشَّمْسِ) واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ، على ما ستسمع والمراد بضمحانها ضوءها مطلقاً ، أو وقت الضحى الذي يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لماتها وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة المنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى

هذا وقد قال بعض المفسرين إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحها وقد علمت أنه لا داعي لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بآرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسرارهِ ولاح لك قليل من أنواره ، على أنه سيقسم به تعالى في قوله (وَمَا بَنَاهَا) الخ . وهو لا يلتئم مع هذا التقدير كما هو ظاهر

ولا نزال نقول إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التي لا نطبق لها شكرا ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فإن الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فإن كل شيء في هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس .

وإن شئت فانظر إلى الناس في الليل نائمين وكأنهم أموات ، فإذا ظهر أثر الصباح من المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة في الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا ترال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل إلى كمالها وقت الصبح

وقد رأيت أن ننقل لك ما قاله اللورد « افبرى » فى هذا الموضوع ، فنقول « الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة أما بعدها عنا فنحو ٩٢ر٥٠٠ر٠٠٠ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة وليست هى فى عداد النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تنزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفتن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد وتُألف ، وإلا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا و نارنا فقط ، بل هى محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضاً ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوماً فى الجو ، وتنزلها أمطاراً على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا ، وتشير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما إلى الفحم الحجري إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطياف تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحاً ، وبحرارتها وأنوارها تبزغ النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار

وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بماً كلنا ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض .

ولنقف هنا تالين قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١) وقواه تعالى (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)^(٢) (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)^(٣)

* * *

سبق الكلام على قوله تعالى (وَالشَّمْسُ وَضِحَاهَا) أما قوله تعالى (وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّاهَا) فنقول فيه اختلف المفسرون في تلو القمر للشمس على أقوال، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب غروبها وذلك عندما يكون بدرًا ليلة أربعة عشر وأقسم به في هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائح ، وحسنه البارح

(١) سورة آل عمران الآيات ١٩٠ ، ١٩١

(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة محمد ، الآية ٢٤

واك أن تقول إنه تلاها في الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك فكأنه شمس يلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام الساوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس في عام كامل ، كذلك القمر يدور حول الأرض في كل شهر مرة أما ظهوره هلالاً ناقصاً فبدراً كاملاً ، فلكون نوره مستفاداً من نور الشمس وليس ذاتاً له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبهته إليها قريباً وبعداً ولذلك تنكسف بالكلية عندما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التي تيرث البهجة والمرور

ثم قال تعالى (وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا) يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نيرها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس في النهار ، فالإسناد مجابى كصام نهاره وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . رمثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومه من المقام

والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر ، - ووز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في

جلاها عائداً عليه تعالى ، كأنه قيل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس
فيه فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته ولكنه بعيد
غير متبادر ثم قال تعالى (وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا)

أى الشمس ، أو يغطي ضوءها والكلام في الضمير المنصوب
على نحو ما سمعت في سابقه ، والأولى عوده إلى الشمس لا للأرض
ولا للدنيا على ما علمت وحي بصيغة المضارع في (يَغْشَاهَا)
إحضاراً للصورة العجيبة التي تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس
إلى علام الغيوب وحقا أن غشيان الليل النهار لمن أبهر الآيات
وأعظم النعم المتواترات ، وكذلك مجئ النهار بعده . فسبحان الحكيم
العليم

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيئًا أَوْ أَفْلًا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلًا تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(١)

وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من في القبور
وما أشبه حالهم عند الانتباه وتمت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم
(فَهَلْ مِنْ مَدَّكَرٍ)

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى في (إذا) أن تكون منصوبة على
الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو

القسم ، وكأنه قيل أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلي برهانه .

ثم قال تعالى (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا) : أى من بناها . وإيثار (ما) على (من) لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجلال فى من سواها . وإذا أُريد ذلك كان المقام ١١ ، لا ١٢ ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها . على أن (ما) قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيراً والمراد بينائها لإيجادها

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملاً فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويغض إجلالا وإعظاما

انقضت العصور وتوالت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئاً إلا مشوباً بالأوهام ، وشبهها بالأحلام . والفضل الأكبر فى تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليوناً من الأميال فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن

ولنتل هنا قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١). (أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)^(٢). (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)^(٣)

ولنقف هنا سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل

يا خالق الخلق يا من لا شريك له طوبى لمن عاش بين الناس يهواكا
والله ما أنست روحى ولا فرحت فى الدهر ما بقيت إلا بذكراكا
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

* * *

(وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا ، وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ،
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْتَاهَا)

قلنا فيما سبق إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار إلى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته فتراه يقول: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)^(٤) ، ويقول

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٩٠ ، ١٩١ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

(٣) سورة يونس ، الآية ٦ (٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) ^(١)
ويقول : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسْبِ حُورٌ) ^(٢) ، ويقول : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْجِرًا) ^(٣) وهذا كثير جداً في القرآن الشريف

يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقدتها وينبه العقول من
غفلتها إلى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى
أدنى إلى الإنسان من النفس

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء في هذا المقام ، نحاول بذلك
نثبيت إيمانك ، وتحميم إيقانك ، فنقول : انظر إلى هاتين الآيتين
(اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) وما تضمنتا من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته
كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغطي العالم ، فتسكن فيه الحركات
وتأوى إليه الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، لتستجم
فيه وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس
راحتها وسباتها ، واستمدت إلى معاشها وتصرفها ، جاء فائق الإصباح
سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة
ومزقها تمزيقاً وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر
الحيوان وتصرف الإنسان في معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور
من أوكارها فيأيه من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ولكن تكرره كل
يوم أسقط وقعه في القلوب فلم تنفعل به النفوس ، لأن كل ما كثرت

(١) سورة الفرقان الآية ٧ ؛ (٢) سورة الانبياء، الآية ٣٣

(٣) سورة غافر ، الآية ٦١

م شاهدته ضعف التأثر به والالتفات إليه ، فسبحان من لا ضعف في قدرته ، ولا قصور في حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء

بل نقول إن من آياته الباهرة أن يعمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الإنسان في الماء إلى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش »

ثم تأمل بعد ذلك - رعاك الله - حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ، ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أهولهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يَتَهَنُونَ بالعيش مع فقد النور ؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما ، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا فرار مع فرط الحاجة إلى النوم ، وجمود الحواس .

ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتنا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم كما ينطق السراج عندما تذهب الحاجة إلى نوره ليقرؤا ويهدؤوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى منبها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ
 اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(١) . وقال في السورة الأخرى :
 (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا .
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
 شُكُورًا) ^(٢) فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الآخر ،
 بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه أيضاً .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس في انخفاضها
 وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ
 لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية
 فيه ، فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع الشتاء ، ولو كان شتاءً لفاتت
 منافع الصيف ، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ، ففي
 الشتاء تختبئ الحرارة في بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد
 مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويمتدكثف الهواء ، ويكثر
 السحاب والمطر والثلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد
 أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف
^٦ ما حلته حرارة الصيف من الأبدان :

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيظهر
 ☀️ النور والزهر بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يمتد
 ☀️ الهواء ويسخن جداً ، فتتضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاق

التي انعقدت في الشتاء، وتغيب البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون ، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيعظم أذاه ، أما إذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تنأى شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين

وتأمل حكمته تعالى في سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فإنه لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض لا يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء هؤلاء فاقترضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها في أول النهار ، فيختلف عندهم الليل

والنهار فتنتظم مصالِحهم . ولنقف هنا والمقام مقام إطناب ، سالكين
فى ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل

وحدثنى باسعد عنهم فزدتنى شجوناً فزدنى من حديثك ياسعد
مواهم هوى لا يعرف القاب غيره فليس له قبل وليس له بعد

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاها
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاها وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّاها ، وَالْأَرْضِ وَمَا طَعَّاها)

قدم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من
ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات إلى الله تعالى ، والاعتراف
بِقُدْرته وعظته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والتقدمات
على النتيجة وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق إلى جذب
العقل من حفيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء
كبرياء الصمدية

وفى قوله (وَمَا بَنَّاها) إشارة إلى حدوث السماء وكل ما فيها ،
ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر
وتدبير مدبر

هذا ، وعبر (بما) للإشارة إلى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم
يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجباً يريدون لفت النظر إليه . وكأنه
قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته
بناؤها والمراد ببنائها إيجادها

وكذا الكلام في قوله تعالى (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها) أى بسطها هذا وفي السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات ويكفيك منها أنها واقفة في الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بهيئ مخصص وسمك مخصوص ، لا بد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم

فإن قلت إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبيعتها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون . قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه من الذى طبيعتها على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لاشك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شئ ثم هداه وهدى إليه أفلا يجوز في العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن إلا نحو الثمانين ؟ فمن الذى أوصلها إلى ذلك الحد ومتعها بتلك الخصائص ؟

ولنعد إلى الكلام في السماء فنقول

إن هذه الأجسام إنما وقفت في الجو العالى بشدة الله تعالى وعظيم تدبيره وإيالك أن تصغى لحديث الجاذبية الذى يتشدد كثير من العصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه المتخصصون وعلى فرض تسليمها فخلقها في الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شئ من نفسه كما هو مقرر في محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيرا إلى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب

الأسباب (إليه يرجع الأمر كله) . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام في ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بدله من فاعل مختار ، فضلا عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها إلى حيز مخصوص وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك في مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذي لا يمكن تعليقه بسبب وليت شعري ما الذي أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية وبعضها إلى الشمال وبعضها إلى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطيء

وإجمال القون أنك إذا نظرت في اختصاص كل شيء من هذه العوالم الثمانيّة الحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغفه شأن عن شأن (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُنْمِصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوْفِقُونَ)

ثم انظر بعد ذلك في الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هي عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التي فيها أمر جائز أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التي تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإثباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بضوئها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جدا عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جدا من الشمس لم يعيش عليها إنسان ولا حيوان أليس كل ذلك من الآيات الباهرة والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر إلى الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض وفيها من المنافع مالا يأتى عليه البيان ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التي تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة وانتفاعنا بالجبال في نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال في كثير من الآيات كقوله (رواى شامخات ، وأسقيناكم ماءً فراتاً) ^(١)

وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى ما تنبته الأرض من النباتات التي لا تحصى عدداً ، وفيها من النافع والأسرار ما يدهش العقول ويملا النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد أنعامه وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى (وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يسقى بماءٍ واحدٍ ونفضلُ بعضها على بعضٍ فى الأكلِ ، إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون) ^(٢)

ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون نوراً ^(٣) وبعضها ثمراً ، وبعضها ورقاً ، وبعضها خشباً ، إلى آخر ما يرشدك

(٢) سورة الرعد ، الآية ٤

(١) سورة المرسلات ، الآية ٢٧

(٣) بفتح النون يعنى زهرا

إليه الوجدان البرهان. أليس ذلك كله برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على تقدير العيز العليم؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والثاني في غاية السواد، مع كون نسبته إلى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة.

ولننشد في هذا المقام قول القائل

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كتابه
يشكُّون والايمن ملُّ قلوبهم	ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجو يرسل طرفه	إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده	وهذى حواشيه وعمذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى في الأنام كثيرة	ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو نقول ما قاله ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرؤها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه، حيث يقول

هاج للقلب من هواه ادكار	وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم الموح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا	في نهار وفي الدجا أقمار
ورياح نهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار

إِنَّ شَأْنَ الإِلهِ شَأْنٌ كَبِيرٌ جَلَّ رَبًّا وَجَلَّتْ الآثَارُ
والذى قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبار

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا) يقال طحها ودحاها ، أى بسطها
وأوسعها والمادة تدل على ذلك ، حتى فى قول الشاعر

طحابك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فكأنه يقول ذهب القلب كل مذهب فلم تضق به النواحي
ولم ينحصر فى مذهب واحد ، يقال طحا يطحو وطحا يطحى ،
فهو من ذوات الواو والياء .

وكأن القرآن يرد قول من قال من المبطلين بقدوم السماء والأرض
وأنها غير محتاجين لمن يوجد هما فذكر بيانها وطاحيها هو الله
عز وجل

هذا ، ومن عادة القرآن أن يذكر الناس بآياته الأفقية والنفسية
وقد قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ)^(١)

وآيات الأرض كثيرة : منها أنها ممكنة يجوز عليها الوجود والعدم ،
فلا بد لها إذا من موجد يرجع وجودها على عدمها ولا شك أن
من أكبر الآيات البينات وجودها بصفاتنا المشاهدة ، وقد كان يجوز
عليها غيرها وتخصيصها بما ينفعنا فى كل ما نحتاج إليه على ما
ستمع آية كبرى

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

ومن آياتها بروز جانب منها عن الماء ووجود البحار في جانب
آخر على ذلك النمط البديع الذي وصل غاية الإبداع وقد
انتفعنا به غية الانتفاع

ومنها سعتها ، على ما أشارت إليه الآية هنا

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِّحَتْ)^(١) ، ولا ينافي ذلك كونها كروية فإنها كبيرة ذات سطح
واسع يستقر عليه الإنسان والحيوان

ومنها أنه مهدها وجعلها فراشاً وذلولاً كي تستقر عليها الحيوانات
ولا يتألم ما عليها من المخلوقات ولولا أنه ذللها لما استطاعت أن تطلأها
الأقدام ، ولا أن نستعمل فيها الفأس والمعول لدورنا وزروعنا ،
فهى ذلول مسخرة لما يريد الإنسان منها فسبحان من جعلها كفاتاً
للأحياء تحملهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها ، وسبحان
من طحاها فمدها وبسطها ووسعها وهبأها لما يريد منها ، فأخرج
منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل الفجاج .
وقد جعلها الله ساكنة لينهدأ من عليها ولا ينزعج بحركتها

وإن ذهبت مع الداهيين إلى أنها متحركة سريعة جدا ، كما
هو الرأي الجديد ، فالأمر أعجب فإن تلك الحركة التي لا نحس
بها ولا نعرف لها سببا معقولا ، لا من ذاتها ولا من غيرها ، لهى العجب
كله ، ولعلك لم تنس ما قلناه في الجاذبية وأن أدلتها لم تتم إلى

(١) سورة الفاشية ، الآية ٢٠

الآن ، ولك أن تختصر الطريق وتقول لهم : ما الذى أمسك العوالم كلها فى الفضاء الذى لانهاية له غير قدرة من يقول للشيء كن فيكون ؟ وبعد : فلو شاء لجعلها فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فكان لا يمكن حفرها ولا شقها ولا البناء فيها ولاغرسها ، ولو كانت رخوة غير متماسكة لم يمكن ذلك أيضا ، فإنه لا يستقر إذا عليها الحيوان ولا بقية الأجسام .

فاقتضت حكمته أن تكون بين الصلابة المفرطة ، والدمانة المفرطة ولو فرضنا أن الأرض كلها من الذهب والفضة أو بقية الجواهر لغاتت مصالح الإنسان والحيوان ، وتعطلت المنافع التى تتراد منها فى سائر ضروب المصالح .

لهذا قال بعض الفلاسفة إن التراب أشرف من الذهب والفضة . ويكفى أنك خلقت من التراب « وإلى الآن تخلق من التراب » ، فإن النطفة من الغذاء ، وهو إما لحوم الحيوانات أو النباتات ، ولحوم الحيوانات من النبات ، والنبات من التراب ، فأنت من التراب حتى الآن فسبحان الحكيم الخبير ، العليم القدير

وما كان للذهب تلك المنزلة الرفيعة إلا لقلته وعزته ، بخلاف التراب ، بناء على ما سمعته من القاعدة المطردة فى مخلوقات الله تعالى . وانظر إلى الهواء وحاجة الناس إليه ، ولكن لما كان ملء الوجود لم نأبه ولم نلتفت إليه

ولا بأس أن نشير إلى حكمة كبرى من حكم الله تعالى التي نوهنا عنها فنقول إنه سبحانه جعل كثرة الأشياء وسهولتها على قدر الاحتياج إليها ، فلما كان الهواء يحتاج إليه كل أحد في كل نفس من أنفاسه جعله مالئاً للوجود كله ، ولما كانت حاجة الناس إلى الماء أقل من حاجتهم إلى الهواء لم يجعله في السهولة كالهواء ، ولكنه جعله كثيراً متيسراً للاحتياج للإنسان في حصوله عليه إلى ثمن ولا مشقة فعزة الأشياء لازمة لقلتها لا للاحتياج إليها وقد قال القائل

سبحان من خص القليل بعزة والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل من في الكون محتاج إلى أنفاسه

وأنرجع إلى بقية الكلام على الأرض وآياتها فنقول

لم يجعلها سبحانه وتعالى شفافة لأن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور ، وما كان كذلك لا يقبل السخونة فيبقى في غاية البرودة فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأق فيه إنبات النبات لأن ذلك كله بفضل قبولها لأشعة الشمس التي لولاها لم يكن على الأرض نبات ولا حيوان ذلك تقدير العزيز العليم^(١)

وكذلك لم يجعلها صقيلة براقعة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه ، فاقتضت حكمته أن يجعلها كثيفة غبراء ، فصلاحت أن تكون مستقرة للإنسان والحيوان والنبات

ومن آياته أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، مع أنها قطع متجاورة متلاصقة ، فهذه تصلح لنبات كذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، ليجتاح الناس بعضهم لبعض ، وينتفع بعضهم من بعض وهذه سبيخة مالحة ، وهذه بضدها إلى آخر صفاتها الكثيرة وأحوالها المتنوعة .

فسلها من نزعها هذا التنوع ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ، ومن أمسكها عن الزوال ومن بارك فيها وقدر فيها أمواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها حتى كان منها الدواء والغذاء « بل الرجال والنساء » ، ومن هياها مسكنا ومستقراً للأنام . ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة ، ومن وطأ مناكبها وذلك مسالكها ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأثبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ، ومن صدعها عن النبات وأودع فيها جميع الأقوات ومن بسطها وفرشها ومهدها ، وذلك وطحها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ، ومن الذى أمسكها أن تنزلك فيستط ما عليها من دور وقصور ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور

ومن الذى أنشأ منها النوع الإنساني الذى هو أبداع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمدا - صلى الله عليه وسلم - عليهم أجمعين وأنشأ

منها أوليائه وأحبابه وعباده الصالحين ، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان ، ومن جعل بينها وبين الشمس هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجملة كانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم :

فإن شئت بعد ذلك فانظر إلى تلك البذرة الصغيرة كبذرة انتوت مثلاً كيف توضع في الأرض فتخرج منها شجرة ذات فروع وأغصان تظلل العدد العنيد من الناس .

فيا للأرض من آية تكفي وحدها برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله ! ولا بأس أن نلفت نظرك إلى وجود هذه العناصر المختلفة المتعددة وما أودع فيها من الخصائص والمنافع إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه :

وصلنا من تفسير سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) إلى قوله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت نظر عباده إلى أنفسهم وما فيها من العجائب والغرائب ، فقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : أي خلقها مستترة في أحسن صورة من الصور في ظاهرها وباطنها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » :

وفي صحيح مسلم « يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء .
فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم »

وعلى كل حال فأقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، فينبغي أن يتفكر فيها ، وكيف خلق من قطرة ماء مهين فصار إنسانا عاقلاً يتيه على المخلوقات وحققاً إذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قوائم وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شهادات لمُدبره دالة عليه مرشدة إليه ، إذ يجده مكوناً من قطرة ماء مهين صارت لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق ، والأعصاب قد شدت وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ، على ما يقول الكثير من علماء التشريح الأولين ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وقد شدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، لأجل مختلف الصنائع التي تراد منها

وجعل فيه تسعة أبواب ، فيابان للسمع ، وبيابان للبصر ، وبيابان للشم وبيابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبيابان لخروج الفضلات التي يؤدي احتباسها إلى الأضرار البليغة ، وجعل داخل أبيابان

السمع ممراً قانلاً للحشرات لثلا يلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ،
وجعل داخل باب البصر مالحة لثلاً تذيب الحرارة الدائمة ما هناك
من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب مهياً لإساعة ما يأكله
وما يشربه جعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين
في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه طليعة له ، وركب
هذا النور في جزء صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما ،
وجعل العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض ،
حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل عليها غلقاً بمصراعين أعلى وأسفل ،
وركب في ذين المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالاً

وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحفظان العين من العرق
النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك وجعل سبحانه لكل
طبقة من العين وظيفة مخصوصة ، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً
مخصوصاً لو زاد على ذلك أو نقص عنه لاختلت المنافع وضاعت المصالح
المطلوبة

وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ، ثم أظهر في تلك العدسة
صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي
والسفلي مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره واقتضت حكمته أن جعل
فيها سبحانه بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل
البياض مستقراً لها ومسكناً ، وزين كلا منهما بالآخر ، وجعل الحدقة
مصونة بالأجفان والحواجب ، وجعلها سوداً ، إذ لو كانت بيضاً

لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك فإن السواد يجمع البصر ويمنع من تفرق النور ، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء جعل سبحانه الأجفان متحركة بغاية السهولة في الانطباق والانفتاح بلا تكالف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً لانزال نراها تنظف عيها بيدها من آثار الغبار والكدورات .

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه إليه جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر . البلادة والفتنة والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من أطف الأعضاء وأبعدها تتأثراً بالحر والبرد . وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان ، فإنها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك مع أنها من الأعضاء اللطيفة

هذا بعض ما ذكره علماؤنا الأقدمون ، وللأطباء العصريين ما هو أعجب وأغرب . ولعلك اطلعت على بعض ما اكتشفوه من أسرار الغدد التي كانت مجهولة . وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : يكفيني هدب العين في الدلالة على الله إلى آخر كلامهم في هذا

قال الله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا .
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

ذكرنا لك بعض ما اشتملت عليه خلقة الإنسان من الحكم العالية والأسرار السامية ، والأمر أكبر من أن نأتي على تفصيله وعلى كل حال فمن نظر إلى وظائف الأعضاء كالكبد والمعدة والأمعاء والرئتين ، ثم تهيئة السبيلين ، وما أودعه الله العينين والأذنين واليدين والرجلين إلخ ، أخذ منه الدهش كل مأخذ وامتلأ قلبه بعظمة الله تعالى وعظيم حكمته ومختلف نعمته ، فنطق لسانه قائلاً سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد رأيت أن أذكر لك في هذا المقال بعض مافي الفم واللسان والريق والأسنان من اللطائف التي من علينا بها اللطيف الخبير ، فنقول

جعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه ، وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولأمرأ كالذي في الأذن ، ولا عفناً كالذي في الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ، حكمة بالغة . فإن الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذي يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء فلولا أنه حلو لما التذ إنسان بل ولاحيوان بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص ولما كان كثير من الطعام لا يمكن إحالته إلا بعد طبخه ، جعل الرب - تعالى - آلة لتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن فجعل آلة القطع وهي الثنايا وما يليها حادة الرئوس ليسهل بها القطع ، وجعل التواجد وما يليها من الأضراس

مسطحة الرؤوس عريضة ليتأني بها الطحن ، وجعلها في أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ليتأني بها القمع والطحن ، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر إذ ربما كملت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عرض فينتقل إلى الآلة الأخرى

وأيضاً أو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يتعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابته كما ينبت الزرع في الأرض ولم يكسها سبحانه لحماً كسائر العظام سواها إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة. ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها الحر والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها ، وجعلت هي المكتسبية العارية لتمام المنفعة بذلك ولما كانت آلة القمع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم حاجته إليها ، خلاعنها وقت استغنائه عنها بالرضاع وأعطيتها وقت حاجته إليها. وفيه حكمة أخرى وهي أنه لو نشأ معه من حين يولد لأضررت بحلمة الثدي ، إذ لا عقل له يمنع عن عضها فكانت الأم تمتنع عن رضاعه

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالات التي بينها وبين المعدة فإنه يسلم إليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه ، ثم يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه ، ثم ترسله المعدة إلى الأمعاء ليم هضمه فيها ، ويميز هناك الخبيث المؤذى من الطيب النافع وترسله إلى الكبد فيفرز الصفراء ثم يرسله إلى القلب وبعد

عملية الأذنين والبطينين وملاقاة الهواء في الرئتين يرسل إلى الأهر^(١) ، ثم يتفرع منه إلى جميع أنحاء البدن فيعطى كل عضو ما يناسبه والمقدار الذي يليق به ، فسبحان الحكيم العليم .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا عجز من قطع شيء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه ، فإذا كلت الأسنان كلت المعدة ، إذا ضعفت ضعفت ، إلى آخر ما يطول القول فيه ، ولا يمكننا أن نصل إلى خوافيه . وإن شئت فانظر في أهون شيء عليك وأيسره لديك ، وهو الشعر ، وكيف خلا منه جسد المرأة التي تحسن بها الرقة والنعومة ، بخلاف الرجل .

ولنلفت نظرك إلى شعر الرأس وما فيه من الحكم والمنافع فمنها وقايته عن الحر والبرد وما عسى أن يكون عند الاصطدام ، فضلاً عما فيه من الحسن أما السبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن فهو أن البخار من شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ . وكان هذا الشعر نامياً على الدوام لأن البخار يتصاعد إلى الرأس أبداً وهو مادة الشعر ، فكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد ، وزيادة لوقايته وغطائه

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين مما ينحدر من الرأس وجعل هذا المقدار ، فلو نقص عنه لزالته منفعة الجمال والوقاية ، ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما ندركه ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً ، وأن يكون باقياً على عدد واحد في مقدار واحد ، جعل منبت الشعر في جرم صلب

(١) هو الأورطى .

شبيه بالعضروف يمتد في طول الجفن ثلاثا يطول وينمو وهكذا كما نشاهد النباتات الذي ينبت في الأرض الرخوة اللينة كيف يطول ويزداد ، والذي ينبت في الأرض الصخرية لا ينمو إلا نمواً يسيراً ، فكذلك الشعر النابت في الأعضاء اللينة . الرطبة فإنه سريع النمو كشعر الرأس

وأما شعر اللحية ففيه منافع ، منها الزينة والوقار والهيبة ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحي من الرجال

ثم انظر كيف هيأة المرأة لما يراد منها فخلقها قابلة للتلقيح واحبل والولادة وتربية الطفل بلبن ثدييها وشدة عطفها ، كما هيأة الرجل لما يراد منه وقد قلنا إن بعض فلاسفة الأوربيين قال « يكفيني في الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل لبقاء النوع واستمرار وجوده » . هذا بعض ما قاله العلماء .

ولنختم كما متنا هذه بقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)^(١)

* * *

قال الله تعالى: (وَذُنُوبٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ... الخ : نرى وقد طال بك العهد أن نذكر لك ملخصاً بسيطاً عن هذه الآية التي سمعت بعض ما قيل فيها قبل تلك الفترة فنقول: يصح أن نحمل

النفس في الآية الشريفة على الجسد ، ويكون المراد بتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وجعل كل عضو ذا وظيفة خاصة كما بينه علم الفزيولوجيا

وإن حملناها على الروح المدبّرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة ، كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكرة ، إلى آخر ما قرره علماء النفس هذا ويصح أن يراد بالنفس نفس خاصة من بين النفوس وهي النفس المحمدية

وقد قرروا أن كل كثرة لا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس . فالمركبات جسس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان والإنسان أصناف ورئيس النوع كله النبي صلى الله عليه وسلم . وقد كان الأنبياء كثيرين ، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق فقوله (ونفسٍ) إشارة إلى تلك النفس التي هي رئيسة العالم المركبات

ويصح أن يراد كل نفس ، فإن النفوس كلها ذات عجائب وغرائب ، ولذلك يقول الله في الآية الأخرى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)^(١) ، فتكون الآية شاملة لجميع النفوس كما في قوله تعالى (عليست نفس ما أخضرت)^(٢) وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله ، كما قال بعد ذكر بعض الحيوانات (ويخلق ما لا تعلمون)^(٣) ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن

سائرهما بالفصل المقوم لماهيته والخواص اللازمة لذلك الفصل

(١) سورة أنباريات ، الآية ٢١

(٢) سورة التكوير ، الآية ١٤ (٣) سورة النحل ، الآية ٨

ومن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض
فضلاً عن المترغل فى بحار أسرار الله سبحانه

أما قوله تعالى (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فللسلف فيه عبارات
مقاربة يرجع غالبها إلى أنه ألهم المؤمن المتقى تقواه وألهم الكافر فجوره
بخلقهما مستعدين لذلك قال سعيد بن جبير ألزمها فجورها
وتقواها وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى
وخذلانه إياها بالفجور . واختار الزجاج والواحدى ذلك

والإلهام هو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئاً وأصل معنى الإلهام
من قولهم لهم الشيء والتهمة إذا ابتلعه وقد استعمل ذلك
فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد لما بينهما من المشابهة . وقال ابن زيد :
إن الله تعالى خلق فى المؤمن تقواه وفى الكافر فجوره .

وقد ذكرت هذه الآيات للدلالة على أن الله تعالى مدبرٌ للأجسام
العلوية والسفلية البسيطة والمركبة والنفوس الإنسانية على ما هو الظاهر
(وَاللَّيْلُ يُرْجِعُ الْأَمْرَ كُلَّهُ) (١)

هذا وقد بقى شيء واحد يختلج فى القلب أنه هل هو بقضائه
وقدره ، وكيف يكون ذلك مع سؤاله عنه وتعذيبه عليه ، وهو الأفعال
الإنسانية الاختيارية ؟ فنبه سبحانه بقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا) على ذلك أيضاً ، وأنه منه وبه ، وأن كل شيء بقضائه
وقدره ، وقد ثبت بالأدلة المعقولة والمنقولة أن كل شيء واقع بقضائه

(١) سورة هود ، الآية ١٢٣

وقدره ، وداخل تحت إيجاده وتصرفه أما مذهب المعتزلة فهو أن العبد يخلق أفعان نفسه الاختيارية بقدره خلقها الله فيه ، وهو مذهب مردود بالبراهين المذكورة في كتب الكلام وأما قولهم: لو كانت أفعال العبد بخلق الله لما عذبه عليها فهو اعتراض على الله تعالى ، وهو الذى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)^(١) . وكل شيء قضاه فهو لحكمة يعلمها هر ، وإن لم نطلع عليها

حكم حارت البرية فيها وجدير بأنها تحتار

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم

هذا ، وبعضهم يقول : إن إرادتك صالحة للأمرين ، فأنت مسئول عن توجيهها لأحدهما بخصوصه إلى آخر ما قالوه ولنا رسالة في تفسير قوله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) بغير ما قاله المفسرون يحسن الاطلاع عليها . وما أحسن قول القائل

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم في دوران الفلك

ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة ببحر هلك
(مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ . وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)^(٢)

* * *

قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

تقدم الكلام على النفس وإنه يصح أن يراد بها كل نفس ويصح أن يراد بها نفس آدم عليه السلام والمعنى : لقد أفلح من زكَّاهَا :

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

(١) سورة الانبياء ، الآية ٢٣

أى فازت وسعدت نفس زكاها الله ، أى أصلحها وطهرها من الذنوب ، ووفقها للطاعة . (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) أى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأفسدها وأصله من دس الشيء إذا أخفاه ، وهو جواب القسم على ما هو الظاهر فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وزكاه ، وخسارة من خذله وأضله

عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشيع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »

فاطلب التقوى من الله فى كل وقت ، فإن الله تعالى قد نديك إليها فقال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (١) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (٢) وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « إني ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة »

فإن أردت التوبة فنبغى لك ألا تخلو من التفكير طول عمرك فتفكر فيما صنعت فى نهارك ، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك واستغفر الله وتب إليه فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ، ولا توبخها وأنت ضاحك فرح ، بل وبخها وأنت جاد صادق مظهر للعبوسة

(١) سور النور، الآية ٣١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢

حزين القلب منكسر ذليل فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحاً ،
وبالذل عزاً ، وبالظلمة نوراً ، وبالحجاب كشفاً

وعن الشيخ مكين الدين الأسمر ، رحمه الله تعالى ، وكان من
السبعة الأبدان قال كنت في ابتداء أمرى أخيط وأتقوت من ذلك ،
وكنت أعد كلامي بالنهار فإذا جاء المساء حاسبت نفسي فأجد
كلامي قليلاً ، فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه
وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرتة إلى أن صار
بدلاً ، رضى الله عنه واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه
ويحاققها فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسه ، وإن كان غير محاقق
لنفسه فأنت تحاسبه وتبالغ في محاسبته فينبغى أن يكون عمالك
كله لله تعالى ولا تظن أنك تفعل فعلاً والله تعالى لا يحاسبك
ولا يحاققك عليه

واعلم أنه إذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة ، فمثال المعصية
كالنار ، والظلمة ، دخانها كمن أوقد في بيت خمسين سنة ألا تراه
يسود ؟ فكذلك القلب يسود بالمعصية ولا يظهر إلا بالتوبة إلى الله
فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب ولا يدخل عليك الإهمال
إلا بإهمالك متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

ولا تحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي - صلى الله
عليه وسلم - . والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين : جلية وخفية ،
فالجلية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك ، والخفية
أن تصل إلى الجمع - في صلاتك - على الله تعالى ، والتدبر في قراءتك

وحضور قلبك وصفاء ذهنك فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعاً ولا تدبراً فاعلم أن بك مرضاً باطنياً من كبر أو عجب أو غير ذلك قال الله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)^(١) فيكون مثالك كالمحموم الذي يجد في فمه السكر مرّاً .

واعلم أن المعصية مع الذل والافتقار خير من الطاعة مع العز والاستكبار قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)^(٢) ومفهوم هذا أن من لم يتبعه فليس منه وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي)^(٣) فأجابه سبحانه بقوله تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)^(٤) . فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبيّاً كسلمان الفارسي -رضى الله عنه- لقوله صلى الله عليه وسلم « سَلَمَانَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ » ومعلوم أن سلمان من أهل فارس . ولكن بالمتابعة قال عنه صلى الله عليه وسلم ما قال تعليماً وإرشاداً لمزية المحبة والمتابعة وكما أن المتابعة تشبث الاتصال ، كذلك عدمها يشبث الانفصال . وقد جمع الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى ، والزهد المتابعة فذلك دليل على محبة الله له

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٦

(٣) سورة هود ، الآية ٤٥

(٤) سورة هود ، الآية ٤٦

قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (١)
 وإذا طلبت الخير كله فقل اللهم إني أسألك المتابعة لرسولك صلى الله
 عليه وسلم في الأقوال والأفعال والنيات ومن أراد ذلك فعليه بعدم
 الظلم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم .

نسأل الله أن يوفقنا لما يرضيه ، ويرزقنا متابعة نبيه صلى الله
 عليه وسلم بمنه وكرمه

* * *

قال الله تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ
 لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدمَ عَلَيْهِمْ
 رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) الأظهر أنه كلام مستأنف جيء به
 لبيان أنه من دس نفسه اتي الوبال والخسران كما كان لثمود وأمثالهم .
 وقيل إنه جواب القسم ، أو كلام سيق للدلالة على جواب القسم ،
 فكانه قيل وحق هذه المذكورات وتلك الآيات البينات لينتقم الله
 ممن كذبوك ولم يؤمنوا برسالتك ، فإن ذلك شأنه مع أعداء رسله

وإن شئت قلت ليدمدن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً
 عليه السلام وأما حذف اللام من جواب القسم فهو كثير ، لا سيما
 مع الطول كما هنا

هذا ، والطغوى مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد في العصيان ، وقد فرقوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الباء فقلبوا الباء وأوآ في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا في الصفة امرأة صدياً وخزياً ، وفي الاسم تقوى وطغوى . ومنهم من قال : إن طغى واوى ويأتى فيقال طغوت وطغيت طغواناً وطغياناً والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها على الله تعالى ويصح أن يراد بالطغوى العذاب الذى جاوز الحد ، فتكون الباء للتعديّة كما فى قوله تعالى (فَأَهْلِكُوا بِالطَّاعِيَةِ)^(١)

(إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا) متعلق بكذبت أو بطغوى وانبعث مطاوع بعثه معنى أرسله ، والمراد إذ ذهب لعقر الناقة (أَشْقَاهَا) أى أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف [وقدار بوزن غلام] أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الأشقياء ، وهما اثنان على ما قال الفراء أو أكثر على ما قال غيره . وأفعل التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وقد جعلوا أشقى قبيلة ثمود لمباشرتهم العقر مع إشتراك الكل فى الرضا به مع ما يعلمه الله فيهم من بقية الخبائث .

(فَقَالَ لَهُمْ) أى لثمود أو لأولئك الأشقياء بناء على أنهم جمع . (رَسُولُ اللَّهِ) هو صالح عليه السلام ، وعبر عنه بعنوان الرسالة إيدانا بوجوب طاعته وبياناً لغالية عتوهم وتماديهم فى الطغيان ، وهو السر فى

إضافة الناقة إليه تعالى في قوله (نَاقَةَ اللَّهِ) وهو منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً كما قال ابن مالك

إياك والشئ ونحوه نصب محذر بما استناره وجب والكلام على حذف مضاف أى احذروا عقر ناقة الله . والمعنى على ذلك وان لم يقدر فى نظم الكلام

(وَسُقِيَاهَا) أى واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها .

(فَكَذَّبُوهُ) أى فى وعيده إياهم كما قال تعالى (وَلَا تَمَسُّوهَا ، يَسُوءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(١) . والمراد أنهم كذبوه فى خبر حلول العذاب بهم إن فعلوا ما حذرهم منه (فَعَقَرُوْهَا) أى فنحروها أو فقتلوا ، وضمير الجمع للأشقي ، وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) : أى فبأطبق عليهم العذاب وقان فى القاموس معناه أتم العذاب عليهم . وإن شئت قلت كما قال بعضهم للدممة إهلاك بامتئصال (يَذْنِبُهُمْ) بسبب ذنبهم المحكى . والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإيذان بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب

(فَسَوَّاهَا) الضمير للدممة المفهومة من دمدم ، أى فجعل الدممة سواءً بينهم فلم ينج منهم أحد ولك أن تقول إنه عائد على ثمود والتأنيث باعتبار القبيلة كما فى طفواها وأشقاها ، والمعنى أنه سواها بالأرض

(وَلَا يَخَافُ) أى الرب عز وجل (عُقْبَاهَا) أى عاقبتها وتبعتها
كما يخاف الإنسان عاقبة مايفعله وتبعته ، وهو عبارة عن إهانتهم
وأَنهم أَذْلَاءٌ عند الله تعالى . والواو للحال أو للاستئناف .

هذا ، وثمرود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز
والشام . وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن
نوح . وقال عمرو بن العلاء : إِنَّمَا سَمُوا بِذَلِكَ لِقَلَّةِ مَائِهِمْ ، فهو من ثمد
الماء إذا قل . والتمد الماء القليل

هذا ويجوز فى ثمود الصرف وعدمه باعتبار الحى أو القبيلة
والله أعلم

تفسير سورة الانشراح (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ)

يريد سبحانه وتعالى أن يذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - بنعمه عليه ، وفي هذه السورة وما قبلها كبيريات النعم وأصولها ، ولا تنس الآيات الأخرى التي أثنى الله فيها على نبيه - صلى الله عليه وسلم - منها بما أعطاه من الآيات الكبيرة ، والفضائل الغزيرة ، مثل قوله (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(٢) وناهيك بشئ يعظمه الله تعالى ، ومثل قوله تعالى (وَلَوْ كُنْتَ إِظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٣) وقوله (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)^(٤) ، وقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)^(٥) ، ومخاطبته له بالرسول نحو : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)^(٦) على حين أنه ينادى الأنبياء بأسمائهم ، نحو

-
- (١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - المجلد الرابع عشر - ربيع الآخر - سنة ١٣٦٢
 (٢) سورة القم ، الآية ٤
 (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩
 (٤) سورة النور ، الآية ٦٣
 (٥) سورة الحجرات ، الآية ٢
 (٦) سورة المائدة ، الآية ٦٧

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)^(١) ، (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)^(٢) ، (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)^(٣) إلى غير ذلك وهو كثير

ومما جاء في ذلك وهو من أبلغها ، لإقسام الله بحياته - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(٤) إلى ما لا يكاد يحصى ،
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)^(٥) ، وفي هذه السورة أنه رفع له ذكره. وفي الحديث
٢ أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع ، الخ

أسأل الله أن يجعلنا ن عارفيه وأول محبيه بمنه وكرمه ه

ولنرجع إلى التفسير فنقول (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) هذ الاستفهام إنكارى أو تقريرى ، وهو يتضمن إثبات الشرح ، والإنكار على من ينفيه ، وكأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك ، ولذلك عطف عليه بطريق الإثبات قوله : (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) الخ . والمعنى أننا وسعناه بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع شئون النبوة والرسالة وما يلزم لذلك من دعوة العالم للدين الحق فأزلنا عنه الضيق والحرَج وعن الحسن ملأناه حكمة وعلمًا

(١) سورة ص ، الآية ٢٦

(٢) سورة مريم ، الآية ١٢

(٣) سورة مريم ، الآية ٧

(٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢

(٥) سورة الاحزاب ، الآية ٤٦

أما قوله (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) فمعناه أننا خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بواجبها

ومما يحسن أن ننبه عليه أن الأنبياء قد يعاتبون على ترك الأفضل وإن أتوا بالفاضل . وهذا في الحقيقة نوع من التعليم والإرشاد . ووضع الوزر عنه غفره له أو حمايته من ارتكابه أو تخفيف ما كان يشق عليه صلى الله عليه وسلم - من دعوة المشركين وتصلب المعاندين والوزر في اللغة الحمل الثقيل

أما قوله تعالى (أَلَسَدِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) فمعناه أثنى - الظهر حتى سمع منه صوت الانتقاض . وأما رفع ذكره فمما لا يأتي عليه البيان . وانظر إن شئت إلى الأذان الذي قرن فيه اسمه باسم الله تعالى ، وكذلك في الإقامة ، وعند إرادة الدخول في الإسلام

وانظر إلى القرآن في ذلك حيث يقول (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)^(١) ، (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)^(٢) ، (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ)^(٣) (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)^(٤) الخ - وفي الآخرة آدم فمن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وكل نبي يقول يومئذ : نفسى نفسى عندما يطلب للشفاعة ، أما هو فيقول أنا لها أنا لها

(١) سورة النور ، الآية ٥٤

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩

(٣) سورة التوبة ، الآية ٦٢

(٤) سورة النساء ، الآية ٨٠

أما قوله: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فمعناه إن مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة إبلاء المشركين إظهارك عليهم وقيل كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر ، فقيل له خولناك ما خولناك وسنتم نعمتنا عليك وعلى من معك

وجيء بلفظة (مَعَ) للتنبية على شدة قربيه : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ سَكُنْ فَيَسْكُونُ) (١)

وقد قال صلى الله عليه وسلم عندما نزلت : لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ . ومعنى ذلك إن العسر معرفة وليس نكرة ، ومن القواعد إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عيناً ، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت إكناً غيراً

ثم قال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) أى إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب وعن ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء . وتقديم الجار والمجرور يفيد أن الرغبة لا تكون إلا فيما عند الله عز وجل ، وأن القلب لا ينبغي أن يكون مشغولاً إلا به ولا معولاً إلا عليه وعلى الله فليتوكل المؤمنون

تفسير سورة الزلزلة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِإِذِّ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يُخْرِجُ
يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ،
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

هذه السورة مكية على الأصح وقد جاء عن ابن عباس عن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن
وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وقل أيها الكافرون تعدل
ربع القرآن » أخرجه الترمذي

والمراد أن الأرض تتحرك حركة شديدة ، ولك عند قيام الساعة
حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلتق ما على
ظهرها من جبل وشجر وبناء

وفي وقت هذه الزلزلة قولان أحدهما وهو قول الأكثرين أنها
في الدنيا، وهي من أشراط الساعة وهي التي يموت فيها جميع الخلائق
والثاني أنها زلزلة يوم القيامة :

وقوله تعالى (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) اختلف فيه فمن
قال إن الزلزلة تكون في الدنيا فال أثقالها كنوزها وما في بطنها
من الدفائن ولأموال فتلتقيها على ظهرها ويدل على هذا ما روي عن

أبي هريرة -رضي الله عنه- قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
«تقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة فيجىء
القاتل فيقول في هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول في هذا قطعت
رحمى ، ويجىء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونهم
فلا يأخذون شيئاً » أخرجه مسلم وأفلاذ الكبد جمع فلذة شبه
ما يخرج من بطنها بقطع الكبد واستعمار القيء للإخراج ومن قال
إن الزلزلة تكون يوم القيامة قال أنقالها الموتى فتخرجهم إلى
ظهرها.

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) أى مالها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة
ولفظت ماني بطنها ؟ وفي الإنسان وجهان أحدهما أنه اسم جنس
يعم المسلم والكافر ، وهذا على رأى من جعل الزلزلة من أشرار الساعة
فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ، والثانى أنه الكافر خاصة لأن المؤمن
عارف بها فلا يسأل عنها والكافر جاحد لها فإذا وقعت سأل عنها

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) فيقول الإنسان مالها والمعنى أن
الأرض تحدث بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر فتشكر
العاصي وتشهد عليه ، وتشكر الطائع وتشهد له عن أبي هريرة رضى
الله عنه قال فرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) فقال أتدرون ما أخبارها؟ قالوا الله ورسوله أعلم
قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد مما عمل على ظهرها
تقول عمل كذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها أخرجه الترمذى
وقال حديم حدين صحيح

(بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) أى أمرها بالكلام ، وأذن لها أن تخبر بكل ما عمل عليها . قال ابن عباس أوحى إليها ، قيل إن الله تعالى يخلق فى الأرض الحياة والعقل والنطق حتى تخبر بكل ما عمله الإنسان .

قرله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ) أى عن موقف الحساب بعد العرض (أَشْتَاتًا) أى متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار (لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ) قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التى فيها الخير والشر فيعرفوا ما يستحقونه من الثواب والعقاب .

أما قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أى وزن نملة صغيرة (خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) قال ابن عباس ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا فى الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة . وقال محمد بن كعب القرظى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) من كافر يرى ثوابه فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر

وقيل نزلت هذه الآية فى رجلين ، وذلك أنه لما نزلت (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)^(١) وكان أحدهما يأتية السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ويقول

(١) سورة الإنسان ، الآية ٨

هذا ليس بشيء يؤجر عليه إنما يؤجر على ما تعطيه ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون في الذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول إنما وعد الله النار على الكبائر ، وليس في هذا إثم ، فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ويبين لهم أن الذنب الصغير يكون في عين صاحبه مثل الجبيل العظيم يوم القيامة

قال ابن مسعود : أحكم آية في القرآن (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ). وقد سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الجامعة الفاذة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقد تصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب وقالوا فيها مثاقيل كثيرة قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضي الله عنهم وقال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ السورة فلما بلغ آخرها قال حسبى قد انتهت الموعظة وقد قال الإمام الشافعى رضي الله عنه لو لم ينزل على الناس إلا سورة العصر لكفتهم ونحن نقول أيضا لو لم ينزل على الناس إلا هذه الآية لكفتهم

أسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا بمنه وكرمه

تفسير سورة العاديات (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ دَلِيلٍ لَّشَّهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) .

أقسم الله تعالى بهذا القسم البديع على أن الانسان كفور غير شكور ، فقال (:الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) أى الخيل التى تعدو فى الجهاد فتصبح ضبحا فقوله (ضَبْحًا) مفعول مطلق لفعل محذوف أو هو حال مؤول باسم الفاعل أى والعاديات ضابحة الخ . والضبوح هو أصواتها عند عدوها . ومن بدائع القرآن ترغيب الناس فى الجهاد بتعظيم كل شىء يمت إليه بصلة حتى الخيل التى تستعمل فيه وإذا كانت تلك المنزلة من التعظيم للخيل فما بالك بفضل المجاهدين

ولاعجب فقد قارنا بين طريق القرآن فى البرهنة وطريق العلماء فى أدلة التوحيد ، وذكرنا ما بينهما من الفرق ، فالقرآن يعمد إلى ما هو المعروف المحسوس بطريقة تأخذ بالقلوب فيقول مثلا (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(١) ويقول (أَمْ خُلِقُوا مِنْ

(١) مجلة الأزهر الجزء السادس - المجلد الرابع عشر - جمادى الآخرة - سنة ١٣٦٢

(٢) سورة العاشية ، الآية ١٧ - ٢٠

غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»^(١) ويقول في الاستدلال على البعث حين قال اشكر (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(٢) على حين أن العلماء يسلكون في أمثال ذلك تلك الطريق المتوعرة التي لانخفي عليك وقد قال ابن سينا في برهان البعث الذي ذكره القرآن كنت أشتهى أن يراه ارسطاطا ليس أى ليعرف الفرق بين أدلة القرآن وأدلة الفلاسفة ، فسبحانه من حكيم عليم اللهم إنا نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزنا ، وذهاب همنا وغمنا ، وأن تجيرنا من الفتن المضلة ماظهر منها وما بطن ، بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين

بُئِمَ قَالَ تَعَالَى : (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) : الإبراء : إخراج النار ، والقدهج : نصك يقال قدهج فأورى أى فالتى تورى النار من حوافرها عند قدهجها الأجرار فى جريها وانتصاب قدهجاً كانتصاب صبحاً (فَالْمُغِيرَاتِ) : أسند الإغارة التى هى مباغطة العدو للنهب أو للقتل أو للأسر إلى الخيل لا إلى أهلها إيداناً بأنها العمدة فى إغارتهم (صُبْحًا) أى فى وقت الصبح ، وهو المعتاد فى الغارات ، فإنهم يعدون نيولاً ليلاً يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً ليروا مايتئون وما يئدرون

أما قوله تعالى (فَآتَرْنَ بِهِ) فهو عطف على اسم الفاعل المتقدم وقد قال ابن مالك

* واعطف على اسم شبه فعل فعلاً

(١) سورة طور ، الآية ٣٥ (٢) سورة يس ، الآية ٧٨ - ٧٩

وإن شئت فقل عطف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ
المعنى : واللاقي عدون فأورين فأغرن فأثرن ، أى فهيجن بذلك الوقت
(نَقْعاً) أى غباراً وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور أو لا يظهر
ثورانه بالليل وقيل النقع الصياح والجلبة ، وقرىء (فَأَثَرَنَ)
بالتشديد معنى فآظهن به غباراً لآن التأثير فيه معنى الإظهار .

(فَوَسَطْنَ بِهِ) أى توسطن بذلك الوقت . ويصح أن يكون الضمير
راجعاً للنقع ، أى توسطن ملتبسات بالنقع (جَمْعاً) من جموع
الأعداء والفاعلات للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبله ،
فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على
الإبراء ، المترتب على العدو .

وقوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) أى لكفور، مأخوذ من كند
النعمة كنوداً ، وهو جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفراد
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أناس من بنى كنانة
سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصارى وكان أحد النقباء
فأبأطاً عليه صلى الله عليه وسلم خبرها شهراً ، فقال المنافقون إنه
قتلوا ، فنزلت السورة إخباراً للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها ،
وبشارة له بإغارتها ، ونعيّاً على المرجفين فى حقهم ما هم فيه من الكنود .
ولك أن تقول : فيه إشارة إلى أن الإنسان كنود بطبعه ما لم يهذب الدين
والعلم (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ) ^(١)

بهذا ، وفي تخصيصه خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة مالا مزيد عليه ، كأنه قيل : وخيل الغزاة التي فعلت كذا وكذا وقد أرجف هؤلاء في حق أربابها ما أرجفوا إنهم لمبالغون في الكفران .

(وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ) أي وإن الإنسان على كذوبه (لَشَهِيدٌ) يشهد على نفسه بالكثور بليمان حاله لظهور أثره عليه

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ) أي المال كما في قوله تعالى (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) ^(١) (كَشِيرٍ) أي قوى مطيق مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه يقال هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطيقاً له وقيل الشديد البخيل ، أي إنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل بمسك ، فاللام إذن للتعليل ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكثور ، للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال لأنهم مما يظهرون من النفاق يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيباً .

وقوله تعالى (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ) الخ : تهديد ووعيد . والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي يتمادى في جهله فلا يعلم حاله إذا بعثر من في القبور من الموتى . وإيراد (ما) لكونهم إذ ذلك معزل عن رتبة العقلاء

(وَحُصِّلَ) أي جمع محصلاً ، أو ميز خيره من شره (مَا فِي الصُّدُورِ) من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي فضلاً عن الأعمال الجليلة

(إِنَّ رَبَّهُمْ) أى المبعوثين ، كفى عنهم بعد الإحياء الثانى بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم قبل ذلك (بما) التى لغير العقلاء بناءً على تفاوت ما بين الحالين ، (بِهِمْ) بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها (يَوْمَئِذٍ) يوم إذ يكون ماذكر من بعث مافى القبور وتحصيل مافى الصدور (لَخَبِيرٌ) أى عالم بظواهر ماعملوا وبواطنه علماً موجِباً للجزاء الحق متصلًا به ، كما ينهى عنه تقييده بذلك اليوم ، وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون ، ولا اختصاص له بذلك اليوم ، وقوله تعالى : (بِهِمْ) وُ (يَوْمَئِذٍ) متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل ، والله أعلم

تفسير سورة القارعة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ . يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ فَأَمَّا مَنْ
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ
هَآوِيَةٌ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ) .

(الْقَارِعَةُ) أصل القرع الصوت الشديد ومنه قوارع الدهر
أى شدائده والقارعة من أسماء القيامة ، سميت بذلك لأنها تفرع
القلوب بأهوالها وشداندها، وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل
لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته

أما قوله : (مَا الْقَارِعَةُ) : فهو استفهام يراد به التهويل والتعظيم ،
لأنها فاقت القوارع في الهول والشدة (وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) : معناه
لا علم لك بكنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم ولا يصل إليها
وهم ، وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك .

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) : الفراش هذا الحيوان
الذى تراه يتهافت في النار ، سميت بذلك لفرشها وانتشارها وإنما
شبه الخلق عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا نار لم يتجه لجهة
واحدة بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى فدل بهذا التشبيه

على أن الخلق في البعث يتفرون فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر .
والمبثوث المتفرق وقد قال في الآية الأخرى « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » (١) ، وإنما شبههم بذلك لكثرتهم وعدم توجههم إلى جهة واحدة لحيرتهم ومزيد دهشتهم .

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) أى كالصوف المندوف ،
وذلك لأنها تتفرق أجزاؤها في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير
عند الندف وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال كأنه تعالى نبه
على تأثير تلك القارعة في الجبال العظيمة الصلدة الصلبة حتى تصير
كالعهن المنفوش فكيف حال الإنسان الضعيف عند سماع صوت انقارعة ؟

ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى
(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) يعنى رجحت موازين حسناته ويصبح
أن يكون جمع موزون فيكون المراد به العمل الذى له قدر وخطر عند
الله تعالى ، وأن يكون جمع ميزان وهو الذى له لسان وكفتان توزن فيه
الأعمال فيؤتى بالحسنة فى أحسن صورة فتوضع فى كفة الميزان فإن
يرجحت فله الجنة ، ويؤتى بالسيئات فى أقبح صورة فلا يكون لها
وزن . هذا ، وقد قيل إنما توزن أعمال المؤمنين ، فمن ثقلت حسناته
على سيئاته دخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار
فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة ، أو يعفو الله عنه
بفضله وكرمه

وأما الكافرون فقد قال في حقهم (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وِزْرًا)^(١) وقال كثير من العلماء إن معنى الآية أننا لا نقيم لهم وزناً
نافعاً قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه إنما ثقلت موازين من
ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا مع ثقله عليهم ،
وحتى لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً وإنما خفت موازين من خفت
موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحتى
لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً

أما قوله تعالى (فَهَوَّ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ) أى مرضية في الجنة
فيكون اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقيل إنها بمعنى عيشة ذات رضا
يرضاها صاحبها ، فالمراد بها النسب « كلابن وتامر » .

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) : أى رجحت سيئاته على حسناته
(فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ) أى مسكنه النار ، سمي المسكن أمماً ، لأن الأصل
في السكون الأمهات وقيل معناد فأم رأسه هاوية في النار ، والهاوية
اسم من أسماء النار والمراد أنها مهواة لا يدرك قعرها فَيَهْوُونَ فيها على
رؤوسهم .

(وَمَا أَذْرَاكَ مَاهِيَةٌ) يعنى الهاوية ، يريد أنك لا تدرك كنهها
وحقيقتها فهى فوق ما يقدر المقدرين ويتوهم المتوهمون ثم فسرها [
فقال (نَارٌ حَامِيَةٌ) : أى حارة قد انتهى حرها
ويكفيك قول الله في حقها (نَارٌ حَامِيَةٌ) . نعوذ بالله وعظمته .

منها والله سبحانه وتعالى أعلم

تفسير سورة التكاثر (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .)

قوله عز وجل (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) : أى شغلتكم المفاخرة والمباهاة
والمكاثرة بكثرة المال والعدد والمناقب عن طاعة الله ربكم واشتغالكم
بما ينجيكم من سخطه .

ومعلوم أن من اشتغل بشيء أعرض عن غيره ، فينبغي للمؤمن
العاقل أن يكون سعيه وشغله فى تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه
عز وجل ، فالتناخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأحسن
المراتب ، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السعادة
الأخروية التى هى سعادة الأبد

ويدل على أن المكاثرة والمفاخرة بالمال مذمومة ، ما روى عن مطرف
ابن عبد الله بن اشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) فقال يقول
ابن آدم ما لى ما لى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأفضيت
أو أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت ؟ أخرجہ الترمذی وقال

حديث حسن . وأخرج البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتبع ألميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه ماله (كالعبيد) وأهله ، وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » :

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أى حتى متم ودفنتم فى المقابر فإنه يقال لمن مات : زار قبره وزار رمسه فيكون معنى الآية أَلَهَاكُمْ حِرْصَكُمْ عَلَى تَكْثِيرِ أَمْوَالِكُمْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّكُمْ حَتَّى أَتَاكُمْ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَى ذَلِكَ

هذا ، وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى اليهود ، قالوا نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، فشغلهم ذلك حتى ماتوا ضللاً . وقيل نزلت فى حيين من قريش وهم بنو عبد مناف وبنو سهم ابن عمرو ، كان بينهما تفاخر فتعادوا القادة والأشراف ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيِّداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً ، وأكثر عدداً ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثروهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا نعد موتانا وذوى الشرف منا ، فعدوا الموتى حتى زاروا القبور فعدوا من فيها ، فقالوا هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ، فكثروهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا فى الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية ، وهذا أصح وكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ويقول هبوا أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفعكم ؟

ثم رد الله تعالى عليهم فقال (كلا) أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالكائنات والتفاخر . وقيل المعنى : حقاً ، فإن (كلا) تستعمل

للردع والزجر ، وتستعمل أيضاً بمعنى حقاً ، وهي صالحة هنا للمعنيين ،
(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وعيد لهم .

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) كرده تأكيدا . والمعنى سوف تعلمون
عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت . فهو وعيد بعد وعيده

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أى علماً يقينياً . وجواب لو محذوف
والمعنى لو تعلمون علماً يقينياً لشغلكم ماتعلمون عن التكاثر والتفاخر .

(لَتَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم

لتوكيد الوعيد وأن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا ريب والمعنى
لا بد أن تروا الجحيم بأبصاركم بعد الموت

(ثُمَّ لَتَتَرَوُنَّهَا) يعنى مشاهدة بعد مشاهدة (عَيْنَ الْيَقِينِ) . وإنما

﴿

كرر الرؤية لتوكيد الوعيد

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) : يعنى أن كفار مكة كانوا

في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا
فيه لأنهم لم يشكروه حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ذلك ﴿

وذلك أن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر ببلداتها

عن طاعة الله والاشتغال بشكركه سألهم عن ذلك

وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، وهو الأولى لكن سؤال ﴿

الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه والمؤمن

يسأل سؤال تشريف لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه ويدل

على ذلك ما روى عن الزبير قال : ﴿ لَمَّا نَزَلَتْ ﴾ (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ

أ عن النعيم) قال الزبير : يارسول الله وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال : أما أنه سيكون « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

واختلفوا فى النعيم الذى يسأل العبد عنه ، فروى عن ابن مسعود رفعه قال لتسألن يومئذ عن النعيم قال الأمن والصحة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى عليه وسلم « أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له ألم نصح لك جدك من نروك من الماء البارد ؟ » أخرجه الترمذى

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو ببأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا الجوع يارسول الله ، قال : وأنا ، والذى نفسى بيده لقد أخرجنى الذى أخرجكما فقوموا ، فقاموا معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً فقال لها - رسول الله صلى الله عليه وسلم أين فلان - يريد أباً طلحة صاحب البيت قالت ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى قال فانطلق فجاءهم بعدق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا ، وأخذ المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة : فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر والذى نفسى بيده

لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم

وأخرجه الترمذى بأطول من هذا ، وفيه : ظل بارد ورطب طيب وماء بارد . وروى عن ابن عباس قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد فيم استعملوها والله أعلم بذلك منهم وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال وأخرج البخارى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»

وقيل الذى يسأل عنه العبد هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لا بد لكل أحد من مطعم ومشراب وملبس ومسكن . وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويسأل عن الإسلام فإنه أكبر النعم . وقيل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم من الضلال إلى الهدى ، وأخرجكم من الظلمات إلى النور وامتنن به عليكم .

تفسير سورة الهمة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ
مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَالَّذِي لَا يُنْبِذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ
اللَّهِ الْمُرْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ فِي عَمْدٍ
مُّدَدَةٌ)

(ويَلُّ) : مبتدأ خبره (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) وساغ الابتداء به مع
كونه نكرة لأنه دعاء عليهم بالهلكة والهمز الكسر ، واللمز الطعن
وقال مجاهد الهمز باليد والعين ، واللمز باللسان وقد شاعا في
الطعن في أعراض الناس وبناء فَعَلَةٌ يدل على أن ذلك عادة مستمرة
قد ضرى بها وقريء (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) بسكون الميم . وهو الذي يأتي
بالأضاحيك

قيل نزلت في الأحنس بن شريق فإنه كان مشغوقاً بالغبية
والوقبة وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة^١.

واختصاص السبب لا يستدعى خصوص الوعيد بهم ، بل كل من
انصف بوصفهم القبيح فله ذنوب كبرى مثل ذنوبهم (الَّذِي جَمَعَ
مَالًا) نذكر المال لتفخيم والتكثير كما يدل عليه قوله (وَعَدَّدَهُ) أي جمع
بعضه على بعض وأحصى عدده ، وهو مثل قوله تعالى (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)^(٢)

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر - الصفحة ٢٣٠ - سنة ١٣٦٣

(٢) سورة المعارج ، الآية ١٨

قال السدى وابن جرير: الهاء جمع ماله بالنهار، فإذا كان الليل
نام كأنه جيفة منتنة

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ) أى يعمل عمل من يظن أن جمعه المال
يخلده في هذه الدار

أو نقول طول المال أمّله ومناد الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرض.
غفلته وطول أمّله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت وقد
قيل إن هذا تعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا، وأنه هو الذى
أخلد صاحبه في الحياة الأبدية والنعيم المقيم أما المال فليس يخالد ولا
يمخلد، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل (جَمَعَ)

(كَلًّا) ردع له عن ذلك الحسبان الباطل (لَيُنَبِّذَنَّ) الجملة جواب
قسم مقدر، وهى استئناف مبين لعللة الردع، أى والله ليطرحن بسبب
تعاطيه لما ذكر (فِي الْأَحْطَمَةِ) أى فى النار التى من شأنها أن تحطمه
وتكسر كل ما يلقى فيها كما أنه كان شأنه كسر أعراض الناس والطنع
فيهم

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْأَحْطَمَةُ) لتهويل أمرها ببيان أنها ليست من الأمور
التي تنالها عقول الخلق

(نَارُ اللَّهِ) خبر مبتدئ محذوف، والجملة لبيان شأن المسئول عنها
أى هى نار الله (الموقدة) بأمر الله عز سلطانه (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى
الْأَفْقِيَّةِ) أى تعلق أوساط القلوب وتغشاها. وتخصيصها بالذكر لِمَا أَنَّ

المفؤاد ألطف مافي الجسد وأشدّه تألماً بأذى يمسه ، أو لأنه محل
العقائد الزائغة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ) أى مطبقة من أوصدت الباب وآصدته أى
أطبقتة

(فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) أى موثمين فيها بأن توّصد عليهم الأبواب ،
وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق

هذا ، ومن تأمل في هذه السورة ظهر له العجب العجاب من
التناسب ، فإنه لما بولغ في الوصف في قوله تعالى (هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ) قيل
الحطمة للتعادل ، ولما أفاد ذلك كسر الأعراض قوبل بكسر الأضلاع
المدلول عليه بالحطمة ، وجيء بالنبذ المنبذ عن الاحتقار في مقابله ماظن
الهامز اللامز بنفسه من الكرامة . ولما كان منشأ جمع المال استيلاء
حيه على القلب جيء في مقابله بقوله (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) . ولما كان من
شأن جامع المال المحب له أن يوّصد عليه قيل في مقابله (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ) ولما تضمن ذلك طول الأمل قيل (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

وقد رأيت أن أثبت هنا بيتين من نظمنا القديم لِمَا لهما من
المناسبة وهما

تمضى علينا ليالٍ ثم يعقبها أيام لهو بها أيامنا صرمت
نلهو ونلعب والأعمار ذاهبة والموت يفجئنا والنفس ما تعظت

تفسير سورة قريش (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ).

قوله عز وجل (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) اختلفوا في هذه اللام . فقيل هي متعلقة بما قبلها ، وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بأصحاب الفيل حيث قال

(فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش) أى أهلك أصحاب الفيل لتبقي قريش وماألفوا من رحلة الشتاء والصيف

وقد اختلفوا في هذه اللام من وجه آخر ، فقيل هي لام لتعجب ، أى أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت فكأنه قال تعجبوا للسامعين أعجبوا لذلك وقيل هي متعلقة بما بعدها أى فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، وليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة والمعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين بلا خوف ولا وجل .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة عن واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة

واصطفتى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وقد ورد عن سعيد بن زيد « من أراد هوان قريش أهانه الله » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب . وسميت قريش من القرش والقرش وهو الجمع والتكسب ، وذلك لأن قريشا كانوا تجاراً وعلى جمع المال حرصاً

وقوله تنال : (لإيلافهم) هو بدل من الأول تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظم المنة فيه . (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال ابن عباس كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف . وقال الأكثرون : كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة : رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكان الحرم مجذباً لازرع فيه ولاضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم وكانوا لايتعرض لهم أحد بسوء ، وكانوا يقولون قريش مكان حرم الله وولاية بيته ، فكانت العرب تكرمهم وتعظمهم لذلك ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولولا الأمن بسبب جوار البيت لم يقدروا على التصرف رشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام

قال ابن عباس كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين ، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغنى والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم وقال الكلابي كان أول من حمل السمراء ، يعنى القمح إلى الشام ، ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف ، وفيه يقول الشاعر

قل للذى طلب السماحة والندى هلا وردت بأل عبد مناف
الرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلم للأضياف

والخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق والراجلين برحلة الإيلاف
سفرين سنهما له ولقومه سفر الشتاء ورحلة الأسياف

قوله عز وجل (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) يعنى الكعبة وذلك أن
الإنعام على قسمين دفع ضرره وما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب
نفع وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما رفع الله عنهم الضر وجلب لهم
النفع، وهما نعمتان عظيمتان، أمرهم بالعبودية وأداء الشكر .
أو نقول أنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب
هذا البيت، فإنه هو الذى (أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

ومعنى الذى أطعمهم من جوع، أى من بعد جوع بحمل
الميرة إليهم من البلاد فى البر والبحر وقيل فى معنى الآية : أنهم
لما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : اللهم اجعلها
عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجوع
فقالوا يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط
فذلك قوله تعالى (الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) أى
بالحرم وكونهم من أهل مكة فلم يتعرض لهم أحد فى رحلتهم . وقيل
آمنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . والله اعلم

ومن نظر فى طريقة استدلال القرآن يرى العجب العجيب
ولا يكفيه إلا أن يضع يدك فيما يريد الاستدلال عليه بطريقة محسوسة

جاعلا في كل شيء آية ، وتمهيد الطريق إليها نعمة [حتى رحلة الشتاء والصيف] بخلاف طريقتنا في كتب العقائد التي نذكرها فيها الشبه والمعميات

وإن شئت فانظر إلى مثل قوله تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)^(١) . ثم يقول : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) . ثم يلفت نظرك إلى بعض آياته الأخرى فيقول . (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)^(٣) . ويزيدك بيانا فيقول . (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(٤)

ثم انظر كيف يلفت نظرك إلى الشمس والقمر وعجيب أمرهما وإتقان نظامهما فيقول

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)^(٥)

(١) سورة يس ، الآية ٣٣ (٢) سورة يس ، الآية ٣٦
 (٣) سورة يس ، الآية ٣٧ (٤) سورة القصص الآيات ٧٢ ، ٧٢
 (٥) سورة يس ، الآيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

ومن هذا القبيل قوله (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)^(١)

هذا ، وألفت نظرك إلى هذا الاستدلال الواضح المختصر حيث يقول في الاستدلال على الله

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يوقِنُونَ)^(٢) ويقول (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)^(٣) ويقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)^(٤) ويقول في تعليمه لرسوله صلى الله عليه وسلم النظر في آياته ومخاطبته تعالى بها (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَخِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٥) وهكذا كله آيات بينات وحكم بالغات

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وجلاء آحزاننا وذهاب همنا وغمنا ، برحمتك يا أرحم الرحمين

(١) سورة يس ، الآيات ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ (٢) سورة الطور ، الآيات ٣٥ ، ٣٦

(٣) سورة النشأة ، الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ (٤) سورة فاطر ، الآيات ٢٧ ، ٢٨

(٥) سورة آ ، عمران ، الآية ٢٧

تفسير سورة الماعون (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ
وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . قَوْلًا لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) هي مكية ، وقد
نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وقيل في غيره ومعنى الآية
هل عرفت الذي يكذب بيوم الجزاء والحساب ؟ فإن لم تعرفه (فذلك
الذي يدع اليتيم)

وانظ (أَرَأَيْتَ) إستفهام والمراد به المبالغة في التعجب من حال
هذا المكذب بالدين وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل
هو خطاب لكل أحد ، والمعنى أَرَأَيْتَ الإنسان أو يأيها العاقل هذا
الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ؟ (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)
أى يقهره ويدفعه عن حقه والدع الدفع بعنف وجفوة والمعنى
أنه يدفعه عن حقه وماله بالظلم ، وقيل بترك المواساة له وإن لم تكن
المواساة واجبة وقيل يزجره ويضربه ويستخف به وقرئ يدعو
بالتخفيف أى يدعو له ليستخدمه قهرا

(وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) : أى لا يطعمه ولا يأمر
بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ، وهذا غاية البخل لأنه يبخل بماله
وبمال غيره فلا يأمر غيره بالإطعام

قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) يعنى المنافقين ، ثم نعتهم فقال ،
تعالى (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) روى البغوى بسنده
عن سعد قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم
عن صلاتهم ساهون ، فقال المراد بذلك إضاعة الوقت

وقال ابن عباس هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن
الناس ويصلون فى العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى : (الَّذِينَ
هُمْ يِرَاءُونَ) وقال تعالى فى وصف المنافقين : (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)^(١)

وقيل ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل .

وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً
إن تركوا

وقيل هم الذين إن صلوها صلوها رياءً ، وإن فاتتهم لم يندموا عليها .

وقيل هم الذين لا يصلونها لوقتها ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .

وقيل لما قال تعالى : (عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) بلفظة (عن) ،

علم أنها فى المنافقين ، والمؤمن قد يسهو فى صلاته ، والفرق بين
السهوين أن سهو المنافق ألا يتذكرها ويكون فارغاً عنها والمؤمن إذا
سهو فى صلاته تداركه فى الحال وجبره بسجود السهو

وقيل السهو عن الصلاة هو أن يبتى نامياً لذكر الله فى جميع

أجزاء الصلاة ، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذى يعتقد أنه لافائدة

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٢

في الصلاة ، فأما المؤمن الذي يعتقد فائدة صلاته وأنها عليه واجبة ويرجو الثواب على فعلها ويخاف العقاب على تركها فقد يحصل له سهو في الصلاة ، يعني أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة بسبب وارد عليه بوسوسة الشيطان أو بسبب حديث النفس وذلك لا يكاد يخلو منه أحد ، فثبت بهذا الفرق أن السهو عن الصلاة من صفات المنافق والسهو في الصلاة من صفات المؤمن

(اللَّيِّنَ هُمْ يُرَاءُونَ) يعني يتركون الصلاة في السر ويصلونها في العلانية والفرق بين المنافق والمرائي أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدين والصلاح أما من يظهر التواضع ليقترى به ويأمن على نفسه الرياء فلا بأس به

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) روى عن علي أنه قال هي الزكاة ، وهو قول []

ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فلهذا على ترك الصلاة ومنع الزكاة [] []

وقال ابن مسعود الماعون القأس والدلو والتقدر وأشباه ذلك

وهي رواية عن ابن عباس [] []

وقال مجاهد الماعون العارية وقال عكرمة الماعون أعلاه

الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع

وقال محمد بن كعب القرظي الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم وقيل الماعون الماء والملح والنار ويلتحق بذلك البئر والتنور في البيت ، فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيمة : فإن البخل بها في نهاية القبح قال العلماء : ويستحب أن يستنكر الرجل في بيته ما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم بهذه الأشياء ولا يقتصر على الواجب والله أعلم

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (١)

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

يَمْدَحُ اللَّهُ تَعَالَى شَهْرَ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَا نَهَ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ لِانْتِزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَتْ الْكَلْبُ الْإِلَهِيَّةُ تَنْزِلُ فِيهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ ، حَدَّثَنَا عِمْرَانُ أَبُو الْعَوَامِ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ وَائِلَةَ يَعْزِي ابْنَ الْأَسْقَعِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَنْزَلَتْ صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلَتْ التَّوْرَةَ لَسْتُ مَضِينٍ مِنْ رَمَضَانَ وَالْإِنْجِيلَ فِي ثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِي الْأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ)

وَقَدْ رَوَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ الزُّبَيْرَ أَنْزَلَ لِسْتَيْ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالْإِنْجِيلَ لثَمَانِي عَشْرَةَ ، وَالْباقِي كَمَا تَقَدَّمَ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ

(١) مجلة الأزهر - المجلد السادس عشر - الصفحة ٢٩٣ - السنة ١٣٦٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٥

وأما انصحف والتواراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة. وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، كما قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)^(١) وقال : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ)^(٢) ثم نزل بعده مفردا على حسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم . هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل الله القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين ليلة نجواب كلام الناس . وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة ، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه ، وذلك قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)^(٣)

أما قوله (هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) فهو مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه (وَبَيِّنَاتٍ) أى ودلائل وحججا بيينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ،

(٢) سورة الدخان ، الآية ٣

(١) سورة القدر ، الآية ١

(٣) سورة الفرقان ، الآيتان ٣٢ ، ٣٣

دالة على مجاء به من الهدى المذافي للضللال ، والرشد المذافي للغي ،
ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) هذا إيجاب حتم على من شهد
استهلال الشهر إن كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو
صحيح في بدنه أن يصوم لامحالة ونسخت هذه الآية الإباحة
المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدى ، وبإطعام مسكين
عن كل يوم كما في الآية المتقدمة .

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : معناه من
كان به مرض في بدنه بحيث يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان
على سفر فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من
الأيام ، ولهذا قال (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) أى إنما
يرخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر في حق المقيم الصحيح
تيسيراً عليكم ورحمة بكم

وها هنا مسائل تتعلق بهذه الآية ، إحداها أنه قد ذهب طائفة
من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه
فليس له الإفطار لعذر السفر والحالة هذه لقوله (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ
الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وإنما يباح الإفطار لمسافر استهلال الشهر وهو مسافر .

وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى عن
جماعة من الصحابة والتابعين . وفيما حكاه عنهم نظر ، فإنه قد ثبتت
السنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه خرج في شهر رمضان

لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبنا الصحيحين .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان فمنهم الصائم ومنهم المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام. بل الذي ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين.

عن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد حتى أن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبيد الله ابن رواحة .

الثالثة قالت طائفة منهم الشافعي أن الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- كما تقدم ، وقالت طائفة بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عن الصوم في السفر فقال « من أفطر فحسن ، ومن صام فلا جناح عليه » وقال في حديث آخر « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » . وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال ما هذا ؟

قالوا صائم فقال « ليس من البر الصيام في السفر » أخرجاه

في الصحيحين

الرابعة القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق ؟ فيه قولان أحدهما أنه يجب التتابع لأن القضاة يحكى الأداء والثاني لا يجب التتابع بل إن شاء تابع : وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل لأن التتابع إنما وجب في الشهر لظمورة أدائه في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والله أعلم

تفسير سورة الكوثر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَر . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

هى مكية على مذهب الجمهور. قوله عز وجل (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) الكوثر هرفى الجنة أعطاه الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - . وقيل الكوثر القرآن العظيم وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة وقيل هو كثرة أتباعه وأمته . وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس . وهو ظاهر بدخول كل ما ذكر فيه روى البخارى عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير إن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه .

والكوثر فوعل من الكثرة والعرب تسمى كل شىء كثير فى العد أو كثير القدر كوثرًا وبعضهم يقول الكوثر الفضائل الكثيرة التى فضل بها على جميع الخلق .

فكل ما جاء فى تفسير الكوثر قد أعطيه النبى - صلى الله عليه وسلم - ، أعطى النبوة والكتاب والعلم والحكمة والشفاعة ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع والإسلام وإظهاره على الأديان كلها ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوح فى زمنه وبعده إلى يوم القيامة

وأولى الأقاويل في الكوثر الذى عليه جمهور العلماء أنه نهر في الجنة ، عن أنس قال : بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بين أظهرنا إذ أغنى لإغفائة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال « أنزلت على آتفا سورة الكوثر » ثم قرأها ، قال أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتي ، فيقول ما تدري ما أحدث بعدك .

وللبخارى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لما عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فإذا طينته أو طينته مسك أزفر

عن أنس - رضى الله عنه - قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما الكوثر ؟ قال نهر أعطانيه الله ، يعنى في الجنة ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجوز ، قال عمر إن هذه لناعمة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكلتها أنعم منها . أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضاً من الثلج أخرجه الترمذى وقال ، حديث حسن صحيح .

وأخرج البخارى عن عامر بن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنهما- قال : سألت عائشة عن قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) فقالت الكوثر نهر أعصيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « حوضى مسيرة شهر مائه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبداً » .

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) معناه أن ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمّر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يصلى له وينحّر له متقرباً إلى ربه بذلك وقيل معناه فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر وسكك وقيل معناه فصل الصلاة المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى ومعنى الآية قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرة من خير الدارين ، وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك ، فاعبد ربك الذى أعطاك هذا العطاء الجزيل والخير الكثير ، وأعزك وشرفك على كافة الخلق ورفع منزلتك فوقهم ، فصل له واشكره على إنعامه عليك ، وانحر البدن متقرباً إليه .

(إِنَّ شَانِئَكَ) يعنى عدوك ومبغضك (هُوَ الْأَبْتَرُ) يعنى هو

الأذل المنقطع دابره

نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وذلك أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- خارجا من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بي سهم وتحادثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتري ، يعني به النبي -صلى الله عليه وسلم- . وكان قد توفي ابن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من خديجة

وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال دعوه فإنه رجل أبتري لآعقب له فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ورد عليهم اشنع رد ، فقال : إن شأنك يا محمد هو الأبتري الضعيف الوحيد الحقيقير ، وأنت الأعز الأشرف الأعظم . والله أعلم .

تفسير سورة الكافرون (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
أَنَا عَابِدٌ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ) .

تسمى المشتمشة أى المبرئة من الشرك والنفاق ، وتسمى أيضاً
سورة العبادة ، وكذا تسمى سورة الإخلاص . وهى عند ابن عباس
والجمهور مكية ، وآيها ست بلا خلاف ، وفيها إعلان ما فهم مما
قبلها فى قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ،
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) ويكفى ذلك فى المناسبة بينهما

أخرج أبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً « ألا أدلكم
على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تعالى؟ تقرأون (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)
عند منامكم وروى الديلمى قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« المنافق لا يصلى الضحى ولا يقرأ قل يا أيها الكافرون » ويسن
قراءتها مع سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فى ركعتى سنة الفجر التى هى
عند الأكثرين أفضل السنن الرواتب ، وكذا فى الركعتين بعد المغرب .
وعند المالكية يقتصر على قراءة الفاتحة فى سنة الفجر . وهذه السورة
تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه وتعالى ، فصارت بهذا الاعتبار
ربع القرآن .

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) : قال أجلة المفسرين ؛ المراد بهم كفره

من قريش مخصوصون قد علم الله أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبداً
أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن سعيد مولى
أبي البحتري قال لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود
ابن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا
يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في
أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت
قد أخذت منه حظاً . فأنزل الله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) الخ

وفي رواية أن رهطاً من عتاة قريش قالوا له - صلى الله عليه وسلم - :
هلم فاتبع ديننا وتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال
عليه الصلاة والسلام معاذ الله أن أشرك به سبحانه غيري فقالوا
فاستلم بعض آلهتنا صدقك ونعبد إلهك . فنزلت . فغدا صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش فقام عليه الصلاة والسلام
على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا

ولعل نداهم (بيا) للمبالغة في طلب إقبالهم نثلاً ينفوتهم شيء مما يليق
إليهم ، وبالكافرون دون الذين كفروا لأن الكفر كان دينهم القديم ،
أو لأن الخطاب مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر فهو كاللزام لهم

وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديتهم ومكان بهنطة أيديهم
دليل على عدم اكتراثه صلى الله عليه وسلم بهم ، إذ المعنى قل يا محمد
للكافرين : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ

ما أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) يتراءى أن فيه تكراراً للتأكيد ، فالجملة الثالثة المنفية تؤكد للأولى على وجه أبلغ لاسمية المؤكد . والرابعة تؤكد للثانية ، وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفراء وقال إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عاداتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى ، والممتنع لا لا ، وعليه قوله تعالى « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »

وقول الشاعر

هـ - سألت جموع كذا دة يوم ولوا أين أيننا

وهو كثير نظماً ونثراً، وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقق أنهم باقون على الكفر أبداً هذا ، والمعنى لأفعل في المستقبل ما تطلبونه من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطالب من عبادة إلهي ، وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه ، وما عبدتم في وقت ما ما أنا على عبادته

ونفي عبادتهم في الحال أو الاستقبال معبوده عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإثراك المحيط لها رجعها هباءً منثوراً

إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام

(لَكُمْ دِينُكُمْ) هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) كما أن قوله تعالى (وَلِي دِينِ) عندهم تقرير لقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) والمعنى أن دينكم وهو

الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إلى
كما تطمعون فيه فلا تعلقوا آمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات ،
وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه
إلى الحصول لكم لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم ،
أو لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لألهتكم أو استلأى لها
والله أعلم

الجزء الرابع
الفتاوى

تعليم القرآن

جاءنا هذا السؤال من أحد تجار الفردقة

عندنا رجل كلما ذكر مجلسه تعليم القرآن يقول هذا الزمن ليس زمن القرآن وليس في تعليم القرآن فائدة ، وإنما الفائدة كلها في تعليم المدارس . وكلما اجتمع عن له ابن في المكتب الذي يعلم القرآن يقول له هذا خطأ منك لأن القرآن ليس فيه فائدة ، والاشتغال به تضييع زمن على الأولاد ، فنرجو أن تبينوا ماذا عليه شرعاً في النهي عن تعليم القرآن .

حسن مدنى احمد
التاجر بالفردقة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه هذا الرجل الذى ينهى عن تعليم القرآن ويذم من يتعلمه قد ارتكب إثماً عظيماً واقتترف ذنباً كبيراً هو من أكبر الكبائر ، وفي الوقت نفسه غاش للأمة غير ناصح لها حتى في دنياها ، فإن الأمة ما تدهورت هذا التدهور الأدبي والمادى إلا بالتفريط في دينها وتضييع العمل بكتابتها وسنة نبيها والقضاء عليه بسبب تلك التعاليم الإلحادية

وأما قوله : إن الفائدة كلها في المدارس . فقول باطل ورأى جاهل فإن الدين يغرس في قلبك الصدق في القول والعمل ، والاستقامة والإخلاص

ومراقبة الله عز وجل في كل شيء . وغير خاف عليك ما يترتب على ذلك من تقدم التجرة في تجارته ، والزراع في زراعته والصانع في صناعته ، وتعلم القرآن يحث على تعلم العلوم النافعة ، وعلى الأخذ بكل مفيد صالح من الصنائع والفنون فالدين هو أكسير الحياة الطيبة ومنبع القوة الروحية ، والبهجة النفسية

وقد قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً)^(١) . ولم يدع مفهوم ذلك من سوء الحياة ومرارة العيش لمن لم يكن كذلك ، بل صرح ، به في سورة أخرى فقال

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)^(٢) وأتى بن التي

هي من صيغ لعموم تنبيهاً على أنه لا سبيل إلى الراحة ، ولا وسيلة للسمعة غير الدين فإن السعادة الحقيقية ليست إلا في النفس ولا يصاح النفس وينقيها من أوضارها التي تشتمها وتتعبها غير الدين .

ولنستق لك بعض ما جاء في السنة مما يناسب هذا الموضوع

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْأَبَى لَيَسَّ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرَبِ » رواه الترمذى الحاكم وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » رواه الحاكم موقوفاً وقال رفعه بعضهم

(١) سورة النمل الآية ٩٧

(٢) سورة ص ، الآية ١٢٤

وعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال
 « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » رواه البخارى ومسلم وأبو داود
 والترمذى والنسائى وابن ماجه . وعن أبى أمامة الباهلى -رضى الله عنه-
 قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ
 يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ » الحديث رواه مسلم وعن سهل
 ابن معاذ عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « مَنْ قَرَأَ
 الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أَلِيسَ وَالِدَاهُ تَاجاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَوَّءَهُ أَحْسَنُ مِنْ صَوَّءِ
 الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِ » رواه أبو داود
 والحاكم . وعن عبد الله بن عمرو -رضى الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله
 عليه وسلم- قال : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُّبُوءَةَ بَيْنَ جَنَبَيْهِ ،
 غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ ، لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ
 وَجَدَ وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللَّهِ » رواه الحاكم وقال
 صحيح الإسناد

وعن أنس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
 « إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ، قَالُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال
 « أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم
 وعن أبى ذر -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
 « يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُو فَتُعَلِّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ
 مِائَةَ رُكْعَةٍ ، وَلَأَنْ تَغْدُو فَتُعَلِّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ عَمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ
 مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رُكْعَةٍ » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن

وعن علي - رضِيَ اللهُ عنه - قال أما إنني سمعت رسول الله - صلى اللهُ عليه وسلم - يقول : « أما إنها ستكُونُ فِتْنَةً ، قلت فما ألدَّخْرَجِ وَنَهْمَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال « كِتَابُ اللهِ تَعَالَى فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِ أَضْلُهُ اللهُ تَعَالَى ، وَهُوَ حَسْبُ اللهِ الْمَيِّينُ وَهُوَ لَذِكْرُ الْحَكِيمِ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَدْرَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْعَجَنُ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » (١)

مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . أخرجهُ الترمذی .

أَسْأَلُ اللهُ أَنْ هَدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَيَحْفَظْنَا مِنْ مَضَلَاتِ الْفِتَنِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

هل هم يشرب الدخان في مجالس القرآن

جاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي

نرجوا أن تفتونا في حكم شرب الدخان في مجالس القرآن على صفحات نور الإسلام) ولكم منا الشكر ومن الله جزيل الثواب .

محمد عبد الرحمن

مدرس بدمتهور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه أما بعد فقد سألت، عن حكم الدخان في مجالس القرآن ، ولنذكر قبل ذلك حكم الدخان في نفسه ثم نتبعه بما سألت عنه ، فنقول إن الدخان من الأشياء المستعملة التي لم تكن معروفة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا في عهد السلف الصالح والمتقدمين من الأئمة المجتهدين وآثارهم ، وإنما ظهر في آخر القرن العاشر الهجري كما نص عليه اللقاني في رسالة وضعها فيه

لهذا لم يكن لتناوله حكم منصوص في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما هو الشأن في كثير من الوقائع

المعروفة في عهد الوحى والتنزيل ، ولم يستنبط. الأئمة المجتهدون ولا المتقدمون من أدسحابهم حكمه من الكتاب والسنة كما هو شأنهم في تعريف أحكام الجزئيات التي عرضت مما لم ينص عليه لعدم وجوده إذ ذاك

وقد وقع للمتأخرين خلاف في حكم تناوله ، فمنهم من قال بحله ومنهم من قال بحرمته والحق في ذلك أنه لا ينبغي إطلاق القول بالحل والحرمه فإن الحكم بأحد الأمرين على الإطلاق لا يخلو عن إفراط. أو تفريط. ، فإذاً يجب النظر لحال شاربها وما يترتب على شربه ، فمن كان يضره شرب الدخان ويؤثر في صحته حرم عليه شربه للإجماع على تحريم ما يؤذى البدن ، فإن حفظ البدن من الكليات التي أجمعت الشرائع على وجوبه ومن لا يضره شربه ولكن يحتاج لثمنه في ضرورياته المعيشية سواءً أكان ذلك لنفسه أم لمن تجب عليه نفقته كزوجته وذوى قرابته حرم عليه شربه أيضاً ، وإن لم يكن هناك ضرر بدنى أو مالى فلا وجه للحرمه ويمكن الرجوع في تعرف الضرر البدنى إلى الأطباء ، وأما الضرر المالى فأمراً يعرفه الإنسان من نفسه

ومن الناس من يزعم أن شرب الدخان حرام على الإطلاق مستنداً في ذلك إلى كونه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، وهو في ذلك مخطئ ، فإن البدعة المنهى عنها شرعاً هي الأمر المحدث الذى لم يشهد بجواز. أصل من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس ، إلى آخر ما قرره العلماء ، وكيف يسوغ القول بأن كل محدث محرم ، وكثير من الملابس والأزياء وغيرها لم يكن معروفاً في عهد النبي - صلى الله عليه

وسلم—ولا في عهد الصحابة والتابعين ، ولا يصح الحكم عليه بالتحريم
لمجرد كونه محدثاً

هذا حكم الدخان في ذاته

أما شربه في مجالس القرآن فهو حرام ، فإن المطلوب شرعاً من
حاضري مجلس القرآن الإصغاء إليه والتدبر لمعانيه ، قال تعالى
(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(١)
وقال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)^(٢) . ومعلوم أن زيادة الإيمان بسماع ما يتلى
من القرآن إنما يكون بالإصغاء إليه والتدبر لمعانيه . ولا يتم مع التلهي
بشرب الدخان .

على أنك تعرف ما في شربه من الإخلال بالتوقير والإجلال ، وهو
لا يشرب في حضرة الأمراء والعظماء إجلالاً لهم فكتاب الله أحق
بالإجلال والتوقير ، مع ما في شربه من الإيذاء لغير من يشربه من
الحاضرين ، فإن له رائحة كريهة يتضرر بها من لم يتعود شربه نظير
ما قالوه في حرمة حضور المجمع والمجالس لمن أكل ثوماً أو بصلاً ولم يجد
ما يزيل به رائحته ، حتى أباحوا له التخلف عن الجمعة نظراً لما يترتب
على ذلك من تأذى الناس وضررهم ، فضلاً عن تأذى الملائكة الذين
يحضرون مجالس الخير التي من أفضلها مجالس القرآن

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢

والخلاصة أن شرب الدخان في مجلس القرآن محرم للإيذاء ومناف
للأدب المطلوب من الحاضرين والتدبير لسماع الذكر الحكيم

وأما شرب، في غير ذلك فقد يكون محرماً وقد لا يكون ، إلا أنه
لا يصل إلى الإباحة الصرفة على ما يقول بعضهم ، فتركه حينئذ من
الذرع وقد قال صلى الله عليه وسلم « دَعَّ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ »

حكم شرب الدخان في المساجد

وجاءنا من حضرة السائل ما نصه

س أفيدونا على صفحات مجلة الأزهر (نور الإسلام) عن حكم شرب الدخان في المساجد زادكم الله علماً. والسلام عليكم ورحمة الله
حسن عمران
العلاقة شرقية

الجواب

ج صرح علماء المالكية بأن أكل البصل والثوم ونحوهما في المسجد حرام ، وكذا دخول آكلهما ، حتى جعلوا من أسباب التخلف عن صلاة الجمعة أن يأكل شيئاً من ذلك ولا يجد ما يزيله ، وسر ذلك عندهم هو تأذى الناس المجتمعين للجمعة ، وكذلك الملائكة الذين يحضرون مشاهد الخير مع المؤمنين فإن ثبت أن للدخان رائحة كريهة يتضرر منها الناس والملائكة على نحو ما ذكرنا كان شربه في المسجد حراماً كأكل البصل والثوم

ونرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيها الأنظار ، وإذا رجحنا فيها شيئاً

فإننا نكتب عن رأينا وعن رأى فريق من علمائنا ، والخير كله في التوسط والاعتدال ، والشر كله في الإفراط والتفريط ، وكثيراً ما نلاحظ في المسائل ما يترتب عليها ، وما عسى أن تنجر إليه .

ولنقتصر اليوم على هذا . وموعداً في بقية المسائل العدد المقبل إن شاء الله .

حديث: لا يبيع حاضر لباد

ورد إلى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي

جاء في مجلة (الأزهر) في (العدد الخامس من المجلد الرابع)

صفحة ٢٤٥ في بعض فتاويكم في البيع بالزيادة الفاحشة حديث

استدلتم به ، وهو « لا يبيع حاضر لباد ، دَعُوا النَّاسَ فِي غَفَلَاتِهِمْ

يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » . ونريد أن نعرف من خرج هذا الحديث ،

وهل هو صحيح أم لا ؟ ثم إن الجملة الأولى في الحديث تفيد النهي

عن بيع الحاضر للباد ، والجملة التي تليها وهي « دَعُوا النَّاسَ فِي

غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » تفيد عدم النهي عن البيع .

[فظاهر الحديث يفيد التناقض وكذا يفيد عدم النصح للنامس

أبعضهم لبعض]

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع ، وإثبات أيهما أصح ،

وأيهما يوافق الشريعة الغراء . والسلام عليكم ورحمة الله

أحمد إبراهيم محمود

بقنا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

الحديث صحيح لا شك فيه ، وقد أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما كما ستعرف ، غير أن لفظه (في غفلاتهم) مدرجة من بعض الرواة ، وهو هكذا في كتب الفقه بهذا الإدراج ، والفقهاء كثيراً ما يكونوا يذكرونه مثل هذا الإدراج ، كثيراً ما يروون الحديث بالمعنى ، وهو جائز على الأصح عند المحذنين للعالم العارف بالمعنى المقصود

أما قولك إن فيه تناقضاً بين قوله « لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ » وقوله « دَعَا النَّاسُ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » فغير واضح ، لأن المعنى أن لحاضر العارف بأثمان السوق لا يكون سمساراً للبادي الذي يجهلها ، فلتدع من جاء من البادية يبيع باجتهاده ، ويأخذ منه المشتري باجتهده .

والبيع والشراء مبنيان على المغالبة والاجتهاد من كل من البائع والمشتري . فالجملة الثانية وهى قوله : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » مؤكدة لما يستفاد من الأولى وهى قوله لا يبيع حاضر لباد « لا تناقض: لها كما تقول .

وأما قولك إن فى ذلك عدم النصح فغير واضح أيضاً ، لأننا لم نعمل عملاً يسمى شئاً ، ولا قلنا قولاً يخالف الحنيفة أو يعد كذباً ، وليس فى المسألة إلا ترك البائع يبيع كما يشاء ، والمشتري يشتري كما يشاء . وسنة البيع والشراء مبنية على أن الصفقة تكون رابحة للمشتري مرة وللبيع أخرى ، ولا شئ فى ذلك ما لم يوجد غش

أو كذب أو تلبيس ، وكل ذلك منقذ في موضوعنا هذا وأظن أن الأمر صار واضحاً لا شبهة فيه .

أما الحديث المذكور فهو صحيح ، رواد كثير من المحدثين تارة باللفظ وتارة بالمعنى

فعن جابر رضى الله عنه قال « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَيَادٍ ، وَدَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُوا اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ »
أخرجه مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، والترمذى في جامعه ،
والنسائى في صحيحه هـ

وفي أخرى للبخارى ومسلم وأبي داود والنسائى عن أنس « نَهَى عَنْ بَيْعِ حَاضِرٍ لِبَيَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ » . وفي أخرى لأبي داود والنسائى « وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ أَوْ أَبَاهُ » ، إلى غير ذلك ، والله أعلم هـ

الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ «سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» بعد المغرب

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقيع هذا السؤال :

مولاي كثير من الناس يصلي على النبي بعد السلام من صلاة المغرب بصيغة « اللهم صل عليه » مائة مرة ، فهذا جعلني غير مستريح خاطر من جهة هذه الصلاة ، فلذا اضطررت للكتابة إلى فضيلتكم في هذا الصدد . راجياً التكرم بالرد على صفحات (مجلة الأزهر) حتى يتميز الحق من الباطل وأبتهل إلى الله تعالى بالدعاء أن يعلى شأنكم ويطيل عمركم

وتفضلوا بقبول فائق احترامي .

عبد المجيد أبو بكر عزت

مدرس بمدرسة الحوطا القربية الالزامية

الجواب

الاستغفار والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - والدعاء عقب كل صلاة مفروضة مندوب مرغّب فيه . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما « أَنَّ رَفَعَ الْعَسْوَتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) » ولا فرق بين كون ذلك من واحد أو من جماعة ، غير أن رفع الصوت إذا أدى إلى التشويش على المتلبسين بعبادة أخرى من صلاة أو تفكير ونحو ذلك منع ، لعارض التشويش ، وعليك بالاعتدال ، وإياك والإفراط في كل ما تأتى وتذر

وأما الصبيغة التي يصلى بها على النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو مخير فيها وكذلك العدد الذي يشاؤه ، وكلما أكثر ازداد من الخير غير أنه يطلب منه ألا يقتصر على الصلاة ، بل يضم إليها السلام ، ويذكر الآل أيضًا ، فهذا هو الأكمل والأفضل وربما أفضنا في بيان فضل الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - في فرصة أخرى إن شاء الله

الرضاع

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى

يوجد ببنده الحامولى التابعة لمركز أيشواى بمديرية الفيوم رجل عالم تلقى العلم بمعهد طنطا من زمن ، يفتى لأهل بلده وضواحيها بأن الداية التى توند النساء وترضع البنين والبنات بمجرد وضع الحمل لمدة يومين وثلاثة حتى ينزل اللبن بثدى المرأة التى وضعت حملها لا يحرم زواج بعضهم لبعض وكذا الغزيرة التى ترضع أطفال البلد الذكور والإناث ، إنهن كمنفعة عامة ، فهن لا يحرمن أحداً على أحد ومثلهن المستأجرة التى ترضع ابن هذا وبنت ذلك . ثم قال : إن الجارة إذا أرضعت ولاد الغير لا يحرم بعضهم على بعض ، والحرمة لا تكون إلا للمرضعة نفسها ولأصولها وفروعها فقط ، لمن أرضعته ، سواء أكانت غزيرة أو داية أو جارة أو مستأجرة

فألتمس من مكارم فضيلتكم الإجابة الشافية عن هذا الموضوع ، جعلكم الله نوراً وهدى للناس فى الدارين .

الفضيلى ابراهيم عوض

رئيس مدرسة الحامولى الانزامية - فيوم

الجواب

كل من أرضعتهم القابلة من أطفال النساء بعد الولادة يصيرون إخوة من الرضاع لا يجوز بعضهم لبعض . وكذلك جميع من أرضعته المرأة المستأجرة من أولاد الناس يصيرون إخوة بالرضاع لا يجوز

فنكاح الذكر منهم للأُنثى : وأيضاً جميع من أرضعته المرأة المغنية المشهورة بالغزبية من أطفال الناس عند جوبها البلاد إخوة من الرضاع لا يجوز نكاح بعضهم لبعض :

قال الله تعالى في بيان المحرمات : (وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ)^(١)

وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقد حكى بعضهم الإجماع على أن الرضاع^٢ يحرم كالنسب إلا في مسائل ليست هذه منها

(١) سورة النساء ، الآية ٢٢

النشوق في رمضان - الزنى

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤالان الآتيان

قال السائل^١ بعد^٢ الديباجة

١ - هل للنشوق مباح في رمضان أم لا ؟ أرجو شرح حكمه بالبيان

الشافى

٢ - زنى رجل بامرأة فهل يجوز له أن يتزوج ابنتها ؟ أرجو أن تفتونا في ذلك بحكم الشرع الشريف حتى يتبين الرشد من الغي جزاكم الله عنا خير أجزاء .

محمد محمد عمر شاهين

مدرس بمدرسة بركة الرطلى الانزامية

الجواب

١ - يمنع النشوق وشرب^٣ الدخان . ومتى وصل النشوق أو الدخان للحلق أدى إلى الفطر ووجب القضاء ويكره مضغ شيء كاللادن أو التمر بمضغ لإطعام صبي مثلا ، فإن تحلل منه شيء ووصل إلى الحلق أفطر الصائم ووجب^٤ عليه القضاء ، وإلا فلا [١]

٢ - الأرجح من مذهب مالك أن من زنى بامرأة جاز له أن يتزوج ابنتها التي لم تتخلق من مائه ، لأن^٥ الزنى لاقيمة له في نظر الشارع في مثل هذا ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلا ينشر الحرمة والمقابل يقول بالتحريم . أما بنت الزنى التي تحلقت من مائه فلا يجوز له التزوج بها ، خلافاً للشافعية ، ويوافقهم ابن الماجشون من المالكية

وقد قال في أقرب المسالك «ولا يحرم الزنى على الأرجح»
قال الشارح «فمن زنى بامرأة جاز له أن يتزوج بأصولها وفروعها ،
وجازت هي لأصوله وفروعه» وقال في الرسالة «ولا يحرم بالزنى
حلال» .

وقال في متن الدردير أيضا «وحرم الأصل والفرع وإن من زنى» .
أى يحرم على الشخص نكاح أصله كأمه وجدته، كما يحرم عليه
نكاح فرعه سواء أنشأ عن نكاح أم عن سفاح كالبنات التي
تخلقت من مائه ، والله أعلم

الصَّلَاةُ خَلْفَ الْمُخَالَفِ

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقييع دياربئي

١ - رجل مالكي المذهب صلى الظهر خلف إمام شافعي ، وبعد تمامها أعاد الامام صلاته مع جماعته أخرى ، فهل صلاة المالكي صحيحة أم لا ؟

٢ - رجل مالكي المذهب صلى إماما شافعية ، وبعد الصلاة أعادوا صلاتهم خلف غيره ، فماذا يكون الحكم هل صلاته صحيحة أم لا ؟

زيدان سعد راغب الطحاوي

الجواب

صلاة المالكي في الصورتين صحيحة أما في الأولى فلائها فرض خلف فرض ، وإعادة الشافعي لها لا يودى إلى كون صلاته الأولى وقعت نافلة حتى تبطل صلاة المالكي خلفه . فهذا هو الذي ينبغي التعويل عليه ولا يلتفت لخلافه

وأما في الثانية فلأن الإمام المالكي أدى صلاته مستوفية لشروطها وأركانها ، فلا يؤثر فيها إعادة المأموم الشافعي بعد الفراغ ولو تكررت مرارا ، والله أعلم

الأيمان غير المعتبرة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي

إمام مسجد تفوه بالألفاظ. تجعله في عداد الفقراء غير الصابرين ،
فسمع هذا القول رجل يحقده على الإمام فقال : « أكون على غير دين
الإسلام إن صليت خلف هذا الإمام » ومن هذا اليوم ترك الصلاة
خلف الإمام حتى فريضة الجمعة ، فهل يعتبر ذلك يمينا يجب التكفير
عنه؟ أرجو الإيضاح ولفضياتكم أجمل الشكر

استبان ابراهيم منصور مساعد

الجواب

من قال هو يهودى أو نصرانى إن فعل كذا ، لا يلزمه غير
الاستغفار ولو فعل المحلوف عليه قال الشيخ. العدوى في حاشية
أبى الحسن بعد كلام: « ولو قال إن فعل كذا يكون مرتدا أو على غير ملة
الإسلام فكذلك » يريد لاشيء عليه غير الاستغفار ، لأن هذه الألفاظ
لا تعتمد بها يمين . واليمين إنما تكون بالحلف بالله أو صفة من أضافته ،
والله أعلم

يوسف الدجوى المالكي .

الكراء

وورد من حضرة صاحب التوقيع سؤال قال فيه بعد الديباجة

إن إنسانا اكترى حانوتا من آخر بخمسة وسبعين فرنكا في

كل شهر ، فإذا انقضى الشهر أعطى صاحب الحانوت ما ذكر

ولا زال على ذلك مدة تتفق عن سنتين ، ثم إن المكري قال للمكترى :

عجل لي كراء ثلاثة أشهر وأكرها لك بستين فرنكا وعقدة الكراء

الأول لازالت على حالها بحيث إذا تمت الثلاثة الأشهر رجعا للكراء

الأول ، وهو خمسة وسبعون فرنكا . فهل هذه المسألة تجوز أم لا تجوز ؟

فذهب الفقير وهو كاتب الحروف لفضيلتكم إلى الجواز ، لأن

مسألة ضع وتعجل المنصوص عليها بالمنع عند الفقهاء لا تجيء منا لعدم

الدين بالكلية في ذمة المكترى .

وذهب الغير من حذاق بلدنا إلى المنع متمسكا بتلك القاعدة ، لأنه

إذا انقضى الأجل يتعرض لمن نفسه لنفسه تلك الزيادة وهي خمسة عشر

فرنكا ، وقد قرروا أن من عجل ما أجل عد مسلفا ، فيكون سلفا جر

نفعا ، فقلت له إنما يظهر ذلك لو كان المكترى ذمته عامرة بالدين ،

وحيث أنه لا دين عليه بالكلية فأى شيء يضعه حتى يحكم على هذه

الصورة بالمنع ، وتكون حينئذ من مشمولات ضع وتعجل ؟ فصمم على

المنع

وأومن أجل هذا الاضطراب كتبت فضيلتكم قاصداً تبين ما هو

الحق في المسألة - : أهو الجواز أم المنع ؟

ابن فقرون أحمد بن الحاج القربى المالكي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد فيجوابنا عما سألت عنه هو أن صورة الحل التي لاشك فيها هي ألا يكون المكري والمكترى متمسكين بالعقد الأول ، ولا متفقين على ما فيه . ولهما بعد الأشهر الثلاثة أن يرجعا إليه إن شاء ، وأما ما دام الاتفاق بينهما على أن العقد الأول باى كما في نص السؤال ، فالحيلة واضحة ، ونقص الأجرة إنما هو للتعجيل . فإن العقد الأول لم ينفسخ ، وسيرجعان للحمل به بعد تلك المدة بناءً على ما بينهما من الاتفاق ، وهنا ظاهر جدا في أنه لم يبطل أثره ، وأن النقص إنما هو للتعجيل ، والعقد على ما هو عليه وقد يكون هذا في أثناء الشهر

والعمل على أن الشهر متى حل لزم الأجرة المكترى ، بل تسليم المفاتيح وتمكينه من الانتفاع يعد قبولا والتزاما لأجرة الشهر في العرف

وبهذا الاتفاق القولى أو العرفى الجارى مجرى المعاطاة في البيع صارت ذمته مشغولة بأجرة هذا الشهر على مقتضى العقد الأول ، فإذا عجل له ستين فرنكا عد مسلفا وقد انتفع بالخمسة عشر الباقية ، ولا مناص من ذلك في الشهر الأول الذى حصل فيه الاتفاق على النقص والتعجيل . على أن ذلك إن كان في آخر الشهر وقبل حلول الشهر الذى

يليه فلا يجدي أيضا ، لاتفاقهما على بقاء العقد الأول كما هو مصرح به في نص السؤال

هذا هو مقتضى قواعد مذهب مالك الذى مبناه على منع الحيل وسد الذرائع .

فالمخلص ألا يكون بينهما اتفاق أصلا ، وأن يخرجنا من الاتفاق الأول الذى كان فى العقد الأول إلى اتفاق جديد ساكتين عما وراء ذلك ولهما بعد انقضاء المدة أن يرجعا للعقد الأول إن شاءا أما الاتفاق على بقاء العقد كما هو صريح السؤال فلا ينبغى أن يفعله من يستبرىء لدينه وعرضه وملاك الدين الورع .

ولايسهل على وأنا مالكي عمرى أن أفتى بغير هذا ، والله يتولى هانئا جميعه، ممنه وكرمه .

القراءةُ على الأموات^(١) وكون الله في السماء

جاءنا خطاب مطول من الأستاذ محمود على أحمد المدرس بمدرسة المنتزه ، تكلم فيه عن التوسل وأنه يجب أن يكون قاصراً على الأعمال ، وعن القراءة للميت ويرى حضرته أنه لافائدة فيها للأموات ، وعن كون الله في السماء ويرى وجوب ذلك وأن القرآن يدل عليه وكذا السنة

وأما التوسل بالأعمال فهو مشروع ، به ورد الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخارى وغيره ، ولكن التوسل ليس مقصوداً على هذا وإنما هو نوع من أنواعه ، فإن سر التوسل أن تسأل الله عما أحب من الأعمال الصالحة أو غيرها كأن تسأله بصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، أو بمن أحب كأن تسأله بأنبيائه وأصفياؤه ولا وجه لقتصره على الأعمال كما يرى حضرته بل كل محبوب لله يصح التوسل به سواء كان عملاً أو غيره ، والنبي أشد حُباً لله من جميع مخلوقاته لا يوازيه في ذلك عمل ولا غير عمل وقد أوسعنا الكلام في ذلك بما يشمئذ ويكفى فارجع إليه إن شئت ولاداعى لأن نطيل بذكر كلام السائل في هذا
القراءة على الميت :

كتب السائل كثيراً نقتصر منه على المهم والكاتب يرى أن

القراءة بدعة لافائدة فيها للميت

(١) مجلة الأزهر - العدد الأول - المجلد الثاني - المحرم سنة ١٣٥٠

قال العلامة ابن عابدين في شفاء العليل : « وظهر في هذه السنة الإيضاء بدرهم تدفع لقراءة الصمدية » وتاريخ الفراغ من تأليف هذه الرسالة سنة ١٢٢٩ أى أنها بدعة منذ ١٢٠ سنة

وقال العلامة- الذوى في شرحه لصحيح مسلم « وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت فذهب الشافعى -رحمه الله- إلى أنها لاتلحق بالميت ، وقال الإمام البركذى في خطبة له « والصلاة والسلام على حبيبه الذى نهى أمته عن الأكل بالقرآن والدين » وقال الإمام الفيروزبادهى : « ولم يكن من عادة الملف أن يجتمعوا للميت ويقرءوا له القرآن الخ »

ثم قال المسائل مفرعا على ذلك « فكل ما لم يكن مشروعا منع التعبد به وهو مردود على صاحبه : وإذا كان كذلك فما وجه التعب فيما لافائدة فيه لميت ؟ ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن لم تشرع للأموات ، وسوء كانت القراءة بسورة (الإخلاص) أو غيرها من القرآن فلم تشرع البتة . وأما حديث « اقرءوا على موتاكم يس » فقد نقل عن الدارقصى أنه قال « هذا حديث مضطرب الإسناد مجهول المتن ولا يصح » ورافق على ذلك الإمام الرازى في شرحه للجامع الصغير . هذه عيون ما كتب المسائل فى موضوع القراءة .

ونحن نقول له

(أولا) إننا إذا كتبنا عن شىء سئلنا عنه فإنما نذكر ما نرجحه من آراء العلماء فى المسألة ، وليس معنى ذلك أنه لاخلاف فيها ، بل معناه

أن المختار هو ما ذكره ، وقلما تجد مسألة مما يسأل عنه السائلون لاختلاف فيها ولهذا ننصح لكل مشفق على دينه محتاط في أمره أن يكون أحد رجلين : إما باحثاً منقبا عن كل مقال العلماء غير مقتصر على بعض الآراء ، ولا مغتر بما يزينه كثير من أرباب الأهواء ، ويكون مع ذلك فيه أهلية المقارنة بين الأقوال ، والموازنة بين الأدلة ، قد جرد نفسه من النزعات الخفية قدر الاستطاعة بحيث يكون متهماً لنفسه غير مسارع للحكم بما يراه أول وهلة شأن أئمة الهدى وعلماء السلف الذين كانوا يحتاطون لدينهم ويخافون على أنفسهم ، وسيرتهم في ذلك معروفة مشهورة هذا أحد الرجلين

أما الرجل الثاني فهو رجل نظر لنفسه بالإنصاف فرآها قاصرة عن بلوغ ذلك المدى ، ورأى الأدلة متشعبة والأمر واسعاً يحتاج إلى فهم دقيق وعلم غزير يحيط بالأدلة وما يعارضها ، وبالعمومات وما يخصصها وبالمطلقات وما يقيدها ، وبالنصوص وما ينسخها ، وبالظواهر وما يقدم عليها ، وبالضعيف وما يرجح عليه ، إلى آخر ذلك البحر الزخار ، فعرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فاختر ما عليه السواد الأعظم من المسلمين ، ولم يشذ عنهم في قليل ولا كثير ، عالماً أن الذئب إنما يأخذ الشاة القاصية

ويكفي أن نستشهد في هذا الموضوع بأن الكاتب حفظه الله نظر في كتب أعرفها أنا ويعرفها هو فخرج منها بعقيدة أن الله في السماء ،

وسنفيض القول فيها ولنرجع إلى مناقشة الأستاذ في بعض ما قال فنقول

إن الذي نقله عن ابن عابدين إنما يفيد كون الإيضاء هو الذي حدث في السنة التي ذكرها للقراءة التي هي محل النزاع ثم ليسمح لنا أن نسائله لماذا لم ينقل عن الرسالة المذكورة إلا هذه العبارة ، وفيها كثير مما يؤيد رأينا من وصول القراءة للآموات ؟ ! وكذا عبارة صاحب القاموس لا تفيد غير أن الاجتماع للقراءة على نحو مخصوص بدعة ، وليس هذا محل النزاع على أن في « سفر السعادة » أشياء كثيرة أخذت عليه

أما عبارة البركوي فهي ناطقة بأن النهي إنما هو عن الأكل بالقرآن والدين . وأين هذا ما نحن فيه ؟ والعجب كل العجب بعد ذلك من نتيجتك التي استخلصتها من تلك النصوص حيث تقول فالقراءة على الآموات لم تشرع البتة وقد أغفلت آراء محترمة لعلماء محترمين من أئمة الهدى لم تقم لها وزنًا ، وليس هذا من شأن من خلا من العصبية وتجرد عن الأهواء ودع اللحن والهدى بنزاهة وإخلاص . ولا أدل على أن هناك شهوة خفية مما ذكرته حضرتك في حديث « اقرءوا يّس على موتاكم » عن الدارقطني ، وكان الواجب أن تذكر ما قاله غيره في الحديث أيضًا .

قال في (نيل الأوطار الجزء الرابع ص ٥٢) « اقرءوا يّس على موتاكم » أخرجه أبو داود وأحمد في مسنده والنسائي وابن حبان وصححه وقال أحمد في المسند حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان

أن المشيخة كانوا يقولون إذا قرأت - « يعني يس » - لميت خفف عنه بها . وأسنده صاحب مسند الفردوس ، وقال الطبرى في الحديث « إن المراد الميت الذى فارقت روحه . وحمله على المحتضر قول بلادليل » أو نقول : مجاز بلا قرينة ، وقد ذكر شراح الكنز فى مذهب الحنفية أن كل عمل صالح يصل ثوابه إلى الميت سواء كان قراءة أو غيرها فليُنظر حضرة الكاتب هذا مع ما استنبطه من عبارة ابن عابد بن الحنفى . وأما ما نقله عن الإمام النووى فى شرح مسلم فلا أجد عنه جراباً

أحسن من أن أنقل لك نصوص الشافعية أنفسهم

قال فى (شرح الروض فى كتاب الإجارة) فرسخ الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدره معلوماً جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن ويكون الميت كالحى الحاضر سواء أعقب القراءة بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا ، فتعود منفعة القراءة إلى الميت فى ذلك ، ولأن الدعاء يلحقه ، وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة ، ولأنه إذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به . فقول الشافعى

« إن القراءة لا تصل إليه » محمول على غير ذلك

بل قال السبكى تبعاً لابن الرفعة بعد حمله كلامهم على ما إذا نوى القارىء أن يكون ثواب قراءته للميت بغير دعاء على أن الذى دل عليه الخبر بالاستنباط . أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه ، إذ قد ثبت أن القارىء لما قصد بقراءته نفع المملوغ نفعته ، وأقر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « وما يدريك أنها رقية » وإذا نعت الحى بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات

بغير إذنه ما لا يقع عن الحي وفي (الرملى على المنهاج) فى باب
الوصايا أن الدعاء بوصول ثواب القراءة للميت مقبول قطعاً ، فإنه
إذا كان متميلاً بما لا حن فيه الداعى فكيف بما له فيه حق وعمل
أى فهو مقبول من باب أولى

وقال ابن الصلاح : وينبغى الجزم بنفع قوله : اللهم أوصل ثواب
ما قرأناه ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعى فماله أولى ، ويجرى
هذا فى سائر الأعمال

وقال الشبراملسى على الرملى إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا
عقبها بوصول ثوابها للميت أو قرأ عند قبره حصل له مثل ثواب
قراءته وحصل للقارىء أيضاً الثواب ، فإذا سقط ثواب القارىء لمسقط.
كأن غالب الباعث الدنيوى فينبغى ألا يسقط مثله بالنسبة للميت
فما إذا كانت القراءة بأجرة ، وينبغى أن تكفى نية القارىء الثواب
للميت ولو لم يدع ، واختار السبكى وابن حجر والرملى وغيرهم جواز
إهداء ثواب القراءة للنبي - صلى الله عليه وسلم - قياساً على الصلاة عليه .

نصوص المالكية :

قال فى الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل
السلف الصالح ، لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر
وجعل ثوابه للميت ، ويحصل له الأجر إن شاء الله ، وهو مذهب
الصالحين من أهل الكشف . وقال فى التوضيح فى باب الحج : والمذهب
أن القراءة لا تصل للميت ، حكاه القرافى فى قواعد والشيخ ابن حمزة

وفيهما ثلاثة أقوال : تصل مطلقاً ، لا تصل مطلقاً ، والثالث إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا .

وفي آخر نوازل ابن رشد في السؤال عن قوله تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)^(١) قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره وقال ابن هلال في نوازله الذي أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا بالأندلس أن الميت ينتفع بقراءة القرآن ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له وبه جرى عمل المسلمين شرقاً وغرباً ، ووقفوا على ذلك أوقافاً ، واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة

ومن اللطائف أن عز الدين بن عبد السلام الشافعي رثى في المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال هيهات ، وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن .

وفي الخطاب والخرشي أجازها ابن حبيب الخبير « اقرأوا يس على موتاكم » وهذا مقابل لقول مالك بعدم الوصول ، ولعل ذلك لم يصح عن مالك ، سلمنا صحته فتحمل الكراهة على فعله استثناءً . ونقل ابن الفرات في باب الحجج عن القرافي : الذي يتجه أنه يحصل لهم بركة القرآن كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم والقراءة للميت وإن حصل الخلاف فيها لا ينبغي إهمالها فلعل الحق

الوصول ، فان هذه الأمور مغيبة عنا وليس الخلاف في حكم شرعى إنما هو في أمر هل يقع كذلك ، وكذا عادة التهليل اليوم ، ويعتمد في ذلك على فضل الله تعالى

وقال في المدخل : من أراد ثواب وصول القراءة فلا نزاع ، فليجعل ذلك دعاءً بأن يقول اللهم أوصل ثواب ما أقرؤه إلى والدى مثلاً ، وفي مجموع الأمر ما يؤيد ذلك

هذه نصيرص العلماء سردناها عليك ، ووكلنا الحكم فيها إليك ، فكيف يحل مع هذه النصوص أن تقطع بعدم نفع الميت بالقراءة (البته) ؟

هذا ومعروف أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال مع أن في الباب غير الضعيف كما بيناه في كتابتنا الأولى ، وقد قلنا أن الضعيف إذا عمل به المسلمون التحق بالصحيح لأنه يصير كالمجمع عليه ، ولا فرق بين الإجماع القولى والإجماع العملى ، وقلنا أيضاً إن القياس يقتضيه ، وقد وردت الأحاديث التى لا شك فيها بوصول ثواب غيره من الصدقة والصلاة والصوم والحج ، فكيف التقطع بعد ذلك بأنه لا فائدة فيها للميت البته

إنى أحب من أهل الدين والعلم أن يعلموا أن من أدلة الدين شيئاً غير ما يتشبهشون به من النصوص التى جمدوا عليها يسمى القياس وهناك أنواع أخرى من الاستدلال عول عليها العلماء فى كثير من المسائل . ويهجنى فى هذا الموضوع قول من قال من المالكية لا ينبغى

ترك القراءة للأموات فإنه خلاف في الواقع المغيّب عنا ، فلعل الواقع الوصول . وغير خاف عليك بعد ذلك أن مماثل الفقه ظنية ، ولعلنا نحرم الميت من ثواب كثير بترك القراءة له . هذا ما نراه ولا نفقى بغيره ، ويكفى هذا في موضوع القراءة :

أما ما ذكر السائل من كون الله في السماء ، تلك العقيدة التي تصادم البراهين العقلية كل المصادمة فنرجئ الكلام فيه لعدد آخر فإن الكلام في ذلك طويل وجليل^(١)

(١) تقدم في (مقالات التوحيد والمقائد) ذلك ببسطة وتفصيل .

حكم ترجمة الخطبة بغير العربية بعد تلاوتها بالعربية

ورد إلى مجلة الأزهر السؤال الآتي

س : إن في بلدتنا بمبای التي هي من أشهر بلاد الهند مسجدا
جامعا هو أكبر المساجد فيها ، وهو مبني على طبقتين العليا والسفلى
ومقام الإمام إنما يكون في الدرجة التحتانية دائما ، وفي خارج بناء
الطبقتين بجانب الشرق عرصة واسعة وخمسة سطوح مختصة بالصلاة
وفي المسجد والفناء والأسطح سعة عظيمة تكفي لسبعة آلاف رجل
مع هذا في صلاة العيدين المسجد مع المواضع الملحقة المذكورة لا يسمع
كثرة المصلين بل يحتاج الأمر إلى مزيد الاعتناء والاهتمام لنحو
ثلاثة آلاف رجل على الشوارع العامة في الجنوب والشرق خارج المسجد
وأهل الدرجة العليا والدرجة السفلى من المسجد وأهل ملحقات
المسجد والمصلون بالشوارع كلهم يصلون في الفطر والأضحى خلف
إمام واحد شافعي يخطب بالعربية فقط. ويقعدون به ، فالمؤتمون وإن
كانوا في أماكن متعددة لكن الصلاة إنما تكون خلف إمام واحد

ولما كان لا يبلغ ما يقول الخطيب إلى آذانهم لأجل البعد فيما
بيتهم وبينه كانوا لعدم سماع خطبته لا يعتنون بها ، فكأنوا يرجعون
بعد صلاة العيدين بمجرد تمام الصلاة إلى بيوتهم ولا ينتظرون استماع
الخطبة ، لأجل هذا رأينا في السنة الماضية أن نُنصب في الدرجة

العليا وجميع الأماكن المذكورة حتى الشوارع رجالا آخرين غير الإمام يخطبون بالعربية ، وبعد تمام الخطبتين بالعربية يترجمون لهم بالأردو (لسان الهند) فهل تعيين هؤلاء الرجال للاستماع ، والترجمة بعد الخطبة العربية على النهج المذكور لتعليم الأحكام يجوز في مذهب الإمام الشافعي أم لا ؟ وهل يجوز للخطيب يوم الجمعة أن يخطب بالعربي ثم يترجمها بالأردو قبل الصلاة أم لا ؟ وأنا المفتقر الى الله تعالى .

عبد القادر لهلهي

الناظر للمسجد المذكور وواقفه

الجواب

يشترط لصحة صلاة الجماعة شروط : منها أن لا يتقدم المأموم على الإمام ، ومنها أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام كانتقاله من القيام إلى الركوع ومن الركوع إلى الاعتدال ومن الاعتدال إلى السجود وغير ذلك ، حتى يتمكن من متابعته فيما يفعل ، فحتى علم بانتقالات الإمام ولو بسماع صوت مبلغ وتابعه صحت الصلاة وانعقدت جماعة ولا يضر كون المأموم مرتفعاً عن الإمام أو عكسه في مذهب الشافعية فإن ذلك مكروه فقط. إلا عند الضرورة وهي موجودة عندكم ، فالكرهية منتزعة أيضاً والله الحمد ، فلو صلى الإمام بالمسجد والمأموم بسطحه أو كان المسجد طبقتين والإمام بالطبقة السفلى والمأموم بالعليا كما هو في مسجدكم صحت الصلاة .

وكل ماتقدم شرط في صحة صلاة الجماعة سواء كانت الصلاة فرضاً

أو نفلاً طلبت فيه الجماعة كصلاة العيد والتراويح

هذا أما ما سألتكم عنه من إقامة رجال يترجمون الخطبة بالأردو للحاضرين من المصلين ، فجوابه أنه جائز في الفطر والأضحى ، سواء كان المترجم واحداً أو متعدداً ، وسواء كان مرة واحدة أو مرارا كثيرة ، فكل ذلك جائز لاشئ فيه ، وليعلم أن سماع الخطبة في العيدين ليس واجبا وإنما هو سنة

أما خطبة الجمعة فيجب أن تكون باللغة العربية في المشهور من مذهب الشافعية ، ويجب أن يسمعها أربعون من أهل الجهة وإن لم يعوفوا لغة الخطيب أو لم يفهموا معنى الخطبة ، فإنه لا يشترط فهم معناها ، فإن شئتم اقتصرتم على إلقائها بالعربية ، ولا يضر سماع غير الأربعة ، وإن شئتم ترجمتها للمصلين بلفتهم فافعلوا ذلك بعد الصلاة لا قبلها ، محافظة على الموااة بين الخطبة والصلاة فليتنبه لذلك ، وأنتم وما تريدون بعد الصلاة ، فلكم إن شئتم تجعلوها خطبة بالأردو ، ولكم أن تجعلوها درسا واحداً أو متعددا

ولا أدري لماذا يعيدها المعيدون بالعربية ثم يترجمونها على

ما يقول السائل

والخلاصة أنكم إذا اقتصرتم على الخطبة العربية صح وإن لم يسمعها جميع الحاضرين أو لم يفهموها ، فإنه لا يشترط سماع الجميع ولا فهمهم للخطبة ، وأما بعد الصلاة فلإمام أن يترجمها وكذلك لغيره منفردا أو متعددا ، وإن علمتم دروساً بعد الصلاة تلتق في نواحي المسجد وما اتصل به يبين فيها موضوع الخطبة أو غيره كان ذلك حسناً ومفيداً . والله يتولى هدى الجميع

الشريعة تمنع السعادة

سر معي على ما أحب عسى أن تجد ما تحب ، وإياك والرعونة
فطلما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق ، فحرك
معي الفكر أيديك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع في مرآة
قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان

وإذا غلب عليك الإنصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه
وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعا ، والإنسان
كما تعلم مركب من جزء علوي سماوي وجزء مادي أرضي ، وإنك
لا تسعى وراء مطالب الأبدان وما تحتاج إليه إلا من حيث إنك حيوان
لا من حيث إنك إنسان وتعلم أن كل حيوان يطلب الطعام
والمشرب وما يقيه من الحر والبرد إلى غير ذلك ، وأنه لا قيمة لما
يشاركك فيه الحيوانات وإن كنت في طلبه أوسع تدبيراً وأتقن
أصنعاً وأعظم تفنناً ، واستحققت بذلك أن تكون سيد الحيوانات

ولكن الوصف الذي صيرك إنساناً وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت
نفساً شريفة تشا كل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله
تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ، ويمكنك أن تترقى في الكمالات
دائماً وتنخرط في سلك العالم الأعلى الذي لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص

وأن تفارق عالم الحيوان الذى تؤذيك فيه البعوضة ويسقمك فيه
الحر والبرد ، وتزعجك الأحلام وتخيفك الأوهام

وبمقتضى ذلك الجزء الروحانى الذى ليس له حد محدود فى الترقى
فى الكمالات « وعلى قدرها تكون اللذة والنعم » كانت هذه الحياة
الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك فكان لك
بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفذ حتى يتأنى لك فيها أن
تأخذ كل ما ينتضيه استعدادك وتوجيه حقيقة ذاتك مما لم يخلق له
الحيوان ولا يمكنه أن يصل إليه . ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات
أضعف منك حالا وأنعم منك بالا ، ولكان إيجادك على هذا الوجه من السفه
ممكن : تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)^(١)

إن لذة هذا الجزء الروحانى إنما هى بالعلوم والمعارف والأنوار
والأسرار : وإنه قد يصل إلى حد تنفعل عنه الأشياء كلها ويكون
فى نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش^(٢) وقد جاءت الشريعة تعالجك
من الأمراض التى أحاطت بك ، وتحاول أن توصلك إلى هذا الحد
وتظهر فيك خصمة الإنسانية

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) قد ورد تشويش والتهويش جميعاً ، خلافاً للحريرى الذى جعل التشويش لغناً ..

ولا تعجل على - يرحمك الله - فإنني معترف معك بأنّها جاءت
تبحث على مصالح الأبدان وسماعاتها أيضا ، فإذا قد جاءت الشريعة
بسعادة الأبدان والأرواح ، وإن شئت فقل بسعادة الدنيا والاخرة
فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل إلى قلبك من الأنوار وتذكرك
عن العظمة الإلهية ماتوفى به قسط الروح ومايجلو مرآة القلب مما
تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صداد . وما تنتفع به في مصالح
الأبدان أيضا ، فإنه إذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه الحق حقا والباطل
باطلا ، وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد والحسد والطمع
والشره وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد وسلامة الصدر
إلى آخر الفضائل والبرذائل ، وتقوى عقلك بذلك المدد النوراني ،
فاجتنبت مايشينك وتحليت بما يزينك فصاب عيشك وتم سرورك

وإلا حتمت عليك الكرامة وأحاطت بك الشدة ، ولم تنفعك أموالك
ولا أولادك ، متى كنت فيها على غير تأييد إلهي ونور رباني (فَلَا
تُعْجِزُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا)^(١) فيضيع منك
طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)^(٢) بصورك الله في أمرك
وهداك إلى رشدك ، ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم : بمنه
وكرمه

(٢) سورة صه ، الآية ١٢٤

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٥

(١) حكم الانتفاع بالمرهون من أرض وغيرها

جاءنا هذا لخطاب من صاحب الإمضاء
سيدي المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف
الدجوى

تحية وسلاماً ، وبعد ، فهأنذا أكتب إليكم اليوم متطلعاً لذلك
القبس الذى بددتم به ظلام الباطل ، فطالما أتيتم بحججكم الباهرة على
أضاليل المغررين ، وأظهرتم الحق واضحاً جلياً لذى عينين ومن كان
له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

أريد أن أسطلع رأى فضيلتكم فى نوع من المعاملات جرى التعامل
به بين الناس واشتهر أمره فيما بين الخاص والعام ، ذلك النوع من
المعاملة هو أن يعطى شخص شخصاً آخر مائة جنيه مثلاً ، فى نظير أن
يحبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ، ويكون للمرتهن بمجرد العقد
أن يتصرف فى الرهن كيف شاء ، فإما أن يؤجرها إلى الراهن ويضم
قيمة الإيجار إلى المبلغ الأسمى ، وبذلك تزداد المائة باطراد كل سنة ،
وإما أن يؤجرها إلى غير الراهن ويأخذ قيمة الإيجار لنفسه بدون أن
يخصمها من أصل المبلغ ، وإما أن يزرعها هو ويأخذ الزرع من غير أن
يكون للراهن أى نصيب فيه ، وفى جميع الحالات تبقى الأرض تحت
يده على سبيل الرهن ، فهل هذا يجوز ؟

أرجو أن تجيبوا عن هذا السؤال على صفحات مجلة نور الإسلام
إحترافاً للحق ولكم جزيل الأجر وخالص الشكر

ع . ح بالبريجات

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
وبعد فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على تحريم الربا
بسائر أقسامه ، واتفق العلماء من السلف والخلف على أن منها ربا
بالقرض ، وقد اشتهر في ذلك قولهم « كُلُّ قَرْضٍ جَرٌّ نَفْعًا فَهُوَ رِبَا »
بحيث صار كالضروري بين أهل العلم ،

وهذا النوع من المعاملة الوارد بالسؤال وهو أن يعطى شخص شخصاً
آخر مائة جنيه مثلاً في نظير أن يحبس قطعة من الأرض على سبيل
الرهن ويكون للمرتهن بمجرد العقد الانتفاع بالرهون بوجه من الوجوه
التي ذكرها حضرة السائل فيه ربا القرض من غير شك

ومما يوضح ذلك أن شرط الانتفاع بالرهون شرط باطل ينافي
مقتضى القرض ، إذ هو تمليك مال على أن يرد مثله فقط ابتغاء الثواب
الأخروي طلباً لرضا الله تعالى ، وينافي أيضاً بمقتضى الرهن ، إذ هو
شراً جعل عين متمولة تحت يد الدائن بدينه يستوفى منها عند تعذر
الوفاء ، وإذاً فلا سبيل لحل انتفاع المقرض المرتهن بالرهون فهو حرام
لمكان الزيادة التي لا حق له فيها

والربا في الأصل الزيادة وقد تقرّر بالانفاق التحريم لكل قرض
اشترط فيه أن تكون منفعة المرهون للمقرض مطلقاً من غير تفصيل ،
إلا ما يذكر عن الشافعية من أن محل التحريم وقوع الشرط الباطل
في صلب العقد ، ولكن من المقرر عندهم أيضاً أن المجلس حريم العقد
فله حكمه ، فإن تواطأ المتعاقدان على ذلك قبل العقد ، فلا حرمة ،
على ما يراه كثير منهم ، لكن قال محققون منهم أيضاً : هذا من حيث
المظاهر ، وأما من حيث الباطن فحرام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا
لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ . » .

هذا وقول الحنفية نداء المرهون يتبعه ، ليس معناه أن المرتهن
يستحقه ملكاً كما قد يتوهم بعض الناس ، بل المعنى أن الناء يكون
مرهوناً كالأصل ، فالدائن المرتهن لا يستحق شيئاً من المنفعة ولا يحل
له ذلك ، حيث إن الزيادة لا يقابلها شيء من المقرض .

ولكن هل لنا حالة يمكن أن يكون للمرتهن فيها حق الانتفاع باعتبار
آخر ؟ يتضح لك جواب هذا السؤال مما يأتي

قال الإمام ابن رشد في بداية المجتهد « والجمهور على أن ليس
للمرتهن أن ينتفع بشيء من الرهن » وقال قوم : إذا كان الرهن حيواناً
فللمرتهن أن يحلبه ويركبه بقدر ما يعلفه وينفق عليه وهو قول أحمد
واسحاق بما روه أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :
« الرَّهْنُ مَحْلُوبٌ وَمَرْكُوبٌ » انتهت عبارته

وهذا الحديث روى أيضاً بغير هذا اللفظ قال صلى الله عليه
وسلم : « الظَّهْرُ يُرَكَّبُ بِتَفَقُّعِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا ، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ

بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرُهُونًا ، وَعَلَى الَّذِي يَرَكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةَ » أخرجه الدارقطني والحاكم والبيهقي وابن حبان .

ورأى الجمهور أنه يخالف أصولاً مجعماً عليها وآثاراً ثابتة لا يختلف في صحتها (كما في شروح البخارى ونيل الأوطار وغيرها) فقال بعضهم : إنه منسوخ ، ويدل لذلك حديث ابن عمر -رضى الله عنهما- عن البخارى وغيره : « لَا تُحَلَبُ مَا شِئْتُ أَمْرِي بِغَيْرِ إِذْنِهِ » وتعتب بأن التاريخ لا يعرف حتى يقال بالنسخ ، لذلك ذهب الأكثر إلى التأويل فيتعين حمل الحديث على ما إذا امتنع الراهن من الإنفاق على المرهون ، فيباح حينئذ للمرتن ، وهو قول الأوزاعي والليث وأبي ثور رحمهم الله تعالى

ومما يدل للجمهور أيضاً حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- « لَا يَغْلُقُ الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ الَّذِي رَهْنَتْ لَهُ غَنَمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ » قال في (منتقى الأخبار) : رواه الشافعي والدارقطني ، وقال إمامنا حنن متصل ، وقال شارحه : إنه رواه أيضاً الحاكم وابن حبان في صحيحه ، وإنه روى من طرق مختلفة : منها صحيح ومنها ضعيف ، وإنه روى مرفوعاً وموقوفاً ومرسلاً . ومن هنا يظهر أنه صالح للاحتجاج به للجمهور ، بل الحديث إذا روى من طريق صحيح وآخر ضعيف كان أقوى مما إذا روى من طريق صحيح فقط

(١) غلق الرهن كفتح : استحققه المرتن . فعلى لا يفلق الرهن : لا يملكه صاحب الدين بدنه بل هو لصاحبه فإن تعذر الوفاء بيع واستوفى منه . ومعنى له غنمه وعليه غرمه أن له زباده ونمائه وإذا نقص أو تلفت فعليه .

الخلاصة

أن التحريم متفق عليه في غير مسألة المركوب والمحلوب ، ونقول في غير مسألة المرهون إذا كان حيواناً محتاجاً للنفقة ، أما فيها فقد قيل بالحل . ولكن الجمهور على خلافه ، ولا شك أن الأرض المرهونة ليست كالحيوان حتى تقاس عليه ، فلا يجوز أن يكون القرض على رهنها سبباً في الانتفاع بها اتفاقاً ، فإن محل الخلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو الحيوان كما علمت

وبعد فالمرء ينظر لنفسه ويستفتي قلبه وإن أفتاه المفتون . ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ولذلك لم نخرج على ما عسى أن تكون قد سمعت مما يخالف ما كتبناه ، والله يتولى هدى الجميع .

حكم الصلاة على الرسول ﷺ بعد الأذان

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي

حضرة صاحب الفضيلة المرشد الأكبر سيدي الشيخ يوسف

الدجوى المحترم .

بعد الاحترام والتحية لنا سؤال نرجو من فضل سيادتكم التكرم
بإجابتنا عنه فإننا لا نشق إلا بكم أما أولئك المتشدقون فلا نشق
بهم ولا نأخذ ديننا عنهم : ذلك أن لنا جامعاً منسوباً إلينا ، ولنا مؤذن
يؤذن الأذان الشرعي على المئذنة ويعقبه الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -
فاعترضه آخر قائلاً له : لا بد أن تستغفر الله لأنك أتيت جرمًا بصلاتك
على النبي بعد الأذان الشرعي

ونحن متعطشون لفتواكم فهي لنا بمثابة نور يسطع وسط الظلمات
فيبدها ، حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة بمعرفة أننا على الحق ،
وحاشا أن نكون في ليل دامس مادام فينا الشيخ الدجوى وأمثاله
ونحن لجوابكم منتظرون وفتواكم سامعون ، أدامكم الله قوة للدين
ونبراساً للحائرين .

يوسف محمد صقر

الجواب

الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الأذان لا بأس بها ، وحاشا أن تكون جرماً ، فقد نص العلماء على أنها بدعة حسنة حدثت زمن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٧٨١ وقد استحسنتها العلماء على اختلاف مذاهبهم ولم يمنعوا منها ، فقول القائل للمؤذن أنك أتيت جرماً بصلاتك بعد الأذان كذب وجهل ، وما أتى بالجرم غيره

وقبل أن نتكلم في المسألة من الوجهة العلمية مما يناسب الخاصة ننصح للعامّة قبل ذلك ألا يجادلوا تلك الطائفة ولا يخوضوا معهم في البحث ، فإنهم يلبسون عليهم بما يذكرونه من كلمات موهبة أو أحاديث لم يدروا لها معنى ولم يعرفوا لها مغزى ، وأين هم من الاستنباط والأخذ من السنة والقرآن ؟ فذلك بحر لا ساحل له اضطرب فيه العلماء الأعلام والأئمة العظام

وليعلم القارئ الكريم أن المجتهد الذي يأخذ من الكتاب والسنة لا بد أن يكون عارفاً بمواقع العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، مقدماً الخاص على العام والمقيد على المطلق ، عالماً بتاريخ النصوص حتى يعلم الناسخ والمنسوخ ، محيطاً بمواردها ، عارفاً درجة كل حديث ، باحثاً عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا حذاق الحفاظ ، عالماً بطرق الترجيح حتى يقدم بعضها على بعض عند التعارض ، غير خاف عليه مواقع الإجماع والاختلاف . .

وليعلم أن للعلماء اختلافاً كثيراً فيما بنوا عليه مذاهبهم وفيما يقدم من الأدلة وما لا يقدم منها كعمل أهل المدينة عند مالك مثلاً إلخ إلخ ولا بد بعد ذلك أن يكون فيه استعداد للاستنباط من الكتاب والسنة ، محيطاً بكل ما يتوقف عليه ذلك مما بينه علماء الأصول وليعلم أن العلم وحده غير كاف في الاجتهاد ما لم يصحبه الاستعداد الرفيع وذلك النور الذي يسطع في قلب من شاء الله من خاصة عباده ، ولذلك كان كبار المحدثين وعظماء الحفاظ مقلدين لا مجتهدين ، علماً منهم أن سعة الاطلاع لا تكفي وحدها في الاجتهاد

وربما كان بعض الحفاظ المقلدين أكثر حديثاً من بعض الأئمة المجتهدين ، ولكن هؤلاء الحفاظ كانوا يقلدون أولئك الأئمة اتِّهاماً لنفوسهم واستقصاراً لمداركهم واحتياطاً لدينهم ، ومعرفة بأقدار أولئك المتبوعين ، علماً منهم أن لهم من معرفة روح الشريعة ومن الذوق الخاص في أسرارها والحدس الذي يعرفون به ما لا يعرفه غيرهم من خفايا الدقائق ما ليس لأئمة المقلدين وإن كانوا حفاظاً متقنين .

وقد قالوا إن المحدث كالصيدلي والمجتهد كالطبيب ولا شك أن الصيدلي إذا جعل نفسه طبيباً قتل من المرضى أكثر ممن صادف دواؤه الداء فيهم فكأن هؤلاء الحفاظ هم المشار إليهم في حديث البخاري يذكر الأجداب من الأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس وشمقوا وزرعوا. وقد قال صلى الله عليه وسلم « رُبُّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَرُبُّ حَامِلٍ فِتْمَةٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ » .

ثم نقول بعد هذا أنه قد وصل بعض المتمسكين بظواهر الأحاديث إلى حد التشبيه والتجسيم في حقه تعالى اغتراراً بآيات الصفات وأحاديث

الصفات ، ولو قد غيره من أئمة الدين لنجا من ورطة التشبيه والتجسيم ولكنه أراد أن يستقل وهو غير أهل للاستقلال فضلاً من حيث لا يشعر ، فالذى نريده من العامة ونصح لهم به ألا يصغوا لأئمة المهوشين الذين يلبسون عليهم بذكر الآيات والأحاديث ولكن يقولون لهم أنهم مقلدون والمقلد يذمه أن يتبع الجمهور لا من شد عنهم

وقد اجتمعت ببعض من يحبذ آراء ابن تيمية ويدعو إلى اتباعه فقلت له « أنا لا أتبع ابن تيمية مطلقاً لأنى إن كنت قد بلغت درجة الاجتهاد فلا أتبع غيرى ، وإن لم أبلغ درجة الاجتهاد كنت مع الجمهور لامع من شد عنهم ، فذلك أحوط ، فى الدين وأقرب إلى العقل والنقل . »

بل نقول : إننا إذا وازنا بين أولئك المتشدقين وبين إمام واحد من الأئمة كالشافعى أو مالك مثلاً ، لم نجد نسبة بينهما ، وما لنا نذكر مالكا والشافعى ونحن إذا وازنا بينهم وبين أتباع أئمة الهدى بل كبار علماء العصر وجدنا البون شاسعاً والفرق عظيماً .

فكيف يحل للمقلد أن يترك أولئك العظماء المشهود لهم بالدين والفضل ويتبع أولئك المتشدقين الذين شدوا عن السواد الأعظم ، وأوقعوا الفرقة بين المسلمين ، وتحكموا فى دين الله فأرادوا أن يلزموا الناس بمذهبهم الخاص ، مع أننا لا نعترف لهم بإمامة ولا اجتهاد ، بل لا نعترف لهم بنظر دقيق ولا فهم صحيح ؟ فأين هم من درجة الاجتهاد وبينهم وبينها أبعد مما بين السماء والأرض (ومن لى بأن تدرى

على أنهم لو كانوا مجتهدين حقاً ما صح أن يلزموا الناس مذهبهم ،
فإن مسائل الفروع يكفي فيها الظن وقد جاء في الحديث « أَنْ مَنْ
اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ ، وَمَنْ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ » .
فالمدار على أن يكون الحامل له على العمل امتثال أمر الشارع حتى لا يكون
خارجاً على الله ورسوله

وقد كان أئمة الهدى يقلد بعضهم بعضاً ويشئى بعضهم على بعض
ولا يرون بأساً باتباع غيرهم ، وها هو ذا الامام مالك لم يرض من
الخليفة العباسى أن يحمل الناس قسراً على موطئة - وهو هو عند مالك -
احتراماً لرأى غيره من العلماء واتهاماً لنفسه التى يجوز عليها الخطأ ،
وعلماً بأن مسائل الفقه ظنية يكفي فيها الظن ، بل بعض أئمة الهدى
قلد غيره فى بعض المسائل ككاتبى يوسف الذى قال « نقلد إخواننا
الحجازيين » عندما أخبروه بأن البيئر التى توضع فيها وقعت فيها
فأرة : إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال

فبالخلاصة أن المقلد لبعض الأئمة كالشافعى مثلاً يلزمه ألا يخوض
مع أولئك المتحذلقين فى الأدلة ، وإنما يقول لهم إن أمامى أعظم فى
نفسى منكم ، ولا يحل لى أن أترك الفاضل وأتبع المفضول ، ولا أدع
العالم وأتبع الجاهل . هذه هى النصيحة التى أردنا أن نسديها
للعامه

ولنقل كلمة في الموضوع تناسب الخاصة

لا شك أن الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أعظم القرب ، وقد طلبها منا القرآن العزيز والسنة الشريفة ، ولا داعي للإطالة في هذا .

وقد جاء في خصوص الصلاة بعد الأذان أحاديث صحيحة منها

ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ فِي الْوَسِيلَةِ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » رواد مسلم في صحيحه .

ونقول : على فرض أن ذلك الحديث لم يرد وصلينا عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لم يكن هناك بأس ، وحصل لنا الثواب العظيم بذلك ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمرنا بالصلاة عليه ولم يلزمنا بوقت مخصوص ولا كيفية مخصوصة فلنا أن نصلى عليه في أى وقت شئنا وبأى كيفية أردنا حيث إنه لم يرد نهى عن شئ خاص ولا أمر بشئ خاص بل وكل ذلك إلى اختيارنا ، وليس هذا إلا استعمالا للمطلق في بعض جزئياته (وهو بالضرورة لا بد أن يستعمل في بعض جزئياته وهي كلها فيه على السواء) .

وقد قال البيانيون : إن استعمال الكلى في بعض جزئياته من حيث

تحقيقه فيه ليس مجازا بل حقيقة .

فإذا صلينا على الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد الأذان بمقتضى ذلك الإطلاق بئى كيفية من الكيفيات كان طاعة يثاب عليها فاعلمها الذى أتى بها على أنها من أفراد ذلك المطلق غير معتقد سنية تخصيصها بذلك الحال أو تلك الكيفية خلافاً للمشددين أو المتشدقين وليس يخفى عليك الفرق بين من يتأنى بها بمقتضى الأمر العام ومن يتأنى بها لأجل كون تلك الكيفية الخاصة سنة أو لكون ذلك الوقت مطلوباً من حيث خصوصه فكيف وقد ورد الحديث الصحيح بالصلاة عقب الأذان؟ وقد ترك تلك الكيفيات الخاصة إينا - صلى الله عليه وسلم - نختار منها ما شئنا

فيجوز لسامع الأذان المطلوب منه ذلك أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، فأصل الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة فكذلك الأذن يطلب منه الصلاة بعد الأذان ويباح له أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، لأننا لم نلزم فيها بكيفية خاصة ، ولا نعتقد أن الكيفية المخصوصة سنة من حيث خصوصها ، بل نقول إنها من تلك الحيشية مباحة

ولهذا كله قال العلماء المحققون غير الجامدين : إنها بدعة مستحسنة ولم يروا بأساً برفع الصوت بها بعد الأذان على أن فى الجهر بها فائدة جلية وهى تذكير السامعين بها ، فىكون وسيلة لإتيانهم بما ورد فى ذلك الحديث المتقدم متى سمعوا ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبدون ذلك قلما يأتون بها ، بل كثير منهم لا يعرف ذلك الحديث الذى طلبها منا بعد الأذان .

وليت شعري هل يقول أولئك الجامدون : أنه لا بد من تحرى
الكيفية التي كان عليها الناس زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما
كانوا يصلون عقب الأذان ، فلا يجوز أن نرفع صوتنا أكثر مما كانوا
يرفعون ، أو نخفضه أكثر مما كانوا يخفضون ، وإذا كانوا قد أتوا
بها في « ثانية » مثلاً أو ثانيتين أن نخالفهم في ذلك فنجعلها في ثلاث
أو أربع مثلاً ، إذا أتوا بها قائمين لم نأت بها قاعدين إلى غير ذلك ،^١
أم هو الجمود الذي يبرأ منه الإسلام خصوصاً إذا أحدث فتنة قد
توقع في الكبائر من أجل مسألة غاية أمرها أن تكون خلاف الأولى
لو تنزلنا وسلمنا لهم وجهة نظرهم ، مع أن الأمر فيها على خلاف
ما ظنوا ؟

وليعلم أن البدعة المنهى عنها التي لا ترجع إلى دليل من أدلة الشرع^١
فلا يقبلها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ، أما ما يكون داخلًا في
عمومات الكتاب أو السنة أو يمكن استنباطه بوجه من الوجوه ، فليس
من البدعة المنهى عنها وإن لم يكن في زمنه - صلى الله عليه وسلم - ولا زمن
أصحابه

ويكفي هذا الإيجاز ، والمنصف يكفيه القليل ، والمتعسف لا ينفعه

الكثير .

عبد الله بن سلام^(١) وكعب الأحمق - ووهب بن منبه

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف
الدجوي حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قرأت بإلحدي المجلات الجملة الآتية

« تظاهر جماعة من أحمق اليهود بالدخول في الإسلام ليصيبوه
في مقاتله إذ عجزوا عن هدمه عناوآته وجهآ لوجه ، وقد نالوا بعض
بغيتهم بتسميم العقول وبت الأضاليل في النفوس ، وهكذا فتنوا
الناس بالخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ورأس هؤلاء الذين
اندسوا بين المسلمين لإفساد عقائدهم ثلاثة « كعب الأحمق ،
ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام »

فهل هؤلاء الثلاثة كما ذكر الكاتب ؟ أرجو بيان الجواب على
صفحات مجلة الأزهر حيث أن هذه الجملة تخالف عقيدة كثيرين من
المسلمين أسأل الله أن يلهمنا الصواب ، والسلام عليكم ورحمة الله

محمود الشرييني

بفارسكور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

أما بعد فإن كثيراً من الناس يجازف فيما يكتب ولا يتحرى الصواب فيما يحزر ، وقد رأينا بعض المشهورين بالأدب والتاريخ من كبار الكتاب بمصر يقرون عبد الله بن سلام الصحابي الجليل بعبد الله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي نفي مراراً ، وأضل الناس بدعوتهم إلى التغالي في حب علي - كرم الله وجهه - ، ويغض عثمان - رضي الله عنه - كيداً للإسلام والمسلمين ، فأين هذا من ذاك . ولكننا في عصر أصبح الناس فيه فوضى في كل شيء حتى العلم والدين

ولنقص عليك بعض ما قال العلماء في عبد الله بن سلام وكعب الأخبار ووهب بن منبه فنقول جاء في (تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي) ما نصه

عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الحبر أبو يوسف الإبراهيمي حليف الأنصار ، أسلم وقت مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبد الله) وشهد له بالجنة ، وفيه نزلت « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ »^(١) وقوله تعالى « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »^(٢) وكان عبد الله من علماء أهل الكتاب

(١) سورة الأحقاف الآية ١٠

(٢) سورة الرعد ، الآية ٤٣

وأفاضلهم في زمانه بالمدينة ، روى عدة أحاديث ، حدث عنه أنس بن مالك و زرارة بن أوفى قاضي البصرة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو يوسف المقبرى ، وأبو بردة بن أبي موسى ، وابناه يوسف ومحمد ابنا عبد الله وآخرون .

روى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن يزيد بن عميرة قال لما احتضر معاذ قيل له أوصنا ، قال إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ، فالتمسوا العلم عند أبي الدرداء أو سلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّهُ عَاشِرَ عَشْرَةٍ فِي الْجَنَّةِ » أخرجه الترمذى وروى مالك عن سالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد إنك في الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) متفق عليه .

روى عاصم بن بهدلة عن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَدْخُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فدخل ابن سلام ، ومن غير وجه أن ابن سلام رأى رؤيا فقصها على رسول الله فقال له « تَمُوتُ وَأَنْتَ مُسْتَمْسِكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » .

وعنه أنه مر يحمل حزمة حطب فقيل له أليس قد أغناك الله عن هذا ؟ فقال بلى ولكي أردت أن أقمع الكبير واتفقوا على موته سنة ثلاث وأربعين هـ .

كعب الأخبار

هو كعب بن ماته الحميدى من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب أسلم فى زمن أبى بكر و قدم من اليمن فى دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة وروى عنه جماعة من التابعين مرسلًا ، وله شئ فى صحيح البخارى وغيره اه

(وهب بن منبه)

هو الحافظ أبو عبد الله الصنعانى عالم أهل اليمن ، ولد سنة أربع وثلاثين ، روى عن أبى هريرة كثيرًا ، وعن عبد الله بن عمر وابن عباس وأبى سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وعنده من علم أهل الكتاب شئ كثير ، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام ، ولهمام عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى المسحاح رواها عنه معمر ، وقد طال عمر همام وعاش إلى سنة نيف وثلاثين ومائة ، وحدث عن وهب ابن أخيه عبد الصمد وأقاربه ، وسمرو بن دينار وإسرائيل أبو موسى ، وسماك بن الفضل وعوف الأعرابى وآخرون ، وكان ثقة واسع العلم مثل كعب الأخبار فى زمانه

قال العجلي كان وهب ثقة تابعيا ، وكان على قضاء صنعاء

وقيل كان والده من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم وعن وهب قال يقولون عبد الله

ابن سَلام أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمهما ؟ يعنى نفسه قال مشى بن الصباح لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والفجر وضوءاً ولو هب ترجمة طويلة في تاريخ دمشق

فها أنت ذا ترى (عبد الله بن سَلام) من أكابر الصحابة قد نزل في حقه قرآن مثل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة فكيف يسوى بعبد الله بن سبأ الضال المضل ؟ وهل هذا إلا خلط يحرمه الدين والعلم جميعاً ، ويسمخر منه التاريخ لدى عارفيه ؟

وأما كعب الأخبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات . وقد سمعت أن وهباً كان يصلى الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة ، وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأخبار ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة

وأما ما يرويه هو ووهب بن منبه رضى الله عنهما فلم يسنداه إلى الرسول ولم يكذبا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانا يرويانه علي ، أنه من الأسرائيليات ، ولست مكلفاً بتصديقه ولا الإيمان به

ويحسن بنا في هذا المقام أن نلفت نظرك إلى أن ابن جرير الطبرى وغيره من المفسرين قد يذكرون أشياء غير صحيحة ، ولكن عذرهم في ذلك أنهم يذكرون السند ، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند

فقد خرجوا من العهدة ، فإن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول ، وبذلك يعرف ما يروونه من ضعف وصحة .

ولكن خات العناية الآن بذلك العلم ، فعلى من يشتبه في شيء مما يذكره أن يبحث عن رجال السند الذي ذكره ، ليعرف ما عسى أن يكون من راو ضعيف أو وضحاح ، ولينظر مع هذا أهو إسلامي أم إسرائيلي وليعط كلا حكمه ، فإن لم يفعل فليست التبعة عليهم بل عليه .

أسأل الله أن يرزقنا الأدب في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي حق سلفنا الصالح ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفه عين بمنه وكرمه .

صاحب المنار
والصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم)
بعد الأذان

رحم الله امرءاً عرف قدره

كتبنا في الجزء الأول الصادر في شهر المحرم من هذه السنة جواباً عن سؤال ورد إلينا يقول كاتبه : إن بعض الناس قال لمن أتى بالصلاة عقب الأذان إنك أتيت جرماً ، فقلنا له إن ذلك ليس جرماً وحاشا أن يكون جرماً فإن العلماء صرحوا بأنها بدعة حسنة ، ويصرح الشافعية بأنها سنة عقب الأذان من المؤذن وغيره ، وروينا في ذلك ما جاء في صحيح مسلم « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ » الحديث

ثم قلنا ما ملخصه إن المؤذن ممن سبح الأذان ، وكل من سمع الأذان طلب منه الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، ثم هو مخير بعد ذلك ، فإن شاء ذكره سرا وإن شاء ذكرها جهرا ، فكل ذلك محصل لامتنثال الأمر النبوي ، فإنه لم يلزمنا صلى الله عليه وسلم ، في ذلك كيفية مخصوصة ، فأصاها مطلوب بالأمر العام الذي ورد به القرآن ، وهي بعد الأذان مطلوبة طلباً خاصاً. فمتضى هذا الحديث أما الكيفية فهي موكولة إلى اختيار ، ولو كانت الكيفية المخصوصة لازمة للزمنا أن نبحث عن درجة جهرهم

وأسرارهم وسرعتهم في النطق بها وإبطائهم في ذلك ، إلى آخر ما قلناه في تلك المقالة .

ثم قلنا لا يصح أن يرى من أتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالإجراء ، ومن فهم أنها داخلة في البدعة التي هي ضلالة فهو جاهل وجامد لا ينبغي أن يعد في سلك العلماء .

والخلاف بين من يقسم البدعة إلى حسنة ، وغيرها ، وبين من يرى أن البدعة لا تكون حسنة ، وهو خلاف لفظي في الحقيقة ، فإن الأول أورد البدعة اللغوية ، والثاني أَراد البدعة الشرعية ، وقد نقل ذلك التقسيم عن الإمام الشافعي نفسه - الذي ليس من علماء القرون الوسطى - بل قول النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة » يوافق هذا التقسيم الذي لم يفهمه الشيخ ، فشنع عليه اغتراراً بكلام من لا يرى التقسيم .^{٢٧}

وقد قلنا إن من فوائدها بعد الأذان تذكير الناس بالعمل بالحديث المتقدم ، بل الخروج من الإثم الذي يراه بعض العلماء في ترك الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - عند ذكره ، وقد سمعوا ذكره في الأذان فوجب عليهم أن يصلوا عليه - صلى الله عليه وسلم - وإلا أمموا على هذا الرأي ، فلو لم يكن إلا تذكيرهم بهذه السنة أو بهذا الواجب لكنى .

فقامت نيامة الأستاذ الشيخ رشيد من أجل ذلك ، فكاتب في
(مناره) ما أكلُ الحكم فيه إليك بعد أن أتلوه عليك

قال « إنها بدعة فشت هي وأمثالها في أمصار المسلمين بجهل
المعممين أدعياء العلم بالسنة » إلى أن يقول : وإننا لنعجب أشد العجب
إذ نرى بعض كبار علماء الأزهر يفتون الناس ببدعة الزيادة في الأذان
ويزعمون أنها حسنة ، إلى أن يقول إن لهم إذاً أن يزيدوا في
الصلاة ركعات أو سجعات ، وهل يوجد دليل على امتناع ذلك وأمثاله
غير كونه مخالفاً للمأثور ؟ وما الفرق إذاً بين الأذان وغيره ؟ أما
إنه لو فعل هذا كثير من العوام لأفتاهم باستحسنانها مفتى مجلة نور
الإسلام (يعنى الشيخ الدجوى)

وأرجوك كل الرجاء أن لا تسأم من الأخذ والرد مع الشيخ حتى
تعرف منزلته من العلم ومكانه من المنطق ، ثم نذكر لك بعد ذلك مقدار
تصلبه في الدين ، واحتياظه للكتاب والسنة ، وهو اكتشاف غريب
وتفكهة لذيذة

١ - فنقول لفضيلة الأستاذ ليس هذا زيادة في الأذان ، وإنما
هو شيء فعل انتهاء الأذان ، فأين هذا من ذلك ! وليس هناك
من يجعل الزيادة من الأذان ، بدليل أنها تترك في أذان المغرب ،
وبدليل أنهم ترة يطيلون وتارة يقصرون ، وبدليل ما ذكره هو أنهم
قد ينادون شيخ العرب (السيد البدوى) فهل يفهم أن ذلك كله
من الأذان ؟ بل قد يذكرون شيئاً من القصائد في مديحه صلى الله عليه

وسلم بعد الأذان ، فهل يعتبر ذلك كله من الأذان ؟ اللهم إن الأمر واضح حتى عند العوام

٢- أما قياسه ذلك على زيادة ركعة أو سجدة في الصلاة فهو قياس ينبغي ان نتعجب منه أشد العجب ، فإننا لم نجعل ذلك من أجزاء الأذان ولا أدخلناه فيه ، فهو بمنزلة الذكر بعد الصلاة ، أو بمنزلة الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد الفراغ منها ، على أن الأذان لا يسمح أن يقاس على الصلاة من كل وجه

٣- وإني لأعجب أشد العجب من مجتهدنا الجديد الذي برز في علم الأصول وعتل المنطق بحثاً حيث يقول ما الفرق بين الأذان وغيره مع كون الفرق في هذا القياس الذي أراد أن يجعله برهانه الساطع ودليله القاطع أوضح من الصبح عند صغار الطلبة ومن الذي لا يفرق بين الزيادة في الشيء والزيادة عليه بعد الفراغ منه ؟ ولا بأس بأن نفكحك بثى من علم الشيخ وذوقه الرفيع

يقول إن هؤلاء القبوريين يدعون البدوى وأمثاله من دون « الله أي فهم كفرة » فانظروا أولاً لسوء عقيدة الشيخ في المسلمين ، وثانياً إلى خطئه في التطبيق ، وثالثاً إلى ذوقه في الإتيان بما لا علاقة له بالتمام ، بل نداء المسيد البدوى مما يرد عليه لو كان يدرى ، ورابعاً إلى خطئه النعوى في قوله القبوريين ، وابن مالك يقول « الواحد اذكر ناسباً لاجمع » .

ولكن الشيخ أرفع من أن يقلد ابن مالك أو سيبويه . ومن لطائفه أنه يعبر عن عصور النور والعلم عندنا بالقرون الوسطى تقليداً للأوربيين .

٤- ثم نقول ألا يكفي ذلك كله في أن تكون المسألة محل نظر يصح الاجتهاد فيها لهذه الوجوه كلها ، فلا يضيق صدر الشيخ ممن يخالفه فيها ، وغاية أمرها بعد كل تنزل أن تكون خلاف الأولى بالكيفية المخصوصة لو سلمنا وجهة نظرهم ؟ !

٥- ألم يقرر العلماء أن الأمر لا يكون منكراً يجب التئؤى عنه إلا إذا كان مجعماً على إنكاره ، أو كان فاعله يرى أنه منكر ؟

٦- وبعد هذا يحسن بنا أن نناقش الشيخ مناقشة خفيفة في

الآراء

عباراته البليغة

يدعى أنه لا يوافق على هذه البدعة وأمثالها إلا أدياء العلم المعمون الجاهلون ؟ فليت شعري أيجهل الأستاذ أن ذلك مذكور في كل مذهب من المذاهب الأربعة ، وربما كان في كل كتاب من كتبه ، أم يرى أولئك المعممين كلهم بالجهل والغباوة ؟

٧- ولماذا يعجب أشد العجب من فتوى بعض كبار العلماء

باستحسان هذه البدعة ؟ أليس موافقاً لغيره ممن لا يحصى كثرة من علماء المذاهب ؟ وهل هناك محل للعجب بعد ما امتلأت الكتب بذلك ؟

٨- بل ذكر حضرته قبل ذلك بقليل أن علماء القرون الوسطى قسموا البدع إلى حسنة وغير حسنة ، وقال إن المعممين أفتوا باستحسانها ، فأى معنى لأن يعجب أشد العجب لمفتى مجلة نور الإسلام عنده يقول ذلك ؟

٩- أل يكن فيما قاله هو ما يجعله يحس بما فى كلامه من تناقض أو شبه تناقض ، حيث دهش غاية الدهش مما ذكر هو أنه كان معروفاً لدى علماء القرون الوسطى ؟ فما الموجب للعجب ولأشد العجب حينئذ- ؟ ولكن الشيخ لا يحس بما يقول .

١٠- ألم يبلغ الشيخ أن بعض تلك الطائفة التى بذروا فيها تلك البذور الخبيثة قد أثاروا بسبب ذلك شراً كبيراً فى كثير من البلدان ، ووصل الأمر فيها إلى حد سفك الدماء ، وإبطال صلاة الجمعة وإفساد أمر البلد كلها بما حصل بينهم من التشاحن والتباغض ؟ أليسوا بمنزلة من يبنى قصراً ويهدم مصرّاً لو فرضنا أنهم ياتون !

خلاصة المقام

١١- والخلاصة التى ينتفع بها القارئ فى هذا المقام أنه قد خفى الفرق بين الزيادة على الأذان والزيادة فيه على مجتهد آخر الزمان الشيخ رشيد ، ولذلك استباح نفسه أن يقول إن مفتى مجلة نور الإسلام لو سئل عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتى باستحسانها

ونقول زيادة فى الإيضاح واهتماماً بالموضوع إن أمر الصلاة والسلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الأذان حين جداً ، ومن الجرم أن يسمى بـ:ريمة ، ولسنا أول من قال إنها بدعة مستحسنة ، بل علماء

المذاهب الأربعة مصرحون بذلك ، وليس كل ما لم يفعل على عهدہ صلى الله عليه وسلم يكون بدعة سيئة ، ومن فهم أن ذلك داخل في قوله في الحديث « وكل بدعة ضلالة » فهو من أقل الناس علماً ، وأضيقهم عقلاً ، كما أنه ليس ذلك زيادة في الأذان حتى يشبهه بركعة في الصلاة ، أو يقول إنه زيادة في العبادة المشروعة ! بل هو عبادة مستقلة ، كما إذا قرأنا القرآن مثلاً بعد الصلوات ، أو صلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكذلك الصلاة والسلام بعد الأذان سواء بسواء ، ولكن شيخ المنار ليس من أهل المنطق ولا الأصول ، ولا صلة له بصناعة البرهان ، فهو يرخى لقلمه العنان فيما يجول برأسه بلا ميزان يضبطه ، أو أصل يرجع إليه ، شأن من يأخذ علمه عن الأوراق لا عن العلماء .

ولا نزال نقول له أترمي علماء المذاهب كلها بهذا ، فإنهم قائلون باستحسانها ، فتقول إنهم لو سئلوا عن زيادة ركعة في الصلاة لأفتوا باستحسانها كما قلت ذلك لمفتى (مجلة الأزهر) ، أم ذلك خاص بنا لغير معنى معقول ؟ وليس يبعد على الشيخ أن يرمى من شاء بما شاء أو يرجع بلا مرجع ، ولهذا لم يتعرض لما ذكرناه في مقالنا من التوجيه والاستدلال ، لأنه لا صبر له على الحوار المنطقي ولا الجدل العلمي ، وكأنه من قسم العامة الذين أشرنا إليهم في صدر ذلك المقال ، لا من الخاصة الذين تكلمنا معهم في آخره

١٤ ، وقد سقنا لهم من الأدلة الصحيحة ما يقنع المنصف ، وقلنا إن الصلاة مطلوبة وكيفية مباحة^{١٤} ، ولو كان استعمال العام في بعض أفرادها يخصصه ، أو المطلق في بعض جزئياته يقيدته ، لكان كل عام

مخصصاً ، وكل مطلق مقيداً ، لأن العام أو المطلق حين استعماله لم يكن إلا في بعض جزئياته ، ولكن الشيخ لا يعرف هذا ولا يحسنه ، ولذلك عدل عن الكلام فيه ، ونحن لا نستطيع أن نحاور إلا أهل البرهان وأرباب المنطق

ألم يكن أجدربهم أن يقتنعوا أو ينصفوا فيقيموا لأولئك العلماء وزناً ، أو يقروا إن المسألة محل نظر فيصح فيها الاجتهاد ، وما يصح فيه الاجتهاد لا يتصلب فيه أهل العلم هذا التصلب ، ولا يجمدون فيه هذا الجمود ؟

مضحكات أو مبكيات

١٢ - هذا ثم نقول لحضرة العلامة المجتهد مالك سأني بالمتناقضات فتسن الغارة على مسألة يصح فيها اختلاف النظر والأمر فيها واسع ، ولا تحتاط هذا الاحتياط في مسألة الربا المجمع على تحريمه ، وتبيح الانتفاع بالأرض المرهونة قياساً على ما قال بعض العلماء في الانتفاع بالحيوان المرهون الذي يركب ويحلب بنفقته كما في الحديث ، وهو قياس مع الفارق الواضح إن كنت تعرفه أو سمعت به ؟ !

١٣ - بل رينا منك ما هو أطم وأدهى أيها المحتاط في ترك الصلاة على النبي عقب الأذان ، رأييناك لم تحتط في (تفسيرك) هذا الاحتياط عند ذكر الملائكة في سورة البقرة ، فأخذت تتقرب من الماديين لتكون

مجدداً وعصرياً بتأويل كتاب الله على غير ما أراد الله ، بما يخرق الإجماع ، بل يصادم المعقول والمنقول فقررت أن الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية .

وليت شعري هل تلك القوى الطبيعية هي التي وقع الحوار بينها وبين الله تعالى بقولها (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(١) وهل تلك القوى الطبيعية هي التي أوجب الله علينا الإيمان بها وقال في حقها (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)^(٢) إلى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يعلم تأويله إلا شيخ المنار والراسخون في علم المادة !

١٤ - ومثل ذلك ما قرره في المكروبات عند ذكر الجن في القرآن

وليت شعري هل هذه المكروبات الجنية هي التي كانت تعمل لسليمان ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ؟ وهل هي التي قال عفريت منها لسليمان عليه السلام أنا آتيك به « بعرش بلقيس » قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين ؟ وهل هي التي قالت لقومها إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . إلخ إلخ ؟

١٥ - ومثل ذلك ما قاله في مذهب دَرَوْنٍ في أول تفسيره لسورة النساء ، وأنه يجوز تطبيق القرآن عليه . وما أدري كيف يفعل في قوله

(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٦

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠

تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)^(١) إلى آخر ماجاء في الكتاب والسنة ، مع أن كثيراً من الأوربيين أنفسهم لا يأتون هذا المذهب كل الإباء .

وهل يبقى مع تلك التأويلات وثوق بكتاب الله الذي أصبح قابلاً لكل تأويل ، وأصبح المراد منه غير معروف حتى في أصول الدين ، كالإيمان بملائكة الله تعالى ؟ فمرحى مرحى أو برحى برحى .

فأى خدمة أعظم من هذه الخدمة لدين الله وكتاب الله ، وأي إصلاح أكبر من هذا الإصلاح «الدينى والمدنى والسياسى» وأي اجتهاد أجل من هذا الاجتهاد الذى يفوق اجتهاد الإسماعيلية والبابية ؟ !

وهل هناك رق بين هذا وبين تأويل الملاحدة من الباطنية الذين أطنب الشيخ فى الرد عليهم والتشهير بهم ، ونسى أن له من الترهات ما يفوق ترهاتهم حتى صدق عليه قول القائل : رِق حتى اتقطع ، وحلق حتى وقع

أمر تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

١٦١٢ - وهل نسي الشيخ ما كنا نكتبه تحت عنوان «صاحب المنار وآدم عليه السلام» حتى تدخل بيننا السيد عبد القادر التلمسانى رحمه الله حينما جمعنا لأجل الصلح ببیت السيوف . الاتفاق على مايرضى الله ورسوله ؟

١٧- وهل نسيت يا حضرة الغيور على دين الله ما كان منك من
تأبين رؤساء الإلحاد مما أفضى إلى التقاضى أمام مجدى باشاعليه رحمة
الله؟ وأن الشيخ ليعلم أن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان ، بل
أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله كما في الحديث الشريف
الذى لا يجهله الأستاذ «ومن ذاق حلاوة الإيمان يحب المرء لا يحبه إلا الله»
ويقول الله في كتابه العزيز: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(١) فهذا كلام الله ورسوله ،
ولكن الشيخ لا تحكم عليه سنة ولا كتاب ولا منطق ، وكل ذلك تحت
سلطانه وتصرفه وبديع تأويله .

ولقد كتبنا في هذه المجلة كلمة عن إنكار الملائكة ، ورأينا أن
نستر عليه فلم نصرح باسمه ، ولكن أبى عليه ذوقه وعقله إلا أن يضمننا
للتصريح ، ولعله أنفع للقارىء وأبلغ في النصيحة .

١٨- وهل نسى الشيخ ما أفقى به من حل صلاة التلاميذ المسلمين
مع النصارى بالكنيسة ، ليغرس في قلوبهم الخالية النقية تلك الطقوس
النصرانية ، وينقش في نفوسهم الساذجة ما يسمعونه من القسوس
والمبشرين هناك .

عظيمة العظائم

بل وصل الأمر من اجتهاد مجتهدنا « الذي يبحث في جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى كما يقول فى مناره - أن اجترأ على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم عن أبى ذر مز أن الشمس تسجد تحت العرش ، وقال إن الأنبياء لا تعرف هذه العلوم ، ولو كان رشيداً لم يضق صدره بذلك ولو سعه إيمانه بالغيب ، فإن لم يسعه إيمانه بالغيب فكان ينبغى أن يسعه علمه بسعة لغة العرب وكثرة مذاهب البيان فيها . فإن ضاق علمه كما ضاق إيمانه فما كاد ينبغى أن تضيق سياسته وهى التى وسعت الشرق والغرب .

وبيان ذلك أنه كان يستطيع أن يقرر فى الحديث ما قرره العلماء فى قوله تعالى حكاية عن الأرض والسماء (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)^(١) وقوله تعالى (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) وقوله تعالى (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ)^(٣) وقوله تعالى (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ)^(٤) وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)^(٥) حتى قال كثير من العلماء إنه بلسان المقال لا بلسان الحال ، بدليل قوله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فإننا نعرف ما يدل عليه حالها فالذى

(١) سور فصلت الآية ١

(٢) سورة النور ، الآية ٢٤

(٣) سور: الملك ، الآية ٨

(٤) سورة الحشر ، الآية ١ وسورة الصف ، الآية ١

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

لأنفقهم إذا هو مقالها لا حالها ، وقد سبح الحصن في كفه صلى الله عليه وسلم

وإن لم يتسع صدره ولا إيمانه لذلك فكان عليه أن يخرج ذلك على وجه من وجوه المجاز أو الكناية ، ووجوه المخارج كثيرة ، وما أوسع لغة العرب لدى من يعرفها ، وكان ينبغي إذ لم يتسع صدره ولا إيمانه ولا علمه لشيء من ذلك أن تتسع سياسته لحسن المخرج منه بأية وسيلة غير تجهيل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أن يرمى البخارى أو غيره من رواة الحديث بالخطأ والكذب ، ولا يتعرض لرسول الله ، فقد كان تكذيبهم أهون من تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، فما أضيق دينه وعلمه وسياسته ، وإن كان يبحث في شؤون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى .

وإني أحسن منك . بامتعاظ شديد غيرة على المقام النبوى ولعلك تستبعد صدور ذلك من الشيخ أو لاتصدقه ، فلننقل لك عبارته بنصها وفصها وما طعن به على أحاديث كثيرة فى البخارى غير هذا الحديث ، ثم ترقى من تكذيب الرواة فى تلك الأحاديث إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث

قال فى منارد الصادر فى آخر رمضان سنة ١٣٢٧ صفحة ٦٩٧ من مجلد السنة المذكورة ما نعرض عليك محصله لتحكم فيه ، وليتضح به الموضوع الذى نحن فيه « فإنه كالمقدمة له رد الأحاديث التى فى البخارى وغيره الناطقة بأن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » كانت قرآناً يتلى ، وأن عمر فال ذلك بجمع من الصحابة ولم

ينكر عليه أحد ، وهو معروف لا مرء فيه ، ويستند حضرته في ذلك الرد إلى ما تعرف منه بمقدار علم الشيخ وتفكيره ، يقول إن ذلك لو تم لكان يتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شيء منه !

ولم يفرق الشيخ بين النسخ الذى يكون من قبل الشارع ولا يعرف إلا من جهته ولا يكون إلا فى زمنه بإرشاده وتبيينه ، وبين التفریط فى القرآن وضياع شيء منه .

ثم رد الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، رد ذلك بتمويهات وخيالات لا نطيل بها

ومن المعلوم أن الأنبياء تجوز عليهم الأمراض البدنية والأعراض البشرية ولا فرق بين السحر الذى يؤذيه فى بدنه ولا تسلط له على الوحي وبين كسر رباعيته يوم أحد وكان عليه وهو المحدث الكبير - فيما يزعم - أن يطن على سند الحديث ويجرح أحد رجاله ، أو يبين أن فيه علة خفية كما يصنع أرباب هذا الشأن ، وقد طعن فى أحاديث أخرى يطول فيها القول . ثم قال بعد ذلك كله مترقياً من رد روايات البخارى إلى رد كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى جرأة لا يصح أن تكون من مسلم يؤمن بالله ورسوله .

قال مانصه « ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية لسؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع^١ . إلخ » إلى أن قال :

« فالشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علماً قطعياً لا شبهة فيه » أى فكلام النبي كذب لاشبهة فيه !! إلى أن قال « والأنبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمر المخلوقات على حقيقتها » إلى آخر ما قال ، أى فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف ما عرفه الشيخ رشيد ، بل لم يدرك المشاهد المحسوس .

وليت شعري ما الداعي إذًا له صلى الله عليه وسلم أن يدخل في شيء لا يعرفه ولا سئل عنه ، بل هو الذي لفت نظر أبي ذر إليه وقال له حيث غربت الشمس « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ » فَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . أما الشيخ رشيد فلا يقول اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، بل يقول أنا أعلم ! ، وإن جوزنا عليه الخطأ في المشاهد المحسوس كما هو رأى الشيخ ، فكيف نشق به فيما أخبر به من المغيبات التي هي وراء الحس والمشاهدة !

هذا وتلاحظ أن الشيخ رشيد يؤول لنظريات الأوربيين التخمينية كتاب الله بما لا يعخطر لأحد على بال وإن نظرت في منار شعبان من تلك السنة أيضاً وجدت من السخافات ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم .

وبعد فلا بد أن يكون الشيخ مكذباً لله أيضاً في قوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)^(١) الخ ، فإنه أثبت السجود للشمس ، كما أثبتته الرسول

صلى الله عليه وسلم ، ولا فرق بينهما ، فما ثبت لأحد المثليين يثبت
للآخر ، فالشيخ إذا مخطىء الله ورسوله ، مكذب للقرآن والسنة
وإن شئت فقل مجهل لهما !

ولولا ضيق المقام لسردنا على القارىء الكريم ما يلهيه عن أكبر
المصائب ، أو ينيه عن أعظم الألعاب ويكفى هذا اليوم ، ونصوص
المنار عندنا إذا أرادها القارىء ، وإني لأعلم أن الشيخ سيكيل لنا من
السب والأقذاع ما يعرفه منه القراء ، ولكن هناك فرق بين قول
باللسان وكلام شبه الهديان ، وبين ما يشهد له الوجدان ويقام عليه
البرهان :

الرضاع (١)

ما قولكم دام فضلکم فی رجلین تزوجا ورزقهما الله بولدين يكبر أحدهما عن الآخر بسنة ، ورزق الله هذين الرجلين بنات ، ويريد الولد الصغير أن يتزوج بأخت الكبير الصغيرة ولكن أم الولد الكبير التي هي أم للصغيرة قالت إنها أرضعت الولد الصغير ليلة كاملة مع ابنها الكبير ﷺ، مع العلم بأن في الدار معها ناساً من أقربائها لا يعلمون بهذا الرضاع أصلاً وينكرونه على تلك المرأة التي هي أم الولد الكبير وأم البنت الصغيرة . فما هو الحكم الشرعي مفصلاً في هذا الباب ؟ .

أحد القراء

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فإن الرضاع يحرم ما حرم النسب ﷺ، قال صلى الله عليه وسلم « يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » . والرضاع عند المالكية يتحقق بوصول لبن المرضعة لجوف الرضيع ولو مصصة إذا كان في مدة الحولين من ولادته ، قال تعالى (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ إِذَا حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) .

نعمدة الرضاع الكامل سنتان ، وألحق المالكية بهما شهرين من السنة الثالثة لأز ما قارب الشيء يعطى حكمه .

ومن أرضعت ولداً فبناتها وبنات زوجها ما تقدم وما تأخر أخوات له ، وشببت الرضاع عندهم بإقرار أم الولد غير الرشيد ذكراً كان أو أُنثى على الراجح في المذهب إذا كان إقرارها بالرضاع قبل العقد . وعلى ذلك فإقرار أم البنت في الحادثة المسئول عنها معتبر عند المالكية متى كانت البنت غير رشيدة بأن كانت صغيرة أو سفية ، فإن كانت رشيدة ، فإقرار الأم بالرضاع لا يحرمها على من يريد تزوجها . نعم يندب له أن لا يتزوجها احتياطاً وتورعا ، كما أنها إذا أقرت بالرضاع ثم رجعت عنه فلا عبرة بإقرارها . والله ولي التوفيق .

«الصَّلَاةُ خَلْفَ جَزَارٍ»^(١)

ورد إلى المجلة السؤال الآتي

ما حكم صلاة من صلى خلف جزار يزاول المهنة بيده ويقوم بعلف
البهائم وخدمته فيصيبه رشاش الدم وفلذات الدهن وقذارة الأرواث
سويتصاعد من مجموعها رائحة كريهة توذى القريب منه والبعيد؟
وهل يصلى بالناس من يجهل مع حضور من يعلم؟ وهل يصلى بالناس
من يبغضه الناس؟ إنا منتظرون إماطة اللثام عن حكم من نصب مثل
هذا الرجل إماماً

محمد الشريف كساب

الجواب

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
وبعد: فاعلم أيها المستفتى أن الجزار ونحوه من أصحاب المهن
التي لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعنى عما يصيب ثيابهم منها متى
كانوا يجتهدون في بدنها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾^(١) وقوله عليه الصلاة
والسلام « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » .

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الثالث - رمضان - ١٣٥١

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨

ويستحب إعداد ثوب خاص للصلاة به وعلى ذلك فصلاة
الجزار بثيابه التي يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها
وأما إمامته فذكره لمن ليس مثله

أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره
أن يكون إماماً له

وأما رائحة ثيابه فهي مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى
غيره ، فعليه أن يخلعها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله
فضلاً عن أن يكون إماماً للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم
« لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارًا »

وأما إمامة الجاهل ففيها تفصيل فإن كان جهله يؤثر في صحة
صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو
الاجتسال من الجنابة ، أو ترك فرضاً من فروض الصلاة كالطمأنينة
فصلاته باطية فضلاً عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر في صحة
الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا
كان يعتقد أن في الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه
وسلم « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » فحتى كانت الصلاة مستوفية
لجديع ما يعبر في صحتها شرعاً فهي صحيحة والافتداء أيضاً صحيح
نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذي تصح إمامته .

وأما إمامة من يكرهه أهل بلده ففيها تفصيل أيضاً فإن كانت الكراهة لأمر ديني فإمامته مكروهة حيث كرهه النضر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم ، فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا ، حرمت إمامته لقوله صلى الله عليه وسلم « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ » والله أعلم

صَلَاةُ جَارِ الْمَسْجِدِ فِي بَيْتِهِ مَعَ زَوْجِهِ

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي

رجل بجوار المسجد يتخلف عن صلاة الجماعة مكتفياً بأنه يصلي في بيته مع زوجته جماعة ، فهل عليه في تخلفه شيء « إِمٌّ أَنْ جَمَاعَتِهِ فِي بَيْتِهِ كَجَمَاعَتِهِ فِي مَسْجِدِهِ » ؟ نرجو من فضيلتكم التكرم بالجواب ولكم الشكر ومن الله الأجر

سعد السيد الدمنهوري

الجواب

أن صلاة الرجل مع زوجته يحصل بها فضل الجماعة الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بسبع وعشرين درجة » وأقل الجماعة ثمان ولو رجلاً وامرأة ، ولذلك نص المالكية على أن من صلى إماماً لامرأة فلا يطلب منه إعادة الصلاة في جماعة لحصول فضلها بصلاته مع المرأة .

نعم صلاة الفرائض في المساجد أنزل لقوله صلى الله عليه وسلم « أَفْضَلُ الصَّلَاةِ صَلَاتُكُمْ فِي بَيْتِكُمْ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ » يعني الفريضة ، وما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتركون الجماعة في المساجد اكتفاءً بالصلاة مع أزواجهم

العقيقة - سرُّ الختان^١ في السنن الإسلامية

سیدی الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله .

تلقيت بيد الشكر ببحثكم القيم الجليل في بيان الفطرة وما خلقه الله فيها ، فقد وصلنا بما بينتموه في حديث الفطرة إلى أن دينه الحنيف مركز في النفوس وفي الطبائع ، وأن طبيعة الطفل من ناحية علم النفس تأى إلا أن تتقبله ، وهى معودة إليه بالطبع . ولقد تعلمون خطورة بحثى إذا عرفتم أننى أتوم به في بلاد لا أثر لدين الله فيها ، وأن هم علمائها موجه إلى إثبات منابع الأخلاق من ناحية الطبيعة . وسأكون في الطرف الثانى من التناقض لآرائهم ، وبتعبير آخر « سأكون أول من يقيم الدين في مالطة » إن سمحت لى أن أخاطبك هذا المثل الملى^٢ ، والله الموفق والمعين ، إليه غايتمنا وعليه توفيقنا

ولقد يسرك جداً أن آراءك هنا عرفت قيمتها . ورجح وزنها^٣ ، وكانوا معجبين بك إذ وصلت إلى ما لم يصلوا إليه إلا بالتجارب والبعث المادى والعلمى ، وفقك الله ووفقى إلى نصره الدين

هذا وأرجو إذا سمح لكم وقتكم إمدادى بشىء عن المسائل الآتية

١ - رأى الدين في العقيقة التى تعمل بمناسبة ولادة الطفل .

٢- رأيه في الختان :

٣- رأيه في حادث شق صدر ^(١) النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعده ربه من صخره لتلقى وحيه الجليل وحسبكم مني أن أكون إلى جانبكم كالمقاتل الشريف في نصره دين الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم سلامة

معتش بالمعارف وعضو بمئتها بفرنسا

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

المعينة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما العقيقتان ، وهى ما يذبح سابع ولادة المولود مما يصحح أن يكون ذكرا ضحية ، ففيه أسرار بديعة ومصالح كثيرة راجعة إلى المصلحة المالية والمدنية والنفسية ، وقد كانوا يفعلونها في الجاهلية ، فاستبقاها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورغب الناس فيها بعد إصلاح مقاصدهم ، مع مخالفة أهل الجاهلية في بعض المسائل كما ستعرفه

فمن تلك لمصالح - ولعله أقلها - التلطف بإشاعة نسب الولد ، إذ لا بد من إشعته لئلا يقال فيه ما لا يحبه ، وكثيرا ما يكون لذلك داع كبير في القضايا كما هو معروف ، ولا يحسن أن يدور في -

(١) تقدم في القسم الذى يتعلق بالمقالات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الطرقات فينادى أنه ولد له ولد ، فكانت العقيقة أفضل وسيلة لهذا الغرض .

ومنها إثماء ملكة السخاء وعصيان داعية الشح الذي أحضرته النفوس . ومنها أن النصارى كان إذا ولد لهم ولد صبغوه بماء مخصوص يسمونه المعمودية ليكون نصرانياً حقاً ، وفي مشاكلة ذلك نزل قوله تعالى : (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) (١) فاستحب أن يكون للمسلمين فعل بإزاء فعلهم ذلك ، يشعر بكون الولد حنيفياً تابعاً للملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وأشهر الأفعال المختصة بهما المتوارثة في ذريتهما ما وقع له عليه السلام من همه بذبح ولده ، ثم نعمة الله عليه أن فداه بذبح عظيم . وأشهر شرائعهما الحج الذى فيه الحلق والذبح ، فيكون الذبح عن المولود تشبهاً بهما ، وتنوياً بملئتهما ، وإعلاناً بأن الولد تابع لهما وعلى دينهما ، إذ فعل ما هو من أعمال هذه الملة الحنيفية

ومنها أن هذا الفعل فى بدء ولادته يخيل إليه أنه هم ببذل ولده فى سبيل الله . ثم فداه كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وفى ذلك تحريك سلسلة الإحساس بالانقياد والخضوع وقد حث على ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله « مَعَ الْغُلَامِ عَقِيْقَةٌ فَأَهْرِيْقُوا عَنْهُ » .

وقد كان أهل الجاهلية يقدمون تلك الذبائح لأصنامهم ، فاجاء الإسلام بتقدّمها لله تعالى وذكر اسمه عليها بدل الأوثان وكانوا

يكرهون كسر عظامها ، فجاء الإسلام ببابحة ذلك ، مخالفة لهم ،
وإبعادا للمسلمين عن التطير والتشاؤم ، وتخليصا لهم من اتباع -
الأوهام والنوروس .

هذا وفي العقيقة أيضا شكر لتلك النعمة التي أنعم الله بها عليهم ،
ولذلك استحب لهم أيضا أن يتصدقوا بشيء قليل من الفضة يوم
السابع شكرا للنعمة . ويلتحق بما ذكرناه من التنويه بشأن الدين ما يفعل
من الأذان في أذن المولود ، فإن الأذان في الأذن من شعائر الإسلام وأعلام الدين
المحمدي . ومن المقاصد الشرعية أن يدخل ذكر الله في تضاعيف الأعمال
ليكون كل ذلك ألسنة تدعو إلى الحق وإلى دين الله ومن ذلك أنه
يستحب أن يختار للمولود بعض الأسماء التي تشعر بذلك : كعبد الرحمن ،
وعبد الله ، ومحمد ، وأحمد . وقد جاء الترغيب في ذلك في صحيح
مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » وفي مسند
أبي داود والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سَمُوا
بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ » الحديث . فذلك كله تنويه بالدين ، وكأنه إقرار
بأنه من أهله .

الختان

الختان سنة من سنن الدين^٧ ، وهو من الكلمات التي ابتلى الله بها
خليله إبراهيم فأتهمن ، وكان عليه العرب قبل الإسلام اتباعا لأبيهم
إبراهيم عليه السلام .

وأما حكمته فهي المبالغة في تنظيف البدن من الأدناس والأرجاس بقدر الإمكان . وللدين الإسلامي عناية كبرى بالنظافة والحث عليها . ومن ذلك طلبه قص الشارب ، وتنظيف الإبط ، وإزالة الأظفار ، وإيجاد الطهارة للصلاة . ولا شك أن إزالة القلفة أضمن ذلك وأعون عليه .

وفي نظافة الظاهر إشعار بالحث على نظافة الباطن ، وإشارة إلى أن في النفوس أشياء من مساوئ الأخلاق تجب إزالتها والتنزه عنها ، فكما تزيل شعث ظاهرك يجب أن تزيل شعث باطنك وإن كان خفياً جبلياً تعانى في إزالته آلاماً ومشاق وتحتاج فيه إلى صبر ومجاهدة ، وهو موضع الابتلاء والاختبار ، فإنك لم تخلق كاملاً ، ولكن خلقت قابلاً للكمال مكلفاً به مأموراً بتحصيله . وهذا هو الفرق بينك وبين الملائكة والحيوان الأعجم . وفي الختان أيضاً من الفوائد ما يمكنك أن تقف عليه من حذاق الأطباء مما لا يحسن أن نفيض فيه .

هذا والختان شريعة التوراة أيضاً

فَضْلُ الصَّلَاةِ وَبَيَانُ اسْمَارِهَا^(١)

وشرح حديث شريف

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسَلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَفَبُيِّقَى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ؟ قَالُوا لَا يُبْقَى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قُلْ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وفى لفظ آخر « إِنَّمَا مِثْلُ الصَّلَاةِ كَمِثْلِ نَهْرٍ عَذِبٍ غَمَرٍ بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسَلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ »^(٢) . أخرجه مالك فى الموطأ من حديث طويى . وعن حذيفة رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

أخرجه أبو داود وفى رواية « حزنه » بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . إلى غير ذلك وهو كثير .

فا علم أن الصلاة أعظم العبادات شأنًا وأرضحتها برهانًا وأكبرها أثرًا فى تطهير القلب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية ، حتى قال « من ترك الصلاة فقد كفر » وقال « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » .

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الرابع - سنة ١٣٥٢

وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد ، فكفر تارك الصلاة ، ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكانهم رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التي إذا فقدت حكم بفقده لقوة الملايسة بينها وبينه ، فإن الصلاة هي المحققة لمعنى إسلام الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبؤ من الإسلام إلا لا يعبأ به .

وبالجملة فهي في نظر الشارع أعظم شعائر الدين . ولذلك أوصى بها الصغار والكبار ، وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها ، لتكون ملكة راسخة في النفوس ، بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها مسيطرة عليها ، حتى تمنعها من اقرار الذنوب بسطانها القاهر وما تورثه في النفس من الخشية والمراقبة ، ولذلك يقول الله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١) ويقول (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢) وسنشرح ذلك تمام الشرح .

ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه خلائقه وملكاته التي انصبغت بها نفسه ، وانتعش بها قلبه

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا أن نعلم الصبي الصلاة لسبع ، ونضربه عليها لعشر ، حتى نصادف منه قلباً خالياً قبل أن تفرقه الأهواء التي نجعل النفس شعاعاً والقلب أوزاعاً .

(١) سورة النكبيوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المارج ، الآيات ١٩ - ٢٣

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسيلة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من التردى في أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس ، حتى ترتفع بها إلى عالم الملكوت .

والمصلي إذا قصد من الصلوات أرواحها لا أشباحها ومعانيها لا صورها ، فلا بد أن يخوض في لجة عظيمة من الرحمة وكأنه بدخوله في الصلاة قد اندرج في سلك الملائكة ، وخرج من هذا العالم بالكلية ، ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنهم تطرح عنهم أثقالهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرِحْنَا بِهَا يَا لَيْلُ » ويقول « رَجَعِلْتُ قُرَّةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ، لما كان يحس فيها من الرحمت وغميوضات ، والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق في عظمة رب الأرض والسموات .

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة ، فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة تطير بها إلى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التي تفرقت في صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد وانائم والمسيح ، فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحبهرات ما قدر لك .

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، وقرّة عين الواصلين ، حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا السلام عليكم ،

يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين . وكأنهم يقولون لهم
إننا كنا مع الله تعالى لا معكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع
أحد حى الملائكة المقربين .

والخلاصة أن المصلى قد خضع لله بقلبه ، وذكر الله بلسانه ، وعظمه
غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له ، ثم تدرج
فى التعظيم وترقى فى الإجلال فأتى بالركوع ثم بالسجود الذى هو أكبر
مظهر للعبودية .

ولما كان الحق متعالياً عن الجهة أقام التوجه إلى بيته مقام التوجه
إليه هـ

كلمة تفصيلية عن بعض ما فى الصلاة من الأسرار :

إذا قام المسلم إلى الصلاة قال قبل الدخول فيها تلك الكلمات
المعروفة فى الأذان والإقامة . وكأنه يريد بذلك أن يشعر نفسه بأن الله
أكبر من كل شىء . وقد أراد أن يدخل حضرته ويشغل مناجاته ،
فعلبه ألا يشغل قلبه بشىء سواه ، ثم يشعرها بعقد الإيمان الذى ربط
قلبه عليه ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم
يخاطب نفسه أمراً إياها بالإقبال على الصلاة والقيام بواجباتها قائلاً
لها يا نفس أقبلى على الصلاة ، يا نفس أقبلى على الفلاح ، فإن
« حى » فى لغة العرب تستعمل لطلب الإقبال ، فكأنه يقول لنفسه
إن هذا هو فلاحك فأقبلى عليه ولا تعدلى عنه ، فالعاقل لا يعدل عما
فيه فوزه وفلاحه ، ثم يؤكد ذلك ببقية كلمات الإقامة ، مما يملأ النفس
خشوعاً وهيبة وتنهباً ويقظة ، لما هى مقبلة عليه ومتوجهة إليه

ثم يرفع يديه عند الدخول في الصلاة ، وكأنه يشير بذلك إلى
 طرح الدنيا وراء ظهره ، قائلاً لنفسه الله أكبر من كل شيء ،
 فلا تعول إلا عليه ، ولا تلتفتي إلا إليه ، ثم يقول إنى وجهت وجهي
 للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين .

أو يقول إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ،
 لا شريك له

أو يقول تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، إلى آخر
 ما هو معروف .

يقول ذلك لأجل أن يحرك من نفسه الإحساس بعظمة الله تعالى
 ويوقظها للإخلاص في عملها والحضور في صلاتها

وإذا كان لإنسان بحضرة الملك لا يفكر في غير مناجاته وما يليق
 بعظمته ، فكيف بحضرة الله عز وجل وهو يخاطبه بقوله (إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ^(١) ثم إنه يقرأ الفاتحة بعد ذلك ، فيثنى على
 الله تعالى الثناء الواجب تقديمه بين يدي الدعاء ، فيقرع به باب الكرم
 ويحرك به سلسلة الإجابة ، ويقضى به واجب التعظيم وآداب المواجهة ،
 قائلاً (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ^(٢) أى أن كل حمد في الحقيقة إنما لله عز وجل
 لأنه هو المنعم لا غيره . فكل نعمة صادرة منه وراجعة إليه (مَا يَفْتَحُ
 اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيدَ لَهُ مِنْ
 بِيَدِهِ) ^(٣) (فَسُحْبَانَ النَّبِيِّ بِيَدِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ) ^(٤)

(٢) سورة الفاتحة الآية ٢

(٤) سورة يس الآية ٨٣

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥

(٣) سورة فالمر الآية ٢

ثم يشعر نفسه . وجب ذلك الحمد من التربية العامة لجميع العوالم بقوله (رب الْعَالَمِينَ)^(١) ٥

وانظر ماذا يخالج قلبه من عظمته تعالى عندما يتصور سعة العوالم وعظمتها ، وما اشتملت عليه من العلويات والسفليات التي أصبحوا يقولون إنها لانهاية لها ، وإنما خلق الله من النجوم والشموس والكواكب المختلفة الأحوال والأشكال ما لا يعلمه إلا الله الذي قدرها أحسن تقدير ، ودبرها أحكم تدبير ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وفي كل أرض ما يحفظها ، لأنه الرحمن الرحيم

ثم ينتقل من ذلك إلى أنه مع تلك الرحمة البالغة يجب أن نرهب^(٢) منه غاية الرهبة ، وأن نستقيم على السنن السوى ، فإنه لا بد من الجزاء على ما عملنا من خير وشر ، في يوم يدان فيه كل عامل بعمله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٣) فيعرف نفسه أن ذلك الإله العظيم الذي لا حد لعظمته هو مالك يوم الدين

وعندما يمتلئ قلب المصلي بنعوته الجلالية والجمالية يقول (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لأنه لا يستحق العبادة غيرك ، ولا يملك المعونة إلا على الحقيقة أحد سواك ، ثم يطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي يعلمه هو ، ولا نعلمه إلا بتعليمه تعالى وهدايته سبحانه ، وهو

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٢

(٢) سورة الزلزلة ، الآيات ٧ ، ٨

صراط. المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، غير
المغضوب عليهم ولا الضالين

وكأنه وهو العليم الحكيم يقول لنا إن الناس منقسمون إلى هذه
الفرق الثلاث ، فإن شئت فكن من المنعم عليهم ، أو من الضالين
الذين جهلوا طريق السعادة وما رسمه الله لعباده من سبيل الهداية و
المغضوب عليهم الذين عرفوا طريق الهدى فتكبروه ، وسبيل الرشاد
فعدلوا عنه ، فهو يحذرنا من الانحراف عن الصراط المستقيم ، فإن
من انحرف عنه كان من إحدى الطائفتين لامحالة

ولو تراءى المصلى سبحانه وتعالى ولم يعلمه هذا الدعاء الكلى الجامع ،
لدعا بالأدعية الجزئية ، ولم يسأل غير المطالب المحدودة التي تمليها
عليه شهواته ، وترشده إليها نزعاته .

والقول المختصر في ذلك أن الله أنزل الفاتحة يعلم الناس فيها كيف
يحمدونه وثنون عليه ، ويقرون له بتخصيص العبادة والاستعانة به
تعالى ، على ما يقتضيه التقديم في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين)
ويعلمهم سبحانه كيف يسألونه الطريقة الجامعة لأنواع الخير:
ويتعوذون به من طريقة المغضوب عليهم والضالين .

ولا يسمع المقام غير هذا التلميح ، فلننتقل إلى ما بعد ذلك ، فنقول :
إن المصلى بعد أن يقرأ الفاتحة يقرأ في الركعتين الأوليين من القرآن ما
يزيد ذلك السجدة وقر في قلبه تأكيداً وتشبيهاً ويملاً نفسه إيماناً ونوحيداً ،

فيقرأ مثلاً قلبه تعالى : (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ)^(١) أو سورة الإخلاص ، أو بعض آيات الوعظ ، أو سور الزجر ، فيزناد خشوعاً وخضوعاً ، فلا غرو أن يركع لتلك العظمة قائلاً في ركوعه « سبحان ربي العظيم »

ثم يرى أن ذلك غير كاف في التعظيم ، فيبخر ساجداً لله تعالى إبرازاً للعبودية في أعظم مظاهرها . ولما كان أعظم ما يرحبه الله تعالى هو التواضع ، لأنه أخص أوصاف العبودية ، وما خلقنا الله تعالى إلا لنتصّف بالعبودية ، ونقوم بحق الربوبية التي أخص أوصافها العظمة والكبرياء ، ككرر المصلي اسجود إظهاراً لما امتلأ به قلبه من عظمة الربوبية وذل العبودية وقد ورد « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »

وسر ذلك ، أن بعد العبد من ربه على قدر ما فيه من الأناية والكبرياء وقربه منه على قدر ما فيه من تواضع وخشوع

ثم يكرر ذلك كله في كل ركعة من صلاته ، فإذا أراد الخروج من الصلاة كان نزلة من يريد الانصراف من حضرة الملك ، فيثنى عليه أبلغ الثناء ، ويحييه أفضل التحيات ، ثم يطلب منه ما شاء من المطالب ، فكذلك المصلي عند ما يريد الانصراف من حضرته تعالى يقول إن كل تحية وتعظيم 'يستحقها في الحقيقة إلا الله ، فكل تحية زاكية مباركة طيبة ليست لا لله عز وجل

وهذه الصلوات التي نقيمها لا ينبغي أن تكون إلا لرب العالمين لا للمربوبين المقهورين .

ثم أمرنا بالسلام على النبي تنويماً بذكره ، وإظهاراً للإقرار برسالته ، وأداءً لبعض حقه ، ثم يعمم المصلي بقوله السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السموات والأرض ، ثم يأتي بالتشهد بعد ذلك لأنه أعظم الأذكار ، وهو يعد تجديد لعقد الإيمان أمام الله قبل الانصراف من حضرته ، ثم يختار من الدعاء بعد الصلاة على النبي التي هي مقدمة ووسيلة لإجابته أعجب الأدعية إليه .

وسر الدعاء في ذلك المقام أن المصلي عند ما يصل إلى آخر الصلاة يكون قد خاض في بحر من الرحمة ، وكاد ينسلخ من عالم الحس ويتلحق بعالم القدس « أو تم له ذلك إن كان من أهله » وحينئذ لا يسقط له مطلب ولا يرد له دعاء ، ثم ينصرف من الصلاة مسلماً على من معه من الملائكة والمؤمنين ، لأنه لم يكن معهم ، بل هو راجع من الملأ الأعلى ، أو نقول من معية الله عز وجل كما أشرنا إليه

فهل ترى أن من صلى هذه الصلاة يبقى عليه شيء من دنس الطباع ؟
أو ظلمات النفوس ؟

وقد علم الله أنه لا بد لنا من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة مانتلوث به أثناء اشتغالنا بأمورها ، فأمرنا بتكرير الصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة ، فهي بمنزلة الدواء الذي نكرره كلما خفنا من صولة

المرض أو خشينا من تحركه ، فإذا غشيتنا بعض الظلمات ، ولعبت بنا بعض الشهوات ، تداركنا الله بالصلاة الأخرى ، فأزالت ما لحقنا من آفات وما وقعنا فيه من زلات ، فجددت لنا تنبه النفس ويقظة القلب ، فزالت عنا الغفلة وعاودتنا المراقبة ، فسبحان الحكيم العليم اللطيف الخبير :

وأظن أنك بعد ذلك لاتشك في أن الصلاة بمنزلة ذلك النهر الذى يكون على باب أحدنا ، فكلما أحسننا بشئ ۞ يندسنا تطهرنا به ، فزالت الأدناس وذهبت الألوات كما سبق في الحديث الشريف الذى صدرنا به المقال ، وكما قال تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)^(١)

الخلاصة

أن المصلين يسيرون فيما بين الصلاتين بذلك النور الذى اكتسبوه منها ، حتى إذا كاد ينمحي بسبب المعاملات الدنيوية والدخول في مضايقتها وظلماتها ، تداركهم الله بالوقت الثانی ، فقاموا للصلاة يستدركون ما عسى أن يكون قد فرط. منهم فيما بين الصلاتين

ولا شك أن من حافظ على الصلوات لا يزال معه بقية من نورها فلو فرضنا أن اقتترف بعض المهات والنفوات لم تصل ظلمة الخطايا والغفلات إلى جذر القلوب فتكون تلك النفوات كغبار مر على ظاهر

(١) سورة هود ، الآية ١١٤

العين ثم أزيل قبل أن يستقر فيها بفضل الصلاة التي تليها : وبهذا تبين غاية البيان سر قوله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١) وقوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢) وهذا هو الدوام المتيمم عندما امتنع الدوام الحقيقي . ولنقف هنا ، ولعل لنا عودة .

(١) سورة النكبات ، الآية ٤٥

(٢) سورة المارج ، الآيات من ١٩ - ٢٣

مسائل تتعلق بصلاة الجمعة

جاءتنا أسئلة كثيرة في هذا الموضوع نقتصر منها على سؤالين ،
وفي الجواب عنهما جواب عن كل ما ورد إلينا في هذا الموضوع

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير مولانا الشيخ يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فنرجو الجواب عن مسألة ،
شرحها : أن هناك بلدة قاضيها الشرعى واحد ، وسوقها واحد ، وحاكمها
واحد ، تشتمل على قرى متعددة لا تبعد الواحدة عن الأخرى بميل ،
وبين بعضها بساتين ليست مسكونة ، وكل قرية مستقلة بمنافعها
الخاصة كجامع الجمعة وغيره فهل والحالة هذه إذا حضرت صلاة
الجمعة في قرية ولم يوجد من أهلها إلا اثنا عشر رجلاً وكان فيها من
القرية الأخرى ما يفي بالعدد المذكور نتمم بهم العدد ، نظرا إلى أنهم
من بلد واحد ، أم لا ، نظرا إلى أنهم من قرية مستقلة ونصليها ظهرا ؟
جاءنا هذا السؤال وطلب منا مرسلوه أن نعرضه على فضيلتكم ،
ولكم لشكر ومن الله الأجر .

سليمان التروبي

برواق المغاربة بالأزهر الشريف

نحن أهل ناحية الجرفية مركز قنا ومديرية قنا ، نظرا لما يلحق
بعضنا من المنزقة للذهاب إلى بلدة الشيخ عيسى لصلاة الجمعة فقد
أقمنا جمعة في بلدتنا التي يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نفس تقريبا ،
وتبعد عن قرية الشيخ عيسى بألفي متر تقريبا ، فقيل لنا إن صلاة
الجمعة لا تصح في بلدتكم لأنها تابعة لبلدة الشيخ عيسى فآفتونا
من تصح الجمعة في بلدتنا أم لا تصح ؟ ولكم من الله الأجر والنواب
محمد الراوى أحمد ومحمود جوده الجرفي

الجواب

يجب لتوضيح الموضوع أن نجعل الكلام في مقامين

المقام الأول صحة الجمعة في كرا قرية من هذه القرى وعدم
صحتها إلا في قرية واحدة منها .

المقام الثاني انعقادها من ليسوا متوطنين بقريرتها وعدم انعقادها

٣٢

المقام الأول

القرى المتاربة يجب على أهلها جميعاً أن يؤدوا جمعة واحدة في
المسجد العتيق ، وهو الذي أقيمت الجمعة فيه أولاً ، أى قبل إقامتها
في غيره ، وإذ تأخر أداؤها فيه عن غيره فيما عدا الجمعة الأولى

فكل من كانت قريرته خارجة عن قرية المسجد العتيق بما لا يزيد
عن ثلاثة أميال وثلاث يجب عليهم السعى لأدائها في العتيق ، فإن
جمعوا في غيره فجمعتهم باطله إلا إن كان إحداث الجمعة عندهم

لضيق العتيق مع عدم إمكان توسعته ، أو لعداوة بينهم وبين أهل القرية التي فيها العتيق بحيث يخشى من حضورهم معهم في مسجد واحد حدوث فتنة ، فإذا تكون جمعتهم في مسجدهم صحيحة .

وكذا إن حكم حاكم بصحتها في غير العتيق صحت الجمعة ومن كانت قريته تبعد عن قرية العتيق بثلاثة أميال وثلاث فجمعتهم في مسجدهم صحيحة ، ولا يجب عليهم السعي لأدائها في العتيق

المقام الثاني :

من شرط صحة الجمعة أن يحضرها اثنا عشر رجلاً سوى الامام أحرار متوطنون بقريتها ، أى مقيمون بها بنية التأييد .

أما المقيم بقرية خارجة عنها وهو ممن يجب عليه السعي لها كما قدمناه فإن الجمعة تجب عليه تبعاً لأهل القرية ولا تنعقد به ، فلا يعد من الاثنى عشر .

وحيث إن القرى المسئول عنها كل منها مستقل مرافقه عن الأخرى ، فلا تعد كقرية واحدة ، ولا يعتبر المتوطن بقرية خارجة عن قرية الجمعة متوطناً بقريتها .

فإذا لم يحضر من المتوطنين بقرية الجمعة الاثنا عشر فلا تصح الجمعة وإذا حضر العدد صحت إقامتها إلى ما قبل غروب الشمس بزمن يسع ركعة من العصر ، وإن حرم تأخيرها عن آخر وقت الظهر المختار ، وهو ما قبل دخول وقت العصر بزمن يسع ركعة من الجمعة والله يتولى هدى الجميع .

ثبوت شهر رمضان بواسطة التلغراف ونحوه

حضرة الأجل الفاضل العالم العلامة الشيخ يوسف الدجوى المحترم ،
حفظه الله تعالى علاه ، ولطف به وتولاه ، آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فإننا لكم من المحبين ،
ولقد اطلعنا على بعض مقالات لكم مدرجة في (مجلة الأزهر) ،
فسررنا بها غاية السرور ، سائلين المولى أن يمتع الإسلام بحياتكم
هذا وإننا نحب أخذ رأيكم في مسألة العمل بالبرقيات التي ترد لنا
عن ثبوت الأهلة: مما تقتضيه القواعد الشرعية ، لا سيما على مذهب
الإمامين الجليلين مالك والشافعي رضى الله عنهما ، بما هو مشروح
في السؤال وهو هنا

ما قولكم دام فضلكم فيما إذا وردت برقية من الحجاز أو الشام
مثلاً إلى البحرین برؤية هلال شهر رمضان أو شوال ، مع ما هو
معلوم من مباشر عمل البرقية غالباً ، وتغاير حكومة المحليين المذكورين ،
فهل يعمل بالبرقية المذكورة في مسألة الإمساك والإفطار أم لا ؟ وإذا
قلتم بالعمل بها فما وجهه ؟ وإن قلتم بعدمه فما السبب في ذلك ؟ بينوا
لنا ما يلزم في ذلك بالتحقيق ، ولكم من الله الأجر ومنا الشكر ،
والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبيكم قضاة محكمة الشرع بالبحرين :

الجواب

قد نص في مذهب مالك رضى الله عنه على أنه إذا ثبت شهر الصوم
لدى حاكم وإن لم يحكم به ، ونقل ذلك الثبوت إلى جهة أخرى بواسطة

رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن لقريب منه ، أو بواسطة رجل واحد عدل ، فإن الشهر يثبت في حق أهل الجهة المنقولة إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر ، فإن المسألة من باب الرواية التي يكفي فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة :

ولا عبرة باختلاف المطالع عنده ، فيجب الصوم سواء اختلف مطلع الهلال في الجهتين المنقول منها وإليها أم اتحد ، وسواء تقاربت الجهتان أم بعدتا ، إلا إذا كان البعد بينهما شاسعا جداً فلا يثبت لحكم بالنسبة لأهل إحدى الجهتين بثبوت الشهر في الجهة الأخرى ومثل ذلك البعد الشاسع ما بين خراسان (بالمشرق) والأندلس (بالمغرب) :

ونص المالكية أيضاً على أنه يعتمد في الصوم والقطر على القرائن بدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع ، وإضاءة المآذن ، كما يعتمد على صوت المؤذن في معرفة وقت الصلاة ، لجرى العادة بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب

ونص مولانا الشيخ عليش في فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية في الصوم ، لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين .

وعلى أن من أفطر في رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولاً بآن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التي لا تعتبر في ثبوت الشهر شرعاً ، فإنه يجب عليه الكفارة « فضلاً عن القضاء » لأنه متأول تأويلاً بعيداً لجهله وسوء ظنه ، فلا عبرة بتأويله « وألفت نظرك لجعله ذلك جهلاً وسوء ظن » .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم في رمضان ، والفطر أول شوال ، على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر

وحيث إن الغالب في الأخبار التي ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلوكية أو اللاسلكية إنما هو الصدق في المسائل الدينية كصوم رمضان ، فنرى أنه يجب صوم رمضان والفطر أول شوال بناءً على الإخبار بهما من هذا الطريق ، إلا إذا تباعدت الجهتان جدا كما تقدم ، وإن كان عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعاً . أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها وإليها ، فذلك لا يمنع غلبة الظن التي هي مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية ، كأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات ، فإن الشارع جلت حكمته لم يكلفنا في العمل بالقطع واليقين دفعاً للحرص (وما جعلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)^(١)

ومعلوم أن الأحكام العملية يكفى فيها الظن ، وأنه لا يجب فيها اليقين وقد قالوا : إن غلبة الظن فى دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : وإن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه ظنه

وإن المسائل القطعية ليست من مباحث الفقه ولا يعقل فى الملة الحنيفية السمحة التى تقول : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)^(١) وتقول « إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ » إلا هذا

ولو قلنا إن أخبار البرقيات السلوكية واللاسلكية لا يعول عليها بناءً على هذه الاحتمالات لو صمنا الدين الإسلامى البعيد النظر الواسع الحكمة بالجمود الذى يبرأ منه وينعاه على أهله ، ولصيرناه مضغاً فى أفواه أعداء الدين ، وسخرية بين الزنادقة والملحدين .

ولو فرضنا أن عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم لم يضر ذلك شيئاً ، لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله إلى الجهة المعينة ، فهو كالبريد الذى يحمل الرسائل

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت رمضان بىأى وسيلة من الوسائل التى تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة الظن ثم يصبح مفطراً بعد ذلك ، ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة فى هذا العصر لم تكن معروفة فى العصور الأولى . والمدار فى كل ذلك على حصول المقصود الذى هو الظن الغالب ، والحكم يدور مع

علته وجودا وعدما « وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة بل كانت مقصدا » ،
وقد فرضناه وسيلة والشارع لم ينط. الأحكام إلا بحصول الظن الغالب ،
فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع ، حتى يكون دين العصور كلها
والأمم كلها ، وتكون حجته قائمة على المخالفين في كل زمان ومكان

نعم : بمض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال وقيام الشبهة ،
كوجوب القصاص في الجناية على النفس ، ولكن ذلك لدليل خاص
كقوله صلى الله عليه وسلم « اذرءوا الحُدودَ بِالشُّبُهَاتِ » وذلك
لخطر القصاص هذا ما نقول به ولا نفتي بشئ سواه

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويمنعنا من الخطل ، وأن يلهمنا
الرشد في العلم والعمل ، ولا يكلنا لأنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه

مسألة تتعلق بالبيع والدين والربا

قال السائل بعد الديباجة

نرجو الإفادة عن مسألة صورتها رجل تداين من آخر بضاعة معلومة بثمن قدره ألف فرنك مثلاً إلى أجل معين ، وعند انتهاء الأجل طلب صاحب الدين من المدين دينه ، فقال المدين لا أملك شيئاً أدفعه لك إلا أن تبيعني بضاعة أخرى تساوي ألف فرنك نقداً بألف ومائة مؤجلة لتبيعها الآن بألف وتدفع لك الألف السابق ، فوافقته صاحب الدين على ذلك ، وأخذ البضاعة وباعها ودفع السابق فهل العقدة الثانية ممنوعة شرعاً ، وما جعلت إلا للتخلص من المطالبة بالدين السابق مع زيادة مائة فيه ، أم هي عقدة جديدة منفصلة عن الأولى ، وحينئذ تكون جائزة شرعاً وليس فيها فسخ دين في دين ولا شيء من الموانع ؟

سليمان الزوبى

بروان المغاربة بالأزهر الشريف

الجواب

قرر العلماء أنه يحرم فسخ الدين في الدين ومن صورته تأخير الدين الذي حل أجله إلى أجل آخر مع زيادة فيه ، كأن يكون لشخص على آخر عشرة جنيهاً مؤجلة إلى أجل معين فيعجز المدين عن قضائها عند الأجل ، فيتفق مع دائنه على تأخيرها إلى أجل آخر نظير زيادة اثنين ، فتكون العشرة إثني عشر ، وهذا هو ربا الجاهلية بعينه ، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع

وقالوا ايهاً : إن كل عقد حلال في ظاهره ولكن قصد به التحايل على أمر ممنوع شرعاً ، يكون محرماً متى كان ذلك الممنوع يكثر قصده للمتعاقدين بحسب العادة . ولذلك أمثلة مبسطة في كتب الفقه

وحيث إن غلب المعاملات الواقعة بين الناس في هذا الزمان لا تخلو من ربا ، إما صراحة أو ضمناً ، نظراً لاستحكام حب المال في النفوس ، والميل إلى مجارة غير المتدينين في استثمار الأموال ، والحصول على ربح فيها من أى طريق كان

وحيث إن العقد الواقع بين المتدينين لا يقصد منه إلا الاحتيال لى تأخير الألف الذى فى ذمة المدين إلى أجل آخر فى نظير زيادة المائة وجعل الدين ألفاً ومائة ، وذلك مما يكثر قصده للمتبايعين وأمثالهما نظراً لحالة المعاملات الآن كما قدمناه ، فنرى إن ذلك العقد محرم ، ويجب فسخه ورد المبيع إلى بائعه ، ولكن حيث أن المبيع قد فات بخروجه عن ملك المشتري فلا سبيل إلى رده للبائع الآن ، إنما الواجب الآن الغاء المائة الزائدة وإبقاء الدين ألفاً فقط كما كان .

ولا يحل الدائن أخذها ، ولا للمدين إعطاؤها (وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُحُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لِي ميسرة)^(١) نسأل الله التوفيق والتأييد .

سُنَّةُ الْجُمُعَةِ الْقِبْلِيَّةِ

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي

اطلعنا على مقال مسهب في بعض المجالات تحت عنوان « الصلاة قبل الجمعة وبعدها » تعرض فيه كاتبه للركعتين اللتين قبل الجمعة ، وقال : إنهما بدعة لا ينبغي فعلهما ، وأطال في ذلك .

وقد تعرض للحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه من أن النبي صلى صلى الله عليه وسلم كان يركع قبل الجمعة ، وطعن فيه ، مع أن مذهب الشافعي رضي الله عنه يرى طلبهما وسنيتهما .

والآن وقد وقفنا بين بين ، نرجو من قادة الدين أن يقولوا القول المفاصل في ذلك لنعرف ما هو الحق ، ونقف على دليل الشافعي إن كان له دليل نرجو الإفادة قطعاً للشك ، وتحقيقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

ولفضيلتكم جزيل الشكر ، ودمتم للدين .

عبد الله العرابي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

قبل أن نخوض بك في غمرات البحث والاستدلال ، يجب أن

تعرف أن هنا تمييزاً ينبغى التنبيه له ، وهو أن المسائل الاجتهادية الفرعية يكفى فيها الظن ولا ينبغى فيها التنازع

وكل من حلب فيها الدليل القطعى فهو إما جاهل لا ينبغى أن يكون فى عداد العلماء ، وإما سئء القصد لا يريد إلا الظهور بآية وسيلة ، وإن لبس على المسلمين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وهذا هو الغالب على تلك الطائفة ولذلك تراهم متناقضين ، فترى الواحد منهم تارة من الظاهرية ، وطوراً من الباطنية ، وحينما يدعى الاجتهاد المطلق فيخرج دلى الأئمة الأربعة ، زاعماً لنفسه درجة هو أبعد الناس منها ، وتارة تراه غريقاً فى تقليد ابن تيمية من فرقه إلى قده ، والمبطل لابد أن تناقض شاء أم أبى ، ولسان حاله يقول

طوراً يمان إذ لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدناى

ولو عقلوا لرفوا أن الناس لا يتركون أئمتهم المشهود لهم بالخير والدين والعلم والتبريز فى كل فضيلة ، ويتبعوا هؤلاء المشهود لهم بما لانطيل القول فيه ، وهو غنى عن البيان

هؤلاء يجازنون فى كل ما يعن لهم ، ولا يبالون بخرق الإجماع ، لهذا أنكروا شد الرحال لزيارته - صلى الله عليه وسلم - وهو مجمع عليه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم سلفيون أهل كتاب وسنة

وأى شئ يريدون بعد أن عرفنا صلى الله عليه وسلم أن « المخطئ له أجر والمصيب ، نه أجران » فلم يكتف برفع الوزر عن المخطئ بل جعل له أجراً وقد عرف ذلك العلماء من أئمة الهدى ، حتى ذهب

كثير منهم إلى أن الحق يتعدد تبعاً لظن المجتهد ، فإن الله لم يكلفه إلا بما أده إليه اجتهاده ، فكأن الحق بالنسبة إليه هو ما اعتقده ، وليس المقصود من التكليف إلا تحقيق العبودية ، وعدم الخروج على الله ورسوله ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها

وقد قالوا إن المجتهد يجب عليه اتباع ظنه ، ويحرم عليه التقليد فأى شئ بقى بعد ذلك ؟ ولكنهم ملبسون يريدون التهويش حباً في الظهور ، أو جاهلون لا يمكنهم التعمق في البحث ولا الوقوف على منازع الأئمة ، ولا ما أصله العلماء في ذلك .

وإن من أكبر بلايانا التي نثن منها ولا ندرى منتهاها وجود طائفة بيننا لا تفهم ولا تقلد من يفهم (إن في صدورهم إلا كبير ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)^(١) . ولو كان عندهم أدنى شفقة على المسلمين أو إخلاص لهم لعرفوا أن الدين النصيحة ، وأنه ليس من الدين ولا من العقل أن نعرض العامة للخوض في الأدلة والموازنة بين المجتهدين ، فذلك ليس من شأنهم ولا هو في متناول قدرتهم ، ولا نتيجة له إلا ضعف الثقة بأئمتهم وتشكيكهم في دينهم وعقيدتهم

على أن أوامرك المهوشين ليسوا في العير ولا في النفير ، ولا من العلماء في قليل ولا كثير ، فليس من المعقول كما قلنا أن يترك الناس ما عرفوه من مذاهب الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والدين والورع

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

أول البحث والتحري ، إلى هؤلاء الذين يسبرون وراء الخيال وليس يعينهم إلا أن يقال

والآن نذكر لك مما استدل به الشافعي -رضي الله عنه- على سنة الجمعة ما يكفي بعضه للاجتهاد المعقول المقبول

ولا نزال نكرر أن الظن كاف في هذا الباب ولا يطلب غيره ، وأنه متى وصل إليه المجتهد وجب عليه اتباعه والقول به وهاك قليلا من كثير

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير عند ابن حبان في صحيحه والدارقطني والطبراني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ إِلَّا وَبَيْنَ يَدَيْهَا رَكَعَتَانِ » ومن ذلك ما رواه الطبراني في الأوسط « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي قَبْلَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا » ذكره حبيبي في (عمدة القاريء) ولم يعلق عليه ، وقد ساقه للاستدلال .

وقال في الذبح روى الطبراني في الأوسط عن علي « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي قَبْلَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا » وعلق عليه بقوله وبه محمد بن عبد الرحمن السهمي ، وهو ضعيف عند البخاري وغيره ولكن هذا الطعن الذي ذكره الفتح لا يمنع الاستدلال به ، لا لأن الجرح غير مفسر كما قال بعضهم ، بل لأن الطعن غير متفق عليه ، فإن البخاري ضعفه ، ولكن إماماً آخر من أئمة الحديث وثقه وهو ابن عدي ، فيصح أن نقول : إن هذا مثل عكرمة الذي وثقه البخاري واحتج به ، وضعفه غيره ، ومثل سويد بن سعيد الذي احتج

به مسلم وقد اشتهر الطعن فيه . وبالجملة فحديثنا هذا غير متفق على تجريح رواته ، فيصح الاحتجاج به عند من لا يرى تجريح محمد بن عبد الرحمن السهمي المذكور .

وعن ابن عمر أنه كان يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي بعدها ركعتين ، ويحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . رواه أبو داود . وقال العراقي : إسناده صحيح .

وقال المنذرى : أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من وجه آخر بمعناه وروى الترمذى « مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنِي لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعًا قَبْلَ الظَّهِيرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ » ونحوه في مسلم من حديث أم حبيبة ، غير أنه لم يذكر هذا التفصيل وفي رواية عن أم حبيبة بنت أبي سفيان « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ تَوَضَّأَ فَأَمْسَخَ الرُّضُوءَ ثُمَّ صَلَّى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَرُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ » .

أفتري أن ذلك مطلوب كل يوم إلا يوم الجمعة الذي تتأكد فيه الطاعة ، ويزداد فيه الحرص على العبادة وعمل الخير ؟ !

وقد صرح الحديث بالتعميم فقال كل يوم ، كما سمعت . وفصل الترمذى في روايته المتقدمة هذه الركعات غاية التفصيل ورواية الترمذى وإن لم يذكر فيها لفظ كل يوم ففيها ذكر النكرة في سياق الشرط وهو يفيد العموم ، ولا معنى لإخراج يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام وأولها بالصلاة والعبادة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال - :
« مَنْ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَا قَدَّرَ لَهُ ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرَغَ
الْإِمَامُ مِنْ خُصْبَتِهِ ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى »
الحديث . رواه مسلم . وجاء في بعض الروايات عند الإمام أحمد بلفظ :
« فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْإِمَامَ خَرَجَ صَلَّى مَا بَدَأَ لَهُ ، وَإِنْ وَجَدَ الْإِمَامَ قَدْ خَرَجَ ،
جَلَسَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ جَمْعَتَهُ » الحديث

فجعل الغاية خروج الإمام وهو لا يخرج إلا بعد الزوال وقال
أبو عيسى الترمذى : إن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - كان يصلي
قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً . وإليه ذهب سفيان الثوري وابن المبارك .
وروى الشافعي عن ثعلبة بن أبي مالك عن إمامة الصحابة أنهم كانوا
يصلون نصاب النهار يوم الجمعة : إلى غير ذلك وهو كثير . وبعض
هذا كاف للاستدلال على ما ذهب إليه الشافعي رضي الله عنه

وهنا روايات ضعيفة لا بأس أن نسمعك شيئاً منها وإيسر التعويل
عليها ، فإن عندنا غيرها على ما سمعت . ولا شك أن كثرة الروايات
تفيد قوة الدلائل ويؤكد بعضها بعضاً . ولا داعي لأن نقول أن الحديث
الضعيف يعدل به في فضائل الأعمال ، فالأمر هنا أعظم من ذلك ، ولو لم
يكن للشافعي إلا قياس الجمعة على الظهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم :
« بَيْنَ يَدَيَّ كُلِّ فَرِيضَةٍ صَلَاةٌ » وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه
وغيره لكن في رشف ، وقضى على تلك الجمعة الحمقاء .

وهاك بعض الروايات الضعيفة التي وردت في الموضوع

روى الشافعي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة ولكن في إسناده إبراهيم بن أبي يحيى وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، وهما ضعيفان . ورواه البيهقي من طريق أبي خالد الأحمر عن عبد الله - شيخ من أهل المدينة - عن سعيد عن أبي هريرة رضى الله عنه ورواه الأثرم بسند فيه الواقدي وهو متروك . ورواه البيهقي أيضاً بسند فيه عطاء بن عجلان وهو متروك أيضاً . وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال « إِنَّ جَهَنَّمَ تُسَجَّرُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وفيها ليث بن أبي سليم وهو ضعيف ومن ذلك حديث ابن ماجة الذي فيه بقية بن الوليد وغيره من الضعاف فهذه الروايات الكثيرة يقوى بعضها بعضاً وإن كان فيها مقال . وقد تقدم لك ما يصح الاعتماد عليه من غير هذه الروايات .

والخلاصة أن الصلاة قبل الجمعة مرغّب فيها عموماً وخصوصاً وقد قال بعض العلماء لم يتمسك المانع من الصلاة قبل الجمعة إلا بحديث النهى عن الصلاة وقت الزوال ، وهو مع كون عمومه مخصصاً بيوم الجمعة ليس فيه ما يدل على المنع من الصلاة قبل الجمعة على الإطلاق ، فإن غاية ما فيه المنع في وقت الزوال وهو غير محل النزاع

وعلى كل حال فما تقدم كاف للمنصف ، ولا حاجة للإطالة فيه

وبعد : فهؤلاء الناس إنما يقصدون التلبيس على المسلمين وإيقاع الشقاق فيما بينهم بتفريق كلمتهم وفصم عرى وحدتهم ، حباً في الظهور . فعلى ولاة الأمر أن يردعوهم عن ذلك بالزجر البليغ والتأديب الشديد ، كما كان يفعله الحكام في العصور الأولى ، وكما تفعله الحقانية الآن مع من يحكم برأيه ، ويقضى بمذهبه الخاص :

فعلى الوعاظ وأئمة المساجد ألا يتعرضوا لمن يقلد إماماً من الأئمة الأربعة ، ويدعوا وما اختار لنفسه من تلك المذاهب التي تلقاها المسلمون بالقبول ، وقامت البراهين على أنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله .

وإني مالكي ، المالكية لا يرون سنة الجمعة . ولكني لا أحب الخروج على أئمة الهدى ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسائل الاجتهادية يكفي فيها هذا وقل من هذا على ما شرحنا لك . وما من أمة لا تعظم أئمتها ولا تحترق علماءها وعظماؤها إلا ذهب ريحها وحق القول عليها .

نسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، ومزالق الأهواء عنه وكرمه .

وقوع الذباب في الطعام (١)

والحديث الوارد في ذلك

س حاضرة صاحب الفضيلة أستاذي الجليل الشيخ يوسف الدجوى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد أمر الأطباء بمحاربة الذباب وإبادة جراثيمه لما يشاهد في وقوعه على القاذورات فيحمل منها ثم ينتقل بعد، ويقع على الوجوه والأعضاء وفوق هذا فإنه سبب لنقل العدوى من الأجسام المصابة بالحمى إلى الأجسام السليمة ، وقد ورد في الحديث الصحيح (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاءً وفي الآخر داء)!

فأكتب إلى فضيلتكم راجياً بيان التوفيق بين ما يرشد إليه هذا الحديث ، وبين ما يقرره الأطباء في خطر الذباب ، ونحن بصفتنا الإسلامية نقبل ونطيع لهذا الحديث

وأرجو أن تتفضلوا بنشر هذا البيان على صفحات مجلة الإسلام ودمتم للفضل والعلم .

محمد حمدى حسن

الواعظ الدينى بواحة سيوة

وقد جاءنا سؤال آخر يسأل مرسله فوق هذا عن عدم ننجيس
الطعام بذلك الذباب .

وأقول مستعيناً بالله

الجواب

قبل كل شيء نذكر لك هذا الجواب المختصر ، وهو يعتبر قاعدة
عامة تنفع في هذا الموضوع وفي غيره

« سئلت منذ زمان بعيد عن هذا الحديث فقلت للسائل (ببساطة)

الأمر في مثل هذا سهل جدا ، فالحديث الذي فيه الشبهة لا يدخل إما أن
يكون فيه احتمال للصدق أو لا ، فإن كان فيه احتمال للصدق ولا مانع
من تحقق ماناه ، وليس هناك قاذح فيه من المحس أو العقل فهو على
العين والرأس ، وكلام الرسول مقدم على كل شيء . »

وإن قام البرهان الحسي أو العقلي على كذبه حكمنا بأن الحديث
مخترق على لثبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه لم يقله . وقد بين ذلك في
علم الأصول . (غيره غاية البيان ، وجعلوا ذلك من علامات وضع الحديث
فأى وقفة ترى بعد ذلك فبما يكون من هذا القبيل (هذا ما قلته
للسائل في ذلك الوقت) . أما اليوم فنخوض بك غمرات التخصيص
والتحليل وليكن ذلك جواباً بالتسليم وهذا جواباً بالمنع ، فنقول

مقدمة :

يتوهم ببعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه لأن بعض
الانظريات العمية المعروفة لا تتفق بهم وبعض النصوص الدينية ظاهرا .

غير أن المتأمل الذى يحقق ويبحث يعلم أن كثيراً من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير . وأن كثيراً من الآراء العلمية التى كان يرى أصحابها أنها هى الثابتة والتى أفضى إليها البحث قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها

من يتحقق هذا ويعلمه ، وهو ما تدل كل الدلائل عليه ، يعجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية فى ظاهره مخالفاً للدين لا يباينه فى الواقع ونفس الأمر ، وأن الصحيح فى الأمر هو ما ذهب إليه الدين وأن الرأى العلمى هو الذى لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه . وإنا ناقلون لك كثيراً من الشواهد على ذلك^١

ولكنى أحب أن أعلمك قبل كل شئ^٢ أننا لسنا ممن يعادى الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة فى هذا العصر إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقى بها العمران ، وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان .

ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق كثيراً من الباحثين وهى فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى تلك الظاهرة التى لا يكاد الباحث يخلص منها أو ينفك عنها ، هى تلك الكبرياء الممقوتة التى تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً فتراه (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) ^(١) يتكلم فى كل شئ^٢ ويحكم على كل شئ^٣ ،

حتى أنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا تصيب له من الصحة ، مادام مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره وهزى مما كان يتبجح به من معلوماته ، مبيناً ما كان له من زلات وما تورط فيه من جهالات وقد ترى ذلك انهازئ الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين وكان فوزه فيما استركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقله فتدنا قدمه

ولو وقفوا عندهما وصلوا إليه من المعلومات الحققة التي شهد لها الحس وأقرها الامتحان قام عليها البرهان ولم يتعرضوا لئلا سوى ذلك لكانوا في أمن الزلل وعمتمة من الخطل ولكن طغيان لئفسهم أئى عليهم أن يعرفوا قدرهم و ينسبوا لئفسهم لجهل أو قصور

الخلاصة

إن من تتأمل أئما يتجدد أكل يوم من العلم الحديث ويظهر لئمن أن لآخر من أسرار الكون لا يشك في أن العلم البشرى لا يزال طفلاً وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلا ، وهذا هو مقتضى الضعف البشرى ، وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلاتته وتكويرنه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر أنهم عرفوا ما يمكن ، وما لا يمكن ظنا منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون غرورا يبرأ منه التحقيق العلمى ويستهزئ به النظر الواسع المدقق ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة

١- لو قال قائل إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون

قائلا بالجهل منابذاً للعلم لا يدري ما يقول فإنهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين الملموسة من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل وأن ماسموه علماً ولم يكن محلاً للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به في عالم الميتولوجيا وإن شهد أهل زماتهم بأنهم المتخصصون في ذلك .

٢- لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الفلزيات كالذهب عنصر بسيط ، للقى منهم أشد الإنكار والعمامة تكون في جانب المنكرين لامحالة لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجدير بأن ينكر ، إلى غير ذلك من الأمور العديدة التي تجددها العلم .

هذا الجسم الإنساني كم فيه من جزء كانوا يظنون إنه لا منفعة فيه . ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع وناهيك ما يقولون الآن في الغدد وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص .

ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول ولذلك يقول القرآن الكريم (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)^(١) ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٢) صادقا (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)^(٣) حتى تقوم الساعة . ولا ينبغي أن ينخدع منخدع بكثرة

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

(٢) سورة يوصف ، الآية ٧٦

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٢

ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون في بعض الحيوانات التي تسبب بعض الأمراض أنها تحت المجهر يريدون أن المجهر لا يزال قاصراً عن كشفها وإنما عرفوها بآثارها ، ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات إلى اليوم رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن في صناعة الآلات الكاشفة . وكم من شيء في العقاقير الطبية يعرف تأثيره في بعض الأدوية ولا يدري لماذا يكون هذا التأثير . ولذلك نرى الطب كل يوم في تطور حتى لقد قال لي بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زماناً طويلاً إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها في المدرسة وكانت إذ ذاك هي العلم الذي لا يعول على غيره . وما يدرهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم في خطأ من قبلهم ، وقد قرر ذلك غاية التقرير وزير خارجية إنجلترا سابقاً المسيو بلفور عندما رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبردج الجامعة في أغسطس سنة ١٩٠٤ م ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الريانية مشحون بالدرر ، ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهي مُنتَه إلى كل ما فيه ، وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى

هذا وأن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التي تكاد تلحق بالبداهيات أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشئ وبين عدم الشئ في نفسه وأن الأول لا يستلزم الثاني ، وإن عدم الدليل على الشئ ليس دليلاً على عدمه .

وبعد فإذا عرفت ما أسلفناه حق المعرفة وهو الحق الذى لا مرية فيه أمكنك أن نضع يدك على الجواب الجملى ، ومع هذا فلا بأس أن نتكلم بشئ من التفصيل المتعلق بنقط السؤال

الجواب التفصيلى عما جاء فى السؤال

كيف يأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بغمس الذباب فى الإناء إذا وقع فيه مع أنهم يقولون إنه خلق من القاذورات وأنه ينقل عدوى كثير من الأمراض ؟

جوابه : إن كون الشئ من القاذورات لا يمنع أن يكون دواء لبعض الأدوية ، بل قد يكون نفس المستقذر هو الدواء النافع للمرض الذى يداوى به وكيف يستبعد ذلك وكثير من الأمراض يتداوى منها بها ، أو يكون طريق الوقاية منها بالحقن ، وهل عملية التلقيح للوقاية من الجدري إلا بالمادة المعروفة (وقد استبان حديثاً إن من أنجع الأدوية للأمراض المستعصية الحقن بمادة المرض نفسها فيأخذون دواء من السائل المخاطى ومن الدم ومن المدة ... إلخ) أفلا يكون فى ذلك ما يكفى .

وكثير من هذه الأدوية ليست من القاذورات فحسب بل هى القاذورات نفسها ، وقد يكون فيها الجرائم للأمراض الكثيرة أفيسلم ذلك للأطباء ، وينكر على سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام فلينصف المتصفون ، ومن المجرب أن لسعة الزنبور تفيد كثيراً فى بعض الأوجاع الروماتزمية ، وقد رأينا من استفاد منها . وأى قدر أقدر من دم الكلب وهو الدواء المعروف الآن للشفاء من الكلب حتى لقد أنشدنا بعض ظرفاء الأطباء قول ذلك الأديب الخليع

* وداوئى بالئى كانت هى الداء * .

(وأما الجواب عن السؤال الثانى) فإنه لا غرابة فى أن يكون الشئ بعضه سم والبعض الآخر ترياق ، وعدم وقوف الأطباء على ذلك لا يقتضى عدم وجوده ، وهذه مسألة ليس مرجعها إلى علم التشريح فإنه إنما يتكلم على بعض الوظائف للأعضاء بحسب ما ظهر لأصحابه وهو قليل من كثير وقد قال بعضهم الفرق بيننا وبين آباءنا اعتقادنا أننا جهلاء واعتقاد آباءنا أنهم علماء ، فليكن هذا من ذلك الخفى .

وقد أسلفنا أن عدم العلم بثبوت الشئ لا يقتضى نفيه

ومن ادعى إحاطة العلم بكل ما فى الأشياء من الخواص فقد كذب على العلم وحمله ما هو منه برىء . والخالق الذى جمع فى جسم الحيوان بين القوى المتضادات والعناصر المختلفات قادر أن يجعل فى أحد الجناحين سما وفى الآخر ترياقا .

والأطباء صادقون فى دعوى أنهم لم يعلموا ولكن لا يضر ذلك شيئاً كما أوضحناه ، على أن المكتشفات الجديدة قد أيدت الحديث تمام التأييد . وستسمع شيئاً من ذلك بعد فانتظر .

(وأما الجواب عن السؤال الثالث) فمذهب الشافعى - رضى الله عنه - أنها إذا ماتت فى الإناء لسبب غمسها وهى حية فيه فإنها لا تنجسه أخذاً من هذا الحديث الشريف فإنه قال رضى الله عنه إن الأمر بغمسها فى الإناء قد يفضى إلى موتها فى الإناء فلو كانت تنجسه ما أمر بغمسها

فيه . وأما لو تعمد طرحها فيه وهو غير مأمور به فإنها تنجسه حينئذ
لأن النص إنما هو فيما لو وقعت بنفسها ، فغمسها حينئذ من التداوى
الذى لا بد منه كما ستعرف ذلك

الطب الحديث وما يقوله في الموضوع بخصوصه

(وهو آية من آيات النبوة ومعجزة من معجزات الدين الإسلامى)
أرأينا بحثاً تمتعنا لحضرة الأستاذ الفاضل إبراهيم أفندى مصطفى
عبده معيد فى الصيدلة وتركيب العقاقير بكلية الطب . ألقاه فى جمعية
الهداية الإسلامية يوم الخميس ٢٩ من شوال سنة ١٣٤٩ - ١٩ مارس
سنة ١٩٣١ م وهى محاضرة طويلة نمتطف منها ما يأتى

قال بعد أن ذكر الحديث الذى فى سؤال السائل ما نصه

وقع كثير فى خطأ تكذيب هذا الحديث زاعمين عدم مطابقته
للحقيقة ، وذلك قبل أن تدنض مفترياتهم الأبحاث العلمية الجديدة
منذ بضع سنين وتكشف عما تضمنه من بليغ الحكمة

ولو أنهم جاروا السلف الصالح فى التصديق لكان خيراً لهم

ويحق لنا أن نضم هذا الحديث إلى المعجزات العديدة التى جاء بها
خاتم المرسلين منذ أكثر من ثلاثة عشرة قرناً وأن ما يقدمه الذباب
للناس من المنافع لآية عظيمة على وجود الخالق وقدرته . كما أنها توضح
الحكمة فى ضربه مثلاً فى القرآن الكريم لتعجيز الكافرين .

وقد ، ومعلوم أن الذباب يقع على العفونات والمواد القذرة المملوءة بالجراثيم
التي تولد الأمراض المختلفة ، أتدرون ما هو العمل الجليل الذى خص به
الذباب وسخر له .

فكما أن الذباب ينقل بعض الجراثيم بلامسته مصدرها فإنه أيضاً يأكل منها أكثر مما ينقل

وليس كل واجبه تقليل نسبة وجود الجراثيم فحسب ، بل إن ما يتناوله منها في فمه يتحول داخل جسمه إلى ما سماه علماء الطب بالبكتريوفاج أو (مبعد البكتريا) الذي ينتصر على كثير من جراثيم الأمراض فيبيدها على بكرة أبيها ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى أو يكون لها أى تأثير في جسم الإنسان في حالة وجود البكتريوفاج فسبحان الخلاق العظيم .

والآن أسمعكم ما جاء بمجلة التجارب الطبية الإنجليزية عدد ١٠٣٧ عام

١٩٢٧ قالت

لقد أطمع الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض ، وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم واختفى أثرها وتكونت في الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى (بكتريوفاج) ولو عملت خلاصة من الذباب في محلول ملحي لاحتوت على البكتريوفاج التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوفاج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع أخرى من الجراثيم هـ .

وقد برهن على ذلك أيضاً الأستاذ الدكتور دريل مندوب الصحة البحرية والكورينتينات المصرية في الهند للبحث عن ظهور الكوليرا بها وأنجع الطرق لمقاومتها وقدم تقريراً مفصلاً في ديسمبر سنة ١٩٢٧ م

عما أجراه مع زملائه من الأبحاث الفنية والتجارب العلمية فقد ذكر في تقريره أن البكتريوفاج أجسام حية صغيرة الحجم جداً أمكن تكوينها ورؤيتها بترسيب ذرات الفضة عليها وأنه حصل على البكتريوفاج وتمكن من زرعه وتنميته وإذابته في الماء وإعطاء محلوله إلى المرضى بنسب مخصوصة ، وبزيادة الجرع وتنظيم تناولها كان المريض ينال الشفاء في يومين أو ثلاثة ، وتمكن أيضاً من استخراج البكتريوفاج من براز الناقلين واستعماله لنفس الغرض وكان يضع من زرع البكتريوفاج في بئر القرية فإذا شرب منه أهلها زالت عنهم أعراض الكوليرا

وبذلك برهن على أن الذباب ينقل البكتريوفاج من براز الناقلين إلى آبار الماء فيشربه الأهالي ويتناولون الأطعمة التي ينقل الذباب إليها البكتريوناج ، فسرعان ماتخف عنهم وطأة الكوليرا ثم تزول .

وأجريت مثل تجارب الأستاذ دريل في البرازيل عن الدوسنتريا الحادة ، واستعمل البكتريوفاج في إيطاليا في علاج الحمى التيفودية وكذلك ضد جراثيم الاستافيلوكوك فافاد

واطلعت على تفصيل قوة البكتريوفاج في مقاومة وإبادة الجراثيم في كتاب باللغة الانجليزية اسمه (تمهيد البكتريولوجى العملى) الذى يدرس في كلية الطب المصرية يكاد يذكر أنها غير محدودة

فمعنى الحديث بعد ماتقدم (فليغمسه ثم لينزعه) أو حسب الرواية الأخرى (فليغمسه كله ثم ليطرحه) أن الحكمة في الغمس لإدخال البكتريوفاج في الشراب ، والبكتريوفاج يقتل الجراثيم التي

تكون منها والمقصود بالغمس جميع جسم الذبابة لأن الحديث لم ينص على غمس الجناحين فقط :

وهذا يدل على أن ذكر الداء والشفاء في الجناحين لفظي لا يفهم منه قصر الضر والمنفعة عليهما دون باقى الجسم : وبما أن الجناحين جزء من الجسم فإن الطب لا ينفى وجود ميكروب الداء وبكتريوفاج الشفاء فيهما وبذلك تتحقق صحة الحديث ومطابقتها للأبحاث الفنية

والسبب في التعبير بالجناحين أنهما أهم الأجزاء في الذبابة إذ بدونهما تشل عن الطيران ولزيادة التأكيد في غمس الجسم كله لأن الجناحين أعلى أجزائه ولتقريب المعنى المراد إلى أفهام العرب خاصة والناس عامة

ولعل الأبحاث الطبية في المستقبل تكشف عن أسرار أخرى في الذباب والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

هذا مانقله ذلك الفاضل عن تلك المجالات الأوربية . فليت شعري ما عسى أن يقول المتفقيهون وهى معجزة أوضح من الشمس وأظهر من الحس

(كلمة ختامية لا بد منها) ربما يفهم بعض قاصرى النظر ١٥ قدمناه أننا نقول بعدم الاحتياط من الذباب ، وحاشا أن نقول ذلك فى الدفاع عن الحديث فإن الحديث لا يفيد ذلك ولا يقتضيه

وغاية مايقوله الحديث هو أنك إذا فرطت فيما يجب عليك من توقي الذباب بكل مايمكنك حتى وقع في طعامك ، فالخلاص من تلك الميكروبات التي ينقلها إلى طعامك يكون يغمسه كله لذلك السر الذي شرحناه فيما تقدم وبينه أساطين العلم الطبيعي بأوروبا وقد صرح الحديث نفسه بأن فيه داء (والحمية رأس الدواء) فهو بمنزلة من يقول لك : إذا وصل السم إلى جوفك لسبب من الأسباب فترياقه كذا وكذا . فهل ترى أن من وصف لك دواء السم المهلك فقد أمرك بتعاطيه . والأمر أوضح من أن نطيل فيه أو يتشبهت به بعض القاصرين أو المتعنتين .

حكم شراء السماد وغيره من البنك بفوائد معلومة

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ يوسف الدجوى
إمام السنة ونور الأمة .

السلام عليكم ورحمة الله - وبعد فما قولكم دام فضلكم في
معاملة المزارعين مع البنك من حيث شراء السماد بالأجل على حسب نص
الاستمارة المرفقة طى الخطاب هذا وخصوصاً بيان تفسير المادة الرابعة
من صحيفة ٢ التى تنص أن الفائدة هى من ٠.٥٪ إلى ٠.٧٪ فنرجو
من فضيلتكم الحكم الشرعى وبيان من يجيز ذلك - أفيدونا مأجورين
ثابكم الله لازلم للسنة ناصرين .

ابنكم : موسى عبد العاطى

خادم العلم الشريف بأولاد سلامة

وجاءنا سؤال آخر بهذا المعنى بتوقيع أحمد المصرى بالبلقون كفر

الدوار - بحيرة

الجواب

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه - وبعد
فإن بيع الأسمدة بالطريقة المبينة فى الاستمارة التى أرسلتموها هو
من الربا ، وهو حرام من أكبر المحرمات . وقد آذن الله من لم ينته عنه

بحرب من الله ورسوله ، ولعن رسول الله آكله وموكله وكل من له تدخل فيه وقد ذكر في الاستمارة الفوائد ثلاث مرات وخصوصا في المادة الخامسة ، ولا يغتر مغتر بتسميتها فوائد. فكما أن تسمية الخمر بغير اسمها لا تخرجها عن كونها خمرا محرمة . فكذلك تسمية الربا بالفوائد لا تحلله

وقد أذهب الله البركة من المزروعات وترا كمت على الأمة الأزمات بشؤم الربا ومخالفة الله ورسوله ، وهكذا يستحق من يترك العمل بدين الله العالم بما يوجب الشقاوة والسعادة . وقد أرسل إلينا الرسول الأعظم -صلى الله عليه وسلم- ليقينا مواطن الهلكة في الدنيا والآخرة. ونحن نتهافت على المعاصي تهافت الفراش على النار

وليس هناك طريق للسعادة في الدارين إلا التزام تعاليمه -صلى الله عليه وسلم- كما قال تعالى (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (١)

البيع لأجل والزيادة فيه

وهنا طريقة أخرى لو سلكها الناس لخلصوا من الربا المحرم وهي طريقة سهلة وأظن أن البنك لا يابها لأنها لا تضيع عليه شيئا مما يريد

ذلك أن يشتري منه الناس السماد أو غيره لأجل مسمى وليجعلوه كما يشاؤون ، ولا بأس أن يكون الثمن في هذا المؤجل أزيد من ثمن

الحاضر فإن زيادة الثمن لأجل الأجل لاشيء فيها ، فإن الأجل له حصة من الثمن ولا يلزم أحدا ببيع المؤجل كالمعجل ولكن يجب أن تعرف أن العقد لا بد أن يكون هكذا من أول الأمر فيقول لك البائع : إذا دفعت الثمن الآن كان بكذا ، وإذا دفعته بعد شهرين مثلا كان بكذا ، فلك أن تختار أيهما شئت .

وليكن ذلك من أول الأمر على التعيين فتعقد البيع معه على المؤجل أو المعجل وإذا أخذته مؤجلا ثم جاء الأجل ولم تدفع فلا يجوز أن تزيد لأجل التأخر فيلزملك أن تؤجل للأجل الذى تستطيع الدفع فيه ويكون الثمن على ما يريد البائع والمشتري

والخلاصة أنك مخير بين أمرين إما أن تشتري نقدا وتقبضه الثمن حالا . وإما أن تشتري لأجل من أول الأمر على التعيين ولو بثمان أزيد من الحال (فتكون عقدة البيع من أول الأمر على أخذ كذا بثمان كذا إلى أجل كذا) .

فهذا لا شيء فيه وهو طريق سهل سلوكه ولكن الناس تهاونوا في دينهم كثيرا مع سهولة الأمر ووضوح طريق الرشد :
والله يتولى هداانا جميعاً بمنه وكرمه

الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ فِي السَّفَرِ

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى

حامل نواء العلم أدامه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فأرجو من فضيلتكم الإجابة بالحكم عن السؤال الآتى

١- ما حكم الصلاة والصيام في السفر؟

٢- ما مقدار المسافة التي تقصر فيها الصلاة ويفطر فيها المسافر؟

٣- ما حكم من ركب قطارا أو طائرة من مصر إلى الاسكندرية

أو العكس هل تجرى عليه أحكام المسافر من قصر وإفطار أم لا؟

﴿١﴾! الرجاء الإفادة بالجواب الشافي عن هذه الأحكام جعلكم الله سراجاً

﴿٢﴾أميراً يقتدى بكم في كشف غوامض الأمور، وأرجو نشر ذلك في

﴿٣﴾مجلة الإسلام لأجل اطلاع الجمهور عليه ولكم الشكر وهذه الأسئلة

﴿٤﴾حصل عنها مشاحنة بين قبائل العربان برمل الاسكندرية ومن عاداتهم

﴿٥﴾السفر واخترنا فضيلتكم حكماً بيننا في ذلك

محمود عمر الهابيين

برمل الاسكندرية

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

١- أما سؤالك عن حكم الصلاة والصيام في السفر فهو سؤال

مجمل فإن أردت وجوبها فالجواب أن الصلاة واجبة وأما الصوم

فليس بواجب | |

وإن أردت القصر في الصلاة وما هو الأفضل في الصيام فالجواب

أن قصر الصلاة سنة في السفر ، ولا يقطع حكم السفر إلا نية إقامة

أربعة أيام .

وأما الفطر فيه للقادر على الصوم بلا مشقة تلحقه فهو خلاف

الأفضل عندنا . وفي المقام أحكام وتفصيلات تكفلت بها كتب الفقه

وأظنها لا تعنى السائل .

والمراد بالسفر في كل ذلك سفر القصر وسيأتي بيانه .

٢- أما مسافة القصر فهي أربعة برد والبرد ثلاثة فراسخ ،

والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل معروف لديكم ، وكانوا يقدرونها بالمسافة

التي بين مصر ومحلة روح .

٣- حكم من ركب القطار أو الطائرة أنه يفطر إن شاء ويقصر

الصلاة ، فإن السفر مظنة المشقة على كل حال والدين لم ينط القصر

إلا بالسفر لا بالمشقة فسفر الملوك الأزمنة الأولى أو هذه الأزمنة

لا تعب فيه أصيلا بل يصح أن تقول إنه رياضة لذيدة بها كل وسائل

الراحة .

! ولكن علمت أن السفر مظنة التعب للمسافر على كل حال ففيه مخالفة عاداته وشغل فكره وتوقع ما هو جائز مما عسى أن يكون من الحوادث إلى غير ذلك على أن التشريع دائماً إنما يعتبر حال غالب الناس وعامتهم ولا نظر له إلى ما يكون نادراً أو غير متيسر إلا للخاصة وعلى كل حال فدين الله يسر والشريعة السمحة لم تفرق بين أنواع السفر ولا ربطت الحكم بما يتخيله كثير من الناس .

هذا ما سمح به الوقت وقد كتبت على عجل وهو كاف إن شاء الله

سؤالان وجوابهما»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد

جاءنا هـا. السؤال من حضرة صاحب التوقيع قال بعد الديباجة

وبعد فما قولكم دام فضلكم فيمن كان خارجاً عن بلد الجمعة بأكثر من فرسخ ودون مسافة القصر فصلى بالناس الجمعة إماماً وليس هـنا بمقيم مدة تقطع حكم السفر هل صحت صلاة الجمعة أم بطلت ؟ وما القول المشهور في مذهب الإمام مالك رضى الله عنه نرجو منكم الإجابة القول الفصل في ذلك للإرشاد ، أدامكم الله ذخرًا للدين وملجأً للسائلين وهو بالإجابة جدير

ملحوظة : الذى صلى حاكم شرعى

السيد حمدين الحاج سليمان

تاجر بواد مدنى - السودانى

الجواب

إن الإمام في الجمعة يجب أن ينوى إقامة أربعة أيام متى كان خارجاً عن ثلاثة أميال وثالث هذا مشهور مذهب مالك^(١) ، وهناك قول آخر للناصر اللقاني وبعض المالكية بأن الإمام لا يشترط فيه ذلك متى كان داخل مسافة القصر ، فإذا خرج عنها فلا بد أن ينوى إقامة أربعة أيام

هذا ما يقوله المالكية . فصاحبك إن كانت مسافته أكثر من ثلاثة أميال وثلاث فالجمعة غير صحيحة على مذهب جمهور المالكية وصحيحة على قول الناصر اللقاني ، وإن كانت أقل من ذلك فهي صحيحة فإنه يجب عليه السعي للجمعة في تلك المسافة والله أعلم

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع قال بعد الدباجة نرجو الإفادة عن زكاة الحرث على المذاهب الأربعة في (مجلة الإسلام) في أقرب وقت لأن عندنا غلالا موقوفة لحين رد فضيلتكم ولفضيلتكم جزيل الشكر

محمد أبو زيد سليمان

العلامية مركز اخميم جرجا

الجواب

إن علماء المذاهب الثلاثة الشافعية والمالكية والحنابلة قد أجمعوا على أن زكاة الحرث فرض عين على من ملك هذه الأراضي أو استأجرها سواء كانت هذه الأرض خراجية أو عشرية خلافاً للحنفية حيث قالوا إن الأراضي الخراجية كأرض مصر لا زكاة عليها ، ويعرف ذلك بغاية السهولة من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة والله أعلم.

حَوْلَ الْقُبُورِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
وبعد فقد قال العلامة خليل في باب الجنائز :

(والقبر حبس لا يمشى عليه ولا ينبش مادام به « أى الميت »
إلا أن يشح رب كفن غصبه إلخ.) وكتب عليه شارحه الخطاب
ما يأتي

إن العلماء قد اتفقوا على أن الموضع الذى يدفن فيه الميت وقف
عليه مادام منه شيء موجوداً فيه حتى يقضى ، فإذا فنى حينئذ يدفن
غيره فيه فإن بقي شيء من أعضائه فالحرمة قائمة بجميعة ولا يجوز أن
يحفر عليه ولا يدفن معه غيره . ولا يكشف عنه اتفاقاً إلا أن يكون
موضع قبره قد غصب

ثم قال بعد قول خليل (إلا أن يشح رب كفن غصبه)
أى فيجوز نبشه ليأخذ الكفن صاحبه وكذلك إذا احتاج إلى المقبرة
لمصالح المسلمين (أى فيجوز نقل ما فيها إلى مكان آخر) كما فعل
سيدنا معاوية رضى الله عنه في شهداء أحد

عن جابر رضى الله عنه قال لما أراد معاوية إجراء العين إلى جانب
أحد أمر منادياً فنادى في المدينة كل من له قتيل فليخرج إليه

ولينبشه وليخرجه وليحوله . قال جابر : فأتيناهم فأخرجناهم من قبورهم
رطاباً يتثنون « ينعطف بعضهم على بعض من الرطوبة » أ ه .

أ في الرهوني وأما بناء المسجد للصلاة فيه على المقبرة العاقية
فلا كراهة فيه لأن المقبرة والمسجد حسان على المسلمين لصلاتهم
يردفن موتاهم فإذا غصت المقبرة بالقبور ولم يمكن التدافن فيها
أو استغنى عن التدافن فيها واحتيج إلى أن تتخذ مسجداً يصلى فيه
فلا بأس بذلك لأن ما كان لله فلا بأس أن يستعان ببعض ذلك في
بعض . على ما كان النفع فيه أكثر والناس إليه أحوج .

فيتضح من ذلك أن نبش القبور ونقل ما فيها من العظام لا يجوز
إلا للمصلحة ضرورية كإجراء نهر فيها .

ومثل ذلك ما إذا احتيج لها لتوسيع الطريق أو خيف على المقبرة
الغرق .

وأما بناء المسجد على المقبرة التي درست جائز من غير كراهة متى
اقتضيه المصلحة وإذا فنقل العظام من المقبرة إلى أول عنها بهذا
الاستفتاء يظهر أنه كان محرماً لأن اتخاذها مسجداً كان ممكناً بدون
النقل المذكور ، غير أن هذا لا كلام فيه الآن فإنه قد وقع وانقضى
بإله وما عليه .

وإنما الكلام في المسجد الذي بى في هذه المقبرة ، والذي نراد أن
يكمل وتقام فيه الصلاة لأن نبش القبور لإخراج ما فيها من بقاياها

الموتى إنما حرم لانتهاك حرمتهم وتأذيتهم بذلك كما ورد (أن الميت ليتأذى مما يتأذى منه الحي)

وحيث أن في إعادتهم إلى المقبرة إهانة أخرى وإيذاء جديدًا لهم فلا يجوز الإقدام على ذلك ، ولتبقى هذه العظام حيث استقرت ويغفر الله للناقل إن لم يكن له وجه صحيح ، على ما بيناه وهو ولي التوفيق وله الحمد في الأُولى والآخرة

عَلَطَاتُ قَلِّ مَن يَتَّبِعُهُمَا

يظن كثير من الناس أننا في نهضة ، وما أدري ما الذى فعلناه وأى تقدم تقدمناه إني بحثت طويلا فلم أر لتلك النهضة التى يزعمونها أثراً غير فساد الأخلاق فى الرجال والنساء وشيوع المحسوبية التى تقدم غير المستحق على المستحق حتى صار كل شىء مرتبطاً بها

وظهور النزعات المختلفة التى فرقت كلمة الأمة وفصمت عرى وحدتها فزادتها ضعفا على ضعفها فما أثر هذه النهضة إلا تأخر فى الأخلاق تأخر فى الآداب ، تأخر فى العدالة ، تأخر فى الدين ، تأخر فى التجارة تأخر فى الزراعة ، تأخر فى مرافق الحياة كلها وشؤون الاقتصاد جمعاء

أما موقفنا السياسى فلم يتقدم أئمة إلا فى خطب الخطباء وكلام الزعماء ، ولعل أكبر مظاهر هذه النهضة كثرة الحاصلين على الشهادات الذين يثنون فلا يرثى لهم ، ويصرخون فلا يلتفت إليهم ثم شدة إقبال الأمة على المدارس بلا عقل ولا روية قياسا على أوربا غير شاعرين بالفروق بيننا وبينها ، فالبيئة هنا غيرها هناك . والتربية العملية التى تغذيها روح العمل هناك وتنميها المظاهر المختلفة ووجود المصانع والمعامل والشركات ثم وجود المستعمرات التى تقبل العاطلين ولا ترد الجاهلين ولا تحاسب القادمين ، ثم النفسية المخصوصة التى تخالف نفسية المصرى من كل وجه فيقبل صاحبها أن يكون بالهند وبالسودان على حين أن المصرى يثن من وجوده بقنا أو بأسسيوط. إلخ إلخ

كل هذه فروق بيننا وبينهم فقياسا عليهم هو من باب القياس الحمارى ، فقد ذكروا أن حماراً كان يحمل حملاً من الملح فاترضه نهر في الطريق فاقتحمه ، فلما خرج منه وجد الحمل قد خف عليه ، فعندما رجع حمله صاحبه حملاً من القطن فلما وصل النهر في رجوعه اقتحمه بعنف وشدة لأنه قاس القطن على الملح ، ولم يعرف الفرق بينهما فزاد بلاؤه وتضاعف عناؤه

وللتعليم بعد ذلك أثقال ينوء بها صاحبها فإنه يجعل لصاحبه نفسية مخصصة ودرجة مخصصة (في الواقع أو في زعمه) :

ويوجب عليه واجبات كثيرة (لو كان غير متعلم لم يكن في حاجة إليها ولكفاه القليل وأقنعه اليسير) فيكون لديه أزمة الوظائف وإلحاح هذه الواجبات وشدة هذه النفسية المتغطرسة

! فقل لي بعيشك ماذا يكون حاله وكيف تكون حياته :

وأنكد الناس عيشاً من تكون له نفس النعوك وأرزاق المساكين

وكثير من الناس يظن أن التعليم يهذب النفوس ويملوها فضلاً ونبلًا حتى ظنوا أن اختلاط الجنسيتين لا ضرر فيه بعد هذا التعليم ، وهو كلام فاسد ورأى آفن يكذبه العيان فإن شر المتعلمين والمتعلمات أكثر من شر الجاهلين والجاهلات كما هو مشاهد ومعروف .

وسر ذلك أن التعليم الذي يورث النفوس خشية ومراقبة ويمأؤها من الفضيلة ويأخذ بها عن الرذيلة إنما هو التعليم الدينى وقد أقفرت منه النفوس بل لا نكاد نرى الخارجيين على الدين إلا من المتعلمين هذا

التعليم المدني الذي تركو فيه التربية الدينية وراعهم ظهرياً بل أزالوا من نفوس النساء احترامهم للمدين وأهل الدين فصيروهم بذلك ماديين لا يعرفون للروحانيات معنى ولا يذوقون لما جاء في الدين طعماً ، فأفقرت نفوسهم من فضائل الإسلام التي هي سلوة لكل محزون وأنس لكل خائف ، كما أفقرت جيوبهم من المال وظواهرهم من نعيم الدنيا وقد أحسوا بأن هذا الضرب من التعليم لا يورث النفس قداسة ولا فضيلة في الرجال ولا في النساء بل يزيدا شراً فإذا سمعوا من خطباء الفتنة ودعاة الشيطان أن التعليم يقاوم ما في النفوس من الشهوات ويمنع ما في الاختلاط من الآفات أهاب بهم صارخ يصرخ من أعماق نفوسهم وقرارة وجدانهم أن هذا كذب صراح يكذبه العيان والبرهان **لأولو قال قائل** ولهذا كله أصبحت أزمة الزواج أشد من أزمة الوظائف .

إن هذه النهضة لم نر لها أثراً بارزاً غير فساد الأخلاق ، وبعبارة أخرى غير تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال ، لم يكن مبعداً كثيراً ، والنفوس لا تعرف غير ما أشربت من هواها يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والخلاصة أن الناس لو اعتنوا بشؤونهم الاقتصادية فأصلحوها ثم أرسلوا أبناءهم إلى موارد الرزق الطبيعية وطرقه المختلفة على مقتضى

السنن الإلهية ، ثم ربوهم على الدين والقناعة ومراقبة الله تعالى وغرسوا في قلوبهم إجلال الرسول وما جاء عنه والتصديق بأمر الآخرة وما أعد فيها للمؤمنين حتى تكون عزاء لهم في الظروف الحرجة ، واقتصروا من التعليم على ما ينفعهم في الدين والدنيا وأشربوا نفوسهم أن السعادة كلها في النزام آداب الدين وما نقل عن سيد المرسلين . لو فعلوا ذلك لكانوا في صفاء وهناء ولزال هذا البلاء وذاك العناء .

(١)

الخلق الكامل

الحمد لله الذى بنعمته تمّ الصالحات . والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار وعلى آله وأصحابه الذين عملوا بإرشاده ففازوا بسعادة الدارين وانتشر ذكرهم فى الخافقين فكانوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة

وبعد فإنما يكمل الإنسان ويعظم قدره ويعلو شأنه ويعيش عيشة رغدة هنيئة بأخلاقه الفاضلة وسجاياه الطيبة وخلاله الحميدة وأعماله المجيدة ويكون نجاحه فى أعماله وفوزه فى حياته على نسبة ما يتحلى به من شتى الأخلاق ورضى الصفات ، والأمة لا يتسنى لها أن تنبواً عرش عزها وتبنى شامخ مجدها وتوطد دعائم ملكها إلا إذا أخذت من الفضائل بأوفر نصيب

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعزركن
وما رأينا أمة ذلت بعد عز وهانت بعد كرامة وأدبرت أموراً بعد إقبال وصارت إلى التدهور والانحلال إلا بعد أن انغمست فى حماة الرذائل وتقمشت فيها أوباء الشر والفساد .

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
ولا يغنى العلم وحده شيئاً فى أمة فسدت أخلاقها وساءت طباعها
وقبحت أعمالها بل قد يكون العلم أداة للشر ووسيلة للإجرام وداعياً

إلى الافتتان في طرق التدمير والهلاك ولذلك قال بعض الحكماء « نحن
إلى قليل من الأدب اخرج منا إلى كثير من العلم » وقال حكيم الشعراء
وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا
ولعل ما تضح منه السماوات والأرض من الحوادث التي لا يزوج بها
العالم في هذا العصر وقد عيت بها حيل المفكرين أكبر دليل على ما نقول
وذلك لأن الناس وجهوا عنايتهم إلى دراسة العلوم والفنون ونشرها بكل
الوسائل الممكنة وأهملوا جانب الأخلاق .

إن الرجل لا يكون مصلحا حقا إلا إذا كانت وجهته قبل كل شيء
تقويم أخلاق الأمة وتهذيب نفوسها وغرس الأصول الطيبة والمبادئ
الصحيحة في أفئدة الناشئين منها

وبهذا كله نعرف قيمة ما يسديه الأستاذ الجليل والمربي القدير
(جاد المولى بك) إلى أمته من وقت لآخر بتلك المؤلفات انقيمة والكتب
الخلقية العظيمة التي تهديها سواء السبيل وتسمو بها إلى الحياة الطيبة
حياة الحكمة والرشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التي تكفل
لها السعادة والهناء وأحدث ما أشرقت علينا شمس من أسفاره الجليلة
النافعة (كتب الخلق الكامل) الذي طبع منه الجزء الأول وهو كما
يدل عليه عنوانه نبراس يستضيء به المستبصرون وأقوم هاد يهتدى به
الضالون وأنصح مرشد يسترشد به الناشئون وهو يصور لنا نزعات
المؤلف وميوله الجملة تصوير وينبئنا بما طبعت عليه نفسه الكريمة من حب
الدين الحنيف وشغفه ببيان أسراره ونشر مزاياه فقد جعل القرآن

رائده ونعم الرائد (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فيما ذهب إليه من آراء وما استنبطه من أخلاق ، فكان موافقا فيما حققه وبينه ولقد دل الكتاب على رسوخ مؤلفه في العلم وإحاطته بكل ماله أدنى ملبسة بالأخلاق فهو يذكر آراء العلماء القدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين ويضع الكثير منها على بساط البحث ثم يعقب بحثه برأيه الخاص الناصح وهذه هي الطريقة المثلى في المباحث العلمية القيمة يخرج منها المطالع وقد ألم بالموضوعات إلاما حسنا وكون رأيا نافعا بل عرف خلاصة ممحصنة وتحقيقات مبرهنة

وقد نهج المؤلف في كتابه خير منهج في تقويم الأخلاق المعوجة وغرس المبادئ الفاضلة الشريفة واستئصال الرذائل الذميمة بأسلوب سلس قريب المأخذ سهل التناول لا يعزب عن فكر المتعلمين ولا ينبو عنه ذوق العلماء المتضلعين ونحا في تقسيمه وتبويبه أحسن منحى ، فأوجز فيما يجب فيه الإيجاز وأطنب فيما يجب فيه الإطناب انظر مثلا إلى ما قاله في تربية الطفل تجده قد عنى به أعظم عناية فبين ما يجب على أبويه ومن يتعهد به بالتربية من تثقيفه بالمعلومات الصحيحة النافعة وطبعه على مكارم الأخلاق وشريف العادات والحيلولة بينه وبين ما يجره إلى مهاوى الرذيلة والأعمال المقوتة وأوضح الطريق التي تتبع في تثقيفه وتهذيبه حتى يشب فاضلاً كاملاً حصيف الرأى راجح العقل راق الشعور سليم الوجدان ناهضاً باحثاً أعباء الحياة وتكاليف الأيام طموحاً إلى العلا سباقاً إلى كل ما يرقى شأنه وشأن بلاده .

ومما راقني منه في هذا الباب أنه جعل تعاليم الدين هي الأساس لبناء الأخلاق الفاضلة وتشبيد دعائم الإصلاح في الأمم وأفاض في بيان الذرائع التي تدرع بها الدين الإسلامي في تكوين الأخلاق وتربية النفوس والأخذ بها من كل نواحيها إلى ما يحقق هناةً ما ويضمن سعادتها ، ولقد أعجبت كثيراً بما بينه المؤلف الفاضل من أسباب السعادة التي هي مطمح أنظار الناس ومنتهى ما تصبوا إليه نفوسهم وتتوق إليه أفئدتهم لافجلاها لهم وأوضح سبلها ومزق حجبتها وقرب مأخذها وجعلها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين

وقصارى القول إن هذا السفر خير ما قرناه في كتب الأخلاق فهو كتاب علمي جامع يشرح الموضوعات شرحاً وافياً ويفيض في بيان الطرق القويمة في تربية النفوس تربية فاضلة ولقد جاء خلاصة لما وصلت إليه آراء رجال الأخلاق إلى الآن في الشرق والغرب ونتيجة اهدت إليه عقولهم وانتهى إليه بحثهم فما أجدر الناشئين باحتذائه والكبير باقتفائه .

ولو أن هذا الكتاب ظهر في أمة تقدره قدره لسارعت إلى اقتنائه والانتفاع بما جاء فيه وأن وزارة المعارف ومعها التعليم لتحسن صنعا إذا قررت مضالعه ودراسته للناشئين حتى يشبوا ذوى نفوس كريمة وشيم عظيمة وهمم عالية ومبادئ سامية تتكون بما فيه من فلسفة عقلية ودينية وموازنة صحيحة بين ما جاء عن حكماء الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، فجزى الله المؤلف العظيم خير الجزاء وأكثر من أمثاله ونفع الأمة بجليل أقواله وعظيم أعماله عنه وكرمه

الجمع بين البنت وامرأة أبيها في عصمة ولد وامرأة

ورد إلى إدارة المجلة ما يأتي :

تزوج رجل امرأة وأنجب منها بنتاً ، فتزوجت البنت رجلاً ، ثم ماتت أمها فتزوج والدها امرأة أخرى ثم توفي ، أيحل لزوج البنت زواج امرأة أبيها أم لا؟

زكي عبد الجواد ابراهيم
مدرس بمدرسة كفر المناش - بيا

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

يحل لزوج البنت أن يتزوج امرأة أبيها ، لأن الضابط في ذلك أننا نقدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى ، فإذا حلت الأنثى للذكر جاز الجمع بينهما ، وإلا لم يجر الجمع . ولا بد أن يكون التقدير المذكور لكل منهما ، فلا يجوز مثلاً أن يجمع بين البنت وخالتها ، لأننا لو قدرنا البنت ذكراً لم يجر أن ينكح الأخرى لأنها خالته ، ولو قدرنا الخالة ذكراً لم يجر له أن ينكح الأخرى لأنها بنت أخته

أما مسألتنا هذه فالتحريم فيها على هذا التقدير ليس إلا من جهة واحدة ، فإن البنت لو قدرت ذكراً لم يحل له نكاح امرأة أبيه ، ولكن

امرأة الأب لو قدرت ذكرًا لجاز له نكاح الأخرى ، فإنها تكون أجنبية منه . ولا يتصور في هذا الحال أن تكون بنت زوج ، بل تكون بنت رجل أجنبي .

والمسألة واضحة لا تحتاج إلى إطناب وقد علمت القاعدة في ذلك

هل للحسد تأثير في المحسود ؟

وجاءنا من حضرة محمد محمد نصار بزفيتة مشتول السؤال الآتي :
هل لعين الحاسد تأثير يعود على المحسود ؟ فإن عندنا قوماً ينكرون ذلك نرجو شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ، مع إقامة الدليل القاطع من الكتاب والسنة .

الجواب

نعم للحسد تأثير كبير . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ويدل عليه كتاب الله أيضاً . وهو من قبيل التأثير النفساني الذي لا يتوقف على تلك القوانين المعروفة في تأثير الأجسام .

ومن الغلط البين إنكار كل ما لم يعرف سره ولم يوقف على كنهه . ومن الجهل الفاحش أن ترجع كل شيء إلى ما عرفت من نواميس المحسوسات ، وأن تقيس ما لم تعلم على ما علمت ، فإن لكل عالم من العوالم أحكاماً تخصه .

وقد أمر الله نبيه أن يستعيد من شر حاسد إذا حسد ، ووصى يعقوب صلى الله عليه وسلم بنبيه عندما توجهوا إلى مصر ألا يدخلوها من باب واحد وأن يدخلوها من أبواب متفرقة خوفاً عليهم من الحسد ، كما عليه جمهور المفسرين ومحققوهم .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أَلْعَيْنُ حَقٌّ » وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَلْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ نَبِيٌّ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ » .

والنصوص صريحة في ذلك ، وهى كثيرة ، وكل شىء لا يودى إلى قلب حقيقة ولا مصادمة برهان قاطع فهو من الممكنات التى يجوزها العقل وما أخبر الشرع بوقوعه من ذلك وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره .

وإجمال القول أن قول المنكرين مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً وبما هو مشاهد في الوجود .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » . وكان يقول « كَانَ أَبُو كُفْرًا يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ » .

وقد قالوا إن النفوس الخبيثة التي تقوى في خبيثها ويتأصل الشر فيها بسبب من الأسباب كالرياضة والمجاهدة والمثابرة على خطتها الشريرة مثلاً ، يمكنها أن تتسلط على من أرادته بالتوجه التام والعزيمة الصادقة ، إلى أن يحصل تأثره بنحو مرض وذبول جسم ، وقد يصل ذلك إلى الهلاك

وكما يحصل تأثير جسم عنصري في جسم عنصري كالأدوية والسموم في منباطيها كذلك يحصل تأثير نفس قوية في نفس أخرى وها هي ذى نفوسنا تؤثر في أبداننا ، فإذا قويت أمكنها أن تؤثر في غير بسببها ، كما قرره فلاسفة الإسلام وغيرهم والأشياء المحسوسة مختلفة الخواص كما هو معروف ، فكذلك النفوس مختلفة أيضاً جد الاختلاف

الخلاصة

والخلاصة أن الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فإنها أقبل للفيض الإلهي في كل شيء وكل ما كان من العالم الأدنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الأعلى ، دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين تأثيرات الأجسام ، فإنها تؤثر في الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة ولا مجاورة

وحال الحاسد مع المحسود هو من هذا القبيل ، والحوادث في ذلك

متواترة ، وإن شئت فقل مشاهدة محسوسة

فإن كنت ممن لا ينكر المتواترات ولا يؤول القطعيات ، فانظر كيف يؤثر الحاسد بنفسه الشريرة في المحسود ، ولو كان من أقوى الأقوياء وأعظم الأشياء ، بمجرد توجهه إليه وانفعال نفسه باستحسانه .
وأما تعليل الدكتور رشدي بك في كتابه في التنويم المغناطيسى لذلك بأنه من تأثير الاعتقاد ، فلا يكاد يقرب من الصواب ، فإن الحاسد يؤثر في الحيوان الأعجم . وفي النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد وإن أردت البرهان الحسى على ما ذكرناه من كلام أرباب العلوم الحديثة والمكتشفات الجديدة فطالع ما ينقل عن علماء الأبنوتزم « التنويم المغناطيسى » حتى تعرف مقدار ما وصلت إليه روح المنوم - بالكسر - من التأثير في المنوم - بالفتح - الذى يكون طوع إشارته في كل شيء ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار ما استطاع أن يخالف له أمراً أو يعصى له إرادة

بل ذكروا أغرب من هذا ، وهو أنه إذا وقع في نفسه أن يقتل أحداً بادر المنوم إلى قتله من غير أن يأمره بشيء أو يتلفظ له بكلمة ولا بعد في هذا فإن النفوس تحس بما في النفوس ، فإذا أحست به « وقد فرضناها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لإرادتها » لم يكن ما سمعناه عنهم بدعا من العلم أصلاً

وللتنويم المغناطيسى عجائب كثيرة تكبى الماديين وتشهد - للروحانيين ، وكلها تؤيد ما جاء في الكتاب والسنة من عمل الأرواح

التي خرقت نو ميس المادة وقضت على الماديين (سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي
الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)^(١)

ويمكن كل إنسان الآن أن يعرف تلك العجائب النفسية بالمشاهدة ،
فإنها أصبحت لس اليد ورأى العين . ولا يمكننا في هذه العجالة أكثر
من هذا .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَا يَجْعَلُكَ مِمَّنْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِعِلْمِهِ مِنْهُ وَكَرَمَهُ .

خروج النساء من البيوت

ور إلى إدارة المجلة من أحد مشتركَيْها بالفيوم السؤال الآتي هل يجوز خروج النساء من البيوت أو يحرم لقوله تعالى (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)^(٢) ؟ وما رأى السادة العلماء في حال النساء الآن مما هو معروف للجميع ؟

الجواب

أمر الله تعالى نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالملكث في البيوت وعدم الخروج . فقال (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) وهو أمر يدخل فيه جميع النساء^(٣) ، لأنه لا دليل على الخصوصية . بل غيرهن أولى بذلك

وقد أخرج الترمذى والبزار عن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنْ الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا »

غير أن هذا الحكم مقيد بما إذا لم توجد ضرورة دينية أو دنيوية تقتضى خروجها ، فيجوز أن تخرج للحج مثلاً لقوله تعالى (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)^(٤) ، وفي الحديث الصحيح

(١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣ د

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣

(٣) أنظر تفسير القرطبي ٥

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٩٧

أَنَّ النِّسَاءَ قَامَتِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرَّجَالَ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ ، فَوَعَّظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَقَالَ لَهُنَّ مَا مِنْكُمْ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ . فَقَالَتِ امْرَأَةٌ وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ : وَاثْنَيْنِ » الْحَدِيثِ

فَأَنْتِ تَرَى مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ طَلَبَ مِنَ النَّاسِ الْحِجَّ ، وَهُوَ يَسْتَدْعِي الْخُرُوجَ إِلَى مَكَّةَ ، وَمِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ النِّسَاءَ طَلَبْنَ سَمَاعَ الْعِلْمِ وَتَخْصِيفَ يَوْمٍ لَهُنَّ فَأَجَابَهُنَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُوَ يَسْتَدْعِي الْخُرُوجَ أَيْضًا بِلَا مَرِيَّةٍ . وَمَا حُضُورَ النِّسَاءِ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسُؤَالَهُنَّ عَنْ أَمْرِ دِينِهِنَّ بِقَلِيلٍ .

الخلاصة

إن في خروج المرأة تفصيلاً ، حاصله عندنا معشر المالكية أن المرأة إذا كانت عجزاً لا أرب للرجال فيها جاز خروجها في كل وقت لقضاء حوائجها ، وحنازة أهلها وأقاربها ، ومجالس العلم والوعظ . وإن كانت شابة غير مخشية الفتنة ، جاز خروجها أيضاً لحنازة أهلها وقرباتها وقضاء حوائجها إذا لم تجد من يقوم لها بذلك ، وذلك بشروط !:

١ - أن تلبس خشن الثياب لا رقيقها .

٢ - وأن لا يبدو منها ما يحرم النظر إليه

٣ - وأن تكون الطريق مأمونة

٤ - وأن لا تمس طيباً ولا تبدى زينة

وإن كانت مخشية الفتنة حرم خروجها مطلقاً .

أما كشف عنقها وصدرها وذراعيها وساقها فلا يجوز بوجه من الوجوه وكذلك مصافحتها بلا حائل حرام ولو لم يثر فتنة ولم يحرك شهوة فيجب على الناس أن يتنبهوا لذلك ، حتى لا تقع المصافحة بين الجنسين إلا بحائل وقد تماهل الرجال والنساء الآن في ذلك كل التماهل

أما إذا خشيت الفتنة ولم يؤمن الفساد ، فلا يجوز كشف وجهها ولا شيء من بدنها بحال من الأحوال عند جميع العلماء

وللشريعة نظر واسع وحكمة بالغة ، فتراها تحرم وسائل الفساد وكل ما يفضى إليه ولو في بعض الناس سداً للذرائع وحسماً لمادة الشرور : علماً منها بأحوال النفوس البشرية وما جبلت عليه ولذلك حرمت الخلوة بالأجنبية ولو مع أصلح الصالحين وأورع الورعين فهذا هو حكم الله ودينه

وقد أطنب القرآن في ذلك غاية الإطناب لأجل ما فيه من الشرور وما يجز إليه من المفساد كما قلنا وقرأ إن شئت قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ^(١)) ، وقوله عز وجل (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

(١) سررة الأحزاب ، الآية ٥٩

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِزْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا
عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ وَنُزِينَهُنَّ .
وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) ، إلى غير
ذلك من أمر الرجال والنساء برفض الأبصار والبعد عما عسى أن يؤدي
إلى ما لا تحمد عقباه شاءوا أم أبوا والاختلاط. أس الشقاء والحمية
رأس الدواء

فانظر إلى أى حد وصل النساء الآن من التهتك وعدم المبالاة
وكأن امرأة القرن العشرين لا تريد أن تكون كما خلقها الله ، فتراها
تخرج إلى الأسواق بلا ضرورة ، بل تغشى المجالس والمجامع بدون
حياء ولا احتشام ولا تحفظ وهو انقلاب فظيع وفساد كبير
وقد جعل الله لها في المجتمع وظيفة خاصة وأعمالاً تستغرق كل
أوقاتها لو أرادت أن تقوم بها على ما يجب عليها

وليس قسطها من الواجب في تربية الأطفال وإصلاح شؤون
البيت وما يوجب للرجل فراغ قلبه لمهمته الشاقة وإعداد وسائل الراحة
والهناءة له ، حتى يكون البيت جنته التي يأوى إليها من شقائه
ويستريح فيها من عنائه بأقل من قسط الرجل في واجبات الحياة
والحكمة تقتضى توزيع الأعمال وتخصيص كل مما يليق به ،
بل الحق سبحانه وتعالى راعى ذلك في خلقه ، فخلقهم مختلفي الاستعداد
ليختص كل بما هو أولى به ، فسبحان الحكيم العليم .

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال
والمتشبهين من الرجال بالنساء (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١)

وقد اعتاد الناس رؤية تلك المنكرات فصاروا لا يستنكرونها
ولا تنفعل نفوسهم من أجلها ، غافلين عن مقتضى الطباع والمشهورات
البشرية من السلطان الأكبر على النفوس ، ولذلك حرم الدين لمس
المرأة بكل وجه من الوجوه ولو بلا شهوة ، ومضى أن يختلى الرجل
بالمرأة ولو كانا صالحين عفيفين ، سدا للذرائع وقطعا لوسائل الفتنة
كما قلنا .

ولسنا نعلم شهوة من الشهوات لها ذلك الأثر البالغ والسلطان القاهر
في نفس الإنسان بمقتضى جبلته البشرية وتكوينه الطبيعي أعظم من
ميل الرجال إلى النساء وميل النساء إلى الرجال وكم قد سمعنا من
الحوادث المؤلمة ما فيه مزدجر ورأينا من المشاهدات المخزيات
ما فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

ولكننا في زمان فسدت فيه النفوس ، وانقلبت فيه الرؤوس ،
فظهر التدهور والانحطاط مظهر الرقى والنهوض ، وسيئات الأعمال
ومساوئ الأخلاق مستطرفاتها ومحاسنها وشواذ الآراء وفاسدات
العقائد بصورة التجديد والابتكار والتمسك بالفضائل والآداب
بصورة التأخر والجمود

تشكل فينا كل شيء بشكل ما يباينه والناس عنه نيام

فإلى الله المشتكى وبه المستغاث من زمان لبست فيه الرذيلة ثوب
الفضيلة ، وتجلت فيه الفضيلة بصورة الرذيلة .

والرزية كل رزية عدم الإحساس بذلك ، وفقد الحمية الدينية
والنخوة الإنمائية والرجولة الصحيحة ، وتتابع الناس على ذلك من
غير شعور ولا تبصر وكيف يستحى الإنسان من الإنسان وهما سواء
فيما يقترfan ، ولا يزالان كذلك حتى يبطل منهما الإحساس بالرذيلة ،
ويسهل عليهما لقضاء على الفضيلة

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

(١)

• صلاة الجمعة لغير المستوطنين .

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى

هل تجب الجمعة على قوم أقاموا ببلدة وعمرها غير مستوطنين

لها ؟

محمود شحاته

بالفرقة

الجواب

استيطان البلد أى نية الإقامة فيه على التأييد شرط لصحة الجمعة ووجوبها أصالة عند المالكية . فإذا عمر قوم بلدا وأقاموا به غير مستوطنين له ، لم تجب عليهم الجمعة ولا تصح ومع هذا لو ارتحل منهم شخص إلى بلدة الجمعة وأقام بها أربعة أيام وجبت عليه الجمعة تبعاً لأهل هذه البلدة فالوجوب الأصلي يستدعى الإقامة على التأييد ، والوجوب التبعي يستدعى إقامة أربعة أيام فقط . والله أعلم

توسعة المسجد من المقبرة

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي

هل يجوز نبش المقابر ونقل ما فيها من عظام ورفات ، وجعل
ميضأة المسجد ومراحيضه مكان المقبرة عند الحاجة ؟

ابراهيم لاشين

من كفر ابرر

الجواب

صرح العلماء في باب الجمعة أن المسجد العتيق إذا ضاق يوسع من
المقبرة وكذلك صرحوا في باب الوقف أن المسجد يوسع من المقبرة
والطريق لكن ينبغي أن يعلم أن المسجد هو المكان المعد للصلاة ،
فليست الميضأة والمراحيض من المسجد ، وإنما وضع كل منهما تسهيلاً
على الصليين في الوضوء وقضاء الحاجة وإذا لا يجوز جعل الميضأة
والمراحيض مكان المقبرة ، لأن هذا العمل ليس من توسعة المسجد في شيء .

والفرق أن إقامة الجماعة في المسجد سنة يقا تل على تركها ، بل
قيل إنها راجية ، والوضوء من الميضأة لا فضل فيه بل الرضوء في
البيت أفضل والله أعلم .

متى تجب الزكاة في النقدين والحب

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي أيضا

متى تجب الزكاة في النقدين : الذهب والفضة ، وما مقدارها ؟

ومتى تجب فيما يخرج من الأرض العشرية أو الخراجية ، وما مقدارها

أ في كل منهما ؟

محمد محمد جمال الدين

بالساحل

الجواب

أكل من ملك نصاب النقدين وهو عشرون دينارا ذهباً أو مائتا

درهم فضة ، وحال الحول على ملكه النصاب ، وجبت عليه الزكاة

وهي ربع العشر ، فيخرج نصف دينار من العشرين ، وخمسة دراهم

من المائتين ، إلا أن يكون عليه دين يساوى النصاب أو ينقصه فلا زكاة

عليه ومن خرج له من أرضه حب مقدار النصاب وجبت عليه الزكاة

وهي العشر إن سقى بغير آلة كالطر ، أو نصف العشر إن سقى بآلة

كالدواليب (ومنها الوابورات) ولا فرق في ذلك بين أن تكون

الأرض خراجية أو عشرية عند مالك ، فإن ذلك لا يسقط الزكاة

كما أنها لا تسقط بالدين على مالك النصاب من الحبوب

التي تخرجها الأرض . والله أعلم .

البيع نقداً وبأجل

ورد إدارة لمجلة سؤال من أحد التجار يقول فيه

إن البيع عند التجار يجرى على نوعين فتارة يكون بالنقد ، وتارة يكون لأجل فأمّا البيع بالنقد فمعروف أن التاجر يحدد له ثمناً بعد أن يضيف إليه ربحاً بسيطاً مراعيّاً فيه عدة عوامل منها مزاحمة أقرانه في السوق ، ومنها أن يقبل الناس على متجره وهم واثقون برخص أثمانه ، ومنها أن يتمكن من قضاء مصالحه بالنقد الذي يبيع به كمداد دين أو شراء بضائع بالنقد ، أو مصروفاته ومصروفات محله الخ الخ

ومن أجل هذه العوامل وغيرها ربما ألجأته الضرورات إلى أن يتنازل عن جزء من أرباحه أو أرباحه كلها ، بل ربما اضطر إلى ترك شيء من رأس ماله حينما يكون محتاجاً للنقد

وتختلف هذه الحالة عند البيع بالأجل : فعند بيعه بالأجل عليه أن يراعى عوامل عديدة : منها مقدرة المشتري على كيفية السداد إن كان لميعاد قصير أو ميعاد بعيد ، ومنها تقديره لمصروفات يضطر لصرفها كسفرات ومخطبات ، ومنها انعدام بعض هذه الديون أو هلاك جزء منها

ففي هذه الحالة يضطر التاجر أن يعمل لمثل هذه الأحوال حسابها ، ولا يمكن أن يبيع مبيعاته لأجل بضمن واحد ، فلكل مشتري لأجل ظروف في السداد كما أسلفنا .

فلهذا نجد أن البضاعة التي يكون ثمنها نقداً مائة قرش ربما يضطر إلى بيعها لأجل مائة وعشرة ، ولمشتر آخر مائة وعشرين أو ثلاثين فما رأى الشرع الشريف في هذا البيع ؟ وهل للربا دخل في هذه الحالة ؟

الجواب

أن البيع في جميع هذه الصور التي ذكرت في السؤال حلال لا شيء فيه ، فإن العلماء صرحوا بأن الأجل له حصة من الثمن فلاغرو أن تختلف الأثمان باختلاف الآجال نظراً إلى تلك الأُمور التي ذكرها المسائل . ولا يعقل في الشريعة التي هي تنزيل من حكيم حميد ألا تراعى مصالح الناس فتكلفهم أن يبيعوا المؤجل كالمعجل ، أو تجعل ما قرب أجله مثل ما بعد أجله ، فليس في ذلك شيء محرم ، إلا أن يبيع بثمن لأجل ، فإذا لم يدفع عند الأجل زيد فيه بحسب التأخير ، فهذا هو المحرم . وأما البيع بثمن متفق عليه من أول الأمر فلا شيء فيه كائناً ما كان فعلى التجار ألا يغشوا ولا يحلفوا ، ولهم أن يبيعوا بما يشاءون ، بشرط أن يكون ذلك معروفاً متفقاً عليه عند البيع بحيث لا يزيد ولا ينقص

أما إذا كان بحيث كلما تأخر عن الدفع زيد عليه شيء في نظير ما يزداد على الأجل الذي حدوده عند البيع ، فذلك ربا محرم كما قلنا ، وهو موجب لعنة الله تعالى ، فليحذر منه المسلم الذي يشفق على دينه ونفسه والله يتولى هدى الجميع

بالحلف بأيمان المسلمين

أ وجاء من حضرة صاحب التوفيق السؤال الآتي
ما هو اللازم في قول الشخص ، وأيمان المسلمين لا أفعل كذا
ثم فعل ، أو لأفعلن كذا ثم لم يفعل ؟

محمد شعبان رفلى
خادم القرآن الكريم بالقوصية

الجواب

إيمان المسلمين من صبيغ العموم ، يتناول كل ما اعتيد الحلف به
فلذا قال المالكية في قول الشخص أيمان المسلمين تلزمى إنه يلزمه
كن ما اعتيد الحلف به من المسلمين والمعتاد الآن في عرف مصر
الحلف بالله وبالطلاق وحينئذ فاللازم لمن حلف بذلك كفارة يمين
وبت من يملك عصمتها ولا يلزمه مشى إلى مكة ولا صيام ولا عتق
كما كان في العصور الأولى لعدم من يحلف بذلك الآن هذا هو
المشهور في مذهب مالك ، وهو المقتضى به عند المالكية

وقد نقل بعض العلماء الخلاف في هذا اللفظ فقال وليس لمالك
في « أيمان المسلمين » كلام ، وإنما الخلاف فيه للمتأخرين فقال
الأبهرى يلزمه الاستغفار فقط ، وقيل كفارة يمين . وقيل ثلاث
كذارات « نظراً للفظ الجمع الذى أقله ثلاثة »

وكن ذلك ما لم ينو طلاقاً وإلا لزمه وقيل بت من يملك
عصمتها ، وعتق من يملك رقبته ، وصدقة بثلث ماله ، ومشى بحج ،
وكفارة يمين ، وصوم سنة

وقد قدمنا لك ما هو المشهور من مذهب مالك ، وأنه يراعى ما اعتيد
الحلف به في كل بلد من البلدان وزمن من الأزمان ، وأن المعتاد الآن
بمصر هو الحلف بالله وبالطلاق لا غير

ومما يحسن التنبيه عليه أن الشافعية يقولون أن من حلف بأيمان
المسلمين لا يلزمه طلاق ، وإنما يلزمه كفارة يمين وقد تقدم لك أن
بعض المالكية يوافقونهم على ذلك ومنهم من يقول يستغفر الله
ولا شيء عليه ودين الله يسر ، والحمد لله على اختلاف المذاهب
والله أعلم

حكم أكل الفسيخ

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي
هل يجوز أكل الفسيخ أم يحرم ؟

عبد ربه طه
مهندس كوبرى سنباره

الجواب

لسمك لا شك في طهارته ، ولكن الدم المسفوح نجس ، وهو
السائل عن مقره في حال الحياة بنحو الفصد أو بعد الموت ولو بعد
التذكية الشرعية من سائر الحيوانات ولو من السمك خلافاً
للقابسي ، وتبعه ابن العربي حيث قالوا إن الدم المسفوح من
السمك طاهر

فالسمك إذا ملح ووضع بعضه على بعض حتى صار فسيخاً ولم
يتحلل منه دم مسفوح يكون طاهراً على القواين يحل أكله ،
سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من بقية الصفوف

أما إذا خرج منه دم مسفوح بواسطة الضغط عليه بمثل مثلاً ،
فقد صار نجساً لا يحل منه إلا الصف الأعلى « وليغسل قبل أكله »
دون بقية الطبقات السفلى على القول المشهور الذي به الفتوى ،
فإنها تنجست بمرور الدم عليها ولا يمكنك تطهيرها لامتزاجها به ،
ويحل أكل جميعه على ما لابن العربي والقابسي :

وعلى المشهور إن شك كونه من الصف الأعلى أو غيره أكل ،
لأن الطعام لا يطرح بالشك هذا حكم الفسيخ على مذهب مالك
ومذهب الحنفية أن السمك لادم له ، والسائل منه رطوبة فإذا
ملح حتى صار فسيخاً يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى
أم من الصف الأسفل أم من بقية الصفوف ، ما لم يخش ضرره ،
وإلا حرم للضرر لا للتنجيس ودين الله يسر
وبعد فالورع تركه على كل حال ..

البيع بالزيادة الفاحشة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى

هل يحرم البيع بالزيادة المتفاحشة على الثمن المعتاد أو يجوز ولو

كانت تلك الزيادة فوق فائدة الربا بكثير ؟

عبد الوهاب حسنين وهنان

بتفهما العزب

الجواب

مضى علم لبائع والمشتري قيمة السلعة التي تباع بها في الأسواق
وحصل الغبن بزيادة في الثمن غير معتادة ، أو نقص فيه كذلك
فالبيع صحيح ولا حرمة فيه ، ولو كان الربح فوق فائدة الربا بكثير .
وما مثل هذا إلا كزراع وضع قليلاً من الحب في أرضه فأنبتت
عشرة من الأرداب ، فالطريق مشروع والكسب حلال ورزق ساقه
الله إلى التاجر والزراع :

أما إذا جهلت قيمة السلعة ، فإن استسلم أحدهما لصاحبه بأذ
أخبره بجهله واثتمنه فيما يخبره به وما يحدده من الثمن ، فقال البائع
للمشتري قيمتها في السوق عشرون ، فإذا هي عشرة ، أو قال
المشتري للبائع قيمتها في السوق عشرة ، فإذا هي عشرون فللمغيبون
الرد ، وعلى صاحبه المؤمن الكذوب الحرمة فإن لم يستسلم لصاحبه
مع جهل القيمة ، بل باع أو اشترى على المغالبة والمشاحة فحصل الغبن
المتفاحش ، فالبيع صحيح لا رد فيه ولا حرمة على المشهور

وقال بعضهم إن وصل الغبن الثلث فأكثر من قيمة السلعة ، فسوخ البيع إن قام المغبون في أثناء السنة من يوم البيع . وقد أفتى به ابن عرفة والمازري والبرزلي ومشى عليه ابن عاصم في التحفة لكن رده ابن رشد بقوله أنه غير صحيح لحديث « لَا يَبِعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، دَعُوا النَّاسَ فِي غَفْلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ »

قال في أقرب المسالك وشرحه ولا رد بغبن واو يخالف العادة في القلة أو الكثرة ، كأن يشتري ما يساوي درهماً بعشرة أو عكسه إلا أن يستسلم أحد المتبايعين ، لصاحبه بأن يخبره بجهله كأن يقول المشتري أنا لا أعلم قيمة هذه السلعة فبعتي كما تباع الناس فقال البائع هي في العرف بعشرة ، فإذا هي بأقل أو يقول البائع أنا لا أعلم قيمتها فاشترتني كما تشتري من الناس فقال هي في عرفهم بعشرة ، فإذا هي بأكثر ، فالمغبون الرد على المعتمد « بل باتفاق ، ولم يخالف فيه أحد » وإنما الخلاف في الغبن من غير استسلام ، إذا كان المغبون جاهلاً فإن كان عارفاً فلا رجوع له اتفاقاً ، فإن استسلم الجاهل فالرد متفق عليه . والله أعلم

بِدْعُ الذِّكْرِ^(١)

جاءتنا أمثلة كثيرة عما أحدثه الناس في مجالس الذكر من البدع التي لا يقرها عقل ولا دين ، ومما جاء فيها أن بدع الذكر قد تكاثرت بسبب عدم العناية بالتنفير عنها ، فسدلت على رفيع جلال الإسلام وبدع رونقه ستاراً أى ستار ، وأحدثت أضراراً عظيمة ومفاسد جسيمة ومن شرها مزج الذكر باللهو كالدف والشبابة ، والذكر بأصوات ساذجة مثل (ها) و (هى) ، ومثل اللهج أثناء الذكر بأصوات يخجل اللسان من ذكرها والقلم من تسطيرها

ثم ذكر السائل شيئاً من الألفاظ التي يقولونها حال غيبتهم على ما يزعمون لا نستطيع ذكرها في المجلة

ثم قال بعد ذلك : ومن عذلهم شهروا في وجهه السلاح بدعوى أنهم إنما يصدر عنهم ما ذكر في حال غلبة ناشئة عن الذكر ، ومن مدهشات العجائب أنه يوجد بقريّة قريبة منا تسمى (محلة الأمير) رجل أبوه كان أحد شيوخ طريقة تسمى الحبيبية ، وهذا الرجل يؤيد تلك البدعة التي لاحد لشاعتها ولا منتهى لفظاعتها بكل ما أوتي من قوة ، حتى خدع الناس أيما خديعة ، وصار عقبة في سبيل من يحاول تطهير ساحة الدين منها. ولا وسيلة لكف شرور مثله أو تخفيفها سوى

فتوى تصدر في (مجلة الأزهر) التي يحترها الجميع ولا سيما إن عززت بفتوى من مشيخة الطرق الصوفية

فأنشدك الله أيها المجاهد الغيور أن تسرع عما تقدر عليه من تلك الكتابة الصافية الشافية في الموضوع وأقسم عليكم بالحق تعالى أن تغيثوا هذا الدين ، فقد تلاعب به أولئك الفجار إلى حد أشعر بخلو قلوبهم من استشعار شيء ما من عظمة الجبار ، عظمة سطوته .

انتهى المقصود من السؤال الذي جاءنا من بعض أفاضل مديرية البحيرة ، وفي غيره ما يوافق في مغزاه ومرماه .

ونحن نقول : إن الذين يعملون هذه الأعمال المنكرة داخلون فيمن قال الله فيهم (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً)^(١) ، ومن الذين اتخذوا آيات الله هزوا وسيقال لهم (أَسَاءَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)^(٢) ولا ندري كيف يتكلمون بذلك الهذيان الذي تقشع منه الجلود وتصطك الأسماع على ما جاء في سؤال السائل .

وإنه لأكبر برهان على أنهم كانوا في أحوال ظلمانية لا نورانية ، ووساوس شيطانية لا إلهامات ربانية فإن الذكر يورث القلب أسراراً وأنواراً ، فإذا تكلم صاحبه تكلم بالمعارف واللطائف لا بالبهتان والهذيان فكلامهم بالفحش على ما يقول السائل أكبر برهان على أنهم ما كانوا يتلقون إلا عن الشياطين ولا يسيرون إلا في ظلمات بعضها فوق بعض

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥

(٢) سورة التوبة الآية ٦٥

فما أدل الأثر عنى المؤثر والدخان على النار والغايات على المبادئ
والنتائج على المقدمات !

وإذا كان في سماع الآلات المجردة خلاف طويل عريض ، وقد ألف
فيه ابن حجر كتابه المسمى بكف الرعاع ، وأقام فيه البراهين على
تحريم سماعها ، فما بالك إذا كانت في مجلس يذكر فيه اسم الله تعالى ؟!

وإنه ليجب أن تخضع الأصوات للرحمن وتطرق الرعوس وتخضع
القلوب إعظاماً لهيبته وجلاله ، وكيف يتفق ذلك مع تلك الآلات
الملهية عن ذكر الله وعن الحضور مع الله كما هو المطلوب من الذاكر ؟
فآلات اللهو يجب تنزيه تلك المجالس الشريفة عنها

وربما زادوا الطنبورة نغمة ، فغنوا بالخمريات التي تحبب الخمر
إلى النفوس ، ثم يقولون : إن المراد بالخمرة خمرة الأرواح لا الأشباح !
وقد يكون ذلك صحيحاً إلا أنه غير مأمون ولا معروف ، وقد أوشكت
الذنيا أن تخلق من ذويه ، وأن لا يوجد فيها أحد الآن من ذائقه ،
إلا من اصطفاهم الله بعنايته الخاصة ، وقليل ما هم ويوشك أن يجر
ذلك إلى مالا تحمد عقباه ، خصوصاً مع الآلات والأوتار . وأين ما يفهمه
العامة مما يفهمه أهل المحبة الإلهية من قول ابن الفارض

خفف السير واتند يا حادى إنما أنت سائر بفؤادى

إلى أن قال

ما شئمت البشام إلا وأهدى لفؤادى تحية من سعادى

أو قول غيره

أهل الهوى تعرف قدر الهوى وإن هذى الجهال قالوا سلام

إلى غير ذلك مما يحرك النفوس إلى حمى الكئوس ، ويهيج في أرباب الشهوات ذكرى الغايات . والسماع لا يحدث في النفوس جديداً ، وإنما يهيج منها ما استقر فيه من خير أو شر

وقد سئل مالك عن الغناء فقال : إنما يفعلُه عندنا الفساق ، حتى لقد روى عنه أن الإنسان إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب ومن عرف النفوس واستدراجها لصاحبها من حيث يشعر ولا يشعر ، لم يمكنها من أن تخطو خطوة واحدة في طريق يوشك أن يودها إلى الفساد ، ويسير بها إلى غير السداد .

وقد قال بعض العلماء كيف لا يحرم سماع الآلات وهو شعار أهل الخمر والنسوق والفساد والمجون ؟ وما كان كذلك لم يشك في تحريمه ولا في تفسيق فاعله وتأثيره ولا ينفعهم تلك التعللات الباطلة ، ولا قولهم أن المراد بالخمرة خمرة الأسرار ، وبالحنانة حانة الحضرات ، كما سمعناه من بعضهم ، فإن ذلك كله الآن خيالات وتبهات ، وماهى إلا تلبيسات من الشيطان وألوان براقعة من الهذيان .

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بما ارتكبه حتى وقعوا في حق السلف الماضين - رضئ الله عنهم - ، ونسبوا إليهم اللهو واللعب : لأنهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم هو الذى كان السلف - رضوان الله تعالى عليهم - يفعلونه .

وقد أذكرني ذلك قول الإمام الكبير والمحدث الشهير رزين العبدري :
ما أتى ببعض المتأخرين إلا من وضعهم الأسماء على غير مسمياتها . ولهذا
شرح طويل

ولننقل لك عبارة الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره
حين تكلم على قصة السامري في سورة طه

سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي - رحمه الله - : ما يقول سيدي الفقيه في
مذهب الصوفية الذين يجتمع منهم جماعة فيكثرون من ذكر الله وذكر
محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أنهم يوقعون بالقضيب على شيء من
الأديم ، ويقوم بعضهم ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون
شيئاً يأكلونه هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ « ولعمري أن هؤلاء
أحسن حالاً ممن نراهم اليوم وجاء بعض وصفهم في السؤال . » أفتونا
يرحمكم الله

فقال في الجواب هذه الأشياء كلها بظالة وجهالة وضلالة ، وما
الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله . وأما الرقص والتواجد فأول من
أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار . فقاموا
يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعُباد العجل . وأما
التصيب دون ر اتخذه الزنادقة ليشعلوا به المسلمين عن كتاب الله
تعالى ، وإنما كان مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه كأنما
على رؤوسهم الطير من الوقار .

ولعل من الفائدة الكبرى في هذا المقام أن ننقل لك عبارة الإمام
لكبير ابن قدامة جواباً عن مثل هذا السؤال ، قال رحمه الله أن فاعل
هذا مخطئ عساقط المروءة ، والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في
الشرع غير مقبول القول ، فإن هذا معصية ولعب ، ذمه الله تعالى ورسوله ،
وكرهه أهل العلم وسموه بدعة ، وهو عن فعله ، ولا يتقرب إلى الله
سبحانه بمعاصيه ، ولا يطاع بارتكاب مناهيه

ومن جعل وسيلته إلى الله - سبحانه - معصيته كان حظه الطرد والإبعاد ،
ومن اتخذ الله واللعب ديناً كان كمن سعى في الأرض بالفساد . ومن
طلب الوصول إلى الله - سبحانه - من غير طريق رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وسنته فهو بعيد من الوصول إلى المراد

وقد كرهه الأئمة كما ترى ولم ينضم إليه هذه المكروهات من
الدفوف والشبابات ، فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه ديناً ؟ فما
أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ
إِلَّا مَكَاةً وَتَصَدِيَةً)^(١) « المكاء الصنير ، والتصدية التصفيق » .

وقال الله سبحانه لنبيه (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)^(٢) فأما فعله في المساجد فلا يجوز ، فإن المساجد
لم تبين لهذا ، ويجب صومها عما هو أدنى منه ، فكيف بهذا الشأن الذي
هو شعار الفساق ومنبت النفاق ؟ ؟ وقد روى عن عمر بن عبد العزيز

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٥

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧٠

أنه قال « إنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهاج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء » .

فما بال الواحد من هؤلاء المدعين مذهب التصوف يلتفت عن طريقة رسول الله يميناً وشمالاً ، ويطلب الوصول إلى الله - سبحانه - من سواها ، ويبتغي رضاه فيما عداها ؟!

وبعد فإننا نرحب بذكر الله في كل زمان ومكان ، سرّاً وجهرّاً ، انفراداً واجتماعاً ، ولكن بشرط أن يراعوا آداب الذكر وما يجب له ، فلا يتخذوا آيات الله هزواً ولا يلحدوا في آياته أسألاً الله أن يقينا أشد مضلات الفتن ، وأن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والصالحين عنه وكرمه .

تعدد الزوجات

لسنا نذهب في تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الذكر من الشرقيين أكثر قوة من الغربي ولذلك قال بعض المشتغلين لا يعلم طبائع الأمم إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة أى فيجب في الشريعة العامة التي جاءت للأمم كلها أن تراعى ما يناسب طبائع الجميع ولذلك قال الكونت هنرى كيستري ، أنه ليصعب جداً على الغربيين أن يقدرُوا شريعة القرآن في تعدد الزوجات حق قدرها لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلى كما أتى لست أعلل ذلك بما يعلل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيراً بلا حد فلما جاء الإسلام بقصرهم على واحدة كان ذلك صعباً جداً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة كغيلان الذى أسلم على عشرة نسوة .»

ومن علل بذلك الكونت هنرى كيستري حيث يقول « إن ذلك ربما أدى إلى تززع عقيدتهم في الدين الجديد فهذا أباح لهم تزوج الأربع تخفيفاً للشمر وتأليفاً لقلوبهم ببعض ما ألفوه فهو لم يفعل ذلك إلا للمصاححة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة

ولست أقول في ذلك أيضاً ما يقوله المسيو (ريفيل) إننا لو رجعنا إلى زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - ومكان ظهوره لما وجدنا

عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه عليه السلام فهن مدينات لنبيهن بأموور كثيرة لسنا نعلل بشيء من ذلك كله وإن كان له من النظر قعبط ومن الحق وجه ولكننا نعلم بك إلى ما هو أقرب من هذا أو أولى بالاعتماد عليه إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب المهلكة ومخاوف الأسفار في البر والبحر التي تحدث كثيراً لركاب البواخر من الغرق وغيره كحوادث الترام ومخاطر الطيران ومهاوى الجنائيات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التي تكون لاستخراج المعادن من مكانها أو اللآلئ من مستقرها مما عسى أن يكون معرضاً لخطر البراكين أو غيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول ، أو المصارعة المعتادة في أوروبا وأمريكا وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفظائع التي كثيراً ما تودي بحياتهم أو حياة غيرهم .

وإن شئت ضمنت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمي الكثير بنفوسهم في البحر تخلصاً من مضايق الحياة ومتاعب العيش كما يقع ذلك كثيراً بانجلترا وغيرها مما يتناقض به الرجال تناقضاً كثيراً : ثم ألقِ ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية البلقانية وأفظع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التي لاتزال ماثلة في الأذهان بويلاتها ومصائبها ولو نظرت في التاريخ لوجدته يفيض أنهاراً من الدماء من كل ينابيع الشقاء قديماً وحديثاً . وقد ذكر القرآن والتوراة أن فرعون كان يذبح أبناء إسرائيل ويستحي نساءهم وأنه غرق في البحر مع أمم كثيرة يقدرها بعضهم بستائة ألف في يوم واحد .

وأظنك لا تشم في أن هذا كله لا يكاد يوجد في النساء حتى حوادث الانتحار الفردية (إلا على سبيل الشذوذ في ندور من الأحوال)

وقد دلت الإحصائيات الرسمية على أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، وأصبح ذلك مما لاشك فيه فقل لي بعيشك إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصوداً على زوجة واحدة فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن إذا كان لا يجوز للرجل أن يتزوج إلا واحدة بل من يؤدي واجباتهن ويقوم بحاجاتهن وهي كثيرة متوقفة على الرجال لامحالة ، فإن المرأة ضعيفة ممتضى خلقها كما أثبت ذلك علماء التشريح ، ولئن فرضنا أن في تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم بشئهم على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية (وهو فرض لا يكون ولئن كان فلن يدوم) أفلا يلحقهن من المنة أو العار ما ينخص عيشهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التي هي تنوان المذلة وبرهان المهانة ومجلبة العار لهن ولأقاربهن

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه أن يفرض فيها ولا أن يدع امرها يوماً من الأيام لغيره بعد ما أخذ على عهده من يوم ذلك الزواج أن يزود عنها عوادى الدهر وغوائل الحياة لكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر المحبة إلى غير ذلك من الروابط التي لا يستهان بها في نظر العقل والدين والعرف وهذا تتم السعادة والهناء لهن مادياً وأدبياً وفي الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الأزواج ما يضمن لهن كل راحة وينقذهن من كل شقاء

وإني أزيدك الأمر بياناً فأقول

لو فرضنا - وهو فرض واقعي مشاهد - أن أمة قوية اعتدت على أمة أخرى فأبّت حميتها وتصلبها في وطنيتها واستماتتها في سبيل الذود عن استقلالها إلا أن تنتصر على ضعفها أو تموت بعزمها وشرفها فلم تنزل تحارب حتى آخر لحظة من حياتها فهل من المصلحة بعد تلك الحرب التي استأصلتهم وتركت نساءهم أرامل لا يجدن كفيلاً ، ولا يهتدين سبيلاً ألا يتزوجن أحداً من الأمة الظافرة التي معها نساؤها فيضيع ذلك العدد العديد من النساء ، ويسجل عليهن الشقاء والبلاء ، طلباً لراحة تلك الزوجات المنفردات ورغبة في هنائهن إن المشرخ الحكيم - يا حضرات المنفيهقين نظراً واسعاً ومرى بعيداً يحيط بمصالح الأمم ولا يقتصر نظره على السعادة الفردية والمسائل الجزئية كما تنظرون متوهمين أنكم تسعون في سعادة المرأة غائباً عن نظركم القاصر أنكم مجدون في شقائها من حيث لا تشعرون

هذا ، ومن جهة أخرى تعلم أن الرجل يولد له إلى ما بعد الثمانين وأما المرأة فتملأ بعد الخمسين فلو أوجبنا على الرجال الاقتصاد على زوجة واحدة لتعطل شطر كبير من أعمارهم من وجود النسل فيه وهو ما يعود على الأمة بالقلّة (والقلّة مناط الذلّة وفقد القوّة)

وإنا نرى الملوك يتحملون كل عناء ، ويستعملون من الوسائل ما لا يدخل تحت حصر في الحصول على التحالف أو الاتفاق مع الدول الأخرى طمعاً في أن تزداد قوتهم ، وتقوى شوكتهم ويكثر عددهم

ويتزايد مددهم عند الحروب واشتداد الكروب فما بالك إذا كانت الأمة غنية بأبنائها غير محتاجة إلى سواها لكثرة عددها أفلا تكون القوة أمتن والوصول إلى الرفعة أقرب ، والفوز في ميدان الحياة أعظم . ومن للأمم بتلك الوسيلة التي هي أضمن الوسائل لنيل الشعوب مجدها ورفعته

وأما رقي أوروبا وارتفاع شأنها دون أمم الإسلام فهو راجع إلى أسباب أخرى لو وجدت فينا لكننا اليوم أرفع الأمم وأعظم الشعوب كما كنا كذلك بالأمس وأن الحكومات التي تتخذ من وسائل الصحة ما يحفظ لها كثرتها وقوتها فتحارب الأوبئة الفتاكة خوفاً على نقص الأمة وضعفها لو اتسع نظرها لسارعت إلى غايتها المنشودة بتلك الوسيلة الإسلامية فإنها من أعظم الطرق إليها ، ولحاربت تلك الأفكار المنحرفة كما تحارب الأوبئة الفتاكة . فإن مكروهاً أقتل للأمم وأفتك بالشعوب من مكروبات الكوليرا وجرائم الطاعون

وإن قلة الزواج في نظر الباحث المدقق لمن قبيل تلك الأمراض التي تحاربها الحكومات بجد واجتهاد هل من الحكمة أن نحجر على الرجل ألا يتزوج غير زوجته التي وصلت إلى سن اليأس وهو بعد لم يصل إليه ولعله يأتي بعد بكثير من الرجال العاملين أليس في منعه من ذلك قطع لأكبر وسائل القوة ، وسد لأعظم طرق الرفعة للأمم والشعوب ومعلوم أنه إذا امتنع التعدد قل النسل لا محالة ، فيتناقص عدد الأمة فيقع الرعب في قلوبها واللين في قناتها فيطمع فيها أعداؤها ، وتمتد إليها أيديهم بالسوء فتعاصى على البقاء وتنقاد إلى عوامل الفناء

وإن كثيراً من المفكرين ليوجس خيفة من تلك الأفكار الجديدة التي أوقعت كثيراً من الفتيات في هوة العار والدمار فضلاً عما يكابدن في طلب العيش من العناء والشقاء وانظر إلى تلك العادة المسيحية (الافتصار على واحدة) وما توجه به مع تلك المرأة التي بلغت سن اليأس ، وقارن بينها وبين تلك السنة الإسلامية التي راعت مصلحة الأمم وقدمتها على مصلحة تلك العجوز فلم تهرم الرجل بهرماً ، ولا أيأسه بيأسها بل انظر إلى ما عسى أن يكون من تزوج الرجل بالمرأة العقيم

فإن المسيحية توجب عليه أن يذهب ذكره من الوجود بذهاب شخصه ، وليس في ذلك فناؤه فقط بل فيه مع هذا فناء حتى تدريجي للشعب نفسه حيث يفقد قوة كبيرة كان يحصل عليها لو كان الرجل مسلماً يرى كثرة الزواج فيمد الأمة بعشرة أو عشرين تنتفع بهم في مصانعها ومزارعها ومتاجرهما فضلاً عن حروبها وأزماتها

وإن فرنسا اثنتان من قتلتها الآن أنينا شديدا وتريد أن تجعل الزواج جبرياً لهذا الغرض الذي شرحناه ، وقد رأيت أن بعض فلاسفة الألمان يغبط المسلمين الذين يصيرون في الزمن اليسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة الزواج الذي جاء به نبيهم (الحكيم العظيم) ولنضرب لك مثلاً بالرجل المسيحي الذي يتزوج امرأة فيجدها عقيماً أليس من الجائز القريب أن هذا الرجل كان يولد له عدد كثير من الأولاد كعشرة مثلاً وأن يلد كل واحد من العشرة عشرة ، وذلك كله لا يستغرق نصف قرن فتكون تلك الأمة قد فقدت في ذلك الزمن مائة شخص من فرد

واحد من أفرادها كما أن السنة الإسلامية أكتسبت أهمها ذلك العدد العظيم في تلك المدة اليسيرة

ومما يلتحق بذلك قول الكونت هنرى متألماً من قلة الزواج عندهم (إن أهل الشرق لا يعرفون العزوبة وهى المصيبة التى جلبها التمدين على الغربيين) وتعلم فوق هذا أن المرأة قد يعترها مرض تطول مدته أو يكون مزمناً أو معدياً . بل نقول : يجوز أن يباين الرجل المرأة نفسها وخلقا وتربية وأدبا وأن تباينه فى ذلك

فقل لى بعيشك ماذا يفعل المسيحي (أو من يريد أن يكون مسيحياً فى مسألة الزواج) لا بد له أن يفعل أحد أمرين فإما أن يصبر ويعانى مشقة مقاومة الشهوة الطبيعية فيحصل له ضرر عظيم وإما ألا يمتنع عن تلك الزوجة فيكون الضرر أعظم والويل أشد وإما أن يضطر إلى الفسوق والفجور ولعل هذا هو السبب فيما يقوله (الكونت هنرى كيسترى) من أن ما يحصل من ذلك فى عاصمة باريس وبرلين ولندرة يزيد على ما يحصل من ذلك فى الشرق كله إلى أن قال (وأما ما يتعوده المراهقون من الأمر القبيح فمما لا وجود له فى الشرق إلا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج) وقد ثبت بالإحصاء الرسمى أن أولاد الزنى فاقوا فى باريس عن ثلاثين فى المائة وفى ميونيخ عن أربعين وفى فيينا عن خمسين وفى بروكسل عن ستين فذلك التعدد واقع فى تلك الأمم بصورة غير مشروعة متناهية فى الفظاعة وأضراره على المرأة والنسل أشد فظاعة وأقوى قبحا

ولعل المشرعين والمنفذين الذين سنوا لهم تلك العادة - التي خالفوا فيها التوراة ولم يصرح بها الإنجيل - شركاؤهم في تلك الجرائم ولعمر الحق إن هذه الأسباب تكاد تكون موجبة لكثرة الزواج لا مبيحة لها فقط .

ولنمسك عنان القلم اكتفاءً عما قدمنا ، ولو شئنا لأًطلنا

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يعرفنا مزايا ديننا القويم
بمنه وكرمه

جواز التقليد^(١) والرد على من يجرمه

حضرة خادم السنة والإسلام وعلامة العلماء الأعلام ، صاحب
الفضيلة سيدي الشيخ يوسف الدجوي أبقاكم الله تعالى في سعادة
وأمان ، زاغمين أنف كل زائغ فتان

وبعد : فعندنا طائفة ليس لها شغل إلا بالخط من قدر الأئمة والطعن
عليهم ، ودم مقلديهم بأقبح الذنوب حتى أن بعضهم ألف رسالة
في ذلك ، وهي رسالة إليكم وهم ينادون بتحريم التقليد وأنه
من الكبائر وبعضهم يجعله كفراً مثل كفر الذين اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ويقولون إن الواجب على العاصي أن
يطلب من العالم الذي يستفتيه ذكر الدليل من الكتاب أو السنة ،
ويجب على العالم أن يذكر له ذلك وينهاه عن تقليده أو تقليد غيره ،
فانه لا يجوز اتباع آراء الرجب ويجب الرجوع في كل شيء إلى
الكتاب والسنة .

فنسألكم بالله - عز وجل - أن تغيثونا ببيان الحق ، فإنهم شوشوا على
العامة وآذوا الخاصة إيذاءً بليغاً . وليس لنا إلا (الأزهري الأنور)
وعلمائهم الذين يرجع إليهم في المهمات ، وتكشف بهم جميع المضللات .
أبقاكم الله حصناً للدين وملجأً للمؤمنين - آمين .

عبد الله بن رابع بالجزائر

(١) مجلة الأزهري - الجزء العشر - المجلد الحامن - سنة ١٣٤٣ هـ .

الجواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

هذه نزعة من شر النزعات التي ابتلى بها المسلمون من أولئك الذين يدعون الاجتهاد ، ويشيرون في الأرض الفساد ، ويبذرون بذور الشقاق والانقسام ، ويهونون أمر سلفنا الصالح في نفوس العامة « شأن الخوارج الذين هم شر الطوائف » ويزجون بأولئك الجهال فيما لا يحسنونه ، فيعرضونهم بذلك لكل خطر وفتنة

وهي شنيئة نعرفها من إخوانهم عندنا بمصر (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ)^(١) . وكنا نود أن يكونوا من الذين يقولون
(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)^(٢) ولكن أخبرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه
سيلعن آخر هذه الأمة أولها ، وأن ذلك من علامات الساعة ، وسيتخذ
الناس في آخر الزمان رؤساءً جهالاً فيسألونهم فيفتون بغير علم ،
فيضلون ويضلون . وما كانوا رؤساءً إلا لتلك الدعاوى الكاذبة

وقد روى عن علي - رضي الله عنه - : « إذا أعرض الله عن العبد أورثه
الإنكار على أهل الدين » . وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - « أخوف
ما أخاف على أمتي كل متفیهق عليم اللسان » .

أما أئمة الإسلام المتقدمون فلا يضرهم ذلك شيئاً ، لأن الأمة كلها

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

(٢) سورة الحشر ، الآية

على توقيهرهم و جلالهم ومعرفة فضلهم ، إلا تلك الشرذمة التي لو أنفق
أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه

وسعى إلى بئيب عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها

وأما اختلاف الأئمة وما يطنظنون به حوله فهو من الرحمة الكبرى
بهذه الأمة وقد قال عمر بن عبد العزيز « ما يسرنى أن أصحاب
محمد-صلى الله عليه وسلم-لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رحمة »
وقد قال يحيى بن سعيد وهو من كبار المحدثين من التابعين أهل
العلم أهل توسعة ، وما برح المفتون يختلفون ، فلا يعيب هذا على هذا .
على أن الناس أخذوا من القرآن والسنة كما يريد هؤلاء لما وقف
بهم الاختلاف عند حد ، ولأصبحت المذاهب أربعة آلاف بدلا من أربعة
ويومئذ يكون الليل كل الليل للمسلمين « لا أرانا الله ذلك اليوم » .

وأما دعواهم حرمة التقليد فيردها العقل والنقل « ومن العجب

العاجب أنهم يحرمون التقليد ولكن يدعون الناس إلى تقليدهم !

ولو لم نسمع تلك الأصوات المنكرة ما صدقنا أن أحداً في الوجود

يحرم التقليد ويوجب على الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت
استعدادهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة .

وأنه ليدل على فساد ما قالوا المعقول والمنقول ، فإن العامى مكلف

بالأحكام قطعا : ولا يمكنه أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة قطعا

لما سنبيهه

وأما النقل فقد كان الصحابة والتابعون يفتون السائلين بالحكم ، فتارة يذكرون مأخذه إذا اقتضت الحال ذلك ، وتارة يقتصرون على ذكر الحكم ، وذلك معلوم على القطع من حالهم ولو كان الأمر على ما زعم هؤلاء لا لتزموا ذكر الدليل لأولئك السائلين الذين كان يمكنهم أن يفهموه ولا يضلوا فيه لأنهم من أهل اللغة

وكذلك كانت رسله - صلى الله عليه وسلم - إلى البلدان ، كما عاذا ابن جبل وأبي موسى الأشعري : يعلمون الناس الأحكام من غير التزام ذكر الدليل . بل قال معاذ للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أنه إذا لم يجد الحكم في كتاب الله ولا سنة رسول الله اجتهد رأيه ، - وأقره صلى الله عليه وسلم - على ذلك . وخير عمر شريحا في أن يجتهد رأيه فما اشتبه عليه وأن يراجعه فيه ، وإن كان ذلك أحب إلى عمر .

ويقول الله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١)
أى عما اشتبه عليكم لاعن دليله فلم يشترط . القرآن غير أن يكون المسئول من أهل الذكر

ولا شك أن الأئمة المسلمين من أهل الذكر الموثوق بأمانتهم وعدالتهم ، ودينهم وعلمهم ، وليس يسألهم المستفتى عن آرائهم البحتة بالضرورة ، وإنما يسألهم عن حكم الله المأخوذ من كتاب الله وسنة رسول الله ، اكونهم أعلم به منه ، بخلاف الأخبار والرهبان ، فإنهم كانوا يحملون ويحرمون بأهوائهم

والمُدار على أن يحصل للمستفتى ظن قوى بأن هذا هو حكم الله ،
فإذا حصل له ذلك الظن بموجب ثقته بإمامه الذي اتبعه ، وجب عليه
العمل به ولا يجوز له مخالفته بوجه من الوجوه .

وما أدرى كيف يبيحون لكل إنسان أن يأخذ دليل الحكم من
الكتاب والسنة

وكيف يأخذ الحكم من الحديث مثلاً وهو لا يمكنه أن يعرف درجة
الحديث ولا ماله من معارض ولا مافيه من تخصيص عام أو تقييد
مطلق أو نسخ ناسخ ، ولا ما بينه وبين غيره من ترجيح الخ الخ

فإذا قالوا أنه يسأل العالم عن ذلك كله فقد هدموا ما بنوا ،
ورجعوا إلى التقليد الذي فروا منه فإن العالم إنما يتكلم في ذلك كله
برأيه ، فلم يخرجوا من تقليد آراء الرجال كما يقولون :

ولو كانت الشريعة جاءت بهذا الحرج لكلفت الناس شططا ولم
تكن شريعة سمحة تسع الأمم كلها وتصلح للأزمان كلها ، ولم يقل
الله في شأنها (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ^(١) فمعجباً لأولئك الذين
يعمدون لأكبر ميزة للشريعة الإسلامية فينقمونها عليها :

وإذا تأملت بنور الله في ذلك الموضوع بهرك ماني تلك الشريعة من
السعة والرحمة والحكمة وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على
التخفيف على أمته غاية الحرص ، وهو بالمؤمنين رهوف رحيم . حتى أنه
لما نزل القرآن على حرف ما زال يتشفع حتى نزل على سبعة أحرف

وكان يكره المشددين المنفرين ويغلظ القول لهم ، وينكر على من يبحث عن البواطن ، أو يشتد على عباد الله غلوا وتعمقا وجهلا بمقاصد الشريعة ، ولذلك اشتد على أسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله ، مع كون أسامة رضى الله عنه - كان متأولا ، ولكن حكمته - عليه السلام - أعين وأتم ، فإنه يكتفى من الناس بطواهرهم تأييفا لهم ورحمة بهم ، علما بأن ذلك أليق بضعفهم وجهلهم ، وأقرب إلى إصلاحهم ، فهو يتدرج بهم بحكمته الكبرى حتى يوصلهم من الكمال إلى ما قدر لهم عن طيب نفس من حيث يشعرون أو لا يشعرون

ولو أردنا أن نبين آثار رحمته ومزيد حكمته التي اقتضت بقاء شريعته وانسراج الكافة في سلك أمته لضاق المجال وطال المقال

وانى أعجب لهؤلاء كيف لا يجيزون للعامه أن يتدخلوا في دقائق السياسة ، ولا للجاهل بصنعة من الصنائع أن يتولاها بلا تعلم ومزاولة ، ثم يجيزون بل يوجبون عليهم أن يخوضوا في القرآن والسنة بأفهامهم وأوهامهم التي تشبه أوهام الأطفال ولا تركز إلا على الخيال ولكنها الأمام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وليت شعرى هل لهذا الجاهل الذى أباحوا له أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يخالف علماء المسلمين ، ويستظهر على سائر الأحكام التي ثبتت بالقياس في عهد الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين حيث يجد لها دليلا من الكتاب والسنة على زعمه ؟ ! وما أظن أحدا من ذوى الدين والعلم يستطيع أن يقول ذلك غير تلك الفرقة المجازفة التي تخنطت صورها ولم تعرف قدرها

وهل في الكتاب والسنة ما يدل على جميع الحوادث وأحكامها
دلالة وضعية بدون حاجة إلى الاستنباط. والقياس المستلزم لمعرفة العلة
وشروطها ومسالكها وقوادحها وغير ذلك .م يقولون إن العاى يمكنه أن
يعرف ذلك ولا يخطئ فيه بدون علم ولا بصيرة ؟ !

ولعمر الله أنى لا أرى هذا الرأى إلا فتحا لباب الأهواء التى تجعل
الكتاب والسنة لعبة لأولئك المتهوسين الذين هم من ذوى الجهل المركب
والخيالات الفاسدة

ومما لاشك فيه أن الأهواء تختلف جد الاختلاف ، وأن الجهال
إنما يستمدون من العواطف والأوهام ، لامن العقول والأفهام فماذا
يكون الحال إذا سلطناهم على الشريعة يفهمونها بآرائهم ، ويلعبون فيها
بأهوائهم ؟ !

هذا ومعلوم أن المستفتى لا يسأل العالم عن رأيه ولا ما يستحسنه
بمحض هواه ، ولكن يسأله عن حكم الله فى المسألة ، وسؤاله لأهل
الذكر عن حكم الواقعة إنما هو ليجيبه المسئول بما يعلمه من الكتاب
والسنة ، فسؤاله عن حكم الله لاعن آراء الرجال التى لم تستند إلى
كتاب أو سنة كما يتوهمون ثم يشنعون .

وكيف تجيء هذه الخيالات أو تروج تلك الترهات فيميز لا يدين
إلا بقول النبي-صلى الله عليه وسلم-،ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله
ورسوله ولا حراما إلا ما حرمه الله ورسوله ؟ لكن لما لم يكن له علم بما
جاء عنه-صلى الله عليه وسلم-،ولا بطريق الجمع بين المختلفات من

كلامه ، ولابطريق الاستنباط من دلالة الإشارة مثلاً ، سأل علماً راشداً ،
معتقداً أنه مصيب فيما يقول فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته
عما أفناه به

فكيف ينكر هذا أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزالا في
المسلمين من عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟! ومن الذي يعتقد أن هناك
فقيهاً أوحى الله إليه ؟ فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه الم
بكتاب الله وسنة رسوله ، ولولا ذلك ماقلد مؤمن مجتهداً

وعلى كل حال فمن ذهب إلى هذه النزعة الحمقاء فقد أنكر على
كل من فوق لبسيطة من جميع المسلمين الذين قلدوا الأئمة وأخذوا
بكتب الفروع ، وما كتب الفروع إلا شرح للكتاب والسنة ، فما
الذي يوجب التنفير والتحذير مما مرجعه إلى الكتاب والسنة ؟ وهل يمكن
العامّة أن يفهموا الكتاب والسنة لولا ما كان من أئمة الهدى - رضى الله
عنهم - ، كيف وفيهما المجلد والمبين ، والعام والخاص والمطلق
والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والمنطوق والمفهوم ، وغير ذلك ؟

وقد قال ابن عباس « إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور
وبطون ، لاتنتضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته وعرفنا - صلى الله عليه
وسلم - أن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطعماً ، ولكن هؤلاء يريدون أن
يطلعوا بغير مطع ، ويجهتدوا بغير علم ، ويتكلموا بغير عقل . » وكم
سر وحكمة نبهت عليهما الإشارة ولم تبينهما العبارة

ولعمري إن أكثر من يدعون العلم اليوم لا يفهمون وجه الدلالة
ولامدرك الأئمة ، خصوصاً إذا كان الدليل ذا مقدمات يتوقف تقريبه

الاستدلال على مور قلما يكون لأمثالهم إمام بها فما أبعد ما طوحت
بها الطرائح ، وما أعجب ما بلغ بهم الاعجاب

إن الأخذ من القرآن والسنة يحتاج إلى علم واسع ونور ساطع
يفرق صاحبه به بين الحق والباطل ، فضلا عما يحتاج إليه من
لغة ونحو وصرف ومعان وبيان وأصول الخ وقد رأينا المعتزلة
يقولون إن القرآن يشهد لمذهبهم والخوارج يدعون أن القرآن
ناطق بنحلتهم والباطنية يزعمون أن للقرآن معنى آخر غير معناه
الظاهر ، والباوية يعتقدون أن له معنى غير ما فهمه الجميع ، إلى آخر
الفرق الضالة والنحل الزائفة فهذه الفرق كلها كانت تستمد من
القرآن على زعمها ، فكيف ندعه بعد ما رأينا ذلك كله لأهواء الجهلاء
وآراء الأغبياء ؟

وقد كان كبار المحدثين المخاصين يقلدون الأئمة المجتهدين ،
علما منهم بأن رواية الحديث لا تكفي في الاجتهاد وقد قالوا
إن المحدث بمنزلة الصيدلي والمجتهد بمنزلة الطبيب ولقد رأينا
[من الناس من ضل بظواهر المتشامات من القرآن والأحاديث

الخلاصة

والخلاصة أن أقوال المجتهدين المأخوذة من الكتاب والسنة ضرب
من البيان والتفسير

وقد عرفوا الاجتهاد بأنه : استنفاد الجهد بالنظر في المآخذ الشرعية

لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعي

أما دعوى وجوب الأخذ من الكتاب والسنة لكل أحد فباطلة بإجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد والنظر كما قلنا ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم وأيضاً الإجماع منعقد على أن العامى مكلف بالأحكام وتكليف طلب رتبة الاجتهاد تكليف بالمحال ، فليس عليه إلا أن يعرف حكم الله بأى طريق على مقتضى ظنه « ووجوب العمل بالحكم عند الظن معلوم لانزاع فيه »

ومن المعلوم أن تقليد الأئمة ليس تركاً للآيات والأحاديث ، بل هو عين التمسك بهما فإن الآيات والأحاديث ما وصلت إلينا إلا بواسطتهم ، مع كونهم أعلم ممن بعدهم بصحتها وحسنها وضعفها ، ومرفوعها ومرسلها ومتواترها ومشهورها ، وأحاديثها وغريبها ، وتأويلها ، وتاريخ المتقدم والمتأخر منها والناسخ والمنسوخ ، وأسبابها ولغاتنا ، وسائر علومها مع تمام ضبطهم وتحريرهم لها ، وكمال إدراكهم وقوة ديانتهم ؛ واعتنائهم وورعهم ونور بصائرهم ، فتفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد العلوم التى لا بد منها فى ذلك ، واستخرجوا أسرار القرآن والأحاديث ، واستنبطوا منها فوائد وأحكامها ، وبيّنوا للناس ما يخفى عليهم على مقتضى العقول والمنقول ، فيسروا عليهم أمر الدين ، وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الاصول ورد الفروع إليها ، فأستقر من الدين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم - بسببهم الخير العميم كما قال إمام الحرمين :

كلمة ختامية

إن أمثال هؤلاء المهوورين لا يصح أن يكونوا من أئمة الهدى ولا علماء الدين ، فإن أخص أوصاف الأئمة والعظماء ، الرزانة والأناة واحترام غيرهم من العلماء والشفقة على الأمة ووراثه الرسول صاحب النظر الواسع والحكمة البالغة والساحة المتناهية .

وينبغي أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهد يجب ألا يتنازع فيه الناس ، فالأمر فيه واسع ، فكم اختلف الصحابة والتابعون وتابعوهم مع محبة بعضهم لبعض ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعي ماله مراراً ، وقد خائفه في أشياء كثيرة وهو تلميذه وقد قالوا إن المنكر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعاً على إنكاره

وإني أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ، بل تنتزل قليلاً ونقول لهم فتوجبون علينا تقليدكم وأنتم تحرمون التقليد ، أم ماذا ؟

هذا والله غض من شأن الأمة وعلمائها وأئمتها ، وهي تلك الأمة التي أدهشت التاريخ وأنظقت أعداء الاسلام بفضل الإسلام ، وقد صورتها يا حضرات المتفیهقين بصورة الأغنام التي تتبع كل ناعق ، وهي من الحكمة والفلسفة بالمحل الذي لا ينكره منصف أوربي فضلاً عن عالم إسلامي .

وأما رميكم إليهم بأنهم كانوا يتبعون أئمتهم اتباعاً لا مناقشة فيه ولا تبعاً معه ولا حياة في ذويه فهو غير صحيح ، فإنهم كانوا عقلاء حكماء مخلصين على بصيرة من أمرهم فكان كلُّ يقف عند حده ولا يتخطاه ، فإذا ظهر له الحق ، اتبعه لا محالة ، فإن المسلمين عموماً لا يريدون إلا اتباع الرسول لا غير ، وإذا اتبعوا إماماً فإنما يتبعونه في أن هذا هو سنة الرسول وشريعته فيما يعتقدون. ولا يتصور غير هذا

أما كونه مخطئاً في الواقع أو مصيباً فذلك شيء لم يكلفهم الله به ، ولا يخلو منه مجتهد ولا مقلد ، والخطأ إلى من يجتهد وليس أهلاً للاجتهاد أقرب منه إلى من يقلد المجتهد الموثوق به المشهود له بالامامة . وهذا تنزل اقتضاه المقام ، وإلا فاجتهاد من ليس أهلاً للاجتهاد من أكبر الكبائر وأعظم الجنايات على الدين وأهله

أعلى أن أتباع الأئمة لم يكرهوا من تقليدهم على ما يزعم هؤلاء ، فإننا نرى أبا سفيان ومحمد كثيراً ما يخالفان أبا حنيفة ، بل لا نكاد نجد مسألة لا يذكر فيها ذلك الخلاف الذي يبين استقلالهم وشدة حرصهم على اتباع الحق متى ظهر دليله

وها هو ذا الإمام الشافعي يتردد في مذهبه الجديد أن المغرب لا يمتد وقتاً إلى الشنق ولكن أصحابه عدلوا عن قوله اتباعاً للدليل . وكذلك لا يرى عزم أحد عن الميت ، وخالفه أصحابه اتباعاً للدليل وكم لابن عبد البر وأبي بكر بن العربي المالكيين من مخالفات في مذهب مالك ، وكنا غيرهما . إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال

ولكن كانوا يعرفون درجتهم ، فما يتبين لهم دليله اتبعوه وقالوا به ولو خالف الإمام ، وما لم يتبين لهم فيه شيء كانوا فيه على رأى الإمام وعلماً بأنه أعلم منهم بالسنة وأعرف بروح الشريعة

وهكذا يجب أن يلتزم كل إنسان حده ولا يتعدى درجته فكان لكبار الأئمة الاستقلال التام ، ولأكابر تابعيهم الاستقلال الجزئى من التضعيف والترجيح ، ولعامّة الاتباع ، فإنه لا يصح فيهم غير هذا وهو عين الحكمة .

ولولا ذلك لصار الدين لعبة بيد الجهان ، وهذا ما نخاف منه ونحاول القضاء عليه . وليس معنى ذلك أننا نقول بعدم جواز الاجتهاد ، أو أنه أعلن بابيه كما يقولون ، فإن أبواب فضل الله لاتغلق . وهل هذا إلا حجر على الله عز وجل - ؟ ولكن هناك فرق كبير بين إمكان الشيء ووقوعه ، وبين إسناده إلى أهله وإسناده إلى غير أهله .

وقد أصبحنا فى زمان ضاعت فيه الحدود ، وتعدى كل إنسان طوره ، ولم يعرف قدره ، وهى أكبر معائبنا وأعظم بلايانا التى نشن منها ولا نعلم منتهاها

ليت شعري عواقب الأمر ماذا وفى ما بنا المسأل يؤول

وإننا نحكم القراء الكرام بيننا وبينهم ، فنبسط وجهة نظرنا ونظرهم وطريقتنا وطريقتهم بالاختصار ، عسى أن ينقطع المراء والجدال

نحن نرى أن الناس على درجات شتى فيما وهبهم الله من الاستعداد الفطرى ، وفيما أحاط بهم من ضروب التربية المختلفة والبيئات المتنوعة وما قدر لهم من فنون الشواغل ، وما عنوا به مما أقامهم الله فيه

نرى أن كل طبقة لها حكم يخصصها ، فمن وصل إلى درجة الاجتهاد وجب عليه الاجتهاد وكان آثماً بتركه ، ومن وصل إلى درجة التراجع وجب عليه ذلك .

ومن قعد به استعداده أو تربيته أو بيئته : أر ما أحاط به في شراغل المعيشة أو الوليفة ، فعليه أن يقلد من يثق به ويعلم أنه غير جاهل بدين الله ولا غاش بيه ومتى انقدح في ظنه أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز له مخالفته ، فهو مثل المجتهد سواء بسواء متى ظن أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز أن يخالف ظنه ، بل ذلك غير معقول ، فإنه إذا لم يكن يعتقد أن هذا هو حكم الله فكيف يتبعه ؟ وقد قال العلماء : أن ذلك علم ويقين وإن كان في طريقه ظنون وهذا مافى الوسع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وليس من المعقول أن يظن أن حكم الشريعة هو كذا مثلاً ثم يعدل عنه إلى غيره

أما إخواننا « أصحاب النهضة الحديثة والطفرة غير المعقولة » فيرون وجوب الأخذ من الكتاب والسنة بلا مراعاة لشروط الاجتهاد ، ولا تفرقه بين ضروب الاستعداد .

وهذا مبدأ خطر جداً ، إذا جرينا عليه عمت الفوضى وفسد أمر الدنيا والآخرة ، فمن المحتم لصالح المجتمع وتمام النظام أن يعرف كل

إنسان قدره ولا يتعدى طوره ، وأن توزع الأعمال ، فهذا للتجارة
وهذا للزراعة ، وهذا للعلم وذاك للاجتهاد ، وغيره للتقليد وهلم جرا

وعلى هذا بناء الوجود وصلاح العالم ، والقاعدة واحدة في أمور
الدين والدنيا وقد خلق الانسان ضعيفاً (وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا) ^(١)
(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ) ^(٢)

وإني أعجب لهؤلاء كيف يجعلون أمر الاجتهاد أقل من جميع
الصنائع التي لا يجتهد صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل
متكرر ، حتى يعرف أسرارها ودقائقها ، ويصبح من ذوى التبريز فيها .
وكان مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا
وقد رأيت لبعضهم رداً يحمل سقوطه في طياته فلم أعبأ به ولم
ألتفت إليه . وما قامت قيامة هذه الطائفة إلا من قولنا لهم : أنه يجب
إعطاء المراتب حقاً

ثم بالغنا في التصريح ولم نستعمل السياسة ولا المواربة فقلنا لهم
إنكم لا تصلحون للاجتهاد ولا بلغتم درجته ، واجتهادكم لا يأتي إلا بشر
الغايات وأعظم الآفات ، فاعرفوا قدر أنفسكم واتقوا الله فيها

ثم نقول لمزيد الإيضاح بعد ذلك كله : إن من المقرر أنه لا يجوز
خرق الإجماع ، ومن الذى يستطيع ذلك إلا من عرف أقوال العلماء
وأحاط بمواقع الخلاف والانفراق ، إلى غير ذلك من المهامة الفيحاء التي
تنقطع فيها أعناق المطى ويضل فيها الخريت

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٨

(٢) سورة الاحزاب ، الآية

الْحُرِّيَّةُ

الحرية هي أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون ، ويعمل له العاملون وهي الحياة على الحقيقة بل الموت خير من حياة لا حرية فيها ولا استقلال معها . ولست ترى قوماً سلبوا الحرية إلا ماتت فضائلهم وقضى على إنسانيتهم القضاء الأخير وما أبعد من يكون مستتبِعاً في كل شأنه مستبِعداً في كل أمره من أن يكون إنساناً . ولذلك ترى الأمم أَسْمَحٌ ما تكون بنفوسها في سبيل حريتها . وقد جاء الدين الحنيف بالحرية والمساواة فلم يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(١) . وقد قال صلى الله عليه وسلم عندما سُرقت الخشعمية « والله لو سُرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وقال : « لافضل لعربي على عجمي ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »
« جاء الدين بترقية الإنسان إلى حد أنه لا يخاف إلا الله ولا يخشى في الله لومة لائم وعرفه من كماله وخصائصه ، ما أجلسه به فوق عرش العزة القساء ، وجعله لا يطأ طيء رأسه لغير جبار الأرض والسماء ، ولو كان أعظم العظماء إلا على حدود محدودة تقتضيها الحكمة فقط . وجعل ذلك من لوازم التوحيد .

هذا والحرية في متعارف السياسة أن تكون الأمة تحت قانون معروف يسوى بين الصغير والكبير والغني والفقير ، حتى تُؤمن على

(١) مجلة الإسلام - العدد ٣٧ - رمضان سنة ١٣٥٢ الهـ الثالثة

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣

على حقوقها من تلاعب الأهواء ، وعلى نفوسها من استبداد الأمراء
والرؤساء .

وليسمت الحرية أن تسلم نفسك لهواك يقودها حيث شاء لا تراعى
الاداب ولا تحترم الشرائع فإن ذلك همجية تفوق الحيوان ومنقصة
تزيد على منقصة الشيطان

إذا أنت لم تعص الهوى قارك الهوى

إلى كل ما فيه عليك مقــــــــــــــــال

ومما ينبغي التنبيه له أن النفوس مجبولة على الترفع وابعظة
واستقلال بل نتمول إن فيها ألوهية كامنة تأتي التقيد بأى شئ من
الأشياء حتى بالشرائع من أكمل الأنبياء . ولذلك قال أرباب تلك النفوس :
(أبشراً مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) ولهذا كثرت التحملات والتأويلات في
الشرائع حباً في الإطلاق ، وكراهة في التقيد

ولو تركت النفوس وما تهواه من الإطلاق والخلوص من القيود
كلها لكان ذلك هو الشقاء الأبدى والهلاك السرمدى .

وبعد هذا فلا بد أن نراعى الحكمة فلا نعطي الناس من الحرية
والإطلاق إلا على قدر ما يناسب درجتهم في علمهم وتهذيبهم وكما لهم ،
ثم نقيدهم فيما وراء ذلك ولا نطلقهم فيه . ومن البلاء الذي عمت به
البلوى ما يفهمه الكثير من أن الحرية لا تأتي إلا بخير عميم وشأوعظيم
ولو كانت لغير من يحسن استعمالها من ذوى النزق والخرق . ولم يدر
أن إعطاء الجاهل حريته في كل شئ إفساد له بالكلية وسبب لثباته
وشقاء الناس معه

وهو بمنزلة إعطائه سلاحا لعله يقتل به نفسه أو أحد والديه ولا فرق بين الأمم والأفراد في ذلك فيجب التدرج في الحرية على حسب التدرج في التربية والفضائل حتى لا تغلب عليهم الحيوانية أو الشيطانية بمقتضى ما في الفطرة الإنسانية والعجيلة البشرية . وإذا لم يكن للإنسان وازع من دين أو قانون أو مراقبة من الكبراء والفضلاء واتفق مع هذا أنه ليس له من الصفات والكمالات ما يردعه عن القبيح تحركت فيه ضروب من الشهوات وفنون من الأهواء واتسعت أمامه طرق الضلال وفتحت له جميع أبواب الخيال فمن الشقاء مثلا أن نعطي أولادنا الصغار الحرية في كل شيء غافلين عما تفعله الأهواء ، ويأتي به الاطلاق في أمثالهم ومن الشقاء أن نعطي حرية التشريع والتقنين لمن ليس لهم من الاستعداد الرفيع والعلم بطبائع البشر وأحوال النفوس ما يؤهلهم لذلك .

ومن الشقاء ما منى به الدين الحنيف من حرية السخفاء الذين هم أبعد الناس عن أسراره وأجهلهم بمراميه حتى صاروا يخوضون في كل موضوع من موضوعاته ولو كان من مواقف العقول ومزال الأقدام ، ويقررون خيالات كانت تدور بنفوسهم مما يناسب استعدادهم القاصر ، فلما طال عليها الأمد ظنوها حقائق وليست من الحقائق في شيء

ومنهم من خيل له أن أمر الاجتهاد من أيسر الأمور فأباحه لنفسه وللناس بلا شرط ولا قيد ، وجعله أقل من جميع الصنائع التي لا يجتهد صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر حتى يعرف أسرارها ودقائقها ويصبح من ذوى التبريز فيها

ومما يوجب أسف المنصف الغيور أننا لانجد أحدا يجعل نفسه في عداد المجتهدين في أى فن من الفنون إلا إذا كان اختصاصيا في ذلك الفن وقد أصبحنا اليوم في فوضى دينية علمية لاندرى إلى أى حد تصل بنا ، فلما ت ترى إلا مارقا من الدين لا يعبا به ، أو متمسكا به على ما يزعم ، إلا أنه أعطى لنفسه الحرية في كل شيء وأحلها محل الأئمة الأعلام ، فهو يفهم على وفق ما يستمد من خياله ويؤول على طبقى ما يأمره هواه ، وقد رأينا ذلك في كل الطبقات حتى في المهندسين والأطباء وكان مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا

وليس التقييد في مواطنه بأقل من الحرية في مواطنها وليس هناك أعظم ضررا من منح الحرية لغير مستحيتها ومنعها ممن تأهل لها ولا بأس أن نختم مقالنا هذا بكلمة صغيرة لا يعرف قدرها إلا من تأهل لها

ذلك أن هناك حرية أخرى وهى الحرية الحقيقية التى تخلصك من رق الأشياء كلها فلا تكون عبد الدينار والدرهم ولا عبد الفراش والرياش ولا عبد المرأة الحسناء والوظيفة القعساء ، وإلا فأنت بعيد عن الحرية الحقيقية بقدر ما استعبدتك تلك الشهوات ، وأخذتك تلك الغايات ، ولا فرق بين عبودية وعبودية ، فالنتيجة واحدة وأنت عبد على كل حال ، ولبتك كنت عبداً لشيء واحد حتى تستريح بعض الراحة وتذوق شيئاً من معنى الحرية ، ولكنك عبد لما لا يحصى من المآرب والمطالب

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)^(١)

فالهمة أن تكون حراً من كل شيء حتى لا يحكم عليك شيء وإذا لا تحتاج إلى أحد ولا تخاف من أحد فتكون من المؤمنين الكاملين الذين لا يخشون أحداً إلا الله ولا يرجون أحداً إلا الله فلم يذلوا للأمرء ولم يتواضعوا للأغنياء ، ولم يكونوا أسراء المطالب ، ولا أرقاء المآرب ، فهم يترفعون تبيها على ملوك الأرض الذين تنعمت ظواهرهم ، وشقيت بواطنهم وملكت أيديهم ، واستعبدت نفوسهم عالمين أنهم الملوك على الحقيقة ، ولكن أين من كملت حريته وهذه صفته ؟

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاى طلعة حر
وقد ذكر عن بعض الأكابر - وذكر بعضهم أنه الغزالي - أنه وجد
بعد موته ورقة مكتوباً فيها بخطه هذه الأبيات

قد كنت عبداً والهوى حاكماً فصرت حراً والهوى خادماً
وصرت بالعزلة مستأنساً من شر أصناف بي آدم
بالاتمي ، تركهم جاهلاً عذري منقوش على خاتمي
! أفندرتوا على خاتمة فوجدوه منقوشاً فيه قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا
لَا أَكْثَرَهُمْ مِنْ عَهْدِ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)^(٢)

نسأل الله أن يمدحنا رضاه ، ولا يجعلنا عبداً لشيء سواه ،

! بحمه وكرمه

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٠٢

فضل الصلاة وبيان أسرارها^(١) وسرع حديث شريف

عن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال ، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -يقول

« أرأيتم لـ أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات أفيبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ » .

قالوا لا يبقى ذلك من درنه شيئاً . قال فذلك مثل الصلوات الخمس « يحو الله بها الخطايا »

أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . وفي لفظ آخر

« إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات » .

أخرجه مالك في الموطأ من حديث طويل .

وعن حذيفة -رضى الله عنه- قال

« كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

أخرجه أبو داود وفي رواية (حزبه) بالنون ، والمراد نزل به وأهمه إلى غير ذلك وهو كثير

جهل الكثير من الناس أن الصلاة تذهب بالأذى الحسى والمعنرى
وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى وجاهلوا حكمتها الحكيمة فزعموها
غلا وضع فى الأعناق وثقلا تنوء به الكواهل ، والناس - كما قيل -
أعداء ما جهلوا ، وما إلى ذلك مما حفز فضيلة مولانا أن يعنى بشرح هذا
الحديث الشريف ويحسر النقاب عن معانيه وحكمه الغالية قال
حفظه الله

ان الصلاة اعظم العبادات شأنًا وأوضحها برهانًا وأكبرها أثرًا
فى تطهير القلوب والنفوس، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية حتى
قال من ترك الصلاة فقد كفر. وقال بين العبد وبين الكفر ترك
الصلاة وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد فكفر تارك
الصلاة ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية وكانهم
رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التى إذا فقدت حكم
بفقدته لقوة الملازمة بينها وبينه ، فإن الصلاة هى المحققة لمعنى إسلام
الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبوء من الإسلام إلا بما
لا يعبأ به

وبالجملة فهى فى نظر الشارع أعظم شعائر الدين ولذلك أوصى بها
الصغار والكبار وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها
لتكون ملكة راسخة فى النفوس بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها
فى النفس من الخشية والمراقبة

ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١)
ويقول (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢)
وسنشرح ذلك تمام الشرح ، ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه
خلائقه وملكاته التي أنصفت بها نفسه وانتعش بها قلبه

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا ان نعلم الصبي الصلاة لسبع ونضربه
عليها لعشر حتى تصادف منه قلبا خاليا قبل أن تفرقة الأهواء التي تجعل
النفس شعاعا والقلب أوزاعا

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسياسة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من
التردى في أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس حتى
ترتفع بها إلى عالم الملكوت والمصلى إذا قصد من الصلوات أرواحها
لا أشباحها ، ومعانيها لا صورها ، فلا بد أن يخوض في لجة عظيمة من
الرحمة كأنه بدخوله في الصلاة قد اندرج في سلك الملائكة وخرج
من هذا العالم بالكلية

ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم وقد كان
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «أرحنا بها يا بلال» ويقول : «وجعلت
قرة عيني في الصلاة» لما كان يحس فيها من الرحمات والفيوضات ،
والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق في عظمة رب
الأرض والسموات

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المعارج ، الآيات من ١٩ - ٢٣

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة نظيرها إلى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع ، كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التي تفرقت في صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد والقائم والمسبح فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحضرات ماقدرك

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين وقرّة عين الواصلين حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا « السلام عليكم » يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين وكأنهم يقولون لهم إننا كنا مع الله تعالى لامعكم ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع أحد حتى الملائكة المقربين .

والخلاصة أن المصلي قد خضع لله بقلبه وذكر الله بلسانه وعظمه غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له ، ثم تدرج في التعظيم وترقى في الإجلال فأتى بالركوع ثم بالسجود الذي هو أكبر مظهر للعبودية .

المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة

«لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا»

المحبة : ينبئك عنها قلبك أكثر مما ينبئك عنها الحدود والرسوم والشئ وإنما يحد لخفائه واستتاره كى يظهر ويتبين ، فإذا كان الشئ ظاهراً جلياً يعرفه جميع العقلاء لم يحتج إلى حد

المحبة سر الله المخزون الذى تشفى به جميع الأدواء القومية والترياق الذى تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية

المحبة : هى أنجع وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس ، وإبادة أنواع التفنن فيها من العالم البشرى . وإذا تأكدت بين قوم أحلتهم محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع ما يكون فى طريق الارتقاء ، ونقلتهم إلى دائرة الأسرة الواحدة ، فكانوا كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد

لومت المحبة بين الناس لما رأيت دماً يسفك ، ولا عرضاً يهتك ، ولا مالاً يسرق ، ولما رأيت المحاكم الأهلية كالأسواق مزدحمة بكل أنواع القضايا ، ولا وجدت المحاكم الشرعية مكتظة بدعاوى الأقارب ميراثهم والزوجات لنفقاتهن

لو تمت المحبة بين الناس لبات كل إنسان بين أسرته على أتم ما يكون من الصفاء وأكبر ما يتصور من النعيم ، ولكان عيش الناس في الدنيا أشبه شيء بعيش أهل الجنة في الجنة

وأظنك كثيرا ما تحركت منك الغبطة عندما ترى ما بين الأسرة الفقيرة من المحبة التي جعلتهم يتقبلون في الهناء^(١) ولا يحسون بالشقاء.

لو تمت المحبة بين الناس لتمت بينهم الرحمة ، فانتفع الضعيف بالقوى والفقير بالغنى والصغير بالكبير والصعلوك بالأمير ، وامتلات الأرض خيرا وبركة ۞

وإجمال القول في المحبة بعد ذلك كله أنه لولا الحب لم يتم نعيم لمنعم وكيف ينعم الإنسان بغير ما يحب ولهذا ترى المغنين لا يكادون يغنون إلا بما يكون فيه ذكر الحب والمحبين ، ولا يجد الإنسان سلة لنفسه ولا نعيماً بقلبه إلا بتلك الذكريات اللذيذة والأوقات السالفة التي قضاهما فيما يحب ومع من يحب

(١) اشتهر في هذه الأيام التي كثرت فيها الاجتهاد وشفقت الناس فيها بالانتقاد أن الواجب أن يقال هنا لا هذه . وهذا من قصور الاطلاع . ففى كتاب الهمز لأبى زيه الأنصورى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك ووروده . وكذلك فى كتاب الفلك المشحون ليوئس المكى المتوفى فى القرن الثامن صفحة ١٦٣ ما يفيد ذلك أيضا . ومثل هذا قول الأديب الكبير ابن نباته هنا محاذك العزاء المقدماء فاعبس الخزون حتى تبدا
وقول إمام العربية محمد بن مالك فى حروف الزيادة ذلك البيت المشهور
هنا وتسلمى تلا يوم أنسه نهاية مشمول أمان وتسهيل
وهو الذى قال أنى قرأت صحاح الجوهرى كله فلم أستفد منه غير كلمتين فقط فانظر
إلى ذلك التشدق الذى يكثر منه أولئك المتفحون

وبالجملة فراحة الإنسان وسرور نفسه وبهجة روحه لا تكون إلا
لذكر الحب وشرح الكامن في الفؤاد المثيراً لعواطف مما له سلطان فوق
العقل وسر يدق عن التعبير

لهذا كاه لم يرد في الكتاب والسنة من الحث على شيء مثل ماورد
في المحبة ، علماً منه - صلى الله عليه وسلم - بأنها أساس الخير وجماع
الفضائل حتى جعلها شرطاً في الإيمان ، فقال « والذى نفسى بيده
لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » . رواه مسلم -

فانظر كيف جعلها شرطاً في الإيمان ولم يكتف بذلك حتى أقسم عليه
- صلى الله عليه وسلم - .

وقد ورد في الحث على المحبة والتحذير من التشاحن والتفرق
مالايكاد يحصى « وستسمع شيئاً من ذلك » ، وكأنه مرعى الدين
الذى لا يريد غيره

وقد جاء في الصحيح « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا
وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(١) . وقال (وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)^(٢) وقال مخاطباً

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣

نبيه—صلى الله عليه وسلم— مذكراً إياه تلك المنة الكبرى : (فَإِنَّ حَسْبَكَ
 اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَدُكَ يَنْصِرُهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(١)

وقد أثنى على قوم بقوله عز وجل (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ
 يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
 قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٢) وقال (لَا خَيْرَ
 فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا نَأْمُرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ
 النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)^(٣)
 وقد أمرنا بلين الكلام وإفشاء السلام ونهينا عن الخصام فوق ثلاثة
 أيام

وقد جاء كل ذلك طلباً للمحبة ومحافظة على مبادها ، رجاء أن
 تنتهى بالناس إلى غايتها فيزول عنهم الشقاء وتم لهم السعادة

فإن استطعت أن تبين وليس في قلبك بغض لأحد فافعل أزل
 ما في قلبك من الحقد للناس كافة : وتودد إليهم ايمحوقو عيشك وتعارب
 حياتك

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٣

(٢) سورة الخثر ، الآية ١٠

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٤

تحبيب إلى جيرانك وأقاربك بقدر ما يمكنك ، وابدل الوسع في ذلك « وأصل الحب التحبيب » . وقد قال صلى الله عليه وسلم « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِيَنِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ » أخرجه البخارى ومسلم « وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ » . رواه البخارى ومسلم وقال « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ » . رواه مسلم

صالح أعدائك ، وأرح نفسك من عناء الفكر وقلبك من تدبير السوء واربأ بعمرك العزيز أن تصرفه في طرق العناد وأسباب الفساد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا ؛ إِذَا أُوْمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » رواه البخارى ومسلم

أسباب المحبة

المحبة : مركوزة في النفوس ، ولا نعيم للقلوب إلا بها ، حتى أن من ليس له محبوب مخصوص تراه عند سماع النغمات أو هبوب النسيم يشن أنيناً ويحن حنيناً ، وربما بكى تلهفاً أو سروراً إذا كان رفيع الاستعداد رقيق الفؤاد .

وهذا النعيم الذى يجده ، وتلك اللذة التى يشعر بها ، ليس منشؤها التذاذا بالأصوات واستحساناً للنغمات ، بل من أجل أن ذلك حرك من نفسه ساكناً وهيج كامناً ، وإن كان لا يدري إلى أى شىء يحن أو لماذا يئن ، ولكنه مقتضى الغريزة الإنسانية والحكمة الربانية

وليس بلازم أن نأتى على كل مافى الأمر من سر فيمكنك أن تهبج تلك الغريزة من نفسك ، فإن أصل الحب التحابب ولهذا ندبنا الدين الحنيف لكل ما عسى أن يكون وسيلة لذلك من زيارة بعضنا بعضاً ، ومودة بعضنا بعضاً ، وإهداء بعضنا بعضاً ، ومصافحة بعضنا بعضاً : إلى غير ذلك مما جاء فى السنة

وقد قالوا إن العشق فى أول أمره يكون اختيارياً ثم يصير اضطرارياً ، فهو بمنزلة الشراب تستطيع أن تشرب وألا تشرب ، ولكن لا تستطيع بعد ألا تسكر ولعلك عاينت من الأسباب التى استعملتها لتحبب بعض القلوب إليك شيئاً كثيراً

وأما الأسباب الطبيعية للمحبة ، فأقواها التناسب بين الأرواح ، فإنها جنود مجندة متعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف كما فى الحديث وعلى قدر ذلك التناسب يكون الحب ، وما حشر المرء مع من أحب إلا لكونهما من واد واحد ولهذا السبب قد تتعجب من محبة بعض الناس لبعض على غير معنى فيه ، غافلاً عن هذا التشاكل الروحانى الذى هو أقوى الأسباب وإن كان أخفها ، وهو السبب الذى لا يلحقه زوال ولا يعتريه اضمحلال ، وصاحبه هو المحبوب لذاته ولا علة ولا لغرض .

وأما من أحبك لإحسانك إليه ، والإحسان من أسباب المحبة - فقد تتغير محبته إذا انقطع إحسانك عنه وربما عاداك وأضرك إذا وجد في ذلك فائدة أكبر وثمره أعظم متى كان خبيث الطبع لئيم النفس ، لأنه ما أحبك إلا لغرضه ، فهو مع الغرض حيث كان .

ومحبة الأزواج والأصحاب تارة تكون من قبيل المحبة التي للأغراض وقضاء المآزب وتبادل المنافع وكثرة الفوائد . وهي المحبة التي لاتدوم وتارة تكون للمناسبة بين النفوس فلا تزداد على مر الأيام وكثرة الحوادث إلا قوة ومتانة وهذا مما ينبغى الالتفات إليه جداً فيما بين الزوجين حتى تكون بينهما أنفة طبيعية ومحبة ذاتية ، فلا يتطرق إليها انصداع ولا يلحقها انقطاع ، وإلا تعاملوا معاملة التجار اللئام ، وتدعوا إلى المحاسن بعد قليل من الأيام .

ومما يلحق بسبب التشاكل الذي شرحناه ما تراه من ميل الصانع إلى الصانع ، والزراع إلى الزارع ، حتى أن السارق يرتاح للسارق . والفاسق يرتاح إلى الفاسق ، لما بينهما من الصفات المشتركة « شبيه الشيء منجذب إليه » ، بل ذلك في غير أفراد الانسان .

وقد قالوا « إن الطيور على أشكالها تقع » وإن كان كثيراً ما يفرق بينهم تنازع البقاء ، فيوقعهم في الشحناء والبغضاء وأكثر الأسباب الواقعة بين الناس مادعا إليه الغرض واقتضته الحاجة ، حتى قال أبو حيان النحوي

لا ترجون دوام الخير من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعرض ولا تظن امرأ أسدى إليك يداً من أجل ذاتك بل أسداه للغرض

ولهذا لا تكاد ترى محبة صادقة ، غاية الأمر أن صاحب النفس الشريفة لا ينسى ودا ، ولا ينتقض عهداً ولكنه كثيراً ما يفعل ذلك بمقتضى إحساسه الشريف ومروءته الفاضلة لا بمقتضى الألفة والمحبة .

وأهل تلك المحبة التي غايتها المنفعة الشخصية أكثر المحبين توددا إليك وترددا عليك ومسارة إلى امتثال أوامرك ، ولو كلفتهم نقل الصخور أو نطل البحور ، مادامت إليك حاجاتهم ولديك غاياتهم ، حتى يخيل لك في تلك الأيام أنك ظفرت بأعظم الناس نفعاً وأرقهم طبعاً ، فإذا ظفروا بما أرادوه منك ولم يتوهموا لديك شيئاً يعود عليهم ، طاروا من حولك طيران الذباب إلى من يبتغون عنده حاجتهم ، حتى إذا نالوا منه بغيتهم فعلوا فعلتهم

ففعلى من يريد اتخاذ الأصدقاء أن يبحث عن جوهر النفوس وما لها من الصفات الذاتية والامتدادات الطبيعية ، ولا يفتر بتلك الألوان البراقة التي يظهر بها الإنسان على حسب الحاجة ، فإنه في ذلك أبرع من الحرباء وأروع من الثعلب « والإنسان مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات » .

هذا ومن أسباب المحبة الجمال الظاهري أو الباطني ، وبهذا السبب قد أحببنا الأزهار والأطيوار والصور الجميلة والنقوش البديعة

فإن الجمال لا يختص بنوع الإنسان أو جنس اله يون ، بل جمال كل شيء في أن يصل إلى كماله الذي يراد منه ، وغايته الممكنة له ،

والجمال محبوب بالطبع لذاته ، ولهذا السبب بعينه قد أحببنا الكرماء
والفضلاء والعلماء .

وإياك أن تكون ممن يقصر الحب على الجمال الحمى والحسن
الظاهرى ، فننكر محبة الله تعالى حباً وجدانياً ذوقياً ، فتكون من العامة
لامن الخاصة الذين فهموا قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(١)
حق الفهم فلم يحتاجوا فيه إلى تجوز ولا تأويل

على أن ذلك غريزة فى الإنسان وإن كانت تحتاج إلى التهييج فى
بعض الناس لذين لم تفسد إنسانيتهم بالكلية

وإن الذى تجده من محبة العامة لعنترة وغيره من الشجعان
وتنأى بعض الناس فى محبة بعض العلماء والعظماء ، وارتياح النفس
والتذاذها بسماع أخبار سيدنا عمر بن الخطاب فى عدله أو سيدنا
على بن أبى طالب فى شجاعته وعلمه وسرعة بديته وقوة حجته ، أو أخبار
المموءل فى وفائه ، أو حاتم الطائى فى سخائه ، ليس إلا ممقتضى تلك
الغريزة التى تفضل الجمال المعنوى على الجمال الحمى

هذا وقد رأينا أن نسمعك بعض ما جاء فى السنة مما يناسب هذا
الموضوع فنقول

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ لَمْ يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ
اللَّهُ » رواه البخارى ومسلم . وعنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَيْسَ

مَنَا مَنْ لَمْ يُدَقِّرْ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ « رواه أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه وقال صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَأَنْفَقَ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَذَى الذُّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » . رواه الطبرانى .

« لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ لَتَبَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسْرَهُ بِذَلِكَ ، سَرَّهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاء أعرابى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنكم تقبأون الصبيان وما تقبلهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » . رواه البخارى ومسلم

« دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » رواه البخارى

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « دَنَا رَجُلٌ إِلَى بَعْرِ فَنَزَلَ فَشَرِبَ مِنْهَا وَعَلَى الْبَعْرِ كَلْبٌ يَلْهَثُ ، فَرَحِمَهُ فَتَزَعَ أَحَدَ خُفَيْهِ فَمَسَمَاهُ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » . رواه ابن حبان فى صحيحه

« مَنْ نَشَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » رواه مسلم .

« لَا يَسْتُرُّ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . رواه

مسلم

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : صعد - رسول الله صلى الله عليه وسلم - المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : « يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَكَوْفِي جَوْفِ رَحْلِهِ » .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : « مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكَ . وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ لَيَعْمُرُ بِأَقْرَمِ الدِّيَارِ وَيُشْجِرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ ، وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مِنْدُ خَلْقِهِمْ يُغْضَأُ لَهُمْ . قِيلَ وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ » رواه الحاكم والطبرانى بإسناد حسن .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : « أَوْصَانِي خَلِيلِي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ : أَوْصَانِي أَلَّا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْ أَنْظُرَ

إلى مَنْ هُوَ دُونِي ، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالِدُنُوِّ مِنْهُمْ ، وَأَوْصَانِي أَنْ
أَصِلَ رَجِيئِي وَإِنْ أذْبَرْتْ ، وَأَوْصَانِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأِيْمٍ .
وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَكْثِرَ مِنْ لِحَاوَلٍ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » رواه الطبراني وابن حبان
في صحيحه واللفظ له .

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« لَا تَكُونُوا لِإِمَّةٍ : تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ أَسَاءَ النَّاسُ
أَسَاءًا ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا
أَلَّا تَظْلِمُوا » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي بكر -رضي الله عنه- قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
« مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ
مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ : مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » رواه ابن ماجه
والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- ، رفعه ، قال : « الطَّائِعُ مُعَلَّقٌ
بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَإِذَا اشْتَكَّتِ الرَّحِمُ ، وَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي ، وَاجْتَرَى عَلَى
اللَّهِ ، بَعَثَ اللَّهُ الطَّائِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقَلْبِ أَفَلَا يَعْقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا »
رواه البيهقي والبزار واللفظ له

وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- يقول : قال الله -تبارك وتعالى- : « وَجَبَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ »

فِي وَلِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَلِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَلِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » رواه مالك
بإسناد صحيح

وعن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
قال « لَا يَزَالُ اللَّهُ فِي حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ » . رواه
الطبراني ورواه ثقات

وعن أنس -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« لَا تَقَاطِعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ
إِخْرَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ »
رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي .

وعن أبي موسى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « عَلَى كُلِّ
مُسْلِمٍ صِدْقَةٌ قَبْلِ أَنْ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ . قَالَ : يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ
نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ
الْمَلْهُوفَ قَالَ قِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ يَا أُمَّرُ
بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ يُعَذِّبُكَ عَنِ
الدَّرَفَانَةِ لَهُ صِدْقَةٌ »

رواه البخاري ومسلم

! وسنعود للموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله .

المحبة وأنواعها

ذكرنا شيئاً عن المحبة وآثارها وفوائدها وما جاء فيها. واليوم نذكر لك أنواع المحبة ونتغلغل بك في حديثها « وأى حديث ألد من حديث المحبة ؟ » ولسمنا نقول مايقول ذلك القائل الذى يؤله أنه لايجد من يطارحه حديث المحبة

ما بالديار أخو شوق نطارحه حديث نجد ولا خل نصابيه

ولنعد إلى الموضوع فنقول

من أنواع المحبة محبة الوالد لولده . وهى تكاد تكون لا لغرض ولا علة لأنها من قبيل محبة الشخص لنفسه ، فإن فى بقاء ابنه نوع بقاء له وقد ينضم إلى ذلك توهم المنفعة من الولد . فهى طبيعية لايشذ عنها إلا من خرج عن مقتضيات الطبيعة

ومنها محبة الولد لوالده وهى تكاد تكون من قبيل محبة العلل والأغراض . حتى أن من الأولاد من يفرح عند موت أبيه أو لايتألم لما ترك وراءه من ثروة طائلة ولعل ابن الفقير يحزن على أبيه أكثر من ابن الغنى وأما ماتجده من احترام الأبناء للآباء والقيام بواجبهم فمرجعه فى الغالب إلى مزيد أدب ، أو حسن تربية أو دفع معرفة وانتقاد ، أو توهم منفعة وحصول غاية لا إلى مودة

ومحبة ولهذا ترى القرآن الشريف قد اعتنى بوصية الأبناء على الآباء شدة الاعتناء، وترك الآباء ينساقون نحو الأبناء بسائق المحبة الطبيعية

فيجب على الأولاد أن يقووا في نفوسهم محبة آبائهم وأن يتفكروا فيما كان لهم من إحسان لا يسمح به غيرهم ، فيقابلوا المحبة بالمحبة والإحسان بالإحسان ، وأن يكرروا على مسامعهم ماجاءت به الآيات والأحاديث ، وما رسمته الأخلاق والآداب في ذلك

ويلزمنا أن نكتفي منهم بهذا الحب التكلفي ، حيث لم نظفر منهم بالحب الطبيعي ، وهو كافل للراحة وكاف في الصفاء .

ولندكر هن ما ذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى :
(وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا) ^(١) فنقول

روى ابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «رِضَا اللَّهِ تَعَالَى فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ وَسُخْطُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُخْطِ الْوَالِدَيْنِ» . وقد صح أن رجلا جاء يستأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجهاد معه ، فقال : «أَخِي وَالِدَاكَ؟ قَالَ : نَعَمْ» ، قَالَ : فِفِيهِمَا فَجَاهِدْ » وما أحسن ما قال بعضهم

غذوتك مولوداً ومنتك يافعا
تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت
كأنى أنا المطروق دونك بالسدى
تخاف الردى نفسى عايك وإنما
فلما بلغت السن والغاية التى
جعلت جزائى غاظة وفضاظة
فليتك إذ لم ترع حق أبى وئى
تراه محبا للخلاف كأنه

لسقمك إلا ساهراً أتلمل
طرقت به دونى فعينى تهمل
لتعلم أن الموت وقت مؤجل
إليها مدى ما كنت فيها أو مل
كأنك أنت المنعم المتفضل
فعلت كما العجار المجاور يفعل
برد على أهل الصواب موكل

وكان ذلك فيما يروى بحضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :
للولد « أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ » كذا رواه البيهقى فى الدلائل ، والطبرانى
فى الأوسط والصغير فى قصة طويلة وروى مسلم عن ابن عمر أنه
سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَالِدِ
أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ » فى قصة جرت له مع أعرابي كان أبوه يود عمر ابن
الخطاب .

محبة الأصدقاء :

ومنها محبة الأصدقاء ولا بد للإنسان من صديق يأنس به ،
ويلقى عليه بعض همومه ، وقد خلق الإنسان ضعيفا ، حتى أنه لا يستطيع
أن يكتم ما فى صدره من فرح أو ترح ، وهو على نفسه أشق من الأثقال
الحسية ، فإن هذه على جسمه وتلك على قلبه

ولا بد من شكوى إلى ذى صداقة يسليك أو ينسيك أو يتوجع

وقد قيل لبعض الحكماء : أخوك أحب إليك أم صديقك ؟ فقال

إنى لا أحب أخى إلا لكونه صديقى .

وكثيراً ما تسمعهم يقولون : إن الصديق محال الوجود حتى إذا
أردت أن تبالغ في أمر قلت هو من رابع المستحيلات وأما الثلاثة
فهى مقررة معروفة لانزاع فيها

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفى
ويقول غيره

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد فى الأنام
وأحسبه محالاً نتموه على وجه المجاز من الكلام

وهاك شيئاً مما قالوه فى هذا الموضوع ، نورده لك تفكهاة أو

تبصرة

تغير إخوانُ هذا الزمان فكل خليل عراه الخائل
وكانوا قد دعا على صحة وقد داخلتهم صروف العائل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطلع باب البديل

* * *

خذ من دنا وتجاىف من بعدا لا تكرهن على الهوى أحدا
قد أكثرت حواء ما ولدت فإذا جفا ولد فخذ ولدا

* * *

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحباً بعد صاحب
غلم تُرِنى الأيام خلا تسرنى مبادئه إلا ساعنى فى العواقب

* * *

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

*

إذا ما ضاع منك اليوم خل فلا تحزن عليه الدهر وفرح
فإن الخل عب أي عبء فمهما اسطعت أن تلقيه فاطرح

إذا قيل في الدنيا خليل فقل نعم خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وإن قيل في الدنيا جواد فقل نعم جواد ركوب لاجراد عطاء

إلى غير ذلك وهو كثير وسر ذلك أن الإنسان يطالب صديقا
لا يتغير بحال ولا يتصف بعيب ، يقدمك على نفسه ، ويتحملك في
كل ماتأتى به

كما قال قائلهم

إن أخوا الإنسان من كان معه ومن يضر نفسه لينفعه
ومن إذا ريب الزمان صدعه شئت فيه ثم له ليجمعه

ومن الغريب أنه يوجب ذلك على صديقه له ولا يوجب على نفسه
لصديقه

ولكن إذا كانت الصداقة مبنية على تشاكل في الأرواح ، وصادفت
مع هذا استعداداً حسناً ، كانت الأمنية المطلوبة والبعية المرغوبة . وإذا
تكامل إيمان المرء وجدت فيه كل ما تحب من صفات الخير وسجايا
الفضل ، حتى يقدمك على نفسه كما تحب ، فإنه إذا وصل إلى درجة

الكمال كان من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ولا شيء يعلو الهمة ويعظم المروءة ويورث الرحمة ويغرس في القلوب المحبة مثل الإيمان الكامل . فإذا اشتاقت نفسك إلى ذلك الصديق فاطلبه بين المؤمنين ، فعمسى أن تجده فيهم ، فهم مظان وجوده

على أنه يلزمك أن تكتفى من صديقك بفضيلة من الفضائل ، وتغتفر له في جانب ذلك ما يكون منه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات : ولست بمستيق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ولا تطلب أن يكون جامعاً لكل فضل ، مبرأً من كل نقص « وإذا كان من هذه صفاته ممن يدخل في عالم الوجود فاجتهد أن تكون أنت ذلك الإنسان »

فالخلاصة أنه يلزمك أن تعرف الطباع البشرية ومقتضياتها ، ولا تطلب ما ليس في طبع الإنسان ، وأن تكتفى ممن يكون صديقك بجهة من جهات الخير ، ثم تقبله بعد ذلك على ما فيه من عيب ، وتحرز منه في الجهة الأخرى « جهة الشر الذى فيه » فإذا ظفرت بمن يغلب خيره عن شره فقد ظفرت بالخير كله

محبة الوطن :

حب الوطن يكاد يكون ألصق شيء بالنفوس ، حتى أنه ليلتحق بغرائزها المعبولة عليها . وقد قرن الله الخروج من الأوطان بالقتل فقال : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)^(١) . فلولا أن حب الوطن متأصل في النفوس ما جعل الخروج من الأوطان قرين القتل . وقال في آية أخرى حكاية عن بنى إسرائيل (وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا)^(٢) . ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه حنيناً إلى وطنه الذى نسا فيه ، وشوقاً إلى تلك المعاهد التى ربي فيها ، وميلاً طبيعياً إلى ذلك اصفاء الذى أخذ من قلبه محلاً لا تعفيه الدهور

إذا ذكروا أو أودسناهم ذكرتهم عهداً مضت فيها فحنوا لذلك ومحبة بلادك التى غمرتك بخيراتها ، ومحبة أمتك التى تسعد بسعادتها وتشقى بشقائها ليست فى الحقيقة إلا محبة لنفسك .

وإن الأمة لا تكون أمة تتمتع بحقوق الأمم الحية وتأمين على نفسها من الانحلال والفناء فى الأمم الأخرى ، إلا إذا رسخت فيها محبة الوطن :

وقد ندبك الدين الحنيف إلى محبة الناس كلهم والرحمة بهم ولكن على درجات مخصوصة وحدود محدودة . والإنسان الكامل هو من لا تختلط عليه الأمور ولا تشتهيه لديه الخيرات بالشروع ، فيعرف مراتب المخلوقات ونسبتها إليه ، ومقدار قربها وبعدها من خالقها ، فيعطى كل مرتبة حقها ، وكل درجة قسطها ، ملاحظاً معاملة الله لهم ورحمته بهم ، وأنهم مخلوقاته ، فلا يجهل نسبتهم ولا يظلم رتبتهم ومن أحب الصانع واعتقد كماله ، أحب الصنعة لا محالة

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٦

(١) سورة النساء ، الآية ٦٦

وللأشياء جهات وحيثيات يجب أن تراعى كلها في نظر الحكيم
وقد قال صلى الله عليه وسلم « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » فمن شاركك
في الإنسانية، كان له عليك حق واحد وهو حق الإنسانية . ومن شاركك
في الإيمان أيضاً فله عليك حق الإنسانية وحق الإيمان . فإن كان مع
هذا أحد من ينتمى إليك بالقرابة ، كان له عليك حق القرابة أيضاً فإن
انضم إلى ذلك كونه جاراً لك انضم إلى تلك الحقوق حق رابع . وهكذا

وأهل تلك الدرجات متفاوتون أيضاً . فمن كان أقرب إليك
كان أعظم حتماً عليك ، ومن كان ألصق بك من جيرانك كان أوجب
مراعاة من غيره ، ومن صنع معك خيراً من أولئك الأقارب أو الجيران
كان حقه عليك أكد من سواه « من صنع معكم معروفًا فكافئوه »
(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) . فإذا أهل وطنك لهم عليك حقوق
كثيرة ، وواجبات عديدة ، على حسب ما شرحنا ولعلك من أوسع
الناس علماً . لذا المروضوع « موضوع محبة الوطن » فلنقتصر منه على هذا .

ولكن لا بأس بعد ما تقدم أن نسوق إليك فائدة أخرى . وهى أن
الإنسان إذا لم يكن بين من يميل إليهم من أشكاله فهو غريب وإن
كان فى وطنه ، فإن معاشرته من ليس بينك وبينه مناسبة أثقل على
الأرواح من كل شيء . وقد قالوا إن حمى الروح مجالسة الثقيل
الذى يبائنتك وتباينه ، وأنشدوا فى ذلك

وما غربة الإنسان فى البعد والنوى ولكنها فى قرب من ليس من شكلى
وإلى غريب بين بست^(١) وأهلها وإن كان فيها موطنى وبها أهلى

(١) بست بالفتح واد بأرض أربل ، وبالضم بند بسجستان كذا فى القاموس .

محبة الله عز وجل :

قد سبق لك أسباب المحبة ، وأن كل سبب منها يوجب المحبة على انفراده ، وإن كان بعضها أقوى من بعض ، فإذا أمكن أن تجتمع هذه الأسباب كلها في شيء واحد ، وجب أن تكون محبته أتم أنواع المحبة وآكدها وأشدّها ، ولا يتصور ذلك على الحقيقة إلا في الله تعالى ، كما ستعلم (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) فإذا نظرت بعين التحقيق وصادفك نور التوفيق وجدت كل سبب من الأسباب المتقدمة يقضى عليك بحب الله تعالى بل إذا دقت النظر وأمعدت الفكر ، ورقت كثافة حجائبك وعلوت عن أرض طبيعتك ، وترقيت عن درجة المحسوسات التي يشاركك فيها جميع الحيوانات ، إلى أفق قلبك ، وأشرقت عليك شمس بصيرتك ، وجدت المستحق للمحبة على الحقيقة إنما هو الله تعالى دون غيره

فإذا كان الإحسان يقتضى محبة المحسن ، فلا إحسان كإحسانه تعالى (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)^(٢) فإحسانه عليك في إفاضة وجودك ، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكمالياتك : من عقلك ، وسمعك ، وبصرك ، وذوقك ، وجميع حواسك وصفاتك الظاهرة والباطنة وأنواع النعم الخارجة عن ذاتك مما تندفع به ضرورتك ، أو تزول حاجتك ، أو تتم به لذتك هذه الإحسانات الفائضة والمنن المتواترة ، لا تكاد تحصى أصنافها فضلاً عن جزئياتها

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤

ولو نظرت إلى نعمه المودعة في الهواء أو الماء ، أو نور الشمس والقمر وخلق الليل والنهار ، لانقطعت أثناء سيرك ولم تنفر إلا بقدر يسير منها بل لا إحسان في الحقيقة إلا له تعالى ، فإن من أنعم عليك من الخلق بشئٍ فإنما يقصد نفع نفسه بارتفاع الصيت وجميل الثناء أو حسن الجزاء ، فهو في الحقيقة بائع أخرج من يده شيئاً ليعتاض عنه ، ما هو أعز منه عنده عاجلاً أو آجلاً

ولا يتصور الإحسان الحقيقي الذي لا يقصد به عوض إلا من الله تعالى على أنه هو الذي سخر لك قلبك ذلك المحسن ، وأودع فيه محبتك ، أو الشفقة عليك ، أو رجاء الخير من الله ، أو من الناس مساعده إياك ولو شاء لعكس كل ذلك وصرف قلبه عنك ، وألقى في روعه ما يذممره منك « والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، فإن كنت تحب أحداً لأجل إحسانه فاعرف المحسن الحقيقي ، ولا يكن نظرك كنظر الحيوان يحب سائمه الذي يقدم له العلف ، ولا يحب مالكه الذي أمر السائس وأعطاه على ذلك أجراً :

وإن كنت تحب وجود نفسك وبقاءها وكمالها ، فأحب من أعطاك ذلك كله من غير أن تسأله بل كان في تدبيرك من قبل وجودك ، وقد أعطاك من كمال المخلقة الظاهرية والباطنية ما لا يمكنك أن تهتدي إليه حتى تطلبه منه

وإن كنت تحب أحداً من أجل صفاته الجليلة ونعوته الجميلة كما تحب الملوك العاملين أو الفضلاء الكاملين وإن لم ترج خيرهم والانتفاع

بهم ، فأحب خالق الكمال والجمال الذى تنزهه عن كل نقص . واتصف بكل صفات الكمال ، التى لا يصل إليها العلم ولا يحيط بها العقل ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لا نُحِبُّى ثَدَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

وإن كل من تحبه لهذا السبب فإنما تحبه لصفات معدودة وكمالات محدودة فلتكن واسع النظر ، نافذ البصيرة ، على الهمة ، عظيم العلم ، كبير الفهم ، حتى تحب من لا تعد صفاته ، ولا تنتهى كمالاته . ولا تكن كالصبيان لا يمكنهم أن يحبوا من طبقات الناس إلا أمفلها وأدناها ، دون أشرفها وأعلاها . وأنت مستعد لإدراك الجمال المعنوى والكمال الإلهى ، وهى خاصتك التى امتزت بها عن سائر الحيوان . وعلى قدر ذلك تلتحق بالملائكة ويتمتعق فيك روح الإنسانية

وكل من بطلت فيه خاصية زرعه فليس فى الحقيقة من ذلك النوع ، لأن النوع لا يوجد بدون خاصته على الحقيقة ، فهيج من نفسك الشوق إلى تلك المعارف التى هى ألد من كل شىء ، ولا تمت تلك الحاسة الباطنية التى هى أعلى حواسك وأشرف مزاياك .

فلذة العلم عند ذوبها فوق اللذائذ كلها ، لأنها لا توجد إلا فى سماء الإنسانية دون أرض الحيوانية واللذائذ مرتبة على حسب درجات العوالم ، ولذة العلم بعد ذلك على قدر ما تدرك من شرف المعلوم فليس علمك بأمرار الملك وشئونه فى مملكته كعلمك بأحوال رجل من السوق .
فإذا يكون العلم بأشرف المعلومات ألد العلوم

وليس هناك أجل من الله تعالى الذى لا يثنى عليه حق ثنائه غيره ،
ولا يحيط بكماله سواء

فظهر قلبك من أدناس الرذائل كلها ، وهيته لغرس تلك المحبة التى
هى أتم اللذات وأكبر السعادات ، وهى مطلب قلبك لو كان باقياً على
صحته ، ومأرب روحك لو لم تتشعب بها الطرق وتظلمها الأهواء (قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) وإلا فأذنت
المخاطب بقول انقائل

لديك جمال الجامدات فهم بها إذا كنت ميالاً إلى الصور الخرس

هذا ويجمل بك ها هنا أن تعرف أن المحبة أنجع وسيلة إلى تهذيب
الأخلاق وتكميل النفوس ، بل إن شئت فقل إنها تقاب الطباع وتغير
الحقائق فتجعل الشحيح من أسخى الأسخياء ، والجبان من أشجع
الشجعان . فإذا اتفق لك أنك وصلت إلى حد الكمال فى محبة الله تعالى
ومحبة رسوله ومحبة الكاملين من أمته ، سارعت إليك الكمالات ،
وترادفت عليك لخيرات ، وانطبعت فى مرآة قلبك صفاتهم ، فتبدلت
منك الرذائل بالفضائل . وعلى قدر المحبة يكون انطباع صفات المحبوب
فى نفس المحب

وقد عرفوا لمحبة بأنها استهلاك الصفات فى الصفات ، وفناء

الإرادات فى الإرادات

فلم تهرفى ما لم تكن فى فانيًا ولم تفن ما لم تجتلى فىك صورتي

وقد عرفت أيضاً بأنّها نار تحرق من قلب المحب الميل إلى ما سوى
المحبوب

وحد القلب حبه فالتفتاني لك شرك ولا أرى إلا شراكا

وناهيك بمن وصل إلى تلك الدرجة من محبة الله تعالى ومحبة رسوله :
كيف تترادف عليه البركات ، وتغمره الفيوضات ، فيستحق من
الكرامة الا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

واذكر هنا قوله - صلى الله عليه وسلم- : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »
واعرف شرف تلك المعية وما لذويها من الدرجة العلية فالحب أكبر
وسيلة من وسائل الخير والكمال كما أنه أعظم ذرائع انفساد أن
تعلق بغير ذلك . فهو ترياق نافع ، وسم نافع ، على حسب ما يتعلق به
من المحبوبات ويكفيك هذا التلميح والله يتولى هداك

حكم الصّرف من أموال الزّكاة^(١) على المتسفيات ومخولها

حضرات الأفاضل كبار هيئة العلماء بالأزهر الشريف حرسهم الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإننا نرفع إليكم بحقائق
واقعة نرجوكم الافتاء فيها : لازلمت المسترشدين أهلاً ، وهى

١ - إن فى عن مستشفى كبيراً هو المستشفى الأهلى تعالج فيه جميع
المرضى على اختلاف لغاتهم وأديانهم والمسلمون فيه هم الأكثرية الساحقة .
والواقع أن مرضى اليهود والمجوس والهندوس لا يعتمدون فى أقواتهم
وأسباب راحتهم على المستشفى ، بل إن جمعياتهم الخاصة تواسيهم
وتوفر لهم التموت اللازم والملابس وغير ذلك من أسباب الراحة ،
وتشتري لهم حتى الأدوية التى لا توجد فى المستشفى ، مع أن المسلمين
لا يواسيهم أحد لا بالقوت ولا الثياب ولا شىء غيره ، بل لا مفر
لهم من استعمال ما يقدمه المستشفى وهو قوت لا يسمن ولا يغنى . وهكذا
يذهب أكثر مرضى المسلمين ضحية الإهمال

ومع هذا فالمستشفى يقوم بتكفين الموتي وغسلهم ودفنهم بصورة
غير مرضية ، واكتفى مثلاً الذى يعطيه المستشفى يكون دائماً غير كاف
لستر الميت . وهكذا فضلاً عن الغسل والدفن .

٢ - النساء من أرباب العائلات الفقيرة يفضلن الموت على المعالجة
أو التطيب فى المستشفى الأهلى بحجة أن الروايات المعدة فى المستشفى

لا تضمن لهم الراحة وحفظ التقاليد والحجاب اللازم ، حيث يحشر سوبر كل مريض بجانب الآخر ولهذا ولما منعه على فضيلتكم يمكن تطبيب النساء وأرباب العائلات على أيدي الأطباء والمرضات الماهرات بدلاً عن تحمل الآلام ، والبقاء من دون علاج في بيوتهن ، وتمه أودى بأرواح كثيرة وجعل النساء عرضة لدجل الدجالين والمشعوذين .

٣ - لا يوجد في عدن مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين ، ولهذا انتهزت الفرصة جمعية التبشير الدينامية وفتحت لبنات المسلمين مدرسة يتعلمن فيها القراءة والتطريز والخياطة ، وهناك يتشربن المبادئ المسيحية ويخرجن عن تعاليم الإسلام ولهذا ترانا بحاجة ماسة إلى تأسيس مدرسة للبنات في عدن نجلب لهن المعلمات الصالحات المسلمات من الخارج ، وننقذ أمهات المستقبل من حالة إذا استمرت تقضى على العقائد الإسلامية قضاءً مبرماً

مما ذكر يظهر لكم سادتي أن مسلمي عدن بحاجة إلى مالية بصرفون أو يواسون منها المرضى من الفقراء في المستشفى الأهلي ، ويعمرون منها بيوتاً خاصة للنساء وأرباب العائلات حول المستشفى ، تضمن لهم الراحة والسكينة ، وتحفظ لهم تقاليدهم الإسلامية ، وأيضا يقومون بتأسيس مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين اللاتي هن الآن تحت تأثير المبشرات المسيحيات

المالية المنشودة غير متيسرة ، والأغنياء وأهل الثراء لا يتبرعون بالمال لهذه المشروعات الحيوية المهمة

وهكذا أصبح المسلمون والمسلمات بحالة تعسة محتقرين في أعين الأجانب ، مع أن الطوائف الأخرى تقوم بكل هذه المشروعات والأعمال نحو أبناء بنات ملتهم كالإفرنج واليهود والمجوس والهندوس بل لكل طائفة مستشفاهها ومدرستها وملاجئها الخاصة

أما نحن ونحن أهالي البلدة فلسنا إلا كالمشردين ومرضانا في الأزقة والمسشفيات بلا راع ولا ذى مروءة يواسيهم ، حالة والله تدمى القواد وتفتت الأكباد

لما وصلت الحالة إلى هذه الدرجة من الخذلان فكر جماعة من أهل الخير في تعيين لجنة إسلامية تؤلف من أغنيائها ووجهائها ، وقصد اللجنة هذه أن تأخذ قسطاً من أموال الزكاة المفروضة على المقتدرين من المسلمين حين تجمع المال ليصرف في مصالح الفقراء والمساكين في هذه البلاد في حدود المشروعات الثلاثة المذكورة آنفاً ولو تدريجياً

فالرجاء من هيئة العلماء الأعلام في الأزهر الشريف أن يفتونا في المسألة وهل يجوز أخذ الزكاة أو قسط منها لهذه الأغراض المهمة ؟

أرجو أن تنشروا السؤال مع الجواب على صفحات (مجلة الأزهر) التي كساها الله نوراً على نور ، لما تنشرونه فيها من الدرر الغاليات ، والجواهر الثمينات ، والحكم البالغات ، وقد طهرتموها من الحشو واللغو والهديان . جزاكم الله خيراً الجزاء ، ونفع بكم العباد ، آمين

أحمد محمد الندي

الجواب

إن حال المسلمين اليوم يذيب الفؤاد ويفتت الأكباد على ماشرحه
السائل نخاذل وانحلال وتآخر واضمحلال واختلال واعتلال وهبوط
وسقوط وجمود وخمود الخ

ولاغرو فقد اشتغل كل منهم بنفسه فلا يعنيه إلا منفعته
الذاتية ومصلحته الشخصية ، فلا يهتم بأمر أخيه المسلم ، ولا يفكر في
مصلحة أمتة ولا منفعة مواطنيه ولا مجد بلاده ضاقت الأنظار واختلت
الأفكار وذهبت الرحمة من النفوس ، وأقفرت القلوب من الإخلاص
والرءوس من التفكير

وما كان ينبغي ذلك لقوم أمروا أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه
بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الجسد
وقد كنا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها ، وكان الناس يدخلون في
دين الله أفواجا لما يرون فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم
وما يتجلى فيه من ارتباط القلوب وتآلف النفوس فقد أورثهم
الإيمان المحبة التي جعلتهم إخوة يتراحمون عند الشدائد ، ويتعاطفون
لدى الكوارث

و «لَا تُنَزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ» كما في الحديث الصحيح ،
فأصبحنا وقد اشتغل كل بنفسه وصار لا يعنيه إلا شخصه ، فتقطعت
لروابط بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلم يشاركهم في أية مصلحة يعود
نفعها على الأمة وقد غلبت عليه محبة الذات ، ففتحت له طرق

الاحتياط فيما يعود على شخصه بما يحب من الشهوات مما يظنه سعادة وفلاحة ، وخيل له أن ذلك استقلال ونهضة ورتى وتقدم فأضاع بذلك مصلحته ومصلحة أمته ، وقضى على مجده ومجد بنى جلدته أو نقول كانت النتيجة كهذه النزعة الحمقاء استقلال الأفراد واستعباد الامم وأنها لثفتة مصدر فلنتكلم فيما يريد السائل ، فنقول

لايسع لعارف بروح الشريعة ونظرها البعيد وحكمتها السامية إلا أن يفتى بجواز صرف الزكاة في تلك المشروعات الخيرية التي ذكرها السائل ، فإن الشارع قد راعى في مصارف الزكاة مصلحة الدين ، ومصلحة العباد ، وحاجة الفقراء والمضطرين والمحتاجين .

ولم يفت ذلك علماء الأمة وأئمتهم من السلف والخلف -رضى الله عنهم- ، فقد ذهب كثير إلى أنه يجوز أن يصرف سهم (سبيل الله) إلى الحج وإعانة الحجاج من المسلمين

يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن . وإليه ذهب أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، لأن الأمر على ما قال بعضهم من أن اللفظ عام فلا يجز قصره على الغزاة فقط . وقد أجاز بعض الفقهاء صرف سهم (سبيل الله) إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك ، لأن قوله (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١) عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠

وعى أن من ذكرهم السائل في سؤاله داخلون في الفقراء والمساكين ،
فإن أولئك المرضى الذين بين سوء حالهم وتلك السيدات اللاتي يلحقهن
من الضرر ما ذكر المستفتى هم من جملة الفقراء بلا شك . والجماعة التي
تأخذ الزكاة لتقوم بتلك المصالح وتنظمها وتجعلها على قاعدة ثابتة
نافعة وترسم لها خطة تضمن لها البقاء والمنفعة ، هذه الجماعة كأنها
وكيلة عن أولئك الفقراء تقوم برعايتهم وإصلاح شئونهم نيابة عنهم
حيث تعذر قيامهم بذلك لأنفسهم . ولو فرضنا أن هناك فقيراً تعذر
تسليمه الزكاة لجنونه مثلاً أو لغير ذلك لم نتوقف في جواز إعطاء الزكاة
لوليه والقائم على أمره . فهكذا هنا . والعبرة في الأمور كلها بمقاصدها
وغاياتها .

هذا ما تقتضيه روح الشريعة وترشدنا إليه مراميها التي محورها
الذي تدور عليه إنما هو الحقائق والمصالح . ولا يمكنني أن أفنى بغير هذا
غير أني قبل إلقاء القلم لا بد أن أوصي بانتقاء تلك الجماعة من
المخلصين الأتقياء الذين يخافون الله ويراقبونه في السر والعلانية مع
النظر البعيد والتدبير الحكيم وليكن القانون في ذلك واضحاً جلياً
غير قابل لتأويل المؤولين ولا احتيال المحتالين والله يتولى هدى
الجميع بمنه وكرمه

حكم صلاة الجمعة في البيوت وفي المساجد المتعددة

جاء إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله :

يوجد ببلدتنا أسرتان لهما مسجد واحد تقام فيه صلاة الجمعة وقد حصل بين الأسرتين شقاق أدى إلى منع إحداهما من أداء فريضة الجمعة في المسجد المذكور .

فأدت الأسرة الممنوعة فريضة الجمعة في ديوان لهم جعل للضيوف .
واتفقت كلمتهم على أن يؤدوا دائماً فريضة الجمعة في هذا المكان
فهل صلاتهم صحيحة أم باطلة ؟

محمد الليثي عيسى
الريس بالأقصر

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
وبعد فدن شروط صحة الجمعة في مذهب مالك - رضى الله عنه -
المسجد ، فلا صح عنده إقامتها في البيوت ولا في الفضاء ، ولا تقام
في البلد الواحد إلا في مسجد واحد . فلو تعددت المساجد لم تصح إلا فيما
أقيمت فيه أولاً وهو المسمى بالعتيق عند المالكية

وقد أجاز إقامتها في مسجد آخر مع العتيق لأسباب مبسطة في
كتب المذهب ، منها خوف حدوث فتنة بين طائفتين من أهل البلد

لو اجتمعوا في المسجد العتيق ، فإذا يجوز لكل طائفة أن تصلي في مسجد على حدة ، وتصح الجمعة في المسجدين ما دامت العداوة قائمة

الخلاصة

إن الأسرة التي منعت من إقامة الجمعة في مسجد البلد « في صورة الاستفتاء » إذا أمكنهم رد العائلة المانعة بطريق الحاكم أو بآية طريقة ودية بحيث تكون الفتنة مأمونة ، وجب عليهم سلوك هذا الطريق وصلوا معهم الجمعة . فإن عجزوا في المسألة تفصيل حاصله أنهم إذا قدروا على إنشاء مسجد آخر بالبلد وجب عليهم إنشاؤه وسقطت عنهم الجمعة حتى يتموا فإن عجزوا عن ذلك أيضاً سقطت عنهم الجمعة بتاتاً ، لأن من شرط وجوبها القدرة على المسجد

هذا وقد علم مما قدمناه أن جمعهم التي أدوها في محل الضيوف باطلة ، ويجب عليهم قضاؤها ظهراً ، وألا يعودوا إلى صلاتها فيه مرة أخرى لأن الإقدام على العبادة الباطلة لايجوز شرعاً . والله يتولى ددى الجميع عنه وكرمه

الرَّحْمَةُ^(١)

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ، وأن الله لا يحب شيئاً مثل ما يحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئاً مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد في الحديث الصحيح « ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ » . وذكر (من) التي للعاقل ما هنا لتغليب الأشرف على غيره .

وإياك أن تفهم من ذكرها أنك لست مأموراً إلا برحمة النوع الإنساني فقط ، فإنك مأمور بالرحمة لكل ذى روح

وقد قال صلى الله عليه وسلم « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ صِدْقَةٌ » . وإذا كانت امرأة قد دخلت النار من أجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ، فلا غرو أن تدخل الجنة من أجل هرة ترحمها

وقد ورد « إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحِمَاءَ » ، ويقول الله تعالى في الحديث القدسي « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » .

وليس ذلك الحنان الذي تراه في قلوب الآباء والأمهات في أفراد النوع الإنساني وسائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوقاً اضطرارياً إلى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التي تجدها

من نفسك إذا رأيت مظلوماً ضعيفاً أو فقيراً بائساً ؛ إلا أثراً من آثار
تلك الرحمة الإلهية

ومواماة الإخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل
الأعمال التي حث عليها الدين وندبت إليها الشريعة

وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التي قامت بها السموات والأرض .
ولا محل لها دنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجري البحار
وتفجير الأنوار وتيسير الأنوار وخلق الليل والنهار وإنبات النبات
وبقية الآيات وأنواع النعم المتواترات

وقد قال تعالى (فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّبُ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا)^{١١}

وبالجمله ففريك من الإنسانية على قدر ما فيك من الرحمة . وعلى قدر
ما فيك من النسوة يكون بعدك من الله وإنسلاخك من الإنسانية ،
فإنك لا تتكامل إلا إذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الأخلاق
المرّة بعد المرّة : وعلى قدر لين قلبك وسرعة تآثرك يكون قبولك لتلك
الكمالات

وأما ذلك القلب القاسى الذى لا يتفعل ولا يتأثر ، فإنه بعيد
من الكمال^{١٢} . بدأ ، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل
للنقش فيه

(١) سورة الروم ، الآية ٥٠

وإن من القلوب قلوباً كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ومن كان بهذه الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة أن الإنسان قد ينحط إلى دركات هي أسفل من كل المراتب التي فيها أنواع الحيوان ، وإذا لا يكون إنساناً إلا في صورته .

وقد قال بعض الحكماء إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)^(١) ويقول (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؛ وَتَوَادَعُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)^(٢)

ولا يمكنك أن تصل إلى درجة الكمال إلا إذا لم تكن من ذوى القلوب القاسية والنفوس الجامحة

الخلاصة

إنه لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في إنسانيتهم فلم يفعلوا فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبني نوعهم

(١) سورة التين ، الآيات : ٤، ٥، ٦

(٢) سورة العصر

لو نمت الرحمة في النفوس لما التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ،
ولما فعلت بهم مالا تفعله أقوى الحيوانات بأضعفها على أن الحيوان
لا يفترس أبناء نوعه مهما كانت وحشيته وشرارته

لو نمت الرحمة في الأغنياء لما مقتتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة
في القضاة لما تأخرت القضايا المسنين الطوال ، ولا لحدّ أربابها شديد
النكال وعظيم الوبال .

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك وأثنى عليك إخوانك ولو
تمت الرحمة فيك لبذلت النصيح للعامة والخاصة إخلاصاً لهم وإشفاقاً
عليهم « وَالَّذِينَ النَّصِيحَةُ » . ولو تمت فيك الرحمة لأشفقت على القريب
والبعيد ، ورحمت المبتلى والمعاني والإنسان وغير الإنسان

بل نقول لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون
على أنفسهم فلا يورطونها في الهلكات ولا يجلبون عليها أعظم الآفات ،
ويحرمونها من أفضل أنواع السعادات

وإجمال القول أنه إذا استقام هذا الأصل للإنسان في الدين ،
استقام له سائرته ، فغاز بخيرى الدنيا والآخرة فأزل - يرحمك الله -
من نفسك القسوة ، وكن رقيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكباد
فالمراحمون يرحمهم الرحمن ؛

وما أحسن قول ابن حجر المكي في هذا الموضوع

إرحم عباد الله يرحمك الذي عم الخلائق جوده ونواله
فالمراحمون لهم نصيب وافر من رحمة الرحمن جل جلاله

وقال الحافظ ابن عساكر

بادر إلى الخير ياذا المب مغتنما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم
والشكر يستوجب الإقبال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارهم
ولا تكن عن قليل الخير محتشما
فإنما يرحم الرحمن من رحما

وقال غيره

من يرحم الخلق فالرحمن يرحمه
ففي صحيح البخارى جاء متصلا
ولا بأس أن نذكر لك كلمة وجيزة عما جاء في السنة من الحث على
الرحمة ، فنقول

روى البخارى في الأدب المفرد وأبو داود والترمذى وآخرون
عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال :
« اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ » (لك أن تقرأ
يرحمكم بالجزم جواباً للأمر ، والرفع على أنه جملة دعائية) .

وروى الشيخان هذا الحديث عن أسامة بن زيد بلفظ « إِنَّمَا يَرْحَمُ
اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ اِرْحَمَاءَ » ومن ذلك ما رواه عن أبي هريرة أنه - صلى الله
عليه وسلم - قال « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمَ » .

وروى أحمد عن جابر « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمَ ، وَمَنْ لَا يَغْفِرُ
لَا يُغْفَرُ لَهُ »

ومنها ما رواه الشيخان عن جرير أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال « مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ » وروى الامام أحمد وعبد

ابن حميد في مسنديهما والطبراني وغيرهم بسند جيد عن ابن عمر موقوفاً ومرفوعاً « اَرْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ ، وَيَلِ لِلْمَصْرِينَ الَّذِينَ يَصْرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لَا تُنَزَّعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ »

وعنه أيضاً قال : قبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الحسن بن علي -رضي الله عنهما- وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم . فنظر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال « مَنْ لَا يُرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل « لقد باع هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسك بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له قالوا يا رسول الله : وان لنا في البهائم أجراً ؟ قال « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ » أخرجه الشيخان في الصحيحين ومالك في الموطأ

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ » (٢١)

مِنْ خَشَائِشِ^(١) الْأَرْضِ » أخرجهُ الشَّيْخَانُ . وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -
قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّ الرَّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ
إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزْرَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » أخرجهُ مسلمٌ وأبو داود . وعن
جرير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ
يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أخرجهُ مسلمٌ وأبو داود . وعن أبي
موسى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا بَعَثَ
أَحَدًا فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ : بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا .
أخرجهُ أبو داود .

هذا وقد رأينا لأبي السعود عند قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)^(٢) وما النعمة إلا أثر من آثار الرحمة عبارة
جليلة تروق ذوى الأفهام ، فأحببنا أن نذكرها لك في هذا المقام ،
لتعرف نعم الله عليك ورحمته بك فتجعل شكر تلك النعم التي
لا تحصى رحمة عباد الله والشفقة على خلق الله ، فكما تدين تدان ،
وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

وهاك عبارة أبي السعود

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ) التي أنعم بها عليكم (لَا تُحْصُوهَا)
لا تطبقوا حصرها ولو لإجمالاً ، فإنها غير متناهية كيف لا وما من
فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنواً
بأصناف البلبايا ، مبغى بأنواع الرزايا ، فهو بحيث لو تأملته ألفيته

(١) خشائش الأرض هوامها وحشراتهما .

(٢) سورة براهيم ، الآية ٣٤

متقلبا في نعم لانحد ، ومنن لا تحصى ولا تعد ، كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الإمكان وإن كنت في ريب من ذلك فقددر أنه ملك ، ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم ، وأذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب العتاة ، وفاز بكل مرام ، ونال كل منال ، وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه ، بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدريواقيت غالية ونفائس درر ، قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم ، في حالة بلغت منها نفسه الحلقوم ، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه أو شربة ترويه ، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأمالك بغير بدل يبتق عليه ولا نفع يعود إليه ؟ كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان ، وليس في صفقته شائبة الخسران فإذا تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بألف رتبة ، مع أنهما في طرف التمام ، ينالهما متى شاء من الليلي والأيام أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس ! فلا دخل منه ماخرج ولاخرج منه ما ولج ، والحين قد حان ، وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد فإذا هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها ، مع أنه قد أبيع له كل آن من آتات الليلي والأيام ، حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلال بحيث لا يكاد يخنى على أحد من العقلاء وإن رمت العشور على حقيقة الحق ، والوقوف على كل ماجل من السر

ودق ، فاعلم أن الإنسان ممقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة ، بحيث لو انقطع مـ بينه وبين العناية الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا في مضمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجنب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، في كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى ، من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلم به إلا العليم الخبير .

وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداءً لا يستحقه بقاءً ، وإنما ذلك من جناب المبدئ الأول - عز وجل - فكما لا يتصور وجوده ابتداءً ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي ، لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه نظارياً ، لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي عللها وشرايطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تنهاى مادخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك ، إذ لا استحالة في أن يكون الشيء أحد موانع غير متناهية ، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود . فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى أعى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل آن من آئات وجوده ، نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاءً وكذلك

في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقائه ، وكذلك في
كمالاته التابعة لوجوده .

فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعماً لا تتناهى من وجوه شتى
فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لا تلاحظك العيون بأنظارها ،
ولا تطالعك العقول بأفكارها ، شأنك لا يضاهى وإحسانك لا يتناهى .
ونحن في معرفتك حائرون ، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون . نسألك
الهداية إلى مناهج معرفتك . والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لا نحصى
ثناء عليك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك » انتهى

ولنقتصر على هذا ولعل فيه مقنعاً وكفاية لمن أراد أن يسعد
نفسه وتسعد به أُمَّته . جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه
بمنه وكرمه

(١)
مسألة في القراض

جاءنا من انكوييت ما صورته بعد الديباجة
الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه

أما بعد فما قول العلماء الأعلام ، هدى الله بهم الأنام ، فيمن
دفع كمية من الدراهم باسم القراض لعامل يعمل فيها على طريق المضاربة ،
فاستمر العامل يعمل فيها قدر أربع عشرة سنة ، وكل سنة يدفع العامل
لرب القراض قسطاً من الدراهم . وفي يوم من الأيام جاء رب القراض
للعامل وطلب منه أن يدفع له مبلغاً من رأس المال ، فقال العامل
ليس عندي شيء أدفعه لك الآن ، فقال رب المال أين ذهب المال ؟
فقال : عندي مال ولى على الناس ديون وللناس على أيضاً ديون ، فطلب
رب القراض من العامل أن يطلعه على الدفاتر ، فلبى العامل دعوته
فقاما من الدكان قاصدين البيت لأجل النظر في الدفاتر ، فبينما رب
القراض يمشى أمام العامل إذ وقع بصره على ابن العامل يحمل صرة
من الدراهم ، فلما رآه أراد أن يتوارى عنه ، فأمسكه في الحال وأخذ
الصرة منه ، فقال الولد : هذه الدراهم أمانة لفلان وضعها عندنا وليست
لنا ، فلما جاء العامل قال هذه ٨٠٠ روبية لعمر و وضعها عندنا أمانة
قبضت باسمه (عمرو) من خالد فلما عدت وجدوها ٩٠٠ روبية ،
فسألوا العامل عن المائة الزائدة فقال وضعنها عليها من الصندوق

حين أردت إخراجها منه . فلما كشفوا على الدفتر وجدوا مقيداً فيه
عندى لعمره ٨٠٠ روبية مقبوضة من خالد فكأن قبضها من خالد
ثابت عن الجميع : رب القراض وغيره

ومن الغد رفع الأمر للحاكم ، فحجر عليه وبعد الحجر عليه . أقر
(العامل) أمام رجلين من التجار الذين لهم عليه بعض الطلب إنما
هي عندى لأنتفع بها ، وهم من المعتبرين مع أنه ينكر ذلك ويقول :
إنما كنت أقول : ما قدرت أن أنتفع بها

هذا صورة الواقع فهل تعيين العامل الأمانة قبل الفلاس يقبل
فيختص بها دون الغرماء ، أم لا يقبل فيكون أسوة الغرماء مع أن
الذى وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخارجة عن
القراض ، ويكون الباقي من القراض إذا أضيف إلى الذى دفع لرب
القراض باسم المصلحة خلال السنين الماضية يزيد على رأس المال بكثير ؟
وهل إقرار العامل بعد الحجر أمام الرجلين بقوله هي عندى أنتفع
بها ، يضر بالإقرار الأول أم لا ؟ أفتونا مأجورين :

احمد بن محمد الفانم

الجبر الكويت خليج فارس

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ومعد : فقد نص في مذهب مالك - رضي الله عنه - في باب

القراض والفلاس على ما يأتي

أولاً — عامس القراض أمين فيما تحث يده من المال الذي يعمل فيه ولو لم يكن أميناً في الواقع ، لأن رب المال ائتمنه عليه ، فيده يدأمانة ، فليست كيد الغصب ، ولذلك كان مصداقاً بيعين إذا ادعى تلف رأس المال أو خسراته ، إلا أن تشهد العادة بكذبه فلا يصدق

ثانياً — من أقر بوديعة بعد تعيينها كأن قال هذا المذل وديعة بعد إقراره ، فإن إقراره يقبل ويختص رب الوديعة بها فلا يحاص فيها الغرماء وإنما يقبل إقراره هذا إن شهدت بينة بأصلها بأن قالت نشهد أن فلاناً عنده وديعة لفلان ، وإن لم تعينها ولا فرق في قبول الإقرار حينئذ بين أن يكون صادراً من المقر في حال صحته أو مرضه فإن لم تشهد بينة بأصلها ، فإن كان إقراره قبل الفلوس قبل ، سواء أكان في حال الصحة أم المرض ، وإن كان بعد الفلوس فلا يقبل ، فلا يختص بها المقر له

ثالثاً — يعمل في مذهب مالك بالقرائن ومن ذلك الاعتماد عاينها في حلف أولياء لدم أيمان القسامة ، فإذا حلفوا استحقوا القصاص من القتيل . وقد مشوا لذلك مما إذا وجد شخص يجري في زقاق ثم وجد بداخل هذا الزقاق شخص يتشحط في دمه ويقول دمي عند فلان « يعني ذلك الهارب » فإن قوله هذا مع وجود الهارب بهذه الحالة يعتبر بوثاً « أى قرينة » على أن ضاربه هو هذا الشخص فإذا مات المضروب حلف أولياؤه أمان القسامة ، معتمدين على هذه القرينة ، واستحقوا دم هذه المسمى :

ومن ذلك قولهم في اليمين « واعتمد البات على ظن قوى » أى
أن الشخص يجزى له أن يحلف على القطع معتمداً على ظن قوى . ومدار
الظن القوى على القرائن المثيرة له

ومن تتبع السياسة الشرعية وما فيها من الحوادث كما يعلم
بالاطلاع على تبصرة الحكام لابن فرحون لا يتردد في أن القرائن
مبنى كثير من الأقضية الشرعية ولابن القيم كتاب قيم جداً في السياسة
الشرعية أبان فيه صحة الحكم بالقرائن ، وأقام الدليل على ذلك من
من السنة

ولا غرو فمدار الفروع على الظن الغالب ، والقرائن تفيده . والحكمة
التي تقتضيها روح الشريعة توجب مراعاة القرائن وعدم إهمالها ،
إذا لولا ذلك لضاع كثير من الحقوق واختل نظام المجتمع الإنساني

هذا ومنه يتضح أن عامل القراض في الحادثة المسئول عنها مصدق في
إقراره بالوديعة التي^١ العمرى وقد قبضها من يد خالد ، لأن إقراره كان قبل
الحجر عليه

هذا هو مقتضى كون يده يد أمانة على ما قررناه ، غير أنه قد
اكتنف ذلك الإقرار أمور تكاد تقتضى عليه بالاتهام فيه . بل هذه الأمور
لاندرع الفترية يتردد في أنه إقرار كاذب قصد به الإساءة إلى رب القراض
باختزال جزء من ماله لنفسه تلك الأمور هي

أولاً - مسارعة ولد العامل حينما أحس بأن رب القراض سيطلع على
مافي صندوق التجارة من النقود^٢ ، مسارعته إلى أخذ هذه الصرة قبل

فتح الصندوق ولو كانت هذه الصرة لمن أقر له العامل لم يدبر هذه الحيلة ، وكان يكتميه إن كان صادقاً في أنها وديعة أن ينبه عليها بعد فتح الصندوق ، لا سيما وهي مقيدة بدفاتر التجارة .

ثانياً - محاولة الاختفاء والهرب بها حينما رآه رب المال

ثالثاً - قول العامل بعد : « إنما هي عندي لأنتفع بها » مع ثبوت ذلك بشهادة المعتبرين كما جاء في الاستفتاء. وإنكاره صدور ذلك القول منه وتحريفه إلى قوله « إنما قلت وما قدرت أن أنتفع بها » لا يفيده بعد شهادة المعتبرين بالعبارة الأولى

رابعاً - وجرد مافي الصرة زائداً على ما أقر به العامل ودفاعه عن ذلك بقوله « قد وضعت عليها مائة مما في الصندوق » مما يقوى الشبهة نحوه ، لأنه ما وضع عليها ذلك إلا بقصد اختلاسه لنفسه إن كان صادقاً في أصل الوديعة

لذلك نرى أنه إن شهدت بينة بأن هذا العامل عنده وديعة لعمرو قبل إقراره واختص المقر له بها ، وإن لم تشهد بينة بهذا فلا يقبل إقراره وإن كان قبل الحجر عليه لقيام القرائن على كذبه ، وتكون كبقية المال : للغرماء غير المقر له أن يتحصوا فيها

وقول المستفتي أن ما بيده يزيد على المطلوب منه ، وهو ما أشار إليه بقوله « مع أن الذي وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون » إلخ ، قوله هذا يفيد أن العامل لا يستحق الحجر عليه : فإن مستحقه هو من أحاط الدين بماله بأن زاد على ماله أو ساواه فهذا هو

الذى يحجر عليه في التصرف للمحافظة على حقوق الدائنين ولا يؤثر
هكذا القول في اتهام العامل في هذا الإقرار حيث لم تشهد بينة
بأصل الوديعة ، بل يقال إن هذه الوديعة إذا بطل الإقرار بها احتسبت
من مال القراض ، وكان لربه أن يستكمل منها رأس ماله وما يخصه من
الربح بعد أداء الديون التي لها علاقة بهذه التجارة

وليعلم أنه لا عبرة بكتابة الوديعة في دفاتر التجارة بعد هذا الاتهام ،
لأنه والحالة هذه لا يبعد أن تكون الكتابة مصطنعة من العامل قصد بها
الحيلة على صحة إقراره بعد هذا

نسأل الله أن يرزقنا الصديق في القول والعمل ، وأن يجنبنا مواقع
الزلزل ! بحمده وكرمه

الشجاعة^(١)

مقدمة في مكارم الأخلاق :

لنقدم بين يدي ذلك كلمة إجمالية عن مكارم الأخلاق عموم ،
فنقول

مكارم الأخلاق أوساط بين الإفراط والتفريط ، فمتى جاورت
نقطة الوسط فقد جاوزت الفضيلة فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن
الذي هو تفريط : والشهورة الذي هو إفراط . والسخاء وسط بين البخل
الذي هو تفريط . والتبذير الذي هو إفراط . فإياك والزيادة فيما تنظنه
فضيلة فتقع في الرذيلة « كلا طرفي كل الأمور ذميم »

حتى أن القوة الفكرية ، وهي أشرف القوى ومدار الإنسانية ،
إذا زادت عن حدّها خرجت بك إلى رذيلة الخبث والدهاء والمكر
والحيلّة

وليس الكفر والتهجم على مقام الألوهية واقتحام تلك المخاطر
للأردنية من رذائل القوة الفكرية فرذائلها أقبح الرذائل ، كما أن
فضائلها أشرف الفضائل . وهكذا الحال في الفضائل والرذائل في القوة
الشهوية والقوة العصبية على قدر ما ترتفع بفضائلها تنحط برذائلها
على نسبة واحدة ، فأعظم القوى الثلاث فضائل ورذائل ، هي القوة الفكرية
ثم القوة العصبية ثم القوة الشهوية

وكان نقطة الوسط التي نوهنا عنها هي الصراط المستقيم الذي أمرنا
تعالى بطلب الهداية على سبيل الوجوب سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة
(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ : صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)^(١)

ولا بد أن تكون قد سمعت أن الصراط أرق من الشعرة وأحد من
السيف ولعلك كنت تستغرب من ذلك وتصدق به تقليدًا من
غير أن تفهم له معنى ولا تذوق له سرًا

فاعلم أن نقطة الوسط عسرة جدًا ، ولا يمكنك أن تقف عندها إلا
إذا رزقت المعونة ومنحت التأييد فلا يكاد يهتدى إليها ثم يصبر عليها
إلا الأنبياء والمرسلون وكمل الرجال من ورثتهم « وقليل ما هم »
فحقاً هي أرق من الشعرة وأحد من السيف .

وأحب منك الآن على عجل أن تصدق معي أن الصراط الأخرى
على ما سمعت ، وتعلم أن كل شيء تراه في الآخرة إنما يمثل ما كان
من أحوالك وأعمالك وأوصافك في الدنيا

فإن الأرواح متى قوى سلطانها خفيت مقتضيات الأجسام : فكان
الحكم لها هو ما يكون في الآخرة ، كما أن الأجسام متى قوى سلطانها
ظهرت مقتضياتها وخفيت مقتضيات الأرواح كما في الدنيا

فإذا سيرك بسرعة أو ببطء على ذلك الصراط هناك يمثل سيرك هنا
على صراط الوسط في كل شيء ، الذي هو أرق من الشعرة وأحد من

السيف ، وذاك الصراط يمثل هذا الصراط ومتى قدرت على أن تسير عليه ها هنا أمكنك أن تسير عليه هناك ، والعكس بالعكس وعلى قدر ما أنت عليه اليوم يكون حالك غداً ، حتى إذا كنت من المسارعين إلى الخيرات السابقين في الفضائل والكمالات كنت هناك طائراً لا سائراً

ولنرجع إلى ما تصدينا له اليوم من الكلام على الشجاعة فنقول

الشجاعة ما هي ؟

الشجاعة ملكة في النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة ، والمخاوف الخطيرة ، للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة . أو نقول بعبارة أخرى الشجاعة هي الإقدام تحت إشراف الحكمة ، للدفاع عما يجب الدفاع عنه من نفس أو دين ، أو وطن ، أو غير ذلك ، وهي فضيلة من أسمى الفضائل وإن شئت فقل إنها حارسة الفضائل كلها ، وأُس السعادة في الدنيا والآخرة وليس يخفى عليك ما لها من الأثر في رقي الأمم وتقدم الممالك في هذه الحياة

فكل أمة ضربت فيها بسهم وأخذت منها بأوفر نصيب : أصبحت شامخة المجد عالية القدر فسيحة الملك ، لا يعوزها نشر العدران ، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها وما من أمة أدخلت إلى الجبن وأهملت واجبها وفرطت في جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية ، إلا صارت إلى الذل والهوان ، وباءت بالخيبة والخسران ، لا تستطيع دفع الطامع عنها ، ولا تقوى

على حفظ كيائها والذود عن حياضها ، ولا تلبث إلا ريثا يتم اتفاق
الدول القوية على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة

كانت الشجاعة من المناقب التي امتاز بها العرب ، وفاقوا غيرهم
في الأخذ بناصرها والتمدح بآثارها ، والافتخار بمزاياها ، والازدهاء
بمحاسنها حتى بلغ من ذلك أن حض عليها الأمراء ، وتباهى بها الكبراء
والوضعاء في محاوراتهم وأشعارهم .

تمال سيدنا أبو بكر لخالد بن الوليد « احرص على الموت توهب
لك الحياة » .

وقال الشاعر

محرمة أكفـال خـيلـى عـلى القـنـصـا ودامـيـة لـبـاتـنـسـا ونـحـورـها
حـرام عـلى أـرماـحـنـا قـتـل مـدبـر وتـنـدق مـنـها فـى الصـدور صـدورـها
ويقول الآخر

تأخرت أستبى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
ولهم غير ذلك من الأخبار والشواهد ، مما يدل على أنها كانت
ألزم لهم من ظلهم ، وأثبت عندهم من شخصهم .

ولا غرو فهي الفضيلة التي ليس بعدها فضيلة ، والمزية التي ليس
وراءها غاية لذلك كانوا في جاهليتهم ذوى شمم وحمية وعزة
 وأنفة ، يأبون الضيم ، وينفرون من الذل .

فلما سئل نور الإسلام في بلادهم وخفقت أعلامه على ديارهم وأفاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يفيض ، قاموا والشجاعة رائدهم ، والإسلام قائدهم ، ينشرون دين الله . ويعززون دعوة نبيه ، فدانت لهم البلاد ، وخضعت لهم أعناق الأكاسرة فلم يمض عليهم قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة في مملكتي الرومان والفرس ، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وأفريقية ونحو نصف أوروبا ، وهناك نشروا علومهم التي جاء بها الإسلام ومعارفهم التي أتى بها القرآن ، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم وأرقاهم المدنية وحضارة

وهالك تاريخهم المجيد لا يزال ينبيء عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بفضل علمهم وشجاعتهم

وقد شهد لهم جوستاف لوبون بذلك في كتابه (حضارة العرب) وغيره من علماء الأوربيين وفلاسفتهم

الأمة إلى الشجاعة أحوج منها إلى كثرة العدد ووفرة الأموال ، ذلك أن الأمم في اعتدائهم مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد ، كالأشخاص ، فإذا لم يكن للأمة قسط وافر من الشجاعة وعامل قوى من الحمية والأنفة ، عرضت نفسها للتهام الطامعين ، فسقطت في هوة سحيقة من الذل والاستعباد

هب أن أمة لم تأخذ من الشجاعة بقسط ، وقد جمعت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكان

لديها العدد العديد من أبنائها : أفينغى ذلك شيئاً عند مداومة خطب مد لهم من جانب الأمم المغيرة والفرسان الفاتحين ؟ .

إن ما جمعته بلا شك يكون داعياً قويا وباعثاً شديداً للتوارد على ذلك المنهل العذب الذى لم يقم عليه حارس الشجاعة

حاجة الأمة الى الشجاعة فى داخليتها :

إن الأمة كما تحتاج إلى الشجاعة فى رد الغارات ودفع الغوائل ، تحتاج إليها كذلك فى إدارة شئونها واستقامة أمورها واعتدال نظامها وتنفيذ مصالحها فالحاكم إن كان مقدماً على تنفيذ ما يصدره من الأحكام وإقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الأمة لأوامره ، واطمأنت إلى أحكامه ، وسارت معه فى طريق الوفاق والوثام

وإن آنت منه جبناً أو ظننت منه توانياً فى إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين ، ساء رأيا فيه وملأت سخطاً عليه ، ففسدت الأحوال وعم الوبال .

الحاجة الى الشجاعة فى نصره الحق والقيام بالواجب

ليس يخفى عليك أن العالم لا ينتفع بعلمه ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون إلا بالشجاعة والإقدام

كذلك الطبيب لا يجروء على قطع الأعضاء الفاسدة ، وجبر العظام الكسيرة ، وتضميد الجروح الخطيرة ، وإجراء تلك الأعمال الجراحية كلها ، إلا إذا ساعده باعث الشجاعة .

وقس على هؤلاء غيرهم بمن لا يقومون مهنتهم ، ولا يسرعون إلى عمل ما يناط بهم ، إلا إذا كانت الشجاعة أول خلالهم وأجمل أخلاقهم وأظهر سجايهم ، وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم في سعادة الأمم ورفعتها وخصارتها ونعيمها كما قلنا وهو ميدان فسيح لا يأتى عليه البيان ، ولكنه لا يغيب عن الأذهان .

وبعد : فيحسن بنا أن نذكر لك شيئاً من شجاعته - صلى الله عليه وسلم - حتى تقتدى به فتسعد سعادة لا شقاء بعدها : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)^(١)

ويكفيك من ذلك أنه قام وحيداً فريداً يدعو إلى الله ، وقربش على بكرة أبيها تناوته بصنوف المناوأة ، بل العالم كله إذ ذاك كان ضد هذه الدعوة ، فلم يفل ذلك من عزمه ولا فتر من همته ، فكان يسفه أحلامهم ، ويسب آلهتهم بكل ما استطاع من قوة وقد ذهبوا إلى عمه أبي طالب مهددين متوعدين ، فقال له عمه « يا بن أخي إن قومك قد جاءوني ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » وليس يخفى عليك أن أبا طالب إذ ذاك كان نصيره الوحيد .

فانظر إلى قه له له « فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » فليس هناك أبلغ من هذا التهديد والتخويف من رجل لا ثقة له بغيره ، ولا تعويل على أحد من الخلق سواه فماذا قال له - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا؟ قال له : « وَاللَّهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ

فِي يَمِينِي وَالْقَمَرِ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ
أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتَهُ .

ومما ورد في شجاعته - صلى الله عليه وسلم - الخارقة للعادة ، ما رواه
جابر - رضي الله عنه - إذ يقول :

« كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَاتِ الرَّقَاعِ فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى
شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَعَجَّأَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَسَيْفَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعْلَقًا بِالشَّجَرَةِ ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ لَهُ :
تَخَافُنِي ؟ فَقَالَ لَهُ لَا قَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ « اللَّهُ » رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ سَقَطَ
السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ فَآخَذَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : كُنْ خَيْرَ
آخِذٍ فَلَمَّا عَفَا عَنْهُ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ
خَيْرِ النَّاسِ :

ولقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنه قال « كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ ،
لَقَدْ فَرَزَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَتَلَقَّاهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَاجِعًا عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ وَالسَّيْفُ
فِي عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ : لَنْ تُرَاعُوا »

ومن مواقفه - صلى الله عليه وسلم - المشهورة الضحمة « وكل مواقفه
- صلى الله عليه وسلم - ضحمة » موقفه يوم حنين :

روى البخاري ومسلم وحكاها القرآن أيضًا أن أصحابه ولوا عنه

يومئذ مدبرين :

واتفق الشيخان على أنه صلى الله عليه وسلم كان راكباً بغلة
ولفظ مسلم من رواية العباس رضى الله عنه فلما التقى المسلمون
والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يركض بغلته قبيل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول
الله صلى الله عليه وسلم أكفها ألا تسرع .

ولعمر الله إن ذلك لفوق ما نعهد من شجاعة البشر ، فإن الإنسان
مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فرغته
أصحابه ، وخصوصاً إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المطهمة والفرسان
المدربة . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال
أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكأنه كان لفتهم إليه وينبههم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه
من البشر يستطيع ذلك أو قريباً منه ؟ ! ولكن لا عجب فقد امتلاً
قلبه ثقة بالله وتوكلاً عليه ، عالمًا أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء
كان وما لم يشأ لم يكن (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَافِرَ لَهُ
إِلَّا هُوَ . وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)^(١)

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تجبن أمام شهوتك عندما
يشد توقانها ، ولا أمام غضبك عندما يحتد سلطانها ويتحكم شيطانها
ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ، إِنَّ الشَّدِيدَ
الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . رواه الشيخان :

وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جمرة الغضب التي تتقد في قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصانبرها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شيء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمع به ولم تورطه في المهلكات .

وقد روى البيهقي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال « أَتَحْسِبُونَ الشُّدَّةَ فِي حَمْلِ الْحِجَارَةِ ؟ إِنَّمَا الشُّدَّةُ أَنْ يَمْتَلِيَ الرَّجُلُ غَيْظًا ثُمَّ يَغْلِبَهُ »

وانظر إن شئت إلى ما كان منه صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف فكان يقول « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »

وهذا شيء لا يكاد يصدقه العقل لولا أن النبي من طراز آخر غير ما تعرف في الناس ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الوقت الذي حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره صلى الله عليه وسلم

٦ وروى البخاري ومسلم والبيهقي في الأدب وأبو داود والقاضي عياض في الشفاء واللفظ له ، عن أنس - رضي الله عنه - قال « كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَجَبَذَهُ أَعْرَابِي بِرَدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَثْرَتْ حَاشِيَةُ الْبُرْدِ فِي صَفْحَةِ عَاتِقِهِ ثُمَّ

قَالَ يَا مُحَمَّمًا اْحْمِلْ لِي عَلَى بَعِيرِي هَذَيْنِ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ . فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ قَالَ « الْمَالُ مَالُ اللَّهِ وَأَنَا عَبْدُهُ » ثُمَّ قَالَ : وَيُقَادُ مِنْكَ يَا أَعْرَابِي بِمِثْلِ مَا فَعَلْتَ بِي ؟ قَالَ لَا قَالَ لِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ لَا تَكْفِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَحْمَلَ لَهُ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرٍ وَعَلَى الْآخِرِ تَمْرٌ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ أَيْضًا لَمْ يَعْفُ عَنْ هَذَا الْجَاهِلِ فَقَطْ ، بَلْ حَمَلَ لَهُ بَعِيرَيْنِ كَمَا طَلَبَ فَكَانَ فِي ذَلِكَ مُمْتَثِلًا قَوْلَهُ تَعَالَى (خُذِ الْعَقْوَةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^(١) وكم له من مثل ذلك - صلى الله عليه وسلم .

وقد قالت السيدة عائشة في بيان خلقه « كان خلقه القرآن » ثم قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)^(٢) إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله في هذه الكلمة لعجلى .

* * *

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ وَالْاِقْتِدَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عِزَّهُ وَكِرَمَهُ

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات من ١ - ٣

معاملتة التجار وما فيها من الربا

استفتاء موجه الى فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

لا يخفى على فضيلتكم أن المعاملات قد تطورت حتى تركزت على حالة غير التي كانت عليها في الأزمان السالفة ، فقد كان الرجل لا يقدم على شراء شيء إلا إذا حصل على ثمنه في يديه فيشتريه ويبيت مطمئناً لا يطالبه أحد أما الآن فقد استساغ الكل الأخذ بالآجال ، فلا زارع ولا تاجر ولا موظف ولا ذو مهنة ، إلا وقد أصبح مديناً ومن تساهله في الدين صار يتداين فيما لا ضرورة له ، حتى صار كل واحد يئن مما عليه وهذه حال عمت القرى والأمصار ، فلا تجد بلداً إلا وهذه حاله

وقد نشأت هذه الحالة من وجود البنوك في جميع أنحاء العالم ، وهم يمدون المصانع بالأموال لكي تتوسع في صناعتها ، ومتى توسعت اضطرت لتصريف مصنوعاتهما ومع كثرتها لا تجد مشتريين يشترونها نقداً ، فتبيعها بالآجال وهكذا تفعل مع الزراع والتجار حتى توسعوا في أعمالهم ، واضطروا هم أيضاً لترغيب الناس في شراء ما عندهم بالآجال ، فأصبح جميعهم مديناً ودائناً معا ونشأت حالة لا مناص منها وهي التعامل على قاعدة الربا وعليه صرنا في حاجة إلى فتواكم على السؤالين الآتيين

١ - هل ما يدفعه التاجر من الفوائد عند تأجيل دفع المستحق عليه

يعد معاملة بالربا ، ولو كان في حالة اضطرارية مرغمة له ؟

٢- وهل بيعه كمبيالات الدين الذى له على الناس يعد- معاملة بالرّبا ، مع العلم بأنّه يبيعه بأقل من قيمتها ، وهو إنّما يضطر إلى ذلك لأنّه هو الطريق الوحيد الذى يصونه من السقوط والإفلاس والخراب المحقق ؟

نرجوكم الجواب عن ذلك ولكم من الله الأجر والثواب «السلام عليكم ورحمة الله

عباس عوف

أحد التجار بالسكة الحدايدة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه لا يجوز تأخير الدين مع الزيادة فيه لأجل التأخير وهو ربا الجاهلية اللى عناه النبي - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع بقوله « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب »

وقد ذكروا فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(١) فى سبب نزول الآية أن الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين ما يؤدى قال له صاحب الدين : زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فربما فعلوا ذلك مرارا حتى يصير الدين أضعافا مضاعفة فنهى الله - عز وجل - عن ذلك ، ونزلت الآية

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٠

وقد نص الفقهاء على أن هذه الزيادة ممنوعة ، سواء كانت في القدر أو في الصفة :

بل نص الفقهاء على أنهما إذا اتفقا قبل انقضاء الأجل على أن يؤخره أجلا ثانيا على أن يدفع له رهنا أو حميلا ، كان ذلك في معنى الزيادة ، وكان ممنوعا ، لثلا يلزم عليه سلف جر نفعا بخلاف ما إذا اتفقا عند الأجل على أخذ الرهن أو الحميل على أن يؤخره بعد الأجل الأول ، فذلك جائز ، لأنه كابتداء سلف على رهن أو حميل

وعلى الجملة فهي لا تجوز وهي داخلة - كما نص الفقهاء - في باب أنظرني أزدك :

ومسألة بيع الكمبيالات المؤجلة بأقل مما فيها محزمة أيضا لأنها داخلة في تلك القاعدة القائلة كل سلف جر نفعاً فهو حرام وهذا قد أقرضه مائة مثلاً ليأخذها بعد سنة مائة وسبعة أو مائة وعشرة على حسب الاتفاق الذي بينهما على ما بينه السائل

وليس ما ذكره من الاضطرار والإرغام مبيح للربا ولو أبحناد لأجل ذلك لكننا كمن يداوى الأمراض الحادة بالمخدرات التي تحدث تسكيناً وقتياً ، ثم يعود الألم بعد ذلك بأشد مما كان ، مع ما يستتبع هذا العلاج من أمراض جديدة هي أخطر من المرض الأصلي

فالدواء الحقيقي لهذه الكوارث التي شرحها السائل وذكرها على طولها يكون فيها عظة وعبرة ، وإنما هو للتفكير في استئصال

هذه الأمراض من جنورها بالرجوع إلى العمل بالشريعة وتعاليمها
الحكيمة ، التي تقي كل من اتبعها من التعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة .

فلندع ذلك البذخ الفارغ وذلك الظهور الكاذب ، ولنعلم أن
الضرورى للإنسان في هذه الحياة قليل لا كثير ولكن الناس يغفلون
في هذا غاطا فاحشا ، فتشتبه عليهم الحاجيات بل الكماليات بالضروريات
ومعلوم أن الكماليات لا حد لها بخلاف الضروريات فما أقلها
وأهون أمرها

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا لماذا يحتمل
دون على نفسك فالدر دول غايته الموت وإن طال الأمل

وليت شعرى ماذا صنعوا بتلك الظواهر الخلابة مع تلك الأفكار
المضنية والمؤات الملبكية !

لاتغتررنعيمهم فجسومهم في جنة وقلوبهم في نار

وعندى أنهم لو كانوا ذوى حزم ورشد لتخلصوا من تلك الورطات
بأية طريقة ، وعملوا على تطهير أموالهم وإراحة أنفسهم من تلك
الرزايا ولو بالانصافية المؤلمة « وليتولوها طوعا قهرا أن يتولوا غيرهم
قهرا »

ولا غرو فالمرضى يرضى ببتتر أحد أعضائه ليعيش مستريحا من
ألم المرض وانتشاره في جميع الأعضاء ومدار الأمر فيما أراه على قوة
العزيمة وتوطن النفس على الرضا بالقليل ، وسلوك سبيل الاقتصاد
في كل ما يأتى ويذر

وإذا صدقت منه العزيمة في الرجوع والتوبة مما هو فيه ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(١) ولأن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، خير من أن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ينهار به في نار جهنم

وكم شقاء يتصور للناس بصورة السعادة (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(٢) وكم أناس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وما أحسن قول من قال

إني أرى الدنيا وليد فتنة رعناء قد كبرت عن الترتيب
قد جاء منطقها ونص كتابها بالزور من خلق ومن تهذيب
ألف التناحر نازلوها وانتهت من غير تأليف ولا تبويب
يزداد فيها العقل عن مقدورها والعقل يدينها من التخريب

وخلاصة القول أنه لا دواء إلا ما جاء به المشرع الشريف
غير أن المضطر له حكم آخر فيما بينه وبين الله تعالى تقتضيه
الرحمة الإلهية ، ولكن ذلك عن حد الفتوى في تحديده وبيان مقداره .
ولعل صاحبه أدرى به من كل أحد ، ولكن عليه أن يقدر الضرورة
بقدرها ، وألا يغش نفسه ، وأن يلتجئ إلى الله تمام الالتجاء متضرعا
باكيا حتى يرشده ويعينه ، ثم ينجيه من دساتس نفسه الأمانة بالسوء
فإنها أخفى من ديبب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فليكن

(٢) سورة فاطر ، الآية ٨

(١) سورة الطلاق ، الآية ٣

منها على حذر ، وليكن رجوعه دائما إلى خالق القوى والقدر ، فإليه يرجع الأمر كله (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(١) (إِنَّ أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٢)

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْلِحَ حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَنْ يُلْهِمَهُمُ الْجَوْعَ إِلَى الْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِمْ حَتَّى يَسْعُدُوا سَعَادَةً لَا شِقَاءَ يَبْعُدُهَا ، عَنْهُ وَكَرَمَهُ .

(١) سورة فاطر الآية ٢

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٧

حكم تشريح الميت في الشريعة الإسلامية^(١)

ورد إلى المجلة سؤال من سعادة رعوف باشا سكرتير الجمعية الإسلامية الهندية بـمِيلان ، ملخصه استفتاء العلماء عن تشريح الميت وقد قال فيه

هل يسمح قانون شريعتنا الإسلامية بتشريح جثماننا أم لا ؟
ثم رجا إدارة المجلة أن نجيبه على عجل وقد أجاب فضيلة الأستاذ
الشيخ الدجوى بما يأتي :

الجواب

ليس عندنا في كتب الفقه نصوص شافية في هذا الموضوع
وقد يظن ظان أن ذلك محرم لا تجيزه الشريعة التي كرمت الآدمي
وحثت على إكرامه وأمرت بعدم إيذائه . ولكن العارف بروح الشريعة
وما تتوخاه من المصالح وترى إليه من الغايات يعلم أنها توازن دائما
بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه
الحكمة ويوجبه النظر الصحيح فيجب إذاً أن يكون نظرنا بعيدا
متمشيا مع المصلحة الراجحة التي تتفق وروح الشريعة الصالحة لكل
زمان ومكان ، الكفيلة بسعادة الدنيا والاخرة : وإذًا نقول

من نظر إلى أن التشريح قد يكون ضروريا في بعض الظروف ،
كما إذا اتهم شخص بالجناية على آخر ، وقد يبرأ من التهمة عندما
يظهر التشريح أن ذلك الآخر غير مجنى عليه وقد يعجنى على رجل .

ثم يلحق بعد الجنابة عليه في بئر بقصد إخفاء الجريمة وضياع الجنابة ، إلى غير ذلك مما هو معروف فضلا عما في التشريح من تقدم العلم الذي تنتفع به الإنسانية كلها ، وينقذ كثيرا ممن أشتق على الهلكة أو أحاطت به الآلام من كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت إلى غير ذلك مما لا داعي للإطالة فيه

نقول من نظر إلى ذلك الإجمال وما يتبعه من التفصيل لم يسعه إلا أن يفتى بالجواز تقديمًا للمصلحة الراجعة على المفسدة المرجوحة ومتى كان تشريح الميت بهذا القصد لم يكن إهانة له ولا منافيا لإكرامه . على أن هذا أولى بكثير فيما نراه مما قرره الفقهاء ونصوا عليه في كتبهم من أن الميت إذا ابتلع مالا أشتق بطنه لإخراجه منه ولو كان مالا قليلا ، ويقدره بعض المالكية بنصاب السرقة أى ربع دينار أو ثلاثة دراهم وكلام الشافعية قريب من هذا وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع في تقدير المال الذي يبتلعه

فإذا قسنا ذلك المال الضئيل (على ما ذكرنا من الفوائد والمصالح) ، وجدنا الجواز بدرء تلك المفساد وتحصيل تلك المصالح أولى من الجواز لإخراج ذلك المال القليل . فهو قياس أولوى فيما نراه .

استمراره لا بد منه :

غير أننا نرى أنه لا بد من الاحتياط في ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير ، والله يتولى هدى الجميع .

ماذا يُراد بـ«ولد الصُّلب» في عبارة الواقفين

وورد إلى إدارة المجلة ما نصه

ماقول العلماء الأَخيار المالكية في : (وقف أهلي) محكوم بصحته
ولزومه من حاكم شرعى حنفي من قضاة المسلمين ، وقفه واقف مالكي
المذهب ، وشرط أن يكون النظر أولاً لنفسه مدة حياته ، ثم للأرشد
فالأرشد من أولاده لصلبه ، ثم للأرشد فالأرشد من المستحقين بالفعل
الخ فمات الواقف المذكور وخلف ولدين ذكريين وتعييننا ناظرين على
الوقف المذكور ، ثم مات أحدهما وخلف أولاداً ذكوراً وإناثاً فهل
يقوم أولاد الولد مقام أبيهم في نظارة الوقف المذكور مع ولد الواقف
المذكور ؟ وهل يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ،
ولا يمنع قول الواقف « من أولاده لصلبه » ؟ وهل قول الواقف
« من أولاده لصلبه » يشمل ولد الصلب وولد الولد معاً ، أم لا يكون
ولد الولد ولداً صلبياً مع كونه من أولاد الظهور ؟

أفتونا بنص صريح من معتمد مذهب الإمام مالك رحمه الله
وآجركم الله آمين

حسين ابراهيم فرج الحجاب

الجواب

الحمد لله و لصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

قد صرح الواقف بأن نظارة الوقف تكون للأرشد فالأرشد ، ورتب في الطبقات بشم ، فجعل النظارة بعده لأولاد الصلب أولاً ثم المستحقين من بعدهم ثانياً

وحيث يجب أن يكون مراده بأنه إذا وجد أولاد الصلب وتساواوا في الأرشدية كنت النظارة بينهم . إذا زاد أحدهم في الأرشدية اختص بالنظارة فإذا مات أحدهم وترك أولاداً كانت النظارة لأخوته من ولد الصلب ولا تنتقل لأولاده لمجرد الزيادة في الرشد .

ومن هذا يتضح أن ولد الصلب في السؤال يختص بالنظارة دون أولاد أخيه ، وأن قول الواقف « من أولاده لصلبه » يمنعهم حيث لم يكونوا من أولاد الصلب ، فإن أولاد الصلب هم من للواقف عليهم ولادة مباشرة ، وهو معنى كونهم لصلبه . وأن مجرد زيادتهم في الرشد على ولد الصلب لا تقدمهم عليه ، لأنها إنما تعتبر بين أفراد الطبقة الواحدة كما قلنا .

بيان ذلك من كتاب الفقه كما اراد السائل :

قال الخرثي في شرح قول خليل « أو على بنيه دون بناته » « وكذلك يبطل الوقف إذا وقفه على بنيه الذكور دون بناته الإناث » إلى أن قال « وكلام المؤلف في بنيه وبناته لصلبه ، فيصح وقفه بى بنيه دون بنات بنيه ، فهو لا يريد ببنيه لصلبه إلا الطبقة

الأولى من ذرية الواقف . وقال الصاوى فى الحاشية على أقرب المسالك للدردير عند قوله « وكره على بنيه دون بناته على الأصح » بعد نقل الخلاف فى المسألة ، قال « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، وأما بنو بنيه دون بنات بنيه فيصلح وقفه اتفاقاً » فقابل أولاد الصلب بأولاد الأولاد . وهذا واضح جلى .

هذا وليلاحظ أن هذا الوقف على هذه الصورة التى ذكرها السائل لايعتبر صحيحاً(على مذهب مالك) إلا إذا حكم الحاكم بصحته ، كما فى السؤال ولولا ذلك لكان باطلا على مذهب مالك لشرط الواقف النظر لنفسه :

فقد نص فى المذهب على أن الوقف(يبطل بشرط النظر للواقف) . ووجهه على ماذكروا أن فى ذلك جَوْلَانٌ يده فيه وعدم حوز الموقوف عليه أو من يقوم مقامه ، ذلك الحوز الذى هو شرط فى تمام الوقف . وقد استثنوا من ذلك صوراً ، منها أن يحكم حاكم بصحته ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو معروف .

الخلاصة

أن أولاد الصلب هم أولاد الواقف مباشرة ولا يدخل فيهم أولاد أولاده وألفاظ الواقف تحمل على العرف إلا أن يصرح الواقف بما يخالفه كما نص عليه الأمير فى حاشيته على المجموع ، والشيخ حجازى عليه أيضاً

وحينئذ فـأولاد الأولاد لا يزاحمون أولاد الواقف مباشرة في النظر ما دام واحد منهم موجودا ولا ينظر لتفوقهم في الرشد على أولاد الصلب ، إذ لاحق لهم فيه مع وجود واحد منهم كما تفيده عبارة الواقف وبها تبين جلياً أن أولاد الأولاد لا يقومون مقام أبيهم في النظر على الوقف . وأنه لا يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، وأنه لا يشمل ولد الصلب ولد الولد .

ولعل في هذا مقنعا وكفاية .

تشریح الاموات

کتبنا سابقاً رأینا فی حکم تشریح المیت ، ووازنا بین ما یترتب
علیه من المصالح والمفاسد ثم رأینا أن المصلحة أرجح من المفسدة ،
وکثیراً ما یکون فی التشریح درء مفسدة کبری مثل دفع تهمة اتهم بها
رجل من المسلمین ظلماً فأبان التشریح أن المیت غیر مجنی علیه مثلاً
إلی غیر ذلك مما هو معروف ، وقلنا أن الجواز هنا أولى مما ذکره فبما
إذا ابتلع المیت إلا حیث أجازوا شق بطنه وإخراج المال منه إذا بلغ
نصاب السرقة أو نصاب الزکاة

فجاءنا من بعض الأفاضل انتقاد علی ذلك وأنه یجر إلی توسعهم
فی أذیة المیت وإهانتة

ونقول لعضرتة ولكل من یدور هذا الخیال بخاطره أننا حذرنا
من ذلك التوسع فی آخر ما کتبناه فقلنا مستدرکین علی ماقرنناه
ووجهناه مانصه « غیر أنا نرى أنه لابد من الاحتیاط فی ذلك حتی
لایتوسع فیہ الناس بلا مبالاة فلیقتصر فیہ علی قدر الضرورة ولیتق
الله الأطباء وأولی الأمر الذین یتولون ذلك ولیعلموا أن الناقد بصیر
والمهیمن قدير »

علی أننا صرحنا بأن ذلك مبنی علی قیاسنا مسألة التشریح علی
مسألة المال الذی ابتاعه المیت فإن كان ذلك القیاس صحیحاً فلله
الحمد علی توفیقه وإن كان غیر صحیح فی نظر الفضلاء فهو مردود
علی مرتثیه ولا شیء علینا بعد أن نبین أن هذا هو رأینا الخاص

وقد احتطنا في المسألة فحذرنا من التوسع في ذلك فإن كان هناك من لا يصغي إلى انذارنا أو يخطئ في التطبيق فلا ذنب علينا وكثيراً ما أخطأ المخطون في آيات الله وسنة رسول الله

أما من لم يبالي بما يكتبه العلماء ، فهو سادر في غلوائه غير ملتفت إلا إلى آرائه وأهوائه سواءً أمانعنا أم أبحننا كتبنا أم سكتنا ، ضيقنا أم وسعنا فإنه معزل عن ذلك كله

وإننا لنكتب ما نكتب ونحن عالمون أنه لا ينتفع به إلا من ودقه الله تعالى وقد دنا في بعض ما كتبناه بهذه مانصه

« إننا نرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار وإذا رجحنا شيئاً فإننا نكتب عن رأينا أو رأى فريق من علمائنا والخير كله في التوسط والاعتدال والشرك كله في الإفراط والتفريط. » .

وبعد فنشكر لحضرة الفاضل غيرته وإخلاصه ونوافقه على أن الأطباء الآن توسعوا غاية التوسع بلا مبالاة بكرامة الميت ولا مراقبة الله تعالى .

مع أنه قدورد عن عائشة-رضي الله عنها- عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- : « أن كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه مالك وأبو داود وابن ماجه

وعن أن هريرة-رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلد خيره له

من أن يجلس على قبر » رواه مسلم وأبو داود والنسائي . وعن عمرو بن حزم قال رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - متكئاً على قبر فقال « لا تؤذ صاحب هذا القبر » رواه الإمام أحمد

وسر ذلك أن الروح تدرك ما يفعل بجسدها وتتألم له ، ولكن الشريعة بعد ذلك توازن دائماً بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح فيجب ألا نكون جامدين كما يجب أن نكون محتاطين .

والله يتولى هدى الجميع

تشریح المیت

کتبنا عن تشریح المیت وقد رأینا للشیخ العربی (بوعیاد الطنجی) رداً علينا ببعض المجلات ، نقفك اليوم على أهم ما جاء فيه ، ثم نعلق عليه بما يحق الحق ويبطل الباطل إن شاء الله ، فنقول

إن فتوانا في تشریح المیت مجملة كثيراً ، فإننا لم نعرض فيها لجزئية خاصة ولا لحادثة معينة ، ولم نطلق فيه الجواز إطلاقاً بل قيدناه بالضرورة ، وجعلناها علة الحكم الذي يدور معها وجوداً وعدمًا

وقد حذرنا في آخر كلمتنا الأطباء وأولى الأمر من التوسع في ذلك

الموضوع ، وأمرناهم أن يقتصروا على قدر الضرورة ، وقلنا لهم « إن الناقد بصير والمهيمن قدير » وهذا صريح في أننا نطالبهم بالاعتصار على مقدار الضرورة ولا نبيح لهم أن يتجاوزوها بحال من الأحوال ، خصوصاً في كلمتنا الثانية

ومن المعلوم الذى لاشك فيه أن هناك من الضرورات ما يجب أن نحكم معه بجواز تشريح الميت ، كما إذا توقفت تبرئة ساحة متهم ظلماً على تشريح الميت الذى يظهر منه أنه غير مجنى عليه مثلاً ويقول صـ حب الرد

« معلوم أن شهادة هؤلاء المشرحين غير معتبرة شرعاً ولا مقبولة في مذهب من مذاهب الإسلام حتى تثبت عدالتهم »

ونقول له أولاً إن هذا حكم قاس جداً ، فإن كثيراً من الأطباء لا يشك في صلقتهم وعدالتهم على أن ذلك من باب الأخذ بالقرائن التى يعتبرها الشرع ، كما بينه ابن القيم في (السياسة الشرعية) وصاحب معين الحكام وغيرهما من المحققين ، وستسمع شيئاً عن القرافى المالكى في ذلك

والدين لا يهمل الحقيقة متى ظهرت ، ولا يعدو الحق متى تبين وهكذا يجب أن نفهم الدين وننزل الوقائع عليه ونحن في زمان قلما نصل فيه إلى الإثبات الشرعى من طريق واحد ، فلا يجوز أن نهمل بقية الطرق التى تؤدينا إليها بل قد تجعلها لمس اليد ورأى العين

وقد طبقت العلماء كثيراً من تلك الجزئيات على ما جاء في الشريعة من قواعدها العامة وكتلياتها التى تسمع ذلك كله على ما ستسمع ، علما منهم أن الشريعة الإسلامية يمكن أن تطبق أصولها الكلية وروحها التى لا تعرف إلا الحق ولا تريد إلا جلب المصلحة ودرء المفسدة على كل

ما يعرض للناس من أحوال وأقضية بمقتضى نظرها السامى وحكمتها
البالغة

فروحها الذى هو تنزيل من حكيم حميد يبعث فى أحكامها العادلة
كل معانى الحيوية والنمو والصلاحية لكل ما يرقى العمران ، ويعود
بالخير على بنى الإنسان فى كل زمان ومكان .

فإذا أمكن أن نخلص مسلماً من المسلمين يتهم ظلماً بما هو برىء
منه بئى طريق من الطرق دون أن نحتم على أنفسنا سلوك طريقة واحدة
قد لا تصل بنا إلى الغاية المنشودة من إحقاق الحق وإقراره فى نصابه
وجب ذلك وتحتم علينا أن نخلص المسلم ونحقق دمه ما أمكن ، وأن
نحافظ على حقوقه ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .

وارتكاب أخف الضررين واجب بالاتفاق . وهى قاعدة من القواعد
التي اتفق عليها العقل والنقل .

وأرأى مسوقاً لأن أنقل لك عبارة القرافى المالكى بطولها فى « كتاب
الذخيرة » لما لها من المناسبة التامة لهذا المقام ، وما فيها من الفوائد
الجمة التى تناسب حكمة الشريعة ونظرها البعيد قال رحمه الله

واعلم أن التوسعة على الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفاً
للشرع بل تشهد له الأدلة المتقدمة ، وتشهد له أيضاً القواعد الشرعية
من وجوه

(أحدها) أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف العصر الاول
ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام بحيث لا تخرج عن الشرع بالكلية ،

لقوله - صلى الله عليه وسلم - : (لا ضرر ولا ضرار) وترك التوسعة التي تقتضيها السيرة الشرعية مؤد إلى الضرر لا محالة . ويؤكد ذلك جميع المصنوع الواردة بنفى الحرج

و (ثانيها) أن المصلحة المرسله قال بها جمع من العلماء - خصوصا المالكية - وهي المصلحة التي لم يشهد الشرع باعتبارها ولا بالغائها ويؤكد العمل بالمصالح المرسله أن الصحابة - رضى الله عنهم - عملوا أموراً كثيرة لطابق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير

وكذلك نرك الخلافة شورى بين ستة ، وتدوين الدواوين وعمل المسكة للمسلمين واتخاذ السجن وغير ذلك مما فعله عمر وغيره من الصحابة - رضى الله عنهم - ، كهدم الأبنية التي بإزاء المسجد أعى مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - والتوسعة بها في المسجد عند ضيقه ، وحرق المصاحف وجمعهم على مصحف واحد وتجديد أذان الجمعة بالسوق مما فعله عثمان . رضى الله عنه - ، وغير ذلك كثير جدا ، فعل لمطلق المصلحة

و (ثالثها) أن الشرع شدد في الشهادة أكثر من الرواية لتوهم العداوة فاشتراط العدد والحرية ووسع في كثير من العقود الضرورة كالعرايا والمدافاة والقراض وغيرها من العقود المستثناة

وضيق في الشهادة في الزنى ، فلم يقبل فيه إلا أربعة يشهدون بالزنى كالمروء في المكحلة . وقبل في القتل اثنين ، والدماء أعظم لكن المقصود الستر ولم يحوج الزوج المعلن إلى بينة غير إيمانه ولم يوجه عليه حد

القذف بخلاف سائر القذفة لشدة الحاجة للذب عن الأنساب و صون العيال والفرش عن أسباب الارتياب

وهذه المباينات والاختلافات كثيرة في الشرع لاختلاف الأحوال فلذلك ينبغي أن يراعى اختلاف الأحوال والأزمان فتكون المناسبة الواقعة في هذه القوانين السياسية مما شهدت لها القواعد بالاعتبار فلا تكون من المصالح المرسله ، بل أعلى رتبة فتلحق بالقواعد الأصلية

و (رابعها) أن كل حكم في هذه القوانين ورد دليل يخصه أو أصل يقاس عليه : إلى أن قال : وإن لم نجد في جهة إلا غير العدول أقمنا أصلحهم وأقلهم فجوراً للشهادة عليهم ويلزم مثل ذلك في القضاة وغيرهم لثلاث تضيع المصالح وتتعطل الحقوق والأحكام

» وما أظن أن أحدا يخالفه في هذا فإن التكليف مشروط بالإمكان . «

وإذا جاز نصب الشهود فسقة لأجل عموم الفساد جاز التوسع في الأحكام السياسية لأجل كثرة فساد الزمان وأهله .

وقد قال عمر بن عبد العزيز سيحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من النجور قال القرافي ولا نشك أن كثيراً من قضاة زماننا وشهودهم وولاتهم وأمنائهم لو كانوا في العصر الأول ما ولوا ولا عرج عليهم ، وولاية هؤلاء في مثل ذلك العصر فسوق ، فقد حسن

ما كان قبيحاً ، واتسع ما كان ضيقاً ، واختلقت الأحكام باختلاف الأزمان . إلى أن قال

ولذلك قال الشافعي -رضي الله عنه- : ما ضاق شيء إلا اتسع . يشير إلى هذا الموطن فكذلك إذا ضاق علينا الحال في درء المفاسد اتسع كما اتسع في تلك المواطن

و (خامسها) وهو مما يستأنس به - أن أول بدء الإنسان من زمن آدم عليه السلام كان الحال ضيقاً فأبيحت الأخت لأخيها ، وكذلك أشياء كثيرة وسع الله تعالى فيها فلما تغير الحال وكثرت الذرية حرم ذلك في بني إسرائيل ، وحرم السبب والشحوم والإبل وأمور كثيرة ، وجعل توبة أحدهم بالقتل لنفسه وإزالة النجاسة بقطعه إلى غير ذلك من التشديدات .

ثم جاء آخر الزمان وضعف الجسد وقل الجلد ، فلفظ الله بعباده ، فأحلت تلك المحرمات وقبلت التوبات فظهر بذلك أن الأحكام ، والشرائع قد راعى فيها الله تعالى وهو الحكيم العليم اختلاف الزمان وذلك من لطف الله - عز وجل - رسنته الجارية في خلقه ، وظهر أن هذه القرائن لا تخرج عن أصول القواعد وليست بدعاً عما جاء به الشرع المكرم إلى أن قال

ومن الناس من توهموا أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصالح الأمة فتعدوا حدود الله وخرجوا عن الشرع إلى أنواع من الظلم والبدع في السياسة على وجه لا يجوز وسبب ذلك الجهل

بالشريعة . وقد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن من تمسك بالكتاب
والسنة لن يضل . انتهى كلام القرافي

وهو نفيس جداً إلا أننا نحذر الناظر فيه من توسع الجهلاء ومراعاة
الأهواء ونحتم أن يكون ذلك من أهله العارفين بروح الشريعة المحتاطين
فما يقولون ويكتبون .

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي فنقول

إن من الواضح جداً قياس التشريع لإنقاذ حياة مسلم مثلاً على المال
الذي قال كثير من الفقهاء إن الميت يشق بطنه لإخراج ذلك المال الذي
ابتلعه قبل موته وقد قال الشيخ العربي في قياس تشريع الميت على
شق بطنه لإخراج مال ابتلعه على ما قرره الفقهاء (إن هذا الفرع
باطل في نفسه فكيف يلحق به ما هو أبطل منه) ؟

ونقول أولاً إن هذا ليس ردا علينا فقط ، بل هو أيضاً في معنى
الرد على جميع الفقهاء الذين قرروا هذا الفرع - الباطل في زعمه - . ولم
يقتصر الشيخ العربي على إبطال هذا الفرع الذي قرره الفقهاء وهو
شق بطن الميت لإخراج مال ابتلعه ، بل أنكروا أن يكون مروياً عن
الأئمة والعلماء حيث يقول « إذ معاذ الله أن يصدر من الأئمة
المجتهدين والعلماء العاملين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى
وتعظيم حرمانه القول بإباحة هتك حرمة الميت المسلم التي أمر الشارع
بحفظها ، وجواز بقر بطنه من أجل مال مقدر بنباب السرقة
لا يسمن ولا يغني من جوع الخ » .

فأنت ترى الشيخ العربي يتوصل لإبطال القياس بأن ما قرره الفقهاء من جواز شق بطن الميت إذا ابتلع مالا باطل في نفسه ، وأن الأئمة المجتهدين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى لم يصدر عنهم القول بهذا الفرع

وسيمر بك من النصوص ورواية هذا الفرع عن أئمة المذاهب الأربعة ما تحكمم معه على الشيخ العربي بأنه يرى أن أولئك الأئمة القائلين بهذا الفرع غير موصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى

وهذا الحكم عظيم صدوره من أمثال الشيخ العربي ولا أدري كيف ينكره هذا الإنكار القاطع مع أنه منصوص في كتب الفقه وثابت عن الأئمة الأربعة وإن اختلفت فيه الأنظار وتنوعت فيه العبارات على أنه اعترف به بعد ذلك كما يعلم من مراجعة كلامه

ولا أدري كيف لم يلتفت إلى هذا التناقض الواضح مما يدل على أنه كان يكتب بالعاطفة لا بالتحري « ولهذا أوصانا بالغباء كأننا لم نكتب ما كتبناه إلا بقصد الإضرار بهم »

هذا ومسألة المال الذي ابتلعه وشق بطنه من أجله تكلم فيها العلماء الفحول في كل المذاهب كما قلنا

ولنسق لمقارئ الكريم بعض تلك الأقوال ، ولنبدأ منها بكلام المالكية في أشهر كتبهم التي بين أيدينا فضلا عن غيرها . وستقضى العجب العجاب عندما ترى تلك النصوص التي جهلها الشيخ العربي

وهو من أفاضل علماء المالكية ، والنصوص في أقرب الكتب وأشهرها فسبحان من يتصرف فيمن يشاء كما يشاء وهذه هي النصوص

قال خليل « وبقر عن مال كثر ولو بشاهد ويمين »

قال الخرشى في شرحه « البقر عبارة عن شق جوف الميت يعنى أن من ابتلع مالا له أو لغيره ثم مات فإنه يشق جوفه فيخرج منه إن كان له قدر وبال بأن يكون نصاباً وهل نصاب الزكاة أو السرقة؟ قولان وقال ابن حبيب بعدم البقر قال في التوضيح قال شيخنا: يُنبغى أن يكون الخلاف إذا ابتلعه لقصد صحيح كخوف عليه أو لداواة ، وأما إن قصد قصداً مذموماً كحرمان وارثه فلا ينبغى أن يختلف في وجوب البقر لأنه كالغاصب وقيد ابن بشير بما إذا كان للميت مال يؤدي منه وإلا فلا ينبغى أن يختلف في استخراجه ولا فرق بين أن يثبت الابتلاع ببينة أو بشاهد ، ويحلف المدعى لذلك معه وإليه أشار بقوله : « ولو بشاهد ويمين »

وقال في الشرح الكبير للدردير على عبارة خليل السابقة « وبقر » :

أى شق بطن ميت « عن مال » له أو لغيره ابتلعه حيا « كثر » بأن كان نصاباً « ولو » ثبت « بشاهد ويمين » ومحل التقييد بالكثير إذا ابتلعه لخوف عليه أو لداواة أما لقصد حرمان لوارث فيبقر ولو

قل أه

وقال الأمير في المجموع وشرحه : « وشق بطنه » أى الميت « عن كثير » نصاب زكاة « ولو بشاهد ويمين »

وقال الشيخ حجازى فى حاشيته عليه عند قوله « نصاب الزكاة » ظاهره أنه لا يبقر عن الأقل ولو كدينار مثلا ، مع أن له بالأى ولو قيل يبقر عما له بال كان أولى واستظهر الشيخ الأمير فى حاشيته إحالة ذلك على العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال

ولو شئنا لنقلنا لك كثيرا من نصوص المالكية فلنقتصر على هذا ولننقل لك نصوص المذاهب الأخرى حتى تعلم أن المسألة معروفة مشهورة لدى أرباب المذاهب الأربعة فنقول

قال ابن قدامة الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٠ فى « شرح المغنى » عند شق بطن الأم الميتة لإخراج الجنين منها : « ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا وهو مذهب الشافعى لأنه اتلاف جزء من الميت لإبقاء حى فجاز كما لو خرج بعضه حيا ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ولأنه يشق لإخراج المال منه فلا يبقاء الحى أولى » فأنت ترى أنه فى التعليل قاس مسألة الشق لإخراج الجنين على مسألة اشق لإخراج المال قياسا أولويا كما قلنا إلى أن قال ابن قدامة فى مسألة المال

« ويحتمل أنه إن كان يسيرا ترك وإن كثرت قيمته شق بطنه وأخرج لأن فيه حفظ المال عن الضياع ونفع الورثة الذين تعلق حقهم بماله بمرضه » ومن جملة ما ذكره احتمالا أنه يشق إن كان

كثيرا للغير لأن فيه دفع الضرر عن المالك يرد ماله إليه وعن الميت
بابراء ذمته وعن الورثة بحفظ الشركة لهم

ولننقل لك عبارته في فصل عقده في بيان ما إذا كان الميت في
بئر فيه بخار خانق بأن انعدم الأوكسجين الذي هو عنصر الهواء
الصالح للتنفس « ج ٢ ص ٤٠٧ » لما فيها من زيادة الفائدة وبيان
أنظار العلماء في أمثال تلك المسائل

« وإذا شك في زوال بخاره « يريد البئر » أنزل إليه سراج
أو نحوه فإن انطمأ فالبخار باق وإن لم ينطق فقد زال فإن النار
لا تبقى إلا فيما يعيش فيه الحيوان وإن لم يمكن إخراجه إلا بمثلة ولم
يكن إلى البشراحة طمت عليه فكانت قبره وإن كان طمها يضر بالماردة
أخرج بالكلايب سواء أفضى إلى المثلة أو لم يفض لأن فيه جمعا
بين حقوق كثيرة نفع المارة ، وغسل الميت وربما كانت المثلة
في بقائه أعظم لأنه يتقطع وينتن فإن نزل على البئر قوم فاحتاجوا إلى
الماء وخافوا على أنفسهم فلهم إخراجه وجها واحدا وإن حصلت مثلة
لأن ذلك أسهل من تلف نفوس الأحياء ولهذا لو لم يجد من السترة إلا
كفن الميت واضطر الحى إليه قدم الحى ، ولأن حرمة الحى وحفظ
نفسه أولى من حفظ الميت عن المثلة ، لأن زوال الدنيا أهون على الله
من قتل مسلم ولأن الميت لو بلع مال غيره شق بطنه لحفظ مال
الحى وحفظ النفس أولى من حفظ المال اه

هذا كلام ابن قدامة وفيه من الفقه والعلم ما تفهم معه أن الفقهاء

راعوا حرمة الميت عملا بالنصوص ما لم تتعارض مع مصالح حقيقية

للحى كالإبقاء على نفسه أو ماله ولم يقفوا جامدين عند ظاهر
النصوص التى تأمر بإكرام الميت وعدم إهانته دون أن ينظروا إلى
إلى ما يعارضها من أدلة الشرع الأخرى

وقال فى « المهذب » وهو من أعظم كتب الشافعية « وإن ابتلع
الميت جوهرة لغيره وطالب بها صاحبها شق جوفه وردت إليه وإن
كانت الجوهرة له ففيه وجهان أحدهما يشق لأنها صارت للورثة
فهن كجوهرة الأجنبي والثانى لا يجب لأنه استهلكها فى حياته
فلم يتعلق بها حق الورثة »

قال شارحه النووى فى المجموع : « أما إذا بلع جوهرة لغيره أو
غيرها ففيه طريقتان ، الصحيح منهما وبه قطع المصنف والأصحاب
فى معظم الطرق أنه إذا كان طلبها صاحبها شق جوفه وردت إلى صاحبها
والطريق الثانى فيه وجهان ممن حكاه المتولى والبغوى والشاشى أصحابهما
هذا والمشهور للأصحاب إطلاق الشق من غير تفصيل أما إذا
بلع جوهرة لنفسه فوجهان مشهوران ، ذكر المصنف دليلهما بل من
بين الأصح منهما مع شهرتهما فصحح الجرجانى فى الشافى والعبدى
فى الكفاية اشق »

وقال أبو حنيفة وسحنون المالكى يشق مطلقا إلى غير ذلك
وهو كثير

فمسألة كهذه كثر فيها الخلاف لكونها محل اجتهاد لا ينبغي
التنازع فيها ولا كثرة الجدل ولكل رأيه ووجهة نظره مع تأكدها
حسن النية من فضيلة الأستاذ الشيخ العربى .

أما قوله إن هذا قياس في محل النص مستندا إلى الأحاديث التي تنهى عن إيذاء الميت فهو عجيب لأن ذلك لو خالف النص لم يكن لهذا الفرع وجود في كتب الفقهاء فإن شق البطن إهانة للميت وهو مصادم لهذه النصوص على فهم الشيخ العربي والحقيقة أن الأحاديث التي نهت عن إهانة الميت ليست نصا فيما يريد ولاهى واردة في محل النزاع فإن موردها فعل ذلك استهانة بالميت كما يفيد سبب ورود الحديث وهو أن حفاراً أخرج عظما « ساق أو عضد » فذهب ليكسره فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : « لا تكسرهما فإن كسرك إياه ميتا كسرك إياه حيا ولكن دسه في جانب القبر »

أما محل النزاع فهو ما تتعارض فيه المصلحة والمفسدة ثم تكون المصلحة فيه أرجح من المفسدة وقد عرف العلماء ذلك فقالوا ما قالوا في ممالة الجنين الذي في بطن الميت وممالة المال الذي ابتلعه الميت ولم يروا في ذلك مخالفة لهذه الأحاديث التي ظنها حضرته نصوصاً في الموضوع وما هي منه في قليل ولا كثير

أما تقدم علم الطب بالتشريح فلم نجعلها أساسا لذلك ولكن ذكرناها على سبيل العلاوة والتكميل كما يعرف من مراجعة كلامنا

هذا ودعوى أن تشريح الحيوان مثل تشريح الإنسان كما قال بعض الكتابيين دعوى لا يقرها العلم كما هو معروف وأبطل منها دعوى أن علم التشريح قد وصل إلى غايته حتى أصبح وليس فيه زيادة المستزيد، دعوى يضحك منها الباحثون والمكتشفون وناهيك ما يقررونه الآن في الغدد وآثارها العجيبة مما لم يحلم به الأولون

ولنذكر لك ما جاء في بعض أعداد مجلة الهلال إجابة لطلب بعض قراء المجلة الذين ألحوا علينا أن نتوسع في ذلك الموضوع الذي يهمهم كثيراً. « ولعل الشيخ العربي يقول إن صاحب الهلال مسيحي ينقل عن المسيحيين ثم يقوم فيرد علينا بذلك » ولندع هذا وما يشبهه هذا وننقل لك ما جاء في تلك المجلة قال ما خلاصته

« إن في الإنسان ما يشبه الأزرار الكهربائية ، إذا ضغطت أثرت في جسمه نمواً وسمكا وقصراً وطولاً وانتقالاً من طور إلى طور وهلم جرا وهذه لأزرار هي الغدة المنقطعة^(١) أي التي تفرز سوائلها بدون قنوات فالسائل يخرج مباشرة إلى الدم لا تحمله إلى الأعضاء قنوات خاصة فالكبد مثلاً غدة كبيرة بل هي أكبر غدة في جسم الإنسان ولكنها ليست منقطعة إذ هي تفرز الصفراء في الأمعاء بواسطة المرارة فالمرارة قناة تحمل الصفراء من الكبد إلى الأمعاء ولكن الغدة الدرقية التي تقع في أسفل الحنجرة تفرز سائلها في الدم مباشرة فهي لذلك غدة منقطعة ».

إلى أن قال « إننا نرى في الإنسان بعد أن يعدو طور الجنين أن تشبیه الغدة بالأزرار الكهربائية ليس من المبالغات فبعض الأطفال مثلاً تمرض فيهم الغدة الدرقية فيبقون أطفالاً من حيث الدهن ونمو الجسم مدى حياتهم ولا يمكن أن يبلغوا سن الرجولة العقلية والجسمية ما لم يغذ دمهم بالغدة الدرقية المستخرجة من الفرس ».

إلى أن قال : « فنحن الآن في البيولوجية كما كنا في الكيمياء قبل

مائتي سنة فإذا دخلنا في دور التجارب فإننا سنرى العجائب من العدد»

إلى أن قال

«ولسنا ندرى الآن على وجه التحقيق ما هي تلك العدد التي تجعل الأوربي حديد المزاج قوى الطبع في حين أن الصيني خامل الذهن عديم النشاط؟»

إلى أن قال :

الخلاصة

أنه انفتح للغدد ميدان وهو كنز واسع لايزال يعد بكرة أو كالبكر في أيدينا مفاتيحه ولكننا لم نتمرن بعد على فتح مغاليقه بها .
ومن ذا يستطيع أن يقول إن العلم له غاية؟ ويعجبي قول بعضهم :
إن الغاية اسم بلا مسمى وما يتراءى من وجودها فإنما هو بحسب العقل البشري والخيال الإنساني

وهكذا يجب أن تكون سعة الربوبية وتصرفاتها وآثار قدرتها التي لانهاية لها ، والتي يرينا العلم كل يوم من آياتها العجائب والغرائب ، خصوصاً في الإنسان الذي لانتهى عجائبه : (فِي أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) ^(١) (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(٢) (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ^(٣) (وَمَا عُرِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(٤)

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢١

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(١) سورة الانفطار ، الآية ٨

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

فكيف يدعى مدع بعد ذلك كله أن تركيب الإنسان مثل تركيب الحيوان أو أن علم التشريح بلغ غايته ، والغاية مفقودة المسمى في هذا العالم ؟

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجنبنا الإفراط والتفريط في القول والعمل بمنه وكرمه

رؤية الهلال عند الغروب وبعد الفجر

رفع إلى بعض التونسيين الأزهريين سؤالاً يقول فيه

ماحكم الله إذا شهد شاهدان عند القاضي بأنهما رأيا هلال شوال
عند غروب التاسع والعشرين من شهر رمضان ، فحكم القاضي
بانتهاء شهر الصوم ، ولكن رآه آخرون بعد الفجر من تلك الليلة
فصاموا ولم يفطروا معتقدين أن الشهر ثلاثون لاتسعة وعشرون ؟
ابو القاسم التونسي الأزهرى

الجواب

جاءنا هذا السؤال منذ زمان وجاءنا اليوم أسؤال بمعناه من بعض
مدرسى المدارس ، وقد طلب منا التوسع في الجواب ونشره بمجلة الأزهر.

فنقول وبالله التوفيق غير معولين على ظواهر المنقولات ولا يفيد
كثير من العبارات ، وإنما نكتب ما عمل به علينا روح الشريعة السامى
ونظرها البعيد

ومن المعلوم أن الإسلام يُسرّ سَمَحاً يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس
شظطاً . فهو يسع الناس جميعاً على اختلاف أنظارتهم وتباين آرائهم
وتنوع اجتهادهم ، علماً منه بان الله لم يخلق الناس على استعداد
واحد بل بينهم من التفاوت في الاستعداد والتخالف في

التكوين والتباين في الدرجات والاختلاف في الآراء والأنظار ما لا يعلمه
إلا الله تعالى

ولم يتفق في أفراد نوع من الأنواع من التفاوت مثل ما اتفق
بين أفراد نوع الإنسان والشارع الحكيم-عز وجل-يعلم ذلك كله من
خلقه « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١) والله يريد أن
تكون هداية لإسلام عامة ورايته شاملة لكل من فيه مثقال ذرة من
خير وقد عرفنا أنه لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب
وقد جعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب فلم يكتف
برفع الإثم عن المخطيء ، بل جعل له أجراً

ولهذا لم يتل صلى الله عليه وسلم شيئاً من صلى العصر في الطريق
ولا لمن أخرج الصلاة إلى بني قريظة. ولم يَدُم على إمام السرية الذي كان
يقرأ سورة الإخلاص دائماً ولا قال له إن الصبح يطلب فيها التطويل وأن
الظهر تليها. إلى آخر ما قرره الفقهاء ، بل قيل أخبرود أن الله يحبه
كما في الحديث الصحيح ، إلى آخر ما هو كثير ومعروف من السنة
النبوية والملة المحمدية

وكأنه - صلى الله عليه وسلم - لا يريد منا إلا عدم الخروج على
الله ورسوله ، ولا يكلفنا إلا أن نخلص النيات لله تعالى ونأتي الله بقلب
سليم. فالدين الإسلامي لا يتعمق تعمق الجاهلين ولا يتصلب تصلب الجامدين
ولا يحب نضال المتعصبين ولا تشدق المتفهمين ولا تنازع الشرثارين

وما كان شئٌ أبغض إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الفرقة والانقسام

وكان المقصود الأسمى من بعثته - صلى الله عليه وسلم - إنما هو الوثام وإيجاد الألفة والمحبة بين المؤمنين وعدم التفرق فيما بينهم
«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا» .

وقد شرع لذلك وسائل كثيرة حتى جعل المصافحة مكفرة للذنوب وأمر بإفشاء السلام وندب إلى التهادى ولم يبالغ في شئٍ ما بالغ في حرمة المسلم كما هو معروف حتى جعله أعظم حرمة من الكعبة كما في حديث ابن ماجه وغيره. ولولا تلك الأنظار السامية وذلك التسامح البالغ والرفق المتناهى ، لم يكن الإسلام دين الأمم كلها ولم يصلح لإلحاق جامدين وطائفة مخصوصين :

اعتبار الإسلام للحقائق :

ولكنه مع هذا كله لا يعتبر إلا الحقائق متى ظهرت ولا يعدل عن الواقع متى تبين ، فهو دين الحق والعلم كما أنه دين الرحمة والحكمة فمتى عرفنا الحقيقة بنأى وسيلة من الوسائل لم نعدل عنها. ومتى قام البرهان على شئٍ من الأشياء وجب التصير إليه والتعويل عليه فهو أكبر أنصار العلم وأعظم دعاة الحقيقة ولكنه لا يحب التنطع الممقوت ولا الفلسفة الحمقاء

الخلاصة

أن الدين لإسلامي لا يعدل عما يوجبه الدليل وتقوم عليه الحجة فهو دين البردان ودين البيان ودين الحقائق والدقائق ودين العامة والخاصة بأساليب وأسرار تبهر العقلاء وتدهش العلماء

فإذا تميز هذا علمنا أن القاضى الذى يحكم على مقتضى بينة المساء لاشئ^١ عليه بعد أن يعتقد أنهم صادقون فيما شهدوا به فإن كانوا كاذبين فى اواقف متعمدين لذلك فعليهم ما يستحقون من جزاء الكاذبين المضامين وليس على من اتبع حكم القاضى فى ذلك شئ متى انقده فى ذهنه صدق الشهود ولم يقم عنده برهان على كذبهم.

وكذلك نتول من رأى القمر بعد الفجر لا شئ عليه ما دام يعتقد أن الشهر باق وأن اليوم من رمضان وكذلك يجب الصوم على من صدقه واعتقد أن البينة الأخرى كاذبة عمداً أو خطأً

ولا يمكننا أن نفتى بأن أحدا يخالف اعتقاده فى هذا وإن كان عليه أن يبحث عما هو الواقع فى نفس الأمر بقدر ما يستطيع . وكيف نلزمه بالفطر وهو يعتقد أن اليوم من رمضان أو نوجب عليه الصوم وهو يعتقد أنه يوم عيد؟ ولا يسعنا أن نقرر إلا أن كلا يتبع ما يعتقد ولا يعدل عنه وأنه إذا خالفه كان منتهكا لحرمة الدين فيما يعتقد به ولم يكلفنا الله بإصابة الواقع وإنما كلفنا بالعمل باعتقادنا وقد اعتبرنا

ما يقرره الفلكيون في حساب الأوقات وأمر القبلة وغير ذلك وقلنا
في كتبنا الفقهية

قطب السما اجعل حذو أذن يسرى بمصر والعراق حذو الأخرى
إلى غير ذلك وقد أكثر الله من ذكر الشمس والقمر وسيرهما
المنتظم فقال: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) ^(١) (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ) ^(٢)
(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) ^(٣)

ومعرفة علم الفلك من فروض الكفاية على حد محدود ، فلم تهمل
الشرعية ذلك بالكلية وسر ذلك أن عندنا أشياء يمكننا الوصول
إليها وأشياء ليست كذلك فما كان من قبيل المغيبات والحوادث
المستقبلات فلا نخوض فيه لثلا نتمتع في الغلط والجهل وننقاد بغريزة أ
الوهم والخيال إلى مهامه لا نحسن السير فيها ولا الوقوف على خوافيها
وإن صح أن نقول ذلك كله من قبيل الأسباب والمسببات ، ولكن
لَمَّا أَلَّهَ بعض النامس الكواكب نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن
الخوض في النجوم خوفاً من الوقوف معها والانقطاع إليها

فهنا ما نهينا عنه حرصاً على أوقاتنا وضمنا بعقولنا عن المزايق التي
لا علم فيها ولا ضرورة إليها أما ما يكون من قبيل الحسيات التي

(١) سورة الرحمن ، الآية ٥

(٢) سورة يس . الآية ٣٩

(٣) سورة يونس الآية ٥

عرفنا من مشاهدتها المتكررة أنها من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير فهذه لا بد منها ولا يمكننا العدول عنها . فإن الحقيقة لا يصح في نظر الدين الصحيح إغفالها ولا القول بما ينافيها وإلا كنا قائلين بأن الدين يعادى العلم وهو ما تتحاشى عنه ونبرئ الدين منه فإن كان هناك دين يعادى العلم فليس هو الإسلام الذي حث على الفكر ، ودعا إلى النظر في مكنوت السموات والأرض .

وبعد فيجوز غلط الشهود في الرؤية ويجوز تعمدهم للكذب وكثير من الناس يتخيل ثم يخال ، فعلى القاضي أن يتحرى غاية التحرى ويتيقظ لأمثال هذه الدقائق حتى يؤدي ما يجب لنفسه وللمسلمين

غير أن لنا كلمة مع شهود الفجر ، وقد قال المدافعون عنهم إنه لا تمكن رؤية القمر بعد الغروب وبعد الفجر من تلك الليلة وهو ما نخاله صحيحا ولكن نقول كيف رأوه بعد الفجر ليلة ثلاثين والمحاق لا بد منه باعترافهم ؟ وإذا كان هذا الفريق يرى أنه لا بد من المحاق فكيف يسلم رؤية القمر بعد الفجر يوم الثلاثين ؟ وهل لا يجد في ذلك تنافيا بينه وبين المحاق الذي أوجبه ؟

يجب أن يحزر هذا المقام تحريرا يثلج الصدر وتطمئن إليه النفس وقد تكلمت مع بعض الفلكيين عندنا بمصر فقال إنه لا يمكن أحد أن يرى الهلال بعد الفجر بالعين المجردة في ليلة ثلاثين ، فليحزر ذلك من هو أقدر مني على تحريره والدين النصيحة

وليس قصدي أن أحقق المسألة الفلكية عند أربابها ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن الحقيقة متى تبينت ولو على يد كافروجب اتباعها فى الدين الإسلامى ولا يصح غير هذا ومن المحتمل أن يكون المرئى نجما من النجوم ظنوه قمرا أو عرض لهم الخطأ فى ذلك بأى سبب من الأسباب الكثيرة .

وبعد ذلك فلمت أدرى بماذا ترجح إحدى الشهادتين على الأخرى واحتمال الصدق والكذب قائم فى كل منهما ، فعلام هذا النزاع وهذه الموضوعاء ؟ فأرجو أن يتحرى الفريقان الإنصاف ويدعوا التعسف فيما بينهم ولا يتنازعا ويفشلرا وتذهب ريحهم وهى كلمة ساقى إليها حب الوثام وبغض الانقسام

وكل ما أخشاه هو أن يقول المتحذلقون أو الملحدون ؛ إن الدين يعادى العلم وهى التهمة التى تلقفها بعض الشبان الأغرار من المسلمين عن ملحدى الأوربيين وذلك إن صح فهو فى دين غير دين الإسلام كما قلنا. ولا يبعد أن يقوم بعض الناس فيعارضنا ببعض الظواهر من كلام الفقهاء ، غير راجع إلى ذوق الشريعة وما ترمى إليه من أسرار سامية وأنظار بعيدة وما يجب لها من الصون عن تعريضها لقالة الجامدين أو طعن المنحدين . (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)^(١)

ولسنا نتكلم إلا بما نعرفه من روح الشريعة الحكيمة المطهرة ولعل الله يهتدى به كثيرا من عباده المنصفين المخلصين

ذكرنا أن الإسلام يسر سمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا وغاياته التي يرمى إليها من قرب أو بعد هي إصلاح القلوب وغرس مراقبة الله فيها وأبغض الأشياء إليه هو الفرقة والانقسام ، ولذلك وسع الذس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آراهم وتنوع اجتهادهم ، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد بل بينهم من التفاوت في الاستعداد والتخالف في التكوين والتباين في الدرجات والاختلاف في الآراء ولأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى

ونصحنا بها للمفطرين الذين عملوا بحكم القاضى الذى شهد أمامه شهود المساء بروية هلال شوال وللصائمين الذين يقولون إنهم رأوا الهلال صباحاً . اعتقدوا أن اليوم من رمضان .

نصحنا لهم جميعا ألا يتنازعا ويفشلوا وتذهب ريحهم ، وقلنا إن كلا يعمل على اعتقاده وما أداه إليه اجتهاده ونصحنا للقاضى أن يتحرى ويحتاد فإن عليه تبعة كبرى إذا تهاون في ذلك وعلى التضاة أن يعرفوا أحوال الناس وأن يكون لهم فراسة صادقة وبصيرة نافذة بحيث لا يخفى عليهم أحوال المجتمع الذى هم فيه فليدققوا في أمر الشهود وليعلموا أن الأمر جليل والخطب كبير والناقد بصير

وقد أذكرنى ذلك قول بعض المفسرين فى قوله تعالى : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)^(١) إنما نهاه الله عن اتباع الهوى بعد أن أمره أن يحكم بالحق لأن الحكم

بالحق لا يخرججه عن المسؤولية إلا إذا حكم بالحق لأجل كونه حقاً ،
فإذا حكم به لأجل كونه موافقاً لهواه لا كونه حقاً ، لم يكن من قضاة
الحق بل من قضاة الهوى عليه السلام

ولنذكر لك بعد ذلك الخلاصة التي يجب التعويل عليها في رأينا
ثم نعقبها بكلام بعض العلماء فنقول

الخلاصة

الرأى الذى نرتبته أنه لا يمكننى بحال من الأحوال أن أقول إنه
يصح للإنسان أن يقدم على أمر وهو يعتقد حرمة أو أن يخالفه
وهو يعتقد وجوبه ولا أن أقول إن الدين يخالف حقيقة علمية قرررها
العلم وقام عليها البرهان ولا يصح أن نعرض الدين لهزء الهازئين
وسخرية الساخرين فى عصر لا داعى للإطّباب فى شرحه وبيان ما فيه

ولا نزال نكرر أن الله لم يكلفنا بالواقع (لا يكلف الله نفساً إلا
وُسْعَهَا)^(١) وقد قرروا أن المجتهد يجب اتباع ظنه ولا يجوز
مخالفته وذكر الفقهاء أن من رأى طيراً فحلف بالطلاق وأنه غراب
مثلاً فنظر إليه آخر فحلف بالطلاق أنه حدة ثم لم يتبين أمر ذلك
لم يحكم بوقوع الطلاق على واحد منهما حيث لم يحلف إلا عن إعتقاد
لم يتبين خلافه

ولو سافر اثنان واشتبهت عليهما جهة القبلة وتخالفا فى أمرها
لوجب على كل الأخذ بما أدى إليه اجتهاده ورأيه وتحريره ولا يجوز

لأحدهما أن ينكر على صاحبه ، فإن هذا هو الواجب في حق كل منهما ولا لود على من فعل ما وجب عليه فإن مبنى الدين على إظهار العبودية والامتثال لأوامر الربوبية وماذا نريد من التسامح بعد ما قال كثير من العلماء إن الحق يتعدد ؟ فإن الواجب في حق كل مجتهد ما أداء إليه اجتهاده

وسره ما بيناه في التمهيد من أن الله يعلم ضعف البشر فلم يكلفهم بإصابة الواقع وإنما كلفهم أن يحترموا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، ولا يخرجوا عليه ولا على رسوله فيما يعتقدون .

أما من كان بعيداً عن تلك المباحث ولم يقع في نفسه صدق إحدى الفرقتين وكذب الأخرى من أولئك الرائيين فعليه أن يتبع حكم الحاكم ويكون مع السواد الأعظم

ولا يفتوتا أن نقول : إن الشافعية يرون أن الحاسب يعمل بمقتضى حسابه في حق نفسه وكذلك من قلده مصداقاً له في حسابه معتقداً أنه الواقع ولقد أرى أن التقليد في مثل هذا إذا أمكن أن يرفع به الخلاف يحصل به الوفاق أولى من الفرقة والانقسام والتنازع بالألقاب

ولا أزال أكرر أن الله لا يبغض شيئاً مثل الشقاق والانقسام ولا يحب شيئاً مثل الألفة والوئام وقد كانت وجوه الخلاف على عهد السلف الصالح لا تكاد تحصر ولم يكن بينهم تباغض ولا تشاتم فكانوا ورثة الأنبياء حقاً ، يحب بعضهم بعضاً ويشئ بعضهم على بعض

وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ
فأبى علماً منه - رضى الله عنه - أن الأمر في الفروع هين وأن الظن فيه
كاف وأن المخطئ فيه مأجور وأنه يجوز أن يكون الصواب مع غيره
لا معه وهذا هو شأن أئمة الهدى ، العارفين بأنفسهم وطبعها العالمين
بسماحة الشريعة وسعتها

هذا ما أملاه علىّ وارد الوقت بدون مراجعة ولا تعمق ولا أزال
أكرر أنى أحب من القضاة أن يتحروا غاية التحرى فإننا في زمان كثير
فيه الزور وطم فيه الفجور

وبعد كتابة ما تقدم رأيت في المسألة نصّاً صريحاً لابن عابدين
الحنفى في حاشيته على «الدار المختار» وكذلك لمولانا الشيخ محمد
عليش في فتاويه ، فرأيت من النصيحة للدين أن أنقل للقراء - وإن
خالف ما تقدم لنا

وإليك ما قال ابن عابدين «أما إذا رئى يوم التاسع والعشرين
قبل الشمس ثم رنى ليلة الثلاثين بعد الغروب وشهدت بينة
شرعية بذلك فإن الحاكم يحكم بروؤية الهلال ليلا كما هو نص الحديث
ولا يلتفت إلى قول المنجمين إنه لا تمكن رؤيته صباحاً ثم مساء في
يوم واحد . وكذا لو ثبتت رؤيته ليلاً ثم زعم زاعم أنه رآه صبيحتها
فإن القاضى لا يلتفت إلى كلامه »

وفي فتاوى مولانا الشيخ محمد عليش ما يتفق هو وما ذكره
العلامة ابن عابدين في النتيجة وطرح كلام المنجمين

وبعض العلماء يحتج بقوله عليه السلام «نحن أمة أمية» الخ
ويمكننا أن نجعل الحديث حجة لنا فإنه يشير إلى أننا إذا أصبحنا
غير أميين تعير الحكم ووجب أن نعمل بما يقتضيه العلم
ولكني بعد هذا كله مصمم على ما قلته أولاً من أن الدين الإسلامي
لا يخالف حقيقة عملية متفقا عليها متى تبينت فليكن البحث والتحرى
عن تلك المقررات التي أجمعوا عليها مدى العصور والدهور

ومسألتنا مسألة محسوسات ومشاهدات لا مسألة تنجيم وتخمين
فإن ادعى مدع أن المشاهدات على غير هذا فعليه البيان والدين
الإسلامي لا يندقض الحقائق على كل حال متى تبينت. وهؤلاء العلماء
مع إجلالي البالغ لهم ، أقول إنهم ليسوا متخصصين في علم النجوم
وقد قال تعالى: (فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ^(١) مع
ملاحظة ما تقدم لنا من أن هناك أموراً ظنية أو تخمينية لا يجوز
الأخذ بها ولا التعويل عليها وأموراً قطعية لا شك فيها لا يجوز إهمالها
ولا العدول عا.

وعدم رؤية الهلال في الصباح والمساءً آخر الشهر مما أجمعوا عليه
ولا تنس ما قدمنا لك من أن كل إنسان في الفروع يعمل بما وصل
إليه بحثه وانطوى عليه اعتقاده ، فلا يصح له مثلاً أن يفطر وهو
يعتقد وجوب الصوم ولا أن يصوم وهو يعتقد وجوب الفطر ومن
لم يتكون له اعتماد فعليه باتباع السواد الأعظم وما قضى به القاضى
إلى آخر ما أسلفناه

فالدين الإسلامى يسع ذلك كله ، وليس يريد من الناس إلا أن
يحترموا أوامر الله فيما يعتقدون ولا يخرجوا عليها ولا يمكننى أن
أحيد عن ذلك وليختر كل ما شاء

ولا أزال أكرر أنه لا بد أن نفرق بين ما هو قطعى عند علماء
النجوم وما هو ظنى أو تخمينى ، غير أنى أرجوهم ألا يتنازعا ذلك
التنازع الذى يكرهه الله ورسوله

والله يتولى هداانا جميعا بمنه وكرمه

أسرار الصَّلَاة^(١) ذكر المقصود منها

إن الله لم يشرع جميع العبادات ولم يكلفك بامثال الأوامر واجتناب النواهي إلا رحمة بك وامتنانا عليك بما يفتح لك به أبواب السعادة ويغلق عنك أبواب الشقاوة

وبعد هذا التمهيد العام نشرع في بيان مقاصد الصلاة خاصة

فنتقول

إنك تعلم أن الصلاة تشتمل على ضروب كثيرة من عبادة الله تعالى وتعظيمه فهي مشتملة على قراءة القرآن وعلى الذكر والتسبيح والخشوع والخضوع والثناء والدعاء والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى غير ذلك ، وكل واحدة من هذه عبادة برأسها ولذلك كانت قرة عينه - صلى الله عليه وسلم - في الصلاة وكان يقول «أرحنا بها يا بلال» وإذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة ، ويقول الله تعالى : (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)^(٢)

ولا غرو فالصلاة صلة بين العبد ورببه وهي معراج الحضرة وبها المناجاة التي تظهر القلوب وترتفع بها إلى علام الغيوب وقد ورد أن الصلاة عماد الدين وفي القرآن الشريف (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)^(٣) فالصلاة

(١) مجلة الإسلام - السنة الرابعة - العدد الخامس والأربعون - الصفحة ١٥ -

سنة ١٣٥٤

(٢) سورة المعارج ، الآيات ١٩ - ٢٢

(٣) سورة القرة ، الآية ٤٥

تظهر من جميع الرذائل وتوجب الانصاف بجميع الفضائل وإذا داوم عليها الإنسان ارتفع إلى أوج الكمالات بعد أن كان في حضيض أحسن الصفات معرض لجميع الآفات

لأن الصلاة تفيض على صاحبها من الأنوار ما يوجب الرشد في كل شيء وتمنعه أن يضل كل ما يأتي ويذر، فيزول من نفسه سلطان الهوى وتوضح له الأشياء على ما هي عليه

إن صلى حتمية إذا أراد الصلاة طهر قلبه من كل الشواغل التي كان فيها رهياً سره مناجاة ربه الذي يعلم السر وأخفى ، فقام إليها رافعا يديه إلى السماء طارقاً كل ما سوى الله تعالى وراء ظهره قائلاً لنفسه يا نفس « الله أكبر

فإذا قال : (الحمد لله رب العالمين) استولى عليه ما بهر قلبه وحير له من عظمة تلك الربوبية التي أحاطت بجميع الأشياء ولم يخرج عنها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ثم ينظر إلى سعة العوالم العلوية والسفلية وأن كلاً تحت قهره ومسخر لأمره فيزداد دهشة ، ويظهر له تلاشيه في جانب ذلك الملك الكبير وينكشف له عياناً أن مالكة العظيم لا تحيط به الأحلام ولا تشمل إليه الأوهام (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١)

فإذا قال : (الرحمن الرحيم) ونظر ما أسبغته عليه من نعمه الظاهرة والباطنة وما عرفه من اللطف الإلهي في جميع أطواره ، وكل

أحواله ، امتلاً قلبه بحجة ذلك المنعم الذى يمن عليه بما يحب فى الرخاء ويلطف به عند نزول البلاء فهاج منه رجاؤه فى فضله وطمعه فى رحمته

فإذا قال (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) تذكر أهوال القيامة (يَوْمَ لَا تَدْرِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ^(١) فيكاد ينخلع قلبه من الخوف لولا ما يعلم من سعة كرمه ورحمته ، فطار بجناحي الرجاء والخوف معرضاً عن جميع المخلوقات ، إلى حضرة رب الأرض والسموات ، علماً أن منه البداية وإليه النهاية ، وأنه إليه يرجع الأمر كله (بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ^(٢) فناجاه بقلب لا يعرف غيره ولا يلوى على سواه قائلاً

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) رأى نفسه مفتقراً إليه فى كل شيء وأنه لا يغنى عنه من الله شيء ، فترك كل شيء واستعان به على كل شيء ولما تم له فى هذا المقام مقام المناجاة بين يدى الله تعالى اضمحل رسمه ، وتبين له ما هو وما مقدار علمه ، فوض له الأدر فى جميع الأشياء وترك الاختيار معه حتى فى الدعاء علماً أنه إذا اختار أى نوع من أنواع الهداية وطلب الرشد إلى أى طريق من طرق السعادة فإنما يطالب ذلك بعلمه واستعداده الضعيف فوكل الأمر إليه وهو أعلم بالداء والدواء (أَلَّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ^(٣) فطلب منه تعالى أنجع الأدوية ، ودعاه بأعم الأدعية ، مما لا يصل إلى تفصيله علمه ولا يحيط به فهمه

(٢) سورة يس ، الآية ٨٣

(١) سورة الانظار ، الآية ١٩

(٣) سورة الملأ ، الآية ١٤

فقال (اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صراط الذين أنعمت عليهم) مستعيذاً به من غضبه إذ كانت ترتعد فرائضه من قوله تعالى : (وَهَنُ يَحُلُّلُ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدُ هَوَى)^(١) خائفاً من نفسه الكثيرة الأهواء التي تضل عن سبيل الله قائلًا بلسان العارفين بربهم ونفوسهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

ثم يقرأ من القرآن بعد ذلك ما يزيد من تلك الأسرار ويزج به بين سرادقات عالم الأنوار فيمتلي من مخدراتها على قدر ما يتطيف بصيرته ويرتقي من درجاتها بمقدار ما يقتضيه استعداده فإذا وصل إلى ذلك خشع لجلال تلك الهيبة (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)^(٢) ولم يجد بداً من أن يركع في تلك الحضرة قائلًا بلسان روحه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)

ثم يترقى في مقامات القرب إلى أسمى مما كان فيه فيزداد خضوعاً وخشوعاً فيختر ساجداً لله تعالى مسبحاً له عز وجل بكل ذرة من ذرات أجزائه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى) إذ وصل إلى غاية العبودية فكان في مهابة القرب في تلك الحضرة الإلهية ، على قدم من قال له عز وجل

(وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)^(٣) ثم إذا جلس للنشهد لقي من أسرارهِ التي أودعت فيه مالا يحيط به العقل ولا يأتي عليه القول

(١) سورة طه ، الآية ٨١

(٢) سورة طه ، ١٠٨

(٣) سورة الملق ، الآية ١٩

أفتراه بعاء ذلك إذا سلم من هذه الصلاة مفارقاً عالمه الذي كان فيه نازلاً إلى هذا العالم وقد أحاطت به تلك الأنوار وتملكته تلك الأسمرار يمكنه أن يقارب منكرًا من المنكرات ، أو يفعل هفوة من الهفوات أو يبتقى معه لطيش النفس أثر من الآثار بعدما نزلت عليها السكينة وحتمتها انظماً؛ ينه و جاء جنود الله فذهب جنود الشيطان أم هل تنوم للكبيرياء تائمة بعد ما عرف من ذلك العجلال . وتقلب في تلك الأطوار ؟ أم هل يبتقى معه من الشح ومحبية مصالحة الخاصة بقية ؟ وهو العبد الذي تحتمى بالعبودية الكاملة وباع نفسه بيعاً لأرجوع فيه ، ولا شمشيراز منه ، فصار لا يعرف لها حقاً من خصوصياتها ولا أمراً من شخصياتها فكانت حركاته لله وسكناته لله عالماً (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) حتى إذا انغمس في هذا الكون السفلى بعد الصلاة فلدغته من الاشتغال به ومن حركات النفس فيه شيء من الظلمات كادت تهجم على قلب بعض الآفات ، تداركه الله بالصلاة الأخرى سألته ما كان من تلك الظلمة وأوصلته ثانية إلى عالم الحكمة فكانت مطهرة من جميع الأوهام رادعة عن جميع الآثام

فقد يتبين لك سر قوله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٢) وسر قوله صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة كمثل من على باب أحكامم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبق عليه بعد ذلك درز ؟ »

ولعلك تستبعد أن يلاحظ الإنسان ذلك كله ، فاعلم أن القلب
مبى استنار ، ورد عليه من العلوم والمعارف فى اللحظة الواحدة ما يكمل
عنه القلم ، ولا تنفى به العبارة فى الأزمان المتطاولة ، فإن عالم القلب
أوسع من عالم التعبير ونسبة ما فىك من العوالم على نحو ما فى العالم
الخارجى وقد قالوا إن الأرض بالنسبة إلى الفلك الأول كحلقة ملقاة
فى فلاة وكذلك الأول بالنسبة إلى الفلك الثانى كحلقة ملقاة فى فلاة
وهكذا فكذلك عوالم العلوية مع عوالم السفلية فافهم هذا

ويزداد عجبك وابتهاجك بعد ما تقدم لك إذا عرفت ما لاجتماع
المسلمين فيها وإظهار عظمة الشرع وجلاله فى نظر أعدائهم بما يرونه
من هذا الارتباط المتين وتلك المظاهر المدهشة « مظاهر القوة والاتحاد »
وفى ما بين أفراد المسلمين حيث يستوى فى ذلك المالك والمملوك والغنى
والصعلوك وما فى ذلك من أغرس الخلق التواضع فى النفوس واقتلاع
أصول الكبرياء منها ، واستنزال الرحمة باجتماع القلوب متضرعة
مبتهلة إلى الله تعالى فى وقت واحد قائلة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)
واجتماع القلوب له أثر جليل عند الله تعالى وهو الذى يستثير السحب ،
ويستنزل الأمطار وتستفيض الرحمات بخاصة ذلك التأثير الروحاني

١ ولهذا شرع الاجتماع فى الاستسقاء والكسوف ونحوهما والمشارع
عناية كبرى باجتماع المسلمين فسن لهم أن يجتمعوا فى اليوم واللييلة

خمس مرات وواجب عليهم ذلك في صلاة الجمعة كل أسبوع ولما كانت فوائد ذلك قاصرة على أهل البلد الواحد شرع الاجتماع على وجه أتم «يوم عرفة» .

ذلك اليوم لذي يتلاقى فيه المسلمون من كل بقاع الأرض فيعرف بعضهم بعضاً ، فيستفيد منه ، ويأخذ عنه ، ويتذاكرون في أمور دينهم وديناهم ثم يتوجهون إلى الله تعالى في صعيد واحد يطلبون منه تعالى أن يعز ديهم ويرفع شأنهم .

وللقلوب في اجتماعها تلك الخاصة العجيبة التي شرحناها فلا غرو

أن تحنهم اللاتكة وتحيط بهم الرحمات ، وتقبل الدعوات :

فيرجع كل منهم إلى بلاده ، وقد عز سلطانه ، وتم إيقانه بعد هذا الاجتماع ، ودا بعده من الاجتماعات في المشاهد العديدة التي تذكرهم أيام الله وآياته ، غير ذلك من الأسرار التي يطول شرحها مما يرشدك إليه نور الإيمان وقوة الإيقان

ولابد أن تكون قد عرفت سر قوله -صلى الله عليه وسلم- « جعلت

قرة عيسى في الصلاة » وأن يكون قد أخذ منك العجب كل مأخذ ممن تركوا الصلاة وهم كثيرون مع مالها من تلك الفوائد والأسرار ثم يزداد عجبك ويهيج أسفك عندما تراهم يحافظون على غسل أطرافهم ولا يتوضئون والوضوء أتم مما يفعلون ، وتراهم يحافظون على الرياضة البدنية ولا يصلون والصلاة مع أنها رياضة روحية هي أيضاً من أتم

أنواع الرياضة البدنية يتحرك فيها جميع أجزاء البدن مما لا يوجد في غيرها باعترافهم

وما أدري نفورهم منها وعدم إقبالهم عليها - مع كونها لا تطول مدتها ، ولا تعظم مشقتها - سرّاً معقولاً اللهم إلا سر الخذلان وانزعاج من نور البصيرة (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (١)

كيف تكتسب الأخلاق الفاضلة؟؟

**وإن أول التربية ليست على ما يفهم الناس
وإن القوانين قليلة الغناء**

ربما أطلنا عليك في هذا البيان لما فيه من الفوائد العجمة وأرى
الأولى بك ألا تسمأم فعمى أن تجد فيه ما يكون كمالاً في علمك وتزيد
به فضلاً على فضلك

إذا أردت ذلك فاعلم أن كثيراً من الناس يظنون بأن الطريق إلى
اكتساب مكارم الأخلاق والشفاء من أضرارها إنما هو تعلم العلم، وعرفة
الضار من النافع والحسن من القبيح، فيحسبون الاتصاف بالفضل
والكمال لازماً من لوازم العلم أيًا كان كما يعتقد العدة أو من لوازم
العلوم الشرعية والأخلاقية على ما يعتقد كثير من الخاصة ممن لم يعنوا
بالبحث عن أسرار العلوم وأرواحها والتنقيب عن ملكات النفوس
ومقتضياتها

ولهذا كان للعلماء المحلل الأول من النفوس وكأن تعلم العلم هو
الغاية المقصودة في التربية

وكثيراً ما تسمعهم يقولون «فلان مترب أي حائز لشهادة عالية،
وهو خطأ فاحش

فإن تعلم العلم بمجرد قليل الجدوى بل قد يكون لبعض الناس
عوناً على ما يزيد من الشر، فهو قوة العقل يستعين بها على ما يشاء فإن

صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وإن صرفها للشر كان من أول الشريرين والسيف يقطع في يد اللص كما يقطع في يد المجاهد في سبيل الله :

وقد قال بعض الحكماء إن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث فإن أصاب حلو الثمر زاده حلاوة وإن أصاب مر الثمر زاده مرارة

ولهذا ترى تلك التربية التي ينوّهون بذكرها لم تطهر ذوبها من رذائل الخصال وقبيح الفعال حتى إننا إذا لم نغتر (بتلك التربية العالية) ولم ندعهم وأهواءهم بل قيدناهم في وظائفهم الإدارية أو القضائية بلوائح وقوانين ينقادون لها ويسيروا عليها تراهم يتوسعون ويتأولون كما يشتهون وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة إلى الشريعة الغراء وكان استعدادهم الخبيث يحيلها إلى ما يوافق أهواءهم وليس هذا بالأمر العجيب فيما تفعله الاستعدادات .

وإن شئت فانتقل إلى ما كتب على الأجرومية من صرف كل ما فيها إلى الاصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال تعالى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) فالذي أضل به هو الذي هدى به فليس ذلك راجعاً إلى تغير في عينه أو تبدل في وصفه بل إلى اختلاف في استعداد الفاضلين له ولعلك رأيت من هذا القبيل شيئاً كثيراً

فإذن ليس العلم طريقاً إلى اكتساب الفضائل ولا دليلاً على الاتصاف بالكمالات على الحقيقة وإنما الطريق الذي يجب أن يسلكه طالب الكمال ويعتني به المرئى أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل الذي يريد اكتسابه حتى يرسمخ فيها رسوخ الملكات التي تمتلك النفوس

وتصدر عنها الأفعال بلا تكلف ولا عناء وإلا فهو تصورات ومعلومات لا أخلاق ووجدانات ، فإن الكمال لا يتم للإنسان إلا إذا انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده فلا تنفعل به وحينئذ يصير كيفاً راسخاً فيها فيلتحق بالغرائز الأصلية فتصدر عن الآثار الحميدة بغاية السهولة على نحو ما تصدر عنه الأفعال الطبيعية

وهذا الذى قررناه جار فى اكتساب الأخلاق الحسنة والأنتلاق السيئة فإذا يلزمنا أن نسارع بالعلاج ونفزع إلى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويعضل الداء فيعيب الأطباء ، فإنه إذا وصل إلى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعيات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجع دواء.

اللهم إلا الأفوياء العزيمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعربين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام أوامرها المؤيدين بتأييد من عنده تعالى (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) .

ولهذا تجد بعض من فيه شيء لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيراً مما هو فيه ولكن لا يستطيع أن ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى لى حتى قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صدر يتعذر قلعها من نفوسهم لامتزاجها بها (سواءً عَلَيْهِمْ أَنْ نَذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ نُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة^(١)) فليس الختم الذى ورد به القرآن شيئاً غير تملك السيئات للنفوس وإحاطة الظلمات بها (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢))

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨١

(١) سورة البقرة ، الآية ٧

فبالخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل أن تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين ، وتعتبر نفسك مريضاً يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلاوة الشفاء وأن تأخذ نفسك باللطف والخذع فإنها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فإنها شديدة العناد وأن تلاحظها في مبادئها ولا تستهين بها « فَهَؤُوتُمْ النَّارِ مِنْ مُسْتَضْعَرِّ الشَّرِّ » وأن صغار الآفات تجر إلى كبارها من غير أن تحس بذلك لأنك تسير فيه بمقتضى ميلك إليه سيراً طبيعياً لا سيراً فكرياً

ولعل هذا هو المعنى بالاستدراج في قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)^(١)

وإن القمرايين لا تجدى شيئاً ولا تضمن عدلاً ما لم ينظر في حال القائمين بها والمنفذين لها ، وأن التربية الفاضلة ليست بنيل الشهادات العليا كما يزعم أربابها . فيجب أن ينظر فيها حتى تكون تربية صحيحة تنأى بالغاية المقصودة منها .

وليس ذلك إلا في التربية الدينية « والنظر في إصلاحها قبل النظر في إصلاح القوانين » وأن الاستعداد الخبيث كثيراً ما يحيل الكلام عن ظاهره حتى يقطع النظر عن الغايات كلها ولعل هذا من جملة ما أريد من قوله تعالى (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)^(٢) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد

(٢) سورة النساء ، الآية ٦

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٨٢

«أَسْأَلْتُمْ تَنْوَعَتَا»

وردت إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ يوسف الدجوى خاصة فأجاب عنها

١ - إذا بيعت دار في أرض غير مملوكة وأراد آخر أن يبيع بجوارها
أو يبيت في أرض مملوكة بإذن صاحبها كانت في وسط القرية
أو حفرت بئر كذلك أو غرست شجرة كذلك فما حريم كل من الدار
والبئر والشجرة المستحق من الجهات الأربعة في الصور الثلاثة ؟

٢ - إذا هبت هبة الثراب لأحد وأراد المودع له أن يثيب عليها
فهل يجوز أن يثيب عليها من جنسها أو يتعين أن يثيب عليها من غير
جنسها ؟ وهل هبة العرس كذلك إذا جرى العرف بالمعاوضة عليها ؟

نرجوكم كل الرجاء الفتوى فيما ذكر لأن أهل السودان يختصمون
كثيراً في العريضة التي بين الدور ونحوها

أحمد أبو بكر ملني الأنصاري
بالبحرية بالسودان

الجواب

فالجواب عما سألت عنه أيديك الله

١ - أن هذه الأرض إن كانت مملوكة وقد اشتراها صاحب الدار
من مالها فاشئان فيها للمالك فيا شرط أن يكون له حريم كان
لصاحب الدار ما شرط. وإن لم يشترط فلا شيء له. ولكن لا بد أن يكون له

بقدر ما تقضت به الضرورة من طريق يوصل إلى الدار وفي مسألة الشجرة والبئر لابد أن يكون له ما يمكنه من سقى الشجرة وأخذ ثمرها واستخراج الماء من البئر

وإن لم تكن الأرض مملوكة فإن كان لأهل القرية انتفاع بها كأن كانت ناديا لجلوس القوم وحديثهم أو ملعبا للصبيان أو مناخا للإبل أو مراحا للغنم أو نحو ذلك ، فهي من مرافق البلد ومنافعه ولا يجوز لأحد أن يحدث فيها شيئا مما ذكر سواء أكانت هذه الأرض وسط القرية أم حولها أم بعيدة عنها

وإن لم يكن لأهل القرية منافع بها أصلا وكانت غير مملوكة لأحد فهي الموات فمن الحدث في ذلك الموات شيئا مما ذكر ملكه وملك حرمة وحريم الدار ، ينتفع به صاحبها من طريق يوصل إليها ومحل لرمى الأتربة والكنزومة ونحو ذلك ولا حریم لدار محفوفة بملك الغير من كل جانب وحریم الشجرة قدر مد أغصانها ولو كانت قريبة من البلد على الصحيح وقيل بعضهم لا بد أن تكون بعيدة من القرية ولا يجوز إحياء البئر منها وحریم البئر أربعون ذراعا من كل جانب على ما رجحه بعضهم

٢ - أما هيئة الثواب فيصح أن يكون الثواب من جنسها لا فرق في ذلك بين هبة العرس وغيرها لكن إذا كان الثواب ربويا وشرط صحيحا في عمدة الهبة بأن قال : وهبتك هذا على أن تعوضني ذاك وجب حينئذ تساوى العوضين في متحد الجنس والتقابض في المجلس لأن

الهيئة إذا شرط. فيها العوض صارت بيعا فتجرى فيها أحكام البيع كلها :
من الرد بالعيب وأخذها بالشفعة والتساوى في العوضين والتقابض
قبل التفريق في الربوى المتحد الجنس

أما إذا لم يشترط العوض ولم يجز بذلك عرف فيما بينهم فللموهوب
له أن يشيب عليها بما شاء من غير وجوب عليه . هذا هو الظاهر الذى
ينبغى التعويل عليه ، خلافا لمن لا يعتبر جريان العرف ويقول لا بد
من الاشتراط الصحيح هذا ما استخلصناه من أقوال العلماء ورأينا
أن نسطره في هذا الموضوع . والله يتولى هدى الجميع .

* * *

٣ - ما حكم صلاة الشفع والوتر جماعة عقب صلاة تراويح رمضان
عند السادة المالكية ؟

الجواب

الحكم في مذهب مالك أنه تكره الجماعة في النفل إذا كانت كثيرة
أو مكان مشتهر

قال الخرثى « يكره اجتماع الجمع الكثير في النافلة خشية الرياء
ولو في مسجده - صلى الله عليه وسلم - ، وهذا في غير التراويح والعيد
والاستسقاء والكسوف وكذلك يكره اجتماع الجمع القليل كالثلاثة
لكن بمكان مشتهر أما مكان غير مشتهر فلا كراهة إلا أن يكون
من الأوقات التى صرح العلماء ببدعة الجمع فيها كليلة النصف من
شعبان وليلة عشوراء » .

والمراد بالنفل في عبارة الفقهاء ما عدا الفرض بدليل استثناء الخرشى للعديد والكسوف والاستسقاء . فالشفع والوتر داخلان في هذه الأحكام الثلاثة فتكره صلاتهما -جماعة عقب التراويح إذا اشتهر المكان ولو قل العدد ، كما تكره الجماعة فيهما أيضاً إذا كثر الجمع ولو لم يشتهر المكان أما إذا قل العدد ولم يشتهر المكان فلا كراهة كما إذا صلاهما ثلاثة في البيت جماعة . والله أعلم .

*

٤ - نرجو أن تفيّدونا عن حكم علو الإمام على المأمومين والعكس علو بعض المأمومين على بعض ، وإذا أهكن أن تكون الفتوى على المذاهب الأربعة . كان لكم منا الثناء المستطاب ، ومن الله الأجر والثواب
أحد مدرسي المدارس

الجواب

الحمد لله والصلاة على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد فمن صلى مع آخرين خلف إمام واضطره ازدحام المكان بالمصلين إلى أن يصلي محاذياً لهم مرتفعاً عن غيره بقليل فصلاته صحيحة ولا كراهة فيها . ولندكر لك بعض نصوص المذاهب في ذلك إجابة لطلبك فنقول :^١

قالت الحنفية : يكره ارتفاع مكان الإمام عن سائر المقتدين بقدر ذراع فأكثر فإن كان أقل من ذلك فلا كراهة ، كما يكره ارتفاع المقتدين عن مكانه بهذا القدر ، والكراهة مقيدة بأن لا يكون مع الإمام أحد منهم فإن كان معه بعضهم ولو واحداً فلا كراهة

وقالت الشافعية يكره ارتفاع مكان الإمام عن مكان المأموم وعكسه من غير حاجة كأن كان وضع المسجد يقتضى ذلك فإنه لا يكره الارتفاع حينئذ :

وقالت المالكية : يجوز علو المأموم على إمامه ولو كان المأموم بسطح المسجد . (وهذا في غير الجمعة) وأما علو الإمام على مأمومه فهو مكروه إلا أن يكون بشئ يسير كالشبر والذراع أو كان لضرورة كتعليم الناس كيفية الصلاة أو ضيق المكان

وقالت الحنابلة : يكره ارتفاع مكان الإمام عن المأموم ذراعاً فأكثر أما المأموم فلا كراهة في ارتفاع مكانه

الخلاصة

أنه لا شئ في ارتفاع بعض المأمومين دون بعض عند الحنفية ولا في ارتفاع المأمومين ولو جميعاً عند المالكية والحنابلة . وأن الحكم الكراهة عند عدم العذر في مذهب الشافعية

فتمت اتفقت المذاهب الأربعة على كراهة ارتفاع مكان الإمام واختلفت في كراهة ارتفاع المأموم وذلك لأن الأول ثابت بالنص ، وأما الثاني فكان محل نظر فالشافعية قالوا فيه بالقياس دون فقهاء المذاهب الأخرى

والنص هو ما ورد أن حذيفة - رضي الله عنه - صلى على دكان واناس أسفل منه فجذب به أبو مسعود البدرى الأنصارى - رضي الله عنه - حتى

أقامه فلما احترف قال أما علمت أن أصحابك يكرهون أن يصلي
الإمام على شو وهم أسفل منه؟ قال حذيفة بلى قد ذكرت حين
جذبتني

قال الإمام النووي - رضي الله عنه - في شرح المذهب هكذا رواه
الشافعي وأبو داود والبيهقي ومن لا يحصى من كبار المحدثين ومفسنيهم
وإسناده صحيح ، والله أعلم

أسئلة متنوعة

وردت الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ يوسف الدجوى خاصة فاجاب عنها

التصوير

ما حكم الصورة الفوتوغرافية أو الفنية لإنسان أو حيوان أو غيرهما
كالأشجار من حيث النظر والاستصناع ؟

الجواب

يباح التصوير إن كان لصورة غير حيوان كالأشجار والبهائم
ويباح النظر لصورة سواء أكانت كاملة أم ناقصة ، لها ظل بأن كانت
جسمية أم لا كالفوتوغرافية

أما إن كان التصوير لحيوان سواء أكان إنساناً أم لا ففيه تفصيل
فإن كانت الصورة لا ظل لها ، كالفوتوغرافية كره عملها والنظر إليها ،
وإن كان لها ظل فاستصناعها والنظر إليها حرام إن كانت تامة الأعضاء
وإلا فتمتعها والنظر إليها مكروهان أو خلاف الأولى

هذا كله منتضى مذهب مالك ، والله أعلم

الصلاة خلف مرتكب الكبيرة

هل تصح الصلاة خلف مرتكب الكبيرة أولاً ، وعلى الصحة فهل
مع الجواز أو الكراهة ؟

الجواب

لا تشترط العدالة في الامامة على الصحيح ، وإنما هي شرط كمال فقط فالصلاة خلف مرتكب الكبيرة صحيحة مع الكراهة ونص المتون عندنا معشر المالكية أنه يكره إمامة فاسق بجارحة ولو لمثله على الصحيح ، أي وتحرم خلف فاسق العقيدة ، والله أعلم

حلق اللحية

هل يجوز حلق اللحية أو يحرم ؟

الجواب

حلق اللحية حرام لما ورد «قصوا الشوارب واعفوا اللحى» . والأمر يحتمل على الوجوب ما لم يصرفه صارف عن ذلك .

نعم إذا طالت كثيراً يستحب تقصيرها لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم «كان يأخذ من عرض لحيته وطولها» . وهل المطلوب التقصير بتدريج ما تحسن به الهيئة أو تقصير ما زاد على القبضة ؟ قولان ، الظاهر منهما الأول

ومن أرباب المذاهب من يقول بالكراهة فقط ، فعلى من ابتلى بذلك وكان يشق عليه الخلوص منه كالعسكر مثلاً أن يقلد المشهور من مذهب الشافعي مثلاً ، والله أعلم .

ثبوت رمضان بالراديو

وجاءنا من البحرين من حضرات الأفاضل أصحاب التوقيع مانصه :

حضرة الأجل الفاضل علم الفضائل الشيخ يوسف الدجوى المحترم ، حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فنفيد فضيلتكم أنه في دخول شهر رمضان السنة الماضية في أول ليلة منه وردتنا أنباء من مصر بواسطة الراديو برؤية هلال رمضان وثبوته الثبوت الشرعى بمصر ، والحال أنه في تلك الليلة لم ير الهلال عندنا بالبحرين وبسبب أننا لانعرف المذيع لهذه الأخبار ولا من تصدر عن أمره توقفت عن تبييت الصيام تلك الليلة اعتمادا على هذه الأنباء وقد كتبنا لمجلة الأزهر إذ ذاك فلم تكتب شيئا في الموضوع فرجأونا من فضيلتكم الإفادة الشافية عن ذلك .

الداعون لكم بخير-قضاة محكمة الشرع بالبحرين

عبد اللطيف سيد محمد
عبد اللطيف على
محمود عبد اللطيف

الجواب

الحمد لله ولصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد : فقد نص في مذهب مالك-رضى الله عنه- على أنه إذا ثبت شهر الصوم لدى حاكم وإن لم يحكم به ونقل ذلك الثبوت إلى جهة أخرى بواسطة رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن القريب منه أو بواسطة رجل عدل فإن الشهر يثبت

في حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك
الخبر فإن المسألة من باب الرواية التي يكفي فيها خبر العدل الواحد ،
وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو
جماعة مستفيضة

ونص المالكية أيضا على أنه يعتمد في الصوم والفطر على القرائن
الدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع وإضاءة
المآذن كما يعتمد على صوت المؤذن في معرفة وقت الصلاة لجرى العادة
بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب

ونص مولانا الشيخ عليش في فتاويه على أنه يعمل بالإشارات
التلغرافية في الصوم لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات
البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين وعلى أن
من أفطر في رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولا
بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التي لا تعتبر في ثبوت الشهر
شرعا فإنه تجب عليه الكفارة (فضلا عن القضاء) لأنه متأول تأويلا
بعبدا لجهله وسوء ظنه فلا عبرة بتأويله

(وألقت نظرك لجعله ذلك جهلا وسوء ظن) والراديو بتلك
المنزلة ولا يتصور أن يذاع مثل ذلك الخبر في المذياع الذي يخترق
الآفاق شرقا وغربا من غير أن يكون له حقيقة ، فإن في ذلك كذبا
على المحكمة الشرعية التي أخبر أنها أثبتت رؤية الهلال - وفيه تعريض
الحكومة والأمة لما لا ينبغي لدى الأمم الأخرى . ومن ذا يعرض نفسه

لتبعية ذلك وما يترتب عليه في مثل تلك الفريضة التي يهتم بها المسلمون غاية الاهتمام ؟ وأكبر ظني أن القانون يعد ذلك من الجرائم ويعاقب عليه فالجناية؛ إذًا مضاعفة وماسة بشرف الأمة والحكومة جميعا ، وذلك كله موجب لتصديق الخبر والاعتماد عليه . على أن الظن كاف في هذه المسائل الفرعية ولا عبرة بتلك الاحتمالات العقلية .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم في رمضان والقطر أول شوال على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر^(١) . وحيث إن الغالب في الأخبار التي ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلوكية واللاسلكية^(٢) — أو المذيع إنمّا هو الصدق بعد تحرى الحقيقة وإن كان المذيع أو عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعاً أو اختلفت حكومة الجهتين المنقوص منها وإليها فذلك لا يمنع غلبة الظن التي هي مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية^(٣) كأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات .

فان الشارع جلت حكمته لم يكلفنا في العمل بالقطع واليقين دفعاً^(٤) للحرَج (وَهَذَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)^(٥) ومعلوم أن الأحكام العملية يكفي فيها الظن وأنه لا يجب فيها اليقين . وقد قالوا إن غلبة الظن في دخول وقت الصلاة كافية^(٦) ، وقالوا إن اجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده وأن المسائل القطعية ليست

من مباحث الفقه ولا يعقل في الملة الحنيفية السمحة التي تقول :
(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وتقول « إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ »
إلا هذا .

ولو قلنا إن أخبار المذيع والبرقيات السلوكية واللاسلكية لا يعول
عليها بناءً على هذه الاحتمالات لَوَصَّمْنَا الدين الإسلامي - البعيد النظر ،
الواسع الحكمة - بالجمود الذي يبرأ منه وينعاه على أهله ولصيرناه
مضغة في أفواه أعداء الدين وسخرية بين الزنادقة والملحدين ولكان
غير صالح لكل عصر من العصور وحاشاه من ذلك :

ولو فرضنا أن المذيع أو عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم
لم يضر ذلك شيئاً لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأثور بتوصيله إلى
الجهة المعنية فهو كالبريد الذي يحمل الرسائل :

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت
رمضان بأي وسيلة من الوسائل التي تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة
الظن ثم يصبح منطراً بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة
في هذا العصر لم تكن معروفة في العصور الأولى .

والمدار في كل ذلك على حصول المقصود الذي هو الظن الغالب ،
والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا : (وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة
بل كانت مقصوداً وقد فرضناها وسيلة) ، والشارع لم ينط. الأحكام
إلا بحصول الظن الغالب فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع حتى
يكون دين العصور كلها والأمم كلها وتكون حجته قائمة على المخالفين

في كل زمان ومكان نعم بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال
وقيام الشبهة كوجوب القصاص في الجناية على النفس ولكن ذلك
لدليل خاص كقوله صلى الله عليه وسلم « إدركوا الحدود بالشبهات »
وذلك لخطر التقصاص

هذا ما نقول به .

ولا نفتى بشيء سواه نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ويمنعنا
من الخطل ، وأن يلهمنا الرشد في العلم والعمل ولا يكلنا لأنفسنا طرفة
عين عنه وكرمه

مسألة في الطلاق

ورد أيضًا إلى فضيلته السؤال الآتي

ما قولكم دام يفضلكم في الرجل قال :- « على الطلاق من أول زوجة إلا أفعال كذا » وقد فعله وكرر ذلك منه ثلاث مرات ، ويريد أن
أن يتزوج فماذا يكون بالحال ؟

نرجوكم الإجابة على المذاهب الأربعة إن أمكن ، وإن تفضلتم بذكر
النصوص كان تفضيلتكم شكر على شكر والسلام عليكم ورحمة الله .
سليمان أحمد رجب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

: فقد بحثنا في كتب المذاهب الأربعة ولنستق بعض نه موصها

إجابة لريضة السائل فنقول

إن هذه الصيغة التي ذكرت في السؤال لغو لا يقع بها شيء عند
الشافعية إلا إذا كان على عصمة مملوكة . قال في شرح النهج « وشرط
في حل كونه زوجة مملوكة للمطلق ، فلو كان امرأة أنكحها
فهي طالق ثم نكح امرأة لم تطلق »

وعند الحنفية لا يقع إلا إذا كان في الملك أو مضافاً أي معلقاً على
سبب الملك بأن قال إن نكحت امرأة أو فلانة فهي طالق فنكحها
طلقت

وظاهر أن ذلك مبني على قاعدة عندهم وهي أن الطلاق المعلق منجز عند وجود الشرط فمن قال إن نكحت امرأة فهي طالق فكأنه قال لها أنت طالق عقب النكاح ، فكان الطلاق في الملك فيقع وأما عند الشافعية فالشرط قيد ، فكأنه قال : أنت طالق وقت النكاح ، فكان في غير الملك فلا يقع .

وعند الحنابلة كذلك لا يقع الطلاق ولا يصح تعليقه إلا في الملك . قال في الإقناع فإن قالت له أي زوجته : قل كل امرأة أتزوجها غيرك فهي طالق ، فقال ذلك ولم يكن له زوجة غيرها ثم تزوج امرأة ، لم تطلق ، أي لأنه لم يكن مالكاً لعصمتها وقت التعليق وهذا هو المذهب عندهم . واستدلوا بقوله عليه الصلاة والسلام « إِنَّ الطَّلَاقَ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ » .

وأما عند المالكية فقد شرطوا شروطاً نص عليها في (شرح الخرشي) قال « وشرط المحل الذي يقع فيه الطلاق أن يكون مملوكاً للزوج قبل نفوذ الطلاق ، سواء أكان ملكه حين التلفظ به ملكاً محققاً كزوجته التي في عصمته أم تعليقاً ، سواء أكان التعليق بالنية كقوله لأجنبية : أنت طالق ونوى إن تزوجها ، وأنت طالق إن دخلت الدار ، ونوى إن دخلتها بعد نكاحها ، أو بالبساط كقوله عند خطبة امرأة هي^١ |

(١) بساط اليمين : هو تفويضة الحالية التي تدل على تقييد ما أطلقه الخالف

طالق ، لأن وقوع هذا الكلام عند الخطبة بساط يدل على التعليق
ولو مع فقد النية ، ومثل ذلك ما إذا قال ذلك حين قيل له
تزوج فلانة .

فهذا هو حكم ما سألت في المذاهب الأربعة قد تلوناه عليك ، ووكلمنا
أمر الاختيار إليك ، والله يتولى هداانا جميعاً بمنه وكرمه

مسألة في الطلاق

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأجل الشيخ يوسف الدجوى
تحية واحتراما وبعد فأرجو من أريحيتمكم الطاهرة وهكارمكم
العالية إفادتي عن الآتي

تنازع رجل مع زوجته فتمال لها : إن كرهت أطلقك ، فتمالت
كرهت ، فتمال لها أنت طالق ، فأعادت مقالتها ، فأعاد مقالته
ثلاث مرات مع العلم بأن الكراهة عندنا مستعملة في البر من
مؤخر تصديقي ونفتمت لعدة ، فهل بانتم بالطلقة الأولى فلا يلحقه ما بعده
على منسب السادة المالكية ؟ أفيادونا مأجورين

وسعو لفضيلتكم بعز الحياتين وسعادة الدارين

محمد محمد الهدوي

رئيس مكتب تل العمارنة

الجواب

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

يسمى الكراهة في مذهب مالك براءة ، فالطلاق المعلق عليها رجعي ،
وحينئذ فالطلاق الثاني والثالث لاحقان للزوجة لأنها رجعية . وعلى ما ذكر
السائل من أن الكراهة براءة فيكون الطلاق بائنا عنده فمذهب
مالك أن الطلاق الثاني والثالث لاحقان أيضا لأنها زوجة عنده وبائنة

عند العير ، فيكون نكاحها كالمختلف فيه ، والنكاح إذا اختلف فيه ونو في مذهب الغير يلاحقه الطلاق ففي فتاوى الشيخ عليش مانصه

ماقولكم في نازلة وهي أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً مختلفاً فيه في المذهب أو غيره بالبينونة أو الرجعة ثم بعد ذلك أوقع الثلاث ، فهل يلاحق به نظراً للمخالف كمن طلق في نكاح مختلف فيه ويكون محل قولهم البائن لايرتدف عليه غيره ، إذا كان متفقاً عليه -
أولاً ؟ أفيدوا الجواب فأجبت ما نصه

نعم يلاحق به نظراً للمخالف واستحساناً واحتياطاً للفروج إذا كان الإرداف في العدة وقولهم البائن لايرتدف عليه غيره إذا لم يكن نسقاً ، مخصوص بالمتفق فيه على البينونة ففي ابن سلمون مانصه

واختلف فيه أي قول الزوج لزوجته أنت طالق واحدة تملكين بها أمر نفسك دوني على ثلاثة أقوال فقيل إنه يكون طلقة رجعية كمن قال أنت طالق واحدة لا رجعة لي عليك! فيها : وهو قول أذهب ومطرف . والثاني أنها تكون البتة كمن قال أنت طالق واحدة بائة فإنها ثلاث ، وهو قول ابن الماجشون وابن حبيب والثالث أنها طلقة واحدة بائة ، قال ابن القاسم وحكاها القاضي أبو محمد عن مالك وبه القضاء ، وكان ابن عتاب -رضى الله عنه- يفتي بأن من بارأ زوجته هذه المبارأة ثم طلقها بعد ذلك في العدة ، أن الطلاق يرتدف عليه نستحساناً ومراعاة لقول من يراه رجعة اه والله أعلم

شل يقع الطلاق في الحيض

استفتاءً موجه لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ الدجوى ، وجوابه عليه.

زعم بعض أن الطلاق لا يقع في الحيض ، فرد عليه بحديث عبد الله ابن عمر المروى في (موطأ الإمام مالك) فأجاب بأن هذا الحديث لا يصح الاستدلال به للطعن في بعض رجاله والإمام مالك لسلامة ضميره لم يفتن لذلك

فأرجو من فضيلة مولاي القول الفصل في هذا الموضوع
عبد الحكيم عبد الرحيم

الجواب

بالحمد لله الصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

أما بعد: فهذا الرجل من أجهل الجاهلين بالإمام مالك ، وفيما أقاله أغلاط فاحشة كما سيترضح لك ، فإن الحديث لم يروه مالك فقط ، بل رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم ، فهو حديث متفق عليه .

ومن العجب العاجب قوله: «ان هذا الحديث لا يصح الاستدلال به للطعن في بعض رجاله فكأنه أعرف بالرجال من مالك ومن البخارى ومسلم وغيرهم . وليت شعري من ذلك المطعون فيه الذى لم يعرفه مالك ،

مع أنه لم يذكر في هذا الحديث بعد مالك إلا نافع وعبد الله بن عمر وعمر بن الخطاب ؟

أ ، أما عمر فهو الذى وافق ربه في مسائل كثيرة معروفة ، وقد كان من المحدثين^(٢٢) وإذا سلك فجاً سلك الشيطان فجاً آخر ، كما في الأحاديث الصحيحة ، فلندع الإسهاب والإطناب .

وأما عبد الله بن عمر فهو صحابى جليل من أكابر الصحابة وعلمائهم وأهل الفتوى فيهم ، وقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، كما في الحديث الصحيح

وأما نافع فهو من أجل التابعين ، حتى قال البخارى « ان أصح الأسانيد ، مالك عن نافع عن ابن عمر » . وصرح كثير من المحدثين أن هذه السلسلة هي (سلسلة الذهب)

وأما مالك فهو مالك وكفى . ولنذكر لك ما قيل في أصح الأسانيد قال أبو داود : « أصح حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مالك عن نافع عن ابن عمر ، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم : مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » . فانت تراه قد ذكر مالكاً في كل ما قال إنه أصح الأسانيد ، وبدأ بروايته عن نافع ، فماذا نقول لذلك الجاهل بعد هذا

ولنذكر لك رواية الموطأ لتكون على بصيرة منها ، فإنها لم تذكر بنصها في السؤال « حدثني يحيى عن مالك عن نافع أن عبد الله

ابن عمر طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله—صلى الله عليه وسلم— ،
 فسأل عمر بن الخطاب—رضي الله عنه— رسول الله—صلى الله عليه وسلم—
 عن ذلك ، فقال رسول الله—صلى الله عليه وسلم— : « مَرَّةٌ فَلْيُرَاجِعْهَا
 فَلْيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهَرَ ثُمَّ إِنَّ شَاءَ أَمْسَكَهَا
 بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَبِذَلِكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُحَافَظَ
 لَهَا النِّسَاءُ »

ولا نطيل بذكر الروايات الأخرى التي جاءت في البخارى وغيره
 وقد رأينا أن نذكر لك شيئاً عن مالك وما قاله أئمة هذا الشأن
 فيه لتعرف إلى أى حد وصل جهل هذا القائل ولكن لا عجب^١ فقد
 أخبرنا صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة أن يلعن آخر هذه
 الأمة أولها وقد قال فى آخر هذا الحديث الذى أخرجه الترمذى
 وغيره « فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً وقذفاً »
 وماذا ننتظر من ذوى الجهل المركب الذين حردوا العلم الذى يقضهم
 على الحقائق وينسأى بهم عن الترهات ، والعقل الذى يرشدهم إلى أن
 ذلك يضرهم ولا ينفعهم

وسر تلك المجازفات أنهم توهموا أنهم يذكرون بذلك بين الناس
 وقد غفلوا عن أنهم إذا ذكروا فإنما يذكرون على نحو ما ذكر الأعراب
 فى قوله تعالى (الأعرابُ أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)^(١)

وما أجدرنا أن نتمثل بقول القائل

إن العصفير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهيها

وقد جاء في بعض الآثار : لا تقوم الساعة حتى يتكلم الرويضة
(والرويضة الرجل التافه الحقير) .

ألا إنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقد قالوا قديماً « لو سكت من لا يعرف لارتفع النزاع » .

وهناك نموذجاً من احتياط الإمام مالك وتحريه

قال ابن القاسم وهو من أجل أصحابه : كان مالك يقول « ربما

وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي » . وقال ابن عبد الحكم

كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى أنظر ،

فينصرف ويتردد فيها ، فقلنا له في ذلك ، فبكى وقال « إني

أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأى يوم » وقال ابن وهب : قال

مالك سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط

ولا أحدثت بها وقال الشافعي كان مالك إذا شك في الحديث

طرحه كله .

أما شهادة العلماء له فشيء كثير لا يسمعه هذا المقام ، وهاك قليلاً

منها ، ولنبدأ بشهادة النبي - صلى الله عليه وسلم - له على ما رآه أجلة العلماء :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يوشك أن تضرب الناس

أكباد الإبل في طلب العلم . وفي رواية : يَلْتَحِمُونَ الْعِلْمَ ، فَلَا يَجِدُونَ

عَالِمًا أَعْلَمَ ، وفي رواية : أَفْقَهَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » .

وفى بعضها: آباط الإبل مكان أكباد الإبل . وقد رواه البخارى
عن ابن جريج موقوفاً على أبي هريرة -رضى الله عنهم- ، ومحمد بن
عبد الله الأنصارى عن ابن جريج أيضاً مسنداً ، وهو ثقة مأمون
وخرجه أيضاً النسائى فى مصنفه مرفوعاً إلى أبي هريرة -رضى الله عنه-
قال : رسول الله -صلى الله عليه وسلم- « يَضْرِبُونَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ وَيَطْلُبُونَ
الْعِلْمَ وَلَا سَجْدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » ورواه أيضاً
أبو موسى الأشعري -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ،
قال سفيان نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس وفى
رواية عنه كنت أقول هو ابن المسيب حتى قلت كان فى زمان ابن
المسيب سلمان وسالم وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك
وقال ابن جريج وعبد الرازق نرى أن المراد به مالك أنه لم يوجد
لغيره من علماء المدينة ممن تقدمه أو جاء بعده من الرواة والآخذين
عنه مثل مالك ، وقد أبلغ بعضهم الرواة عنه ألقى راو

وليعلم أن طلبه العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشرق الأرض
ومغربها إلى عالم ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك

فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً من غير أن يجدوا آثار إحسان

وقال سفيان بن عيينة لما بلغته وفاته ما ترك على الأرض مثله
وكان يقول مالك سراج الأمة ، ومالك حجة الله ، وإنما كنا نتبع
آثار مالك

وقال الشافعي : مالك أستاذي وعنه أخذت العلم . وكان يقول .
جعلت مالكا حجة بيني وبين الله ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم
الشاقب

وقال بقرية بن الوليد ما بقى على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية
ولا باقية من مالك .

وقدمه أحمد بن حنبل على الأوزاعي والثوري والليث وحماد
والحكم في العلم ، وقال : هو إمام في الحديث والفقه :

وقال ابن مهدي وهو من كبار الحفاظ الذين كان يعظمهم
الشافعي كل التعظيم : ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - من مالك

وقال العقبى : ما أحسب مالكا بلغ ما بلغ الا بسريرة بينه وبين الله
تعالى . وقال أبو زرعة وهو من كبار رجال الحديث : لو حلف رجل
بالطلاق على أحاديث مالك التي في الموطأ أنها صحاح كلها لم يحنث
وقال بعضهم من أبيات كثيرة

تفرق شمل العلم في كل تابع فكل امرئ منهم له فيه مذهب .
فخلصه بالسبك للناس مالك ومنه صحيح في المجس وأجرب
فبادرموطاً مالك واستجلى ما به وما بعده إن فات للحق مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده فإن الموطأ الشمس والغير كوكب
جزى الله عنا في موطاه مالكا بأفضل ما يجرى اللبيب المهذب
لقد فاق أهل العلم حيا وميتا فصارت به الأمثال في الناس تضرب

ولا بأس أن نذكر لك شيئاً مما امتاز به مذهب مالك ولا نكاد نراه في غيره

ذلك أن الإمام مالكا يتوسط في الأمور ، كمسألة اللمس : توسط فيها بين الشافعي والحنفي ، وكذلك مسألة السجود القبلي والبعدي ، وكذلك قراءة المأموم في السرية دون الجهرية ، وكذلك عدد الجمعة مع ماله من الأنظار البعيدة كالمصالح المرسله التي يطول الكلام فيها . ولنختم هذا المقال بشيء وجيز من كلامه رضي الله عنه

كان يقول « لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس اها أهلاً » وكان يقول « ما جالست سفيها قط » وكان يقول : « لم أجد في الناس أقل من الإنصاف فأردت المداومة عليه » . وكان يقول « كتبت بيدي مائة ألف حديث » وكان يقول : « لقد ذهب حفظ الناس ما استودعت قلمي شيئاً قط . فنسيته » . وكان يقول إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند هذه الأساطين (وأشار إلى المسجد) فما أخذت عنهم شيئاً ، وأن أحدهم أئوأت من على بيت مال لكان أميناً . إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » . وكان يقول : « لا يكون إماماً من حدث بكل ما سمع » . وكان يقول إذا جاءه أحد من أهل الأهواء : « أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه » . ثم يقرأ (هَذِهِ سَبِيلٌ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)^(١)

أما توقيره لحديث رسول الله فمما سارت به الركبان ، قال عبد الله ابن المبارك : كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يتمتع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجبا فقال نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

دما يلتحق بذلك أنه دخل يوما على الرشيد فحثه على مصالح المؤمنين وقال له : لقد بلغنى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة بالنار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته -رضي الله عنه- ، وقد رضي الناس منكم بدون هذا

هذا قليل من كثير ، فإلى الله المشتكى من زمان اختلط فيه الحابل بالنابل ، وطم فيه الجهل وبخس فيه الفضل ، واضطر كثير من العلماء إلى السكوت وملازمة البيوت ياسا من الإصلاح ، عالمين أننا في آخر الوقت الذي يصير فيه المنكر معروفاً والمعروف منكرا كما في الحديث ولا بأس أن نشهد في هذا المقام قول الشاطبي ، وزماننا أصلب من زمانه ، وأقل أعوانا والمصلحون فيه أخرج مكانا ، ومع ذلك يقول

بليت يا قوم والبلوى منوعة من أداريه حتى كاد يرديني
دفع المضرة لا جلب لمصلحة فحسبي الله في عقلي وفي ديني

أسأل الله أن يصلح حال الأمة المحمدية ، وأن يعلى كلمة الحق ويكثر أنصاره . ويعرفنا قدر أسلافنا الماضين بمنه وكرمه

مسألة في الوصية^(١)

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

هذا السؤال

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ يوسف الدجوى من هيئة

كبار العلماء: اسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فأتشرف بإرسال السؤال المرفق بجوابي هذا ، وأرجو من

فضيلتكم أن تفيئونا بما ترونه في هذه المسألة ، ولكم الشكر الجزيل .

ماقولكم دام فضلكم في وصية من رجل في شدة مرضه مشتملة على

الإبصاء بنقد معين يوزع على أناس معينين ، ويوقف عقار معين

على شخص من القرابة غير وارث وعلى ذريته من بعده ، والثالث يسمع

الجميع ، والحال أن المريض المذكور لم يوص بثلاث

والذي أملاه الوصية هو ذلك الشخص المذكور الذي جعل لنفسه

العقار ، وقد أحضر شاهدين عند المريض فقرأ الوصية لأحد الشاهدين

فقالا للمريض أنشهد عليك ؟ قال نعم ، فذهبا إلى القاضى وشهدا

شهادة ميجملة وكتب القاضى بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه

الوصية وصحت ، وفي الوصية أن الوصى ابنه ، وقبل تحقق رشده

جعل الناظر عليه الموصى له بوقفية العقار المذكور . وبعد وفاة الموصى صار المتولى هو الناظر ، فحاز العقار لنفسه ، وأخرج بعض النقود الموصى بها . ثم إن ابن الموصى المذكور أثبت رشده

وبذلك ارتفع نظر الناظر عنه وبعد ذلك قام ذلك الابن بعد بلوغ رشده يدعى بطلان الوصية بزعمه أن والده حين الإيصاء لم يكن في حسه وتمام شعوره وحصل النزاع بين ابن الموصى وبين الناظر الموقوف عليه العقار : فادعى الابن بدعواه المذكورة ، وأنكر الناظر ذلك ، واحتج على صحة الوصية بتثبيت القاضي عليها بعد شهادة الشاهدين ، وأحضر الحاكم الشاهدين للوصية ليستبين منهما الشهادة فأجاب أحدهما بأن الموصى كان ناقص الحواس حين الإيصاد والاخر قال : أنا لا أجزم بوجود حواسه ولا بعدمها حين الإيصاد له على الوصية ، وقد أقام المدعى شهودا عدولا متعددين يشهدون أن الموصى لم يكن في شعوره ولم تكن حواسه حاضرة ، كما أقام المدعى عليه شهودا أنه كان في شعوره . ومن شهود المدعى عليه من له شيء معين في الوصية المذكورة على لسان الموصى

فهل يعد ذلك من الشاهدين رجوعا عن الشهادة الأولى ؟ وهل تثبيت القاضي على الوصية يعد حكما أم لا ؟ ويوجد في الوصية إمضاء الموصى بقلمه ولكن الابن يعارض في ذلك .

أفتونا ماجورين ، ولكم من الله الأجر والثواب

سلمان بن احمد كمال

صاحب المكتبة الكمالية بالبحرين

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
وبعد فقد راجعنا بعض كتب الفقه عندنا ، وسنتلو عليك
بعض تلك النصوص وهالك ما استخلصنا منها :

(أولاً) قول القاضى الذى وقع أمامه الإِشهاد على الوصية
« بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه الوصية وصحت » ليس حكماً بصحة
الوصية غير قابى للنقض وإعادة النظر فيها

وذلك لأن احكم عندنا معشر المالكية وإن كان لا يتوقف على لفظ
« حكمت » بل يحصل بغيره كقول القاضى نقلت الملك ، إلا
أنه لا يكون حكماً إلا بعد استيفاء ما لا بد منه قبله ، ومنه الإِعذار
للخصم فى بيئنة المدعى . وفى الحادثة المسئول عنها لم يحصل إِعذار
له ، لأن الخصم فيها لم يحضر الإِشهاد على الوصية لدى القاضى ،
بل لم يحضر لكاد حضوره غير معتبر لعدم رشده إذ ذاك كما يفيد نص
الاستفتاء

وإذا فما مدار من القاضى لا يزيد على كونه إثبات حالة قابلة
للنظر فيها بعد

(ثانياً) نص الأمير فى حاشيته على مجموعته أن من شرط
الموصى أن يكون غير مخطئ حين الإِيصاء ونص أيضاً نقلاً عن
السيد : أن الموصى له إن ادعى أن الوصية وقعت حال التمييز من الموصى
فعليه إثبات ذلك

(ثالثاً) حيث إن المسألة بناء على ما قدمناه لم يقع فيها حكم ،

فرجوع شاهدى الوصية فى شهادتهما حيث قال احدهما أن الموصى كان ناقص الحواس عند الإِشهاد ، وقال الآخر أنا لا أجزم ، هذا الرجوع معتبر بأنّه قبل الحكم وإذا فشهادتهما الأولى لاغية لا تثبت بها الوصية

(رابعا) نص الفقهاء على أنه إذا وجد بينتان متعارضتان وجب أن يصار فيهما إلى الترجيح إن أمكن ، كزيادة العدالة فى واحدة منهما ، فإنه يجب الأخذ بقولها دون قول الأخرى ، وكوجود تهمة معتد بها توجب سقوط إحدى البينتين فإن لم يوجد مرجح سقطتا . هذا ومجرد كون الشهود من إخوان المشهود له لا يقتضى بطلان الشهادة ولو كان الشاهد صديقا للمشهود له متى كان مبرزا فى العدالة ولم يكن ممن ينفق عليه المشهود له

الخلاصة

والخلاصة أنه يظهر من وقائع هذه الدعوى أن هذه الوصية لم يقم دليل صحيح على صحتها واعتبارها شرعا فإذا أن يقيم الموصى لهم دليلا صحيحا مالم من المعارضة على أن الموصى كان أهلا للوصية حين الإِيصاء ، وإذا يجب تنفيذها ، وإلا فهى باطلة وترجع الأعيان الموصى بها ميراثا

ولا بد حين قيام البينة المدعية لصحة الوصية من ثبوت أن التوقيع عليها كان بخط الموصى ، لأن ابنه يطعن فى ذلك : ويدعى أن التوقيع ليس بخطه

أسأل الله أن يلهمنا جميعا الرشيد فى القول والعمل بمنه وكرمه

الدين أنفع للعُمران"^(١) من كل القوانين

كتبنا مقالا ضافيا بالأهرام بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٢ تحت عنوان (صوت منبعث من قلب الشرائع جمعاء) طلبنا فيه من زعماء الأمة وحكومتها أن يجعلوا قانون البلد هو القانون الشرعى وقلنا لهم إنكم ملكتم من أمركم ما لم تكونوا تملكون ، وقد دخلتم في دور جديد من نهضتكم المباركة فعليكم أن تنهضوا بها في دينها وقوانينها أيضاً عسى أن يرجع للأمة الإسلامية مجددا الذى كانت متمتعة به ، حينما كان يمتد سلطانها إلى الصين شرقاً وأرض فرنسا غرباً ، فكانت إذ ذاك أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

وها نحن أولاً خطونا خطوة أخرى في مهضتها المباركة فهل لحكومتنا السنية وزعمائنا الكرام أن يحققوا ذلك الأمل الذى يعود عليهم بالفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ؟ (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)^(٢)

وقد عاودنا الأمل في تحقيق تلك الأمنية فكتبت هذه الكلمة اليوم راجياً أن يكون الوقت قد حان لاستعادة مجدنا الأول في أخلاقنا وآدابنا وعاداتنا وتكوين نفوسنا التى ورثت الإيمان والإسلام عن آباؤها وأجدادها فنقبل وبالله التوفيق :

(١) مجلة الازهر - الجزء السابع - المجلد السابع - رجب سنة ١٣٥٥

(٢) سورة محمد ، الآية ٧

إن الواجب الآن على الأمة المصرية وقد هبت ترديد المثل الأعلى في حياتها أن تعمل في بقية النواحي الدينية والأدبية التي لعلها أجدى عليها وأنفع لها وقد شرعت مصر تغير قوانينها فواجب عليها أن تتبع الطريق الاجتماعي في مثل هذه الحالة وهو أن يكون التقنين الجديد على أتم وضع وأعظم فائدة وقد أصبحووا والحمد لله أحراراً في كل ما يعملون ويشرعون ؟ .

ولعمري إن الأمر لأوضح من الصبح فإن تشريعنا الذي لم يمر عليه قرن ولا نصف قرن قد ظهرت عيوبه وقد هبوا يطلبون له الإصلاح والتعديل ولكن ذلك التشريع السماوي مكثت فيه الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك فكانت خير الأمم في راحتها وهنائتها وما انحط شأنها وتضعضع مجدها إلا من يوم غيرت وجهتها واتخذت لنفسها قوانين غير قوانين ربها الحكيم العليم

تلك القوانين السماوية التي تسيطر على الظواهر والبواطن ، وتملاً^ك القلوب مراقبة لله وخوفاً من الله

تلك القوانين التي تقول لهم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(١)

تلك القوانين التي توجب عليهم أن يكونوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق ولا تزال بهم حتى تجعلهم ملوكاً في الأرض ملوكاً

في السماء وأن الباحث المدقق بنظرة واحدة يتجلى له الفرق الشاسع بين أدوارها الأولى عندما كانت متمسكة بدينها عاملة بشريعتها وبين أدوارها الأخيرة عندما نبذت شريعتها وأخذت بتلك القوانين الأجنبية التي تباين استعدادها ولا تلائم مزاجها ولا تطهر نفوسها ولا تعنى إلا بالأشباح دون الأرواح وبالشكليات دون الحقائق فانحطت عندها الآداب والأخلاق فتمكنت منها محبة الذات والانغماس في الشهوات فصار الناس حوشاً ضارية يأكل قويتهم ضعيفهم وأصبحوا كالحرباء يتلونون بكل لون ويلبسون لكل حالة لبوسها ، ويعدون للدسولية القانونية عدتها من الغش والتزوير وتنميق الألفاظ وتحسين الغواهر إلى غير ذلك مما لا يأتي عليه الشرح ولا يبلغه البيان .

فهل للأمم الإسلامية أن تتنبه وقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيين فترجع إلى شريعتها التي جربتها في القرون العديدة وبلغت بها في أقل من قرن واحد ما لم تبلغه الرومان في عدة قرون ؟

ولا غرو فقد كان المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها كالبنيان يشد بعضه بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد (فَمَا هُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ) ^(١)

ولا دواء لهم والله إلا الرجوع لشريعتهم ولا شيء أنجح في وحدتهم الحقيقية — لا وحدة الرياء والمصانعة — من رجوعهم إلى الدين الصحيح ولادواء أنفع في استرجاع مجدهم السالف الذي كانوا به أعز الأمم على

الإطلاق وأرفعها على الإطلاق من ترسم خطأ نبيهم والافتداء بعضهم
أسلافهم

إن الإسلام جاء بمجامع السعادات كلها لجميع أفراد النوع الإنساني ،
فلم يأمر من يعتنقه بالعمل لإسعاد أمته فحسب بل لإسعاد الإنسانية
عامة والرحمة بكل فرد وكل مخلوق

أما الذين يرمون الدين بأن فيه أشياء لاتلائم العصر ولا تسيغها
المدنية الحاضرة فهم جهال بحقيقة الدين وبعد نظره في علاج الناس
بما يقوم اعوجاجهم ويصلح أودهم وما مثل ذلك عندي إلا كمثال
مريض فسد مزاجه وضعفت قابليته فأصبح غير قابل للدواء ولا واثق
بالأطباء أو كمثال طفل لا يعرف من الدنيا غير شهواته واو أتت على
الأخضر واليابس فهو لا يعرف للحكمة معنى ولا للحكماء قدراً فهو
ينظر إلى ما يشيرون به نظر الهازيء المستخف لأنه لا يستطيع أن
يدرك مراميهم ولا بعد غاياتهم ولا أسرار حكمتهم

ولتهجم بك على أصعب شيء في الدين الإسلامي عند هؤلاء
المتفهمين من ذوى الحضارة الجديدة أصعب شيء جاء به الدين
الإسلامي في نظر هؤلاء هو الحدود ، وأشدّها رجم الزاني المحصن وقطع
يد السارق ولنبيين لك من أسرارهما ما يجعلك تنطق بأن الدين
الإسلامي ماجاء إلا بالحكمة البالغة التي بها رقى العمران ، وسعادة بنى
الانسان .

ولنشرح لك شيئاً من مضار الزنى ثم نعقبه ببيان الحكمة في مشروعية رجم الزانى المحصن فنقول

إن في الزنى مضارا كثيرة وربما أدى إلى القتل وكثيراً ما كان ذلك لمزيد الغيرة الطبيعية ولما يلحق أهل المرأة وزوجها من العار وما يترتب على ذلك من إفسادها على زوجها وسوء عشرتها له أو فراقها وفراق أولادها وما فيه من إفساد هذا الزانى على زوجته العفيفة فضلاً عما وراء ذلك من ضيع الأنساب المؤدى إلى ترك التناصر ، وما فيه من غش الغير في النسب الكاذب وتمليك الأموال لغير مستحقيها عند التوريث وضياع الولد لعدم من يربيه حق التربية ولصوق العار به لعدم معرفة أبيه وسوء القالة فيه طول عمره ولزوم المذلة والانكسار له فيما بين الناس ، بله انتشار الأمراض الخطرة التى تنتقل منه إلى غيره وتورث عنه فى أولاده وأولاد أولاده كالزهري والسيلان ، إلى غير ذلك من المفسد التى يطول شرحها .

وبعد فأنت تعلم ما يترتب على فساد البيت عند تطلع المرأة لغير زوجها ، واتخاذها أخذاناً فى الخفاء وما يلحق الزوج من الغيرة التى كثيراً ما تؤدى إلى قتل ذلك المنتهك لحرمة أو قتله هو فى ذلك السبيل وما يلحق أهلها من العار الذى كثيراً ما يؤدى إلى قتلها وقد كان هذا من أسباب وأد البنات فى الجاهلية والغيرة فى هذا طبيعية حتى فى الحيوانات

فإذا قضينا على تلك الجريمة التى تؤدى إلى هذه المفسد كلها بقتل رجل ثبت عليه الزنى وهو محصن - ولا يثبت عليه ذلك إلا بعد اللتيا

والتي - نكون قد ارتكبنا أخف الضررين وسلكنا طريق ذلك المثل
العربي المعروف « القتل أننى للقتل »

مع أن ثبوت الجريمة التي توجب الرجم يكاد يكون مستحيلاً
عادة ولكن حصوله مرة واحدة في قطر من الأقطار يوجب حفظ نفوس
لا عدد لها وصيانة أعراض لا تدخل تحت الحصر وشرف أسر لا يعلمها
إلا الله عن أن تقع في العار والفضيحة فضلاً عما يدهور المجتمع كله
عندما تفشو فيه المنكرات لأن الأمم بأخلاقها وآدابها ولأن كل أمة
تفشو فيها المعاصي تسقط من عين الله تعالى فيحقيق بها البلاء من حيث
تعلم ولا تعلم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ)^(١)

على أن الشريعة قد آنت في هذا بالعجب العجائب فملأت قلوب
المجرمين خوفاً وذعراً ، وفي الوقت نفسه شرطت للحد شروطاً لا تكاد
تتحقق إلا في النادر الذي لا حكم له بل لا يكاد يوجد إلا في ظرف
غير عادي .

فأنت تراها أولاً تقول « ادعوا الحدود بالشبهات » وثانياً
تشرط في ثبوت الزنى أربعة شهود (مع أنها تكتفي في إثبات القتل
بشاهدين)

وثالثاً توجب حد القذف على الشهود إذا لم يكونوا أربعة أو لم
تم شهادتهم بأى وجه من الوجوه

(١) سورة الشورى ، الآية ٣٠

ورابعاً تشترط عليهم أن يكونوا رأوه كالمرود في المكحلة ،
ورأى لهم ذلك والحادثة مما لا يكون إلا في أخفى الخفاء حتى في الحلال
فضلا عن الحرام ؟ .

وهب أن واحدا رأى ذلك أو اثنين فكيف يتيسر رؤية أربعة
في وقت واحد ؛ وهب أنهم رأوه معها أو رأوها متجردين في فراش
واحد ، فكل ذلك غير كاف ولا موجب للحد بل على الشهود الذين
شهدوا بالزنى حـ القذف .

فمن يعرض نفسه لهذا المأزق الذى لا ينتهى غالباً إلا بحده هو ؟
وإذا وثق من نفسه فكيف يثق بالثلاثة الباقية من الشهود ؟ وكيف
بتأق لهم جميعاً أن يضبطوا هذه الرؤية ؟ إلى غير ذلك مما هو غنى
عن الشرح .

ومع تلك لعقبات كلها فضلا عن دره الحدود بالشبهات فقد
استطاع الدين أن يقضى على تلك الجريمة الشنعاء . ومنصفو الأوربيين
يعترفون بالفرض الشاسع بينهم وبين المسلمين في ذلك خصوصاً في
عهودهم الأولى والإحصائيات عندهم في ذلك مدهشة مخجلة

وقد شرع الدين بجانب هذه الشدة في عقوبة الزنى إباحة تعدد
الزوجات وسهل الأمر في ذلك لما ذكرناه ولما فيه من الفوائد العديدة
وليس يغيب عن القراء ما قررته بعض الحكومات من المكافأة على
كثرة الأولاد ، ولولا سلطان البيئة التى هى فيها لأباحتم لهم تعدد
الزوجات

هذا وقد قال بعض الأوربيين « إننا نوجب الاقتصار على الواحدة في الزواج الشرعى ولكن نشخذ من الخيلات غير الشرعيات ما لا يقف عند حد فنضيعهن وأولادهن بلا شفقة ولا رحمة »

فأنت ترى الإسلام منع هذه الجريمة بالخوف من تلك العقوبة الشديدة وأعد عليها بأشد العقاب في الآخرة وشرع ما يغنى عنها ومع ذلك وضع من الشروط التي تحول دون إثباتها ما يجعل وجود الحد بعد تلك الشروط مستحيلا أو كالمستحيل

فأى نظر أبعد من هذا ؟ وأي حكمة أبلغ من تلك الحكمة التي صانت الأعراس والنفوس ولم تسرف في القتل ولا جعلت الأمر جزافا ؟ أليس ذلك أسمى حكمة وأبلغ تشريع ؟

أما قطع يد السارق فأمره من أوضح الواضحات فإن اللص يخرج من بيته موطناً نفسه على أن يقتل أو يُقتل وكثيرا ما قتل وقتل

ومن جهة أخرى تستطيع أن تتصور فظاعة الجريمة إذا تخيلت امرأة عجوزاً تسعى على أبتامها بقليل من المال فيطلع عليها ذلك اللص فيسلبها رأس مالها الذي تعيش به هي وأولادها المساكين ، فهي إن لم تلقى الموت السريع من أيديهم لقيت الموت البطيء من جراء ما فعلوه بها وبفلذات كبدها الذين أصبحوا في حالة تذيب القلوب وتدى العيون ، إلى غير ذلك مما تعرفون ولا تجهلون

وقد انتشرت تلك الحوادث في بلاد العالم كله انتشاراً يثير الأسف الشديد والحزن العميق ولو أقمنا الحد الشرعى مرة واحدة لأخفنا الجميع خرفاً تصبح به السجون خالية من أولئك اللصوص وتستريح به إدارة الأمن العام من تلك المزعجات المقلقات التى فشلت فيها اللوائح والقوانين وضجت منها رجال الشرطة وقضاة المحاكم .

وعلى أن ذلك الحد داخل فى عموم الحدود التى تدرأ بالشبهات كما قلنا ولعلماء الحنفية فى ذلك تفصيلات تجعل الأمر سهلاً لدى الحاكم المتبصر - حيث قالوا : إذا صمم المسروق منه على تضمين السارق المال المسروق ، ستمط عنه الحد لأنه لا يضمه له إلا وقد ملكه إياه على تفصيل وكلام طويل .

والمقصود أن فى مذاهب الأئمة من الآراء والأنظار سعة كبيرة ونحن راضون أن يختار بدل هذه القوانين الأوربية قانون شرعى من كل المذاهب المعول عليها فى الدين الإسلامى ، وفيها من السعة والفسحة والأنظار الحكيمه ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فذلك خير من القوانين الأوربية على كل حال

الخلاصة

والخلاصة أن المسلمين إذا عملوا بتعاليم دينهم وربوا أولادهم على المبادئ الشرعية ، والإخلاص فى جميع الأمور كما تقتضيه مراقبة الله والخوف منه ثم أكملوا العمل بما جاء به نبيهم فاتحدوا جميعاً وكانوا كالبنيان يشد بعضهم بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى

له سائر الجسد بالسهر والحمى إذا فعلوا ذلك كله فقد استعدوا
لأن يستعيدوا مجدهم السالف وعزتهم التي كانت لهم (وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١))

وإياك أن تصغى لأوثك الملاحدين من المتفیهقين الذين لم يعرفوا من
العلم الصحيح شيئاً ولا لهم من الوجدان الرفيع ما يذوقون به أسرار
الدين أو يتعرفون به الحق ويفقهون برهانه وإن كانوا من ذوى الزخرف
والتشديق الذين يخيل لك أنهم قرءوا كثيراً ودرسوا كثيراً ، فالعلم
أجل من أن يصل إلى حقائقه كل ناظر فيه أو يذوق أسراره كل
من يدعيه :

وقد قرر الفلاسفة أن كل من أخذ من العلم ما ليس مستعداً له
كان ضرر ذلك العلم الذى أخذه أقرب من نفعه ، وكان بمنزلة ضعيف
المزاج الذى لا يستطيع أن يهضم ما تناوله من الغذاء ، فلا غرو أن ينقلب
إلى فساد :

كذلك أدعياء العلم الذين لم يخلتوا له إذا قرأوا شيئاً من العلم
لم يحسنوا فهمه فأولوه على ما يناسب استعدادهم ويوافق أهواءهم لأنه
لم ينتهضم عندهم وكان خيراً لهم ألا يأخذوه

ولذلك يروى فى المأثور « ما من أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه
عقولهم إلا كان حديثه فتنة عليهم ^(٢) » . وذلك لأنهم لم يفهموه
على وجهه .

والعقول عند كثير من الناس مسخرة للأهواء لا مسخرة لها فهي لا تستمد إلا منها ولا تصدر إلا عنها ، وكان الواجب في حقهم الحمية عما لا يستطيعون معرفته كما يجب احتماء المريض عما يضره من الغذاء وإن كان ضرورياً لغيره .

وربما طرقتنا هذا الموضوع مرة أخرى والله يتولى هدى الجميع
بمنه وكرمه

هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر^(١) ؟

مارأيكم أدام الله فضلكم في رجل يدعى العلم ، وقد أذنب أحد أصحابه ذنبا على زعم ذلك المدعى ، فصار يدعو على هذا المذنب قائلا مانصه « اللهم أعم بصرك يافلان . اللهم اسلب إيمانك يافلان اللهم أمتك على الكفر يافلان » في جمع من المسلمين ، فغضب أحدهم وامتنع عن مصاحبته ، فعلم ذلك المدعى بسبب امتناعه ، وهو الدعاء ، فخطأه وأفتى بجواز ذلك الدعاء ، وأصر عليه ، فترجواكم بإلحاح الإجابة على ذلك ، ولكم من الله الثواب ، ومن المسلمين الشكر ،
أحمد عبد المنعم اللقاني

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
اطلعنا على خطابكم وما ذكرتموه عن ذلك المفتي الذي يأتي المنكرات الصريحة زاعما أنها من الدين ، وأنه من خير المسلمين الغيورين والجواب أنه إن صح عنه ذلك كان من أكذب الكاذبين وأجهل الجاهلين . ولو كان على شيء من العلم لاقتدى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ، أو بإبراهيم عليه السلام حيث يقول
(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)^(١) ،
أو بالمؤمنين الأولين حيث يقولون

(١) مجلة الأزهر - الجزء التابع - المجلد السابع - رمضان سنة ١٣٥٥

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٤١

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١)

ولنرو لك حديثا هو نص في الموضوع ، وسنذكر لك أحاديث

كثيرة بعد

لأن عمر - رضي الله عنه - أنه قد أتى برجل شرب الخمر ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلده في الخمر قبل ذلك ، فقال رجل من القوم بحضرتة صلى الله عليه وسلم اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم « لاتلعنوه فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه البخارى . وفي رواية لأبي داود عن أبي هريرة « لاتقولوا هذا ولكن قولوا اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه »

فهذا هو أدب الإسلام ، لا ما فعله هذا الفتى . وقد كان صلى الله عليه وسلم يلاذف من سبق عليه القضاء فوقع في حد من حدود الله تعالى ، ويقول « ادركوا الحدود بالشبهات » علما منه صلى الله عليه وسلم بالضعف البشرى الذى كثيرا ما يغلب صاحبه المؤمن إيمانا قلبيا صحيحا ، علما أنه سيرده إيمانه وقتا من الأوقات ، وستنهاه صلاته يوما من الأيام ، ناظرا إلى سعة الرحمة الإلهية ، وإلى كرم الله الذى ينظر إلى القلوب لا إلى الصور ، مبينا لنا أن الندم توبة ، وأن التوبة تجب ما قبلها ، وأن الحسنات يذهبن السيئات

وقد عرف صلى الله عليه وسلم أن الإنسان بمقتضى البشرية لا بد أن يكون له عنوات وهفوات ، فأرشدنا إلى الحمية ما استطعنا . فإذا

وقعنا في مرض الذنب لم يؤيسنا ولم يقتطنا ، بل أَرشدنا إلى الدواء الذي يخلصنا مما وقعنا فيه ، فقال « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »

فانظر إلى هذا التعليم النبوي الوجيز الذي اشتمل على مجامع السعادات الدنيوية والأخروية . فجزاه الله عنا أفضل ماجازى نبيا عن أمته . وقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل اعتذار المعتذر ، ويرشده ، ولا يؤنبه ، ويكتفي من الناس بظواهرهم ، علما منه أن صلاح الظواهر قد يجر إلى صلاح البواطن ، ولا يطلب من الناس الكمال في الأشياء ، ولا يكلفهم غاية واحدة ، نظرا إلى ما بينهم من التفاوت في الاستعداد ، وأن كلا يأخذ ما قدر له ولا يتجاوز مرتبته ، فكان يسيرهم جميعا في طريق الخير ، وينير لهم طريق الهدى ، ثم يدعهم لله تعالى .

ولا يدقق هذا التدقيق الذي يفعله الآن أولئك المتفهبون وقد غضب على أسامة غضبا شديدا عندما قتل الرجل الذي قال : لا إله إلا الله ، ولم يقبل منه أنه قالها تقية ، وصار يقول له أقتلته ؟ بعد أن قالها ، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل . مع أن الظاهر أن الرجل ما قالها إلا تقية ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يفتح باب الاحتمال وسوء الظن ، علما منه عما يترتب على ذلك من الشرور والمفاسد ، واتباع الأهواء والأغراض والأوهام والجهات ولذلك زجر أسامة وقال له « هلا شققت عن قلبه »

وسر هذا أن إصلاح الظواهر كثيرا ما يجر إلى إصلاح البواطن

كما قلنا ، خصوصا في بيئات الهدى وأوساط الدين والصلاح

هذا وقد قالوا: «إن الرضا بالكفر كفر» فهل يعتبر الدعاء بالكفر رضاء به ، أو فوق الرضاء كما هو ظاهر ؟ وقد ورد في الصحيح أن من رمى غيره بالكفر بآء به أحدهما ، إلى غير ذلك مما لا نريد أن نتوسع فيه . فانظر إلى تغليظ الشارع في هذا الباب الضيق الذي يجب أن يبتعد عنه المسلمون كل الابتعاد . ولولا أننا نعلم أن الشيخ الداعى بالكفر من التأولين لأغلظنا عليه القول ، ولكننا لانفعل وإن كان تأويلا فاسدا ، وتهورا شنيعا

غلظة فاحشة :

ولا يفترنا في هذا المقام أن ننبه على أن قوله الذي ساقه السائل بنصه «النهم أمتك على الكفر يافلان» غلظ فاحش : فإنه جمع بين خطابين لمخاطبين في جملة واحدة ، وهو مما نص علماء العربية على امتناعه .

وبعد : فقد رأينا أن نسوق إلى القارىء الكريم بعض ما ورد من الأحاديث التي تبين حقوق المسلم على المسلم ، وتبحث على الرحمة والشفقة حتى بالحيوان الأعجم ، ليعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيدا . فنقول

عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول **المُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَمَالُهُ ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْقَلْبِ - وَحَسْبُ أَمْرِي مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَخْفِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمُ** . إرواه الإمام أحمد وغيره . وإسناده جيد

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« مَنْ ذَبَّ عَن عَرِضٍ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْتِقَهُ مِنَ النَّارِ »
رواه أحمد والطبراني .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« إِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خِيَارُهُمْ ، وَآخِرُهَا شِرَارُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ ، فَمَنْ
كَانَ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْتَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ
أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » . رواه الطبراني .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« ادْرِعُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ
فَخَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَلَا تَنْزِعُ الرِّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » . أخرجه الترمذي .

وعن جرير رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ » . أخرجه الشيخان والترمذي
وفي أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « لَا تَنْزِعُ الرِّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » أخرجه
الشيخان وأبو داود والترمذي .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا

فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ وَنِ
 الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي
 كَانَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ فِي يَدَيْهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَىٰ
 الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ فَفَعَّرَ لَهُ . إِيَّاكُمْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا
 فِي الْبَهَائِمِ جُرًّا ؟ قَالَ : فِي كُلِّ كَبِيدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ . إِيَّاكُمْ الشَّيْخَانِ
 وَأَبُو دَاوُدَ . وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مَوْسَىٰ رَحِمَتْ كَلْبًا مِثْلَ ذَلِكَ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - : « نَ الرَّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا شَانَهُ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ .

وعن جرير - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 « مَنْ يُحْرَمَ الرَّفْقَ يُحْرَمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ .

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم -
 إِذَا بَعَثَ أَحَدًا فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ : « بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا ، وَيَسِّرُوا
 وَلَا تُعَسِّرُوا » . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ، إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي السَّنَةِ وَهُوَ كَثِيرٌ

وبعد فلا غرابة في مثل تلك الفتاوى الضالة فقد أخبرنا
 ٣- صلى الله عليه وسلم - أن الناس سيستخدمون رؤساء جهالاً فإذا سألوه
 أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

وقد أخبرني من أثنى به أن بعض العلماء المفتونين قال أمامه
 إن الصلاة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد الأذان أشد من أكبر الكبائر
 حتى القتل . كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (١)

(١) سورة الكهف : آية هـ

مع ملاحظة أن علماء المذاهب الأربعة يرون أن الإتيان بها مستحسن .
ويصرح الشافعية بسنيتها . وقد ذكرنا وجه ذلك في بعض ما كتبناه .
فانظر إلى أى مدى وصل التبجح وقلة الحياء مع رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ، ثم مع أئمة المسلمين وعلماهم

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

ليس هذا شأن المسلم الذى يخطا. لدينه أو يعرف قدر نفسه
ولعل ذلك يقع منك موقع الغرابة والدهشة ولكن لا محل للغرابة بعد
ما قال صلى الله عليه وسلم « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » .

ولنذكر لك ما استند إليه ذلك الجاهل فى فتواه الحمقاء ، تخفيفاً
لدهشك ، وتقريباً لبعض ما كنت تظن أنه لا يقع من مسلم فضلاً
عن عالم ذلك أنه يقول إنه تشريع جديد من عند من قال به
ولا تشريع إلا لله ورسوله . وأما صاحب المعصية فلم يشرع شيئاً من
عند نفسه لأنه يعتقد أن المعصية حرام كما فى شرع الله ورسوله
وقد فات هذا الجاهل الغي أن من قال ذلك من أئمة المسلمين لم يقله
على أنه شرع من عند نفسه ، بل قاله على أنه شرع الله فى اعتقاده ،
فليس عليه شيء ولو كان مخطئاً فى الواقع ، لأن المجتهد له أجران إذا
أصاب ، وأجر إذا أخطأ ، كما فى الحديث الصحيح .

ويجب على كل مجتهد أن يعمل باجتهاده ، ولا يجوز له أن يخالف
ظنه ، كما بين ذلك فى علم الأصول ، خصوصاً على رأى المصوبة

ولكن ما للجهول ولهذه المباحث ؟ وأنى له بعد ذلك بمدارك الأئمة الذين عرفوا من روح الشريعة ما لم يذق له طعماً ، واستنبطوا من منظومها ومفهومها وإشاراتنا وعلل أحكامها وأسرار تشريعها ما لم يشم له رائحة ؟ وكأن ذلك المسكين فهم أنهم ادعوا الرسالة حتى قال ما قال .

والإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات
أفرحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فسلم لأئمة الهدى ما قالوا
ولم ينازعهم فيما لم يدر سره ولم يسبر غوره
فحسبك تسلية العلوم لأهلها وحقق فيها أن تكون متابعها
أسأل الله أن يقينا شر فتنة العقل الناقص ، والعلم الأيتر ، وأن
يخلصنا من ضلالات هذا العصر الذى تسابقت فيه عرج الحمير ،
للأئمة وكرمه ؛ !

الَّذِينَ أَنْفَعُوا لِلْعَمْرَانِ مِنْ كُلِّ الْقَوَائِمِ^(١)

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٢)
(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٣)

إنني أدعو في مقالي هذا إلى الإصلاح باسم الدين وأعوذ بالله من النزق وسوء التأويل ، وقد صارحتك في أول الأمر بما أريد أن أقول لأنه لا يمكنني أن أكون إلا صريحاً ولا أحسن غير هذا ، فأرجو ألا تنفر من العنوان أو طول البيان ولك علينا ما شئت من تحكيم الوجدان أو الرجوع لقواعد العمران ، وافرضها أيديك الله نظرية جديدة في الإصلاح أفلا يدعوك العلم وحب استطلاع الحقائق أن تتشوف إلى تلك النظرية حتى تتمحص برأيي ورأيك ورأي أمثالك من المنصفين المخلصين ، وأستسمحك فيما عسى أن يكون من طول في نظرك فيان الموضوع خطير وكل نقطة من نقطة مهمة في ذاتها وهي مقصدان ومقدمة .

وإنني أتقدم إلى الكتابة في هذا الموضوع حبا في الإصلاح الصحيح وإجابة لصوت الدين الذي يرن في أذن كل مسلم من أعماق ضميره

(١) مجلة الاسلام - السنة الخامسة - العدد ٤٨ - ذو الحجة - سنة ١٣٥٥

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٣١ - ٣٢

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٧

مصيخا به من سموات روحه ، صوت يسمعه كل أحد بقي في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وإني أعلم مع هذا أن هناك آذانا صما وقلوبا غلغا لا تجيب الدعاء ولا تسمع النداء . (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآلَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)^(١) . بل أعلم فوق هذا أن لمدنية الحديث التي سار الناس فيها على غير هدى ولا بصيرة قد افسدت النفوس وطفغت على العقائد بسيلها الجارف حتى أماتت الوجدان وأصبح لا ينفع البرهان ، فترى كثيراً من أولئك الملحدين المتحاملين الذين أرادوا أن يكونوا من كبراء أهل الدنيا فمرقوا من الدين ولم يدركوا ما أرادوا من الدنيا فبقوا حيث هم بلا دين ولا دنيا ، وكانوا خطراً بعد ذلك على أممهم وأنفسهم ، أول مميزاتهم الطيش والنزق والكبر والصلف واحتقار الناس والإعجاب بآرامهم .

وبالجملة فالشيطنة أخص صفاتهم وقد خلق الشيطان من مارح من نار ، فهم في الشر نار مستعرة والنار لا تعرف الدين ولا الأناة ، وهم في الأمم أوبئة قتالة وجهالات مركبة .

أعلم أن كثيراً من هؤلاء ينفر من مثل ذلك العنوان فضلاً عن أن يقرأه أو يبحث ، ومنهم من يظن نفسه سياسياً فيجعل نفسه في السماء وهو في قاع الماء زاعماً أن السياسة علم غامض يجب أن يحتكره هو

وأمثاله ، ويرى علماء الدين أبعد الناس عنها وأجهلهم بها ، وقد ساء فهمه وكذب ظنه ، فقد رأينا السياسة عندما خاض فيها الناس كثيراً ما يخطئ فيها العظماء ويصيبها بيضاء ناصعة من سواهم ، وقد سابق الصغير الكبير والسوقة الملوك .

على أنني أعتقد أن السياسة متى اعتبرت علما ورجع فيها إلى قوانين الدول الأوروبية والمشرعين هناك فلن ترقى بها الأمة المقلدة « التي برهنت برجوعها إليها أنها غير مستقلة »

وأول عوامل الفناء في الأمم هو ذلك التقديس البالغ الذي يجعلها فانية في غيرها غير محسة بنفسها ولا عارفة شخصيتها ومميزاتها ، وما لم يكن التشريع مستمدا من روح الأمة وعاداتها وعقائدها التي كونت نفسها وحققت شخصيتها فلن ينفع أبدا ولن تفلح أمة أخذت به ، وليس يمكنها ذلك إلا أن يذهب تكوينها وتزول غرائزها وتبدل نفوسها وينقلب معدنها ، وفي ذلك فناؤها والقضاء عليها فالسائر بها في هذا الطريق مجد في هدمها وتقويض ما بقى من بنائها ، وكما كل شيء إنما هو في بلوغه غاية التي هو مستعد لها لا أنه ينقلب شيئا آخر يباينه ويذهب روحه

نعم إن العلماء والمخلصين لا يعرفون تلك السياسات المعقدة التي يلتوى طريقها ويتلون سالكها ولا يعرف أولها ولا آخرها ، وتنصبغ الحقائق فيها كل يوم بلون جديد يبهر الطائش الأحمق ويحزن المفكر البصير

وإني أعجب، كل العجب من أولئك الجاهلين الذين يزعمون أن
ولاعلاقة بين الدين والسياسة وربما قال متطرفهم بين المدنية والحدان ،
رليت شعرى ماذا صنع أولئك المتفيهقون الثرثارون وماذا أتوا به من
الإصلاح وإذا نظرنا في حالهم وحال الأمة الإسلامية أيام تمسكها
بدينها وعظمة سلطانها عرفنا مقدار ادعائهم محلها من الكذب والتسويه .
فإذا ألتيت بنظرك إلى حال الرسل ومن على شاكلتهم أخذ منك العجب
كل مأخذ حيث تراهم قد استطاعوا ألا يغشوا ولا يحميدوا عن الحق
وأن يجتذبوا نلك الأميال ويؤثروا تلك العواطف ويقتلعوا رذائل
العادات من النفوس ويأخذوا الناس أخذًا كليًا عن طباعهم الأولى من
غير أن يصادم لحق الأهواء أو الأهواء الحق

وهذا شيء عرفة كل من عالج الناس في طباعهم المختلفة ونزعاتهم
المتباينة وبهذا أمكنهم أن يصلحوا الأمم ويؤلفوا بين الأهواء ويجعلوا
للأمة سياجا سديكا من الوحدة التي شملت كل أفرادها

وحيبك الأمة العربية التي كان يعجز الفرس والرومان أن يضعوا
قانونا يخضعها ونظاما يوحدها . فذلك شيء فوق طاقة حكماء الفرس
وساسة الرومان أكبر من أن تصل إليه سيف كسرى وقيصر

ثم انظر كيف فعل الدين بالعرب عندما اعتنقوه بصدق وإخلاص
ومحبة ، فقد تعلمهم من الظلم والوحشية وسفك الدماء ووأد البنات
وفعل المنكرات إلى التسابق في ميادين الخيرات واكتساب أنواع
القربات ومراعاة خالق الأرض والسموات ، بذلك كانوا ملوكا في

الأرض ملوكا في السماء بعد تلك الهمجية التي كانوا بها أحط الأمم على الإطلاق ثم أصبحوا بالإسلام وتعاليمه أرفع الأمم على الإطلاق

ونقول بكل أسف قد فرطنا في تعاليم ديننا حتى كدنا نكون أذل من على وجه البسيطة ، يعلّس فينا كل طامع وهزأ بنا كل قوى

وبعد فلا شك أن من حافظ على أوامر الدين وتعاليمه تربت فيه مملكة المراقبة لله والخوف من الله فيكون مصدر خير وبركة وقد قال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)^(١) وقال : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(٢)

الخلاصة

والخلاصة أن القوانين الوضعية لا تنفع بلاد دين فليس في استطاعة القوانين إلا أن تحيل المجرمين على المحاكم بعد تحقيق النيابة ورجال الشرطة وعمد البلاد ولكن ليس^(٣) في استطاعتها أن تهب العمدة ولا أن تمنح الشرطي مخافة من الله ولا أن تعطى وكلاء النيابة مراقبة لله ولا أن تطهر القضاة من الأغراض والغايات ولا أن تمن على الأطباء بالإخلاص والنزاهة ، وإن كان في استطاعتها أن توجب الإحالة على الطبيب لتحديد سن الزواج مثلاً فليس في استطاعتها أن تحمله على أن يقرر الحقيقة ، إلى آخر ما تعرف ولا تنكر ، وسيجد اللص والقاتل

(١) سورة المارج ، الآية ١٩ —

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

وكل مجرم من المجرمين من تلك الدوائر التي خلت فيها نفوس من معرفة الله وأقنرت فيها قلوب من مراقبة الله مجالا واسعا من التلاعب بالقانون « حتى في الرسميات » لأن رجالها أحرار فيما يقولون ويقررون. وكيف يقبل المسلم تلك القوانين التي تبيح الكفر العلني وتحمي معتنقيه محافظة على تلك الحرية التي تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظته على حريرته فيما يريد .

فهل ترالد. أحسنت إليه ؟ ؟

لم نجد أحداً من أولئك المهرة الذين ملأوا الدنيا كلاماً أمكنه أن يصلح أفراداً معدودة إصلاحاً حقيقياً بل ربما أعجزه إصلاح بنيه وذويه فضلا عن أمة أو أمم فما هذه الطنطنة الفارغة وعلام يتشدد أذيالهم الجاهلون الذين يعادون الدين ويعتقدون أنهم أوتوا علم. لم يؤتته أحد من العالمين « إني أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » وحقاً من جهل شيئاً عاداه فتراهم يفرون عند ذكر الله وكتاب الله كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)

فماذا علينا بعد ذلك إذا قلنا للحكومة وللجنة الحقانية أن الدين الإسلامي فيه من قواعد المدنية وال عمران ما يكفل رقي الأمم وسعادة البشر فهل للشرائع السماوية أن تحل محل الشرائع الأرضية في هذا

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

الدور الجديد وفيها من الفسحة وسعة الصدر ما قرره الأئمة العارفون بروح الشريعة الواقفون على أسرارها ومراميها . « ولنا مقال تفصيلي في أصعب شيء يذكره الملحدون عن الدين الإسلامي بسطنا القول فيه وبيننا ما فيه من الحكمة وبعد النظر، بمجلة الأزهر - الجزء السابع من المجلد السابع .

أننا مقبلون على تشريع جديد . وقد آن أو ان التفكير فيه وستوضع أسسه ، وبالجملة فقد أظننا إجماله وتفصيله ، فما أجددنا أن يكون لكل منا وجهة في البحث فلا نقصر بحوثنا على جهة واحدة فقد يوضع لنا من أسس التشريع وقواعده الكلية ما يصعب التخلص منه بعد ، أو يتطلب مجهوداً كبيراً في إزالته . وقد تضيع فرصة كان يمكننا أن نمهد الطريق لما يكون خيراً للبلاد وأجدى على الأمة إذا نحن سكتنا ، فعلياً أن نفكر جميعاً كل في طريقة قبل أن يكون ما هو كائن حتى نزيل ما عسى أن يكون معه عقبة في سبيل خير أو ضياع فرصة في إزالة شر فنكون بهذا قد احتطنا من جهة وأعدنا النفوس لذلك من جهة أخرى ، وأن الأشياء بمبادئها والأمور بمقاصدها

فهل لنا أن نلفت أنظار المشرعين ونحن في أول الطريق أن يضعوا نصب أعينهم في تشريعهم الجديد البحث في الشرائع السماوية وليفرضوا أنها قانون من القوانين التي سينظرون فيها في دور الإجمال أو التفصيل فيأخذوا منها ما يرونه أرفق بحال الأمة وأقرب إلى عاداتها وميولها من كل ما يكون موافقاً للمدنية والعمران وليبتدئوا بما اتفقت الشرائع السماوية كلها على تحريمه (كالزنى وما إليه)

نقول هذا تديلاً ألجأتنا إليه الضرورة صلباً للإلصاف ورغبة في
حذف الشفاهم وأدا على بصيرة تامة من مدينة الإسلام ومدينة أرب
ولست أشك في الناس مامنهم من الأخذ بقواعد الدين الإسلامي
إلجأهم إليها وعم التفتاتهم إلى ما فيها من السعادة والرقى وأن أمم
أوروبا لتترب من الدين الإسلامي شيئاً فشيئاً من حيث يشعرون
أو لا يشعرون

وهل تحريم الخمر الذي قرره بعض الدول المتمدينة فيما مضى
والذي يتوق إليه كثير من أمم أوروبا إلا ترديد لصدى صوت الإسلام
الذي حرّمه من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وكأنه أبان لنا
عما شرعه فيها من الحد والتغليظ (وقد سماها أم الخبائث أضعاف
ما بينه الأطباء من أضرارها التي تفعل بالناس ما لم تفعله مكروبات
الطاعون فلهذا لا مها بتقاليدنا وعلى مقتضى ديننا

هل إذا فعلنا ذلك نكون قد بعدنا عن المدنية كثيراً وتبرانا من
الحضارة والإنسانية أم الإنسانية الحقّة تبرأ إلى الله مما نحن فيه

ان الإسلام وحكمم باحضرات المتنورين ليس دين العجائز ولا
المتعطلين . وإنما هو دين الرقى والسعادة وال عمران لو عرفه أهله وتمسك به
ذووه ، ولقد جاء بالمساواة بين جميع الناس وبالغ في ذلك إلى حد أنه
سوى الملوك « مثل جبلة بن الأيهم بالسوقه مثل ذلك الفزارى الذى
أراد عمر بن الخطاب أن يقتص له من جبلة »

أما الآن ونحن في القرن العشرين قرن الحضارة والنور كما يقولون
غروباً تنشق بين الجنس الأبيض والجنس الأسود ، ومن لم يفرق

بينهما نظرياً فرق بينهما عملياً : فمدنية الإسلام أكبر مدنية عرفها العلم ، غير أن الإسلام لا يعرف التطرف والإفراط بل يبي أمره على الحكمة في كل شيء .

واو أقيمت شرائع الإسلام على وجهها لنا وجد في أوروبا أولئك الاثتراكيون الذين قلبوا العروش وزعزعوا أركان السلام ، والله دُر من قال مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم

والاثتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغوائل
داويت متشداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

على أننا نقول قولاً إجمالياً أن كل من مارس التاريخ يعلم أن المسلمين قد امتد سلطانهم من الشرق الأقصى في آسيا إلى المغرب الأقصى في إفريقية ، ثم تخطوا إلى أوروبا ، فأسسوا بها تلك المملكة الفيحاء التي وصلت إلى برودو من بلاد فرنسا في زمن وجيز لم يسبق له مثيل في التاريخ ، فإما أن يكونوا قد وصلوا إلى ذلك كله بتأييد إلهي وإما أن يكون ذلك بسر في تعاليم دينهم . فإن كانوا قد تغلبوا على أرباب المدنيات الراقية التي كانت للفرس والرومان بسبب تأييد إلهي وأمر سماوي ، فلماذا لانرجع إلى هذا الدين الذي أيد الله أهله ذلك التأييد ، وإن كان ذلك راجعاً إلى حسن سياسة في الدين ورق في تعاليمه فلماذا لانرجع إلى تلك التعاليم التي رفعت العرب « وقد كانوا على ما علمت من الهمجية والجهالة على هام كسرى وقبصر وغيرها وقد كانوا على ما علمت من الرقي والحضارة والفلسفة والآداب » .

وليس يسعنا في هذه العجالة إلا أن نلمح للحقائق تلميحاً ولسنا نريد من مقالنا هذا إلا أن نلفت الأنظار إلى الأخذ بمبادئ الدين الإسلامي بعد انبثاق فيه كما يريدون . [٦]

ولتلاحظ الحكومة أن ذلك أعظم شيء يرضى الأمة المصرية رضاً تاماً فتتمثل في عبئها حكومة دينية مقدسة ، وأهل البلاد متدينين يقدسون دينهم تديساً تاماً ويجعلون من يعمل به إذا وجدوه ، وهي آثمن فرصة يجب ألا تضيع ، فهل للحكومة أن تعمل على رضا الأمة ؟ ، وهل للأمة ودينها أعز شيء عليها أن تطالب الحكومة بهذا ؟ ، وهل للعلماء أن يقوموا بواجبهم في هذا الموضوع ؟ وما عليهم ألا يجابوا ؟ . فإذا فعلوا فقد أدوا ما عليهم وكانت التبعة على غيرهم (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (١)

على أن صدق العزيمة وقوة البرهان لا يقف أمامهما شيء ، والأمة أكبر عزم لديهم أيها العلماء (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (٢)

على أننا نتحاكم نحن والحكومة واللجنة والبرلمان إلى المصلحة الصحيحة وإلى ما يوافق روح الأمة وتقاليدها وما هو أوفق بأخلاقها ونفسياتها وأمالك لعواطفها وميولها

ولست أخص عالماً بعينه فإن ذلك واجب على كل عالم بل على كل مسلم (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣)

(٢) سورة محمد ، الآية ٧

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٥

الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية^(١)

تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعا ،
وكفى بذلك فرقا كبيرا بينهما ولكننا نزيدك فروقا أخرى فنقول
إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام ، ولا يعنيه إلا وحدة
الأمة وراحة الحكومة ، ولا يهيمه شئون الأفراد الروحية ، ولا من وظيفته
إصلاح قلوبهم وتربية نفوسهم ، ولا مراقبتهم في أخلاقهم

وأما الشريعة فقد تكفلت بإصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت
بإصلاح الأمم ، فرسمت لكل إنسان خطة واضحة يسير عليها في نفسه
وفي أسرته وفي جيرانه وفي الناس أجمعين ، وحظرت عليه أخلاقا تعوقه
عن كماله ورقيه إلى أحسن أحواله ، فطهرته من الحقد والغل والحسد
والشره وسوء الظن . . . إلخ .

حتى أمرته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وطلبت منه أن يكون
خيرا محضاً وأن تكون سريره أفضل من علانيته ، وعلمته أن يؤثر
على نفسه ولو كان به خصاصة ، وأمرته بالرحمة لكل ذي روح ،
وعرفته أن « امرأة دخلت النار في هرة » ، إلى غير ذلك مما لعلك غنى
عن بيانه

(١) مجلة الأزهر - الجزء الخامس - المجلد الثامن - جادى الأول سنة ١٣٥٦

وقد تعلم — رعاك الله — أن الأمة لا تصلح في مجموعها إلا إذا صلحت قلوب أفرادها ، وإلا كانت كالبناء المرتفع أمام الأنظار من خارجه ، المتفتت الأجزاء في داخله .

وإن شئت فألقى بنظرك إلى ثروة أمتنا المصرية تجدها قد ذهبت ثلاثة أخماسها تريبياً ، فإذا بحثنا عن سبب هذا وأردنا أن نشخص ذلك الداء الذى سرى في جسم الأمة سريان المُلِّ في جسم الرجل العظيم وجدناه راجعاً إلى عدة أمور تحرمها الشريعة كل التحريم

فمنها «الربا» الذى ورد فيه الوعيد الشديد في القرآن والسنة

ومنها «الخمير» التى هى أم الخبائث. ومنها المقامرة التى جعلها القرآن من عمل الشيطان ، وَنَاطَ الْفَلَاحَ بِاجْتِنَابِهَا حَيْثُ يَقُولُ (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١)

ومنها «المنازعات» التى ماجء الدين إلا ليستأصل شأفتها من النفوس .

ومنها «كثرة صرب المال» فى غير محل الضرورة ولا موطن الحكمة. وقد ذم الله المبذرين حتى جعلهم إخوان الشياطين فقال « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا »^(٢) إلى غير ذلك مما يعرفه المستبصر ولا يخفى على الباحث

فلو أن الأمة تربيت تربية دينية وحافظت على شريعتها لحفظت عليها ثروتها ، ولكانت الآن من أغنى الأمم على وجه الأرض فماذا

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٧

(١) سورة المائدة الآية ٩٠

أغنى عنها القسانون وقد تركت شريعتها فذهبت عزتها الحقيقية
(لا الصناعية) واضمحلت ثروتها التي هي أساس مجدها ومناط حياتها
الصحية

بل يمكننا أن نقول إن الشريعة أبلغ فيما يريده القانون أيضاً
من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعديات ، فإن الإنسان لا يخاف
القانون ولا يرهب سلطانه إلا إذا لم يكن له وسيلة إلى الخلاص منه ،
وما أكثر وسائل الخلاص وأقل بواعث الإخلاص !

فإذا عممنا التربية الدينية نكون قد وطدنا دعائم الأمن العام أكبر
توطيد ممقتضى ما يغرسه الدين في القلوب من أن الله يعلم السر وأخفى ،
وأنه يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً
يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأن « من رُوح أخاه لم يؤمن الله
روعه يوم القيامة » ، إلى آخر ما جاء في الكتاب والسنة وهو كثير
فلا فرق إذاً بين أن يكون الإنسان في العواصم حيث متناول الأحكام
عمرأى ومسمع من الحكام وبين أن يكون في الصحراء الكبرى حين
لا ديوان ولا سلطان

الخلاصة

إنه لا يوجد شيء أنفع للحكومة والأمة والأفراد في أحوالها الاقتصادية
والاجتماعية من التربية الدينية فمن فوائدها للحكومة أنها تردع الناس
عن الجرائم لأنها ترجع طمعهم في الدنيا إلى الحد المعتدل ، فلا يتهاكون
عليها هذا التهالك الشديد .

فالفرق بينها وبين القوانين من هذه الوجهة : أن القوانين لا تخفف محبة الدنيا من القلوب (ومحبة الدنيا كما تعلم أساس المنازعات والمخاضات ومنشأً متعدى وكل أنواع الإيذاء حتى أخذ الرشوة والسرقة) ولا تطهر النفوس من رذائلها كالحرص والحسد والشره والبغى والحقد والغضب ، إلى غير ذلك ولا يخفى ما يترتب على تلك الرذائل في المجتمع الإنساني من لشور وسوء المعاملة ممقتضى تلك العوامل الخبيثة التي تسوق صاحبها إلى هلاكه وهلاك غيره شاء أم أبى

والفرق الثاني أن مراقبة الله لا تشرها القوانين ، فيمكن أن يتقى الإنسان غائلة القانون بالتحيل والاختفاء مثلاً ، بخلاف الشريعة .

والفرق الثالث أن القوانين لا تكفل نظام الأفراد ، ولا تتعرض لشئونهم ولا لإصلاحهم - اللهم في أنفسهم

والفرق الرابع أن الشريعة تعطى الروح حظها من معرفة الله ، وتستحث القلوب على التنزه في الجمال المطلق الظاهر في الكون كله (الذي لأجله بحثت كل أمة عن إله تعبده)

هذا ولا نزال نكرر أن الأمة المصرية لو كانت على الدين الصحيح ما ذهب شيء من ثروها التي كادت تتلاشى بالكليّة لأنها لم تذهب كما قلنا إلا بالربا ولمقامرة والإسراف والتبذير والدخول فيما لا يعنى والتفاخر والتنافس ، كل ذلك يحرمه الدين .

وانظر إلى الأمة الإسلامية في بدء أمرها حيث سادت جميع الأمم في أقل من قرن بفضل سيرها على تعاليم دينها الذي يقول لها

علو الهمة من الإيمان . ويعلمهم أنهم يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ،
 وأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ،
 وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ويعلمهم أن
 ينفروا إذا دعوا لخفافاً وثقالاً وجماعات ووحداناً ، وأوجب عليهم
 الهجرة من أرض الذل ، وأمرهم بحسن المعاملة مع كل أحد ، والاعتدال
 في كل شيء ، وحذرهم من الإفراط والتفريط ، وحض على طاعة
 المرؤوسين للرؤساء ، ومشاورة الرؤساء للمرؤوسين وقد قال لنبيه
 عليه الصلاة والسلام (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(١) بل أمر باحترام
 الطبقة الدنيا للطبقة العليا عموماً ، وبنوqing الصغبر للكبير ، ومعرفة
 الفضل لذويه ، وبالجملة أمر بإنزال الناس منازلهم

فعل كل ذلك كي تتم المحبة بين الجميع ، وتكون الروابط
 على أكمل وجوها .

بالغ في الحث على التعاون والاتحاد ، وطلب من كل أحد أن يعمل
 من الخير ما يعود على عشيرته وأمته ، حتى جعل إمامة الأذى عن
 الطريق شعبة من شعب الإيمان ، وهو القائل (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
 وَالتَّقْوَى)^(٢) « يد الله مع الجماعة » وأمر باستعمال العقل في
 كل شيء ، ونهى عن اتباع الظن ، حتى قال (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)^(٣)

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

(٢) سورة المائدة ، الآية ٢

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٦

وقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا . وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا)^(١) وقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)^(٢) . ونعى على قوم سوء حالهم بقوله (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)^(٣)

وبى عقاؤده على صرائح العقول ومقتضى البراهين ، إلى آخر ما جاء فيه مما نريد صرح ببناء الأخلاق ، وجعل الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، لذلك كان غير قابل للنسخ لأنه لا يتأتى أن يجيء زمان يحسن فيه ترل الاعتدال ومجاوزه الحدود والتباعد عن مكارم الأخلاق .

فلا غرو أن يصبحوا بفضل هذه التعالم من أعز الأمم وأرفعها : مع راحة القلوب واطمئنان النفوس ، وابتهاج الأرواح ، والتبريز في كل خير وفضيلة فالمسلمون اليوم وإن كانوا على أقبح صورة . فالإسلام عند من يعرفه على أجمل صورة ، ولذلك نقول إن نقص المسلمين وتأخرهم لنقص تربيتهم الدينية لا لنقص في دينهم

وعلى الجملة فالتربية الدينية أعظم وسيلة إلى توطيد الأمن العام ، وتحسين العلاقات الوطنية والمعاملات التجارية وجميع الشؤون الاقتصادية وأكبر معين على حفظ الثروة وترقية الأمة وتقوية الروابط الودية فيما بين أفرادها عندما تكون لها تلك النفوس الطاهرة : فتتمكن منها

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢

(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٦

(٣) سورة النجم ، الآية ٢٨

عرا المحبة والإخاء بمقتضى قول الدين « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا
وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا »

وإننا لنتمنى تحقيق تلك الأمنية التي لا شيء أنفع للأمة منها في
هذا العصر الميمون إن شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز

وأما التربية غير الدينية التي عنيت بها الأمم المعاصرة الآن فلاتطيق
ملك النيران المتأججة ولا تल्प من سورتها ولا تحدث مراقبة الله
في النفوس بل تجعل المترين بها يعتقد أنه أولى بالثروة والرفعة
من غيره ، فيحتال لذلك بكل أنواع الحيل وتمتليء نفسه حسداً
على كل من سواه . وربما جرت تلك التربية إلى الإلحاد ونبد المعتقدات ،
فأصبح لا يعنيه إلا الدنيا ، ولا يهمه إلا التنافس فيها بلا مراقبة لله
لأنه لا يعرفه ، ولا طمع في الآخرة لأنه لا يؤمن بها

الكلمة الختامية

إن مزايا الشريعة لا تكاد تحصى ، فشتان ما بين قانون يضعه
رجال لا يعنيه إلا مظاهر الحياة المادية ، وبين قانون يضعه خالق
الكون المدبر لكل صغيرة وكبيرة يكفل به للناس سعادة الحياتين

تلك القوانين تبيح الزنى وشرب الخمر والتلهي بالميسر، وهى أمهات
الشرور كلها ، محافظة على مبدأ الحرية الشخصية وما مثلها عندى
إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته
فما يريد . فهل تراك أحسنت إليه !

تلك القوانين تمنح دروس الدين من المدارس ، فأول ما تغرس في نفوس الناشئة بهذا العمل أن الدين في محل الإهمال ، فلا ينبغي أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية تترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين ، وأهون عقيدة فيه .

واعلم أن فلاسفة أوروبا وعقلاءها يثنون من شيوخ الإلحاد ، ويتمنون أن يسود سلطان الدين على الأفكار ، علماً منهم أن خلو النفوس من الدين منذر بالخراب العاجل أو الآجل .

قال فيكتور هيجو من حكماء أوروبا

« يجب أن يكون التعليم الابتدائي مبنيًا على الدين حتى يكون صالحًا ، ويجب أن يُساق إلى المحاكم من يرسل ولده إلى مدرسة لا تعلم الديانة . »

تأمل كيف أوجب سوق من لا يعتنى بالتربية الدينية إلى المحاكم!

وقال فيكتور كوزان

« إن النعوب لأشد احتياجاً إلى المبادئ الدينية منها إلى الشرائع المدنية والعلوم السياسية . »

وقال روسو

« شر الشرور في الممالك أن يكون الله مجهولاً فيها ، فإن في ذهاب الديانة تقويضاً لأركان الهيئة الاجتماعية . » إلى غير ذلك من كلامهم ، وهو كثير . وما أصدق « روسو » فيما قال وأبعد نظره فيما أراد !

وإن أردت مصداق ذلك فانظر إلى الأمة الإسلامية في بدء أمرها حينما كانت أعز الأمم على الإطلاق وأرفعها على الإطلاق ثم انظر إليها اليوم وقد تقوَّض بناؤها وذهب مجدها ، فأصبحت تتسلى بالسراب عن الشراب ، وبالخيال عن الحقيقة ، وبزخرف الكلام وأضغاث الأحلام عن النظر الصحيح في سنة الله في خلقه ، وما تقتضيه توانين العالم في ماضيه وحاضره ، وإن في ذلك لعبرة كبرى لذوى الأبصار وأهل الاستبصار .

أسأل الله أن يعاملنا بما هو أهله ، ولا يعاملنا بما نحن أهله منه وكرمه

الشجاعة

لقد روى الشيخان عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- راجعاً على فرس لأبي طلحة والسيف في عنقه وهو يقول لم نراعوا

ومن مواقفه -صلى الله عليه وسلم- المشهورة الضخمة- وكل مواقفه صلى الله عليه وسلم ضخمة - مواقفه يوم حنين روى البخارى ومسلم وحكاها القرآن أيضا أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين

واتفق الشيخان على أنه -صلى الله عليه وسلم- كان راكبا بغلة ولفظ مسلم من رواية العباس -رضى الله عنه- : فلما التقى المسلمون والكفار ، وذى المسلمون مدبرين ، فطقق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يركض بغلته ثبيل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكفها ألا تسرع

ولمعر الله إن ذلك لفوق مانعهده من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المولفة بعد ما فر عنه أصحابه ، وقد سوصاً إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المنطهمة ولفرسان

المدربة وقد كان يقول وهو على ذلك الحال أنا النبي لا كذب ،
أنا ابن عبد المطلب

فكأنه كان يلفتهم إليه وينبههم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه
من البشر يستطيع ذلك أو قريباً منه ؟ ولكن لا عجب فقد امتلأ
قلبه ثقة بالله وتوكلاً عليه ، عالماً أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ماشاء
كان وما لم يشأ لم يكن (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا
هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) (١)

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تعجب أمام شهوتك عندما
يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عندما ياحتد سلطانها ويتحكم شيطانها
ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة ، إنما
الشديد من يملك نفسه عند الغضب » رواه الشيخان

وإنما كان هذا هو الشديد لأن جمرة الغضب التي تتقد في قلبه
لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله
ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواها ، فصايرها حتى خمدت كل الخمود ،
ولم يظهر عليه شيء من آثارها لأنه ملئك زمام نفسه ، فلم تجمع به ،
ولم تورطه في الهلكات

وقد روى البيهقي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد مر بناس يحملون
صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال « ألا تحسبون الشدة في حمل
في الحجارة ؟ إنما الشدة أن يمتلى الرجل غيظاً ثم يغلبه »

وانظر إن شئت إلى ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد وقد كسر المشركون ربايعته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »

وهذا شيء لا يكاد يصدقه العقل لولا أن النبي من طراز آخر غير ما تعرف في الناس ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الوقت الذي حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقاديرهم - صلى الله عليه وسلم - .

وروى البخارى ومسلم والبيهقى في الأدب وأبو داود والقاضى عياض في الشفاء واللفظ له ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : « كنت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابي فبردائه جبذة مديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبىك فسكت النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى بمثل ما فعلت بى ؟ قال لا قال لم ؟ قال لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . » وهو فى هذه الحادثة أيضاً لم يعف عن داء الجاهل فقط ، بل حمل له بعيره كما طلب فكان فى ذلك ممثلاً

قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^(١)
وكم له من مثل ذلك - صلى الله عليه وسلم -

وقد قالت السيدة عائشة في بيان خلقه « كان خلقه القرآن »
ثم قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)^(٢) إلى آخر ما لا يمكننا
تفصيله في هذه الكلمة العجلى

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ ، وَالْاِقْتِدَاءَ بِهِ - صلى الله عليه وسلم - ، بِمَنْه
وكرمه

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

(٢) أول سورة (المؤمنون)

دين الإسلام كفنيل بمصالح الدنيا والآخرة^(١)

جاء الإسلام بكل ما تبتهج به العقول في العقائد في الأخلاق في
الأوامر ، في النواهي ، في معاملة الخالق والمخلوق ، فيما يحسن به حال
الراعي والرعية

وبالجملة جاء في كل أبواب السعادة الدنيوية والأخروية بما لم
يأت به مصلح ولم يحلم به فيلسوف . . . جاء الإسلام بتفقد أحوالك في
نفسك وفي أمرك وفي جيرانك وفي الناس أجمعين : فأوجب عليك
ألا تخاطب بنفسك فقال : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ^(٢) وقد
ورد النهي عن النوم فوق سطح البيت إذا كان بلا حاجز يمنعك من
السقوط رحمة بك واعتناء بشأنك كما ورد الوعيد الشديد فيمن
قتل نفسه

وبما أرتته في القلوب من الرغبة والرغبة من الله عز وجل - ، أمكنه أن
يردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو يلقوا بها إلى المهالك ، وليس
في إمكان لقوانين الوضعية أن تردع الناس عن قتل أنفسهم بوجه من
الوجوه . ليس يغيب عنك ما تسعه كل وقت من حوادث الانتحار في
أوروبا وأمريكا - بلاد القوانين والمدنية - وإن كان قد سرى ذلك بصريق
العدوى لقوم منّا لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولا استقرت تعاليمه في
نفوسهم

(١) مجلة الإسلام - السنة السادسة - العدد الخامس والثلاثون - سنة ١٣٥٦

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٥

جاء الإسلام موجباً عليك أن تراعى زوجك فقال : « خيركم من كان خيره لأهله » وقال

« إن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته ». وجاء في القرآن العزيز (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^(١)

بدأ بتوحيده تعالى لأنه أساس كل خير ثم بالإحسان إلى الوالدين لأنهما أقرب الناس إليك وآمنهم عليك ، ثم بذوى القرابة لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ثم باليتامى الذين لا يستطيعون حياة ولا يهتدون سبيلاً ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس كافة ، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة

جاء الإسلام بالحث على معاملة العجار بالحسنى حتى قال صلى الله عليه وسلم : « مازال جبريل يوحىي بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » جاء بأبلغ ما يكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف ومن لاتعرف ، حتى جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان ، بالغ في الحث على آداب الاجتماع حتى حرم عليك أكل الثوم والبصل إذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى ^١أنسقط عنك الجمعة بذلك إذا لم تجد ما يزيله إبعاداً لضررك ^٢عن الناس .

طلب الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنية يوم الجمعة لما يكون في ذلك اليوم من الاجتماع ولم يكتف بذلك بل ندبك بعد إلى

التطيب و لتعطر ، ثم أمرك أن تمضى إليها بالسكينة بعداً بك عن
الرعونة واطيش واستبقاء لما فى باطنك من الخشية وفى ظاهره من الوقار .
ندبك إلى إدخال السرور على أخيك المسلم بأى وجه من الوجوه
ووعدك علمه أحسن الجزاء .

عقد بينك وبين المؤمنين عقد الإخوة الذى نقلهم إلى دائرة الأسرة
الواحدة دلى تنائى ديارهم وتباعد أقطارهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(١)
بالغ فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلها شرطاً فى الإيمان فقال
« لا تدخروا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

بالغ فى أمر النصيحة حتى جعلها الدين كله فقال: « الدين
النصيحة »

بالغ فى ترك الأذى حتى جعله هو الإسلام فقال « المسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده » .

بالغ فى أمر الإخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى ، وحذر من
الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الأعمال ويقلب الفضائل رذائل ،
حتى جاء شركاً فقال « إن الشرك أخفى فىكم من دبيب النمل فى
الليلة الظماء » .

عرف مقدار الميل الطبيعى إلى الظلم فحذر منه بنأبلغ ما يكون حيث
قال « ما من أمير عشرة إلا يعجاؤه يوم القيامة مغلوبة يده إلى عنقه
فلا يفك- إلا العدل » .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

بل شدد في الأمر جدًّا على ما يقتضيه العدل الإلهي فلم يدع^١
أحدًا من المسئولية وكان له في ذلك أعلى نظر وأبلغ حكمة فقال
« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتة » .

عرف ما جبلت عليه النفوس من الأوصاف الذميمة ، ومن السعي
وراء أهوائها وشهواتها مما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة
الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر

عرف ذلك مما لا يصل إليه أكبر بيداجوجي في العالم ، فنبهك أن
تحذر من نفسك حذر من عدوك أو أشد فإنها أخفى مكرًا وأعظم
ضررًا ، لأن متابعتها تذهب بنعيم الأبد ، وقد قال القائل

أأنت عدو أم صديق لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة

عرف ذلك كله فقال « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »
(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(١)

عرف مقدار تسلط الهوى علينا فحذرنا منه كل التحذير وعرفنا
مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعله إلهًا يعبد من دون
الله ، لما علم من مسارعة النفوس إلى طاعته ، وطيرانها نحو إشارته شأن
العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقال في بيان تلك الإلهية (أَرَأَيْتَ
مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)^(٢)

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٣

وفي التحذير من اتباعه (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١)
 وفي الترغيب في مخالفته (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ النَّفْسَ عَنِ
 الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) ^(٢)

رأى ن كثيراً من الناس يتخبطون في أودية الأرواح والخيالات
 غير مستعملين عقولهم ، فأراد أن يخلصهم من اتباع الظنون فقال
 في معرض النظم لقوم كان هذا شأنهم تنفيراً من مثل حالهم
 (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) ^(٣)

وقال (وَإِنْ تَطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
 يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) ^(٤) فبين أن سبيل الله لا يسلك
 باتباع اظن والتخرص وأنه لا يهدي إليه إلا العقل السليم
 والتفكير القويم ، ولذلك أكثر من قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَتَّفَكَّرُونَ) ^(٥)

ثم يقول في توبيخ قوم (أَوْ لِمَ يَتَّفَكَّرُوا) ^(٦) (أَوْ لِمَ
 يَنْظُرُوا) ^(٧) إلى غير ذلك .

عرف نفاسة الوقت وأن النفس ميالة إلى اللغو وضياح الأوقات
 فيما لا ينفع ، فأرشدنا إلى ذلك وأكثر من البحث عليه فقال في ذكر
 أوصاف المفلحين (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) ^(٨)

(٢) سورة النازعات ، الآيات ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١١٦

(٦) سورة الروم ، الآية ٨

(٨) سورة المؤمنون الآية -

(١) سور ص ، الآية ٢٦

(٣) سور النجم ، الآية ٢٨

(٥) سور الرعد ، الآية ٣

(٧) سور العنكبوت

ويقول (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١)
 ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يكره أن يرى عبده فارغاً
 من عمل الدنيا والآخرة » . ويقول : « من حسن إسلام المرء تركه
 مالا يعنيه » وقد قال بعض الصالحين
 قد عملت بهذا الحديث أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده
 وتترادف عوائده ، ولم أفرغ منها بعد

عرف ما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفوائد وما هو مركزه
 في الطباع من مراعاة الناس فيما تميل إليه نفوسهم فقال « لتأمرن
 بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا
 خياركم فلا يستجاب لهم » وبين لنا أن ترك ذلك من موجبات سقوط
 الأمم فقال في بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت واللعة (كانوا
 لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)^(٢) .

وقال في آية أخرى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ
 خَاصَّةً)^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم :

« إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن
 غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

أ وقال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد
 الظالم ولتأطرنه على الحق إطرا ولتقسيروا على الحق قسراً أو ليضربن
 الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعن بنى إسرائيل »

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٩

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٩٢ ، ٩٣

(٣) سورة الانفال ، الآية ٢٥

عرف ما جبلت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع إليها ، وما يكون في قلوب الفقراء من الحقد على الأنياء والحسد لهم ، وما يكون في نفوس الأغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها ، فأوجب لهم قسطاً من مالهم يؤخذ منها كرها « ولو بقتال » ، وندبهم بعد ذلك إلى الصدقات ، ووعدهم عليها الثواب الجزيل ، حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء من قلوب الفقراء فيتم الصفاء بين الجميع وحتى تطهر نفوس الأغنياء من رذيلة الشح (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(١) ، وندب إلى القرض وجعله أفضل من الصدقة ، وعمل على توثيق عرى المحبة وتربية خلق المرءة في نفوس الجميع فحرم الربا..

فانظر بصرك الله إلى أي حد وصل الناس من البعد عن الفضائل ولو أنصفت لأعطيت الاشتراكيين بعض العذر فيما يفعلون ، وقد كان لهم من الدين الإسلامي أكبر دواء في إزالة هذا المرض القتال للأمم الفتاك بالشعوب . ولولا مراعاة المقام لتوسعنا أكثر من هذا والله در من قال : مخاطبا النبي - صلى الله عليه وسلم - :

والاشتراكيون أنت إمامهم
اولاً إدعوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء

عرف حاجة الإنسان إلى الدنيا وأنها وسيلة سعادته ، وأنه عظيم الشره فيها وأن ذلك سبب شقائه فقال مراعياً الأمرين جميعاً « من طلب الدنيا حالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » وروى عن عمرو

(١) سورة التغابن ، الآية ١٦

ابن الناص أنه قال « أحرث لدياك كأنك تعيش أبداً وأعمل
لآخرتك كأنك تموت غداً »

حث على التقوى وذكر علامة المتقى ثم عرف أن نفسه لا بد أن
سأغلبه بعض الشيء وتسوقه إلى ما لا ينبغي فوضع له الدواء الناجح وأرشده
« إلى ما يصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقال « اتق الله حيثما كنت
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال « لا يبلغ
الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » .

عرف من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ،
و كثيراً ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أو عذر مقبول فيما صدر منه ،
فحضر على الإصلاح بين الناس وجعله من أفضل الأعمال فقال
« (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا) »^(١) .

عرف أن النفوس تحب مزيد الانتقام ولا تقف عند حد العدالة في
المجازاة - والظلم من شيم النفوس - وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه
التي استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته إلى أن يعاف ذلك الذنب
بعض العذر ، فيكون العفو أقرب إلى الرحمة ، وأبعد عن الحيف فأكثر
من الحث عليه فقال : (حُذِرَ الْعَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) :

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

ويقول (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)^(١)

ويقول في صفات المتقين : (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)^(٢)

ويقول (وَخَمِنْ صَبْرًا وَعَفْرًا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)^(٣)

عرف مقدار مافي النفوس من الجهل ومحبة العاجلة ، والتأمف على الفائت الذى يتلفها ويذهب بإيمانها حيث قصرت النظر على لأسباب ولم تترق منها إلى مسبب الأسباب ، غير عالمة أن للأمور من الأسباب الخفية والمعدات القريبة والبعيدة مالا يدخل تحت علمها وقدرها ، وإنما هو راجع للفعول الإلهي والتقدير الأزلي ، فكانت أشبه شئ بالندلة فوق القرطاس تعتقد أن الكتابة من القلم إذ لم يمكنها أن تشهد الياء ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله من القدرة والإرادة وبتمية المبادئ النفسانية

عرف ذلك من التنموس وأنها مجبونة على هذا الجهل فداواها بأنجع

الأدوية وأخرجها من ظلمة الجهالة بإشراف نور الحقيقة فقال

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ أَتَانَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)^(٤) وقال : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(٥) وقال : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٦)

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠

(٤) سورة الحديد ، الآية ٢٢

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦

(٦) سورة يس ، الآية ٨٢

(٥) سورة هود ، الآية ١٢٣

جمع مجامع الآداب والفضائل حائماً على العدل الذي هو الوقوف عند الحد المطلوب في كل شيء ، وهو انفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهياً عن الرذائل جمعاء فقال موجزاً أمر وناهياً : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)^(١) .

سلك بك كل طريق ودخل بك من كل باب إلى مكارم [الأخلاق] ، فحارة يذكر لك ثمراتها وما يترتب عليها في الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم « ومن وصل رحمة زيد له في عمره ووسع عليه في رزقه أو كما ورد » وتارة يرغبك بما لك عند الله من حسن مثوبته لك ورضاه عنك ،

ومن أعظم أبواب مكارم الأخلاق ما أمرك أن تشعر به نفسك في كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى ، والرهبة من جلاله حتى يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنيايا وحتى يرجع بك نور العبادة إلى طهارتك الذاتية ، وصفاتك الأصلية وحتى تعلم أن لك حظاً آخر روحياً غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذي أخذ قلبك فتكالبت عليها تكاليب المتهاكين فيها ، فكثرت منك المنازعات والمخاصمات لأنها محبوبك الوحيد وكل من نازع أحداً في محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة

وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ إلا شيئاً يسيراً من قلبك لانجماعه ، أو بتعبير آخر لا تأخذ إلا بظاهره دون باطنه حتى يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من شرك وتم بينكم المحبة والولاء

ولو أخذنا نشرح ما اشتمل عليه الإسلام من أسراره الحسية والمعنوية لصال بنا القول .

وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنها تنفع في أمراض كثيرة أخصها ما يكون بالأنف وناهيك ما يزايد تغير رائحة الفم من المضمضة (ثلاثاً) واستعمال السواك مع الحرص الشديد عليه حتى كاد يوجب - صلى الله عليه وسلم - وخصوصاً بعد النوم وما في ذلك من المحافظة على الأسنان وم ينتظم في سلك آداب الاجتماع ، وليس يقل عن ذلك ما في غسل القدمين كل وقت من إزالة الروائح التي تنبعث منها إذا طال مكثهما بلا تعمد ، (إلى غير ذلك من الفوائد الطبية والحكم الروحانية مما لا محل لذكره الآن)

عرفوا من تلك الأسرار بل من أسرار ما جاء به الدين الإسلامي عموماً ما جعل الكثير منهم ينتصر له مبتهجاً بما جاء فيه موقناً أن دين الإسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم

ولو لم يكن من آيات الشريعة الإسلامية إلا أنها جاءت بتلك الإصلاحات كلها في زمن يسير ، على حين أن غير المسلمين لم يهتدوا إلى بعضها إلا في قرون عديدة لكفهاها فخرًا لدى المنصف المتبصر

هذا ولتقام واسع جداً ولم يمكن أن أبرز إلا شيئاً يسيراً مما في نفسى وكل ما في نفسى ليس إلا شيئاً يسيراً من تلك الأسرار (قُلْ لَّيْنِ

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (١) ولا بد أن يكون قد تحرك منك
الانصاف ، وصادفك التوفيق ، فعلمت سر قوله صلى الله عليه وسلم
« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله - تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ،
لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (٢) »

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

(٢) سورة فصلت ، الآيات ٤١ ، ٤٢

رَسْفُورُ النِّسَاءِ

جاءنا سؤال من أحد الأفاضل بفلسطين فكتبنا في جوابه كلمة نحب ألا يحرم منها إخواننا المصريون ، فعمى أن يكرن فيها مقنع وهداية لأرباب النفوس التي لم تفسد فطرتها ، والله يتولى هدى الجميع وها هي هذه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد
فقد قرئت سؤالكم الذي تطلبون فيه بيان الحكم الشرعي لوضع الحجاب وستر وجوه النساء في الطرقات أمام الرجال الأجانب ونقول إن الحكم الشرعي في هذا هو تحريم هذا التبذل وذلك السفور ، -حتى أن من يبيح كشف الوجه والكفين من العلماء يجب أن يقول با تحريم لما يفعله النساء الآن (أولا) لأنهن لا يقتصرن على كشف الوجه واليدين كما هو معروف

(ثانيا) لا بد عند ذلك القائل من أمن الفتنة والفتنة الآن غير مأمونة ، والشيطان قد جلب على الناس بخيله ورجاه (إلا الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّأَهُمْ)^(٢) ولئن كانوا موجودين في الكثرة المطلقة ما يثير الفساد ويوجب الفتنة . وقد قرر علماء الأصول أن المقدور الذي لا يتم الواجب إلا به فهو واجب والمقدور الذي لا يتم الحرام إلا به فهو حرام ، وعلى كل حال فالوسيلة تعطى حكم

(١) مجلة لإسلام - السنة الثامنة - العدد ١٨ - سنة ١٣٥٨

(٢) سورة ص الآية ٢٤

ما تؤدى إليه ، والمالكية لهم عناية كبيرة بسد الذرائع ، على أن الفتنة الآن غير مأمونة كما قلنا

﴿فالمسألة إجماعية لا يختص بها إمام دون آخر من أئمة المسلمين ؛ وقال بعض المتخصصين في هذا الموضوع مبيئاً ما يكون من المرأة والرجل عند التلاقي في أدواره التي بينها بقوله

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد ﴿﴾ فلقاء

وقال غيره

لا يأمن على النساء أخ أخا ماى الرجال على النساء أمين

ولنسمعك بعض ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أنه كان فيما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم على النساء عند مبايعتهن ألا يحدثن الرجال إلا أن تكون المرأة ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يكون مالا تحمد عقباه ، وإذا كان هذا في الحديث فما بذلك بالسفور وكشف الصدور في زمان الفجور فإن اتفق أن وقع بصر الرجل على امرأة من غير قصد فليصرف عنها بصره سريعاً ، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله البجلي أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نظرة لفتاة قال فأمرني أن أصرف بصرى وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه لا تتبع النظرة

فإن لك الأولى وليست لك الآخرة ، وفي الصحيح عن أبي سعيد قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات »

قالوا يا رسول الله : لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله

—صلى الله عليه وسلم— إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف « النظر سهم مسهم من سهام إبليس إلى القلب » أمر الله بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى الزنى ، فقال تعالى (قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)^(١) فهو من قبيل عطف المسبب على السبب ، وقد قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا رزقه الله عبادة يجدها حلوتها في قلبه ، وليتذكر قوله تعالى (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)^(٢) وفي الصحيح « زنى العينين النظر ، والنفس ، تتمنى وتشتهى ، وانفرح يصدق ذلك أو يكذبه » وعن أبي هريرة —رضى الله عنه— قال : رسول الله —صلى الله عليه وسلم— « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت من محارم الله وعينا سهرت في سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل — ، ثم قال تعالى (وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) أى عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، محتجين بأن النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) سورة غافر ، الآية ١٩

(١) سورة نور ، الآية ٣٠

(٣) سورة نور ، الآية ٣١

قال لأم سلمة وميمونة اختجبا من ابن أم مكتوم ، فقالت أم سلمة أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال أفعميا وإن أنما أولستما تبصرانه ؟ ثم قال الله تعالى (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)^(١) قال بعض السلف ، الزينة زينتان زينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب . وقالت عائشة يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ)^(٢) شققن مروطن فاختمرن بها فأصبحن معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان ، وفي آية أخرى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ)^(٣) قال السدي فلا تخضعن عنى بذلك ترقيق الكلام ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم

ولا بأس أن نذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » . وقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » ولندع الاستنباط لك في آخر السورة ثم قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ)^(٤) الجلباب رداء فوق الخمار وفي الصحاح الجلباب «الملحفة» وقد قال ابن عباس في هذه الآية أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله

(٢) سورة النور ، الآية ٣١

(١) سورة النور ، الآية ٣١

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢

مز وجل : (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ)^(١) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وقالت أم سلمة لما نزلت هذه الآية (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) خرج نساء الأنصار كان على رؤسهم الغربان من السكينة وعليهن كسبية سود يلبسنها (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ)^(٢) أى إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر لسن بإماء ولا عواهر

أما النساء الآن فلا يبالين أن يتشبهن بالعواهر ويقال فيهن ما شاء القائلون ، وهو دليل على سقوطهن وفساد أخلاقهن ، وصغر نفوسهن وعدم غيرة أزواجهن وأقاربهن

فإلى الله لمشتكى وبه المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولو شئنا لأطلنا وفي هذا القدر كفاية ، والله يتولى هدى الجميع عنده وكرمه

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩

بِسْرِّ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ فِي الْإِسْلَامِ

يحسن بنا في هذا الظرف أن نعرض لهذا الموضوع وقد لاكتد الألسن كثيرا وكأن في نفوس بعض الناس شيئاً مما جاء في التشريع الإسلامي أو ميلاً إلى ما في المسيحية الأوروبية التي قلدها في كل شيء على غير هدى ولا بصيرة فنقول

لسنا نذهب في تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الرجل من الشرقيين أكثر قوة وأعظم شبقاً من الغربي ، وكذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم : إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة ، أي فيجب في الشريعة العامة التي جاءت للأمم كلها أن تراعى ما يناسب طبائع الجميع ولهذا قال (الكنت هنرى كستري) أنه ليصعب جدا على

الغربيين أن يقدرُوا شريعة القرآن في تعدد الزوجات - حق قدرها - لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلي كما لست أعلل ذلك بما بعلل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيرا بلا حد ، فلو جاء الإسلام يقرهم على واحدة كان ذلك صعباً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة كغيلان الذي أسلم على عشرة نسوة فأمره - صلى الله عليه وسلم - أن يبقى أربعا ويفارق سائرهن كما في الحديث لصحيح

ومن علل بذلك (الكنت هنرى) حيث يقول إن ذلك ربما أدى إلى تززع عقيدتهم في الدين الجديد ، فلهذا أباح لهم تزوج الأربع

تخفيفاً للشر وتأليفاً لقلوبهم ببعض ما ألفوه فهو لم يفعل ذلك إلا لمصلحة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة

ولست أقول في ذلك أيضاً ما يقوله (السيو ريفيل) أننا لو رجعنا إلى زمن النبي صلى عليه وسلم ومكان ظهوره كما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثره مما أتاه عليه السلام ، فهن مدينتان انبهيهن بأمر كثيره لسناعل بشيء من ذلك كله وإن كان له من النظر قسط ، ومن الحق وجه ولكننا نعد بك إلى ما هو أقرب من هذا وأولى بالاعتماد عليه .

إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب الآكلة ومخاوف الأسفار في البر والبحر التي تحدث كثيرا لركاب البواخر من الغرق وغيره خصوصا في هذا الزمن (زمن الغواصات) التي نعرف خطرها وفي كل يوم نسمع خبرها فضلا عن غيرها مثل حوادث الترام ومخاطر الطيران ، ومهاوى الجنائيات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التي تكون لاستخراج المعادن من مكانها أو اللآلئ من مستقرها ربما عسى أن يكون من خطر البراكين وغيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول أو المصارعة المعتادة في أوروبا وأمريكا ، وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفظائع التي كثيرا ما تؤدي بحياتهم أو حياة غيرهم

وإن شئت ضمنت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمي الكثير بنفوسهم في البحر تخلصا من مضايق الحياة ، ومتاعب العيش ،

كما يقع ذلك كثيرا بانجلترا وغيرها مما يتناقص به الرجال تناقصاً
كثيراً

ثم ألق ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة
مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية
البلقانية . وأفطع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التي لا تزال ماثلة
في الأذهان بويلاتها ومصائبها ولا يدري ما تأتى به هذه الحرب القائمة
الآن إلا الله تعالى ولو نظرت في التاريخ لوجدته يفيض أنهاراً من
الدماء من كل ينابيع الشقاء قديماً وحديثاً .

وقد ذكر القرآن والتوراة أن فرعون كان يذبح أبناء بنى إسرائيل
ويستحيى نساءهم وأنه غرق في البحر مع أم كثيرة يقدرها بعضهم
بستمائة ألف في يوم واحد .

وأظنك لا تشك في أن هذا كله لا يكاد يوجد في النساء حتى
حوادث الانتحار الفردية إلا على سبيل الشذوذ في تدور من الأحوال .

ثم نقول بعد ذلك كله قد دلت الإحصائيات الرسمية على أن
عدد النساء أكثر من عدد الرجال وأصبح ذلك مما لا شك فيه

فقل لي بعيشك إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصوراً
على زوجة واحدة فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن
إذا كان لا يجوز للرجل ألا يتزوج إلا واحدة ، بل من يؤدى واجباتهن
وهي كثيرة متوقفة على الرجال لا محالة ، فإن المرأة ضعفة ، بمقتضى
خلقها كما أثبت ذلك علماء التشريح .

ولئن فرضنا أن في تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم
بشئونهن على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية وهو فرض
لا يكون ولئن كان فلن يدوم، أفلا يلحقهن من المنة أو العار ما ينقص
عيشهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التي هي عنوان المذلة وبرهان
لمهانة ومجلبة العار والشنار لهن ولأقاربهن

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه
أن يفرض فيها ولا أن يدع أمرها يوماً من الأيام لغيره بعدما أخذ
عليه من يوم ذلك الزواج أن يذود عنها عوادى الدهر وغوائل الحياة
لمكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر
المحبة إلى غير ذلك من الروابط التي لا يستهان بها في نظر العقل
والدين والعرف ، وهذا تتم السعادة والهناءة لهن مادياً وأدبياً وفي
الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الزوج ما يضمن لهن كل راحة
ويتقدهن من كل شقاء

ولنقف هنا اليوم خشية الإملال وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله .

سز تعدد الزوجات في الإسلام

إذا نظرت بعد ما سبق من الأنظار الكثيرة إلى أن المرأة تكون نفساء نحو شهرين وأن الرجل قد يكون في عنفوان شبابه عظيم الشبق نوى الغلطة لا يصبر على مفارقة النساء مع ذلك السائق الذي يقويه نزق الشباب وطيش حدائة السن تبين لك من الحكمة ما يثلج له صدرك وتحمد الله على ما حباك به في دينك

ثم تضم إلى ذلك أن الرجل قد يسافر متجراً مثلاً إلى بعض البلاد النائية فيمكث بها شهوراً أو دهوراً فلو حجرنا عليه أن يتزوج لأدركه من العناء ما أخرج صدره وشوش أمره .

وإني أظن أنه لم يسهل عليهم ذلك مع هذا الحجر الذي في دينهم إلا عدم وقوفهم على حدود الدين وفقد تخرجهم من أن يخالفوه وليتهم اقتصروا من الخليلات غير الشرعيات على أربع ، ولولا ذلك لضاق عن تحمل المشاق اصطبارهم ولم تسعه قدرتهم واختيارهم

هذا ولو نظرنا لمصلحة المرأة لا لمصلحة الأمة لوجدنا ذلك خيراً لها أيضاً في كثير من الأحوال وإننا نسائل حضراتهم هل من مصلحة المرأة الفقيرة التي لاتجد من ينفق عليها إذا خطبها موسر كبير ومعا امرأة أخرى ألا تتزوجه؟ هل من مصلحة المرأة الغنية الواسعة الثروة التي يخونها أنظارها ويغشها أمناؤها ويصانع فيها من تحسن إليهم وهي

لا تستطيع حياة ولا تهتدى إلى إصلاح حالها سبيلا إلا أن تتزوج
رجل معه امرأة أخرى من ذوى الدين والعمل والكفاءة والأمانة ؟

هل من مصلحة المرأة التي نبتت بين أسرة فقيرة منحطة إذا خطبها
وزير أو أمير جمالها أو مزية فيها ، وهو ما يعود عليها وعلى قومها
بالشرف الرفيع والعز المنيع ألا تتزوجه إذا كانت معه امرأة أخرى ؟

هل من مصلحة المرأة التي ساء حظها فكانت بين من لا يخافون الله
(وهم كثير) وليس لها من الجاه ما يمنع شرهم ويحسم ضررهم وخافت
على نفسها من أولئك الأشرار وما عسى أن يكون من موجبات العار
ورأت أن في استطاعتهم أن يلعبوا بها حتى أمام القضاء الذى هو نصير
الضعفاء مما لهم من شهود الزور وإتقان الباطل واستعمال الحيل ، هل
من مصلحتها ألا تتزوج من يريد أن يرفعها من حضيض المهانة إلى
أوج الرفعة ويحفظها بجاهه بين قومه فيجعلها مصونة بعد الابتذال
مكرمة بعد الامتهان إذا كانت معه امرأة أخرى ؟

إلى غير ذلك مما يعرفه المتبصر ويعترف به المنصف .

اللهم وَضُحِّ الصُّبْحِ الصَّبِيحَ لَدَى عَيْنَيْنِ ، وتبين أن شرعك القويم كما
قلت فى كتابك الكريم (تنزيل من حكيم حميد) ولكنها الأهواء
عمت فأعمت

وأما ما تحتجون به من أن كثرة الزواج توجب الأحقاد بين
الأولاد فهو احتجاج باطل ونظر عاطل ، فإن ذلك راجع إلى فقد العدل
من الآباء بين الزوجات وعدم المساواة بين الأولاد ، وفقد التربية

الصحيحة من الجميع ، وهى أهم ما يجب النظر فيه الآن لو وفق الله وزراءنا لمصلحة الأمة الصحيحة ومداواة الأدواء من أصولها واحتباس جذور الشقاء من جذورها .

وحسبك مجلبة للشرور تلك الصفات الخبيثة التى ينتجها سوء التعليم مثل الكبر والطمع ومحبة الظلم والاستئثار والحقد والحسد والبخل وإجابة النفس فى كل ما تشير به وتميل إليه ما ليست نتائجه قاصرة على أولاد الضرائر بل متى وجد التغالب والتكالب وغلبة الأهواء والإفراط فى تنازع البقاء فيقتل الأخ أخاه الشقيق والابن أباه الشقيق وهو نتيجة استحكام الصفات الخبيثة فى النفوس وعده رياضتها محاسن الأخلاق :

ولست أريد بالتربية الحسنة التى تمنع من اقتراف الجرائم وتسوق إلى جميع المكارم إلا أن تغرس تعاليم الدين الخفيف فى النفوس حتى تراقب الله فى خلواتها وجلواتها ، علماً بأنه يعلم (خائنة الأعين وما تخفى الصدور) فإسناد ما يقع من تلك الهنات إلى ذلك خلط وخبط . شأن من لا يبحث عن علل الأشياء الصحيحة وأسبابها الحقيقية .

ولو رجعوا إلى كتب الأخلاق التى تبين ما جبلت عليه النفوس وما تقتضيه الطبائع إذا لم تقمع بالرياضة ولم تهذب بالدين والعلم والفلسفة أو إلى التاريخ الذى امتلأ بما يكفى الناظر وبينه القاصر لم يقولوا ما قالوا .

هذا وقد رأيت أن أتكلم في المسألة من الوجهة النقلية أيضاً تمييزاً
لموضوع لمعل بعض الناس على رأى البابا (بروغلي) الذى يقول
إن تعدد الزوجات لم يوجد إلا مع المساجد ، مبيناً خطأه فى ذلك فإن
كثرة الزواج كانت قديمة فى الشرائع الوضعية والساوية فقد كان
لداود عدد كثير من النساء ولابنه سليمان عليهما السلام أكثر منه ،
وكانت العرب لاتقف عند حد فى الزواج

ومن الأحاديث المشهورة بين العلماء أن (غيلان) أسلم على عشرذ
نسوة فقال له صلى الله عليه وسلم « أَمْسِكْ أَرْبَعًا وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ »

وكان الجرمانيون يتفاخرون بكثرة الزواج ويتكاثرون فيه بل
منذ ذلك ما استعجب له كل العجب وهو أن الإنجيل ليس فيه نص
لصريح يو-نب الاقتصار على واحدة بل كثرة الزواج هى شريعة
التوراة فتكون شريعة الإنجيل أيضاً؛ فإن عيسى عليه السلام يقول :
« ماجئت لئنقض الناموس » أى التوراة بل كل من لا يعمل به فعليه
اللعنة (وجميع الشعب يقول آمين)

فإذا تعلم من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجزى بتعدد
الزوجات وحده بل جاء رحماً حكيماً فأباحه وأوقفه عند حد مخصوص
رحمة بالرجال والنساء جميعاً كما علمت فلم يترك الأسر فوضى
لا يربطه رابط ولا يضبطه ضابط مما يوافق أهواء الرجال نظراً إلى أنه
إذا لم يقف عند حد أضرب بالنساء ضرراً بليغاً ، ولم يبجعه إلا للقادر
على القيام بواجبه لكونه مصلحة له فى شخصه بل وللهيئة الاجتماعية .

وقد تبين لك ذلك في مقالنا الأول غاية البيان .

ولما كان الأمر غير منضبط بل يختلف باختلاف الأفراد لم يجعل أمر ذلك بيد القاضى لأنه يرتبط بأشياء كثيرة لا يعلمها إلا الشخص الإنسان مثل أحواله النفسية التى تقضى عليه بالعدل أو تميل به إلى الظلم والجور مثل الأحوال الشخصية التى تعود عليه ولا يعرفها أحد سواه وليس يفيد فى هذا إلا إيقاظ باعث الخوف من الله والمراقبة له عز وجل فهى التى تمسك النفوس إذا لم تمسكها القوانين الوضعية وهو ما تمتاز به الشرائع الإلهية ولا يوجد فى القوانين البشرية التى ليس فى وسعها أن تمنعك مما تريد متى وجدت إليه سبيلا ولم تخش شاهداً أو دليلاً

ولذلك عقب الله آية الزواج بقوله : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)^(١) كما حض عليه صلى الله عليه وسلم بقوله « من كان عنده امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » ، إلى غير ذلك وهو غاية الحكمة فى تحصيل المصلحة العامة والاحتياط فى جزئيات المسائل وأفراد الأشخاص

(وقد قال الكنت هنرى كيسلى) مبتهجاً مما جاء فى الشرع المحمدى من حقوق المرأة أن لها أن تشتترط على زوجها عدم التزوج بغيرها وعدم التسرى وألا يغيب أياما كثيرة عن بيته بدون إذنها^٢ ، وإن آذاها أو سبها طلق عليه الحاكم جبرا بخلاف المسيحية ، إلى أن قال وبهذا يرى القارىء مقدار اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بمنع

(١) سورة النساء الآية ٣

عوامل الفساد عن التفشى بين المسلمين لكى يعيش الأزواج والآباء
فى راحة ونعم

فخلاصة الموضوع أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أباح كثرة الزواج
لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة للرجال والنساء وما يوجد من تقدم
العمران وينمى الهيئة الاجتماعية من الفوائد ما لا مزيد عليه ، ثم أوقفه
عند حد محدود ، نظراً إلى أن الرجال إذا تركوا وما يشتهون لعبت بهم
الآهواء فأصروا بالنساء ثم أمرهم بالعدل وحظر على من يخشى من
نفسه بالجبر ألا يتزوج إلا واحدة .

ورأى من الحكمة ألا يجعل الحاكم تدخلا فى ذلك لأنه يختلف
باختلاف الأفراد ويرتبط بأمر كثيرة لا يتبينها على الحقيقة إلا صاحبها ،
فجعل الأمر موكولا إليه فيما بينه وبين الله .

ومن يعانى وضع القوانين وأسرار التشريع يعلم أن الأفراد تختلف فى
كلياتها اختلافات كبيرة لا يتأتى ضبطه ، فيعطى منه الفرد حرية تسمح له
أن يتغلب فيها كما يتغلب فى أحواله الأخرى بحق أو باطل مادام
لم يتجاوز حد الحظر العام الذى حدده له القانون ، وهذا جاء فى القواعد
بعامة كلها التى تحدد حدوداً تحظر مجاوزتها وتمنح الحرية فيما دونها
لأفراد يتسلبون فيه كيف شاءوا على سنن الحكمة ، أو الأهواء بطهاردة
النفوس أو دنسها ، بصحة الأسباب أو فسادها ، بحسن النية أو سوء
القصد ، بتمام الاستعداد أو نقص الوسائل ومزيد الضعف ، إلى غير ذلك

وليس يمكن غير هذا ؛ ولذلك كان للإنسان جزءة آخرا على ما عمل
فيما بينه وبين الله بمقتضى تلك الأحوال التي لا يتسلط عليها القانون
ولا يتناولها سلطان الحدود الشرعية الظاهرة

قد عرفت أن الدين يحتاط في هذا إلى أبلغ الاحتياط بكثرة الرعي
فيه حتى يسيطر على القلوب ويستولى على النفوس ، وبذلك تستقيم
المصالح العمومية والأحوال الشخصية

فقل لي بربك أى حكمة وأى نظر أبلغ من ذلك

• ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا •

هذا قليل من كثير وإنه لفي غاية الوضوح ولكنهم أخطأوا المحجة
وتنكبوا المحجة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)
(وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)^(٢)

بذلت لكم يا أهل مصر نصيحتي فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

حِكْمٌ جَلِيلَةٌ^(١)

رأينا أن نذكر القارئ الكريم كلمات نابغة لكبار الحكماء عسى
أن ينتفع قراء مجلة الأزهر بها إن شاء الله

قال هرمس - ويقال إنه إدريس عليه السلام - ما نصه أول
ما يجب على المرء لفاضل بطباعه المحمود بسنخه^(٢) . المرضي في عاداته ،
المرجو في عاقبته ، تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته ، والناموس
عليه حق الطاعة . والسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه
حق الاجتهاد والدب في فتح باب السعادة ، وإخلطائه عليه حق صفاء
الود ، والمسارعة لهم بالبذل عند الحاجة ، فإذا أحكم هذه الأسس
لم يبق عليه إلا كفاف الأذى عن العامة ، وحسن معاشرته لهم وتعليمه
أيامهم

ومما قال أيضاً مودة الإخوان يجب ألا تكون لرجاء منفعة أو لدفع
مضرة . ولكن لمحبة الخير والحدب على الفضيلة

وقال أفضل ما في الإنسان العقل ، وأجدر الأشياء أن يفرح به
صاحبه العمل الصالح ، وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد ،
وأظلم الظلمات الجهل ، وأوبق الأشياء الحرص

وقال الاستخفاف بالموت هو أحد فضائل النفس .

(١) مجلة الأزهر - المجلد الثالث عشر - الجزء الخامس - جاهدى الأولى - سنة ١٣٦١

(٢) السنخ بالكسر الأصل

وقال المرء حقيق أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولاً لأجل
أن يخرج من المصائب التي تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبير فيما يبغته
من الشرف ولا يعير أحداً بما هو فيه . ولا يغيره الغنى والسلطان
وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه
ودينه ما لا يختلف فيه

وقال أنفع الأمور للناس القناعة والرضا ، وأضرها الشر والسخط .

وقال كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع ، وكل شيء يقدر على
إصلاحه إلا الخلق السيء ، وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء .

وقال أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق
بإلعدل والحكمة والحق في الجماعة

وقال من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ،
أفدينه دين الله عز وجل وخصمه له شاهد بفاجح الحجة ومن كان
أدينه الفظاظ والأذى فدينه دين الشيطان وهو بدحوض حجتك شاهد
على نفسه

وقال لا تكن أياً للإنسان كالصبي إذا جاع صغى . ولا كالعبد
إذا شبع طغى ، ولا كالجاهل إذا ملك بغى .

وقال لا تشيروا على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة أما الصديق
فذلك من واجبه بمقتضى صداقته . وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك
إياه هابك وحسدك ، وإن صح عقله استحى منك وراجعك

وقال لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعائب إلا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير . وولى ، وصدرة ، فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح

وقال لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله .

وقال من أفضل البر ثلاثة الصدق في الغضب . والجود في العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال من لم يعرف عيب نفسه فلا قدر لنفسه عنده

وقال : الفاصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطق له ، والجاهل منطق عليه

وقال لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة السلطان والعلماء والإخوان ، فإن من استخف بالملطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته

وقال الخير والشر واصلان إلى أهلهما لامحالة ، فطوبى لمن دأبه الخير ، والويل ثم الويل لمن جر الشر وسعى فيه

وقال الإخاء الدائم الذى لا يقطعه شيءٌ إثنان محبة المرء نفسه ، وما تكون عليه يوم معاده ، وتهذيبه إياها في العالم الصحيح والعمل الصالح ، والآخر مودته لأخيه في دين الحق ، فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده ، وفي الآخرة بروحه

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره ، وعلى غريزة الحلم الغفو عند الغضب

وقال من سره مودة الناس له ، ومعونتهم إياه ، وحسن القول منهم فيه ، حقيق بأن يكون كذلك لهم

وقال كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ، فإنه إذا أصلح ذلك الباع صلحت له أموره كلها . وإذا أضاعه أضاع الجميع وقدر ذلك الباع هو نفسه

وقال من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء أن يبدلوا العدو صديقاً ، والجاهل عالماً ، والفاجر براً

• • •

أسمعناك أيها القارىء الكريم شيئاً من حكم الحكماء ونريد أن نسمعك شيئاً من حكم سيد الأنبياء التي تدور عليها مصالح الدنيا والآخرة ، فنقول

روى الطبراني من حديث أسود بن أصرم المحاربي قال قلت ليارسول الله أوصني ، قال « هَلْ تَمْلِكُ لِسَانَكَ ؟ قُلْتُ مَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ لِسَانِي ؟ قَالَ فَهَلْ تَمْلِكُ يَدَكَ ؟ قُلْتُ : فَمَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ يَدِي ؟ قَالَ فَلَا تَقُلْ بِلِسَانِكَ إِلَّا مَعْرُوفًا وَلَا تَبْسُطْ أَيْدِكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ . »

وفي المسند عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ . »

وخرج الطبراني من حديث أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَخْزُونَ مِنْ لِسَانِهِ » وخرج الطبراني أيضا من حديث معاذ بن جبل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ » .
وخرج الإمام أحمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْنُو مِنَ الْعَجَةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَيَتَبَاعَدُ بِهَا أَبَدًا مِنْ صَنْعَاءَ »

وخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث بلال بن الحارث قال : سمعت انبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وفي الحديث المشهور « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » . رواه البخاري ومسلم

وقال الله سبحانه وتعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَمِيدٌ) . وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي على يمينه هو الذي يكتب الحسنات والذي على شماله يكتب السيئات

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم

حسرة « وخرج الترمذى ولفظه « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم - صلى الله عليه وسلم - إلا كان عليهم ترة » أى نقصاً

وخرج أبو داود والنسائى من حديث أبي سعيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من قوم يجلسون مجلساً لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة » وقال مجاهد ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا قبل أن يذكروا الله إلا تفرقوا عن أنتن ريح وكان مجلسهم يشهد عليهم بغفلتهم ، وما جلس قوم مجلساً فذكروا الله قبل أن يتفرقوا إلا تفرقوا عن أطيب من ريح المسك وكان مجلسهم يشهد لهم بذكورهم »

وقال بعض السلف يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات وأخرجه الطبرانى من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعاً « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير إلا تحسرت نفسه عليها يوم القيامة » وقد روى عن ابن مسعود قال « إياكم وفضول الكلام ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ حاجته

وعن النخعى قال يهلك الناس في فضول المال وفضول الكلام ولا غرو فإن الإكثار من الكلام الذى لا حاجة إليه يوجب قساوة القلب ، كما فى الترمذى من حديث ابن عمر مرفوعاً « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس عن الله القلب القابى . »

وقال محمد بن عجلان إنما الكلام أربعة أن تذكّر الله ، وتقرأ القرآن ، وتساءل عن علم فتخبر به ، أو تتكلم فيما يعينك من أمر دنياك . وكان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يأخذ بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد .

وخرج الإمام أحمد وابن حبان من حديث البراء بن عازب أن رجلاً قال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ، فذكر الحديث وفيه « فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير » . قال الفضيل بن عياض : ما حج ولا ربط ولا جهاد أشد من حبس اللسان .

وفى مراسيل الحسن - رحمه الله - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - قال : « علامة القرب أن يكون قلب العبد عندى متعلقاً ، فإذا كان كذلك لم ينسنى على حال ، وإن كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بى كى لا ينسافى ، فإذا نسيتى حرمت قلبه ، فإن تكلم ، تكلم لى ، وإن سكنت لى فذلك الذى تأتبه المعونة من عندى » . أخرجه إبراهيم بن الجنيد .

ولنقف هنا ، ولعلنا نعود للموضوع مرة ثانية ، إن شاء الله .

فتنر

من أرجو شرح النقط الآتية على صفحات المجلة
بالقرية التي أنا موظف بها ، رجل متفقه تأتم به الناس في هذه
البلدة وما جاورها ، يفسر ألفاظ القرآن الكريم بظاهرها ، وهو يحرم :

١- التوسل بالأنبياء والأولياء إلى الله تعالى

٢- يحرم قراءة القرآن للموتى والعناتى (الصدية)

٣- والمهم الذى دعانى إلى الاستفهام قوله : (ان الله سبحانه وتعالى
فى السماء فقط) ، ويستدل بقوله تعالى (ءَأَمِنْتُمْ مَن فِى السَّمَاءِ أَن
يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ)^(١) ، وقوله أيضاً سبحانه (الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(٢)

محمد سليمان الشيخ

مدرس بمدرسة بلتاج الأولية

ج : التوسل بالأنبياء والأولياء جائز لاشك فيه لدى من استنارت
بصيرته وصفت قريحته ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فى العدد الثامن
من المجلة ، وسنفيض القول فيه بعد

أما قراءة القرآن فقد صححنا وصول ثوابها إلى الميت ، وذكرنا فى
ذلك ما فيه مقنع وكفاية لمن أنصف ولم يتعسف ، فراجعه فى العدد
الثامن من نور الإسلام (مجلة الأزهر)

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

(٢) سورة طه ، الآية ٥

رقد جاء في قراءة الصمدية أحاديث يعمل بها في مثل هذا الموضوع
أخرج الطبراني في الكبير مرفوعاً « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ
كَتَبَ اللهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ » وأخرج البزار في مسنده مرفوعاً
« مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ آغْتَنَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ » .

وقد علمت أن الصحيح وصول ثواب القراءة إلى الميت فلا
بأس إذن من إهداء ثوابها إلى الأموات كما يفعل الناس وليعلم
القارئ الكريم أن العلماء من المحدثين والفقهاء قالوا يجوز بل يستحب
العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف وقد
علمت أن الصحيح لدى العلماء هو وصول ثواب القراءة وغيرها
كالصدقة والدعاء

أما دعواه أن الله في السماء فقط فهي من الأدلة على جهله
بالمعقول والمنقرب ، فإن الذي يحتاج إلى مكان يكون فيه لا يكون إلهاً ،
فإن الإله هو الذي يحتاج إليه كل شيء « حتى المكان » ولا يحتاج هو
إلى شيء وأين كان قبل المكان ، أليس المكان محدثاً بعد أن لم يكن ،
ومحتاجاً إلى من يخرج منه من العدم إلى الوجود ، ثم هو محتاج بعد ذلك
إلى من يحفظه بعد وجوده (إِنَّ اللهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ
تَزُولَا)^(١) إن انكان يستمد وجوده وحفظه من غيره كالممكن سواء
بسواء ، وأحكم الأجسام الذاتية لا تختلف ولا تتباين وقد قام
البرهان العقلي على أن الله تعالى مخالف لمخلوقاته ، ولو ماثلها لكان
حادثاً مثلها

(١) سورة فاطر ، الآية ٤١

ومن العلوم أنه لو احتاج إلى مكان لكان جسماً مفتقراً إلى مايقاه ،
ولكان مركباً من أجزاء ومحتاجاً إلى أجزائه . وإلى من يركب تلك الأجزاء
يضع كلاً منها في مكانه الذي هو فيه وإلى من يخصصه بطوله وعرضه
وسمكه ، فإنه كان يجوز عقلاً أن يزيد عن ذلك المقدار أو ينقص عنه ، وكان
يجوز أن تكون أجزاؤه في غير أماكنها الخاصة بها ، فإذا لا بد له من
مخصص يخصصه بذلك كنه ، والمفتقر إلى غيره محال أن يكون إلهاً

ثم نقول من وجه آخر : إن هذا الجسم لا بد أن يكون أقل من
العرش أو زائداً عليه أو مساوياً له ، ونقول لا بد أن يكون قابلاً
للانحلال ، لأن كل مركب يقبل الانحلال إلى أجزائه ، ولو فرضنا
أنه في غاية الصلابة والمتانة لكان هناك من الآلات القوية التي وجدت
أو التي يجوز أن توجد ما يمكن أن يزيل كيانه ويعدم شخصه ويرحمه
إلى أجزائه الأولى

ثم نقول أيضاً كونه في السماء يقتضي كون السماء ظرفاً له ، فيكون
أصغر من السماء والسماء أصغر من العرش بكثير ، فيلزم أن يكون الله
تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -
قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)^(١) ، فبعض
المسك لها وليست بمسكة له

أفلا يكون ذلك كله قرينة على صرف بعض الآيات عن ظاهرها
وجعلها كناية عن شيء آخر يليق بعظمة الله تعالى وجلاله مع أن
صرف اللفظ عن مظاهره والذهاب به مذهب المجاز أو الكناية يكفي فيه
آية قرينة من القرائن التي يستبعد معها إرادة المعنى الحقيقي - ولو من
طريق العادة - فما بالك بالبراهين العقلية التي تزول منها الجبال

وليت شعري ! أيجعله على عرشه بمقتضى قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) ، أم في سمائه بمقتضى قوله تعالى (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ) ^(٢) وآية سماء هي ، أم في أرضه بمقتضى قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ) ^(٣) أم في بيوتنا ومجالسنا بمقتضى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) ^(٤) ، أم تحت الأرض بمقتضى ما رواه الترمذى من قوله صلى الله عليه وسلم « لو دلى أحدكم بجبل في بئر لوقع على الله » أو كما ورد ، نعوذ بالله من قصور الفهم تسلط الوهم

وماذا يصعب في حديث النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة وقت السحر إذا أخذ بظاهر قوله تعالى (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ) ولعله يقول إنه في غير سماء الدنيا ، إلى آخر ما عليه الخيال أو يقتضيه الخيال ، وما أدري لماذا يتسكك بهذه ولا يتمسك بقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ^(٥)

وإذا كانت الروح من أمر الله ولسنا نعرفها وهي أقرب الأشياء إلينا ، ولا ينبغي أن نخوض فيها مع هذا الجهل ، وقد تباينت آراء العلماء فيها قديماً وحديثاً ، حتى ذهب الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالي والحلي وغيرهما إلى أنها من الجواهر المجردة التي لا تحتاج إلى حيز ولا مكان ، فكيف من هو رب الملائكة والروح

(٢) سورة الملك ، الآية ١٦

(٤) سورة الحديد ، الآية ٤ .

(١) سورة طه ، الآية ٥

(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٥) سورة الثورى ، الآية ١١

ولكن هناك نفوس غليظة لا يمكنها أن تعرف إلا الأجسام وأحكام
الأجسام ، وليس في استطاعتها أن تدرك ما ليس جسماً ولا جسمانياً
ولو كلفنا الدودة الصغيرة أن تعرف حقيقة الإنسان وأحواله لكان
ذلك تكليفاً بالمحال ، وما بيننا وبين الله تعالى أبعد مما بين الإنسان
وتلك الدودة الحقيرة بما لا يستطيع تقديره ، فإنها تشترك معنا في
جنس الحيوان ،

وقد قلنا إن العوالم أنفسها تختلف أحكامها اختلافاً لا يحيط به
العد ، فمن الغلط البين أن تحكمم بأحكام عالم على عالم آخر فما
بالك ممن تعالى عن سمات المخلوقات ، وتنزه عن أن يدخل تحت نوع
أو جنس ، كيف يتطاع العقل الضئيل والبصر الكليل والعلم القليل أن
يعرف ذاته أو يحيط بما له من صفات وأحكام

ولئن أبى بعض الناس أن يعبدوا إلهاً لا يعرفون كنهه ، ولا يقفون
على حقيقة صفاته ، فإنى والله أبى كل الإباء أن أعبد إلهاً يصل عقلى
إلى كنهه المحدود وصفاته التى تشبه صفاتى

وأصرح بمسمع من الخافقين أنى لا أعبد إلهاً يمكن أن أدركه بعقلى
أو ألمسه بيدي أو أمسه برجلي أو أمزقه مدفعى الخ الخ

ولماذا لا يقلد أولئك المتفهبون « المدعون لاتباع مذهب السلف
الذى يجهلونه ولا يعرفونه » أئمة الهدى وجماهير العلماء ، إن لم يسهل
عليهم فهم الأدلة العتلية والبراهين المنطقية وهؤلاء الهداة ، والله خير
ممن قلدوهم وأكبر وأكثر ، فلينظروا لأنفسهم وليحتاطوا لدينهم

وقد قلنا ذلك نصيحة لله ورسوله والمسلمين ، والدين النصيحة
وما اشتدنا إلا لله ، وفي سبيل الله ما نلاق من أولئك الجامدين الذين
نحب لهم ما نحب لأنفسنا كما أمرنا الله ورسوله

وقد كان الإمام الشافعي -رضي الله عنه- يقول : « آمنت بما جاء
عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله »^١

أسأل الله أن يقينا شر الفتنة وأن يجعلنا من أهل البصيرة في
الدين ، الذين يؤمنون بالمحكم ويردون إليه المتشابه ، لامن الذين يتبعون
ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله §

بجلى أن العلماء قد بينوا المراد من تلك الآيات^٢ ، فقالوا المراد أن
في السماء سلطانه وأمره وقدرته ، والمقصود من ذكر السماء تفخيم
سلطانه وتعظيم قدرته ، وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ ﴾^(١) ومحال أن يكون في السموات وفي الأرض فالقصد أنه
متصرف في السموات والأرض تصرف المتمكن فيهما فما توجه
الظرفية لمن هي له من إتقان العمل وإحكام التدبير وسهولة التصرف
وعدم غيبة شيء عنه ثابت له تعالى بأنم معانيه في السموات والأرض

فلا يتصور في حقه تعالى بعد ولا قرب ولا غيبة وحضور على نحر
ما نعرفه فإن ذلك لا يتصور إلا بالجسمانيات ، وأما هو فالأشياء كلها
سواء بالنسبة إليه ، فلوازم القرب والحضور ثابتة له^٣ ، كما أن لوازم

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣

البعد والغيبة منتفية عنه ، فليس قربه من جنس قربنا ولا معيته كمعيتنا ، وكما أن ذاته ليست من جنس ذاتنا وصفاته ليست من جنس صفاتنا ، فكذلك يجب التباين بين قربنا وقربه كما وجب التباين بين ذاتنا وذاته

فبالخلاصة أن المراد من كونه في السموات والأرض نفاذ أمره وقدرته وجريان مشيئته ، كذلك قوله تعالى (ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ) . والمراد مزيد التخويف والتهويل فهو من وادى قوله تعالى (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمُ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ)^(١) في الآية سجاز بالحذف أو مجاز في الإسناد ، والقرينة على ذلك هي أكبر قرينة رآها الرائيون واستند إليها المستعملون : وهي الاستحالة العقلية التي قام عليها البرهان القاطع والدليل الساطع

أما قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فهو كناية عن تمام الملك وعظمة السلطان ، كما نقول لمن تم له الأمر إنه جلس على عرش المملكة لا تريد حقيقة الجلوس وإنما تجعله كناية عن استتباب لأمر وتمام الملك

وهناك أجوبة كثيرة أعرضنا عنها مخافة التطويل والإملال وبعد هذا كله فلمست أفهم قوله إن الله في السماء فقط مع ذكر قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فاستلفت نظرك إلى ذلك . وليعلم أولئك الجاهلون أن مذهب السلف التنزيه وعدم الخوض في بيان المعنى ، فالفرق بينهم وبين الخلف أن الخلف يعينون المعنى المراد

فيفسرون اليد في مثل قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ^(١) بالقدرة ،
أو يقولون إنه من الكنايات التي تتراد لوازمها لاحقاتها ، أما السلف
فلا يخوضون في شيء من ذلك ولا يبينون المعنى المراد على التعمين ،
ولكن يجب على القارىء أن يعلم أنهم ينزهون الله عز وجل عما تقتضيه
تلك الظواهر أو يتبادر من تلك الآيات ، أما هؤلاء الذين زعموا أنهم
مقلدون لهم فمشبهون لا منزهون ، فأين هم من السلف ؟

أيها المدعى سليمى سفاهاً لست منها ولا قلامه ظفر

ولنقتصر على هذا . والله يتولى هدى الجميع .

الحسد والرقيّة من

الحسد ثابت في القرآن والسنة وقد قال ابن عباس ومحمد ابن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم في قوله تعالى (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)^(١) إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيوبهم .

وبالجملة فالمنسرون المتقدمون مطبقون في تفسير الآية على هذا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعوذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فيقول : « أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » ويقول « هَكَذَا كَانَ يُعوذُ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »

وقد روى أن عبادة بن الصامت قال « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيتته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرأيتته معافى ، فقال : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَرَقَانِي فَقَالَ « بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ ، وَمِنْ كُلِّ لَعِينٍ وَخَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ »

(١) سورة يوسف الآية ٦٧

ويروى أن بى جعفر بن أبى طالب كانوا إغلماناً بيضاً فنالت
أهمهم يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترق لهم من العين ؟
قال (نعم)

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم « الْعَيْنُ حَقٌّ . وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ
يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَمَبَقَّتْهُ الْعَيْنُ » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن
أن يتوضأ ثم يغتسل من وضوئه المعين الذى أصيب بالعين

وأما الذين أنكروه كآبى على الجبائى وهو رأس من رؤوس المعتزلة ،
فليس معهم شبهة فضلاً عن حجة والتحقيق في ذلك أن الجسد
تأثير روحى . وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات
الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك ولا يمتري
في ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الجسمانيات ونواميس الماديات ،
فقد يكون التأثير نفسانياً محضاً ولا يكون للجسمانية دخل فيه
وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس وليس يخفى عليه أن
الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له حصل في قلبه غضب فيسخن
مزاجه جداً فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى ،
ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية فما المانع
إذا من كون بعض النفوس تؤثر في غيرها والتجارب من الزمن القديم
تشهد لذلك وينطق به ؟ وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما
سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأحدث بعض الأذى في بدنه -

لا في عقله ونفسه - عندما جرى له بتلك العقد التي عقدها لبيد المذكور - كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نشط من عقال

وروى الترمذى عن ابن أبي خزيمة عن أبيه قال « سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقى بها ، ودواءً نتداوى به ، وتقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال « هي من قدر الله » قال الترمذى : هذا حديث حسن

الرقى والتعاويذ فقد اتفق الإجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة في الحديث ويدل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبي - صلى الله عليه وسلم - كما قلنا. وعن عوف ابن مالك - رضى الله عنه - قال « كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال « اعرضوا على رفاقكم » ، ثم قال « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » رواه مسلم وأبو داود . وعن - جابر رضى الله عنه - قال : « لدغت رجلاً منا عقرب ونحن مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » وعن أنس رضى الله عنه قال « رخص لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الرقية من العين والحمة ^(١) والنملة ^(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى

(١) الحمة تعقرب

(٢) نملة قروح في الخشب فكانت نساء العرب بتلك الكلمات مرات

وقد رقى أبو سعيد سيد الحى الذى نزلوا به بفاتحة الكتاب ثم أخبروا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ ؟ » إلى آخر ما جاء فى الحديث وهو صحيح لا مطعن فيه ولا بأس أن نذكر لك ، من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقرأها - صلى الله عليه وسلم - ولم يبه عنها : « العروس تحتفل وتكتمحل ، وكل شىء تفتعل . غير ألا تعصى الرجل » .

وأما من أنكروا الحسد وتأثير النفوس من الفرق الضالة فمردود عليه ولا يلتفت ليه وأن من لعلم ما يكون وبالأعلى صاحبه ، فإنه يفتح له باب التأويل فيضل ضالاً بعيداً وإنما الهدى هدى الله

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد إليه والتفات نفسه له على وجه الغضب ، نفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شراً قد يصل إلى حد الإهلاك ، ورب حاسد يؤذى بنظرة

أسأل الله أن يقينا شر الشريرين ، ويجعلنا من الراضين الموفقين عنه وكرمه .

الاشتراك في الكتب

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ما قول فضيلتكم في الكتب التي ندفع اشتراكاتها قبل أن تطبع
وننتظرها إلى تمام الطبع . فإن بعضهم يقول إنه حرام فنرجو إبداء
رأيكم في هذا الموضوع على صفحات مجلة الأزهر أبقاكم الله ذخراً
للإسلام والمسلمين ممنه وكرمه

ابراهيم سيد نصار

جزيرة النجدي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

أما بعد فقد وصل إلى خطابك ، وأكتب هذا من غير بحث
ولا مراجعة ، مماثلة لنفسى بأن الاشتراك في الكتب التي تطبع لأشياء
فيه ، فإنه داخل في بيع الموصوف المعروف ولو إجمالاً ومدة الطبع
تكاد تكون معلومة بالعرف والعادة ودين الله يسر وليس هناك
مفسدة تترتب على مثل هذا فروح الشريعة لا تأباه ما دام خالياً من
الضرر والأذية في غالب الأحوال ويكفي غلبة الظن وهذا هو الأليق
بالشريعة السمحة

وهذا ما حضرني في الوقت والسلام عليكم ورحمة الله

تَعْلَمُ السَّحْرَ وَحُكْمَهُ

جاءنا من أحد طلبة المعهد الأحمدي هذا السؤال

هل تعلم السحر جائز أم حرام^(١) لأن عندنا بعض المنتسبين إلى العلم يفتى به عوازه . بحجة أنه يخلص الناس مما يقعون فيه من الأضرار ولا يضر أحداً . وحقته القوية فيما يزعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « تعلموا السحر ولا تعملوا به » إلى أن قال وأخيراً أجمعنا على استفتاء فضلائكم في هذا المبحث الخطير ونشره بمجلة الأزهر التي هي مجلتنا الزهراء في أقرب عدد ممكن لازلتم محفوفين بعناية الله ورعايته ، والسلام

ابراهيم محمد حسين

معيد الأحمدي

الجواب

الفاصل في ذلك كله هو الحديث الشريف الذي هو القاعدة لعظمى في كل شيء . هو قوله صلى الله عليه وسلم **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ** وَإِنَّمَا لِكُلِّ إِعْرَى مَا نَوَى » وَأَمَّا قَوْلُهُ « تَعْلَمُ السَّحْرَ وَلَا تَعْمَلُ بِهِ » فَلَيْسَ بِحَدِيثِ أَلَيْتِهِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنَعَ تَعْلَمُ السَّحْرَ مُطْلَقًا وَيُرَى قَتْلَ السَّاحِرِ . إِنْ نُمِ يَقْتُلُ أَحَدًا بِسَحْرِهِ وَلَكِنْ الصَّحِيحُ الَّذِي يُوْجِبُهُ الْبِرْهَانُ وَيَطْمَئِنُّ لَهُ الْوُجْدَانُ وَتَشْهَدُ لَهُ أَصُولُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْأُمُورَ

(١) هذه عبارته وان كانت (هل) لا يؤثر لها إلا على ضحيين لأنها تطلب التصديق لا التصور كما هو مقرر في محله

بمقاصدها والأعمال بآثارها وإن كان اللازم أن يحتاط الإنسان لنفسه ولا يأمنها ، وأن يراقب هواها في الدقيق والجليل « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » « ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون »

ولنتل عليك ماقاله العلماء في ذلك الموضوع . وما وقع . بينهم من الخلاف في ذلك فنقول اختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبي حنيفة من قال إن تعلمه ليبقيه أو ليجتنبه . فلا يكفر . ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا إن اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر وقال الشافعي رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك . فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل مايلتمس منها فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد اباحته فهو كافر قال ابن هبيرة وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد نعم وقال الشافعي وأبو حنيفة لا فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين وإذا قتل فإنه يقتل حدا عندهم إلا عند الشافعي فإنه قال يقتل والحالة هذه قصاصاً قال وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل ولنكتف بهذا القدر سائلين الله التوفيق والتسديد والسلام

فهرست

المجلد الأول (الجزء الأول والثانى)

من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف الدجوى

صفحة	الموضوع
١	تقديم لفضيلة الدكتور أمين عام المجمع
٣	الشيخ يوسف الدجوى لفضيلة الشيخ / محمد زاهد الكوثرى
٨	كلمة مجلة الأزهر عن الشيخ يوسف الدجوى

الجزء الأول

الالهيات

١٣	الايمان بالله - علم الطبيعة برىء مما نسبوه اليه
٣٠	الايمان بالله ومناقشة الطبيعيين
٤٣	الدين ضرورى للعرمان
٥٧	سوانح ومقتبسات
٦٧	الدين ضرورى للعرمان الفرقاً بين المؤمن وغيره
٧١	سوانح ومقتبسات ..
٨١	في وحدة الخالق ..
٩٣	البعث ..
١٠٨	حرية الانسان تكليفه - القضاء والقدر
١٢٣	كلمة نثر محبة الله في القلوب المستعرة
١٣٤	التوسل (١)
١٤٨	التوسل (٢)
١٦٠	التوسل والاستغاثة (٣)

١٦٩	تعليق على بعض ما جاء في مقال الأستاذ الشيخ الجبالي
١٧٠	التوسل والاستغاثة (٤)
١٨٣	تنزيه الله على المكان والجهة (١)
١٩٥	رحم الله امرءا عرف قدره
٢٠١	تنزيه الله عن المكان والجهة (٢)
٢١٢	العالم الذى يوه الدين بذكره
٢٢٢	أين مقر الأرواح بعد الموت ؟
٢٣٥	حديث (كل مولود يولد يولد على الفطرة)
٢٤٨	توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية (١)
٢٥٧	توحيد الأنوهمية وتوحيد الربوبية (٢)
٢٧٣	الحكم على المسلمين بالكفر
٢٩١	طريقة عمليه تقضى على عمل المبشرين
٢٩٦	الدين والعلم
٣٠١	تعليقات وحقائق
٣١١	غاطة دينية خطيرة
٣١٤	ما السر في ان الانسان يدعو فلا يستجاب له ؟
٣٢٥	تنزيه الله عن المكان والجهة (٣)
٣٣٥	كلمة للشيخ الفزالي وأخرى للشيخ محمد عبده
٣٣٨	حياة الأرواح وادراكها بعد الموت
٣٤٧	التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح
٣٥١	أفعال العباد
٣٦٩	الشرك وعقوبته الأخروية ...
٣٩٢	سوانح ونصائح

صفحة	الموضوع
٣٩٦	سوانج ومقتبسات
٤٠٢	كلمة مع مقدمى النواميس الطبيعية
٤٠٦	رد على مبشر
٤١٢	محبة الله عز وجل
٤٢٤	حاجة الانسان الى الشريعة
٤٣١	ان نم ترضوا بحكم الشريعة فتعالوا نتحاكم الى العقل
٤٤٠	الفرق بين الانسان المادى والانسان الروحانى
٤٤٣	التوحيد
٤٥٢	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (١)
٤٦١	حدث جالى لا يمكن الصبر عليه (٢)
٤٦٨	حدث جالى لا يمكن الصبر عليه (٣)
٤٧٥	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (٤)
٤٨٢	التوسل (١)
٤٨٧	التوسل (٢)
٤٩١	الغيرة على الدين
٤٩٦	التفكر أس السعادة
٥٠٠	ادلة انقرآن وادلة العلماء على وجود الله

الجزء الثانى

النبوات

٥٠٩	نبوته - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته الحسية
٥٢٤	المعراج
٥٢٧	كرامات الأولياء
٥٣٨	ذكر قصص الانبياء فى القرآن (١)

صفحة	الموضوع
٥٥٠	ذكر قصص الانبياء في القرآن (٢)
٥٦٢	حياة الانبياء
٥٧٠	هل تأكل الأرض اجساد الانبياء ؟
٥٨٥	شق صدره صلى الله عليه وسلم
٥٩٥	قصة يوسف عليه السلام ...
٦٠٦	الاسراء والمعراج
٦٢١	الفيلسوف والنبى
٦٣٦	بعض معجزاته عابه الصلاة والسلام
٦٤٢	مناسبة الاسراء والمعراج ...
٦٤٦	عظمته صلى الله عليه وسلم ووجوب محبته (١)
٦٥١	عظمته صلى الله عليه وسلم وشيء من سيرته (٢)
٦٧٤	عظمته صلى الله عليه وسلم (٣)
٦٧٩	حياة الانبياء في قبورهم
٦٨٤	هجرته صلى الله عليه وسلم
٦٩٠	كرامات الاولياء
٦٩٤	حكم الصلاة التيممية
٦٩٧	كأمة عن النبي صلى الله عليه وسلم
٧٠١	نبوته - صلى الله عليه وسلم (١)
٧٢١	نبوته - صلى الله عليه وسلم (٢)

فهرست
المجلد الثاني (الجزء الثالث والرابع)
من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف النجوى

صفحة

الموضوع

الجزء الثالث

التفسير

١	ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
١٦	« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »
٢٨	هل السموات هي الكواكب ؟
٣٥	شبهة ملحد
٤٥	حقائق وتعليقات
٥٤	الى شيخ الدعاوى وصاحب الحديث عن نفسه
٦٣	حديث الفرائق
٧٠	ان الله لا يستحيى من الحق
٧٦	تعالوا نتحاكم الى العقل والمنطق
٨٧	تفسير قوله تعالى « ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين »
١٠٤	خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار
١١٤	في ترجمة معاني القرآن
١٢٠	سورة الأعلى (١)
١٣٠	سورة الأعلى (٢)
١٤٠	سورة الأعلى (٣)
١٧٥	سورة العصر
١٨٢	تفسير سورة العصر
١٩٥	سورة الاخلاص (١)
٢٢٥	سورة الاخلاص (٢)
٢٨٦	تفسير سورة « الشمس »
٣٤٠	تفسير سورة الانشراح
٣٤٤	تفسير سورة الزلزلة
٣٤٨	تفسير سورة العاديات
٣٥٢	تفسير سورة القارعة
٣٥	تفسير سورة التكاثر
٣٦	تفسير سورة الهمزة
٣٧٤	تفسير سورة قريش
٣٧٣	تفسير سورة المساعون
٣٧	شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
٣٨٢	تفسير سورة الكوثر
	تفسير سورة الكافرون

الجزء الرابع
الفتاوى

٣٨٩	تعليق القرآن
٣٩٣	حكم شرب الدخان في مجالس القرآن
٢٩٧	حكم شرب الدخان في المسجد
٣٩٩	حديث لا يبيع حاضر لباد
٤٠٢	الصلاة على النبي بعد المغرب
٤٠٤	الرضاع
٤٠٦	النشوة في رمضان - الزنا
٤٠٨	الصلاة خلف المخالف
٤٠٩	الايمان غير المعتبر
٤١٠	الكراء
٤١٣	القراءة على الأموات
٤٢٢	حكم نرجمة الحطبة
٤٢٥	يربوعه منبوع النبع
٤٢٨	حكم الانتفاع برهون
٤٣٣	الصلاة على الرسول (ص) بعد الأذان
٤٤١	عند الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه
٤٤٧	صاحب المنار وانسلاة على الرسول (ص) بعد الأذان
٤٦٨	سلاة جار المسجد في بيته مع زوجته
٤٦٩	العقيقة - سر الختان ...
٤٧٤	فضل الصلاة وبيان أسرارها
٤٨٥	مسائل تتعلق بصلاة الجمعة
٤٨٨	ثبوت شهر رمضان « بواسطة التلغراف ونحوه »
٤٩٣	مسئلة تتعلق بالبيع والدين والربا
٤٩٥	سنة الجمعة القبلية
٥٠٣	وقوع الذباب في الطعام والحديث الوارد في ذلك
٥١٦	حكم شراء السماد وغيره من البنك بفوائد معلومة
٥١٠	الصلاة والصيام السفر
٥٢٢	مسئلة الآن وجوابه
٥٢٤	حول القصور
٥٢٧	قاطعات قل من نبيه لها
٥٣١	الخلق الكامل
٥٣٥	الجمعة بين البنت وأمرأة أبها في عصمة رجل واحد
٥٣٦	الحسد وتأثيره في المحمود
٥٤١	خروج النساء البيوت
٥٤٧	الجمعة لغية المستوطنين
٥٤٨	سنة المسح من التبرة

صفحة

الموضوع

- ٥٤٩ متى تجب الزكاة في التقدين والحب
٥٥٠ البيع نقدا وباجل
٥٥٢ الحنف بآيسان المسلمين
٥٥٤ حكم اكل الفسيخ
٥٥٦ البيع بالزيادة الفحشة
٥٥٨ بدع الذكر
٥٦٥ سر تعدد الزوجات
٥٧٣ جواز التقليد والرد على من يحرمه
٥٨٢ كلمة خنامية
٥٨٩ الحريم
٥٩٤ فضل الصلاة وبيان اسرارها
٥٩٨ المحبة وانواعها وبعض آثارها الجليلة
٦٠٢ أسباب المحبة
٦١١ المحبة وانواعها
٦١٣ محبة الأصدقاء
٦١٦ محبة الوطن
٦١٩ محبة الله عز وجل
٦٢٤ حكم الصرف من أموال الزكاة على المستشفيات ونحوها
٦٣٠ حكم صلاة الجمعة في البيوت وفي المساجد المتعددة
٦٣٢ الرحمة
٦٤٢ مسألة في القراض
٢٤٨ الشجاعة
٦٥٩ معاملة التجار وما فيها من الربا
٦٦٥ حكم تشريح الميت في الشريعة الإسلامية
٦٦٧ ماذا يراد بولد الصلب في عبارة الواقفين ؟
٦٧١ تشريح الأموات
٦٨٩ رؤية انهلال عند الغروب وبعد الفجر
٧٠٢ أسرار الصلاة ذكر المقصود منها
٧١٠ كيف تكتسب الاخلاق الفاضلة ؟
٧١٤ أسئلة متنوعة
٧٢٠ أسئلة متنوعة
٧٢٢ ثبوت رمضان بالرأديو
٧٢٧ مسألة في الطلاق
٧٣٠ مسألة في الطلاق
٧٣٢ حل يقع الطلاق في الحيض ؟
٧٤٠ مسألة في الوصية
٧٤٤ الدين أنفع لل عمران من كل القوانين
٧٥٥ هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر ؟
٧٦٣ الدين أنفع لل عمران من كل القوانين

صفحة	الموضوع
٧٧٢	الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية
٧٧٩	الكلمة الختامية
٧٨٢	للشجاعة
٧٨٦	دين الاسلام كليل بمصالح الدنيا والآخرة
٧٩٨	سفور النساء
٨٠٢	سر تعدد الزوجات في الاسلام
٨٠٧	سر تعدد الزوجات في الاسلام
٨١٤	حكم جليلة
٨٢١	فتنة
٨٢٩	الحسد والرقية منه
٨٣٣	الاشترك في اكتب
٨٣٤	تعلم السحر وحكمه

طبع بمهمة العامة للشؤون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
محاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٩ / ١٩٨١